الجزء الأول

السيرة النبوية

منهاج حياة

رؤية تربوية للعهد المكي

تأليف
أسامة عبد العظيم

السيرة النبوية
منهاج حياة

أسامة عبد العظيم

السيرة النبوية
أسامة عبد العظيم
الطبعة الأولى ، ٢٠١٠م

دار اكتب للنشر والتوزيع
القاهرة ، ١٠ش عبد الهادي الطحان ، المرج
ت :٠١١٠٦٢٢١٠٣
E – mail : dar_oktob@gawab.com
المدير العام :
يحيى هاشم
تصميم الغلاف :
عبد الرحمن حافظ
تدقيق لغوي :
سارة سرحان
رقم الإيداع : ٢٠١٠/١٤٤٦٢
I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٦٢٩٧- ٠٣٠- ٨

السيرة النبوية

منهاج حياة

أسامة عبد العظيم

الطبعة الأولى

٢٠١٠

OKTOB.NET

دار اكتب للنشر والتوزيع

مقدمة

الحمد لله المستحق لكل حمد، المنزه عن كل شبيه وضد [لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ](١) وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أول بلا ابتداء، وآخر بلا انتهاء [هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ] (٢) وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله، اصطفاه الله برسالته وبكلامه، وجعل بعثه منّة منه على عباده [لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ] (٣) ابتعثه الله ليكون للعالمين نذيرا [قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا للهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ](٤) وتجلت حكمة العزيز الحكيم أن تكون هداية البشر إلى الصراط المستقيم على يد نبي أمي، جاء بالحق المبين والهدي القويم [هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ](٥) أيده ربه بمعجزة تحدى بها جمهور الإنس والجن جميعا [قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا] (٦) وأظهره على من عانده وكذبه، وفضّله على جميع خلقه، فكان أشرف الخلق وخاتم الرُسل.

أما بعد

على مدى أربعة عشر قرنا من الزمان، كانت فيها سيرة رسول الإسلام نبراسا يضيء طريق السالكين على خطى الحبيب، شعاعا يهدي الحيارى في ظلمات الحياة، ينتشل العقول الضالة في بحور الماديات، يهدي القلوب الحائرة بعدما أغرقتها الشهوات، يردُ للنفوس رشدها، وللعقول وعيها، وللقلوب سلامة فطرتها، سراجا ينير طريق المهتدين، وهاديا يقود الضالين، وواحة يقتبس المؤمنون من نورها أسمى صور التأسي والاقتداء، يبنون بالإحساس والوجدان خيوطا تربط بين الماضي والحاضر؛ لتجسد سيرة رسول الله ﷺ في تصرفاتهم وفي أمور معيشتهم.

---

(١){الشورى:١١} (٢){الحديد:٣} (٣){آل عمران:١٦٤}
(٤){سبأ:٤٦} (٥){الجمعة:٢} (٦){الإسراء:٨٨}

إن سيرة رسول الإسلام ﷺ لم تكن يوما بالنسبة للمسلمين كسيرة غيره من الأنبياء والمرسلين الذين طالت يد الافتراء والأكاذيب سيرهم العطرة، ونالت من أعراضهم، وقدحت في أمانتهم وإخلاصهم، ولا هي بسيرة قائد فذ فاق بحسن قيادته كل بني جلدته، أو عبقري من عباقرة التاريخ تتفنن الأقلام في تمجيد أعماله، أو مُصلح اجتماعي قد استطاع أن يبني مجتمعا من عدم، أو أن يضفي عليه بعض ملامح التغيير، أو أسطورةَ فارس أو زعيم قد شابتها الخرافات والأكاذيب، أو تجربة مرب قد خرجّت جيلا فريدا في تربيته .....

إنها لم تكن يوما كذلك، وإنما هي سيرة نبي متصل بخبر السماء، بلغ منتهى الكمال البشري الذي عجز الكثير عن استيعاب معانيه، فاعتبره نتاجا بشريا، واعتبر رسالته تجربة إنسانية، فوقفت عقولهم عند هذه المعاني، وتفننوا في وصفه كل كما يروق له، فجاء مَن وصفه بأنه بطل، وبأنه عبقري، وبأنه سياسي ومشرع عظيم، وبأنه مفاوض بارع ومقاتل شجاع، وتناسوا جميعا أنه نبي مرسل، قد بلغ من كل الأخلاق والصفات منتهاها، حتى بلغ ذروة الكمال البشري، فما قورن بغيره إلا ورجحت كفته، بل إن وضعه ﷺ في كفه الميزان ضرب من اللغو والعبث، فلئن وُزن بأمة لرجح بها، فذات يوم سأله أبو ذرٌ الغِفاريّ ﷺ فقال: يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ كَيْفَ عَلِمْتَ أَنَّكَ نَبِيٌّ حَتَّى اسْتَيْقَنْتَ ؟

فقال« يَا أَبَا ذَرٌ أَتَانِي مَلَكَانِ وَأَنَا بِبَعْضِ بَطْحَاءِ مَكَّةَ، فَوَقَعَ أَحَدُهُمَا إِلَى الأَرْضِ وَكَانَ الآخَرُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: أَهُوَ هُوَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَزِنْهُ بِرَجُلٍ. فَوُزِنْتُ بِهِ فَوَزَنْتُهُ، ثُمَّ قَالَ: زِنْهُ بِعَشَرَةٍ. فَوُزِنْتُ بِهِمْ فَرَجَحْتُهُمْ، ثُمَّ قَالَ: زِنْهُ بِمِائَةٍ فَوُزِنْتُ بِهِمْ فَرَجَحْتُهُمْ، ثُمَّ قَالَ: زِنْهُ بِأَلْفٍ فَوُزِنْتُ بِهِمْ فَرَجَحْتُهُمْ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَنْتَثِرُونَ عَلَيَّ مِنْ خِفَّةِ الْمِيزَانِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: لَوْ وَزَنْتَهُ بِأُمَّتِهِ لَرَجَحَهَا »(١)

فالنبي ﷺ فوق أي عبقري، وأجَل من كل زعيم، وأعظم من كل مصلح، جمع من صفات كل هؤلاء أفضلها وأعدلها وتميز عنهم بوحي السماء الذي لا يُدرك ولا ينال بعبقرية أو فكر أو إلهام، وها هو حسان بن ثابت ﷺ قد جمع أسمى صور الثناء، وأبلغ آيات الوصف في مدحه ﷺ، فقال

وَأحسَنُ مِنكَ لَم تَرَ قَطُّ عَيني ... وَأَجمَلُ مِنكَ لَم تَلِدِ النِساءُ
خُلِقتَ مُبَرَّءً مِن كُلِّ عَيبٍ ... كَأَنَّكَ قَد خُلِقتَ كَما تَشاءُ

---

(١)سنن الدارمي ١٤ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٦٩/٦ حديث ٢٥٢٩

نعم إنه محمد، النبي الخاتم والرسول القدوة، نموذج فوق المثيل من البشر، جمع أرقى ما تكون عليه صلة رسول بربه، وأروع ما تكون علاقة قائد بشعبه، لم يدّع يوما لنفسه مجدا شخصيا، لم ينسب يوما لنفسه نصرا، لم يزه بنفسه أو يغتر، لم يغضب يوما لنفسه، ولم يطلب مالا أو سلطانا، قنع بالقليل وشكر، وابتلي فصبر، حمل على عاتقه عبء البشرية كلها، جاء بخير الدارين لمن آمن به وصدّقه، كان بعثه رحمة للعالمين، المؤمن والكافر، والبار والفاجر، والتقي والشقي كل على السواء[وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ](١) جدّد رباط الأرض بالسماء، ونسج خيوطا تصل المخلوق بالخالق من غير تكلف أو وساطة من أحد، جاء بأوامر محددة، فبلغها كما أمر، من غير زيادة أو نقصان، واقتصر دوره عند البلاغ عن رب العالمين، قال تعالى [فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ](٢) وقال [إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ](٣) وقال [وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ](٤) اصطفاه الله من بين البشر كافة، وخصه برسالته وبكلامه، وبالغ في تكريمه، ففضّله على سائر الخلق، ورغم هذه المكانة العالية، وهذه الدرجة الرفيعة، فقد أوذي في الله أشد الإيذاء، وتحمل من صور العذاب ألوانا، فقد أوذي وكُذب، وطرد وعُذب، وحوصر واتُهم بالسفه والجنون والسحر والكهانة، ولسان حاله يقول (رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي، فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ)(٥) ولما منّ الله عليه بالتمكين، أخذ يتذكر أفعال قومه به، فقال ﷺ « لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلاَثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلاَلٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلاَّ شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلاَلٍ »(٦)

نعم، فالله لم يبعث رسله ليدللهم على الخلق، وإنما ليجاهدوا من أجل تبليغ رسالته، ويتحملوا من أجلها الويلات، ويواجهوا الصعاب حتى ينالوا بغيتهم، وهم في كل مقام تكلؤهم وتشرف على خطاهم العناية الإلهية [وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ](٧) وتأتي العاقبة دائما لرسل الله ومَن آمن بهم وأيدهم ونصرهم [تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ](٨) فإنما هي سنن ربانية باقية [سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا] (٩)

---

(١){الأنبياء:١٠٧} (٢){النحل:٨٢} (٣){فاطر:٢٣}

(٤){الرعد:٤٠} (٥)البخاري ٦٩٢٩

(٦)سنن الترمذي ٢٦٦٠وحسنه، ومسند أحمد ١٢٥٤١ وصححه الألباني في جامع الترمذي حديث٢٤٧٢

(٧){الصّافات:١٧٣} (٨){القصص:٨٣} (٩){الأحزاب:٦٢}

الباعث وراء الكتاب

منذ بضعة أعوام واجهنا الإعلام الغربي بوجهه الكئيب، وحريته الزائفة، حينما اتخذ من مقدساتنا الإسلامية وسيلة تهكم وسخرية، فطالعتنا الصحف الغربية التي تدّعي أنها حمائم السلام التي أخذت على عاتقها نشر الحريات والدفاع عنها، فارتدت من أجلها مسوح الرهبان، فإذ بالحرية التي يدعون إليها لا تعترف بقيم ولا مقدسات، فخرجت علينا برسومها المسيئة للنبي ﷺ، وكالعادة انتفضت الأمة من سباتها الطويل انتفاضة عابرة لم تتجاوز - في كثير من الأحيان - مستوى الشجب والاستنكار، وكأن هذا الجسد العليل لا يقوى عن الذود عما يؤمن به، ففي حينها جلست أرقب هذا المشهد الكئيب، حينما وقفت أمة المليار عاجزة - بكل ما تحمل الكلمة من معان - عن الانتصاف لرسولها الكريم ﷺ، أخذت أرقب هذه الصحوة العابرة، التي ومضت في سماء الأمة كالبرق الذي يكسر حدّة ظلام الليل لثوانٍ قليلة، وسرعان ما يختفي ومضيه، ويعود الليل بظلمته، وهكذا عادت الأمة بعد صحوتها العابرة لكبوتها وسباتها أخذت أرقب صيحات الدعاة والعلماء الذين نالت هذه المحنة من قلوبهم كل منال، وهم يشاهدون أمة المليار عاجزة عن الذود عن نبيها الذي تؤمن به، فيا لله كم لها من مرارة حينما يقف هذا الجمع الغفير - بكل ما يملك من مقومات الرد - عاجزا عن رد شرذمة تجاوزت أستار الحرية؛ لتقف ساخرة مستهزئة بما بقي في نفوسنا من معتقدات وقيم، وقد وهننا الذل، فعجزت ألسننا عن الدفاع عن رسول الله ﷺ.

وإذا كان الإعياء قد أصاب جسد الأمة فإن علماءها - بمختلف ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم - يوما لم يعتادوا الشجب والاستنكار، فبدأوا حملة لنصرة النبي ﷺ في محاولة جادة لإيقاظ قلوب أبناء الأمة، ربث الأمل فيها من جديد كي تنهض للدفاع عن نبيها الذي تؤمن به، فماذا بقي بعد أن تُدنّس المقدسات كي ندافع عنه؟ كي تتكاتف من أجله الجهود؟ كي تتوحد من أجله أهداف الأمة كلها حكاما ومحكومين؟

فأخذت دعواتهم من نفسي كل مأخذ، فجلست أفكر في وسيلة أنصر بها رسول الله ﷺ تتجاوز الشجب والاستنكار، بل وتتجاوز هذه الصحوة العابرة التي متى مرت بها الأيام فترَت هِمَمُ أنصارها، فهداني الله إلى بعض من وسائل نصرة رسول الله ﷺ، إلا أنها ما كانت للتجاوز طوق الزمان ولا المكان، فأخذت أفكر فيما دفع هذا الصحفي الدنماركي إلى الإقدام على مثل هذا العمل؟

فوالذي نفسي بيده لو يعلم مَنْ هو رسول الله ﷺ، وبماذا جاء من تعاليم، لما أقدم على مثل هذه الخطوة، ولو لم يؤمن به، فقررت في حينها أن أكتب رسالة موجزة عن رسول الله ﷺ باللغة الفرنسية ـ لغة دراستي ـ إلا أنني ما كنت أملك المادة العلمية في السيرة التي تؤهلني لمثل هذه الخطوة، بل ما كنت أملك القدرة على الإقدام على مثل هذه الخطوة، فأين أنا والسيرة ؟!

فسألت الله سبحانه التوفيق، وبدأت أعِدُّ محتوى المادة العلمية باللغة العربية أولا، وكنت ـ يوم أن بدأت ـ أعتقد أن هذا العمل لن يتجاوز ـ في أكثر الاحتمالات ـ بضعة أشهر، إلا أن الواقع تجاوز حساباتي، فأخذ مني هذا العمل ثلاثة أعوام، قد يسّر الله لي خلالها السفر إلى أرض الحرمين، فارتبطت بالسيرة بكل وجداني، وعشت مع رسول الله ﷺ بقلبي وجوارحي وبكل كياني، رأيته أبا وصديقا ومُربيا، قبل أن يكون رسولا وقائدا وداعية، وها أنا ذا أقولها، لقد غيّرت دراستي للسيرة كل حياتي، وأخذت أتذكر يوم أن كنت لا أعرف عن رسول الله ﷺ إلا اسمه، واسم أبيه وأمه، ومع ذلك كنت أدّعي يومها حبي له، فتعلمت منه أن الحب الصادق يتجاوز الشعارات الرنانة والكلمات الجوفاء؛ ليترجم هذه المحبة في واقع الحياة بالأفعال لا الأقوال .

إن هذا الكتاب هو خُلاصة جهدي، ومنتهى علمي، إلا أن حُلم ترجمتي له قد أرجئ، فقررت أن أُقدّمه باللغة العربية، ولعل الله ييسر لي السبل لإكمال حُلمي، أو ييسر من هو أجدر مني لإتمامه.

وأؤكد أن هذا الكتاب لا يعدو عن كونه محاولة لفهم السيرة النبوية وفقا لاحتياجات الواقع الذي نحياه، من غير حياد عن المنهج الذي جاء به صاحب السيرة، حاولت أن أُجسّد فيه شخصية رسول الله ﷺ المعلم والمربي الذي استطاع في سنوات قلائل أن يبني خير جيل أشرقت عليه الشمس منذ خُلقت .

والقائد الذي استطاع أن يتعامل مع كافة المشاكل التي تواجهه بحكمة متناهية النظير، من غير خروج عن نواميس الكون والسنن الربانية.

والقاضي الذي يمكن أن يكون الخصم والحكم في آن واحد، كحادثة الإفك.

والسياسي الذي يُجيد فن التفاوض، ورسم السياسات، والاستفادة من كل الإمكانات المتاحة مترفعا عن كل خلق دنيء قد اعتاد أهل الساسة على أن يتحلوا به مسايرة لأمور حياتهم .

والداعية الذي تحمّل من أجل تبليغ رسالته أشدّ ألوان العذاب، وواجه أعتى صور القمع والتعتيم، فلم تزده إلا شدة وصلابة حتى غدت دعوته تنتقل من نصر إلى نصر.

والقائد العسكري الذي ما ترك دربا للنصر إلا سلكه، فسطر قيم العسكرية الإسلامية في غزواته التي رسّخ بها المبادئ التي انطلقت منها دعوته .

والحاكم الذي يُقر بمبدأ الشورى، ويجعله منهجا في التعامل مع كافة أمور دولته، من غير مصادرة لرأي لصغير أو تجاهل لرأي كبير .

والرجل العربي في مجتمع قد غدت الأعراف والتقاليد فيه كسنن الطبيعة التي لا تتبدل فاستطاع أن يوّظف تقاليده وأعرافه لخدمة رسالته.

والزوج الذي استطاع أن يفهم حاجات النفس البشرية عند المرأة ويتعامل معها.

والأب الذي رُزق بأربع بنات، في مجتمع يئد البنات ويسلبهم كافة حقوقهم.

والصاحب الذي يُمازح الصغير والكبير، يشارك المهموم همه، والسعيد فرحته، يواسي المنكوب، ويطعم المحتاج ويتصدق على الفقير، ويدعو للغني بالبركة .

والمُبتلى الذي لا يكاد يخرج من محنة إلا والأخرى في انتظاره، فيضرب من صور الصبر والثبات ألوانا.

والهادي الذي جاء لينقذ البشرية من ضلالها القديم، يُنير لها طريقها، ويقودها إلى الصراط المستقيم؛ لتكون بعثته رحمة للعالمين.

والعابد الذي حفظ حق الله تعالى، من غير أن يُضيّع حقوق العباد، غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ومع ذلك يقوم الليل حتى تتفطر قدماه ثم يقول « أفلا أكُونُ عَبْدًا شَكُورًا » (١)

لقد حاولت أن أرفع حاجز الزمان والمكان، لأجعل سيرة نبي الإسلام ﷺ حكما على الواقع الذي نحياه، ليس سردا للوقائع والأحداث، وأن أجعل سيرته نصب أعيننا في كل موقف، وكل مجال من مجالات الحياة، وقبل كل شيء أؤكد أن الكلمات بكل معانيها لتقف عاجزة عن التعبير عن عظمة رسول الله ﷺ، فعلى مدى ثلاثة أعوام عشت فيها مع خير صحبة، عشت فيها مع رسول الله ﷺ بقلبي وجوارحي، لم يمض فيها يوم إلا وازددت فيه حبا لرسول الله ﷺ وشوقا إلى لقائه، تغيرت نظرتي إلى الحياة والأحياء، أخذت أنظر إلى الدنيا وأهلها من فوق بناء شامخ اسمه الإسلام؛ لأرى الأحياء أسفله أقزام يتكالبون ويتصارعون، أعينهم الأسقام وبين أيديهم الدواء

---

(١) البخاري ١١٣٠ ومسلم ٧٣٠٤

جعلوا على أعينهم عصابة؛ لتحجبهم عن نور اليقين وطريق النجاة، جعلوا في آذانهم أطنانا من الصلصال؛ ليحجبهم عن السماع لحجج الله على الخلق، وبراهينه الدامغة على صدق رسوله ﷺ، إنهم لم يكتفوا بأن حجبوا عن أنفسهم كل سبيل يقودهم إلى الخلاص، وإنما أطلقوا لألسنتهم العنان؛ لتنال من شخص رسول الله ﷺ، ولو أن بقلوبهم بقية من خير لأقرّوا بفضل رسول الله ﷺ على البشرية قاطبة.

إن على البشرية كلها أن تقف وقفة صادقة مع النفس؛ لتحدد موقفها من رسول الله ﷺ، وتبصر ما جاء به من تعاليم فيها سعادة للبشرية قاطبة، فلم ناصبوه كل هذا العداء؟ وبماذا جاء من تكاليف لتنال منه ألسنة السفهاء؟ أم أنها أخلاق الجاهلية التي يتوارثها أهل الباطل جيلا بعد جيل!

لقد كتبت عن رسول الله ﷺ ما أحسست، وخطّ قلمي ما رأيت أن الواقع بحاجة له، غير مدع لعملي هذا الكمال، أو أن به ما لم يدونه الأوائل، إلا أن الأمل يحبوني في أن يكون لي زادا في يوم لا زاد فيه إلا عمل صالح، فدونت هذه الصفحات عن حياة الرسول ﷺ وكلي قناعة بأن معين السيرة لا ينضب، بل إنه كماء زمزم التي تروي كل وافد إليها فلم ينقص كثرة روادها من بركة مائها شيئا، لأن القيمة الحقيقية لأحداث السيرة تكمن فيما تحمله من دلالات ومعان، تخدم كل عصر بلغته، حاولت أن أقف معها، أن استخرج جزءا من قيمتها، أن أنظر إليها بعين الحاضر لا عين الماضي، أن أجعلها شاهدا على أحوال المسلمين، أن أظْهر مدى بعدنا عن رسول الله ﷺ في الأقوال والأعمال، وإن تظاهرنا الاقتداء والامتثال، فالاقتداءُ ترجمة حية لتعاليم الإسلام، والتعامل مع الإسلام على أنه وحدة واحدة لا أجزاء منفصلة، فإننا حين نُقرُّ من أعماق أنفسنا بُعدنا عن تعاليم الإسلام، ومنهج رسول الله ﷺ والتطبيق العملي لهذا المنهج والامتثال الحقيقي لأوامر رسول الله ﷺ، عندها فقط نكون قد اجتزنا أول خطوة لتغيير واقعنا، أن نكون صرحاء مع أنفسنا، نقيم أنفسنا بصدق، أفرادا وأسرا ومجتمعات، حكاما ومحكومين، دعاة وعلماء ومربين، أين نحن من تعاليم الإسلام؟ ومتى حددنا موقعا الصحيح تسنى لنا أن نرسم خُطواتنا المستقبلية بسهولة ويسر، فالذي لا يجهله كل مؤمن صادق أن هناك فجوة حقيقية بين النظرية والتطبيق، أما إذا زينّا لأنفسنا حُسن ما آلت إليه، وتمادينا في تيهنا لا ندري من أين نبدأ وإلى أين سننتهي؛ فليعلم كل منا أننا قد ضللنا طريق النجاة والفلاح، وسلكنا طريق التيه والضياع.

إن المنطلق الحقيقي الذي لابد أن نتحرك منه كمسلمين، هو إيماننا بصدق دعوتنا ونبل رسالتنا وأحقية أمتنا في القيادة، فإرادة التغيير لابد وأن تكون نابعة من داخلنا، وإلا فلن تتغير أحوالنا [إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ](١) فمتى تحرك نازع التغيير والإصلاح في أنفسنا، يسّر الله لنا خطوات حياتنا وفقا لمنهجه وبتأييده ونصرته، وهذا النازع لا يجب أن يقتصر على فرد دون آخر، أو جماعة دون أخرى، أو داعية أو عالم أو حاكم، وإنما لا بد وأن يشمل بناء الأمة كلها، أن يزلزل هذا البناء داخل كل نفس مؤمنة، يُطهره من رواسب الواقع ومفاسده، يحركه ليشيد صرحا جديدا عماده الإسلام ودعوته، فهذا الدافع إلى التغيير والإصلاح أجّل دليل على أن بالأمة قلب ينبض ولسان ينطق، وجوارح تتحرك، وأنها ليست جسدا بلا روح، وأنها ليست بنيانا بلا أركان أو أعمدة، وهذا الدافع يجب أن يُحرّكه كل فرد بداخله قبل أن يُطالِب به غيره، فميت الأحياء من يعرف الحق ويُعرض عنه، من يرى المنكر ويسكت عنه، من يعلم المعروف ولا يدل عليه، من يملك طوق النجاة ويحتكره على نفسه، هذا هو الميت، وإن أكل وشرب وإن قام وجلس، فها هم بنو إسرائيل، أمة من الأمم التي ما انقطع عنها وحي السماء، فكم من الأنبياء أرسل الله إليهم؟ ومع ذلك تُوج تاريخهم مع رسل الله بلعنة جاءتهم على ألسنة رُسلهم [لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ*كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ](٢)

يا الله! كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، نعم، فالإيمان ليس كلمات تقال، وإنما أعمال تُبرهن صدق النوايا والأقوال.

لقد حاولت في صفحاتي هذه أن أقف مع أبرز أحداث السيرة، محاولا فهم الأسباب واستخراج الفوائد وعرضها بأفكار اجتهدت في أن تكون قريبة للواقع غير مغايرة له، ربما سقتها بين السطور، وربما جعلتها في وقفات، ورغم أن شأني في نفسي أقل من أن يتحدث عن رسول الله ﷺ إلا أن الأمل يغمُرني في أن أبلغ عن رسول الله ﷺ ولو آية، فهذا هو هديه، وهذه هي وصيته لكل مسلم، فقال ﷺ « بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً » (٣) كما آمل أن أكون عونا لإخواني ـ قدر ما استطعت ـ في العودة بالإسلام كمنهاج حياة، والنهوض بالأمة من سباتها الذي غابت فيه كثيرا عن واقع الحياة.

---

(١){الرعد:١١} (٢){المائدة٧٨/٧٩} (٣)البخاري ٣٤٦١

وحسبي قول ربي في كتابه على لسان نبيه شعيب عليه السلام [إنْ أُرِيدُ إلا الإصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إلا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإلَيْهِ أُنِيبُ] (١)

وقد آثرت قبل أن أبدأ حديثي عن حياة رسول الله ﷺ أن أقدّم نبذة مختصرة عن نشأة علم السيرة النبوية، ثم اتبعته بالحديث عن طبيعة الرسالة الخاتمة، ثم تطرقت بشيء من التفصيل لشكل الحياة في الجزيرة العربية قبل رسالة الإسلام، ثم تناولت أحداث السيرة وفق ترتيبها الزمني في إطار تربوي دعوي والتطرق في بعض الأحيان إلى لمحات من حياة الصحابة.

أما أحاديث الكتاب، فقد سلكت منهج غير واحد من أهل العلم في التثبت في الأحاديث المتعلقة بالعقيدة والشريعة، أما فيما لا يتعلق بالعقيدة والشريعة فقد تناولتها من منظورين:

<u>الأول:</u> الأخذ بما ورد في كتب السير والتاريخ مما لم يرد في الصحيح، ما دام لا يتعارض مع القرآن الكريم وصحيح السنة المطهرة، فهذه الكتابات ولا شك أرفع درجة من أحاديث بني إسرائيل، وفي صحيح البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ « بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا حَرَجَ »(٢) ومما لاشك فيه أن معين السيرة رصيد ضخم في شتى مناحي الحياة، واشتراط الصحة فيما لا يخص الجوانب العقدية والتشريعية يذهب به هباء، ويعطل الاستفادة منها في جوانب عدة كالتخطيط والتربية والدعوة والإدارة وغيرها، فاشتراط الصحة في كل خبر تاريخي يختزل كثيرا من القيمة العلمية والعملية للسيرة النبوية، وهذا ما لم يفعله كثير من المحققين، كالذهبي في (تاريخ الإسلام)، وابن حجر في(الفتح)، وابن القيم في (الزاد)، وابن كثير في(البداية والنهاية) وغيرهم كثير .

<u>الثاني :</u> تناولت بعضا من هذه الأحاديث التي تواتر ذكرها في كتب السير بشيء من التحقيق، كحديث قدوم أبي سفيان لتجديد الصلح مع رسول الله ﷺ قبيل فتح مكة، ودخوله على ابنته ام المؤمنين أم حبيبة - رضي الله عنها - ، وطيها الفراش من تحته، وقولها له " أنت مشرك نجس فلا أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ " فهذا الحديث الذي تواتر ذكره في كثير من كتب السير والتاريخ، يخالف القرآن وصحيح السنة النبوية، لذا تناولته بشيء من التفصيل. وتناولت غيره عدة أحاديث، كاستقبال جيش مؤتة، وكقتل خالد بن الوليد ﷺ لرجال من بني جذيمة بعد إسلامهم .

---

(١) [هود:٨٨]

(٢)البخاري ٣٤٦١

أما المراجع التي اعتمدت عليها في كتابي هذا، فهي كثيرة ومتنوعة، ما أخذته منها نصا أشرت إليه في الهامش، وما استفدت منه أشرت إليه في آخر كل فصل.

ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أسأل الله عز وجل الإخلاص في السر والعلانية، وفي القول والعمل، وأن ينفع بهذا الكتاب كل من قرأه أو نظر فيه، ودعا بالخير والمغفرة لصاحبه ولسائر المسلمين، وأن يغفر لكل من استفدت منه سواء في بحث أو درس أو خطبة أو كتاب وغفلت عن الإشارة إليه، وأن يقبل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن يكون حجة لي لا علي، فهو ولي ذلك والقادر عليه.

لماذا ندرس السيرة ؟

إن من غير الإنصاف أن نعتبر سيرة رسول الإسلام ﷺ مجرد سرد لمراحل حياته منذ الميلاد وحتى الممات، وكأنه حديث يراد به التسلية وإبراز عظمة الرجال، أو أن الفائدة المرجوة من سيرته تتبع مراحل حياته، وإظهار صور بطولاته، والاستئناس بالحديث عنها وكأنها فاكهة المجالس، أو أن قراءة سيرته العطرة مجرد قراءة لقصص وحكايات تخلو من العظة والاعتبار والأسوة والاقتداء، أو أن كل من تتبع خطوات حياته منذ ميلاده وحتى مماته قد ألمّ بكل جوانب سيرته، إن سيرته ﷺ تتجاوز كل هذه الأهداف الواهية، والآمال البالية؛ لتسرد سيرة نبي مُرسل متصل بخبر السماء، جُعلت سيرته هداية للناس، وترجمة عملية لدين الله عز وجل، وتجسيدا للتاريخ الإسلامي في عصر النبوة التي ارتبطت فيها الحوادث بشخصه الكريم ﷺ، في كل جوانب حياته، وتطبيقاً حيا للمبادئ التي جاء بها الإسلام لتصبح سيرته النموذج المثالي لحياة المؤمن

فالسيرة إذن جزء من الدين الحنيف والهدي القويم، يجد فيها كل طالب بغيته، ليست تاريخا يُسرد، ولا أحداثا ولت ولا ماضيا يُطوى، ولا ما كان فيها قد مضى وانتهى، إنها قراءة حية للواقع، كما كانت عرضا تفصيليا للماضي، فهي الحاضر بكل واقعه، كما كانت الماضي بكل تفاصيله، يجد فيها كل باحث ضالته، وكل طالب بغيته، فيها المنهج النبوي في تربية الأشخاص وإعداد الرجال وقيادة الجيوش وتربية الأمم، فيها سيرة رسول الإسلام ﷺ أبا وزوجا وصاحبا ومقاتلا ومفاوضا وسياسيا ومخططا ومربيا ومشرعا وداعية وحاكما، فيها فن الدعوة وتنوع أساليبها والصبر على الابتلاء، فيها الجهاد بكل صوره، بالكلمة والمال والسيف حتى تُرَدّ الحقوق، وتسود كلمة التوحيد، فيها المنهج الفريد في بناء الروح التي هي سر الوجود، وحسن تربيتها والاستفادة من إمكاناتها واستخراج مواهبها الكامنة وقدراتها الهائلة الحبيسة داخل النفس البشرية، فيها تجسيد لتعاليم الشريعة المُطهرة في واقع الحياة، فيها شروح لأسباب التنزيل، فيها إشباع لاحتياجات النفس البشرية وفقا للمنهج الإلهي، فيها الأخذ بالأسباب وصدق التوكل على الله وعدم التعارض مع السنن الربانية، فيها النموذج المثالي في بناء المجتمعات وفقا للمبدأ الإلهي بالتدرج في تربية الأمم وإعدادها، فتأتي المرحلة المكية كخطوة أولى في بناء الفرد والرقي بشخصيته وغرس القيم السماوية في نفسه وتجسيد التوحيد فيها حتى خرّجت شخصية

كعبد الله بن مسعود الصادح بالقرآن، ثم تتوالى مراحل البناء لتشمل الأسرة بعد الفرد، فتتكامل شخصية الأسرة المسلمة التي تُبتلى لتسمو بروحها إلى أرقى الدرجات، فيخرج نموذجا كاسرة آل ياسر، ثم تتوالى مراحل البناء ويأتي العهد المدني ليكمل البناء، فتظهر النواة الأولى للدولة الإسلامية في مجتمع المدينة، وهي نتاج طبيعي لما تم من بناء للفرد ثم للأسرة في العهد المكي، فغدت السيرة ترجمة حية وتطبيق عملي لمنهج الإسلام في بناء الفرد والمجتمع .

إن سيرة نبي الإسلام هي فترة زمنية متصلة بالوحي السماوي، كل ما حدث فيها هو سنن ربانية يمكن أن تتكرر كلما تكررت ظروفها، ويمكن لجيل الصحابة أن يتكرر إذا دُرسَت مناهج التربية التي شبَّ عليها، ويمكن لمجتمع المدينة أن يتكرر إذا اتبعنا المنهج الرباني في تربية الأمم والمجتمعات وفقا للتدرج، ثم اتبعنا المنهج النبوي في تطبيق هذا المنهج الرباني، فالسيرة ليست مجرد أحداث عابرة تُعبر عن ذاتها حدثت زمن البعثة النبوية وانتهت قيمتها وفعاليتها... بل هي أحداث مقصودة، تهدف إلى تربية الأمة، فيها الآيات والعبر في شؤون الحياة كلها، وهذه الأحداث تكمن قوتها في مدى الإفادة العملية منها عند المسلمين على مر العصور، فهي عطاء مستمر وكنز لا يفنى وبئر لا ينضب ماؤه، يظل عطاؤه دائما صالحا لكل زمان ومكان، وحين نعدّها ماضيا قد ولى، وتاريخا قد انتهى، ففي حينها يضيع رصيدها وقوتها الدافعة لأجيال المسلمين، فهي الرباط الذي يصل المسلم بالسنن الربانية، وهي الرباط الذي يربط قلبه بالله عز وجل، وهي الدافع للتدبر والتأمل في سنن الله تعالى، وهي الدليل الذي لا ريب فيه على صدق نبوة النبي ﷺ وصدق رسالته، وأنها سيرة نبي مرسل سار بدعوته من نصر إلى نصر حتى كُتب له التمكين.

ورحم الله سيد قطب إذ قال ((إنَّ سيرةَ الرسول ﷺ وسيرة هذا الإسلام لا يجوز أن تكون تاريخًا يُتلى ولا أن تكون احتفالاتٍ تمضي، إنما يجب أن تكون حياةً تُعاد، وأن يكون واقعًا يُحقق.. إنما جاء الإسلام ليكون واقعًا حيًّا في تاريخ المسلمين، وإنما مضت هذه الأيام؛ لتكون فيها إلى الأبد قدوةٌ وأسوةٌ لمَن يتبعون رسول الله ﷺ)) (١) فكل منهج تربوي لا يستمد مضمونه من المنهج النبوي في بناء الأشخاص والجماعات لا يُرجى منه نفع أو فائدة تُذكر، وكل تجربة إصلاح لا تتخذ من سيرة رسول الإسلام ﷺ هاديا ومرشدا لها لا يمكن أن يحالفها نصر أو تمكين

(١) دروسٌ وعبرٌ من الهجرةِ النبويَّة، مجموعة ابحاث مُتفرقة في الهجرة

وفي التاريخ أمثلة كثيرة لأنظمة ومؤسسات وحركات تغيير وإصلاح في المجتمعات الإسلامية، اتخذت من عقولها هاديا ودليلا، واعتبرت حياة النبي ﷺ ماضيا وتاريخا، فلم يحالفها نجاح يُذكر، أو يؤخذ منها فائدة تُرجى، أو يعقبها ذكر يُحسب لها، وكذا كل حاكم لم يتخذ من رسول الله ﷺ أسوة له لا يمكن أن يُدرك العدل بكل جوانبه، أو أن يرتقي بأمته؛ لتأخذ موضعا يليق بها في سباق الحياة وركب التاريخ، وكل مربٍ ومعلم لم يتخذ من رسول الله ﷺ أسوة له لا يمكن أن يشبع نهم النفس البشرية، ويُخرج طاقاتها ومواهبها المعطلة، مهما حالفه الحظ والتوفيق، فالنفس بدن وروح ومهما اجتهدت في بناء البدن، فالبناء الروحي لا يمكن أن يشبع نهمه بعيدا عن المنهج الإلهي في هداية البشر وإنقاذهم من حيرتهم وضياعهم.......وكذا كل أب وكل زوج وكل عسكري وكل مفاوض وكل قاض ....فالعطاء النبوي متوفر وغزير، إلا أنه بحاجة إلى من يشعر بقيمته، ويستخرجه من بين سطور الكتب والمجلدات؛ ليجسده في واقع الحياة.

إن اعتبار سيرة رسول الله ﷺ ورسالته - بما حققته من نصر وتمكين وحضارة ورُقي - تجربة إنسانية، يُعد انتقاصا بيناً لمضمون رسالة الإسلام، بل دليل حي على قصور في فهم طبيعة الرسالة الخاتمة التي أنزلها عالم الغيب والشهادة، المُدرك لحاجات البشر في كل زمان ومكان، وفرض فيها من صنوف التشريع والعبادات ما يتلاءم وحاجات البشر المتطورة والمتجددة، بحيث يعجز كل ذو عقل لبيب أن يقول عن تشريع أو عبادة أنها لا تتلاءم مع هذا الزمان، أو أنها لا تتفق مع طباع البشر في هذا الزمان، وتاريخ الإسلام الذي انطلق منذ اللحظة الاولى لوحي السماء قد رسم منهجا فريدا في التألق الحضاري الذي سما بالبشرية وارتقى بها لتنتقل إلى طور لم تخطوه من قبل في اجتماعها البشري كله، ولا تعني تلك الهفوات التي تخللت ذاك التاريخ عيب في المنهج وإنما فيمن يؤمن به ويعمل من أجله، فالمنهج واحد لن يتغير، باق لن ينتهي، كامل لن ينقص، وبقدر الالتزام به يكون التمكين والغلبة، وبقدر البعد عنه تكون الهزيمة والتخلف، إنها سنن الله تعالى التي لا تتبدل ولا تتغير، فالله تعالى لا يحابي أحدا من عباده، من أصلح واتقى ساد وعز، ومن كفر وطغى خسر وذل - إن شاء الله من قام بمنهج الله أيده الله، ومن تخلى عن منهج الله، تخلى الله عنه ثم لا يبالي في أي وادٍ هلك، وتأتي السيرة لتجسد هذا المنهج رأي العين في واقع الحياة ومختلف أمور المعيشة، فقد استطاع النبي ﷺ أن يُحيي أمة من الأجداث، وأن يقيم دولة من عدم، وأن يجمع قبائل متناحرة في بنيان واحد.

وأن يجعل الحمية للدين لا للعرق والنسب، وأن يجعل الأخوة في الله قبل أخوة النسب .

هل تطلبون من المختار معجـــزة   يكفيه شعب من الأجداث أحيــاه
من وحد العُرْب حتى كان واترهم   إذا رأى ولد الموتور آخـــــاه(١)

فلما تُوفي رسول الله ﷺ فطن أصحابه والسلف الصالح إلى قيمة الاهتداء بسنّته والالتزام بمنهجه، فجعلوا إتباعه منهاج حياتهم، وجعلوا سيرته هاديا ودليلا لخطواتهم، حتى قال علي بن الحسـين «كنا نُعلّم مغازي رسول الله ﷺ كما نُعلم السورة من القرآن »

وقال إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص« كان أبي يُعلمنا مغازي رسول الله ﷺ ويعدّها علينا، وسراياه ويقول: يا بني هذه مآثر آبائكم فلا تضيّعوا ذكرها وقال الزُهري «في علم المغازي علم الآخرة والأولى » (٢)

فكان النتاج الطبيعي لهذه التربية، دولة فتية خضع لها أكثر من ثلثي المعمورة، نشرت عدل الإسلام في ربوع الأرض، بعدما سادها العوج والفوضى، وأعلت راية التوحيد بعدما ضربتَ أطناب الأرض صورٌ للشرك لم تشهد البشرية مثلها، فحينما وعى الصحابة وسلف الأمة قيمة الاقتداء برسول الله ﷺ وتطبيق منهجه في تربية الأفراد والجماعات، دانت لهم الأرض بكل زينتها وزخارفها، وحينما وضعوا سيرة رسول الإسلام ﷺ في مكانها الصحيح استطاعوا أن يُشيّدوا حضارة عريقة، قادت البشرية قرونا من الزمان، وحينما اكتسبت السيرة في حياتهم المكانة التي تليق بها وبهم، خرجتْ للبشرية عباقرة في مختلف العلوم، كان لهم الفضل والسبق في بناء هذه الحضارة التي تشهدها البشرية في هذه العقود .

لقد غدا الاقتداء برسول الله ﷺ ضرورة مُلحة ومطلبا حثيثا، يفرضه واقع الحياة الذي نعيشه في هذا الزمان أكثر من أي وقت مضى، ناهيك عن كونها عبادة وتكليف، قال تعالى [لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا](٣) وقال [وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ](٤)

---

(١)الموتور:الذي قتل له قتيل فلم يدرك دمه، تنظر لسان العرب مادة وتر

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي - (ج ٤ / ص ٣٢٠)

(٣){الأحزاب:٢١}

(٤){الحشر:٧}

واقتضت الضرورة إعادة قراءة السيرة النبوية الصحيحة، ودراسة المنهج النبوي في مختلف الحالات، العسكرية والسياسية والاجتماعية والتربوية والدعوية والعلمية والإدارية والاقتصادية والحركية والأمنية والثقافية وغيرها.....، وأصبحت الحاجة إلى العودة للمنهج الرباني، والهدي النبوي، إحدى متطلبات الحياة التي تشهد تخلفا للمسلمين في شتى مجالات الحياة، وهم ينتسبون إلى دين يدعو إلى طلب العلم ويحث عليه، فهذا التخلف العلمي، والفساد الأخلاقي، والذل السياسي، والتبعية العسكرية والفكرية، والاعتمادية الاقتصادية والتخبط الفكري، والاضطراب النفسي، وضعف البناء الروحي، وتهاوي القيم السماوية في النفوس، هو نتاج طبيعي للمناهج الوضعية في تربية الأفراد وقيادة الشعوب، وهو نتيجة منطقية لأمة رضيت بالتبعية، وانحرفت عن أسس عقيدتها وثوابت دينها، وهو نتيجة طبيعية لأمة تخلت عن أسباب النصر والتمكين ووسائل تحقيقه، قال تعالى [وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ] (١)

ولكن كيف يكون الاقتداء ؟

إن تعاملنا مع السيرة وطرق الاستفادة منها لا يتغير وفقا للواقع الذي نحياه، والذي يتغير ربما في كل ساعة، فالقيمة الحقيقة للسيرة تكمن في قدرتها على التعامل مع جميع الظروف، وقدرتها على العطاء المتواصل لكل عصر ما يحتاجه، باعتبارها مصدرا للاهتداء والتشريع، لا للسرد والقصص، فإن إحدى الأزمات التي تعاني منها الصحوة الشابة هي بعدها عن الدراسة التربوية العميقة لأحداث السيرة، دراسة تجعل من أحداثها دروسا لكل الأمة، بعيدة كل البعد عن تأويل أحداثها وفقا للأهواء أو المصالح المصطنعة، الأمر الذي يجعلها قابلة للتطبيق العملي، ويرتقي بها عن الدراسات العلمية المجردة التي جعلتها لعقود طويلة حبيسة الكتب والمجلدات والواقع في أمس الحاجة لها، فحينما نُجرد أحداث السيرة من بُعدي الزمان والمكان، ونتعامل مع ما صح من أحداثها على أنه مصدر للتشريع، يتسنى لنا ربطها بمشكلات الواقع.

---

(١){النور:٥٥}

واستلهام العبر والقيم، وفهم أبعاد الأحداث وظروفها، وبذا يمكن لها أن تخدم واقع الحياة وتساهم في حل مشكلاته، لا أن تكون تراثا في المجلدات، والواقع في أمس الحاجة لها، فالسيرة ماض بمقاييس الزمان والمكان، لكنها حاضر بمعاني القدوة والاهتداء، ومستقبل بمفهوم الأمل والعطاء...

إن قراءتنا لأحداث السيرة وأساليبنا في الاقتداء برسول الله ﷺ قد أصابها شيء من الفتور والبلاهة، فلا الذي يعيش في رغد من العيش يتبع الهدي النبوي في الشكر على النعم حتى تدوم، ولا الذي يُصاب ويُبتلى يتبع الهدي النبوي في الصبر على البلاء حتى يُرفع.

إن قيمة الاقتداء برسول الإسلام ﷺ، تكمن في هذا الدافع الروحي الذي يملأ القلب يقينا يتهاوى أمامه أي مجد دنيوي زائل، حينما يُصاب المرء بالابتلاءات والشدائد التي تختبر صدق إيمانه وقوة يقينه، فيجد نفسه مدفوعا إلى ترك مكاسب دنيوية عابرة؛ ليجني ثمارا إيمانية باقية، وكلما تهاوى به الركب جدد الأمل، وكلما ضاقت به السبل شق طريقا وسط الصعاب يسير فيه على الهدي النبوي، فيحول دون سقوطه في الهاوية، ويرتقي به عن انتظار مكاسب عارضة لإدراك أهداف كبرى، وتمام الاقتداء برسول الله ﷺ يكون عند شدة البأس، وزيادة الفتن، وإحاطة المغريات، يكون في الصحة والمرض واليسر والعسر، والأمن والخوف، والحضر والسفر، والفقر والغنى، وفي كل حال يكون عليه الإنسان .

وهذا الاقتداء هو طوق النجاة لهذه الأمة، كي تحمل راية القيادة من جديد، فهذه الأمة لديها من المقومات ما ينتشلها من ركودها، ويُعيد إليها مجدها وقيادتها؛ لتأخذ مكانها المنوط لها في ركب الحياة وقيادة العالم، فلا توجد أمة على وجه الأرض تحمل منهجا يشمل كل جوانب الحياة كمنهج الإسلام في تربية الأفراد وبناء المجتمعات، وها هو العصر الحديث قد أطل علينا بعلومه الغزيرة، وأخرج لنا مئات النظريات التربوية في تربية الأشخاص وإعداد الرجال، والرؤى الإصلاحية في قيادة المجتمعات، والاكتشافات العلمية في شتى المجالات، إلا أنه لم يأت بنظرية واحدة لبناء الروح التي هي المُحرّك الأساسي للنفس البشرية والدافع للعمل والابتكار، فما يشهده الوقت الراهن من تأخر ملحوظ للمسلمين في شتى المجالات، ليس لنقص في العقيدة التي يؤمنون بها، وإنما لخلل في تطبيق المنهج الذي جاء به الإسلام في واقع الحياة، وهذا الخلل أمر عارض مرت به كل الرسالات والحضارات والدول، بل والأفراد، إلا أنه إذا طال زمانه، بدت معايبه، وظهر خطره الحقيقي على الرسالة والأمة التي تدين بها.

وربما هذا ما عناه النبي ﷺ بقوله « يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ »(١) فقد أحاطت بنا الفتن والمغريات، وقيدتنا المدنية الزائفة بوابل من الأفكار الهدامة، والقيم المنحطة بين علمانية، وشيوعية، ورأسمالية، وعولمة، فشغلتنا بالرد عليها عن قضيتنا الأساسية، حتى تقوقعنا على أنفسنا واقتصرنا على موقف المُدافع عما بقي من قيم في نفوسنا، وبمرور الزمن ترسخت تلك الأفكار في أناس من بني جلدتنا، حكاما، وعلماء، ومصلحين، وغدت دعوتنا في صراع داخلي بين أبنائها، فتخلت عن سمو رسالتها، وعالميتها، وحقق أعداؤها هدفهم الأسمى، بانشغال الأمة عن قضية الدين والدعوة إليه، وحمله إلى العالم أجمع، حتى بدت الصورة قاتمة، والوضع لا يبشر ببارقة أمل، إلا أن هذا الوضع بالنسبة لتاريخ الرسالة وعُمر الأمة، كسحابة صيف سُرعان ما تنجلي، وإن طال زمانها، فعودة الإسلام كعقيدة ومنهاج حياة أمر حتمي، وهو كائن لا محالة لأنه دين الفطرة، وهو الدين الذي تكفل الله بنصره وتأييده، فإن لم تكن عودته في هذا الزمان، فلابد أن تبشر بها وتُعِد لها مَن خلفك، وإن لم تكن كمسلم أداة تبني الدين، فلا تكن وسيلة لهدم بنيانه، ولا يصنع منك الواقع السيء شخصية إنهزامية، فما الإنتكاسات في تاريخ الأمم إلا فترة إنتقالية، وختاما نسوق هذه البشارة لتطمئن النفس وتسكن، وتعلم أن الإسلام قادم لقيادة البشرية من جديد، قال ﷺ « لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ » (٢)

---

(١)سنن الترمذي ٢٤٢٨واللفظ له ومسند أحمد ٩٣١٢وصححه الألباني السلسلة الصحيحة ٦٤٥/٢ حديث٩٥٧

(٢)مسند أحمد ١٧٤٢٠وسنن البيهقي١٩٠٩٨وصحيح ابن حبان ١٦٣١وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٣٢/١حديث٣

الباب الأول

العرب قبل الإسلام

الفصل الأول مدخل إلى دراسة السيرة

الفصل الثاني الرسالة الخاتمة

الفصل الثالث الجزيرة العربية قبل الرسالة

الفصل الأول

مدخل إلى دراسة السيرة النبوية

يجدر بنا أولا تعريف المقصود بالسيرة النبوية، فالمقصود بسيرة النبي ﷺ أي الطريقة والهيئة التي كان عليها النبي ﷺ منذ ولادته وحتى وفاته، شاملة كل أفعاله وأحواله، وقد وردت كلمة السيرة في القرآن بهذا المعنى في قول الله تعالى [قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى](١) أي هيئتها الأولى، فالسيرة النبوية هي كل ما أثر عن النبي ﷺ وعن أصحابه، وعن التابعين من أهل العلم، في وصف حال سير النبي ﷺ، بداية بمولده وأحواله قبل البعثة، مرورا بنزول الوحي السماوي، وجهاده في تبليغ الرسالة، ثم الهجرة المباركة، ووضع بذور الدولة الإسلامية، وما حدث فيها من تحديات، ثم المواجهات العسكرية للدفاع عن المجتمع الإسلامي المتمثل في المدينة، ثم الجهاد العسكري لنشر كلمة التوحيد في كل أرجاء الجزيرة، متطرقة بين كل هذا إلى وصف أحواله ﷺ كأبٍ وزوج ومربٍ وقائدٍ وقاضٍ ومفتٍ...... لتنتهي أحداثها بوفاته.

وقد ظهرت أهمية السيرة كمصدر للتشريع والاهتداء، وكجزء من الدين الحنيف مبكرا جدا، فقبل أن تكون علما مستقلا، فهي جزء من علم الحديث، فلا يكاد يخلو كتاب من كتب الحديث إلا وقد صنّف أبوابا في سيرة النبي ﷺ ومغازيه، وتتبع مراحل حياته بدءا من البعثة النبوية حتى وفاته، ومعلوم أن كتابة الحديث النبوي قد بدأت مبكرا في عهد النبي ﷺ، إلا أن مرحلة جمع الأحاديث كانت في عهد الخليفة الراشد عمر عبد العزيز، ثم كانت مرحلة التدوين في عهد الخليفة العباسي المأمون.

أما السيرة النبوية فقد مرت بثلاث مراحل قبل أن تكون علما مستقلا بذاته وتخرج فيه الكتابات المستقلة.

المرحلة الأولى ((المرحلة الشفوية)) والتي يمثلها طبقات الصحابة رضي الله عنهم، الذين أدرك غالبيتهم معظم أحداث السيرة، فكانوا يتناقلونها أثناء الحديث عن سيرة الرسول ﷺ شفاهية، ويتحدثون عنها على المنابر، وفي أندية الرجال وأماكن تجمعاتهم وفي البيوت، وذلك قبل الشروع في الكتابة.

---

(١) {طه:٢١}

وكان أهم ما يميز هذه المرحلة صدق الأخبار التي يروونها، إلا أنها كانت قاصرة على قضايا محدودة، وكانت غالبا ما تتعلق بالأحكام الشرعية، وتفسير بعض آيات القرآن الكريم، دون التعمق في تفاصيل الأحداث، لأن غالبية أهل الزمان قد أدركوا تفاصيلها، وممن أشتهر من الصحابة بالحديث عن السيرة، عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأنس بن مالك، والبراء بن عازب وغيرهم كثير من صحابة رسول الله ﷺ رضي الله عنهم أجمعين.

المرحلة الثانية ((التدوين الجزئي)) وهي طبقات التابعين وتابعيهم، وكانت بداية هذه المرحلة **في النصف الثاني من القرن الهجري الأول، فقد قام عدد من التابعين بتدوين بعض** من جوانب السيرة وحياة الرسول ﷺ بصفة عامة، وخاصة المتعلقة بالمغازي، فدون بعضهم كتبا، إلا أنهم لم يجمعوها في مجلد واحد، فرواها عنهم تلامذتهم، وكان أهم ما يميز هذه المرحلة أن كل واحد منهم قد اهتم بواقعة معينة، فدون كل ما تلقاه عنها، فواحد اهتم بغزوة بدر، وآخر ببيعة العقبة، وآخر بغزوة الأحزاب وهكذا، وقد يسر هذا العمل على تلامذتهم جمع هذه الأخبار وتدوينها في ما عُرف فيما بعد بكُتب السير.

المرحلة الثالثة ((وهي مرحلة التدوين)) وهي طبقة تابعي التابعين، وفي هذه المرحلة ظهرت السيرة النبوية كعلم مستقل بذاته، رغم ارتباطه بعلم الحديث، إلا أن كثيرا من العلماء قد تخصصوا في هذا الفن، وتفرغوا لجمع الأخبار المتعلقة بسيرة الرسول ﷺ ودونوها في مجلدات ولعل أشهرهم:

عروة بن الزبير(ت ٩٣هـ)، وهو أحد الفقهاء السبعة المشهورين في المدينة، وقد اهتم بأخبار السيرة النبوية اهتماماً كبيراً، فهو أول من صنف في المغازي ، قال عنه الحافظ ابن كثير «كان عروة فقيهاً عالماً حافظاً ثبتاً حجة عالماً بالسير،ونقل عنه الطبري في كتابه(تاريخ الرسل والملوك)، وابن حجر في كتابه(فتح الباري)

موسى بن عقبة (ت ١٤٠هـ) وهو صاحب المغازي ، محدّث ثقة، تُعد مغازيه من أصح ما ألف في السيرة، قال عنه الإمام مالك (عليك بمغازي الرجل الصالح موسى بن عقبة فإنها أصح المغازي) وقال عنه الإمام الشافعي (ليس في المغازي أصح من كتاب موسى بن عقبة مع صغره وخلوه من أكثر ما يذكر في كتب غيره)

** **محمد بن اسحق** (ت ١٥١هـ) وهو إمام المغازي، قال عنه الإمام الشافعي (من أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على محمد بن إسحاق) وقال عنه ابن سيد الناس (هو العمدة في هذا الباب لنا ولغيرنا) وقال عنه الذهبي (كان أحد أوعية العلم حبرا في معرفة المغازي والسير)

ثم جاء بعد علماء السير والمغازي علماء الحديث، بداية بالإمام مالك رحمه الله (ت ١٧٩هـ) فقد ذكر في " الموطأ " طرفا من أخبار النبي ﷺ وطرفا من غزواته، وأخباره الشخصية، ثم الإمام البخاري (ت ٢٥٦هـ) والإمام مسلم (ت ٢٦١هـ) فقد أفردا أبوابا في الصحيحين متعلقة بسيرة النبي ﷺ، وجهاده، وغزواته، وسراياه، وحياته الشخصية، وسار على هديهم من جاء بعدهم من أئمة الحديث.(١)

كانت هذه بداية تدوين السيرة النبوية كعلم مستقل بذاته، ثم توالت الأعمال، وشغلت الكتابات في السيرة جزءا مهما في الكتابات الإسلامية، وتَفرغ لها غير واحد من أهل العلم، وتنوعت الكتابات في السيرة وفقا لأفكار المؤلفين وميولهم، فظهرت المدرسة اللغوية، والتي عنيت بتدوين السيرة بما فيها من لغة صحيحة، وأوردوا فيها كثيرا من الأشعار والأنساب، فتأتي سيرة ابن اسحق في مقدمة كتب السير التي عنيت بالسيرة من حيث اللغة، فقد كان لغويا بارعا، إلا أن كتاباته لم تصل إلينا كاملة، ثم جاء ابن هشام فنقّح سيرة ابن اسحق وهذبها، وحذف كثيراً من الإسرائيليات، والأشعار المنتحلة التي كانت بها، وأضاف معلومات في اللغة والأنساب، فأعطى لسيرة رسول الإسلام ﷺ شكلا كليا يتقارب مع تلك التي دونتها كُتب الحديث الصحيحة، مما يعطي سيرته توثيقاً كبيراً، ويجدر القول أن معظم المؤلفات التي جاءت بعده أخذت محتواها من سيرته، كما تناولها غير واحد من أهل العلم بالشرح والتوضيح، أشهرهم الحافظ السهيلي في كتابه "الروض الأنف " فجعله شرحا لسيرة ابن هشام مع الاعتناء بجوانب أخرى غير اللغة.

ثم جاءت مدرسة العلماء والفقهاء، الذين نظروا إلى السيرة على أنها ترجمة عملية للقرآن، وتجسيدا حيا للمنهج الإسلامي، فاستخرجوا منها الأحكام الفقهية والمسائل العقدية التي تهم عامة الأمة، ويُعَدُّ كتاب " زاد المعاد في هدي خير العباد " لابن القيم رحمه الله من أفضل ما دون في السيرة على الإطلاق، فقد جمع ما جاء في القرآن، وما جاء في السنة، وما جاء في كتب السير

---

(١) المراجع " مصادر السيرة النبوية " و" مصادر تلقي السيرة النبوية "

ونظر فيه نظرة فقهية، فاستخرج جملة من الأحكام الفقهية للأفراد والقادة والقضاة وغيرهم.

ثم جاءت مدرسة الكتابات المعاصرة؛ لتضفي على السيرة أسلوبا جديدا، لم يكتف عند نقل النصوص وسرد الأحداث وإنما تجاوزه إلى تحليل الوقائع، وتقييم نتائجها، واستخراج العبر والدروس المستفادة منها، والتعرض للسنن الربانية التي بها، والاستفادة العملية من السيرة في ميادين الحياة المختلفة، فلا ينكر باحث أن كُتب السير، وكُتب التاريخ، رغم كثرتها وتنوع ميول مؤلفيها ورغم أنها تضمنت وصفاً دقيقاً لكل أحوال النبي ﷺ وأفعاله وكل ما يتصل به، إلا أن أكثرها وقف بالسيرة عند مجرد سرد الروايات، والتدوين التاريخي للحدث، ووصف تطوره، وتدوين نتائجه دون التعرض لتحليل الأحداث، وتوضيح السنن، ودون محاولة اكتشاف المنهج الذي يُسيّرُها، فقد غلب عليها الطابع التسجيلي للأحداث، فغدا أكثرها وكأنه مختصرا لسيرة ابن هشام رحمه الله.

أما الكتابات المعاصرة فقد ألبست السيرة ثوبا جديدا، لا يقف عند مجرد سرد الأحداث وتدوين النتائج، وإنما وضع الكُتّاب المعاصرون أحداثها في نصابها الصحيح، فقاموا بتحليلها، وتقييم نتائجها، ووضع تصور كلي لها، والموازنة بين الأحداث والتعليق عليها، واستلهام العبر والدروس المستفادة منها، وتحديد المنهج النبوي الذي سار عليه الرسول ﷺ في مختلف، فوضعوا قيمة جديدة لدراسة السيرة النبوية، رغم التفاوت البيّن في هذه الكتابات وفقا لميول مؤلفيها، فمنها الدراسات الجادة التي تهدف إلى الاستفادة من السيرة النبوية في واقع الحياة، ومحاولة إنقاذ الأمة مما آلت إليه من تخلف وهزيمة نفسية، ومنها الدراسات التي حاولت أن تُعيد صياغة المنهج الإسلامي وفقا للحضارة الغربية، فاتخذت من كتابات المستشرقين مرجعا لها في الحكم على أحداث السيرة، وعلى صدق الرسول ﷺ، وحكمت على المعجزات بالعقل، وردت صحيح النقل ركونا منهم إلى الأفكار المادية والفلسفات الوضعية، ومنها الدراسات التي ربطت أحداث السيرة بتوجهاتها الفكرية، وميولها السياسية في محاولة منها لإكساب الشرعية لها، فأفكار الكاتب التي يُدَون بها السيرة وتوجهاته تحكم على آرائه المكتوبة أو المقروءة، فخرجت كتابات جمة، منهم من جعل السيرة سيف ودم، وأفقدها كل قيمة تربوية واجتماعية وسياسية وثقافية، ومنهم من جعلها بطولات شخصية، وبالغ في إبراز عظمة الرجال، ومنهم من جعلها أقرب إلى الأساطير والخرافات وبالغ في السرد، فدوّنَ كل ما وقعت عليه عينه من صحيح وضعيف وباطل

ومنهم من حصرها في أحداث مشتتة، ومواقف منفصلة لا يربط بعضها بعضا، فانحصرت رؤيته في إظهار جوانب عبقرية الشخص، وكأنها أمر مُكتسب خالٍ من الرعاية الإلهية والتربية القرآنية .

وفي كل مجال من مجالات البحث تتنوع الآراء، وتكثر الكتابات، فمنها الغث والسمين، ومنها الأصيل والدخيل ومنها المقبول والمردود، وعين الإنصاف أن يزن المرء كل ما يقرأ بميزان الشرع، فما وافق القرآن وصحيح السنة المطهرة أخذه وعمل به، وما خالفه أعرض عنه ولم يلتفت له ، فالحق لا يُعرف بالناس، وإنما يُعرف الناس بالحق، والحديث عن سيرة ﷺ لا يلزم فيه الحياد الذي يدعيه بعض الكتاب مجاراة للمستشرقين، فهو النبي المرسل المتصل بخبر السماء، ما صح عنه قولا وفعلا فهو وحي سماوي لا يحتاج إلى إدراك العقل له ليرده أو يقبله، وإنما يحتاج إلى قلب يؤمن به ويصدقه.

مصادر كتابة السيرة النبوية

أولا القرآن الكريم : فقد حوى القرآن الكريم جزءاً كبيراً من أخبار السيرة الصحيحة التي لا يتطرق إليها شك أو ظن، تناول بعضا منها بشيء من التفصيل، وبيّن الحكمة منه، ونتائجه، كزواج النبي ﷺ بزينب رضي الله عنها، ثم تعرض لحوادث أخرى بالإجمال، كالإسراء والمعراج، ثم تعرض بالتفصيل أحيانا، وبالإجمال أخرى لأبرز غزوات النبي ﷺ، فتجد غزوة بدر في سورة الأنفال، وغزوة أحد في سورة آل عمران، وغزوة الخندق في سورة الأحزاب، وغزوة حنين وتبوك في سورة التوبة، وصلح الحديبية وفتح مكة في سورة الفتح، وغزوة بني النضير في سورة الحشر.

كما تناول القرآن بشيء من التفصيل أساليب دعوة النبي ﷺ للناس، وما وجد من تكذيب وعناد [ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ](١) كما تناول القضايا التي اتخذها المشركون ذريعة للطعن في نبوته ﷺ بشيء من التفصيل، وكذلك جداله مع اليهود والنصاري .

---

(١){النحل:١٢٥}

ولم يكتف القرآن بالتعرض لأحداث السيرة النبوية بعد البعثة فقط، وإنما أشار في غير موضع لحياة النبي ﷺ قبل البعثة ، بل إن القرآن قد رسم صورة كُلية للحياة في الجزيرة العربية، وما جاورها من بقاع قبل رسالة الإسلام، فتحدث عن الأمم الغابرة، كعاد وثمود، وتكذيبهم للرسل، وما لاقوا من جزاء جراء هذا التكذيب، وعن الحضارات والممالك الغائرة في أرض الجزيرة، كمملكة سبأ، وما كانوا فيه من نعيم، وقصتهم مع نبي الله سليمان ﷺ، كما تحدث عن بناء البيت الحرام، وتعاليم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ثم تبديل العرب لهذه التعاليم، وإحياء هدي السابقين من الكفار في صور الشرك بالله، كما تحدث عن كثير من أحوال العرب السياسية والاقتصادية، والاجتماعية، والعقائدية، وما أيدهم به من حماية للبيت الحرام في حادثة الفيل، ويمكن القول أن القرآن انتقل بأحداث السيرة إلى مرتبة التشريع بعد أن جردها من بُعدي الزمان والمكان؛ لتصبح تشريعا يحمل في طياته سمات المنهج النبوي، والتجسيد العملي لرسالة الإسلام في واقع الحياة.

ثانيا كُتب الحديث الشريف: فقد شغلت السيرة النبوية حيزا كبيرا في كتب السُنّة المطهرة، فلم يخل كتاب من كُتب الحديث من الإشارة إلى حياة النبي ﷺ، وبعثته، ودعوته، وهجرته، ومغازيه، وسراياه، وتأتي أهمية السنة المطهرة فيما يخص السيرة النبوية في أنها المُكمّل لكتاب الله عز وجل فيما يتعلق بتكوين رؤية متكاملة لأحداث السيرة النبوية، ففيها توضيح للعقائد والآداب الإسلامية، وفيها كثير من الأحكام التعبدية والتشريعية، وفيها بيان بأقوال النبي ﷺ وأفعاله وأحكامه وتقريراته وقضاياه، إلا أن الهدف الأساسي لعلماء الحديث كان منصبا على الأحكام الفقهية، فلم ينشغلوا بتفاصيل الأحداث إلا ما كان لضرورة، كأن يُستدل بها على حكم شرعي، إلا أنها رغم عدم تناولها للأحداث بشكل مفصل فهي موثقة، يجب الاعتماد عليها، وتقديمها على روايات كتب المغازي، والتواريخ العامة، وخاصة إذا أوردتها كتب الحديث الصحيحة، فما كان في كُتب الحديث وثبتت صحته، مقدمٌ على ما في كُتب السير والمغازي، فكُتب السير والتواريخ لم تحظ بما حظيت به كتب الحديث من تمحيص لمتونها وأسانيدها.

أما اشتراط صحة الأحاديث في روايات السيرة فأهل العلم فيها على قولين :
الأول : من لم يشترط تمحيص الأحاديث، وأجاز رواية كل ما روي عن السيرة، لهذا قال الزين العراقي في ألفيته:

وليعلم الطالب أن السيرا تجمع ما صح وما قد أنكرا (١)

وحُجة هذا القول أن كُتب السير ليست مُعتنية بالتصحيح، وإنما نقلوا كل ما سمعوا، فحوت كُتبهم الصحيح، والضعيف، والموضوع، واستدلوا بما روي عن الإمام أحمد أنه قال « ثلاثة كتب ليس لها أصول: المغازي والملاحم والتفسير» (٢) **أما القول الثاني** فيمثله الدكتور أكرم العمري فيقول " إن الاعتماد على صحيح الروايات وَحَسَنها يكفل توضيح الأبعاد التاريخية للسيرة النبوية دون حاجة إلى الضعيف من الروايات، أما الروايات الضعيفة من الناحية الحديثية فلم تستبعد نهائيًا، بل تمت الإفادة منها في الموضوعات التي لا تتعلق بالعقيدة أو الشريعة، فحيث لم نجد روايات صحيحة وفق معايير المحدِّثين، يمكن التعامل معها وفق معايير منهج النقد التاريخي " (٣)

ثالثا كُتب الدلائل والشمائل والخصائص النبوية : والدلائل النبوية أي البراهين الدالة على صدق وصحة نبوة سيدنا محمد ﷺ، وعلى شمول وعموم رسالته، بدلالات واضحة لا تقبل الجدال ، والدلائل نوعان **(دلائل معنوية)** كالقرآن الكريم المعجز في كل زمان ومكان، تحدى الله به جمهور الإنس والجن إلى قيام الساعة، فإعجازه باق ما بقي الليل والنهار، **(ودلائل حسية)** وهي كل معجزة ثبت حدوثها للنبي ﷺ.

---

(١)ألفية العراقي في السيرة، والحافظ العراقي هو العراقي، الحافظ أبوالفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين الكردي الأصل (٧٢٥ - ٨٠٦هـ) تتلمذ عليه عدة من المشهورين، منهم ابنه أبو زرعة أحمد، والهيثمي، وابن حجر العسقلاني وغيرهم.

(٢)الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي - (ج ٤ / ص ٢٢٠) حديث١٥٠٢ وعلق عليه قائلا (وهذا الكلام محمول على وجه وهو أن المراد به كتب مخصوصة في هذه المعاني الثلاثة غير معتمد عليها ولا موثوق بصحتها لسوء أحوال مصنفيها وعدم عدالة ناقليها وزيادات القصاص فيها) ونسب ابن تيمية في مُقدمة التفسير " (مجموع الفتاوى: ٣٤٦/١٣) الضعف إلى نوع الفنّ، لا إلى كتاب معيّن، فقال: المغازي، والتفسير، والملاحم. ولو أراد كتبا معينة لسمّاها. وثانيا: أن مقولة الإمام أحمد تنطبق على عامة كتب المغازي والتفسير، ولا تخصّ كتبا معينة. وثالثا: أن مراد الإمام أحمد - والله أعلم - أن الغالب على هذه الفنون المراسيل، كما روي عنه: ليس لها إسناد. ولم يرد أن هذه الأنواع من الكتب ضعيفة، بل أراد إثبات أن غالب رواياتها مرسلة، والمرسل إذا تعضّد بغيره لم يبقَ ضعيفا.

(٣)مقدمة السيرة النبوية الصحيحة

وكُتب الدلائل كثيرة جدا إلا أن أشهرها " دلائل النبوة " للحافظ البيهقي (ت٤٥٨هـ) فهو يُعد من أشمل وأعظم ما كُتب في السيرة، لما تضمنه من أخبار، ومرويات، وقصص، وحوادث، ومعجزات، وخصائص، وطبائع، وصفات خَلقية وخُلقية.

أما كُتب **الشمائل النبوية فهي** التي تتحدث عن جوانب مهمة من سيرة الرسول ﷺ في أخلاقه، وعاداته، وفضائله وهديه، وعبادته، وسلوكه في الليل والنهار، وصفاته الخلقية والخُلقية، وما كتب عن أخلاقه وسيرته الذاتية، وهي تمثل جانباً كبيراً ومهماً من مصادر السيرة النبوية، فمنها كتاب "الشمائل النبوية " للإمام الترمذي (ت٢٧٩هـ) وكتاب "الشفا بتعريف حقوق المصطفى" للقاضي عياض (ت٥٤٤هـ)

أما **الخصائص النبوية** فهي كل ما اختص به الرسول ﷺ عن غيره من الأنبياء والأمة، وبيان ما اختص به ﷺ عن جميع الأنبياء عليهم السلام، وما اختص به عن الأمة، وقد يشاركه فيه بعض الأنبياء والرسل عليهم السلام، وقد أشار الإمام الشافعي إلى بعض هذه الخصائص في كتابه " أحكام القرآن " كما دون فيها غير واحد من أهل العلم بعده.

رابعا كُتب السير والمغازي المتخصصة وكُتب التاريخ: كنا قد أشرنا إلى مراحل تطور الكتابة في السيرة النبوية من النقل الشفهي حتى صارت علما مُستقلا، تفرغ له غير واحد من كبار العلماء، فاخرجوا لنا كتابات متميزة في مجال السير والمغازي، إلا أن هؤلاء الكُتاب نقلوا لنا كل ما سمعوا كإخباريين، ولم يحققوا فيما دونوه من أخبار، فحفلت كتبهم برصيد ضخم لوصف حياة الرسول ﷺ منذ ميلاده وحتى وفاته، إلا أن هذه الكتابات قد حوت على كثير من الأخبار والأحاديث الضعيفة والموضوعة، فجرى مذهب أهل العلم على الأخذ بما في هذه الكُتب ما دام لا يتعارض مع القرآن الكريم وصحيح السنة المُطهرة، فإن لم تجد الحدث في القرآن الكريم أو صحيح السنة فلا حرج من الأخذ بما في كُتب السير والمغازي والتاريخ شريطة ألا يتعارض مع القرآن وصحيح السنة.

** أبرز مراجع هذا الفصل "المصادر السيرة النبوية" و"المصادر الثانوية للسيرة النبوية" و" السيرة النبوية الصحيحة" و "المواهب والطلائع لدراسة السيرة" و"محاضرة الضوابط في معرفة السيرة للشيخ: صالح بن عبد العزيز آل الشيخ"

الفصل الثاني

الرسالة الخاتمة

رسل الله هم بشر من بني آدم، اصطفاهم الله من بين البشر وكرّمهم، فهم صفوة الصفوة من البشر، اختارهم لتبليغ شرائعه إلي عباده، وفضّلهم على سائر الخلق، فأتم خلقهم، وأحسن خُلقهم، وطهر قلوبهم، وعصمهم من المعاصي والدناءات، وأظهرهم على من عاندهم بالمعجزات.

اختارهم ليبلغوا أوامره ونواهيه، ووعده ووعيده، وليبينوا للناس ما هم بحاجة إليه من أمور الدين، حتى تقوم عليهم الحجة، وتنقطع عنهم الأعذار، قال تعالي [رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً] (١)

وعلي مر التاريخ ومنذ آدم عليه السلام، ما من أمة إلا وأرسل الله فيها رسولا من أنفسهم، يحمل إليهم رسالة التوحيد، ويُعلمهم الشرائع والأحكام التي تنظم حياتهم، رسولا يحمل البشري لمن اهتدى وآمن، ويحمل الوعيد لمن كفر وعاند، قال تعالى [وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ](٢) وقال [وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى](٣)

ورغم اختلاف أجناس هذه الأمم، وتفاوت الأزمنة بينها، وتعدد أماكنها، إلا أن الدعوة التي جاء بها رسل الله تعالي تحمل مضمونا واحدا،هو عبادة الله الواحد الأحد، واجتناب ما يُعبد من دونه، قال تعالى [وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ] (٤) ولعل وحدانية الهدف الذي جاءت به كل الرسالات السماوية هو أكبر دليل على وحدانية وسمو مصدرها، وتعاليه عن كل ما عداه، قال تعالى [وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ](٥)

---

(١)(النساء:١٦٥) (٢)(فاطر:٢٤) (٣)(طه:١٣٤)

(٤){النحل:٣٦} (٥){الأنبياء:٢٥}

قال محمد عبده رحمه الله في رسالة التوحيد ما معناه: إن الله عز وجل أوجب على كل مؤمن ومؤمنة الاعتقاد بأن الله أرسل رسلا من البشر، مبشرين بثوابه، ومنذرين بعقابه، أمروا بتبليغ أممهم ما أمرهم به من تنزيه لذاته، وتبيين سلطانه القاهر فوق عباده، وتفصيل شرائعه وأحكامه، والتصديق في أنهم يبلغون ذلك عن الله عز وجل، والاقتداء بهم، والائتمار بما أمروا، والكف عما نهوا، وأن منهم من انزل الله عليه كتابا يشتمل على ما أراد أن يبلغوه من الخبر عنه، ومن الحدود والأحكام التي علم الخير لعباده في الوقوف عندها، والإيمان بما ثبت تعيينه من الكتب السماوية وهي (التوراة، الزبور، الإنجيل والقرآن) وما لم يثبت تعيينه وجب الإيمان به إجمالا، وأن الله أيد رسله بالمعجزات التي أظهرتهم على من عاندهم، فمتى أدعى الرسول النبوة، واستدل عليها بالمعجزة وجب التصديق برسالته، والإيمان بأن الله وهب رسله كل كمال بشري كالعدل، والصبر، والشجاعة، وعلو النسب، والوفاء بالعهد، والقناعة، والكرم، وسلامة الأبدان من المنفرات، والإيمان بأن الله وهبهم صدق القول وصدّقهم بالمعجزات، والأمانة في تبليغ ما عُهد إليهم أن يبلغوه، وصحة عقولهم وعلوّ فطرتهم وفطنتهم، وأنهم منزهون عما يضاد شيئا من هذه الصفات، وفيما عدا ذلك فهم بشر تجوز عليهم الأعراض البشرية التي لا تؤدي إلى نقص في حقهم، أو إلى نفرة الناس عنهم، كالأكل والمشي في الأسواق والأمراض التي لا تُنفّر، وقد يضطهدوا، وقد تنالهم أيدي الظالمين، بل وقد يُقتلوا عليهم السلام، وحدوث هذه الأعراض في حق الرسل والأنبياء من أمراض، او أذي قد وقع عليهم، إنما هو لزيادة أجورهم والاقتداء بهم، وحث من آمن بهم على الصبر على البلاء.(١)

وبقليل تأمل لرحلة الرسل مع الاجتماع البشري يتبين لنا أن بعثة الرسل حاجة من حاجات البشر، وكمالا لنظام اجتماعهم، وطريقا لسعادتهم في الدنيا والآخرة، فمنزلتهم من الأمم كالعقول من الأشخاص، وبعثتهم حاجة من حاجات العقول البشرية، ونعمة ميّز الله تعالى بها الإنسان عمن دونه من الكائنات.

---

(١) رسالة التوحيد

مُقومات عالمية رسالة الإسلام

أرسل الله عز وجل في كل أمة رسولا يحمل رسالة الله إليهم، يُبين لهم شرائعه، ويُفصل لهم أحكامه، يبشرهم وينذرهم، يدعوهم إلى الوحدة، ويجنبهم الفرقة والشقاق، يحمل لهم رسالة واضحة لا تحتمل الشك أو الريبة، أن دين الله في جميع الأزمان، وعلى ألسن جميع الأنبياء دين واحد، دين يُفرد الله تعالى بالربوبية، والاستسلام له وحده بالعبودية، وطاعته فيما أمر وما نهي، قال تعالى [إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ](١) وقال تعالى [قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ](٢) وقال تعالى [وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ](٣)

فرسالة الإسلام رسالة واضحة المعالم، تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له في عبوديته، وكل الرسالات السماوية التي سبقت الإسلام جاءت لهذه الدعوة، ولإثبات هذه الحقيقة، حقيقة التوحيد الخالص الذي لا شرك فيه.

أما الشرائع السماوية الكثيرة التي جاءت على ألسن الرسل السابقين، فكل رسالة جاءت بالشرائع وصور العبادات التي تتلاءم مع كل أمة وكل زمان، أي أنها جاءت ملائمة للطور الذي كانت تمر به البشرية، فقد ورد في شريعة آدم عليه السلام تزويج بناته لإخوانهم، وفي شريعة نوح عليه السلام أن كل دواب الأرض حلال، وهذا ما كان يتلاءم مع زمانهم، ثم جاءت شريعة موسي عليه السلام، فنسخت كثيراً مما جاء في الشرائع السابقة، قال تعالى [وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ البَقَرِ وَالغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ](٤) فالشرائع قبل الإسلام كانت إما مُطورة، كما كانت شريعة موسى عليه السلام، وإما ناسخة لبعض أحكام ما سبقها كشريعة عيسى عليه السلام قال تعالى [وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ] (٥) ففي هذا بيان بأن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة، وهذا النسخ سببه أن مصلحة الناس تختلف باختلاف الأزمان والأحوال

---

(١)(آل عمران:١٩) (٢)(آل عمران:٦٤) (٣)(النحل:٣٦)

(٤)(الأنعام:١٤٦) (٥)(آل عمران:٥٠)

وأن الاجتماع البشري في تطور مستمر، فلا بد وأن تأتي الشرائع مناسبة لهذا التطور، وهذا من رحمة الله عز وجل بالبشر، فقد جرت سنة الله عز وجل بالتدرج في تربية الأشخاص، فالفطرة الإلهية في شأن الأفراد تقوم على التدرج فالطفل يولد وليس له من المعرفة حظاً وفيراً، ويتقدم به العمر فتتقدم معارفه ويتسع فكره فتتسع مداركه، ويكتشف أسرار ما حوله.

وهذا أيضا شأن الله وسنته في تربية الأمم، فالاجتماع البشري منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام في تطور مستمر، تُعِده الأحداث التي يمر بها إلى رشده، وتهيئه إلى رسالة تجمع الناس على كلمة واحدة، وتُدينهم بدين واحد، حتى جاء بعث النبي ﷺ وقد بلغ هذا الاجتماع البشري ذروة كماله، وتمام نضجه، وأصبحت وحدته بدين واحد شيئا ميسورا، فقد جاءت شريعته بكل ما يحتاج إليه البشر في كل زمان ومكان، بل إن كل الشرائع السماوية التي سبقت الإسلام كانت بمثابة توطئة وتهيئة للاجتماع البشري؛ لاستقبال شريعة الإسلام، فكان الله تعالى يُنّزل منه في كل فترة ما يتناسب مع الطور الذي تمر به البشرية، فما أن انتهى هذا الطور نسخ الله تلك الشريعة، وأتى بشريعة جديدة تطور سابقتها، أو تنسخها، وتلغي أكثر أحكامها، حتى جاء الإسلام لقيادة البشرية الشاردة، بمنهج متكامل يشمل كل جوانب الحياة، فكان ناسخا لكل ما سبقه من تشريع، قال تعالى [وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ](١) وقال[إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلامُ](٢) فعلى مر التاريخ الإنساني، اقتضت حكمة الله عز وجل أن يكون تكليف البشر على قدر استعدادهم، فكانت كل رسالة تحمل من التكاليف ما يناسب حال أمتها، وما فيه صلاحها، ولأن سُنّة الترقي تنتهي بالكامل، فإن شريعة النبي ﷺ شريعة ناسخة لما قبلها، ورسالته رسالة خاتمة [وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ] (٣)
وبالرغم من تعدد الرسالات السماوية، فلم تعم رسالة قبل رسالة الإسلام، وذلك لأن الاجتماع البشري لم يكن مهيئا بعد إلى رسالة تجمعه تحت راية واحدة، أما عمومية رسالة نوح عليه السلام، فإنها كانت مختصة بزمانه فقط، أما رسالة النبي ﷺ فهي رسالة عامة للإنس والجن إلى قيام الساعة، قال تعالى [قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ](٤)

---

(١) {المائدة:٤٨} (٢){آل عمران:١٩}

(٣){سبأ:٢٨} (٤){الأعراف:١٥٨}

لذا فقد جاءت شريعته تخاطب العقل وتحث على العمل، جاءت بصور من العبادات تسمو بالروح والأخلاق، وتربط بين العبيد وخالقهم، وبين البشر بعضهم بعضا، لم تُكره الناس على الانتماء إليها، فقد حباها الله مضموناً يغزو النفوس، ويحرك شغف القلوب، وهذا الذي جعلها تهدى القلوب الضالة، وترد العقول الحائرة، وتنتشر في الدنيا كلها في وقت قصير، وما كان السيف ليملك القوة التي تُخضع هذه العقول، وتأتى بها إلى الإسلام غير مكرهة، فإن هذه الشريعة جاءت بما تحتاجه النفس البشرية من رغبة في معرفة الوجود وموجد الوجود، وفي اكتشاف الحياة الآخرة وبيان صفتها، جاءت لتخاطب العقل بما يفهم، والقلب بما يحتاج، وهذا الباعث هو الذي دفع قلوب المسلمين الأوائل لهذا الدين، وإلا فمن ذا الذي رفع في وجوههم السيف ليؤمنوا برسول الله ﷺ ؟!

لقد جاءت رسالة الإسلام بدعوة صادقة إلى التأمل، والنظر بالعقل في الكون وآياته، ثم الدليل بالحجة والبرهان العقلي على أن الخالق واحد سبحانه ليس كمثله شيء؛ ليسكن في القلوب إيمان بالله تعالى قائم على العقل والبرهان لا على الخرافات والأكاذيب، قال تعالى [أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ](١)

وقال [أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ](٢)

قال الكاتب الإنجليزي برناردشو " لقد وضعت دائماً دين محمد ﷺ موضع الاعتبار السامي بسبب حيويته المدهشة، فهو الدين الوحيد الذي يلوح لي أنه حائز أهلية الهضم لأطوار الحياة المختلفة، بحيث يستطيع أن يكون جذاباً لكل جيل من الناس، ولقد تنبأت بأن دين محمد ﷺ سيكون مقبولاً لدى أوروبا غداً، وقد بدأ يجد قبولاً لديها اليوم" (٣)

فالإسلام عقيدة تتسم بالعالمية، وهذه العالمية تتضح معالمها بما يتضمنه الإسلام من مقومات عالمية، ونظم سامية تغطي كل مناحي الحياة، فلا تترك فيها خللاً، ومن مرونة تجعل الإسلام دين كل العصور، دين يتناسب مع كل زمان، ومع كل مكان، ومع كل عقلية .

---

(١)[الأنبياء ٢٤]　　(٢)[المؤمنون ١١٧]

(٣) تصحيح أخطاء الموسوعة الإسلامية الصادرة عن دار بريل في لايدن بهولاندا (ج ١ / ص ٦٠)

وأول هذه المقومات

١- **تجاوبه مع الفطرة واحترامه لحاجات العقول والقلوب**

٢- **نشر روح الأخوة بين أتباعه وجعل البشرية مزيجا واحدا، تلفظ في ذاتها** دوافع البغي والتجبر على الخلق.

٣- **قدرته على احتواء الثقافات**، والعقائد بداخله، ونشر روح التسامح بين مختلف الطوائف، فدولة الإسلام التي قامت على منهجه قبلت الأخر، وتفاعلت معه أخذا وعطاءً، باعتبار أن الاختلاف سُنّة كونية ماضية باقية إلى يوم الدين، فالوحدة التي يمثلها الإسلام تتعلق بقضايا يمكن نلتقي فيها مع غيرنا كحرية الاعتقاد وعدم الإكراه ووحدة المُثل والقيم والمبادئ والفضائل التي تمثل الإنسانية كلها.

٤- **مفهوم العالمية في الإسلام قائم على احترام الخصوصية**، واحترام الثقافات المختلفة، وعدم مصادرة التباين بين الأمم والثقافات، فالاختلاف في الجنس والدين واللغة والعادات والتقاليد والأفكار والثقافات، إنما هو من عوامل التعارف بين البشر، كما أنه من السنن التي لا تتبدل.

٥- **الإسلام عقيدة لا تميز شعبا على آخر**، أو جنسا على آخر، ولم تأت بمبادئ خاصة تخدم فئة معينة، أو بيئة محددة أو زمن معين، ولم تدْع إلى تفضيل جنس على غيره، أو شعب على غيره، وتطلب له ميزات خاصة، وتمنحه مكانة مميزة، ولم تأت بمبادئ قاصرة على خدمة فئة من البشر دون غيرها، أو عاجزة عن الانتشار والتوغل في الثقافات والبيئات المختلفة، وواقع الإسلام الآن وفيما مضى دليل عملي على قدرته على الانتشار في كل البيئات، ومختلف الثقافات والحضارات، وبمرور الأزمنة المتعاقبة، ولا أدل على ذلك من المنطوق الحرفي لكلمة الإسلام، فإنها لا تشير إلى شخص معين، أو جنس معين، أو مكان أو زمان بعينه، وإنما تحوي كل من اعتنق مبادئه، فتعطي بمجرد فهم معناها الإيحاء بالشمول والعموم .

٦- **بقاء رسالته ومرونتها:** فما من عقيدة ظلت لعقود محافظة على ثوابتها خالية من الشوائب التي تفسدها كعقيدة الإسلام التي حُفظت متنقلة بين صدور الرجال حتى وصلت إلينا كما أنزلت على النبي ﷺ من أربعة عشر قرنا من الزمان، أما مرونتها فتتمثل في شمولها لكافة مناحي الحياة من عقيدة، وتشريع، ونظم، وأفكار، ومفاهيم إيمانية وحضارية، وتتضح هذه المرونة في الاجتهاد واستنباط الأحكام من القرآن وصحيح السنة متى طرأ جديد في المجتمع الإسلامي لم يكن فيه حكم بيّن .

٧- **سهولة ويسر تعاليم الإسلام** وبُعدها كل البعد عن التعقيد والغموض، ويتضح هذا جليا في انتفاء الوساطة بين الخالق سبحانه والمخلوق، بل إن هذه السهولة شملت الانتماء إليها، فرغم عمقها وتشعب فروعها وعظمتها، فإن الفرد لا يحتاج سوى النطق بالشهادتين ليكون من أهلها، كما أن هذه السهولة تتجلى في التكاليف المفروضة على الفرد، فلا يُطلب منه ما فوق طاقته [لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ](١) فالتكليف بمستوى القدرة وكل تعاليم هذا الدين وعباداته خالية تماما من كل مظاهر الغلو والتشدد .

٨- **دعوة الإسلام قائمة على أساس قناعة العقل** والتوافق مع منطقه، كما أنها تبنت دعوة صادقة إلى التأمل، والنظر بالعقل في الكون وآياته، ثم إقناعه بالحجة والبرهان العقلي على وحدانية الله تعالى، [وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ] (٢) ليكون الإيمان بالله تعالى قائما على العقل والبرهان لا على الخرافات والأكاذيب .

٩- **منهج الإسلام قائم على الوسطية والاعتدال** :[وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا] (٣)

وقال تعالى [وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ] (٤)

كانت هذه جملة من المقومات التي جعلت من الإسلام رسالة عالمية تخاطب كل البشر بلا استثناء، دعوة جاءت لتحرير البشرية كلها من الانحرافات، والضلالات، والعبودية لغير الله، وحكم الطواغيت بدلا من الله تعالى، دعوة اتضحت عالميتها منذ يومها الأول، فلم تكن عالميتها إفرازا لمرحلة ثانية من أطوارها، وقد جاءت الآيات المكية توصل هذه الحقيقة في أذهان المسلمين منذ اليوم الأول لاعتناقهم لها [وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ](٥) فهي ليست دعوة قاصرة على جنس، أو طائفة، أو بيئة دون غيرها، كما أنها لم تكن ناتجة عن ردة فعل لسوء أوضاع بيئة معينة، أو انحراف فئة معينة، كما هو شأن المناهج الوضعية، وإنما هي منهج شامل متكامل، عني بكل جوانب الحياة ونظمها، وهكذا فهمها الرعيل الأول، فارتقت بهم لتجاوز طوق المكان بالتطلع إلى العالمية، وتجاوز طوق الزمان بشمولية التشريع ومرونته في التعامل مع مسائل الحياة المتجددة، فيا ليت مسلمي الحاضر يستوعبون حقيقة هذه الرسالة وسموها، كما استوعبها الرعيل الأول .

---

(١){البقرة:٢٨٦} (٢){العنكبوت:٤٣}

(٣){البقرة:١٤٣} (٤){القصص:٧٧}

(٥){سبأ:٢٨}

الفصل الثالث

الجزيرة العربية قبل الرسالة السماوية

إن الله عز وجل لم يختر النبي ﷺ لتحمل أعباء رسالته، والعرب ليكونوا أمة الدعوة عبثا، ولم يجعل مكة القائمة بواد لا زرع فيه ولا ماء مهدا لدعوته وموقعا لبيته صدفة، وإنما كان اختيار الرسول والأمة والبلدة معجزة أحبكت خطواتها العناية الإلهية، وجعلت من العرب سببا؛ لتنفيذ الإرادة الإلهية، إنها معجزة الإسلام التي انطلقت على يد رجل أمي فقير، في بيئة قاحلة وواقع جاهلي مرير؛ لترد البشرية قاطبة إلى وجهتها وتحدد لها سبلها، وتعلمها الخير، والرحمة، والحضارة، والنظام، والأخلاق .

إن ظهور الإسلام يعتبر حدا فاصلا في حياة الأمة العربية، بل إن الوجود الحقيقي لهذه الأمة ظهر بظهور الإسلام، فالإسلام هو الذي اكتشف العرب وجعل منهم أمة وشيّد بهم حضارة، لينطلقوا من تلك البيئة القاحلة برسالة الإسلام إلى ربوع الدنيا يُخضعونها لحكم الله تعالى، فقهروا غطرسة الفرس والروم، وأبادوا سلطانهم وانساحوا في الأرض؛ ليؤدوا الدور الذي قُدّر لهم .

نعم إن الإسلام هو الذي اكتشف العرب، وحمل لهم من الخير ما لم يكن في حسبانهم، لكن يُخطئ من يتوهم أن العرب قبل الإسلام كانوا أمة في طي النسيان، لم يكن لها من الفضائل الإنسانية حظا، وإلا ما كان الله ليختارهم دونا عن غيرهم من أهل زمانهم؛ ليُخرج منهم النبي الخاتم، ويحملوا عبء الرسالة الخاتمة، فلا يُعقل أن يعهد الله بالرسالة الخاتمة لأمة مُعطلة، لا تقوى على أعباء نشرها في ربوع الدنيا.

إن الأمة العربية كانت تُعدّ بطريقة ربانية، وفقا للتدرج للذي اقتضته الحكمة الإلهية في تربية الأمم، حتى إذا بلغت ذروة الكمال الذي يؤهلها إلى تحمل أعباء نشر الرسالة السماوية اصطفى الله منها نبي مرسل، ولعل استجابة العرب لتعاليم الإسلام أجَل دليل على أنهم كانوا أمة لديها من المقومات، والخبرات والعادات، والتقاليد ما يكفي لبناء مجتمع مُتماسك، لكن كانت تنقصه الدفعة الروحية، وهذا ما فعله الإسلام في هذه القبائل.

** أبرز مراجع الفصل الثاني الرسالة الخاتمة ((رسالة التوحيد للإمام محمد عبده - مُذكرة التوحيد والفرق - عظمة الرسول - الإعلام في القرآن - تصحيح أخطاء الموسوعة الإسلامية الصادرة عن دار بريل في لايدن بهولاندا))

نظرة في جغرافية شبه الجزيرة

تشغل شبه جزيرة العرب الجزء الجنوبي الغربي لقارة آسيا، تحدها المياه من ثلاث جهات، في الغرب البحر الأحمر وفى الشرق بحر عمان وخليج العرب، وفى الجنوب المحيط الهندي، والحد الشمالي بري، يمتد حتى حدود فلسطين وسوريا غربا والعراق شرقا، فهي أكبر شبه جزيرة في العالم، يبلغ متوسط عرضها سبعمائة ميل، ومنتهى طولها ألف ومائتا ميل.

ورغم كونها شبه جزيرة، فقد أطلق عليها العرب ـ تجاوزا ـ جزيرة العرب لما يرون البحار والأنهار تكاد تحيط بها من جميع أقطارها وأطرافها.

ومناخها صحراوي شديد الحرارة، يعتدل نوعا ما في الشتاء، أما الأمطار فهي عامة قليلة إلا في الجنوب حيث الأمطار الموسمية في الصيف، وكذلك في الشمال الغربي حيث أمطار الرياح الغربية في الشتاء، وكلما تعمقنا داخل الجزيرة قلت الأمطار، ولهذا أسموها غيثا، فبدونها تجف الأرض، ويحل الجدب، وتنعدم أوجه الحياة بها، لذا كان غالبية أهلها يعتمدون على معيشة الترحال خلف المياه والمراعي، فعلى الرغم من هذه المساحة الشاسعة التي تشغلها جزيرة العرب إلا أنها ليس بها نهر جار، أو بحيرة، أو أوقات معروفة للأمطار يمكن الاعتماد عليها في الزراعة.

ورغم أن صورة الحياة بأرض العرب تبدو قاتمة حيث حياة البداوة والترحال بحثا عن أسباب الحياة والدفاع عنها، والحروب التي قد تنشب بسبب بئر أو مرعي فتستمر لسنوات، إلا أن هذه الطبيعة كانت قدَرا للعرب يتربون فيه تربية خاصة، تؤهلهم لحمل رسالة الإسلام، ونشرها في كل ربوع الدنيا.

فهذا الموقع المتميز لشبه الجزيرة العربية قد جعلها في منعة من أي غزو أجنبي أو عقائدي، فقسوة الحياة في الصحراء، وجدب أرضها، أخرجتها من حسابات المستعمرين في العهود القديمة، كذلك كانت صحراء العرب طريقاً للقوافل التجارية القادمة من الهند وما جاورها والمتجهة إلى مصر وبلاد الروم، فكان العرب حُرّاس هذه القوافل ومرشديها إلى دروب الصحراء، فأثرى حالتهم الاقتصادية، وتعلموا فنون التجارة والكسب، وكانت مكة أكثر بلاد العرب تكسبا من التجارة، حيث كانت تمسك بزمام القوافل المتجهة إلى البحر الأبيض والمنحدرة إلى المحيط الهندي.

كما أن هذه الطبيعة الصحراوية قد أثرت بدورها على من عاشوا فيها، فكان سعيهم الدائم للمحافظة على أسباب الحياة والدفاع عنها له أجَل تأثير في بناء

شخصية الرجل العربي، فتعلم الصبر واتصف بالشجاعة والإقدام، وتوفرت له بنية قوية، وقدرة هائلة على تحمل الصعاب، فكان العربي يُفضّل الموت على أن يتصف بالجبن أو أن يحيا ذليلاً، فصار من أشد الناس اعتزازا بحريته وكرامته، ولأن جدب الصحراء وقسوة الحياة فيها قد افترض عليهم الترحال بحثا عن المرعي والماء، فكان طبيعيا أن تكثر الصراعات والحروب بين القبائل، بسبب الآبار والمراعى فصار للعرب باعٌ طويلٌ في فنون القتال والتخطيط العسكري.

ويمكن القول إن هذه الطبيعة القاسية قد ربّت بداخل أهلها كماً هائلا من الفضائل والقيم الإنسانية وموروثا ضخما من العادات الطيبة، والتي كانت من أهم أسباب ترابط ووحدة الدولة الإسلامية فيما بعد.

الجنس العربي

أطلق لفظ الساميون على الشعوب التي عاشت في الشرق الأوسط والتي جمعتهم خصائص مشتركة وتحدثوا بلغات كانت في الأصل لهجات متقاربة، تطورت إلى لغات متعددة، لكنها ترجع إلى أصل لغوي واحد.

والعرب أشد فروع الجنس السامي تمسكا بالخصائص السامية، وذلك بسبب انحباسهم داخل نطاق الجزيرة العربية، كما أن لغتهم العربية ظلت أكثر اللغات السامية محافظة على خصائص اللغة السامية الأم، ويُعدُّ الإعراب أهم هذه الخصائص، أما العرب فيقسمهم المؤرخون إلى قسمين:

١- **العرب البائدة:** وهم مجموعة من القبائل العربية التي عاشت في أزمنة سحيقة، ولكنهم هلكوا وأبيدوا، ولم يسجل لوجودهم تاريخ حقيقي، وقد جاء القرآن الكريم ببعض من قصصهم، وكيف كان هلاكهم وجعلها عبرة لمن خلفهم من الأمم، فمنهم عاد قوم نبي الله هود ﷺ، وكانوا يعيشون في جنوب شرق جزيرة العرب في صحراء الأحقاف بالقرب من صحراء الربع الخالي، ومنهم ثمود قوم نبي الله صالح ﷺ، وكانوا يعيشون في شمالي غرب الجزيرة، فيما بين الحجاز والشام.

٢- **العرب الباقية وينقسموا إلى قسمين:** عرب عاربة وعرب مستعربة

أ - **العرب العاربة:** ويُسموا بالقحطانيين نسبة إلى يعرب بن قحطان، وموطنهم الأصلي بلاد اليمن، وقد ساعدت الظروف الطبيعية عرب الجنوب على إقامة حياة مستقرة تعتمد على الزراعة، فقد كان لديهم نظام مُحكم لتدبير شئون

الزراعة، فشيدوا سد مأرب لحبس المياه في فصل الأمطار، واستخدموا طُرق الري الصناعية، فأقاموا حياة نباتية مزدهرة كانت الركيزة الأساسية لنهضة عرب الجنوب بحضارة لا تزال بقاياها قائمة لم تندثر؛ لتدل على عظمها، كما نشأت بينهم وبين بلاد العراق والشام ومصر علاقات تجارية واسعة، فقد كانت قوافلهم تجوب الصحراء العربية تجاه الشمال والشرق، وصار لليمنيين شهرة واسعة في مجال التجارة البرية والبحرية بعد امتلاكهم أسطولا تجاريا ضخما جاب موانئ الشرق الأقصى وشرق إفريقية ومصر، وساعدت هذه المقومات الاقتصادية عرب الجنوب على تنظيم حياتهم السياسية، فقد قامت العديد من الممالك اليمنية والتي لعبت دورا واسعا في تاريخ الحضارة العربية القديمة، وكان أهم هذه الممالك معين، وقتبان، وسبأ، وحمير.

كان أهم ما يميز هذه الحضارة أنها كانت حضارة عربية خالصة، لم تأتهم من الخارج، بل نمت وتطورت بالداخل فقد كان لهم قوانين وأنظمة تنظم أمور معيشتهم، كما برعوا في عمارة القصور وتشييد السدود وصناعة السفن، كما عُرف عنهم احترامهم للنظام وميلهم إلى الاستقرار، ورغم هذا الرقي والتقدم في النواحي الاقتصادية، إلا أنهم كانوا في مجال العقيدة كبيان خاو على عرشه، فكانوا يعبدون الشمس والقمر والنجوم من دون الله العظيم.

وقد تشعبت قبائلهم وانتشرت في بقاع عديدة بالجزيرة العربية، فكلما أوشكت دولة على الانهيار خرجت قبائل منهم مهاجرة نحو الشمال حاملين حضارتهم ودينهم معهم، واختاروا جوار الأمم المتحضرة، كقبائل أولاد جَفنة الذين أسسوا إمارة الغساسنة بالشام على حدود دولة الروم، وقبائل المناذرة واللخميين الذين أسسوا إمارة الحيرة على حدود دولة الفرس، وحتى من نزل منهم بداخل الجزيرة أظهر ميلا إلى التحضر والاستقرار، كقبائل الأزد الذين ينتسب إليهم الأوس والخزرج أهل المدينة، وقد ظل القحطانيون يمثلون عنصرا مباينا لعرب الشمال حتى ظهور الإسلام.

ب ـ العرب المُستعربة: وهم العرب العدنانيون الذين جري في عروقهم دم عربي من أمهم الجرهمية العربية، ومبدأ الأمر حينما ترك الخليل إبراهيم عليه السلام زوجته هاجر وابنه إسماعيل عليه السلام بأحد أودية الحجاز ـ الذي قامت فيه مدينة مكة فيما بعد ـ امتثالا لأمر الله عز وجل ـ ولما نبع ماء زمزم نزلت بعض القبائل العربية بالقرب من هذا الماء، وكان منهم قبيلة جرهم العربية، والتي تزوج منها إسماعيل عليه السلام وظلت ذريته في تنامي حتى عُرفوا بالعرب العدنانية، أو عرب الشمال، تمييزا لهم عن القحطانيين.

وقد فرضت عليهم الطبيعة الصحراوية أن يعيشوا معيشة بدوية تعتمد على رعي الإبل والأغنام، ولم تعرف هذه القبائل الوحدة والاستقرار، إلا ما كان من استقرار ببعض الواحات في الحجاز، وكذلك إمارتي النبط وتدمر في شمال الجزيرة .....

اللغة العربية

هي إحدى اللغات السامية التي نشأت في الوطن الأصلي للساميين، وتطورت داخل نطاق الجزيرة العربية بعيدا عن أي تأثر باللغات الأخرى، وذلك لأن غير العرب من الساميين قد تركوا جزيرة العرب واتجهوا نحو العراق والشام والحبشة، فتأثرت لغاتهم بلغات الأقاليم التي هاجروا إليها، ورغم أن العرب آخر الساميين معرفة للنظام الكتابي إلا أن لغتهم هي الوحيدة التي بقيت داخل موطنهم الأصلي، ولم تلق مصير غيرها من اللغات السامية.

أما الخط العربي فقد نمى وتطور في شمالي الحجاز، فنشأ من الخط النبطي، ثم تطور حتى أخذ صيغته النهائية في أوائل القرن السادس الميلادي.

وقد كان لقريش ـ سكان مكة ـ أكبر الفضل في تطور اللغة العربية لعدة عوامل أهمها :

١- **الدين:** كانت مكة مقصد الحجاج من قبائل شتي بلهجات مختلفة، وكانت قريش تستمع إلى الوافدين فتثري لغتها الفصحى بما يروق لها من هذه اللهجات، وتبث لغتها عبر الحجاج إلى كل قبائل العرب بالجزيرة.

٢- **التجارة:** كما كانت مكة مقصد الحجاج، كانت أيضا مقصد التجار، فكان يُقام بها أكبر الأسواق في الجزيرة، وكان لأهلها في كل عام رحلتين إلى الشام والى اليمن، والتجار قوم صناعتهم الكلام، فكان لزاما عليهم أن يطوروا من لغتهم، ويضيفوا إليها ما يثريها لتخدم تجارتهم.

٣- **الأسواق العربية:** والتي كان يُعقد بها مجالس لأعظم شعراء وخطباء العرب، والتي جعلت من لسان قريش المقام الأول في الجزيرة كلها، فعُرف القرشيون بحسن الخطابة وفصاحة اللسان.

كذلك فإن حياة الثراء الحضاري والمادي التي كان يعيشها أهل مكة بسبب التجارة جعلت لغتهم في تطور مستمر لتساير هذا التطور في طبيعة حياتهم، كما أن هذا النفوذ الديني والتجاري قد أضاف لمكة مكانة سياسية عالية على ما دونها من مدن الجزيرة، وهذه المكانة هي التي دفعت الصديق ﷺ بالقول يوم سقيفة بني ساعدة يوم البيعة على الخلافة بعد وفاة النبي ﷺ

" إن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب داراً ونسباً "(١) وحينما عزم عثمان بن عفان ﷺ نسخ المصحف دَعَا زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ وَسَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ فَنَسَخُوهَا فِي الْمَصَاحِفِ، وَقَالَ عُثْمَانُ لِلرَّهْطِ الْقُرَشِيِّينَ الثَّلاثَةِ إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ، فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ (٢) فقد كان نزول القرآن بلسان قريش تأكيدا على كمالها وتمامها على ما دونها من اللهجات في الجزيرة العربية؛ وليحفظ الله هذه اللغة بالقرآن حتى نهاية الزمان، قال تعالى [إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ] (٣)

ولعل أهم ما يميز اللغة العربية عن باقي اللغات السامية كثرة مفرداتها، وتنوع أساليبها، ووضوح مخارج حروفها، وهذا ما جعلها في المقدمة عن باقي اللغات السامية الأخرى.

والذي لا مراء فيه أن اللغة العربية قد استمدت مفرداتها من كثير من الروافد، فإسماعيل ﷺ كانت أمه مصرية، وأبوه ﷺ كان يعرف اللغة الكلدانية، وتزوج من قبيلة جرهم العربية، ويبدوا أن لغة أبويه قد امتزجت بلغة أصهاره العرب، فنشأت من ذريته أجيال تتحدث اللغة العربية بعدما استمدت الكثير من مفردات هذه اللغات، ثم ظلت هذه اللغة في تطور داخلي مستمر حتى صارت اللغة الفصحى هي لسان معظم العرب في الجزيرة، إبان زوال الدولة الحميرية في مطلع القرن السادس الميلادي .

وبعد نزول القرآن دخلت اللغة العربية مرحلة جديدة لم تشهدها من قبل، وهي مرحلة تدوين وتوثيق النصوص اللغوية، كما شهدت محاولات جادة لإصلاح النظام الكتابي، والتي قام بها عدد كبير من علماء المسلمين، وما أن اتسعت رقعة الدولة الإسلامية حتى دخلت اللغة العربية في صراع مع ما تبقي من اللغات السامية، وأهمها اللغة السريانية لغة الكنيسة المسيحية، ولكن بعد اتساع الرقعة الجغرافية للدولة الإسلامية، هيمنت اللغة العربية على ما دونها من اللغات واللهجات، فأقرها رجال الكنيسة، ثم دانت مصر للعربية، وجابت اللغة العربية كل ربوع الدنيا مع الفاتحين المسلمين والتجار، وشهدت مجد الحضارة الإسلامية بكل علومها ومناهجها وميادين بحثها.

---

(١)تاريخ الرسل والملوك - (ج ٢ / ص ١١٨)

(٢)البخاري٣٥٠٦ وسنن الترمذي ٣٣٨٧

(٣)(الحجر:٩)

حروب مستمرة

عاش العرب في الجاهلية حياة قوامها الترحال، بحثا عن أسباب الحياة من مرعي وماء، والتي ضنت بها الطبيعة على أرضهم، لذا فقد كان طبيعيا أن تنشب بينهم الصراعات والحروب بسبب المراعي والآبار، وكان هذا سببا في أن يحيا العرب كقبائل متفرقة، كل قبيلة تشمل أعدادا من الأسر التي تربطها العصبية والدم، تدخل في تحالف أو جوار مع غيرها من القبائل؛ لدفع العدوان الذي قد يقع عليها بعدوان مثله، فعاشوا حياة حربية تقوم على شريعة الأخذ بالثأر، ومبدأ أنصر أخاك ظالما أو مظلوما ـ قبل أن يُدخِل عليه الإسلام المعني الحقيقي لنصرة الظالم برده عن ظُلمه ـ فأصبح سفك الدماء، وكأنه سُنّة من سننهم، حتى أن بعض القبائل اتخذت الغزو كوسيلة من وسائل العيش، وصارت كل قبيلة مستعدة في أي وقت للحرب والإغارة على من حولها، فتحولت أيام العرب إلي وقائع حربية، وتعددت الأحلاف بين القبائل، فكان ينضم الضعيف للقوي، والقليل للكثير، ابتغاء الحماية ورد العدوان بالمثل، وأغلب حروبهم كانت بسبب نزاع بين بعض الأفراد من قبيلتين مختلفتين بسبب ثأر أو إهانة، فتتحول إلى نزاع بينهم، ثم ينضم الأحلاف، فتكون حربا عامة قد تظل لعدة أعوام، وفي هذا يقول الشاعر

الشيء يبدؤه في الأصل أصـــــغره	وليس يصلى بكل الحرب جانيـــها
والحرب يلحق فيها الكارهون كما	تدنو الصِّحاح إلي الجربى فتعديها

وكانوا يسمّون هذه الحروب بأسماء البقاع والآبار التي تقع بجانبها، مثل يوم عين أباغ بين المناذرة والغساسنة، ويوم ذي قار بين قبائل بكر والفرس، وقد يسمّونها باسم من كانوا سببا في اشتعالها، كحرب البسوس وحرب داحس والغبراء، وهاتين الواقعتين كانتا من أشهر حروب العرب وأطولها زمانا، وكانت أسبابهما خير دليل على واقع تشبع بالفساد في كل صوره فغدت الحياة عندهم لا معنى لها ولا قيمة، فحرب البسوس كانت بسبب ناقة، وحرب داحس والغبراء كانت بسبب رهان على سباق للخيل، وظلت رُحى الحرب دائرة قريب من أربعين عاما تزهق الأرواح من أجل ناقة !!

ولا عجب، فحينما تنعدم القيم الروحية في أي مجتمع لا تستبعد عليه دناءة الهمم وانحطاط الأهداف بل وانعدام القيم، ولعل هذا يفسر لنا ارتفاع نسب الانتحار في المتجمعات الغير المسلمة رغم توفر وسائل الترفية التي لم يسبق لها مثيل.

ومن حروبهم أيضا يوم بُعاث بين الأوس والخزرج، وحرب الفجَار بين كنانة وقريش من جهة وقيس عيلان من جهة، وغير ذلك معارك كثيرة، فقد حوّل العرب حياتهم إلى صراع مستمر، فغدو وكأنهم يعيشون في غابة لا بقاء فيها لضعيف، ورغم ما جناه الإسلام من فوائد هذه الحروب من إجادة العرب لفنون القتال والتخطيط العسكري، إلا أن هذه النعرة الجاهلية والعصبية القبيلة ظلت دفينة في نفس العربي تظهر حينا وتختفي أحيانا.

أحوال العرب السياسية

لا يمكن لأي مجتمع أن يشكل وحدة سياسية ما لم تتوافر لديه الإمكانات الاقتصادية التي تساعده على الاستقرار والتجمع في وحدة سياسية، لذا فإن الجزيرة العربية لم تشهد وحدة سياسية تجمعها كلها تحت راية واحدة من الجنوب إلى الشمال قبل ظهور الإسلام، وذلك بسبب الطبيعة الصحراوية التي افترضت عليهم البداوة والترحال خلف المراعي والآبار، ولكن هذا الوضع لم يمنع من ظهور تجمعات سياسية على نطاق محدود في أقصى الجنوب حيث الاستقرار الذي نعم به أهل اليمن بسبب وفرة المياه، وأقصى الشمال في المناطق المجاورة للفرس والروم، وظلت مناطق وسط وشرق الجزيرة بعيدة عن أي شكل من أشكال التجمع السياسي حتى ظهور الإسلام.

ممالك الجنوب: ساعدت الظروف الطبيعية أهل اليمن على الاستقرار والعمران، وذلك بسبب ازدهار الزراعة التي اعتمدت على مياه الأمطار الموسمية، والتي أحسن أهل اليمن استغلالها، فأقاموا سد مارب، والذي أعتبر نقلة هامة في تاريخ اليمن القديم، فضمنوا مصدرا ثابتا للمياه لاستخدامها في الزراعة طوال العام، ونظموا حياتهم السياسية التي تتناسب مع استقرارهم وعمرانهم، وبالتدريج ظهرت عدة ممالك يمنية ذات حكومات وجيوش منظمة، واهتموا بالتجارة فشيّدوا أسطولا تجاريا كبيرا جاب البحار من حولهم، وانشأوا الموانئ، وازدهرت أحوالهم الاقتصادية وامتدت حضارتهم ـ متنقلة بين الأسر المالكة ـ إلى ما قبل ظهور الإسلام بفترة قصيرة، وأشهر هذه الممالك، مملكة سبأ التي لا تزال بقاياها موجودة لتدل على عظمها بعدما سطروا للبشرية تاريخا مشرفا للحضارة العربية الخالصة.

الإمارات العربية في الشمال: تمكن عرب الجنوب المهاجرين نحو الشمال من تشكيل وحدات سياسية، وإن لم ترتق إلى مستوى الدول العُظمي، إلا أنها لعبت دورا سياسيا هاما في المناطق التي قامت بها، وظلت حاجزا منيعا بين قبائل البدو العربية وبين إمبراطوريتي الفرس والروم، فقد نشأت إمارة الحيرة تحت أعين الفرس، وخضعت لسيطرتهم، وفي الوقت نفسه ساعد الروم عرب الجنوب المهاجرين نحو الشام على إقامة إمارة الغساسنة؛ لتكون حاجزا بين الروم وبين هجمات البدو العرب؛ ولتكون عونا للروم في حروبها ضد الفرس، وظل لهما وجود سياسي حتى بعد ظهور الإسلام، حتى قدمت جيوش الفتح الإسلامي لتضم هذه الممالك إلى الدولة الإسلامية.

الأوضاع السياسية بالحجاز: إذا كانت الظروف الاقتصادية قد مكنت أهالي الجنوب والقبائل المُهاجرة للشمال من إقامة دول منظمة وحكومات مستقرة، فالوضع بالحجاز كان مختلفا تماما، فقد عاشت القبائل العربية في إقليم الحجاز حياة بدوية غير مستقرة، قوامها الترحال بحثا عن أسباب الحياة من مرعى وماء، وعلى الرغم من اتساع إقليم الحجاز، إلا أن عدد المُدن التي ينعم أهلها بالاستقرار كان قليلا، وكانت مكة أهم مدينة عربية، ليس فقط في إقليم الحجاز بل أيضا في الجزيرة كلها، وذلك لوجود بيت الله فيها، كذلك مدينة الطائف، والتي كانت تحف بها أودية وآبار كثيرة، ساعدت أهلها على الاستقرار، ثم يثرب موطن الأوس والخزرج، وهي تقوم في واد خصب تكثر به الآبار والعيون مما جعلها واحة جميلة ممتلئة بالنخيل والزروع، ثم خيبر ووادي القرى موطن اليهود، وما دون ذلك كانت قبائل عربية دائمة الترحال، وكانت كل قبيلة بمثابة وحدة سياسية مستقلة، تحكمها الأعراف والتقاليد ويرأسها شيخ القبيلة، وتربطها بغيرها من القبائل، إما تحالفات وصداقة، أو عداء وحروب، فكانت الحياة في هذه القبائل تعتمد على الحرية المُطلقة التي لا يحدها نظام سياسي بعينه، وكان العرب لا يُفضلون شيئا على معيشتهم البدوية، فكانوا يعيشون حياة بعيدة تماما عن الترف والتكلف، وكان إقليم الحجاز أقل أقاليم الجزيرة شهرة قبل الإسلام، وذلك لطبيعة الحياة القاسية التي أبعدته عن أي محاولة من الدول الاستعمارية لبسط نفوذها والسيطرة عليه، ولم يدُم الحال طويلا حتى صار هذا الإقليم النواة الأولى للدولة الإسلامية التي جاءت بحضارة أثرت الفكر البشري لعدة قرون.

وعلى الرغم من هذا الوضع السياسي في الجزيرة العربية - ممالك وإمارات وأحلاف - إلا أن فكرة الأمّة العربية التي تجمع كل العرب تحت لواء واحد لم تكن موجودة، وذلك لغلبة العصبية القبلية التي أبعدت العرب عن انتمائهم الحقيقي للجنس العربي عامة، كذلك كانت الحروب فيما بين العرب بعضهم بعضا تكاد لا تنتهي، فما أن تنتهي حرب حتى تنشب أخرى، مما زاد المُشاحنات والعداوة بين القبائل العربية بعضها بعضا، وكان الفرس والروم هم من يجنون ثمار هذه الحروب، فإقامة دولة تجمع العرب تحت راية واحدة لا يعني إلا تهديداً لاستقرارهم، وضرب نفوذهم وسيطرتهم على كثير من الأراضي العربية، حتى منّ الله على العرب برسالة الإسلام، وجابوا الأرض فاتحين تحت راية الإسلام، فبسطوا سُلطانهم على ممتلكات الفرس والروم، وصاروا دولة تشكل السياسة العالمية آنذاك.

أحوال العرب الاجتماعية

عاش العرب في الجزيرة بين حالين: مجتمعات مستقرة، وقبائل مُتفرقة، وكان الفارق بين المعيشتين كبير، ففي المُجتمعات المستقرة كممالك اليمن وإمارات الشمال، ينقسم المُجتمع إلى ثلاث طبقات: طبقة الحُكام والأمراء، وهم صفوة المُجتمع أولى الأمر والنهي يعيشون حياة الترف والثراء الفاحش، ثم طبقة التُجار والأعيان وهم وإن كانوا يُجارون الطبقة الأولى في حياة الترف إلا أنهم بلا نفوذ أو سُلطان، ثم طبقة العامة، وهُم منّ يكدحون ليتمتع غيرهم فتُملأ الخزائن بكدهم ويتحملون ويلات الحروب واستبداد الحُكام فقد كانوا أدنى مراتب السُلم الاجتماعي .

أما القبيلة فكانت تتألف من ثلاث طبقات: الأولى أبناؤها وْهم من يربط بينهم النسب والدم، والطبقة الثانية هُم العبيد والخدم، وكانوا يُجلبون من البلاد المُجاورة، وأهمها الحبشة، وكانوا يُباعون في الأسواق ويُسخرون لخدمة سادتهم، والطبقة الثالثة: هم الموالي وهم من كانوا عبيدا ثم أعتقوا، ومنهم أيضا الخُلعاء، وهم من يُنفون من قبيلتهم لكثرة جرائرهم، وقد يدخلون في جوار قبيلة أخري فيتساوون في الحقوق مع أبنائها، وقد يتخذون أعالي الجبال سكنا لهم ويعيشون على النهب وقطع الطرق.

وكان العرب كلهم سادة، فقيرهم وغنيهم، فالفقر ما كان ليُقيد حرية العربي وامتلاكه زمام أمره.

وعلى الرغم من طبيعة حياتهم البدوية البسيطة، إلا أن العرب كان لديهم كما هائلا من الأخلاق والعادات التي كانت تحدد علاقة العربي بمن يُعايشونه، فلما كانت القبيلة هي الوحدة الأساسية للحياة الاجتماعية في الصحراء، كان أفراد القبيلة متضامنين أشد ما يكون التضامن، فربما ينشب الصراع بين القبائل ثأرا لمقتل أحد أفراد القبيلة، أو حفاظا على كرامة أحد أبنائها، وكان لكل فرد على أخيه النُصرة والتأييد، فكانت العصبية للجنس والرحم أساس النظام الاجتماعي، وفي هذا يقول الشاعر

لا يَسألونَ أخاهُم حينَ يَندُبُهُم　　　في النائِباتِ عَلى ما قالَ بُرهانا

فكانت القبيلة تُسبغ حمايتها على كل أبنائها وهم أحياء، أما في حالة القتل، فالثأر له فرض على كل القبيلة، كذلك كان لأبناء القبيلة الصرحاء الحق في الإجارة، وهو أبرز حقوق المواطنة في القبيلة العربية، إذ أنه يُضفي حماية القبيلة على رجل أجنبي عنها، ويصبح لهذا الجار ما لأفراد القبيلة من حقوق، كما أن عليه ما عليهم من واجبات، وكانت حماية هذا الجار فرضًا على القبيلة كلها، تدافع عنه وتقاتل طلبًا لثأره، كما تقاتل طلبًا لثأر الصريح منها، وكانوا يكفلون هذا الحق للرجال والنساء على السواء.

أما النكاح في الجاهلية، فقد بينت صوره السيدة عائشة - رضي الله عنها - فقالت " كانَ النِّكَاحَ فِي الجَاهِلِيَّةِ عَلَى أرْبَعَةِ أنْحَاءٍ: فَنِكَاحٌ مِنْهَا نِكَاحُ النَّاسِ اليَوْمَ، يَخْطُبُ الرَّجُلُ إلَى الرَّجُلِ وَلِيَّتَهُ أوِ ابْنَتَهُ، فيُصْدِقُهَا ثُمَّ يَنْكِحُهَا .

وَنِكَاحٌ آخَرُ كَانَ الرَّجُلُ يقولُ لامْرَأَتِهِ إذَا طَهُرَتْ مِن طَمْثِهَا أرْسِلِي إلَى فُلَانٍ فَاسْتَبْضِعِي مِنْهُ، ويَعْتَزِلُهَا زَوْجُهَا، وَلَا يَمَسُّهَا أبَدًا، حتَّى يَتَبَيَّنَ حَمْلُهَا مِن ذلكَ الرَّجُلِ الذي تَسْتَبْضِعُ مِنْهُ، فَإِذَا تَبَيَّنَ حَمْلُهَا أصَابَهَا زَوْجُهَا إذَا أحَبَّ، وإنَّمَا يَفْعَلُ ذلكَ رَغْبَةً فِي نَجَابَةِ الوَلَدِ، فَكانَ هذا النِّكَاحُ نِكَاحَ الاسْتِبْضَاعِ .

وَنِكَاحٌ آخَرُ يَجْتَمِعُ الرَّهْطُ ما دُونَ العَشَرَةِ فَيَدْخُلُونَ علَى المَرْأَةِ كُلُّهُمْ يُصِيبُهَا، فَإِذَا حَمَلَتْ وَوَضَعَتْ، وَمَرَّ عَلَيْهَا لَيَالِيَ بَعْدَ أنْ تَضَعَ حَمْلَهَا، أرْسَلَتْ إليهِم فَلَمْ يَسْتَطِعْ رَجُلٌ منهمْ أنْ يَمْتَنِعَ حتَّى يَجْتَمِعُوا عِنْدَهَا تَقُولُ لهمْ قدْ عَرَفْتُمُ الذي كانَ مِن أمْرِكُمْ، وقدْ وَلَدْتُ فَهو ابنُكَ يا فُلَانُ، تُسَمِّي مَن أحَبَّتْ باسْمِهِ، فَيَلْحَقُ به وَلَدُهَا، لا يَسْتَطِيعُ أنْ يَمْتَنِعَ به الرَّجُلُ .

وَنِكَاحُ الرَّابِعِ يَجْتَمِعُ النَّاسُ الكَثِيرُ فَيَدْخُلُونَ علَى المَرْأَةِ لا تَمْتَنِعُ مِمَّنْ جَاءَهَا وهُنَّ البَغَايَا كُنَّ يَنْصِبْنَ علَى أبْوَابِهِنَّ رَايَاتٍ تَكُونُ عَلَمًا فمَن أرَادَهُنَّ دَخَلَ عليهنَّ، فَإِذَا حَمَلَتْ إحْدَاهُنَّ وَوَضَعَتْ حَمْلَهَا جُمِعُوا لَهَا وَدَعَوْا لهمُ القَافَةَ

ثُمَّ ألحقُوا وَلَدَهَا بِالَّذِي يَرَوْنَ فَالْتَاطَ بِهِ، وَدُعِيَ ابْنَهُ لا يَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ، فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِالْحَقِّ هَدَمَ نِكَاحَ الْجَاهِلِيَّةِ كُلَّهُ، إِلاَّ نِكَاحَ النَّاسِ الْيَوْمَ (١)

أما عن علاقة الرجل بأبنائه، فكانت على أحوال شتى، فربما تمتع الأبناء بالنصيب الأوفر من الرعاية والاهتمام، وذلك لأنهم عماد القبيلة وقوامها ودرعها الذي يرد عنها أي عُدوان، وحُرمت البنت من هذا الاهتمام، فكان منهم من يئد البنات مخافة الفقر أو السبي في حروبهم التي تكاد لا تنتهي .

هذا ولم تكن المرأة في الجاهلية مُهدرة الحقوق، أو بلا دور في حياتهم الاجتماعية، فقد كان السادة يُخيّرن بناتهن في أزواجهن ويتركهن إذا لم يُحسنوا مُعاملتهن، كما كان بعض السادة والأشراف يهبوا لبناتهن منزلة سامية، ويوفروا لهن من مظاهر الترف ما تطول أيديهم، وكان العرب يصطحبوا نساءهم في الحروب إثارة لحماس الرجال والاستبسال، مخافة أن يقعن سبايا، فقد كان السبي عار لا يماثله عار، وكانت المرأة جزءا لا يتجزأ من عرضهم الذي يذودون عنه بأرواحهم، كما كُن يندبن القتلى ويُحرضن رجالهم على الأخذ بالثأر، وقد لمعت بعض منهن في المراثي، على رأسهن الخنساء في مراثيها أخويها صخر ومُعاوية، وسمت منزلة بعض شريفات العرب حتى أنهن كُنّ يحمين من يستجير بهن، وقد تمتلك المال وتتصرف فيه كيفما تشاء، فكانت أم المؤمنين خديجة ـ رضي الله عنها ـ من أوسع أهل مكة تجارة.

إلا أن الطبيعة البدوية التي كانوا يعيشونها بلا قانون يُنظم حياتهم، قد أورثتهم من العادات ما يُفسد ترابطهم الاجتماعي، فكان أهل الجاهلية يُعددون بين الزوجات من غير حد معروف، وكان الرجل يجمع بين الأختين، ولم يكن للطلاق والرجعة حد معين، وكانوا يتزوجون بزوجة آبائهم إذا ماتوا عنها، وقد يتزوج عدة رجال امرأة واحدة، إلى غير ذلك مما كانوا يُبيحونه والذي حرّمه الإسلام، فحدد الزوجات في أربع، وحرّم الجمع بين الأختين، وحرّم زواج الابن من زوجة أبيه، وحدّد عدد مرات الطلاق والرجعة، كما حرّم أن يتزوج عدة رجال امرأة واحدة، إلى غير ذلك مما كان شائعا بينهم من تقاليد فاسدة.

أما عن علاقة العربي بالعبيد فهي متباينة، فقد يُعاملون برفق ورحمة، وقد يُعتقون ويُنعم عليهم ببعض الحقوق، وقد يُسخرون في الخدمة لسادتهم، ويُستخدمون في التجارة، ولا يُنظر إليهم على أنهم بشر لهم حق الآدمية.

---

(١) البخاري ٥١٢٧

والحق أن حقوق العبيد في المجتمع العربي الجاهلي كانت ضائعة، فليس لهم حقوق الملكية والمقاضاة، وليس للعبد أن يتزوج إلا بإذن سيده على أن يتزوج رقيقا مثله، أما المهن التي يزاولونها فهي التي يستنكف العربي على ممارستها، ففي البادية يرعون الماشية، ويقومون بخدمة المنزل، وفي المدن يقومون بممارسة الصناعات الموجودة هناك، كالحدادة، والنجارة، والحجامة، وغيرها، إذ أن العرب كانوا يأنفون من أمثال هذه الصناعات، وكان العربي يعتز بدمه، وأنه من أب وأم عربية، أما أبناء السادة من الإماء فكان العرب يرفضون الاعتراف بهم، أو إلحاقهم بنسبه، وكانوا يطلقون على أبناء الإماء من العرب الصرحاء اسم "الهجناء" وكان أسوأ أبناء الإماء حظًا في الحياة أبناء الإماء السود الذين سرى إليهم السواد من أمهاتهم، وأطلق عليهم العرب اسم "الأغربة

وكان وجود هذه الطبقة أمرًا عامًا في المجتمع القديم كله يُحتمه الوضع الاقتصادي آنذاك، ولما جاء الإسلام جعل ميزان التفاضل بين البشر هو التقوى والعمل الصالح، لا الجنس واللون، فحفظ للبشر كرامتهم، وحرّرهم من كل القيود، وهنا يحسن بنا الإشارة على عجالة إلى موقف الإسلام من قضية الرق، فالإسلام الذي جعل المساواة بين البشر جميعا من المسلمات التي جاءت بها دعوته، ما كان ليُقر هذا الواقع الذي يتنافى وأسس دعوته، لذا وجد العديد من المستشرقين في هذه القضية ذريعة يُحاربون بها الإسلام، ولو عقلوا منهج الإسلام في علاج هذه القضية لأيقنوا عظمة هذا التشريع، فمنهج الإسلام في بناء المجتمع قائم على التدرج الذي يهيئ الأنفس إلى استقبال مُستجدات الأمور، ويحول دون الصدام معها، فقضية الرق كانت إحدى ركائز النظام الاجتماعي والاقتصادي على السواء، ليس فقط عند العرب في الجاهلية، وإنما في كل أرجاء المعمورة، وكان الاعتماد عليهم في الكثير من فروع الإنتاج في مختلف الأمم والحضارات في العالم القديم، لذا فتناول مثل هذا الوضع القائم هدماً وبناءً لا يمكن أن يكون بين عشية وضحاها، وقبل أن يوجد البديل الذي يحول دون نفرة الناس من دعوة الإسلام، ودون أن يُفسد على الناس أمور معايشهم، بل ويحول دون صرفهم عن أصل دعوة الإسلام إلى قضايا جانبية ليست بحاجة سوى إلى وقت لتدارك آثارها وتطهير المجتمع منها، فإذا تبنّى الإسلام حرب إبادة لتجارة الرق دون أن يوجد البديل الذي ينشأ خلال الفترات الإنتقالية التي تتضمنها عملية التدرج في الإلغاء، لعرّض النظام الاقتصادي القائم آنذاك لهزة عنيفة وأضرار بالغة كفيلة بأن تصرف أفئدة الناس عن دعوته.

فتأثير تجارة الرق في الحياة الاقتصادية آنذاك أشبه بتأثير البنوك فيها الآن، فهل يُعقل أن نلغي نظام البنوك بشكل مفاجئ دون أن نوجد البديل المُلائم، ودون أن نهيئ أنفس الناس لاستقبال هذا البديل؟ المسألة واحدة من ناحية التأثير، وإن اختلفت المسميات، لذا كان منهج الإسلام قائما منذ اللحظة الأولى على تبني حرب إبادة لكل الأنظمة التي تحرم البشر من آدميتهم وتُهين كرامتهم، لكن هذه الحرب لم تكن هوجاء أو عشوائية، وإنما هي حرب مُنظمة تهدف إلى القضاء على الرق نهائيا، لكن بصورة سليمة هادئة، تهيأت لها أنفس البشر، وأوجدوا خلال فتراتها الانتقالية البديل المُلائم، ومَنْ تأمل ملامح التشريع في القضاء على الرق يفطن جيدا لقوته وعظمته، فقد سدّد الإسلام مُعظم مصادر الرق التي كانت بمثابة أعراف ثابتة عند العرب وغيرهم قبل الإسلام، وفي الوقت نفسه فتح الباب على مصراعيه للعتق، فرغّب فيه، وجعله كفارة للكثير من الذنوب، بل وأباح مكاتبة العبد لسيده، فيعطيه مبلغا من المال ويتركه حرا، وحتى أسرى الحرب تُرك المجال فيهم لتقدير مصلحة المسلمين، فلولي أمر المسلمين أن يسترقهم أو يقبل منهم الفداء، من مال يؤديه للمسلمين، أو عمل يقوم به، أو تبادل للأسرى، أو يتركهم دون فداء، وفقا لما تقتضيه مصلحة المسلمين.

ومن تأمل هذا التشريع أيقن أن الأمر ليس بحاجة سوى إلى التطبيق العملي لهذا المنهج في واقع الحياة، ليحقق هذا المنهج هدفه، إلا أن الذي حدث هو الخلل في التطبيق، لذا بقيت قضية الرق واقعا حيا في حياة المسلمين، حتى تبنى الغرب القضاء على تجارة الرقيق، وربما هذه الحسنة الأكثر إشراقا في تاريخ الحضارة الغربية الحديثة .

وما أعجب من يتحدث عن إمكانية عودة نظام الرق إلى الوجود، فهدف الإسلام منذ البداية كان القضاء عليه، وقد تحقق الهدف، وأقره إجماع علماء المسلمين بسكوتهم عنه.

وبالإجمال، فإن الإسلام قد غيّر حياة العرب الاجتماعية تغيرا جذريا، فنظّم الإسلام حياتهم، وهذّب أخلاقهم، وأقر الطيب من عاداتهم وأخلاقهم، وحارب خبيثها، فانتقل بحياتهم من طور البداوة إلى طور الحضارة والاستقرار، وجعل لها روحا ومعنى، وأوجد لها قيمة وعطاء، وأعطاهم الدفعة التي كانت تنقصهم؛ ليتكامل بنيانهم، وتسمو منزلتهم، ويرتقي شأنهم بين الأمم .

أحوال العرب الثقافية

كان الاتجاه العام الذي يرسم شكل حياة العرب الثقافية أنهم كانوا أمة أمية تطوف بدائرة الحياة البدوية الساذجة، فعرب الجنوب مع ما وصلوا إليه من تقدم في الزراعة، والري، والعمارة، إلا أن ثقافتهم لم تكن ذات معالم واضحة، فكان يعمّهم النظام الإقطاعي، ولما انهارت الدولة الحميرية سرعان ما تحولوا إلى قبائل بدوية، فلم تكن حضارتهم متكاملة الجوانب، وإنما هي نتاج الازدهار الاقتصادي الذي شهدته بلادهم زراعيا، وتجاريا، إلا أن احتكاكهم بغيرهم من الحضارات القديمة لم يكن بالدرجة التي تساعدهم على الاستفادة منها في بناء مجتمع مُتكامل له أهداف واضحة ومعالم محددة .

وكذلك كان الحال عند عرب الشمال، فقد قيدوا تأثيرهم بالحضارات المجاورة من فرس وروم عند حدود معينة، كان أهمها فنون القتال، وقصص أساطير الملوك، وكان هذا ما يناسب حياتهم، فقد كانوا يعيشون حياة بدوية ساذجة لم ترتق بعد إلى تكوين حضارة تشمل كل جوانب حياتهم، إلا أن هذا لا يُعني انعدام وجود المعارف عند العرب، فقد افترضت عليهم معيشتهم الإلمام ببعض المعارف التي أدركوها بالخبرة، وطول التجربة، وكان الفلك من العلوم التي أتقنها العرب، فكانوا يعرفون أوقات مطالع النجوم، ومغاييها، وشأن المطر، وتعاقب الكواكب والنجوم الثابتة والسيارة، ونجوم الاهتداء، ونجوم ساعات الليل، وخير ما يُمثل هذا، مقولة أعرابية لما سُئلت أتعرفين النجوم ؟ أجابت قائلة " سبحان الله أما أعرف أشباحا وقوفا عليّ كل ليلة !

وكان علمهم بالأنساب والأيام من أهم معارفهم، فكانوا يرون في أنسابهم أصولهم، وتاريخهم، وفى حروبهم أيام يفتخرون بها، ويمجدونها، ومن شدة تعلقهم بالأنساب اهتموا بأنساب بعض الحيوانات أهمها الخيل، كما كان لديهم معارف طبية مكتسبة من التجربة الممتزجة بشي من الخرافات، فكانوا يُحسنون الكي بالنار، واستخدام بعض الأعشاب كعقاقير، إلا أنهم كانوا يظنون أن روحا شريرة تحلّ بالمريض، وفى هذه الحالة كان الكُهان أطباءهم، وكانوا يتوارثون معارفهم بالداء والدواء من شيوخ قبائلهم وعجائزهم، وكان منهم أطباء مشهورون، منهم الحارث بن كِلدة الذي تلقى علومه الطبية في مدرسة جنديسابور الفارسية ـ والتي كان بها أكاديمية طبية تدرس الطب اليوناني ممتزجا بالطب الفارسي والهندي ـ وكذلك معارفهم البيطرية، خاصة ما يتصل بالخيل والإبل، فقد عرفوا ما يزينها وما يعيبها، والأمراض التي قد تصيبها وكيفية علاجها.

وكانت القيافة من المعارف التي تميزوا بها، والتي تُعد من نتاج البيئة التي عاشوها وطبيعة حياتهم، فكانوا يستطيعون تتبع الأثر في الأرض والرمل، فيتعقبوا من يضل منهم في الصحراء، أو من يهاجم قبائلهم من أعدائهم في غيبتهم عنها، كما شاعت عندهم العِيافة، فكانوا يتنبأون بملاحظة حركات الطيور، ويتفاءلون إن طارت يمنة ويتشاءمون إن طارت يسرة.

وكما كانوا يُفكرون فيما يُسّير لهم أسباب معيشتهم في الصحراء فيطوعوه لخدمتهم، كان منهم رجال شغلوا عقولهم بمعرفة أسرار الوجود، وفكرة الحياة والموت، وتقلبات الدهر، وما صار إليه الأولون، فاتسموا برجاحة العقل والفصل بين الناس بالعدل، فتميزوا بين أقوامهم، وعُرفوا بالخطابة، والرياسة، والحكمة، والدهاء، جرت على ألسنهم وصايا وتعاليم مُقتبسة من واقع حياتهم ومعيشتهم، تنبئ عن خبراتهم ودرايتهم بالحياة، صارت حكماً وأمثالاً يتوارثونها ويعملون بها، منهم أكثم بن صيفي، وعامر بن الظّرب، وقِس بن ساعدة وقُصي بن كلاب، ولبيد بن ربيعة، وغيرهم كثير .

ومن أقوال قس بن ساعدة التي حُفظت له مع تعاقب الأجيال

في الذاهِبينَ الأوَّليـــنَ ... مِنَ القُرونِ لنا بَصائِــــــر

لمّا رَأيتُ مَـــــوارِداً ... لِلمَوتِ ليسَ لَها مَصــــادِر

وَرَأيتُ قَومي نَحوَهـا ... تَمضي الأصاغِرُ وَالأكابِر

لا يَرجِعُ الماضي وَلا ... يَبقى مِنَ الباقينَ غــابِـر

أيقَنتُ أنّي لا مَحالَــة ... حَيثُ صارَ القَومُ صـائـِر

فقد بلغ قِس بن ساعدة شأناً في فهم طبيعة الحياة، وما آل إليه السابقون، ومما حُفظ له من النثر قوله " أيها الناس اسمعوا وعوا، إنه من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، ليل داج ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، وجبال مرساة، وأنهار مجراة، إن في السماء لخبرا وإن في الأرض لعبرا، أرى الناس يمرون ولا يرجعون، أرضُوا بالإقامة فأقاموا! أم تُركوا فناموا ...."

كذلك من أمثالهم المشهورة قول عامر بن الظّرب ((رُب زارع لنفسه حاصد لسواه)) وقول أكثم ((مقتل الرجل بين فكيه) (١)

غير أن كل هذه المعارف لم تكن عندهم بنفس المكانة التي كانوا يولونها للشعر، فكان الشعر ظاهرة فريدة لم ترصد عند أي شعب من شعوب زمانهم.

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه، وتاريخ الأدب الجاهلي للدكتور شوقي ضيف

فقد استطاعوا أن يوجدوا وسيلة اتصال تنقل كل الأحداث والوقائع إلى كل مواطن على أرضه رغم أنها تتسم بالتلقائية، فكان الشاعر ينشد القصيدة في إحدى المناسبات ولم يمض عليها كثير وقت حتى تكون على كل لسان في جزيرة العرب، فكانت الفصاحة والبلاغة فطرة عند العرب، وكان الشاعر رمزا لقبيلته تُعلق عليه الآمال لرفع شأنها وإعلاء ذكرها، وشعراء العرب لا يُعدون، فقد برع في هذا الميدان كثير، وما تركوا لوناً من ألوان الشعر، ولا مناسبة، ولا حدث، إلا وأنشدوا فيه، فكانت تُعقد لهم أسواقا أدبية يتبارى فيها الشُعراء، يفخر فيها كل شاعر بقبيلته، وبأمجادها، وحسبها، ونسبها، مُستخدما أجمل الألفاظ وأروع الصور البيانية، كما كان بها لجان من كبار الشعراء، ومن لهم دراية بكل ألوان الشعر، فيختارون أجمل القصائد ويُثنوا على صاحبها، فيتناقلها الناس في كل أرض الجزيرة .

وكانت قصيدة واحدة، وربما بيتا واحدا كافيا لإعلاء مكانة قبيلة أو دنو مكانتها، لذا كانوا يُساومون الشعراء ويُبذلون لهم العطاء مخافة الهجاء ورغبة في الثناء، ومن قصصهم أن بني أنف الناقة كانوا يخجلون من هذا اللقب فاستضافوا الحُطيئة الشاعر، وأجزلوا له العطاء رغبة في مدحهم، فأنشد فيهم قصيدة كان فيها :

قومٌ إذا عَقدوا عَقداً لِجـــارِهِم   شَدّوا العِناجَ وَشَدّوا فوقَهُ الكَرَبا

قومٌ هُمُ الأنفُ وَالأذنابُ غيرُهُمُ   وَمَن يُسَوّي بِأنفِ الناقةِ الذَنَبـــا

فصاروا يتباهون بهذا اللقب بعد مقولة الحُطيئة.

كذلك كان للعرب أسواقا يجتمعون فيها كانت أشبه بالمنتديات العربية التي تجمع العرب في مكان واحد لأهداف عدة، فلم تقف عند غرض واحد، وإنما كانوا يتبادلون فيها تجاراتهم، ويفتدون فيها الأسرى، ويدفعون الدِيّات، وينظرون في خصوماتهم، ويعقدون فيها المُصالحات، ويضعون فيها أسلحتهم، كما كانت سوقا للخطابة والشعر، فكانت أسواقهم أشبه بتجمع عربي يُنظر فيه إلى كل ما يتعلق بشؤون حياتهم، وكان عُكاظ أكبر أسواقهم، فكانت تُقيمه مكة قبل موسم الحج بالقرب من عرفات، كذلك سوق ذي المَجاز بالقرب من عُكاظ وكان يستمر حتى نهاية الحج، وكانت كل مدينة من مُدن الجزيرة تُقيم لها سوقا يجتمعون فيه، ويتبادلون فيه منافعهم، منها سُوق دَومة الجندل شمالي نجد وسُوق خيبر، وسُوق الحيرة، وسُوق حضرموت، وقد ساعدت هذه الأسواق العرب على التقارب فيما بينهم، كما قاربت بين لهجاتهم، وأثرت حياتهم التجارية، حتى صارت مكة مدينة تجارية عظيمة إضافة إلى مكانتها الدينية.

لم يكن العرب قوما حديثي عهد بالشرائع السماوية، فقد بعث الله إليهم رُسلا من أنفسهم يعلمونهم شرائعه، ويدعونهم إلى التوحيد، فأرسل الله عز وجل هود، وصالح، وشعيب عليهم السلام إلى أقوام من العرب ، كما أن إبراهيم ﷺ جاب أرض الجزيرة داعيا إلى عبادة الله عز وجل، وإسماعيل ﷺ عاش حياته كلها بمكة، وأدّى رسالته إلى العرب الذين آمنوا به واتبعوا تعاليم الدين الْحنيف، غير أن العرب - كما عرفوا الدين الحقيقي السماوي - عرفوا أيضا الدين الخرافي منذ القدم، فكان عرب الجنوب يعبدون النجوم والكواكب، كما أن بعض القبائل منها كانت تُقدّس النار، إلا أن عبادة الأصنام كانت أكثر العبادات انتشارا .

قال تعالى على لسان عاد قوم نبي الله هود ﷺ [قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ] (١)

وكان بداية أمر الأصنام أن قوما صالحين ماتوا، فأراد قومهم أن يخلدوا ذكراهم ليتشبهوا بعبادتهم فصوّروا صوا على أشكالهم، فلما طال الزمان جعلوا أجسادا على تلك الصور، وبتعاقب الأجيال عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسمائهم، وكانوا يرون في عبادتهم لها أنها وسيلة يتقربون بها إلى الله، ويستشفعون بها عنده، فلا يعرض أحد حاجته على الله إلا بواسطتهم، لأنهم بفضل مكانتهم عند الله سوف يُقربونه إلى الله تعالى، قال تعالى [وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ] (٢) وقال [أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى] (٣) وتوارثت الأجيال المتعاقبة عبادة الأصنام، وأخذت في الانتشار في أماكن عدة من المعمورة، كان من ضمنها جزيرة العرب، إلا أن أمر الأصنام بالنسبة للعرب لم يقف عند كونها مجرد تماثيل يُتقرب بها إلى الله، ويُستشفع بها عنده، وإنما صارت آلهة تُعبد؛ لكلّ قبيلة صنم، وفي كل بيت صنم، لا تفارقهم في حل أو ترحال، بنوا لها المعابد، وجعلوا لها سدنة وحجاب، كانوا يسوقون لها الهديَ، ويجعلون لها من أنعامهم وحرثهم نصيبا، وكانوا يُعظمونها كتعظيم الكعبة مع اعترافهم بفضل الكعبة بيت أصنامهم الكبير، فقد أحاطوها بثلاثمائة وستين صنما، ووضعوا بداخلها صنما على صورة إبراهيم وآخر على صورة إسماعيل عليهما السلام وبيدهما الأزلام .

---

(١) {الأعراف: ٧٠}　(٢)(يونس: ١٨)　(٣) (الزمر: ٣)

وظلت هذه الأصنام حتى حطمها النبي ﷺ يوم فتح مكة (١) إلا أن هذا الحال ليس وليد عام أو قرن من الزمان، وإنما هو إرث أجيال بعيدة وأزمنة سحيقة، فقد كان الدين الحنيف ملة إبراهيم عليه السلام هو ديانة العرب جميعا، يتمسكون بتعاليمه ويُعظمون الكعبة والطواف بها والحج والعمرة والهدي، ولا يُدخلون فيهما صورة من صور الشرك، ولما كثرت أسفارهم كانوا يحملون أحجارا من أرض الحرم يتبركون بها، وأينما حلوا في أسفارهم وضعوا هذه الأحجار وطافوا بها، وبتعاقب الأجيال بدأوا يستبدلون مبادئ الدين وتعاليمه ويُدخلون فيه ما ليس منه من صور الشرك وعبادة الأصنام شيئا فشيئا، وكان عمرو بن لُحي الخُزاعي - وكان خادم الكعبة - أول من أدخل الأصنام إلى مكة، فحينما كان ببعض أمور تجارته بالشام، وجد قوما يعبدون الأصنام، فسألهم عن أمرها، فأخبروه أنها آلهة يعبدونها يستسقون بها، ويستنصرون بها على أعدائهم، فسألهم أن يعطوه منها صنما يحمله إلى أرض العرب، فأعطوه صنما اسمه هُبل من العقيق الأحمر على صورة إنسان - مكسور اليد اليُمنى التي جعلتها له قريش من ذهب - فوضعه أمام الكعبة وأمر الناس بعبادته وتعظيمه، ولما كان سيدا مُجابا بين قومه أطاعوه فيما أمر، فكان قوله وفعله فيهم كالشرع المتبع لشرفه فيهم، وكرمه عليهم، قال عنه النَّبِيُّ ﷺ « رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرِ بْنِ لُحَيٍّ الْخُزَاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ » (٢)

ومن حينها عادت الوثنية من جديد إلى قلب جزيرة العرب، وغرقوا في ضلالات الشرك، ونسوا تعاليم الدين الحنيف إلا بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يتمسكون بها من تعظيم البيت، والطواف به، والحج والعمرة والوقوف على عرفة ومزدلفة، وإهداء البدن، والإهلال بالحج والعمرة - مع إدخالهم فيه ما ليس منه من صور الشرك في التلبية والطواف - وسُرعان ما مُلئت الجزيرة العربية بعشرات من الأصنام والأوثان(٣) فاتخذت كل قبيلة صنماً خاصا لها وجعلت له شعائر خاصة به، وبجوار هذه الأصنام والأوثان اتخذوا أنصابا من الحجارة يصبّون عليها دماء ذبائحهم، وكانوا يُقدسون هذه الأنصاب، وكان هُبل كبير آلهتهم، وكان أمامه سبعة قِداح إذا اختصموا في أمر أو أرادوا سفرا استقسموا بالقداح عنده، وما خرج عملوا به وانتهوا إليه، وباسمه كان ينادي أبو سفيان يوم أحد أعل هبل، ومن أصنامهم إساف ونائلة

---

(١) البخاري ٤٢٨٧ (٢) البخاري ٣٥٢١ ومسلم ٧٣٧١

(٣) الوَثَن: كلُّ ما له جُثَّة مَعمولة من جَواهِر الأرض أو من الخَشَب والحِجارة، كصُورة الآدَميّ تُعْمَل وتُنْصَب فتُعْبَد. والصَّنَم : الصُّورة بلا جُثَّة.

وكانا رجلا وامرأة من جرهم أحدثا عند الكعبة فمسخهما الله حجرين فاتخذوهما على موضع زمزم، وكانوا ينحرون عندهما، ومنها مَناة، وهي صخرة منصوبة على ساحل البحر الأحمر بين مكة ويثرب، وكان كل العرب يُعظمونه خاصة هُذيل وخزاعة، وكان الأوس والخزرج يُقدّمون له القرابين ويحلقون رءوسهم عنده، ولا يرون في حجهم تماما إلا بذلك، ومنها اللات، وهي صخرة مربعة الشكل كانت بالطائف وكانت ثقيف تُقدسُها، ومنها العُزى، وكانت لغطفان وهي شجرة بوادي نخلة شرقي مكة وغير هذه الأصنام كثير، حتى أنهم إذا نزلوا بأرض ليس بها صنم يُعبد، صنعوا لهم صنما ليعبدونه، قال أبو رَجَاءٍ العُطَارِدِيُّ " كُنَّا نَعْبُدُ الحَجَرَ، فَإِذَا وَجَدْنَا حَجَرًا هُوَ أَخْيَرُ مِنْهُ أَلْقَيْنَاهُ وَأَخَذْنَا الآخَرَ، فَإِذَا لَمْ نَجِدْ حَجَرًا جَمَعْنَا جُثْوَةً مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ جِئْنَا بِالشَّاةِ فَحَلَبْنَاهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُفْنَا بِهِ (١)

عادات وأخلاق حسنة في بيئة جاهلية

إن طبيعة الحياة القاسية التي عايشها العربي في ضروب الصحراء، قد أورثته كما هائلا من الفضائل الإنسانية، ولعل خير كلمة تجمعها هي المروءة، وهي تكامل الصفات الإنسانية، فكان لدى العرب جملة من العادات والأخلاق الحسنة التي قبلها الإسلام، وجعلها عبادات يُثاب من يفعلها، فالإسلام لم يأت ليُصادر كل ما كان قبله، أو يرد كل ما لم يأت به، وإنما هو منهج حياة، يقبل كل مالا يتعارض مع قيمه وثوابته، ما دام فيه نفع للمسلمين، ومن هذه الأخلاق :

١) **الكرم**: فلم تكن للعرب خصلة تفوق الكرم، فقد كان الغني يجود على الفقير، بل وعلى العشيرة كلها في سني القحط، فكان يذبح إبله يُطعمها عشيرته، وكان الرجل يذبح ناقته التي هي كل ما يملك إكراما لضيفه، وكان لهم في شأن إكرام الضيف سُننا، فقد كانوا يوقدون النار ليلا؛ ليهتدي إليها الضالون في الصحاري، فإذا وفدوا أكرموهم، ولو كانوا من أعدائهم، وكانوا يُدربون الكلاب على هداية الضيف، وفى هذا يقول الشاعر :

يَكادُ إذا ما أبصَرَ الضَيفَ مُقبِلاً ... يُكَلِّمُهُ مِن حُبِّهِ وَهوَ أعجَمُ

كما كانوا يتحملون الديّات؛ ليوقفوا بها سفك الدماء، واشتهر عندهم كثير ممن عُرفوا بالكرم الفياض، منهم حاتم الطائي الذي صار مضربا للأمثال في الكرم

---

(١) البخاري٤٣٧٦ والجُثوة أي الكومة

٢) **الوفاء بالعهد:** كان العربي إذا وعد أوفى بما وعد به، وأوفت معه قبيلته كلها، لذا كانوا يُعظمون الأحلاف ولا يُنقضونها، وكانوا يُجيرون من استجار بهم، ويُعطونه عهدا بالحماية والأمان، وتتعهد القبيلة كلها بالدفاع عنه وحمايته

٣) **النجدة وإغاثة الملهوف:** فكانوا لا يترددون في مساعدة المُحتاج، وتفريج كرب المكروبين، وحماية الضعيف والعفو والتسامح عند المقدرة، ومن أشهر قصصهم في هذا أن حاتم الطائي مرَّ على رجل أسير لا يملك فداء نفسه فسأل حاتم في فدائه، فلم يكن معه ما يفديه به، فوضع نفسه بدلا منه في الأسر، وأطلق سراح الأسير، حتى جاء قومه وفدوه .

٤) **الشجاعة والصبر وعدم قبول الذل والمهانة:** وكانت هذه الخصال من ثمار طبيعة معيشتهم وسط الصحاري القاحلة المليئة بالمخاطر والصعاب، فاتسم العربي بالجرأة، والشجاعة

٥) **التلقائية في المعاملات:** فالعرب بمعيشتهم البدوية التي كانوا فيها في معزل عن الحضارات المجاورة، ظلوا على فطرتهم، وتلقائيتهم في مُعاملاتهم، فعُرف عنهم صدق الحديث، ورد الأمانات، والوفاء بسداد الدين، والبعد عن الخداع والنفاق والغدر، وكل هذه الأخلاق زادها الإسلام ثباتا وتقريرا .

٦) **تقديس البيت الحرام واحترام الأشهر الحُرُم:** فكانوا يُقدسون الكعبة، ويُحرمون عندها القتال، ويكفون عن القتال في الأشهر الحُرُم، ويؤمنون الوافدين إلى البيت الحرام، ولو كانوا ذوي سوابق في الشر .

٧) ومن عاداتهم **تحريمهم نِكاح الأمهات والبنات، والاغتسال من الجنابة، والمداومة على المضمضة، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط، والاستنجاء**، وهذه العادات والأخلاق وإن لم تكن عامة في كل الأفراد، إلا أنها كانت سمة لغالبيتهم، ولما جاء الإسلام أقر هذه العادات، حتى صارت عبادات يُثاب من يؤديها ابتغاء وجه الله، كما أنها وسيلة تعود بالنفع على المجتمع كله .

عادات وأخلاق فاسدة

كما أقر الإسلام العادات الحسنة التي يتجاوز نفعها الفرد ليشمل الجماعة كلها، فالعرب كغيرهم من المجتمعات كان لديهم جملة من الأخلاق والعادات التي من شأنها أن تضر بالجماعة المُسلمة، ولا تقيم لها بنيان، وسواء كان ضررها على مستوى الفرد، أو تجاوزه ليشمل الجماعة كلها، فقد وضع الإسلام منهجا ثابتا في التعامل مع مثل هذه الأخلاق والعادات، بل إنه منهج شمل كل مناحي الحياة، وما يطرأ عليها من مستجدات

هذا المنهج صاغه النبي ﷺ في كلمات قلائل، فقال ﷺ « لا ضَرَرَ وَلا ضِرَارَ » (١) فكل ما تبين ضرره سواء على مستوى الفرد أو الجماعة كلها، فقد حرّمه الإسلام، ومن العادات والأخلاق التي كانت فيهم كسنن الطبيعة التي لا تتغير:

العصبية القبلية، والزنا واستباحة النساء، والخمر والميسر، ووأد البنات، والغارات والحروب المستمرة للسلب والنهب وصور الأنكحة الباطلة التي كانت شائعة فيهم، والتعالي عن ممارسة العديد من المهن كالحدادة والحياكة وغيرها، فكانوا يوكلونها لعبيدهم تكبرا وأنفة من ممارستها، فكان شغلهم الشاغل صيد الوحوش في الجبال، وصيد البشر في الغارات، ورعي الأنعام والمفاخرة بالأحساب والأنساب، وإنشاد الشعر، وركوب الخيل، وغير ذلك من العادات والأخلاق، فجاء الإسلام ليضفي على حياتهم صورة جديدة تنظم معيشتهم، وتُدخل السكينة في حياتهم، فحرّم صور الأنكحة الباطلة، وحرم اتخاذ الأخدان من الرجال والنساء، وحرم التبرج وإجهاض الحبالى، وساوى بين السادة والعبيد، ونهى عن الكبر والتعالي، فنقل المجتمع العربي من سقوطه الذي انغمس فيه قرونا عديدة، إلى مجتمع متماسك تطهر من عاداته الذميمة، واصطبغ بقيم الإسلام وأخلاقه، فصارت أمته أمة القيادة والإيجابية .

الحنفاء العرب

وسط هذا الظلام الدامس من بدع ومعتقدات، ووثنية ضاربة أطنابها في كل مكان بأرض العرب، برزت عقول تنبذ ما هم عليه من شرك وضلال، وأيقنوا أن هذه المعتقدات ليست على شيء، وأن هذه الأصنام لا تضر، ولا تنفع، بل إنها لا تملك حتى دفع الضُر عن نفسها، فرغم ما يبدو من جاهلية عقائدية قد طغت على شكل الحياة في الجزيرة العربية، إلا أنهم كغيرهم من الأمم يحملون في طياتهم نماذج نيرة، ربما لم تُعط الفرصة الحقيقية لقيادة البقية خلفها، إلا أنها ولا شك حاولت أن تنقذ نفسها من الانزلاق في مزيد من الضلال والانحراف، ويكفي على هذا دليلا أن عددا من سادة العرب حرّموا على أنفسهم الخمر في مجتمع لا يرى فيها عيبا، بل يراها من علامات الفخر وعلو الشأن، وآخرون حرموا وأد البنات في مجتمع لا يرى حرجا في أن يدفن ابنته في الرمال وهي حية، وآخرون حرموا على أنفسهم الأكل مما ذُبح على النصب، وآخرون هاموا في البلاد يلتمسون دين الفطرة السليمة .

---

(١) سنن ابن ماجة ٢٤٣٠ ومسند أحمد ٢٩٢١ وصححه الالباني في السلسلة الصحيحة ١/٢٥٠

ولعل ظهور هذه الطائفة كان بداية الاستعداد لفكرة الإله الواحد المستحق للعبودية، ومؤشر على قرب اكتمال مراحل إعداد العرب لحمل الرسالة الخاتمة، فلم يكن بحثهم عن الدين السليم إلا شكا في معتقداتهم الدينية، والذي انتقل منهم إلى كثير من العرب، حتى إذا ما بزغ فجر الإسلام كان كثير من العرب قد اقتنع ببطلان عقيدتهم ، وكان البديل هو التوحيد الذي جاء به الإسلام.

يُروى أن العباس بن مِرداس السلمي - أحد الشعراء المخضرمين - قصد صنما كان يعبده قومه، فذهب إليه ذات صباح، فوجد أن ثعلبا قد بال فوق رأسه فانشد قائلا :

أرَبٌّ يَبولُ الثُعلبانُ بِرَأسِهِ لقد هانَ مَن بالَت عَلَيهِ الثَعالِبُ

ويُروى أن رجلا من كنانة جاء بإبله على صنم لهم بساحل جدة يقال له سعد رغبة في التبرك به، وكان على الصنم أثر دماء قد ذُبحت عنده، فلما رأت الإبل أثر الدماء نفرت، وتفرقت، فأنشد الرجل قائلا :

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد فلا نحن من سعد

وهل سعد إلا صخرة لا قوى لها تُرجى فلا تدعى لغي ولا رشد

ربما حاول كثيرٌ من هؤلاء الحُنفاء التمرد على الوضع الراهن في جزيرة العرب، إلا أن فقدان البديل قد دفعهم إلى نقد الواقع بداخلهم لا علانية، وحتى من انتقده علانية لم يجد مخرجا لما هو فيه، فهم لا يملكون خلاص أنفسهم مما هم فيه، فكيف يهبونه غيرهم ؟

غير أن طائفة ممن شكوا في الدين الوثني القائم، وأنه ليس الدين الصحيح الذي يُعبد به الله عز وجل، أخذوا يلتمسون دينا يهديهم في هذه الحياة، يبعدهم عن الحيرة التي شغلت قلوبهم، يرشدهم إلى الطريق الذي يُعبد به الله المستحق للعبادة، وهؤلاء الرجال كانوا يتمتعون بفطرة سليمة، قادت بعضهم إلى الوصول للدين السليم، والعجيب أن وجودهم لم يقتصر على مكان واحد ، بل ربما تجد في كل قبيلة من تمرد على معتقداتها وأيقن ببطلانها، فمنهم عبد المطلب بن هاشم، وقيس بن عاصم التميمي، وأبو عامر عبد عمرو بن صَيْفي بن النعمان، وأبو ذر الغفاري، وقس بن ساعدة الإيادي، وصرمة بن ابي أنس، وخالد بن سنان العبسي، وأمية بن أبي الصلت وغيرهم كثير .

إلا أن أربعة نفر ممن انتقدوا الدين القائم، أخذوا خطوات جدية في البحث عن دين بديل لما هم فيه من ضلال .

قال ابن اسحق " اجتمع أربعة من قريش في يوم عيد لهم، وهم ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعُثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نُفيل ينظرون في أمر دينهم بعد أن اقروا ببطلان ما عليه قومهم

فقال بعضهم لبعض تعلموا والله ما قومكم على شيء، لقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم! ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع! يا قوم التمسوا لأنفسكم دينا، فإنكم والله ما أنتم على شيء.....فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم ﷺ ...." (١) فأما ورقة بن نوفل، فقد تنصَّر وعلم من أهل الكتاب أن نبيا قد حلّ زمانه، وهو الذي بشر السيدة خديجة بنت خويلد ـ وكان ابن عمها ـ بأن محمدا ﷺ هو نبي هذه الأمة، وأما عبيد الله بن جحش، فظل على حاله حتى أدرك الإسلام وأسلم ثم هاجر إلى الحبشة مع أم حبيبة بنت أبي سُفيان ثم ارتد هناك وتنصر ومات كافرا، وأما عُثمان بن الحويرث فقدم على ملك الروم وتنصر .

وأما زيد بن عمرو فقد اعتزل الأوثان، والذبائح التي تُذبح على الأنصاب بغير اسم الله، ونهى عن قتل الموءودة وقصد الدين الحنيف، دين إبراهيم ﷺ، الذي جدّ في البحث عمن يدله عليه حتى وطئ أرض الشام عله أن يجد فيها ضالته

روى البخاري عَن ابْنِ عُمَرَ أنَّ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ خَرَجَ إلى الشام، يَسْأَلُ عَن الدِّين وَيَتْبَعُهُ، فَلَقِيَ عَالِمًا مِنَ الْيَهُودِ فَسَأَلَهُ عَنْ دِينِهِمْ، فَقَالَ لَعَلِّي أَنْ أَدِينَ دِينَكُمْ فَأَخْبِرْنِي، فَقَالَ لا تَكُونُ عَلَى دِينِنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيبِكَ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ، قَالَ زَيْدٌ مَا أَفِرُّ إلا مِنْ غَضَبِ اللَّهِ، وَلا أَحْمِلُ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ شَيْئًا أَبَدًا، وَأَنَّى أَسْتَطِيعُهُ فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَى غَيْرِهِ؟ قَالَ مَا أَعْلَمُهُ إلا أَنْ تَكُونَ حَنِيفًا .

قَالَ زَيْدٌ وَمَا الْحَنِيفُ؟ قَالَ دِينُ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلا يَعْبُدُ إلا اللَّهَ، فَخَرَجَ زَيْدٌ فَلَقِيَ عَالِمًا مِنَ النَّصَارَى، فَذَكَرَ مِثْلَهُ، فَقَالَ لَنْ تَكُونَ عَلَى دِينِنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيبِكَ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ . قَالَ مَا أَفِرُّ إلا مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ، وَلا أَحْمِلُ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَلا مِنْ غَضَبِهِ شَيْئًا أَبَدًا وَأَنَّى أَسْتَطِيعُ، فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَى غَيْرِهِ؟ قَالَ مَا أَعْلَمُهُ إلا أَنْ تَكُونَ حَنِيفًا، قَالَ وَمَا الْحَنِيفُ؟ قَالَ دِينُ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلا يَعْبُدُ إلا اللَّهَ، فَلَمَّا رَأَى زَيْدٌ قَوْلَهُمْ فِي إِبْرَاهِيمَ ﷺ خَرَجَ، فَلَمَّا بَرَزَ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُ أَنِّي عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ (٢)

وما لبث أن مات في طريقه وهو عائد إلى مكة، وهو على الحنيفية دين إبراهيم ﷺ، وكان إسلامه بالقلب، فلم تكن هناك عبادات تؤدى، بعد أن غابت شريعة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في ظلمات الجاهلية التي عاشها العرب قرونا عديدة .

---

(١) سيرة ابن هشام ـ (ج ١ / ص ٢٢٢)

(٢) البخاري٣٨٢٧

ولما بُعث رسول الله ﷺ وآمن به من آمن، جاءه سَعِيدِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَبِي كَانَ كَمَا قَدْ رَأَيْتَ وَبَلَغَكَ وَلَوْ أَدْرَكَكَ لآمَنَ بِكَ وَاتَّبَعَكَ فَاسْتَغْفِرْ لَهُ ؟ قَالَ « نَعَمْ فَأَسْتَغْفِرُ لَهُ فَإِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحْدَهُ »(١)

وممن تحنف في الجاهلية وأدرك الإسلام، أمية بن أبي الصلت، وهو من شعراء الجاهلية، كان متعبدا، يؤمن بالبعث والتوحيد، علم الكثير عن الرسل والرسالات حتى طمع في أن يكون النبي المنتظر لما علم من كتب أهل الكتاب أن نبيا قد أظل زمانه، مُلئ شعره إيمانا ودعوة إلى التوحيد وتذكير بنعم الله عز وجل، والزهد والحكم والمواعظ والأمثال، قال عنه الزمخشري " كان داهية من دواهي ثقيف، وثقيف دهاة العرب ومن دهائه ما هم به من ادعاء النبوة، وكان جلابة للعلوم جوالا في البلاد " (٢)

ورغم كل هذا الدهاء والعلم استكبر عن الحق بعد ما تبين له، وأعرض عن الإسلام، فلم ينفعه ما تلفظ به مع جحود قلبه عن الحق، واعتقاد ما ينافي قوله، فقد روى الطبراني من حديث معاوية بن أبي سفيان عن أبيه أن أمية بن ابي الصلت قال له: إني أجد في الكتب صفة نبي يبعث من بلادنا، وكنت اظن أني هو، ثم ظهر لي أنه من بني عبد مناف، قال: فنظرت فلم أجد فيهم من هو متصف بأخلاقه إلا عتبة بن ربيعة إلا أنه جاوز الأربعين ولم يوح إليه فعرفت أنه غيره، قال أبو سفيان فلما بعث محمد ﷺ قلت لأمية عنه فقال: أما إنه حق فاتبعه، فقلت له فأنت ما يمنعك؟ قال الحياء من نسيات ثقيف أني كنت أخبرهن أني هو ثم أصير تبعا لفتى من بني عبد مناف (٣)

وفي صحيح مسلم عَنْ عَمْرِو بْنِ الشَّرِيدِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: رَدِفْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ « هَلْ مَعَكَ مِنْ شِعْرِ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِى الصَّلْتِ شَيْئًا »قُلْتُ نَعَمْ قَالَ « هِيهِ » فَأَنْشَدْتُهُ بَيْتًا فَقَالَ « هِيهِ » ثُمَّ أَنْشَدْتُهُ بَيْتًا فَقَالَ « هِيهِ » حَتَّى أَنْشَدْتُهُ مِائَةَ بَيْتٍ (٤)
وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال « أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ كَلِمَةُ لَبِيدٍ أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ اللَّهَ بَاطِلُ » وَكَادَ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِى الصَّلْتِ أَنْ يُسْلِمَ . (٥)

---

(١)مسند احمد ١٦٧٠ وذكره الألباني في صحيح السيرة النبوية وحسنه

(٢) فيض القدير - (ج ١ / ص ٧٦) والحيوان للجاحظ - (ج ١ / ص ١٨٥)

(٣) مجمع الزوائد ١٣٨٨٧ وقال الهيثمي :رواه الطبراني وفيه مجاشع بن عمرو وهو ضعيف)

(٤)مسلم ٦٠٢٢

(٥)البخاري٦١٤٧ومسلم٦٠٢٧

الشرائع السماوية بأرض العرب

إن الله عز وجل أرسل الرسل وأنزل التشريع، بغية الابتعاد بالحياة الإنسانية عن الانحراف الأخلاقي والفساد العقائدي، فما من رسالة سماوية إلا وتشمل من التشريع والأحكام ما إن تبعها البشر سمت حياتهم، وعلت همتهم وتحرروا من شهوات أنفسهم، فالدين ركيزة أساسية تقوم عليها حياة البشر، إليه تُرد كل القيم والمبادئ التي تُنظم حياة البشر، وبه تتوطد الأخلاق والفضائل، وهو الذي يمنح الحياة الاستمرار، غير أن أيدي البشر لا تكاد تعبث بشيء حتى تفقده جوهره وقيمته، حتى الشرائع السماوية، لم تسلم من عبث البشر.

وأرض العرب لم تكن حديثة عهد بالرسالات السماوية، فقد بعث الله فيهم أنبياء ومرسلين عدة، أورد ذكر بعض منهم في القرآن، وبيّن رحلة دعوتهم لأقوامهم، وما آلت إليه مصائرهم بعد تكذيبهم للرسل، وبتعاقب الأجيال أحيطت هذه التعاليم السماوية بسياج كبير من البدع والخرافات، فلم يعد يُعرف الحق من الباطل، كما غابت الحنيفية السمحة ملة الخليل إبراهيم عليه السلام وسط خرافات العرب وصور الشرك التي كانوا عليها، ولم يبق من هذه التعاليم إلا الاسم، وبقايا إرث مختلط بصنوف شتى من الشرك والبدع، إلا أن الأمر لم يقف بالعرب عند هذا الإرث القديم، فقد وطنت أرض العرب تعاليم الرسالات السماوية التي نزلت على بني إسرائيل، من يهودية ونصرانية، إلا أنها لم تلق قبولا عند العرب ولم تغير فيهم شيئا، وظلت وثنيتهم أقوى من هذه التعاليم السماوية، وذلك لأن هذه التعاليم لم تصل إليهم كما نزلت من السماء، وإنما طالتها يد البشر بالتحريف والتبديل، فغدت وكأنها تعاليم بشر تريد أن تهدي بشر، وهذا يخالف الفطرة التي فطر الله الناس عليها، لذا عجزت هذه التعاليم عن تغيير وجه الحياة في المجتمع العربي قبل الإسلام، ولعلنا نستعرض بإيجاز ما آل إليه مصير كلتا الديانتين في أرض العرب.

اليهودية واليهود: دخل اليهود أرض الجزيرة العربية إثر استيلاء الرومان على أرض الشام، فهدموا الهيكل ونكلوا باليهود، وأجبروهم على الفرار بأنفسهم، فتشتتوا في أنحاء العالم، وكان للجزيرة نصيب من هجراتهم، فنزلوا في اليمن وأرض الحجاز، فأما يهود اليمن فاستطاعوا أن يؤثروا في ملك من ملوك التبابعة وهو ذو نواس، ودفعوه إلى التنكيل بنصارى نجران وإحراقهم

ولخشيته من أن تتحول اليمن إلى نصرانية فيدخلها الأحباش، أطاعهم وأحرق نصارى نجران، وسرعان ما تدخل الأحباش بإيعاز من الروم لنصرة النصرانية في اليمن فهزموا ذا نواس، وبهزيمته تقلص دور اليهود في اليمن، فهاجر أكثرهم من اليمن، ولم يبق إلا الذليل المستضعف .

وأما يهود الحجاز فكانوا منتشرين في أماكن عدة من أرض الحجاز، في يثرب وخيبر والطائف ووادي القُرى وتيماء، وكان في يثرب وحدها اثنتا عشرة قبيلة، وعمد اليهود في الجزيرة إلى توسيع نفوذهم الاقتصادي، فاشتهروا بتصنيع الخمر وبيعه وجلبه أحيانا من الشام، كما كانوا يشتغلون بالزراعة والحدادة وصناعة الأسلحة - في الوقت الذي كان ينظر فيه العرب إلى الامتهان بهذه المهن بشيء من التكبر والتعالي - وعمدوا إلى تضخيم ثرواتهم بالتعامل بالربا الفاحش والاتجار في مختلف السلع، فاحتكروا معظم اقتصاديات المدن والقرى التي نزلوا بها .

ولما نزلت قبيلتي الأوس والخزرج بجوار اليهود في يثرب، عمد اليهود إلى الإيقاع بين القبيلتين العربيتين، خشية الاتفاق عليهما، فاشتبكتا في حروب دامية، توارثتها الأجيال المتعاقبة، وظلت حتى الهجرة النبوية، فلما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة، دخل اليهود في مناقشات ومجادلات مع النبي ﷺ وناهضوا دعوة الإسلام، وعمدوا إلى الوقيعة بين المسلمين، ودخلوا في حروب عدة ضد المسلمين، إلا أن الله أظهر رسوله عليهم، فأُجلي بعضهم، وبقي البعض ذليلا مستضعفا، حتى كان زمن الفاروق عُمر ﷺ أجلى كل اليهود من جزيرة العرب .

وبالرغم من هذا التوطن في أرض العرب، إلا أن اليهودية كديانة لم يكن لها أي أثر ذي بال على العرب الوثنيين، فلم يتأثر العرب المجاورين لهم بثقافتهم أو دينهم، بل إنهم هم الذين تخلوا عن بعض من ثقافتهم، واصطبغوا بالثقافة العربية في لغتهم اليومية، وفي أسمائهم، وقد ظهر هذا التأثير في مجال الشعر، فقد نبغ منهم شعراء لا يُجيدون من الثقافة اليهودية غير لغة الدين، فأتقنوا العربية وصار شعرهم يضاهي كبار الشعراء العرب، وكان السموأل بن عاديا من أكبر شعرائهم، وقد أُشيع عنه الوفاء بالعهد، ومن شُعرائهم أبو الزناد وكعب بن الأشراف.

ويرجع عدم انتشار اليهودية أو على الأقل التأثير فيمن جاورهم من العرب، إلى اليهود أنفسهم، فكانوا يؤمنون بأنهم شعب الله المُختار دونا عن باقي البشر، وأن اليهودية خير الأديان، فاستأثروا الخير وانغلقوا على أنفسهم وتعالوا على من دونهم ولم ينشغل كهانهم وأحبارهم بالدعوة إلى دينهم بين الأعراب

وشاب التحريف شريعة موسى عليه السلام فبدّلوا الأحكام، وحرفوا كلام الله، وانشغلوا بالمال والسُلطان عن الدعوة إلى الدين، فأصاب ديانتهم الانحلال والبوار، وانتشر فيهم الانحراف الخُلقي، وكثرت فيهم المعاصي، واستحدثوا في دينهم جُملة من التقاليد فاقت بدع الجاهليين، حتى صار رُهبانهم أربابا من دون الله يتحكمون في الناس ويُحاسبونهم .

النصرانية: كانت المسيحية الديانة الرسمية للدولة البيزنطية التي امتد نفوذها حتى شمل غالبية بلاد الشرق الأوسط ومصر وشمال إفريقية، وامتدت حتى الحبشة التي دانت بالمسيحية وخرجت منها بعثات من المُبشرين النصارى إلى اليمن، فاعتنق أهالي نجران النصرانية، وصارت نجران أهم مواطن النصرانية في اليمن، فأراد ذو نواس أن يفتنهم في دينهم فأبوا أن يتركوه، فأحرقهم في الأخدود، وعلى إثر هذه الحادثة دخل الأحباش اليمن، فانتشرت النصرانية بين أهل اليمن، وعمد أبرهة الحبشي إلى بناء العديد من الكنائس، كان أشهرها القُليس في صنعاء، كما انتشرت النصرانية بين عرب الشام المجاورين للروم فاعتنقها الغساسنة، وتغلغلت في الحيرة، ونفذت إلى تغلب وبكر وإياد في أرض العراق، كما انتشرت في طيء ودومة الجندل، وفي مكة أيضا اعتنقها عدد من قريش منهم ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث .

ورغم تواجد المسيحية بأرض العرب إلا أن الخلط الذي أوجده النصارى في طبيعة المسيح، هل هو إله أو ابن لله؟ وهل الله واحد في ثلاثة أو ثلاثة في واحد؟ وغير ذلك من تساؤلات لا تنتهي، ولا تجد من يجيب عليها بحجة عقلية، قد عصفت بالمسيحية إلى انقسامات واسعة، فانقسموا إلى فرق تصارعت فيما بينها، وشاب المسيحية ما حدث لليهودية من فساد عقائدي، فصارت عقيدتهم عقيدة مركبة لا يمكن لعامة الناس فهم محتواها، وتفسير طلاسمها، وهذه الخلافات المعقدة هي التي قيدت من انتشار المسيحية بين العرب رغم كفاءة المبشرين في جذب الناس إليها، وحتى من تنصّروا من العرب قبل الإسلام لم يتعمقوا في تعاليم هذا الدين، وظلت وثنيتهم تغلب على معتقداتهم، فربما عرفوا الكنائس والرهُبان والصوامع، إلا أنهم لم يعرفوا أوامر الدين وحدوده، ولم يُكلفوا أنفسهم في البت في طبيعة المسيح وفكرة التثليث، فقد ابتعدت المسيحية بفعل أهلها عن جوهر الرسالة السماوية، كما ابتعدت تعاليمها عن طبيعة المعيشة التي ألفها العرب.

ورغم التأثير المحدود لكلتا الديانتين في أرض العرب، إلا أن الحق الذي لا ريب فيه أن لهذه البؤر من اليهود والنصارى في أرض العرب دور بالغ في تسرب فكرة البعث والحساب، وشغل عقولهم عند فكرة الحياة والموت، وربما هذا ما دفع بعض العرب إلى رفض المعتقدات الوثنية، والطريقة التي يُعبد بها الله، مما أدى إلى ظهور من سُموا بطائفة الحُنفاء.

ويمكن القول أن هذا المصير الذي آلت إليه العقائد الدينية من تعقيد وغموض هو الذي صرف قلوب الناس عن اعتناقها، وهو الذي يسّر الطريق للإسلام؛ لينتشر بين العرب الوثنيين، فبساطة الدين وسهولة فهم وتصور مبادئه هو الذي مكنه من أن ينتشر في كل ربوع الجزيرة العربية في أقل من عقدين من الزمان، وحقق ما عجزت عن تحقيقه اليهودية والمسيحية في عشرات العقود من الزمان .

** أبرز مراجع هذا الفصل: تاريخ الأدب الجاهلي - مدخل إلى دراسة الأدب الجاهلي - مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين - العقد الفريد - تاريخ الرسل والملوك - البداية والنهاية - تاريخ الإسلام - تاريخ دمشق - سيرة ابن هشام ( )

الباب الثاني

فجر الإسلام وتباشير الفلاح

الفصل الأول مكة ومكانتها التاريخية

الفصل الثاني من الميلاد المُبارك إلى

الوحي السماوي

الفصل الثالث الدعوة السرية والمسلمون

الأوائل

الفصل الأول

مكة ومكانتها التاريخية

عام الفيل

كان للبيت الحرام فضل كبير في تجميع العرب تحت راية واحدة، فرغم ما كان بينهم من حروب تكاد لا تنتهي، إلا أنهم كانوا يجتمعون في موسم الحج فيرى الرجل قاتل أبيه فلا يتعرض له حفاظا على حرمة البيت الحرام.

ورغم أن تاريخ البيت حافل بالبناء والهدم بفعل السيول المتلاحقة عبر الزمان، إلا أن هدم البيت بفعل السيول أمر طبيعي افترضته طبيعة الحياة في بيئة صحراوية، أما أن يتحرك جيش من جنوب الجزيرة متوجها صوب مكة ليس له هدف سوى هدم البيت، فهذا حدث فريد في تاريخ العرب قبل الإسلام كان له أكبر الأثر في حياتهم فيما بعد .

كان مبدأ الأمر حينما استولى الأحباش على أمر اليمن ـ وكانوا يدينون بالمسيحية ـ فحاولوا أن يفرضوا عقيدتهم على أهل اليمن وعرب الجزيرة كلها، فلما ولي القائد الحبشي أبرهة الأشرم أمر اليمن أخذ في بناء الكنائس، ونشر المبشرين بأرض اليمن بغية صرفهم عن دينهم، فبنى كنيسة سماها القُلّيس، وبذل لها ما استطاعه من العناية حتى أنه نقل إليها من قصر بلقيس أعمدة من الرخام والحجارة المنقوشة بالذهب، ونصب فيها صلبانًا من الذهب والفضة، ومنابر من العاج، حتى جعلها تحفة معمارية تُذهب بالأبصار، فلما انتهى من بنائها، أرسل إلى ملك الحبشة تقريره الذي قال فيه " لست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب " فلما عرضها على العرب لم تهو إليها افئدتهم، فأيقن الا مقام لكنيسته وللعرب حول الكعبة مقام، فقرر غزو مكة وهدم الكعبة، فتحرك بجيشه صوب مكة في أول حملة صليبية تشهدها أرض العرب يقودها قائد غلبت ميوله الاستعمارية نزعته الدينية، فأيقن أن أول خطوة لإخضاع جزيرة العرب قاطبة هي تحولها الديني، والقضاء على أسباب الوحدة الروحية للعرب المتمثلة في الكعبة، وهو ما يُسمى الآن بالغزو الفكري، وهدم الرموز الدينية التي من شأنها ان تؤلف بين أبناء الأمة ـ كما يُخطط الآن اليهود لهدم الأقصى .

تحرك أبرهة نحو مكة، كلما مَرَّ بقبيلة من العرب أذل أهلها، وغنم أموالها، وأسر سادتها، ففزع العرب من أمره وهابوا بطشه، فأفسحوا له الطريق إلى مكة التي كان زعيمها آنذاك عبد المطلب جد النبي ﷺ .

وصل الجيش المعتدي إلى مشارف مكة وما عاد يفصله عن هدفه سوى أمتار قلائل، وعصبة هي أهون من أن تصمد أمام جيشه، ومع ذلك آثر أبرهة ان

يهدم البيت بمباركة أهله؛ ليظهر للعرب جميعا هوان أمره على أهله، فأرسل أبرهة رسولا إلى زعيم مكة وقال له: سل عن سيد أهل هذه البلاد وشريفها، ثم قل له: إن الملك لم يأت لحربكم، وإنما جاء لهدم هذا البيت، فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب، فلا حاجة له في دمائكم، فإن هو لم يرد الحرب فأت إليّ به، فجاء الرسول مكة وسأل عن سيدها فدلوه على عبد المطلب، فلما أبلغه رسالة أبرهة، قال له عبد المطلب " والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك منه طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم- ﷺ - فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه، وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه"

توجه عبد المطلب نحو القائد الحبشي، وقد أيقن ألا قدرة له ولقومه على المواجهة، فلم يعد لديه إلا ساحة الحرب النفسية عله أن ينال فيها جولة .

دخل عبد المطلب على قائد الحبشة الذي أجله واعظمه، لما رأى في وجهه من سمات الوقار والهيبة، ثم سأله عن حاجته، فأجابه عبد المطلب قائلا: حاجتي أن يرد عليّ الملك مائتي بعير أصابها لي

كانت كلمات عبد المطلب أكبر من أن يدركها أبرهة، لذا أجابه أبرهة بتعجب واندهاش: أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتًا، هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه، لا تكلمني فيه؟

إن أبرهة لا حاجة له في قريش أو أموالها، وإنما حاجته هي الكعبة، فكان جل مراده أن يساوم عليها عبد المطلب، إلا أن عبد المطلب قد عمد على فصل الحقوق، حق الله وحق قومه، فالبيت هو بيت الله وليس لأحد الحق في أن يساوم عليه، وإن لم يكن له طاقة للدفاع عنه، فإنه لن يضيع أمانة الله فيه، ولن يساوم عليه، ولن يبارك الجيش المعتدي، أما الإبل فهي حقه وحق قومه وهو سيدهم، لذا فهو يطالب بما يملك، وقد يساوم فيه ويجادل دفاعا عنه .

وهنا تتضح لنا حقيقة كُبرى أنه في حياة كل أمة حقوق كبرى لا يحق لذي سلطان أن يمسها أو يساوم عليها أو يتحايل عليها، أو أن يُسيّرها وفق أهوائه ومصالحه، ومهما بلغ من الضعف لا تتهاوى القيم والثوابت أمام عوارض الزمان، والتاريخ كله لم يعرف قائدا كان وقافا عند حق الله تعالى لا يتجاوزه ولا يقبل به صرفا أو عدلا إلا وقد حالفه النصر .

جاء جواب عبد المطلب لأبرهة حاسما، أنه رغم ضعفه لا يقبل المساومة على حق الله، فقال له "إني أنا رب الإبل، وإن للبيت ربا سيمنعه ويحميه" وهنا حدد حق الله الذي لا محاباة فيه ولا إدهان، وإن كان يتحدث من موقف ضعف فأجابه أبرهة بغرور المنتصر في ساحة قتال لم يكن فيها غيره " ما كان ليمتنع مني " فأجابه : أنت وذلك .

خرج عبد المطلب من عند قائد الحبشة وقد كسب جولة الحرب النفسية، وبيّن لقائد الحبشة أن مكانة هذا البيت ليست في أحجاره، وإنما في اعتباره بيت الله في الأرض، اتصل بتاريخهم الطويل، وامتد عبر القرون؛ ليصلهم بأجدادهم فارتبط بقلوبهم وعقولهم، ولن يزيل كل هذا هدمه رغما عن أهله، إلا أن أبرهة لم يفطن لمغزى حديث عبد المطلب فرد عليه إبله وتركه ينصرف.

توجه عبد المطلب إلى قومه فأخبرهم الخبر ثم تعلق بحلقة الكعبة وأستارها في ضراعة الخائف الوجل، وأخذ يدعو الله عز وجل بحماية البيت، ثم أمر الناس بالخروج من مكة إلى الجبال والشعاب، فلما عمد أبرهة على التوجه نحو الكعبة قدّم الفيلة أمام الجيش يقدمهم فيل ضخم في شكل لم تعهد العرب مثله في حروبها، إلا أن الفيل أبى أن يتحرك صوب الكعبة، فإذا وجهوه نحو اليمن أسرع وهرول، وكأنه ألهم المصير الذي ينتظر هذا الجيش المعتدي، وما هي إلا لحظات إذ أقبلت كتائب الطير من ناحية البحر أمثال الخطاطيف، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار، يحملها حجر في منقاره وحجران في رجليه - أمثال الحمص والعدس- لا تصيب منهم أحدًا إلا هلك، فأصابهم الذعر والفزع، واستولى عليهم الرعب والذهول، فخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذي منه جاءوا، ويسألوا عن الطريق إلى اليمن، وبذلك حمى الله بيته وأهلك عدوه.

كانت هذه بعض تفاصيل هذا الحدث العجيب، وهذه الآية العظيمة التي عدّها العرب يوما مشهودا في تاريخهم، فأرخوا سنواتهم بها، إلا أننا لنا مع هذا الحادث وقفات :

الأولى : كشفت حملة أبرهة نحو مكة عن واقع العرب الحقيقي قبل الإسلام، والذي بدا جليا في عدة صور :

أ - انصرافهم عن الدفاع عن مكة والبيت الحرام، رغم ما تمثله لهم من مكانة في قلوبهم، فالنية الحسنة لم تحظ بالبذل والتضحية، وليس بالنوايا تُصان الأعراض، وتُحمى البلاد والمقدسات، وإنما بالسعي الصادق والقدرة المنفذة

ب - انشغالهم بالصراعات القبلية والخصومات المحلية، والذي بدوره أبعدهم عن فكرة الأمة الواحدة التي تتجمع لمواجهة الخطر المحدق والعدو القادم لغزو بلادهم، فرغم مئات القبائل المتناثرة في كل أرض الجزيرة، ورغم ألوف الفرسان، لم يتحرك فيهم أحد لرد حملة جاءت لتهدم رمز عزتهم، ثم لا يجدون حرجا في إشعال حرب لعشرات السنوات من أجل ناقة، فقد كان واقع العرب قبل الإسلام يُنْبئ عن صدام حقيقي بين المصالح والأهداف، وأن أمل التلاقي وتوحيد الأهداف بات بعيدا بعد المشرق من المغرب .

ج ـ افتقاد الدافع المعنوي الذي تُزهق من أجله الأرواح، فلم ينهض لمواجهة جيش أبرهة إلا جماعات صغيرة سرعان ما استسلمت ورضيت بذل العبودية، فقد كانوا أشد حرصا على الحياة ولو كانت وضيعة، وأشد بعدا من التضحية من أجل مقدساتهم وكرامتهم، بل إنهم لم يجدوا حرجا في معاونة جيش أبرهة بإرشاده في ضروب الصحراء الوعرة، وإخباره بالقبائل المتناثرة يمنة ويسرة، فقد غاب عن العرب الدفعة الروحية التي ترتقي بهم وبأهدافهم، وغابت عنهم القضية التي يضحون من أجلها، وأوقفوا حياتهم عند العداءات الشخصية والخصومات القبلية، وهنا تظهر لنا عظمة الإسلام وقدرته على الارتقاء بالأفراد والأمم.

د ـ السطحية في العقيدة، فكانوا لا يرون حرجا في إشعال حروب لعشرات السنوات من أجل ثأر لقبيلة، أما نار الحمية الدينية في القلوب فاشبه بأكوام الجليد التي لا تجد ما يذيبها، وهنا يظهر لنا آثار البعد عن تعاليم الشرائع السماوية في حياة الأفراد والأمم، فبعدما كانوا ينعمون بالأمن والأمان، ويعيشون على تعاليم إبراهيم عليه السلام، تبدلت حياتهم إلى صنوف شتى من الشرك والضلال بذل قلوبهم وعقولهم، فما عاد فيها حقيقة واحدة من حقائق تلك الشريعة، أفسدت عليهم الأصنام دين التوحيد، وباعدت بين قلوبهم ومعتقداتهم، وألقت بينهم روح الفرقة والانقسام، لكل قبيلة صنم، ولكل صنم تلبية، ولكل صنم طقوس وشعائر، فغدا العرب أمة لا نبض فيها ولا حياة.

بل إنهم لم يجدوا حرجا في أن يساوموا الجيش المعتدي من أجل أصنامهم، فلما حاصر أبرهة قبيلة ثقيف خرج إليه سادتها يعلنون خضوعهم، ويباركون حملته لهدم الكعبة، بشرط أن يترك لهم بيت أصنامهم اللات، أي تُهدم الكعبة وتبقى اللات! فأيقن أبرهة أن العرب أمة تحمل اسما لا منهجا وعقيدة، فلما كرّ أبرهة من الطائف إلى مكة تقدم جيشه أبو رغال الثقفي دليلا لهم، عله أن يعينه على هدم الكعبة بمباركة أهلها، وتحت سمعهم وبصرهم

ثانيا : إن حماية الله للبيت ليست دفاعا عن وثنية العرب، فالله لم يهزم أهل الكتاب من أجل عُباد الحجر والصنم وإنما لحكمة جليلة كشفتها الأيام التي تلت هذه الحادثة من شروق شمس الرسالة الخاتمة إلى البشرية كلها من هذه البلدة الصغيرة، وبجوار بيت الله الحرام، فحماية الله للبيت هو دفاع عن الحنيفية السمحة التي جاء بها الخليل إبراهيم عليه السلام ورفع قواعد هذا البيت؛ ليكون ركنا من أركان الدين الحنيف، وحماية هذا البيت هو حماية لرمز سيجمع كل من آمن بالرسالة الخاتمة حوله، يتوجهون صوبه خمس مرات كل يوم بقلوبهم قبل أبدانهم، يحيون به شعيرة من شعائر الله عز وجل، وحماية الله للبيت هي صيانة

لرسوله ﷺ من الاسترقاق، وصون أهله من السبي، فقد وُلد الرسول ﷺ في نفس العام، عام الفيل .

ثالثا : لقد كان لهذا الحادث أجَل تأثير في علو شان مكة وتعظيمها، وسمو قدر أهلها ـ أهل الحرم ـ الذين دافع الله عنهم من فوق سبع سماوات، فغدت مكة ولا مدينة مثلها في قلوب العرب، وغدا أهلها سادة العرب جميعا، يأمرون فيُطاعون، ويسنون فيُتبعون، ولسان حال العرب أجمعين " أهل الله قاتل عنهم وكفاهم كيد عدوهم " وكان لهذه المكانة أعظم الأثر في خروج رسالة الإسلام من مكة إلى الدنيا جميعا، فحينما عارضت مكة الرسالة صُرفت قلوب العرب عنها، ولما فتحها الله على رسوله ﷺ دخل الناس في دين الله أفواجا، وذلك لأن العرب كانوا تابع ومتبوع، وكان كل العرب تابع لمكة وأهلها، ويؤكد هذا المعنى مقولة عمر بن الخطاب ﷺ لأهل مكة ((والله لو تدخلون معاشر قريش جحرًا لدخلته العرب في آثاركم))

رابعا : لقد كانت هذه الحادثة آية عظيمة تدل على قدرة الله عز وجل في النيل من الظالمين في كل وقت وبأي حال، وإنما جعل الله المعجزات؛ ليؤيد بها نبي مُرسل، أو يقهر بها عدو جبار، وقدرة الله عز وجل لا تحدها حدود العقل، ولا تُقاس بمقاييس البشر، وقياس المعجزة بقبول العقل لها أو إنكاره لها قياس باطل، فكيف تكون مُعجزة ولا تبهر العقل وتثبت عجزه ؟! وقد حاول العديد ممن دونوا في السيرة من المعاصرين أن يضعوا هذه الآية في نطاق يقبله العقل ويخرجها من الإعجاز، فأنكروا الطير والحجارة، وقالوا إن الله عز وجل يريد بالطير الرياح المتجمعة، وبالحجارة ذرات التراب التي حملت ميكروب الجدري، والذي بدوره قضى على الجيش كله(١)

وهذا القول لا يستند لأي دليل سوى تأويل النصوص، فالقرآن قد نزل وفقا للغة العرب الذين لم يعهد عنهم استخدام كلمة الطير بمعنى للرياح، كما أن القرآن حين نزل كان غير واحد ممن أدركوا الإسلام أدركوا تلك الحادثة وفي الوقت الذي كانوا يتصيدون فيه الأخطاء للدعوة والدين لم يعترض أحدهم على تلك التفاصيل التي عرضها القرآن لحادثة الفيل . (٢)

---

(١) للاستزادة انظر : الكتابة العربية المعاصرة في السيرة النبوية

(٢) انظر : القول المبين في سيرة سيد المُرسلين ١/٢٦

مكانة مكة في قلوب العرب

كان لحادثة الفيل أكبر الفضل في جمع العرب حول مكة والبيت الحرام، فازدادت قريش تعظيما عند العرب وازدادت الكعبة تقديسا، وصارت رمزا لعزتهم وكرامتهم، فلم تخضع مكة لأي ملك أجنبي، وتحولت إليها أفئدة العرب الوثنيين، وكأنهم التمسوا الخطر الذي يُعدُّ لهم من الشمال ومن الجنوب على السواء، فالتفوا حول الكعبة وكأنهم رأوا فيها رمز وحدتهم.

وكما كانت مكة أكبر مركز ديني للوثنية الجاهلية، كانت أيضا مدينة تجارية كبيرة ممسكة بزمام القوافل التجارية وقد ساعدها التصادم المستمر بين الفرس والروم إلى أن تتحول إليها أكثر تجارة الشمال والجنوب؛ لإغلاق الطريق بين العراق والشام، فكانت قوافلها تجوب الصحراء العربية متجهة إلى الجنوب في اليمن، وإلى الشرق في الحيرة وإلى الشمال حيث بلاد الشام، وإلى غزة ومصر ولم يكن أهلها يؤدون إتاوة، بل كانوا يأخذون إتاوة من التجار الأجانب إذا ألمّوا بمكة، وكان أهلها يُسافرون ويعودون في أمان، وذلك لعظمتهم عند الناس لكونهم سكان الحرم، كما أن أكبر أسواق العرب كانت تُقام بها، كسوق عُكاظ، ومجنة، وذي المجاز، والتي لم تقف عند التجارة فحسب، بل كانت أسواقا أدبية ساعدت على انتشار اللهجة القرشية وسيادتها، وعُرف عن أهل مكة الثراء الفاحش دون غيرهم من العرب، فقد كان يعيش سادتها عيشة مترفة بحكم ثرائهم، ومخالطتهم الفرس والروم في تجاراتهم، وامتلك سادتها أعدادا كبيرة من العبيد خاصة عبيد الحبشة، واشتهر من بين أهلها بيتان بالثراء، هم بنو أمية، وبنو مخزوم، كما اشتهر عبد الله بن جُدعان التيمي بالثراء الفاحش، حتى أن الشُعراء كانوا يتقربون إليه ويمتدحونه رغبة في عطائه.

ويمكن القول أن مكة كانت أهم مدينة عربية في الجاهلية، وأن أهلها كانوا أعز العرب، غير أنهم لم يُخرجوا تنظيم جماعتهم عن مستوى النظام القبلي الذي تحكمه الأعراف والتقاليد، فبالرغم من الترابط الذي جمع بين عشائرها من أجل سدانة الكعبة وتجارة القوافل، ظلت الحرية المطلقة مكفولة لكل فرد، مع اعترافه بحق القبيلة عليه، وظلت قوانين العرف والعادة هي الفيصل عند النظر في شئون القبيلة.

وإذا كان هذا سمة الشعوب البدائية، إلا أنهم كانوا في نهاية طور البداوة، وأكثر تأهيلا لفكرة الأمة الواحدة بالقيادة الواحدة، وهذا ما فعله الإسلام، فقد جمّعهم من شتات، ونظّم حياتهم، وأضفى عليها روحا جديدة هي روح الأخوّة بدلا من روح التعصب القبلي.

وإن كانت هذه مكانة مكة عند العرب قبل الإسلام، فإن ظهور الإسلام قد أضاف إليها مكانة جديدة، فقد صار الحج ركنا من أركان الإسلام، وصارت مكة قبلة المسلمين في كل مكان، وحرَّم الله فيها القتال، وأوجب على المسلمين تأمين من يدخل البيت الحرام حاجا أو معتمرا.

ولما كان يوم فتح مكة قام رسول الله ﷺ في الناس خطيبا فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ:« إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ، وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، فَلاَ يَحِلُّ لاِمْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلاَ يَعْضِدَ بِهَا شَجَرَةً، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ لِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهَا فَقُولُوا إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ لِرَسُولِهِ، وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ. وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالأَمْسِ، وَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ » (١) غير أن القدسية التي منحها الإسلام للكعبة ليست قدسية لأحجارها أو لأي أثر منها، فإن الكعبة كبناء مجرد أحجار لا تضر ولا تنفع، ولطالما حارب الإسلام الوثنية بكل صورها، فلا يملك الضر ولا النفع إلا الله عز وجل، كما أن كونها قبلة المسلمين في كل صلاة لا يعدو عن كونها رمزا لتوحيد المسلمين في عبادتهم، أما الخشوع فـ لله وحده، ولعل قدسيتها في كونها أول بيت وُضِع للناس لعبادة الله على الأرض ، قال تعالى [إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ *فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ] (٢) وفي صحيح البخاري عَنْ أَبِى ذَرٍّ ﷺ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ أَوَّلُ قَالَ « الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ » قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ قَالَ « ثُمَّ الْمَسْجِدُ الأَقْصَى » قُلْتُ كَمْ كَانَ بَيْنَهُمَا قَالَ « أَرْبَعُونَ » ثُمَّ قَالَ « حَيْثُمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلاَةُ فَصَلِّ ، وَالأَرْضُ لَكَ مَسْجِدٌ » (٣)

بناء الكعبة

لما كان للكعبة من مكانة في قلوب العرب قبل الإسلام وبعده، فقد شُغِل غير واحد ممن دونوا في السير والتاريخ بتتبع تاريخ بناء الكعبة، ونقلوا لنا كل الآراء والأقوال التي ذُكرت، فمنها أن البعض رجع ببناء الكعبة إلى عهد آدم عليه السلام، وبالغ آخرون فنسبوا أول بنائها إلى الملائكة قبل آدم عليه السلام، ثم ذكروا طواف سفينة نوح عليه السلام بها، وغير ذلك من الأخبار التي تفتقد إلى الدليل الصحيح الذي يدفع إلى تصديقها، ومهما كان تاريخ بنائها الأول ، فإن النص القرآني واضحٌ بأن مَن رفع قواعدها هو الخليل إبراهيم مع ابنه إسماعيل عليهما السلام.

---

(١) البخاري ١٠٤ (٢)[آل عمران ٩٦/٩٧] (٣)البخاري ٣٤٢٥

وما كان بين هذا البناء وبنائها على يد قريش قبيل البعثة، تاريخ طويل قد تعرضت فيه مكة لسيول عدة، فربما تجدد بناؤها في هذه الفترة مرة أو عدة مرات، إلا أن ما يعنينا الآن هو بناؤها قبيل البعثة النبوية، ثم بناؤها في عهد عبد الله بن الزبير، فهذه الأخبار متواترة، وتشهد لها الأحاديث الصحيحة .

كانت السيول كثيرا ما تجتاح مكة، فقلما سلم البيت من آثارها، إلا أن أهل مكة ما كانوا يهابون شيء هيبتهم الاقتراب من بنيان الكعبة، وبمرور الزمن أصاب بناء الكعبة التصدع، وأي تصدع وهي يومئذ أحجار متراكبة فوق بعضها البعض لا يتجاوز ارتفاعها تسعة أذرع، فاجتمع النفر من قريش ينظرون في هدم الكعبة، يستعظمون العمل ويهابون الهدم، فتقدم الوليد بن المغيرة ـ وكان من سادات قريش ووجهائها ـ فأخذ المعول وقال: اللهم لا نريد إلا الخير، ثم هدم ناحية الركنين، ولم يشاركه أحد مخافة انتقام الله عز وجل، فلما لم يصبه شيء تبعه الناس في الهدم في اليوم الثاني، ولم يزالوا في الهدم حتى وصلوا إلى قواعد إبراهيم ﷺ، فلما عمدوا إلى البناء عينوا لكل قبيلة جزءا من الكعبة تجمع أحجاره مخافة الشقاق بين القبائل، إلا أنهم اشترطوا فيما بينهم ألا يُدخلوا في بنائها إلا مال من كسب حلال ليس فيه مظلمة لأحد أو بيع ربا، وكان هذا قبل البعثة النبوية بخمس سنوات، وقد شاركهم النبي ﷺ كغيره من رجال مكة في نقل الأحجار، فعن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: لَمَّا بُنِيَتِ الْكَعْبَةُ ذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ وَعَبَّاسٌ يَنْقُلَانِ الْحِجَارَةَ فَقَالَ الْعَبَّاسُ لِلنَّبِيِّ ﷺ اجْعَلْ إِزَارَكَ عَلَى رَقَبَتِكَ، فَخَرَّ إِلَى الْأَرْضِ، وَطَمَحَتْ عَيْنَاهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ« أَرِنِي إِزَارِي » فَشَدَّهُ عَلَيْهِ (١)

أتموا البناء ولم يبق سوى وضع الحجر الأسود في مكانه، والقبيلة التي ستظفر بهذا الأمر، لا يكفيها شرفا وفخرا به أبد الدهر، فاختصموا فيه كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه، وتنال الشرف دون غيرها، وسرعان ما تحول السباق إلى خلاف بدت عليه ملامح الحرب، فتحزبت القبائل واستعدت للقتال، إلا أنهم قد هابوا القتال في أرض الحرم، فتجمعوا وتشاوروا في أمرهم، فأشار عليهم أبو أمية بن المغيرة ـ وكان أسنَّ قريش ـ برأي راجح وهو أن يُحكموا فيما بينهم أول من يدخل عليهم من باب المسجد، فقبلوا رأيه، فطالعوا ناحية الباب، الكل في تلهف وشوق، من هذا الذي سينال هذا الشرف العظيم! فدخل عليهم رسول الله ﷺ فلما رأوه صاحوا: هذا الأمين رضينا به حكما، فأخبروه الخبر فأشار عليهم برأي عدل، يمنح لكل قبيلة الشرف الذي تطلبه، ويحقن به دماءهم .

---

(١) مسلم ٢٣٠٩

فعَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ : لمَّا أنْ هُدِمَ البَيْتُ بَعْدَ جُرْهُم بَنَتْهُ قُرَيْشٌ فلمَّا أرَادُوا وَضْعَ الحَجَرِ تَشَاجَرُوا مَنْ يَضَعُهُ فاتَّفقوا أنْ يَضَعَهُ أوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ مِنْ هَذا البَابِ فدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ بَابِ بَنِي شَيْبَةَ فأمَرَ بِثوْبٍ فوَضَعَ الحَجَرَ فِي وَسَطِهِ وَأمَرَ كُلَّ فخِذٍ أنْ يَأخُذُوا بِطَائِفةٍ مِنَ الثوْبِ فيَرْفعُوهُ وَأخَذَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فوَضَعَهُ (١)

وبهذا الحل الذي ارتضوه مطمئنين سمت منزلة النبي ﷺ بينهم، وحُقِنت دماؤهم وأتمّوا البناء إلا أنهم عجزوا عن إبلاغه قواعد إبراهيم ﷺ، ولما استقر أمر الدين، ودانت العرب للإسلام لم يجد رسول الله ﷺ ضرورة من تجديد بنائها وردها إلى قواعد إبراهيم ﷺ، واكتفى بتطهيرها من معالم الوثنية، وتثبيت أركان الدين، ثم قال ﷺ لعائشة رضي الله تعالى عنها « لوْلا حَدَاثةُ قوْمِكِ بِالكُفرِ لنَقضْتُ البَيْتَ ثُمَّ لبَنَيْتُهُ عَلى أسَاسِ إبْرَاهِيمَ - ﷺ- فإنَّ قُرَيْشًا اسْتَقْصَرَتْ بِنَاءَهُ - وَجَعَلتْ لهُ خَلفًا »(٢)

عبد المطلب وقصة الذبح

لما كان لعبد المطلب السيادة على قريش، وولي أمر السقاية والرفادة، بعد عمه المطلب - والذي عُرف في قومه بالفياض لكرمه وسخائه - أقام لقومه ما كان آباؤه يقيمونه من قبله، فارتفعت مكانته وعظم شرفه بين قومه، وازدادت هذه المكانة بعد حادثة الفيل، فكان عبد المطلب يُعظم البيت ويُحسن ضيافة زائريه، ومع أنه لم يكن من ذوي الثراء المعهود في قريش، إلا أن مكانته كانت تفوق ذوي الثروات من بني أمية وبني مخزوم، وبقيت في يديه زعامة مكة وأمر البيت الحرام، وهذه المكانة لم تقف عند أهل مكة فحسب، بل إنها مكانة تميزه عن كل عرب الجزيرة قاطبة، فقد كان لمكة السيادة على كل بلاد الجزيرة، وكان لأهلها السيادة على كل العرب، فمن ساد في قريش ساد في كل الجزيرة .

تروي كتب السير أن عبد المطلب كان نائما في الحِجر فرأى رؤية أمر فيها بحفر زمزم ووصف له موضعها فقام وحفرها، فلما خرج عليه الماء كبّر، فعرف القوم أنه نال مقصده، فنازعوه فيها، ولم يكن له من الولد سوى ابنه الحارث، فعجز عن أن يمنعه، فاختصموا إلى كاهنة بأطراف الشام، وبينما هم في الطريق إذ فني ماؤهم وأيقنوا الهلاك وظلوا ينتظرون الموت، فحدثت إحدى الامارات التي فهموا منها تخصيص زمزم لعبد المطلب، فتذكر كتب السير أن الماء خرج من تحت خف راحلته، والبعض ذكر أمطارا

(١) تتمة الحديث السابق في صحيح مسلم ٣٣٠٩ (٢) مسلم ٣٣١٠

ولا يعنينا التحقيق في مدى صدق هذه الأقوال، فقد كانوا قوم شرك وجاهلية لا

مجال لمعجزة أو كرامة، ويبدوا أنهم أوّلوا شيئا ما فهموا منه أن تخصيص زمزم لعبد المطلب فلم ينازعوه فيها، إلا أن عبد المطلب قد أيقن أن عزته بين قومه بكثرة أولاده، فنذر إن رُزق من الولد عشرٌ ليذبحن واحدا منهم، فلما رزقه الله عشرا من الأبناء عزم على الوفاء بنذره، فاقترع بين أبنائه، فكان النذر على عبد الله والد النبي ﷺ، ولما قصد ذبحه هال الناس عليه، فلم يألفوا أن يذبح الرجل ولده وفاءً لنذره، وكلموه في أن يُحَكم في أمره هذا كاهنة لها تابع من الجن بيثرب، فأشارت عليه أن يقترع بين ابنه وبين عشرة من الإبل، وإن خرج القداح على ابنه زاد في الإبل، فضربوا القداح حتى وصلت الإبل مائة ثم خرج عليها القداح، فذبحها عبد المطلب، ونجّا الله عبد الله من الذبح . (١)

قال الزهري: وكان عبد المطلب أول من سن دية النفس مائة من الإبل فجرت في قريش والعرب، وأقرها رسول الله ﷺ . (٢)

غمرت السعادة عبد المطلب بنجاة ابنه مع الوفاء بنذره، وفي غمرات سعادته عمد إلى تزويجه، فزوّجه بابنة سيد بني زُهرة آمنة بنت وهب، وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسبا وموضعا، فكان النبي ﷺ أوسط قومه نسبا وأعظمهم شرفا وأرفعهم مكانة، تجمعت في أسرته جوهر الفضائل التي كانت تتباهى بها العرب، وسمت عن الرذائل التي كانت تشين العرب، فعن وَاثِلَة بْنَ الأَسْقَعِ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ « إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِى هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِى هَاشِمٍ » (٣)

---

(١)هذا السياق مختصر ما رواه ابن اسحق في سيرته عن هذه الواقعة ورواه عنه البيهقي في الدلائل ٣٠/١ وابن كثير في سيرته ١٦٧/١

(٢)سبل الهدي والرشاد ص٢٤٦ ورواه ابن سعد في الطبقات عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما

(٣)مسلم ٦٠٧٧

** أبرز مراجع هذا الفصل:(الكتابة العربية المطورة في السيرة النبوية - القول المبين في سيرة سيد المرسلين - في رحاب البيت العتيق - تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام - الروض الأنف))

الفصل الثاني

من الميلاد المُبارك إلى الوحي السماوي

نبي و رسالة

كان ميلاد النبي ﷺ إيذانا ببدء ثورة شاملة في الاجتماع الإنساني كله، ثورة شملت كل مجالات الحياة فحرّرت الإنسان من عمية الجاهلية، وحررت الزمان بديمومة رسالته إلى قيام الساعة، وحررت المكان بعالمية دعوته، ثورة أوقفت مد الجاهلية الذي طغى على كل صور الحياة، فغلب على طباع الأحياء، ثورة قوّضت من حكم طواغيت البشر وتشريعهم في الناس حسب أهوائهم، ثورة غيّرت حياة البشر، كل البشر، من آمن بالنبي ﷺ وصدّقه، ومن كفر به وكذّبه، ثورة عمّت الاجتماع الإنساني كله، تُنهي به حقبة مظلمة سوداء إلا وميض من أنوار النبوة قبله، وتبدأ به حقبة جديدة في عُمر الحياة ومنهج الأحياء، ثورة حرّرت الاجتماع الإنساني كله من عبادة العباد إلى عبادة خالقهم، من قيود الدنيا وضيقها إلى سعة الآخرة ونعيمها، من جور الطواغيت وبطش الجبارين إلى عدل الإسلام ورحمته، ثورة حرّرت عقل الإنسان من الخرافات والأكاذيب وقادته إلى التفكير والتأمل، فبقليل تأمل لحركة التاريخ قبل وبعد ميلاد النبي ﷺ تنجلي الغشاوة عن عقول ألفت الضلال؛ لتقارن بين طبيعة الحياة والأحياء قبل وبعد ميلاده ﷺ وبعثته، فقد كان ميلاده ﷺ ومبعثه حدث فاصل في تاريخ البشرية قاطبة، لم تشهده من قبل، ولن تشهده من بعد .

إن التاريخ الإنساني كله لم يشهد ميلاد رجل غيّر شكل الحياة فيه مثل رسول الله ﷺ، والتاريخ كله لم يعرف نبيا ولا قائدا ولا زعيما ولا مصلحا استوعب في صفاته العقلية والنفسية والخلقية والخُلقية والدينية والروحية والقيادية والاجتماعية والإدارية والعسكرية والتربوية ما استوعبته شخصية النبي ﷺ، وما اختصه الله به من الفضائل التي تشرق في كل جانب من جوانبها؛ لتضيء ظلمات الحياة، وتنير طريق الأحياء، تنقذ العقول من حيرتها والقلوب من تيهها؛ لترد للنفس سموها ورقيها.

لقد كان ميلاد النبي ﷺ وبعثته نورا أجلى الله به ظلمات الحياة، وأنقذ به مصائر الأحياء، قال تعالى [قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ](١) وقال عن منهجه ورسالته [أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ] (٢)

---

(١) {المائدة:١٥}

(٢){الزمر:٢٢}

لقد جاء النبي ﷺ في وقت كانت فيه البشرية على حافة الهاوية، في مفترق طرق، ومفاصلة حقيقية بين ماض ملوث بصنوف الشرك والبدع والخرافات، ومستقبل يفتقد المنهج الذي يأمن للأحياء حياة كريمة، فغدت البشرية كلها بحاجة ماسة إلى رسالة تعيد إليها رشدها بعدما سادها العوج والفوضى

لقد جاء رسول الله ﷺ على حين فترة من الرسل واندثار في العقائد، وقد حكّمَ العالم المستبدون، وانتشرت الضلالة وعمّت الجهالة، وبلغت البشرية كلها أدنى درجات الانحطاط في العقائد، والعادات، والأخلاق، وأبشع صور الضلالة في تنظيم أمور الحياة وشئون الخلق، وتشتت في الأهواء وتفرّق في الأديان، فانتشر الشرك حتى غدا الخَلق في جاهلية ضارية، قد ضربت كل جوانب الحياة، لا يعرفون حقًا للخالق، ولا رحمة بالمخلوق.

لقد جاء رسول الله ﷺ وقد نظر الله تعالى إلى البشر، كل البشر فمقتهم جميعا إلا بقايا من أهل الكتاب لا تقوى إلا على إصلاح نفسها

لقد جاء رسول الله ﷺ وقد بنى المصلحون والقادة والزعماء قصور آمالهم على كثبان من الرمال لا يقوى على حمل طموحات طفل صغير، لا بشرية شاردة عن وجهتها، فشمّر عن ساق الاجتهاد، واجتهد في دعوته وتبليغ رسالته، فانتقل من نصر إلى نصر، حتى استقام له الأمر وانتظم له عصره، فوحّد شتات العرب، وجعل منهم أمة تهابها كل الأمم، فدان لسلطانها ملوك العجم، وأضاءت شمس الإسلام في جميع الأمم، وشيد الإسلام حضارة لم تر مثلها عيون القرون، ولم يشهد نظيرها سجل البشرية الحافل بمختلف الحضارات عبر القرون .

لقد غيّر رسول الله ﷺ شكل الحياة وطبيعتها، وجاء برسالة الإسلام؛ ليعيد بناء العالم من جديد، وليجعل من العرب أمة تقود هذا العالم، ومن العرب رجل يقود هذه الأمة، ويُختم به النبيون.

ولأن ميلاده ﷺ كان بداية حقبة جديدة في تاريخ البشرية، فقد وقف رجال يصورون هذه الحقيقة بشيء من الخيال، فاختلقوا جملة من الإرهاصات التي نسبوها إلى ميلاده المبارك، وانشغلوا بما لم يطالبهم به الشرع عما طالبهم به ونسجوا خيوط البدع والمنكرات حول رسالته وسننه، واعتقدوها من علامات محبته، والمحبة الصادقة أقوال تجسدها أفعال، لا بدع وخرافات، إنها تجسيد لقيمة كُبرى تكمن في كونه النبي الأسوة في أقواله وأفعاله، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ « لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ »(١)

---

(١) البخاري ١٥ واللفظ له ومسلم ١٧٧

إن طبيعة الرسالة الخاتمة التي تصلح لكل زمان ومكان لابد وأن تخاطب العقل، وأن يكون الإيمان بها مكتسبا بحجة ودليل يقبله العقل السليم، فجاء القرآن كمعجزة خالدة تتحدي المنكرين، وتبرهن على صدق النبي ﷺ بالحجة والدليل أمّا إرهاصات الميلاد التي ماجت بها العديد من كُتب السير، والتي افتقدت للسند الصحيح، فلم تكن يوما سببا في إقناع أحد بالإسلام، ولم يكن لها أثر يُذكر على اعتقاد أحد، بل إن معظم من قام على أيديهم أمر الرسالة لم يُدركوا ميلاده المُبارك، وحينما أسلموا لم ينشغلوا بما حدث من معجزات يوم ميلاده، ففي الوقت الذي وُلد فيه النبي ﷺ وُلد غيره أطفال كثيرون في كل أرجاء الأرض، فكيف يحق لنا أن ننسب هذه العلامات - إن ثبت وجودها - لرسول الله ﷺ ونسلب الحق من الآخرين في أن ينسبوها لغيره ؟ ثم كيف يمكن تأويل كل هذه الأحداث بمجرد ميلاد مولود ربما وُلد في مكة غيره في نفس التوقيت؟!

وكيف لمن شاهدوا بشائر الميلاد أن يترجموا مغزاها أو دلالتها والرسالة بعد الميلاد بأربعين عاما ؟!

إن البشارة بقرب بعث النبي الكريم لا تحتاج لأن تُخمد نار المجوس يوم ميلاده والتي لم تُخمد من قبل منذ ألف عام أو أن تسقط أربع عشرة شرفة من إيوان كسري، أو أن تغيض ماء بحيرة ساوة أو غير ذلك من الإرهاصات، فالإخماد الحقيقي لنار المجوس، وزوال ملك كسرى وقيصر، كان على أيدي من آمنوا بهذه الرسالة وانساحوا في ربوع الأرض يخضعونها لحكم الله وشرعه، وأبادوا مُلك كسرى وقيصر ومن كان على شاكلتهم، وزلزلوا الأرض من تحت أقدامهم بإيمانهم وجهادهم، فأخمدوا نارهم إلى الأبد، وجاءوا بكنوز كسرى وقيصر لتنفق في سبيل الله .

إن ميلاد النبي ﷺ حدث فريد في تاريخ البشرية كلها، لكنه لا يحتاج إلي كل هذه الإرهاصات التي افتقدت إلى السند الصحيح لتصديقها، بل إن تاريخ هذه الأمم لم يُقر بهذه الوقائع، والتي إن حدثت كانت بالأمور العظام التي تستحق أن تُذكر في تاريخهم.

إن تاريخ النبي ﷺ فيه من ألوان البطولة والتأييد الرباني ما يُغني عن البحث عن هذه الروايات الواهية، ولعل ما يمكن أن يكون إرهاصا لميلاد الرسول الكريم ﷺ هو ظهور طائفة الحنفاء العرب الذين آمنوا ببطلان عقائد قومهم والتمسوا الدين الحنيف الذي لا يعرف البدع والخرافات، كما أن من إرهاصات النبوة حماية الله للبيت الحرام ممن جاءوا لهدمه، وهذا الواقع الذي تشبع بالفساد العقائدي ليس في الجزيرة فقط، بل في كل مكان من المعمورة، ألا يؤذن بقرب بعث النبي الخاتم، الذي يُقيم الله على يديه العدل ويرفع الظلم وينهي سُلطانه.

النسب الشريف

هو مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبِ بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ (١)
وعدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وما بينهما غير مقطوع بصحته، وكذلك ما بين إبراهيم إلى آدم عليهما السلام، فربما ذكرنا في نسب النبي ﷺ من ليس منه، لذا ذهب كثير من أهل العلم إلى الوقوف في نسب النبي ﷺ عند عدنان .
فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت " ما وجدنا أحدا يعرف ما وراء عدنان ولا قحطان إلا تخرصا "(٢)
وعَنْ عُمَرَ ﷺ قَالَ " إِنَّمَا نَنْتَسِبُ إِلَى عَدْنَانَ وَمَا فَوْقَ ذَلِكَ لَا نَدْرِي مَا هُوَ " (٣)
وعن ابن مسعود ﷺ أنه كان إذا بَلَغَ عَدْنَانَ قَالَ " كَذَبَ النَّسَّابُونَ " (٤)
وهذا النسب بهذه الصفة لا خلاف فيه بين العلماء، فجميع قبائل عرب الحجاز ينتمون إلى هذا النسب، ولهذا قال ابن عباس وغيره في قوله تعالى {قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} لم يكن بطن من بطون قريش إلا ولرسول الله ﷺ نسب يتصل بهم.(٥)
وعن هذا النسب قال ابن الرومي :

وكم أب قد علا بابنٍ ذُرا شرف   كما علا برسول اللهِ عدنان

وإلى عدنان يُنسب النبي ﷺ فيُقال النبي العدناني، ويُقال النبي الهاشمي نسبة إلى هاشم بن عبد مناف، ويُقال النبي المضري نسبة إلى مُضر وهو ابن نزار، وله أخ يُقال له ربيعة، والمضريون هم عرب الحجاز ومنهم سكان مكة، وربيعة سكنوا بادية نجد والعراق، ومنهم خرج مسيلمة الكذاب، وعنه قال أحد أنصاره ((كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر)) يُعني بصادق مُضر النبي ﷺ .

---

(١)صحيح البخاري ك مناقب الأنصار باب ٢٨ مبعث النبي
(٢)عيون الأثر (ج ١ / ص ٣٣)
(٣)الروض الأنف - (ج ١ / ص ٣١)
(٤)نُسب هذا القول إلى النبي ﷺ وهو ليس بحديث، قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة ٢٢٨/١ حديث ١١١ بأنه حديث موضوع ، وقال السهيلي في الروض الأنف (ج ١ / ص ٣١) وَالْأَصَحّ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنّهُ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه
(٥)صحيح السيرة النبوية للألباني والآية من سورة [الشورى : ٢٣]

وهذا النسب هو الذي اختاره الله عز وجل؛ ليخرج من صلبه سيد ولد آدم عليه السلام، فحفظه الله تعالى في أصلاب الرجال وأرحام النساء حتى وُلد، فقد روى أحمد عَن الْمُطَّلِبِ بْنِ أَبِي وَدَاعَةَ قَالَ: قَالَ الْعَبَّاسُ: بَلَغَهُ ﷺ بَعْضُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَقَالَ « مَنْ أَنَا » قَالُوا أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

فَقَالَ « أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ خَلْقِهِ وَجَعَلَهُمْ فِرْقَتَيْنِ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ فِرْقَةٍ وَخَلَقَ الْقَبَائِلَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ قَبِيلَةٍ وَجَعَلَهُمْ بُيُوتاً فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ بَيْتاً فَأَنَا خَيْرُكُمْ بَيْتاً وَخَيْرُكُمْ نَفْساً » (١)

وقَالَ ﷺ « بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قَرْنًا فَقَرْنًا، حَتَّى كُنْتُ مِنَ الْقَرْنِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ » (٢)

وقال ﷺ « إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ » (٣)

وقال ﷺ « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ »(٤)

على أن هذا النسب ليس معناه أن كل من جاء النبي ﷺ من أصلابهم كانوا مؤمنين، فإن هذا لم يثبت بوجه من الوجوه، وقد أجاب البيهقي رحمه الله في الدلائل على أن كفر آبائه ﷺ وأجداده لا يقدح في نسبه الشريف، فقال ((وكيف لا يكون أبواه وجده بهذه الصفة في الآخرة، وكانوا يعبدون الوثن حتى ماتوا، ولم يدينوا دين عيسى ابن مريم عليه السلام؟ وأمرهم لا يقدح في نسب رسول الله ﷺ، لأن أنكحة الكفار صحيحة، ألا تراهم يسلمون مع زوجاتهم فلا يلزمهم تجديد العقد، ولا مفارقتهن إذا كان مثله يجوز في الإسلام)) (٥)

---

(١) مسند أحمد ١٨١٦ وذكره الألباني في صحيح السيرة وقال الهيثمي رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح

(٢)البخاري ٣٥٥٧

(٣)مسلم ٦٠٧٧

(٤)مسلم ٦٠٧٩

(٥)دلائل النبوة للبيهقي - (ج ١ / ص ١٢٢)

المولد والرضاعة

تزوج عبد الله بن عبد المطلب بسيدة بني زُهرة آمنة بنت وهب، وبنى بها في مكة، بنكاح كنكاح أهل الإسلام، فقد قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح، من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي، لم يصبني من سفاح الجاهلية شيء" (١) وقَالَ ﷺ « مَا وَلَدَنِي مِنْ سِفَاحِ أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ شَيْءٌ، مَا وَلَدَنِي إلاَّ نِكَاحٌ كَنِكَاحِ الإِسْلاَمِ » (٢)

ولم يمض كثير وقت على هذا الزواج حتى خرج عبد الله يضرب في الأرض ابتغاء الرزق، فإن ذوي المكانة الرفيعة يبذلون الجهود المضنية رجاء الحفاظ على مكانتهم، فلم يعهد لبني عبد المطلب معيشة الترف التي كان يعيشها أثرياء مكة، وإنما سادوا بعزة أنفسهم وشرف نسبهم .

قال ابن سعد في الطبقات "خرج عبد الله بن عبد المطلب إلى الشام إلى غزة في عير من عيرات قريش يحملون تجارات، ففرغوا من تجاراتهم ثم انصرفوا، فمروا بالمدينة وعبد الله بن عبد المطلب يومئذ مريض، فقال أنا أتخلف عند أخوالي بني عدي بن النجار، فأقام عندهم مريضا شهرا ومضى أصحابه، فقدموا مكة فسألهم عبد المطلب عن عبد الله، فقالوا خلفناه عند أخواله بني عدي بن النجار وهو مريض ، فبعث إليه عبد المطلب أكبر ولده الحارث فوجده قد توفي ودفن في دار النابغة، وهو رجل من بني عدي بن النجار ....وأخبره أخواله بمرضه وبقيامهم عليه وما ولوا من أمره وأنهم قبروه، فرجع إلى أبيه فأخبره فوجد عليه عبد المطلب وإخوته وأخواته وجدا شديدا ورسول الله ﷺ يومئذ حمل ولعبد الله يوم توفي خمس وعشرون سنة " (٣)

نجّا الله عبد الله من الذبح؛ ليتزوج فيكون من صلبه سيد هذه الأمة الرسول الكريم ﷺ، وما هي إلا أشهر قليلة ويموت تاركا خلفه زوجة أيما وجنينا في أحشاء أمه، وأبا لم يُقدّر له أن يهنأ بولده وحفيده معا، وكأن رسالته في الحياة قد انتهت ببنائه بزوجته آمنة التي يسر الله لها أمر حملها حتى وضعته؛ ليكون لها عوضا عن أبيه الذي لم تهنأ به .

---

(١)صحيح وضعيف الجامع الصغير ٣٢٢٥وقال الألباني حسن وذكره في صحيح السيرة النبوية وقال روي من طرق مرسلا وموصلا وسند المرسل جيد

(٢)سنن البيهقي١٤٤٥٦ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد - (ج ٨ / ص ٣٩٥)رواه الطبراني عن المديني عن أبي الحويرث ولم أعرف المديني ولا شيخه وبقية رجاله وثقوا

(٣)طبقات ابن سعد ج ١ ص ٩٣

ولد رسول الله ﷺ في دار عُرفت بدار ابن يوسف بمكة من شعب بني هاشم، والراجح في تاريخ ميلاده هو يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول عام الفيل .

استقبل بنو عبد المطلب خبر الميلاد باستبشار وحب وجذل، فكأنهم رأوا فيه عوضا عن أبيه الذي وافته المنية في شبابه، فتحول حزن عبد المطلب على ولده إلى حب ورعاية لحفيده .

وأما آمنة فقرت عينها بوليدها، فربما يصل ما انقطع من أملها ورجائها، خاصة بعد ما رأت من شأن وليدها في حملها، فعن أبي أُمَامَةَ قَالَ " قُلتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا كَانَ أَوَّلُ بَدْءِ أَمْرِكَ ؟ قَالَ « دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَبُشْرَى عِيسَى وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ مِنْهَا قُصُورُ الشَّامِ » (١)

سُرَّ عبد المطلب بحفيده أشد سرور، وألهمه الله تسميته محمد، ولما سألوه لما رغبت عن أسماء آبائك، قال" أردت أن يحمده الله في السماء والخلق في الأرض" وكأنه اشتق من صفة الحمد اسما يحمد به الله على وصله ابنه بحفيده وختنه يوم سابعه، وجعل له مأدبة دعا إليها رجالات قريش على عادة العرب .

كانت آمنه أول من أرضعته، ثم أرضعته ثويبة مولاة عمه أبي لهب مع ابنها مسروح، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي، فهم إخوة من الرضاعة، ثم استقر به المطاف إلى حليمة السعدية التي أرضعت معه ابن عمه أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ـ والذي كان شديد العداوة للإسلام ثم أسلم عام الفتح .

كان عادة أهل مكة أن يكلوا أولادهم إلي الرُضعاء من البادية، فيشبّوا في كنف الطبيعة ويتقنوا لسانها، وكان لهذه المهنة قبائل مشهورة بهذا العمل، منهم قبيلة بني سعد التي كان يأتي نساؤها إلى مكة لهذا الغرض.

في ديار بني سعد

خرجت آمنة بوليدها برفقة جده عبد المطلب يلتمسا له مرضعة تتولى أمره، فكلما عُرض النبي ﷺ على إحداهن ما أن تعلم بيتمه حتى تعرض عنه وتتطلع إلى غيره، فهم يأملون العطاء من والده، وكانت حليمة من بين المرضعات اللاتي زهدن في أمر النبي ﷺ أول الأمر، أملا في الفوز بغيره غير أنها لم تنل مطلبها، ولم تقبل العودة من بين صويحباتها بلا وليد فأخذت النبي ﷺ

---

(١) مسند احمد ٢٢٩٢١ من حديث ابي أمامة الباهلي وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٤/٥٩ حديث ١٥٤٥

وتوجهت به نحو دارها في بني سعد، وما أن استقلت حليمة بالمولود حتى أنعم الله عليهم بالبركة والخير الوفير، فأصابت نسمة مباركة دارهم، وظلوا على حالتهم من السعة في الرزق ما دام النبي ﷺ في دارهم . ولندع حليمة تصف لنا بعضا من مشاهد إقامة رسول الله ﷺ في دارهم .

قالت حليمة بنت الحارث السعدية أم رسول الله ﷺ التي أرضعته :

خرجت في نسوة من بني سعد بن بكر نلتمس الرضعاء بمكة على أتان (حمار) لي قمراء(بيضاء) قد أذمت (انقطع سيرها) فزاحمت بالركب، وخرجنا في سنة شهباء لم تبق لنا شيئا، ومعي زوجي الحارث بن عبد العزى، ومعنا شارف لنا (الناقة المسنة) والله إن تبضُّ (تسيل قليلا قليلا) علينا بقطرة من لبن، ومعي صبي لي إن ننام ليلتنا مع بكائه ما في ثديي ما يعتبه، وما في شارفنا من لبن نغذوه إلا أنا نرجو.

فلما قدمنا مكة لم يبق منا امرأة إلا عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه، وإنما كنا نرجو كرامة رضاعه من والد المولود، وكان يتيما فكنا نقول: ما عسى أن تصنع أمه؟ حتى لم يبق من صواحبي امرأة إلا أخذت صبيا غيري، وكرهت أن أرجع ولم آخذ شيئا، وقد أخذ صواحبي فقلت لزوجي : والله لأرجعن إلى ذلك فلأخذنه، فأتيته فأخذته فرجعته إلى رحلي فقال زوجي : قد أخذتيه ؟ فقلت: نعم والله ذاك أني لم أجد غيره. فقال: قد أصبت فعسى الله أن يجعل فيه خيرا . فقالت: والله ما هو إلا أن جعلته في حجري فأقبل عليه ثديي بما شاء من اللبن فشرب حتى روي وشرب أخوه - تعني ابنها - حتى روي، وقام زوجي إلى شارفنا من الليل فإذا هي حافل (مليئة الضروع باللبن) فحلبت لنا وشرب حتى روي، وشربت حتى رويت فبتنا ليلتنا تلك بخير شباعا رواء وقد نام صبينا، قالت: يقول أبوه - يعني زوجها- : والله يا حليمة ما أراك إلا أصبت نعمة مباركة، قد نام صبينا وروي، ثم خرجنا فوالله لخرجت أتاني أمام الركب قد قطعته حتى ما يبلغونها حتى أنهم ليقولون: ويحك يا بنت الحارث كفي علينا أليست هذه بأتانك التي خرجت عليها؟ فأقول: بلى والله .... حتى قدمنا منازلنا من حاضر بني سعد بن بكر فقدمنا على أجدب أرض الله، فوالذي نفس حليمة بيده إن كانوا ليسرحون أغنامهم إذا أصبحوا ويسرح راعي غنمي، فتروح غنمي بطانا لبنا حفلا، وتروح أغنامهم جياعا هالكة ما بها من لبن. قالت: فشربنا ما شئنا من لبن وما في الحاضر أحد يحلب قطرة ولا يجدها، فيقولون لرعاتهم: ويلكم ألا تسرحون حيث يسرح راعي حليمة ؟ فيسرحون في الشعب الذي يسرح فيه راعينا وتروح أغنامهم جياعا ما بها من لبن وتروح غنمي حفلا لبنا .

قالت: وكان ﷺ يشب في اليوم شباب الصبي في شهر ويشب في الشهر شباب الصبي في سنة فبلغ ستا وهو غلام جفر(ممتلئ قوي) قالت: فقدمنا أمه فقلنا لها وقال لها أبوه ردوا علينا ابني فلنرجع به فإنا نخشى عليه وباء مكة. قالت: ونحن أضنُّ بشأنه لما رأينا من بركته، قالت : فلم نزل بها حتى قالت: ارجعا به. فرجعنا به فمكث عندنا شهرين (١)

عادت حليمة بالمولود إلى أمه، يحدوها الأمل في أن تجدد مدة إقامته بينهم، لما التمست في وجوده من بركة، فاستعطفت أمه في أن تتركه معها، فردته آمنه معها؛ ليمكث في ديار بني سعد ستة أعوام، التمس فيها خيره وبركته كل من اتصلوا به، وتنعم النبي ﷺ بخير مُقام في بادية بني سعد أصح المواطن بالحجاز، فتنسم فيها الهواء النقي، وطعُم فيها الطعام الصحي المرتكز على القناعة بالموجود من الطعام من منتجات الألبان، وربما لحم الجمال والأغنام، واعتاد تحمل قسوة الحرمان، والكد في الحياة، وكثرة التأمل في المخلوقات، والتفكر في أمر السموات، فقد هيأته ألفته للحياة البدوية على تحمل المشاق، وصفاء الذهن، ونقاء القلب، وطول التأمل .

ولم يكن لرسول الله ﷺ أو لمن تولوا تربيته يد في إعداده بكل هذه الصفات، وإكسابه كل هذه المهارات التي يحملها، بل إن العناية الإلهية كانت تتدخل بطول مراحل العمر؛ لتسمو به إلى أعلى الدرجات، فتظل حياته دوما في متابعة الترقي لا في مقاومة التدني، وكانت حادثة شق الصدر من أعظم ما منَّ الله به على رسوله قبل الرسالة، فإن الأشخاص العاديين قد يُقبل منهم الانسياق خلف الوساوس، وربما الميل إلى المنكرات، أما المرسلين فقد عصمهم الله من الدناءات، وكلفهم بتطهير العامة منها .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً فَقَالَ : هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ ثُمَّ لأَمَهُ ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ - يَعْنِي ظِئْرَهُ - فَقَالُوا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ. قَالَ أَنَسٌ وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخْيَطِ فِي صَدْرِهِ (٢) وفي رواية حليمة الأولى قالت: فبينا هو يلعب وأخوه يوما خلف البيوت يرعيان بَهْمًا لنا ، إذ جاءنا أخوه يشتد فقال لي ولأبيه: أدركا أخي القرشي قد

---

(١)قال الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٨ / ص ٤٠٣) حديث ١٣٨٤٠ رواه أبو يعلى والطبراني بنحوه ورجالهما ثقات

(٢)مسلم ٤٣١

جاءه رجلان فأضجعاه فشقا بطنه، فخرجنا نحوه نشتد فانتهينا إليه وهو قائم منتقع لونه، فاعتنقه أبوه واعتنقته ثم قلنا: مالك أي بني؟

قال " أتاني رجلان عليهما ثياب بياض فأضجعاني ثم شقًا بطني فوالله ما أدري ما صنعا " قالت: فاحتملناه فرجعنا به قالت: يقول أبوه: والله يا حليمة ما أرى هذا الغلام إلا قد أصيب فانطلقي فلنرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوف عليه. قالت: فرجعنا به إليها فقالت: ما ردكما وقد كنتما حريصين عليه ؟ فقلت: لا والله إنا كفلناه وأدينا الحق الذي يجب علينا فيه ثم تخوفت الأحداث عليه فقلت يكون في أهله، فقالت أمه: والله ما ذاك بكما فأخبراني خبركما وخبره. قالت: فوالله ما زالت بنا حتى أخبرناها خبره قالت: فتخوفتما عليه ؟ كلا والله إن لابني هذا لشأناً، الا أخبركما عنه؟ إني حملت به فلم أر حملا قط كان اخف ولا أعظم بركة منه، ثم رأيت نورا كأنه شهاب خرج من حين وضعته أضاءت لي أعناق الإبل ببصرى، ثم وضعته فما وقع كما تقع الصبيان وقع واضعا يده بالأرض رافعا رأسه إلى السماء، دعاه والحقا بشأنكما.

ترك النبي ﷺ بادية بني سعد بعد أن تعلق قلبه بها، وعاد إلى مكة حيث أمه الحنون التي حبست نفسها على تربيته وحرمت على نفسها الزواج بعد أبيه، وترعرع النبي ﷺ تحت رعاية آمنة، وفي كنف جده عبد المطلب الذي كان يلتمس العزاء في رؤيته عن ابنه الذي قضى نحبه في ريعان شبابه .

ولم يمكث النبي ﷺ كثيرا في مكة حتى اصطحبته أمه مع حاضنته أم أيمن بركة الحبشية مولاة أبيه، واتجهوا نحو يثرب، لزيارة أخواله من عدي بن النجار وزيارة قبر أبيه عبد الله، فأقامت عندهم شهرًا، ثم رجعت به إلى مكة، وفي أثناء عودتها مرضت في الطريق وتوفيت بالأبواء .

في دار أبي طالب

عاد النبي ﷺ مع حاضنته أم أيمن إلى مكة، وقد صار يتيم الأب والأم في سن هو فيه أمس الحاجة لحنان الأم ورعايتها، لكنها إرادة الله التي سمت فوق إرادة البشر .

تولت أم أيمن رعاية النبي ﷺ جاهدة في أن تعوضه شيئا من حنان الأم الذي افتقده، وزادت عناية جده به أملا في ألا يشعر بيتمه، فكان يؤثره على أولاده وأحفاده جميعا، ويُقربه من مجلسه ويشاركه طعامه ولا يدعه لوحدته، إلا أن الله عز وجل شاء ألا يكون لأحد دور يُذكر في تربية الرسول ﷺ وإعداده

فمات عبد المطلب وعمر النبي ﷺ يومئذ ثمانية أعوام، وعلى طول مراحل عمر الرسول ﷺ ما تعلق قلبه بشيء إلا افتقده، فقد أَلِفَ حياة البادية في ديار بني سعد ثم تركها، وأَلِفَ رعاية أمه وحضنها، ثم افتقدها، وأَلِفَ حماية جده ورعايته ثم افتقده، وأَلِفَ مكة بجبالها ورمالها ثم أُخرج منها، وكان لهذا الأمر حكمة جليلة تكمن في دوام تزكية النفس وتهذيبها، وتعويدها الرضا بعد القضاء، فدوام النعم من المحال، ودوام النقم من المحال.

تولى أبو طالب أمر النبي ﷺ ورعايته، فهو شقيق أبيه، وقد ورث سدانة الكعبة عن أبيه، ورغم قلة ثرائه مقارنة بأثرياء مكة آنذاك، إلا أنه كان سيدا مجابا، وآمرا مُطاعا، عاش النبي ﷺ في كنفه عمرا اختصه فيه أبو طالب بكل حب وتقدير، فكان يخاصم من أجله، ويصادق من أجله، ولا يأبى في أن يعادي سادات القوم من أجله، التمس بركته ﷺ وهو في بيته، فكان إذا وُضع الطعام تسابق عليه أبناء عمه وتناهبوه ويكف يده ﷺ فلا ينهب معهم، وإذا شاركهم الطعام شبعوا وإذا لم يشاركهم قاموا جياعا، كان يصبح في أكثر أيامه يأتي زمزم فيشرب منها شربة، فربما عُرض عليه الغذاء أبى لشبعه، فازدادت مكانته في قلب عمه الذي أبى أن يفارقه في مقام أو ترحال، فقد كان أبو طالب خلفا لآبائه في متابعة الرحيل إلى الشام بقصد التجارة، والسعي على الرزق ومتطلبات العيش.

أعدّ أبو طالب أمر القافلة ورسول الله ﷺ في الثانية عشر من عمره، وقد أدرك ضيق حال عمه، فأراد أن يشاركه في تجارته، وكأنه استصعب الحياة في مكة بدون أبي طالب، فألح على عمه أن يأخذه معه في سفره، ومع مكانته في قلب عمه لم يحتمل العم استعطاف ابن أخيه وتوسله في السفر معه، فحبه لعمه كان بعيدا كل البعد عن التكلف، فما كان من أبي طالب إلا أن قال " والله لأخرجن به معي، ولا أفارقه ولا يفارقني أبدا "

أعدّ رسول الله ﷺ عدته ورافق عمه على ناقته، وما أن خرج بعيدا عن مكة حتى غمرته نشوة حياة البادية التي ألفها بجوها الصافي، وطعامها البسيط، وهدوئها الدافع إلى التأمل في الملكوت من حوله.

اتجهت القافلة صوب الشام لا يرى الراكب فيها سوى صخور ورمال وجبال، ظلوا ما يقرب من شهر لا يرون لأثر الحياة شيئا، إلا بقايا من إرث قديم و قبائل متناثرة بين أودية الصحراء القاحلة، ورحلة كهذه بالنسبة لشاب صغير في سن محمد لن تزده إلا صبرا، وقدرة على تحمل المشاق، كما أن التجارة من أكثر المهن تعليما لفن المعاملات، والقدرة على فهم البشر وطبائعهم

وكان هذه الرحلة درسا أعده الله لرسوله ﷺ؛ ليتعلم فيها من الحياة كيف يُعامل البشر كُل بطريقته، فإن الرسالة التي يُعدّ من أجلها أسمى من أن تخاطب عقول جمع في أرض الجزيرة فحسب، وإنما هي رسالة للبشرية كلها، لابد لصاحبها من قدرة هائلة على كيفية التعامل مع كل الناس، في كل مراحل العمر، وبمختلف أفكارهم ومستويات معيشتهم، وكان لهذا الإعداد الرباني أكبر الأثر في حياة النبي ﷺ بعد الرسالة، وطُرق معاملته للناس كلٌ بمستوى فهمه، وقدرة عقله، وطبيعة معيشته .

بُحيرا الراهب

نزلت القافلة ببُصرى من أرض الشام، وكان بهذه البلدة راهب يُدعى بحيرا التقى بالقافلة، ورأى فيها الرسول ﷺ فتنبأ بنبوته من معالم وجهه، وخاتم النبوة الذي بين كتفيه .

روى الحاكم عن أبي موسى قال: خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه رسول الله ﷺ في أشياخ من قريش فلما أشرفوا على الراهب هبطوا، فحولوا رحالهم، فخرج إليهم الراهب، وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت، قال وهم يحلون رحالهم فجعل يتخللهم، حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ وقال: هذا سيد العالمين هذا رسول رب العالمين هذا يبعثه الله رحمة العالمين، فقال له أشياخ من قريش وما علمك بذلك ؟

قال إنكم حين شرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجدا، ولا تسجد إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة، ثم رجع فصنع لهم طعاما ثم أتاهم، وكان رسول الله ﷺ في رعية الإبل، قال أرسلوا إليه فأقبل وعليه غمامة تظله، قال انظروا إليه غمامة تظله فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه، قال انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه، فبينما هو قائم عليه وهو يناشدهم ألا تذهبوا به إلى الروم فإن الروم إن رأوه عرفوه بالصفة فقتلوه، فالتفت فإذا هو بسبعة نفر قد أقبلوا من الروم فاستقبلهم فقال ما جاء بكم ؟

قالوا جئنا فإن هذا النبي خارج في هذا الشهر، فلم يبق طريق إلا بعث إليه ناس وإنا بعثنا إلى طريقه هذا، فقال لهم الراهب هل خلفتم خلفكم أحدا هو خير منكم؟ قالوا لا قالوا إنما أخبرنا خبره فبعثنا إلى طريقك هذا، قال فرأيتم أمرا أراده الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده ؟ قالوا لا قال فبايعوه، فبايعوه وأقاموا معه، قال فأتاهم الراهب فقال أنشدكم الله أيكم وليه؟

قال أبو طالب فلم يزل يناشده حتى رده وبعث معه أبو بكر بلالا وزوده الراهب من الكعك والزيت (١)

هذا هو سياق قصة بحيرا الراهب، ولنا مع هذه القصة وقفات :

١ـ أن إثبات هذه القصة موضع خلاف بين أهل العلم بين مؤيد لها مُثبت لصحتها، وبين مُعارض لها منكر لما في متنها من غرابة، وما تطمئن إليه النفس ما اختاره الألباني رحمه الله، فأكد على صحتها وأنها حقيقة لا خُرافة، وقد وافق تصحيحه لها تصحيح كثير من أهل العلم لها ذكر منهم " الترمذي والحاكم وابن سيد الناس والجزري وابن كثير والعسقلاني والسيوطي " (٢)

٢ـ الزيادة التي في آخره " وبعث معه أبو بكر بلالا وزوده الراهب من الكعك والزيت "فإن سن النبي ﷺ إذ ذاك اثنتى عشرة سنة وأبو بكر أصغر منه بسنتين وبلال لعله لم يكن قد وُلِد .

قال الحافظ ابن حجر في الإصابة: الحديث رجاله ثقات وليس فيه سوى هذه اللفظة، فيحتمل أنها مدرجة فيه منقطعة من حديث آخر وهماً من أحد رواته .

وقال الجزري: إسناده صحيح ورجاله رجال الصحيحين أو أحدهما، وذكر أبي بكر وبلال فيه غير محفوظ وعده أئمتنا وهماً (٣)، وقد بيَّن الشيخ الألباني ـ رحمه الله ـ أن الحديث لا يُرد كله لجملة فيه فقال" أنه لا يلزم من خطأ الثقة في جملة من الحديث أن يكون الحديث كله منكرا أو موضوعا، لأن الوضع إنما يثبت بكون الراوي وضاعا كذابا، وهذا منفي قطعا، وإنما يكون المتن نفسه موضوعا بدلالة أمور علمية لا علاقة لها بالإسناد، وهذا لا وجود له أيضا هنا مطلقا، اللهم إلا جملة أبي بكر وبلال فهي وحدها المنكرة " (٤)

٣ـ فالحديث صحيح والقصة حق لا باطل وحقيقة لا خرافة، إلا أنه يجدر بنا القول أن أصل القصة صحيح من حيث الإسناد ومن حيث الرواية، إلا أن كُتاب السير قد تناولوها بشيء من التفصيل الذي لم يثبُت وإنما رووه بلاغا بلا إسناد

---

(١)مستدرك الحاكم ٢٢٩ ،وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الألباني ((رواه الترمذي والحاكم والبيهقي وابن عساكر وغير واحد من الحفاظ وقال الترمذي حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، قلت : فيه من الغرائب أنه من مرسلات الصحابة فإن أبا موسى الأشعري إنما قدم في سنة خيبر سنة سبع من الهجرة فهو مرسل فإن هذه القصة كانت ولرسول الله ﷺ من العمر فيما ذكره بعضهم ثنتا عشرة سنة ولعل أبا موسى تلقاه من النبي ﷺ فيكون أبلغ أو من بعض كبار الصحابة رضي الله عنهم أو كان هذا مشهورا مذكورا أخذه من طريق الاستفاضة))

(٢) دفاع عن الحديث النبوي ص٦٢ وما بعدها

(٣) تحفة الأحوذي - (ج ١٠ / ص ٦٦) ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح - (ج ١٧ / ص ١٩١)

(٤)دفاع عن الحديث النبوي ص٦٩

ثم فتحوا المجال لمقابلات أكثر مع النبي ﷺ لأهل الكتاب وتعرفهم عليه، كرؤية بعض يهود بني قريظة له أثناء زيارته للمدينة ومعرفتهم بعض أمارات النبوة فيه، وكبشارة نسطور الراهب بنبوءة محمد ﷺ لميسرة في رحلته بتجارة خديجة نحو الشام، وغيرها كثير من القصص التي رويت بلاغا بلا إسنادٍ، وكان لهذا القصص أثر كبير في كتابات المستشرقين عن الإسلام، فبعدما تُرجمت سيرة ابن اسحق إلى الإنجليزية، وجد المستشرقون في قصة بحيرا الراهب مدخلا للطعن في الإسلام، وادّعوا أن رسول الله ﷺ قد تعلم من الراهب بحيرا ولقنه الأسرار وتعاليم التوحيد . (١)

وهذا القول من السذاجة بمبلغ، فكل الروايات ـ الصحيحة منها والضعيفة ـ لم تذكر شيئا عن تعليم بحيرا للنبي ﷺ، ثم أي تعليم هذا الذي علمه في مقابلة لا تتجاوز مدة تناول الطعام؟ وأي تعليم أعطاه بالضبط ؟ أأعطاه القرآن المُعجز إلى قيام الساعة؟ أم أعطاه الرسالة التي ظهر بها على العرب والعجم؟ أم أعطاه المنهج الذي رسم به حياة المسلمين منذ بزوغ فجر الرسالة إلى يوم الدين؟ أم أعطاه الحجة والقول الفصل في بطلان مزاعم اليهود والنصارى وبيان كذبهم وافتراءهم على الله عز وجل؟ !

٤ـ نعم إن القصة لها أصل، لكنها لا تتجاوز كونها فراسة من هذا الراهب، لما توسم في وجه النبي ﷺ من أمارات النبوة، وهذه الأمارات ثابتة في التوارة والإنجيل، وأقرّ بها كثير من الأحبار والقساوسة الذين أسلموا، بل إن غير واحد من يهود المدينة كان يختبر النبي ﷺ في بعض صفات نبي آخر الزمان الموجودة عندهم في التوراة، كأن يسبق حلمه غضبه، وغيرها من الصفات التي أقر من أسلم منهم بوجودها في كتبهم وتحققها في رسول الله ﷺ، فحديث بحيرا لا يعدو عن كونه فراسة حبر يهودي تحقق من بعض علامات النبوة في النبي ﷺ فأخبر بها، فجاء إخباره بها في سياق يجزم بكونها فراسة لا بشارة محققة، ولا ادعاء لمعرفة الغيب، فقال لأبي طالب " إن الروم إذا رأوه عرفوه بالصفة فقتلوه " أيجزم له أنه نبي آخر الزمان ثم يعارض هذا بإمكانية قتله وهو صغير على يد الرومان !إن الراهب لم ينسب لنفسه معرفة الغيب، وإنما قال ما جاش في صدره نحو النبي ﷺ ولم يكن لهذا الحديث أثر ذي بال في حياة النبي ﷺ، فلم يتشوق النبي ﷺ للرسالة، ولم ينشغل بكيفيتها، أو وقتها، ولم يتكلف في معاملاته وأخلاقه ليكون كفئا لهذا الحدث العظيم، وعزلته عن قومه على الرغم من قدرته

---

(١)انظر بحث أ.د/ تقي الدين بن بدر الدين ندوي عن كتاب "سيرة النبي ﷺ للعلامة شبلي النعماني وتكملته للعلامة السيد سليمان الندوي "عرض وتحليل".(ج ١ / ص ٥)

على بلوغ مكانة اجتماعية عالية بينهم لما يتمتع به من صفات وأخلاق، ورد فعله تجاه بدء الوحي، يوحي بأنه ﷺ لم يفكر يوما بأنه سيبلغ هذا الشأن العظيم الذي بُشر به .

حياة الكدح

عادت القافلة إلى مكة ثانية؛ لتبدأ مرحلة جديدة في رحلة إعداد النبي ﷺ لرسالة الإسلام، فكان من ثمار هذه الرحلة أن رسول الله ﷺ قد ألف معيشة الكدح والسعي على الرزق، كما أثقلت خبراته في طريقة التعامل مع البشر، غير أن الأمر الذي يُعدُّ من أجله بحاجة إلى مزيد من الصبر، وإلى مزيد من طول التأمل الذي يُعلي بفكره عن خرافات قومه ويوقظ قلبه، ويرتقي بنفسه وسط ظلمات الجاهلية التي يعيش فيها .

اشتغل رسول الله ﷺ برعي الغنم كعمل يتكسب منه، ولم يُدرك بعد الغاية التي يُعدُّ من أجلها، والتي جابت به في كل الميادين التي تُتِم إعداده لأمر الرسالة، فما من نبي بُعث إلا ورعى الغنم، وقد أجاب العلماء عن الحكمة من رعي الأنبياء للأغنام بأن الرعي من أكثر المهن تعليما للصبر والعزلة عن الناس التي تساعد على طول التأمل، والمران برعيها على ما يُكلف به من مهام تجاه أمته، فالغنم رغم ضعفها شديدة التفرق، مختلفة الطباع، بحاجة إلى الحلم والشفقة من راعيها الذي يجمعها بعد تفرقها في المرعى، ويُنقلها بين المراعي، ويرد عنها عدوها، ومع كثرة تفرقها فهي أسرع الأنعام انقيادا، فكان الرعي إلهاما من الله عز وجل يألف به رسول الله ﷺ الصبر على الأمة باختلاف طباعها، وتفاوت عقولها، والسعي لوحدتها، والرفق بضعيفها، ورد العدوان عنها، وتحمل المشاق مهما بلغت من أجل إدراك غايته، فكان الرعي خطوة في طريق إعداده، ييسر له فيما بعد القيام بما كُلف به .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أن النَّبِيَّ ﷺ قَالَ « مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلاَّ رَعَى الْغَنَمَ » فَقَالَ أَصْحَابُهُ وَأَنْتَ ؟ فَقَالَ « نَعَمْ كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لأَهْلِ مَكَّةَ » (١)

شبَّ رسول الله ﷺ بين قومه تكلؤه رعاية الله عز وجل، وتحوطه عناية أبي طالب الذي لا يألوا جهدا في مساعدة ابن أخيه في أمور معيشته، وتوفير الحماية له، فنشأ هادئ الطباع، بعيدا عن مظاهر الحدة والاندفاع التي قد يتعرض لها من هم في سن المراهقة، فكان أشد الناس حياءً، وأحسنهم خُلقا، وأرفعهم نسبا، وأفضلهم مجلسا، وأصدقهم حديثا وأحسنهم جوارًا وعِشرة

---

(١) البخاري ٢٢٦٢

وأبعدهم من الفحش والدناءات وكل خُلق ذميم، وأحرصهم على حقوق الصداقة والشراكة وأعفهم نفسا، وأوفاهم عهدا، وأحفظهم للأمانات، فعُرف بين قومه بصدقه وأمانته، وهذه أخلاق من اصطفاهم الله من بين البشر، فهم أكمل الناس خلقا وأحسنهم خُلقا، وشخص بهذه الصفات لا يخفى ذكره، ولا تجد من يجهله، فهو بين قومه أفضل من سادتهم وإن تواضع بينهم.

مرت السنون على رسول الله ﷺ تثقله الأحداث التي يمر بها خبرة، وتزيده صبرا، وتتكشف أمامه بدع قومه وضلالهم الذي لم يسلم منه شيء، حتى انتهاك حرمة الأشهر الحرم، فبينما كان عمر النبي ﷺ لم يتجاوز العشرين عاما، حتى نشبت حرب الفجار بين قريش وكنانة من جهة، وبين قيس عيلان من جهة، وكانت هذه الحرب بمثابة استباحة جائرة لحرمة الشهر الحرام دافعت فيها قريش عن قداسة الأشهر الحُرم، ومكانة أرض الحرم، لما كان فيها من مكانة لهم وأمنا لمصالحهم، وكان لحرب بن أمية القيادة فيها على قريش وكنانة، غير أن القوم تداعوا للصلح على أن يحصوا عدد القتلى ويؤدوا الدية لمن كانت قتلاهم أكثر.

وقد ذكر ابن سعد في طبقاته أن الرسول ﷺ قد شارك مع أعمامه في هذه الحرب، إلا أنه لم يرد حديث صحيح في مشاركة النبي ﷺ في هذه الحرب.

حلف الفضول

وسط هذا الظلام المتفشي في جاهلية العرب، نهض رجال أبوا أن تحركهم نزعات العصبية، وبقي في نفوسهم شيء من المروءة، فتحالفوا على تحقيق العدالة، ومحاربة الظلم بكل صوره، ورد الفضول إلى أهلها، وألا يُعزّ ظالم على مظلوم، وكان سبب هذا الحلف أن رجلا من زُبَيْد قدم مكة ببضاعة له، فاشتراها منه العاصي بن وائل السهمي، وكان ذا وجاهة في قومه ونسب وعزة، فحبس عن الرجل حقه، فاستعدى عليه الرجل بني عبد الدار ومخزوم وجُمح وبني عدي بن كعب، فأبوا أن ينصفوه ونهروه نصرة للعاصي بن وائل، فما كان من الرجل إلا أن صعد على جبل أبي قُبيس، وقريش في أنديتهم حول الكعبة وأخذ يردد أشعارا يشكو فيها مظلمته، ويستنصرهم على العاصي بن وائل فأنشد قائلا:

يَا آلَ فِهْرٍ لِمَظْلُومٍ بِضَاعَتُـــــهُ ... بِبَطْنِ مَكَّةَ نَائِي الدَّارِ وَالنَّفَـــرِ
وَمُحْرِمٍ أَشْعَثٍ لَمْ يَقْضِ عُمْرَتَـهُ ... يَا لَلرِّجَالِ وَبَيْنَ الحِجْرِ وَالحَجَرِ
إِنَّ الحَرَامَ لِمَنْ تَمَّتْ كَرَامَتُـــهُ ... وَلَا حَرَامَ لِثَوْبِ الفَاجِرِ الغُـــدَرِ

فنهض لنصرته الزبير بن عبد المطلب، فتجمعت قبائل من قريش هم بنو هاشم، وبنو المطلب، وبنو أسد ، وزُهرة بن كلاب، وتيم بن مرة، في دار عبد الله بن جدعان التيمي لشرفه وسنه، وتعاقدوا، وتعاهدوا، ألا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها أو من غير أهلها إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى تُرد إليه مظلمته، وكان العاصي بن وائل أول من واجهه أهل الحلف، فقاموا إليه جميعا، وانتزعوا حق الزبيدي منه، وفي هذا الحلف أنشد الزبير بن عبد المطلب قائلا :

إنّ الفُضُولَ تَحَالفُوا، وَتَعَاقَدُوا ... ألا يُقِيمَ بِبَطْنِ مَكة ظَالِـمُ

أمْرٌ عَلَيْهِ تَعَاهَدُوا، وَتَوَاثَقُـوا ... فَالجَارُ وَالمُعْتَرُ فِيهِمْ سَالِمُ

وكان النبي ﷺ قد أدرك هذا التحالف وهُم في دار عبد الله بن جدعان، وقال ﷺ عنه « لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، وَلَوْ أُدْعَى بِهِ فِي الإِسْلَامِ لأَجَبْتُ » (١)

ولنا هنا وقفة تأمل في موقف الإسلام من الأعراف والتقاليد السائدة في البيئة العربية، والتي نقيس من خلالها على منهج الإسلام في التعامل مع عادات الشعوب وتقاليدها، فهذا الحلف يُعدّ أعظم حلف عُقد في الجاهلية كلها، فرغم أنه نشأ في بيئة خالية من العقائد، إلا أنها لم تكن خالية من القيم والفضائل التي تنادي بها الفطرة الإنسانية، فقد تحرر من حمية الجاهلية وتعصباتها، وأقر بمبادئ جاء الإسلام ليؤكد على ضرورة وجودها في المجتمع، بل ويدعو إلى ترسيخ أسسها، فما من عُرفٍ حسن ولا خُلق كريم إلا وقد زاده الإسلام متانة وترسيخا، بل وجعله قُربة إلى الله تعالى، وعبادة يُثاب فاعلها، فحينما جاء الإسلام لم يطالب من يؤمن به بالإنخلاع من كل عاداته وتقاليده، ولم يُطالب غير العرب ـ حينما خاطبهم ـ بالتخلي عن انتمائهم لأوطانهم، وترك عاداتهم، والتحرر من أصولهم، وتغيير أزيائهم ولغاتهم، فاختلاف الألوان والأجناس والثقافات والعادات والتقاليد والأفكار، من السنن التي لا تتبدل، ولا يُجنى من معارضتها سوى الإخفاق والفشل، بل هي من عوامل التعارف بين البشر، وكل ما فعله الإسلام تجاه موروثات الأمم والشعوب أنه وضع لها الميزان المستقيم التي تُقاس به الأمور، فما وافق الحق قُبل، وما خاصمه رُدّ، لأن الوحدة التي يمثلها الإسلام تتعلق ببعض القضايا لا كلها، كأصل الخلق والنشأة، وحقوق الإنسان وكرامته، ووحدانية الخالق، وحرية الاختيار، وعدم الإكراه، ووحدة القيم والمثل والأخلاق التي تشمل الإنسانية كلها.

---

(١)سنن البيهقي ١٣٤٦١ وصححه الألباني في فقه السيرة

فالإسلام لا يدعو إلى الصدام مع موروثات الشعوب، ومصادرة كل تجاربهم، بل إن كل دور الإسلام تجاه موروثات الشعوب أنه وضع لها قواعد كلية تنظمها، وتجعلها تسير تحت مظلة التشريع لا أمامه، وما نهى عن شيء إلا وبيَّنَ مفسدته التي لا تتغير باختلاف الأزمنة والأماكن، بل إن النهي في جانب العادات والأعراف يكاد يكون في نطاق ضيق جدا، ربما لو عده عاد لأحصاه، فكم من الشعوب الغير عربية اعتنق أهلها الإسلام، ومع ذلك حافظوا على عاداتهم وتقاليدهم التي لا تتعارض مع التشريع، ولم يطالبهم أحد بتحري العادات والتقاليد العربية، لأن هذه العادات لا تمثل الإسلام، وإنما تمثل العرب كأمة، شأنهم فيها شأن غيرهم من تقاليدهم وموروثاتهم، وفي الحديث الشريف « كُلُوا وَتَصَدَّقُوا وَالْبَسُوا فِى غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلاَ مَخِيلَةٍ »(١)

فهذا هو النهي " فِى غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلاَ مَخِيلَةٍ (الكبر) أي يمكن أن يكون المسلم مسلما صالحا مع حفاظه على تقاليد بلاده متى تجنّب ما نُهي عنه.

إن ما نود أن نوضحه في هذه الوقفة أن فقه التعامل مع عادات الناس وطبائع الشعوب وسيلة دعوية ناجحة، قد تؤتي ثمارها عاجلة غير آجلة، شريطة أن يُحسن الدعاة استغلالها وتوظيفها، فالداعية في أوربا ـ كمثال ـ يجب أن يوضح للناس أن الإسلام لا يلزمهم بتحري العادات والتقاليد التي تخص العرب كأمة لا الإسلام كدين، فهناك فرق بين عادات الشعوب المسلمة والعقيدة التي يؤمنون بها، أما الداعية الذي يوقف دعوته عند نقد الواقع والحكم على موروثات الشعوب بعدم صلاحها، لن يجد من يستمع إليه، لأنه يُعارض سنة كونية، وليس كل ما في عادات الشعوب شرا محضا، لكنه متى انتقد خُلقا ذميما قد اعتاد المجتمع على فعله، يجب أن يقدّمُ لهم البديل، ولا يقتصر دوره على النقد والتوبيخ، فوظيفة الأنبياء ـ والدعاة من بعدهم ـ لا تقف عند إنكار المنكر، وإنما تتجاوزه إلى إرشاد الناس إلى الصواب، فهذا لوط عليه السلام الذي أنكر على قومه إتيان الرجال دون النساء، فهذا نقد للواقع، فهل اقتصر على النقد؟ كلا، وإنما قدّم البديل الصالح، وهو الزواج [قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ] (٢)

ولنا في حلف الفضول خير دليل، لقد اتفقوا على نصرة المظلوم ورد الحقوق، فماذا كان موقف النبي ﷺ من هذا الحلف؟ قال ﷺ « لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، وَلَو أُدْعَى بِهِ فِي الإِسْلامِ لأَجَبْتُ» لماذا؟ لأن هذا الحلف كتنظيم داخل المجتمع الجاهلي جاء بأخلاق نادى بها

---

(١) سنن النسائي ٢٥٧١ وسنن ابن ماجة ٣٧٣٦ وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة ٢٩٠٤

(٢) {هود:٧٨}

الإسلام من أول يوم لدعوته من بُغض للظالمين ونصرة للمظلوم، ورد للحقوق، قال ﷺ « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ، مَنْ كَانَ فِى حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِى حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »(١)

وقال ﷺ « اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ »(٢)

وقالَ ﷺ « الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »(٣)

وعشرات الأحاديث التي تحث على إنصاف المظلوم والدفاع عن الحقوق، وقس على ذلك موقف الإسلام من كل التقاليد العربية التي لا تتعارض ودعوته، والتي كانت بمثابة ثوابت لا يختلف على فضلها اثنان في المجتمع الجاهلي، جاء الإسلام ليجعلها عبادات يُثاب من يفعلها، فحري بنا أن نميز بين ما هو عادة وما هو عبادة، وبين ما يقبل من تقاليد الشعوب وما لا يقبل.

في تجارة خديجة

كانت التجارة بالنسبة للمكيين عصب الحياة، فمكة واقعة في أشد أقاليم الجزيرة جدبا، وكان لأهل مكة رحلتين في كل عام، كان قد سنهما فيهم هاشم بن عبد مناف، فيتجهون في الشتاء نحو اليمن، يبتاعون من منتجاتها، والمنتجات التي تصل إليها من الهند والحبشة والصين من توابل وعطور وحرير وغيره، ويتجهون نحو الشام في الصيف فيبتاعون من منتجاتها الزراعية، كالقمح والشعير والأرز والتين، وفي عودتهم يحملون معهم تمر المدينة والطائف ويعودون إلى مكة، وبهاتين الرحلتين يتوفر لأهالي مكة معظم المنتجات التي لا يتوفر وجودها بأرض الجزيرة.

وهذه التجارة كانت سببا في ثراء أهل مكة دونا عن غيرهم من أهل الجزيرة، فبلغ الثراء بأهل مكة مع مكانتهم الدينية أن كثيرا من العرب كان يرى سادة قريش فوق آل جفنة الغساسنة، وربما فوق كسرى وقيصر عند البعض، وبالغ شعراؤهم في مدح أثرياء مكة، رغبة في عطائهم، منهم أمية بن الصلت الذي لطالما امتدح عبد الله بن جدعان التيمي .

---

(١) مسلم ٦٧٤٣ (٢) مسلم ٦٧٤١ (٣) البخاري ٢٤٤٧

ووسط هؤلاء الأثرياء امرأة ورثت الثراء عن أبيها وزوجيها الراحلين، واللذان كانا يعملان بالتجارة، إنها خديجة بنت خويلد أكثر النساء مالا، وأوسطهن نسبا، وأعظمهن شرفا، كانت تُدعى بسيدة نساء قريش، وكانت تسمى الطاهرة في الجاهلية والإسلام، لما مات زوجها طمح سادات مكة بالزواج منها، وهي غير مكترثة برجال همهن المال، فهي ليست بالفتاة التي يمكن التلاعب بعواطفها، ولا بالمرأة التي لا تفهم طبائع الرجال، فترتبط بطامع أو سفيه، وإنما تربت في كنف أبيها الذي كان من أوسع أهل مكة تجارة، ثم تزوجت من رجلين من أمهر تجار مكة، الأول عتيق بن عابد، والثاني النبّاش بن زرارة التميمي، ففهمت أسرار التجارة وتعرفت على بعض نوايا الرجال، غير أنها لا يمكن لها مرافقة تجارتها في أسفارها، فكانت تستأجر الرجال في مالها، وتعطيهم جزءا من الربح، وما من شك أن العمل في تجارتها فيه من الخير الكثير، فهي صاحبة تجارة واسعة.

بلغ عمر محمد ﷺ خمسة وعشرين عاما، كان فيها نموذجا فريدا بين قومه، حتى عُرف في قومه جميعا بأمانته وكرم أخلاقه الذي لا يُماثل، ورجل بهذه الأخلاق وسط هذا المجتمع حقيق لأن يكون مطلبا لامرأة تبحث عمن تكل إليه أمر تجارتها وتثق في أمانته، فطبائع البشر في كل زمان تكاد تكون متقاربة، فمال خديجة وإن كثر فهي ليست رقيبة عليه، وربما طمع فيه من تستأجرهم لتجارتها، ولطالما راودتها الأماني في أن تجد الرجل الأمين الذي تستأمنه على تجارتها، فلما قص الله علينا قصة موسى عليه السلام بعد توجهه نحو مدين ورغبة بنات شيخ مدين في أن يستأجره أباهم عنده، قال تعالى على لسان إحداهن[قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ] (١) فالقوة عونٌ على أداء الأعمال، والأمانة صون لأموال الغير وأعراضهم، وهذه الصفات قلّ من يتحلى بها، خاصة في مجتمع فقد كل القيم السماوية التي تربي المرء على هذا الفيض من السمو الأخلاقي، لذا كان من حكمة الله أن تسمو صفتي الصدق والأمانة على أخلاق النبي ﷺ جميعها، حتى عُرف بين قومه بالصادق الأمين، وهاتان الصفتان لا يفلح فيهما رياء قط، فصدق الحديث لو كان رياء لن يسلم صاحبه من كذب، وحفظ الأمانة لو كان رياءً لن يسلم من خيانة.

عرض أبو طالب على خديجة أن تكل أمر تجارتها لمحمد ﷺ فلم تمانع، بل رحبت بهذا العرض لما بلغها عن محمد ﷺ من صدق الحديث وحفظ الأمانة، إلا أنها بحاجة إلى اختبار قدرته على إدارة تجارتها، فوكلت إليه بعض تجارتها

---

(١) {القصص:٢٦}

مع غلام لها يسمى ميسرة، فاتجها إلى سوق حُباشة ـ أحد أسواق العرب في الجاهلية ـ فابتاعا ثيابا وسلاحا وغيره مما فيه من التجارة ورجعا إلى مكة فربحا ربحا حسنا .

لم يعد أمر رسول الله ﷺ عند خديجة مجرد كلمات كانت تسمعها عن أمانته وصدقه، بل إنها التمست هذا جليا في التعامل معه، وفيما قصه عليها غلامها ميسرة من شأنه في البيع والشراء ومن كرم أخلاقه وعفته، فلم تجد خديجة حرجا في أن تكل إليه أمر تجارتها نحو الشام.

استقل رسول الله ﷺ بالقافلة واتجه بها نحو الشام، يحبوه الأمل في أن يُوفق في تجارته، وأن يعود لخديجة بربح يجعلها لا تندم على أنها وكلت إليه أمر تجارتها كلها، وصاحبه غلامها ميسرة الذي لطالما رافق القوافل متجها نحو الشام، وهو يعلم من حر الطريق وشدته في السفر ما يجعله يقف مندهشا أمام ما رأى في رحلته مع رسول الله ﷺ ، فما أن تعلو الشمس منذرة بشعاعها الملتهب حتى استقلت سحابة فوق القافلة ولازمتها حتى المساء، وهكذا كل يوم فلا يشعر الراكب فيها بحر أو ظمأ، حتى الإبل أسرعت خُطاها، وكأن الطريق يُطوي من تحتها، والتمس ميسرة من سموّ خُلق رسول الله ﷺ وسلامة نفسه وأمانته ما ملأ قلبه حبا له.

ما أن وصلت القافلة سوق بُصرى حتى التف حولها المشترون، وكأن السوق ليس به غيرها، فإن من اصطفاهم الله من بين العباد ترى في وجوههم نورا كأنها أشعة منبثقة تجذب من حولها، فباع كل ما حملته القافلة، واشترى من بضاعة أهل الشام .

عاد رسول الله ﷺ إلى مكة يحمل لخديجة ربحا لم تتوقعه، غير أن الأمر لم يعد بالنسبة لخديجة مجرد تجارة أقام على أمرها محمد ﷺ، فقد أهمّها أمره، وتعلق فكرها بهذا القرشي النبيل الذي ضرب مثلا في الأمانة وعفة النفس عما عند الآخرين .

استقبلت خديجة نبأ القافلة ببهجة وسرور، وتفقدت ما حوت من بضاعة بانبهار، فمن أين جاءوا بكل هذا وهو يتجاوز ضعف ما معهم من أموال؟ ضاعفت لرسول الله ﷺ الأجر الذي وعدته به، وعاد إلى أعمامه الذين هنأوه بسلامة الوصول، تاركا خديجة لتجارتها، غير آبه ببقاء ليس له معنى، فقد أدى ما عليه ثم انصرف راضيا .

كان لهذه الرحلة أثر كبير على رسول الله ﷺ، فلم يقف تأثيرها على مدى ما حققه من مكاسب تجارية، فالأسفار تزكي تجارب الإنسان وتعمق خبرته بالحياة والأحياء، وأرض الشام مهد الشرائع السماوية، فالتقى بأهلها وعلم عن معتقداتهم وعباداتهم، وقولهم في عيسى عليه السلام، فازدادت معارفه المتعلقة بحقيقة الوجود وبواجده، واتسعت مداركه لإدراك غايات كُبرى اختلف حولها البشر تتعلق بأمر السماء وخالقها، وأمر الأرض وباسطها، وأمر البحار والأنهار ومن أجراها، وأمر الأرزاق والآجال ومن حددها، فكانت هذه الرحلة بداية رحلة طويلة أخذت سنوات من عمر النبي ﷺ في التأمل والتفكر في أمر الخلق وخالقهم، كما كانت سببا في ارتباط رسول الله ﷺ بخديجة رضي الله عنها .

الزواج المُبارك

استقلت خديجة بغلامها ميسرة؛ ليقص عليها كل ما حدث أثناء الرحلة، فزادها ما سمعت رغبة في المصارحة بما في داخلها من رغبة في الزواج برسول الله ﷺ، فهو نموذج مختلف تماما عمن تقدموا إليها بعد وفاة زوجها، فإن لم يكن من ذوي الثراء المعهود في تجار مكة إلا أن نسبه الشريف، ونبل أخلاقه، وعفة نفسه قد سيدته على أصحاب الأموال، وهذا من فطنة الصديقة رضي الله عنها التي لم تجد حرجا في المصارحة بما في داخلها من مشاعر صادقة تجاه محمد ﷺ إلى إحدى صويحباتها تُدعى نفيسة بنت منية، وأخبرتها بما تُفكر فيه من الزواج برسول الله ﷺ ، غير أن فارق السن بينهما كبير فربما مانع محمد ﷺ .
توجهت نفيسة صوب محمد ﷺ عازمة على أن تعود لخديجة بخبر أكيد من عنده، فما إن فاتحته في أمر زواجه والمحت إلى امرأة كخديجة حتى بدت على رسول الله ﷺ علامات الرضا المصحوبة بالاندهاش، فأين هو من سيدة تكاد تجارتها تضاهي تجارات سادات مكة ؟ فهي من ذوي الثراء الفاحش، وهو لا يملك شيئا من حطام الدنيا، غير أن نفيسة بشّرته أن ما يملك من مال يكفي لمهرها، فخديجة يشغلها فارق السن، ورسول الله ﷺ يشغله فارق الثراء، وهذا من عفة نفسه ﷺ .

حضر رسول الله ﷺ مع أعمامه لإتمام مراسم الزواج المبارك مع عمها عمرو بن أسد ـ فقد مات أبوها قبل حرب الفجار ـ فقام أبو طالب خطيبا فيهم فقال: " الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل .... وجعل لنا بيتا محجوجا وحرما آمنا وجعلنا أمناء بيته وسوّاس حرمه، وجعلنا الحكام على الناس، وان ابن أخي محمد بن عبد الله من قد علمتم قرابته وهو لا يوزن بأحد

إلا رجح به، فان كان في المال قل، فان المال ظل زائل وعرض حائل وعارية مستردة وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها من الصداق ما عاجله وآجله عشرون بكرة وإني يا معشر قريش أشهدكم على ذلك "(١)

كان عمر رسول الله ﷺ خمسة وعشرين عاما، وخديجة قد ناهزت الأربعين، غير أن هذا الفارق في السن لم يكن يوما عائقا في طريق سعادتهم واستقرارهم، فلم يتزوج عليها رسول الله ﷺ حتى ماتت، وأنجبت له القاسم وبه كان يُكنى، وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة وعبد الله، رضي الله عنهم أجمعين، ولما بُعث بالرسالة آمنت به وأيدته ونصرته، فكانت نعم الزوجة التي تكمل حياة رجل عظيم، وتتحمل أعباء رسالة عظيمة

أما أولاده، فالبنين ماتوا صغارا، والبنات أدركن الإسلام وأسلمن جميعا، ومتن في حياته ﷺ إلا فاطمة رضي الله عنها ماتت بعده بستة أشهر .

قبيل البعثة

مرت السنوات على رسول الله ﷺ يباشر فيها أمر تجارته وتدابير معايشه، لكن نفسه ارتقت عما كان عليه قومه من بدع وضلال، فانشغل عقله بالتفكير والتدبر في صنع الله، وانشغل قلبه بالملأ الأعلى واستكشاف الغايات العليا التي من أجلها خلق الله الخلق، وأشغل وقته بمشكلات الناس وهمومهم، فكان يواسي الضعفاء والمساكين، ويفتح قلبه للسائلين، ويدافع عن المستضعفين، وازدادت قناعته بأن ما عليه قومه ضلالات وأهواء، وأن ما ينسبونه لله هو كذب وافتراء، وأن الحق أكبر من هذه الخرافات، لكن الوصول إليه ليس سهل المنال، فأخذ يميل إلى العزلة والانقطاع عن الناس، فكانت الخلوة هي الخلاص من كل مشاغل العالم، فأنس الجبال والفضاء، وترك واقعا مليئا بالضلال والأكاذيب، فاعتلى جبل حراء؛ ليبدأ فيه مرحلة جديدة في حياته، صفت فيها نفسه عن كل ما يشوبها، وتعمقت نظرته فيما حوله من صحراء ممتدة، وجبال راسيات، ونجوم ساطعة، وسماء مشرقة، وقمر منير، فارتقت نفسه عن نفوس البشر وتعمقت بصيرته، وهكذا يفعل التأمل في النفوس، فإن سحره لا شعوري، تلمسه الروح وتستشعر بفوائده العقول، فتصفى الأفكار وتتعمق

(١) تاريخ ابن خلدون - (ج ٢ / ص ٥) والبكرة أي (الفتى من الإبل) وكان لدى خديجة من عتيق بنت اسمها هند، وولدت لأبي هالة هند وهالة، فهند بنت عتيق وهند وهالة ابنا أبي هالة عليهم أخوة أولاد رسول الله ﷺ من خديجة .

وتتضح المعاني من طول المراقبة والتأمل، فتهيأت روحه لاستقبال الوحي السماوي في الموعد الذي قدّره الله عز وجل بحكمته، غير أن رسول الله ﷺ لم يكن يعلم ما يُعدّ له، فالأمر بالنسبة له لا يعدو عن إحساس بفساد الوضع القائم، وبحث عن الحق يسكن النفس قبل أن يطلبه من خارجها، فلم يرسم لنفسه خطة أو منهجا يحدد فيها خطوات مستقبله، ولم تتشوق نفسه بخلائه هذا لإدراك مكانة وبلوغ شأن، وإنما كان كل أمره إعداد من الله ليس لبشر يد فيه.

أما القول بأن رسول الله ﷺ كان يتعبد على شريعة وهدي محدد طيلة فترة الغار فهو قول لا يستند إلى دليل، فإن أقرب الشرائع السماوية من رسالة الإسلام شريعة موسى وعيسى عليهما السلام، وقد شابهما من التحريف والتبديل ما لا يستقيم به هدي قويم، أما شريعة إبراهيم ﷺ، فلم يبق منها سوى الاسم، وبقايا تعاليم قد شابتها صور الشرك وزيّفت معالمها خرافات العرب الوثنيين، فمن أين جاء النبي ﷺ بتعاليم سماوية يتعبد بها ؟

لقد كانت عزلة رسول الله ﷺ في الغار بمثابة خلوة مع النفس تحاول فيها أن تجيب عن تساؤلات عدة تطرحها النفس السوية في هذا المجتمع المنحرف حول الأحجار التي يسجدون لها ويقدسونها، أهي التي رفعت السماء بغير عمد ؟ أهي التي نصبت الجبال الراسيات وبسطت الأرض، وأجرت الأنهار والبحار وقدّرت الأرزاق وحددت الآجال؟ أهي الإله الذي يستحق أن يُعبد؟ أهذه الأحجار هي التي رسمت حياة البشر؟

تساؤلات كثيرة تحتاج إلى إجابة، فلما لم يجد رسول الله ﷺ لها جوابا، اعتزل الحياة، واعتلى الجبال، وهام بفكره في الملكوت المحيط به.

على أن هذا لا يُعني أن النبي ﷺ كان قبل البعثة على غير الإيمان والتوحيد لله عز وجل، فالنبي ﷺ ما أشرك بالله يوما منذ وُلِد، وهذا من عصمة الله عز وجل له، فحفظه الله تعالى من كل صور الشرك والضلالات التي كان عليها قومه حتى أوحى الله إليه، قال الله تعالى [وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ](١) فالمنفي من الإيمان هنا هو الإيمان التفصيلي أي شرائع الإيمان وتفصيله، أما الإجمالي فقد وُلِد النبي ﷺ موحداً، لذا جاء اللفظ محددا بمعرفة الإيمان ولم يقل وما كنت مؤمنا.

---

(١) {الشورى: ٥٢}

إن الله عز وجل اصطفى رسوله من بين البشر، فخصّه بكل صفات الخير ومكارم الأخلاق، فلم يأت بمنكر من القول أو الفعل، لا في جاهلية ولا في إسلام، وهذا لأنه خُلق لغاية معينة كانت حياته كلها قبل الرسالة في إعداد لها، لذا فقد عصمة الله من الدناءات التي تميل إليها أنفس البشر، فالله تعالى قد بعث الرسل ليطهروا العامة منها، فكيف يسقطون هم فيها؟ ومما رُوي من همه باقتراف بعض الآثام، وعصمة الله له، ما رواه الحاكم والبيهقي وابن راهويه في مسنده عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول «ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به من النساء إلا ليلتين كلتيهما عصمني الله تعالى فيهما، قلت ليلة لبعض فتيان مكة ونحن في رعاية غنم أهلنا، فقلت لصاحبي أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر فيها كما يسمر الفتيان فقال بلى قال: فدخلت حتى إذا جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفا بالغرابيل والمزامير، فقلت ما هذا؟ فقيل تزوج فلان فلانة، فجلست أنظر، وضرب الله تعالى على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فقال ما فعلت؟ قلت ما فعلت شيئا، ثم أخبرته بالذي رأيت، ثم قلت له ليلة أخرى أبصر لي غنمي حتى أسمر بمكة، ففعل فدخلت فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة، فسألت، فقيل فلان نكح فلانة، فجلست أنظر، وضرب الله على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فقال ما فعلت؟ فقلت لا شيء، ثم أخبرته الخبر. فوالله ما هممت ولا عدت بعدها لشيء من ذلك، حتى أكرمني الله عز وجل بنبوته»(١)

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٧٦١٩وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١ / ص ٤١٣ حديث٣٦٧) والسيرة النبوية لابن كثير (ج ١ / ص ٢٥٢) والبداية والنهاية (ج ٢ / ص ٣٥١)وتاريخ الإسلام للإمام الذهبي (ج ١ / ص ٨٠) كما رواه السيوطي في الخصائص الكبرى (ج ١ / ص ١٤٩)وقال"قال ابن حجر إسناده حسن متصل ورجاله ثقات" وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني في المطالب العالية (ج ١٢ / ص ١٢٨)= هكذا رواه محمد بن إسحاق في السيرة، وهذه الطريق حسنة جليلة، ولم أره في شيء من المسانيد الكبار إلا في مسند إسحاق هنا، وهو حديث حسن متصل ورجاله ثقات وقال الحافظ بن كثير في السيرة النبوية (ج ١ / ص ٢٥٢)وهذا حديث غريب جدا، وقد يكون عن علي نفسه ويكون قوله في آخره: " حتى أكرمني الله عز وجل بنبوته " مقحما والله أعلم. وشيخ ابن إسحاق هذا ذكره ابن حبان في الثقات.وزعم بعضهم أنه من رجال الصحيح. وقال الألباني (رواه ابن الأثير ورواه الحاكم عن علي ابن أبي طالب وقال عنه صحيح على شرط مسلم ورواه الطبراني من حديث عمار بن ياسر وهو حديث ضعيف

قال الحافظ ابن كثير في سيرته هذا حديث غريب جدا، كما ضعفه الألباني في تحقيقه لفقه السيرة، ونحن إذ لا ننكر بشرية النبي ﷺ، إلا أن النفس التي أعدّها الله لقيادة البشرية قاطبة، أنى لها أن تميل إلى دناءات قد عفّ من هم أقل منه أنفسهم عنها.

إن الله قد عصم رسوله ﷺ من كل صور الشرك التي كان عليها العرب، بل إن الله قد عصمه من مشاركة قومه فيما استحدثوا من بدع في مناسك الحج، فقد كان من شأن الحُمس أنهم كانوا يقفون عند المزدلفة ولا يشهدون عرفة ويقولون نحن أهل الحرم لا نخرج منه إلى الحل، فعصم الله نبيه من أن يُشاركهم في ضلالهم، ففي الصحيحين عن جبير بن مُطعم أنه قال " أضْلَلْتُ بَعِيرًا لِي، فَذَهَبْتُ أَطْلُبُهُ يَوْمَ عَرَفَة، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَاقِفًا بِعَرَفَة، فَقُلْتُ هَذَا وَاللَّهِ مِنَ الْحُمْسِ فَمَا شَأْنُهُ هَا هُنَا"(١)فكان ﷺ يقف على عرفة خلافا لقومه توفيقا من الله عز وجل.

بدء الوحي

ارتقت نفس رسول الله ﷺ عن أفعال قومه، فاتسعت الشقة العقلية بينه وبينهم، وصار حاجزا نفسيا بينه وبين معتقداتهم الإلحادية، فكان إذا حلّ شهر رمضان حمل زاده واعتلى غار حراء يقضي فيه شهره، بعيدا عن ضلالات قومه، ولما اقترب النبي ﷺ الأربعين من عمره بدأت بشائر النبوة والفجر الجديد في الظهور، وكان أولها الرؤيا الصالحة، فعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لا يَرَى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ (٢)

كما كان ﷺ يمر على جمادات فتسلم عليه، فيلتفت يمنة ويسرة فلا يجد شيئا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ« إِنِّي لأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لأَعْرِفُهُ الآنَ »(٣)

وظل رسول الله ﷺ على حالته هذه حتى إذا كانت إحدى ليالي العشر الأواخر من شهر رمضان، نزل عليه الوحي من السماء، في أول لقاء بين الأرض والسماء، بعد عيسى ﷺ؛ لتعود رسالة الله إلى الدنيا من جديد.

---

(١)البخاري ١٦٦٤ ومسلم ٣٠١٥

(٢)البخاري ٣

(٣)مسلم ٦٠٧٨

وكأن ليلا قد ساد الدنيا زمنا طويلا، وها هي علامات الفجر قد بدت في الأفق الفسيح، وها هو فجر الحق قد جاء برسالة التوحيد على نبي آخر الزمان، فقد اكتمل الإعداد الرباني للرسول الكريم ﷺ، ولم يبق سوى اشتياقه لأمر الوحي، ثم يُكلف بالرسالة إلى الناس كافة .

عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ " أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاَءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ، فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ اقْرَأْ . قَالَ « مَا أَنَا بِقَارِئٍ » قَالَ « فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ اقْرَأْ .قُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ . فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ اقْرَأْ .فَقُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ . فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي .فَقَالَ (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ) » فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رضي الله عنها فَقَالَ « زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي » فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ.

فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي » فَقَالَتْ خَدِيجَةُ كَلاَّ وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ . فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ . فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ يَا ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ.

فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى ﷺ يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ .فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ » قَالَ نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا .ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ وَفَتَرَ الْوَحْيُ " (١)

---

(١)البخاري٣

فترة الوحي

آزرت خديجة رضي الله تعالى عنها زوجها، وثبّتته، وعدت له من أخلاقه الحميدة ما هدأ به روعه، واصطحبته إلى ورقة بن نوفل الذي بشره بأمر رسالة الإسلام، فاطمأنت نفسه، وهدأ روعه بعدما كاد أن يذهب عقله من هول ما رأى، والذي لم يألفه من قبل، فعلم أنه رسول رب العالمين، وأن من جاءه ملك من السماء، وأنه إنما كان يُعدُّ لهذه الرسالة، ثم انقطع عنه الوحي فترة، فلم يعلم كيف يطلبه أو أن يراه ثانية، فكان يعتلي جبل ثبير وجبل حراء أملا في أن يرى الوحي ثانية، وكلما غدا إلى أعلى الجبل ولم يجده ازداد حزنه وغمه.

كان نزول الوحي على رسول الله ﷺ إيذانا ببدء نبوته، غير أنه لم يكلف بعد بالبلاغ، فلم يكتمل إعداده بعد لتحمل أعباء الرسالة، ويتضح هذا في شدة روعه عند نزول الوحي، رغم ما آنس من صفاء النفس، والرؤيا الصالحة ومحبة الخلوة، والتعبد في غار حراء، فإن نزول الوحي أمرٌ لم يألفه النبي ﷺ بعد، ورؤية الملك بغتة في غار ضيق فوق قمة جبل بعيدا عن العمران في ليلة مظلمة في أواخر الشهر القمري أمر خالف العادة والمألوف، فنفر منه طابعه البشري وعجز عن التأمل - الذي اعتاده - في هذه الحالة، فالنبوة لا تنفي الطباع البشرية في النفور والجزع مما لم يألفه البشر، حتى إذا تدرج الأمر واستأنس به ألفه واستمر عليه، فلم تمنع النبوة ولا الرسالة الطبيعة البشرية لسيدنا إبراهيم عليه السلام من الفزع مما خالف العادة، قال تعالى [فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ](1) وفي قصة موسى عليه السلام [وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ] (2) فالجزع من أمر قد خالف العادة والمألوف طبيعة البشرية، لا تنفيها النبوة.

ثم تأتي غطة الملك للرسول ﷺ ثلاث مرات؛ ليتيقن أن ما ألمّ به واقع لا خيال، وحقيقة لا حلم، ولينتبه إلى شدة الأمر وجديته.

ولما عاد النبي ﷺ إلى داره قص على زوجته الخبر، وهي التي آنس منها مؤازرة وحبا وتصديقا، فلا حرج من إخبارها بما في نفسه، ولما أرادت استظهار الأمر واطمئنان النبي ﷺ لجأت إلى ورقة بن نوفل؛ لثقتها بصدقه ومعرفته بما في الكتب القديمة، فلما سمع النبي ﷺ بشارته أيقن بالحق.

---

(1) [الذاريات ٢٨:٢٧]

(2) [القصص: ٣١]

ولما انقطع الوحي شقّ عليه الأمر، وكأنه خشي أن يكون أمرا بُدء به ثم لم يُتم على يديه، إذ أنه لم يكن قد أُمر بالتبليغ بعد، فصار أمره كأن تسمع من يقول الحمد لله فلم تتبين أنه يقرأ القرآن أم لا إلا إذا وصلها بما بعدها.

نزل الوحي بأوائل سورة العلق - وهي أول ما نزل من القرآن مطلقا - ثم انقطع الوحي؛ ليتدرج النبي ﷺ على استقباله ويشتاق إليه، ويزداد تحمله لما أُعد له من مشقة التبليغ وأعباء الرسالة، وليس المراد بفترة الوحي عدم مجيء جبريل عليه السلام للنبي ﷺ، وإنما المراد بها تأخر نزول القرآن الذي فيه الأمر بالتبليغ.

أما المدة التي فتر فيها الوحي فلم تثبت بسند قاطع، فحددها البعض بأيام، والبعض بشهور، وبالغ آخرون فعدوها بالسنين، غير أن الاشتياق المُراد للوحي لا يمكن أن يأتي بعد أيام من نزوله، ولو كان الأمر أياما ما تعجل النبي ﷺ لقاء الوحي وصعد شواهق الجبال متمنيا لقائه، كما أنه لا يمكن الجزم بأن النبي ﷺ عاد إلى حراء؛ لإتمام جواره بالغار شهر رمضان فقط، ففي حديث جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ « جَاوَرْتُ بِحِرَاءٍ، فَلَمَّا قَضَيْتُ جِوَارِي هَبَطْتُ فَنُودِيتُ فَنَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا، وَنَظَرْتُ عَنْ شِمَالِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا، وَنَظَرْتُ أَمَامِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا، وَنَظَرْتُ خَلْفِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَرَأَيْتُ شَيْئًا ..... » (١) فهذا لا يلزم أن يكون النبي ﷺ قد أتم شهر رمضان فقط، فربما جاور شهرا آخر، فنزول الوحي حدث فيصلي ما بعده غير متعلق بما قبله، كما أن تفسير قوله "قضيت جواري " بأنه مقصور على شهر رمضان فقط قول بعيد، لعدم ثبوت تعيين ليلة نزول الوحي، فإن كانت في ليلة من الثلاث الأخيرة، فإن عودته ﷺ لإتمام نفس الشهر أمر بعيد، فما ألمّ به من روع لا يذهبه يوم أو اثنين، والشوق المُراد للوحي لا تكفيه هذه المُدة.

أما من ذهب إلى أن فترة الوحي كانت سنتين أو سنتين ونصف، فهو قول بعيد جدا، فإن السنين لا تربي شوقا لحدث، بل قد يتناسى لذة الشوق المرجوة من فترة الوحي، ويصبح الأمر وكأنه هاجس في النفس يتمنى تكرار ما حدث ثانية، بل إن الشك قد يُراوض النفس أنه كان حلما لا واقعا.

والقول بأنها مدة زمنية ما بين الشهر إلى الستة هو الأقرب.

ومهما كانت هذه المدة، فإنها كانت حالة نبوة وإيحاء لم يؤمر فيها النبي ﷺ بالتبليغ.

أما ما ذُكر من أن رسول الله ﷺ كاد أن يلقي بنفسه من فوق شواهق الجبال أثناء فترة الوحي، فهو قول لا يصح اجتمع فيه نكارة المتن وشذوذ السند.

---

(١) البخاري ٤٩٢٢

وهو من مراسيل الإمام الزهري، ومرسل الزهري ضعيف عند أهل الحديث.
وقد بيّن الشيخ الألباني علتها، وأنها لا تصح لا سندا ولا متنا (١)

انقضت فترة الوحي وعاد الوحي ثانية، وأُمِر النبي ﷺ بتبليغ رسالة الإسلام إلى البشر، فغدا نبي الله ورسوله، المكلف بإبلاغ البشر أوامر الله ونواهيه، وتفصيل أحكامه وشرعه، وأنه النبي الخاتم، وأن رسالته هي الرسالة الخاتمة .

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رضي الله عنهما - قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ فَقَالَ فِي حَدِيثِهِ « فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَجَئِثْتُ مِنْهُ رُعْبًا فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي. فَدَثَّرُونِي فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى[يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ* قُمْ فَأَنْذِرْ* وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ* وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ*وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ] قَبْلَ أَنْ تُفْرَضَ الصَّلاَةُ - وَهْيَ الأَوْثَانُ » (٢)

---

(١) روى البخاري في أول كتاب التعبير ٦٩٨٢ من طريق معمر قال الزهري فأخبرني عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت - ثم ذكر حديث عائشة السابق ذكره في بدء الوحي ثم قال (.....وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ - فيما بلغنا - حزنا غدا منه مرارا كي يتردى من رءوس شواهق الجبال فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي منه نفسه تبدى له جبريل فقال يا محمد إنك رسول الله حقا فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك) قال الشيخ الألباني رحمه الله في كتابه دفاع عن الحديث النبوي : الحديث عند البخاري في أول (التعبير) من طريق معمر: قال الزهري: فأخبرني عروة عن عائشة . . . فساق الحديث إلى قوله : (وفتر الوحي) وزاد الزهري - وذكر الزيادة السابقة - وهكذا أخرجه بهذه الزيادة أحمد (٢٣٢/٦ - ٢٣٣) وأبو نعيم في (الدلائل) (ص ٦٨ - ٦٩) والبيهقي في (الدلائل) (٣٩٣/١ - ٣٩٥) من طريق عبد الرزاق عن معمر به . ومن هذه الطريق أخرجه مسلم (٩٨/١) لكنه لم يسق لفظه وإنما أحال به على لفظ رواية يونس عن ابن شهاب وليس فيه الزيادة وكذلك أخرجه مسلم وأحمد (٢٢٣/٦) من طريق عقيل بن خالد : قال ابن شهاب به دون الزيادة وكذلك أخرجه البخاري في أول الصحيح عن عقيل به . قلت: ونستنتج مما سبق أن لهذه الزيادة علتين :الأولى: تفرد معمر بها دون يونس وعقيل فهي شاذة . الأخرى: أنها مرسلة معضلة فإن القائل : (فيما بلغنا) إنما هو الزهري كما هو ظاهر من السياق وبذلك جزم الحافظ في (الفتح) (٣٠٢/١٢ وقال : (وهو من بلاغات الزهري وليس موصولا) واعلم أن هذه الزيادة لم تأت من طريق موصولة يحتج بها ...وإذا عرفت عدم ثبوت هذه الزيادة فلنا الحق أن نقول إنها زيادة منكرة من حيث المعنى لأنه لا يليق بالنبي ﷺ المعصوم أن يحاول قتل نفسه بالتردي من الجبل مهما كان الدافع له على ذلك وهو القائل : (من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالدا مخلدا فيها أبدا) أخرجه الشيخان وغيرهما)) انتهى كلامه رحمه الله . قلت: والعلة الظاهرة في متنه تكرار ظهور جبريل عليه السلام، فلو كان سبب الحزن هو الخوف من انقطاع الوحي لكان ظهور جبريل عليه السلام مرة واحدة وقوله للنبي ﷺ " يا محمد إنك رسول الله " كافيا لإذهاب خوف النبي ﷺ وتأكيد بعثته، فلم الحاجة إلى تكرار ظهور جبريل عليه السلام؟!

(٢) البخاري٤٩٢٥

مراتب الوحي

قال تعالى [وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ] (١)

الوحي في اللغة: هو الإعلام السريع الخفي، ويقال في فعله وحى وأوحى .

أما الوحي في الشرع: فهو التعليم السري الصادر عن الله تعالى لأنبيائه بغير واسطة، ككلام الله عز وجل إلى موسى عليه السلام، أو الإلقاء في القلب والإلهام والرؤيا، أو بواسطة ملك يأتي بأحوال مختلفة، وجبريل عليه السلام أمين الوحي رسول الله إلى أنبيائه، وصفه الله في القرآن فقال [إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ](٢) وقال تعالى [عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى] (٣) وقد ورد الوحي في القرآن في حقّ الأنبياء، فقال تعالى { وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ الله إلاّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ } (٤) وفي حقّ الأولياء، فقال تعالى {وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحواريين}(٥) وبمعنى الإلهام في حقّ بقية البشر،فقال تعالى { وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ موسى }(٦) وفي حقّ سائر الحيوانات بمعنى خاصّ، فقال تعالى [وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا] (٧)

فالوحي هو الوساطة بين الخالق عز وجل وبين من يُوحى إليه، فالله عز وجل ما كلم بشرا كائنا ما كان إلا وحيا بإحدى طرق ثلاث: الأولى: الإلقاء في الروع يقظة أو مناماً، فيفهم عن الله تعالى ما يلقيه في روعه ، والثانية: أن يكلم الله النبي بدون أن يرى ذاته عز وجل، كما كلم موسى عليه السلام على جبل الطور غير مرة، وكلم محمداً ﷺ في الملكوت الأعلى ليلة المعراج، والثالثة: أن يرسل إليه الملك إما في صورته الملائكية أو في صورة رجل من بني آدم، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه من أمره (٨)

أما مراتب الوحي التي كان يُوحى إلى النبي ﷺ بها، فهي كالتالي :

١) **الرؤيا الصالحة**: وكانت أول الوحي، فكان ﷺ لا يرى رؤية إلا جاءته مثل فلق الصبح، وظل وحي المنام ستة أشهر، بدأ بعدها وحي اليقظة، ومدة الرؤيا مع النبوة مع الرسالة ثلاثة وعشرون عاما، قال رَسُولَ اللَّهِ ﷺ« الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ »(٩)

---

(١)[الشورى:٥١]　(٢)[التكوير ١٩/٢٢]　(٣)[النجم:٥]

(٤)[الشورى:٥١]　(٥)[المائدة : ١١١]　(٦)[القصص : ٧]

(٧)[النحل:٦٨]　(٨) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير - (ج ٤ / ص ٦٢٥)

(٩) البخاري ٦٩٨٩

غير أن النبوة انتهت ببعثه ﷺ ولم يبق منها سوى الرؤيا الصالحة لاعتبار صدقها، قال رَسُولَ اللَّهِ ﷺ « لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إِلاَّ الْمُبَشِّرَاتُ »قالوا وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ؟ قَالَ « الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ » (١)

٢)**أن يرى الملك في صورته التي خلق عليها:** ولم يحدث هذا إلا مرتين، الأولى في بطحاء مكة أول البعثة، والثانية ليلة المعراج في السماء السابعة عند سدرة المنتهى، وهذا مما اختص به النبي ﷺ. روى مسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها سألت رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى (وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ) (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى) فقالَ « إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ »(٢) وقال ابن مسعود عن قول الله تعالى (فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى) أنّ رسول الله ﷺ رأى جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ (٣)

٣)**أن يأتيه الملك في مثل صلصلة الجرس:** عَنْ عَائِشَةَ ـ رضي الله عنها ـ أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ ـ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ ـ وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ ـ فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ الْمَلَكُ رَجُلاً فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ » قَالَتْ عَائِشَةُ: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا (٤)

وقَالَ ابْنَ عَبَّاسٍ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً (٥)

فكان إذا نزل عليه الوحي وهو على راحلته تبرك به على الأرض، ولقد جاء الوحي مرة كذلك وفخذه إلى فخذ زيد بن ثابت، قَالَ زَيْدٌ: فَثَقُلَتْ فَخِذُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى فَخِذِي حَتَّى خَشِيتُ أَنْ تَرُضَّهَا (٦)

٤)**أن يتمثل له الملك في صورة رجل:** فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول، وكثيرا ما كان يأتي في صورة دحية الكلبي الصحابي ﷺ، فعَنْ أَبِي عُثْمَانَ قَالَ: أُنْبِئْتُ أَنَّ جِبْرِيلَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَعِنْدَهُ أُمُّ سَلَمَةَ فَجَعَلَ يَتَحَدَّثُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأُمِّ سَلَمَةَ « مَنْ هَذَا » قَالَتْ هَذَا دِحْيَةُ. فَلَمَّا قَامَ قَالَتْ وَاللَّهِ مَا حَسِبْتُهُ إِلاَّ إِيَّاهُ حَتَّى سَمِعْتُ خُطْبَةَ النَّبِيِّ ﷺ يُخْبِرُ خَبَرَ جِبْرِيلَ (٧) وقال ﷺ " أشبه من رأيت بجبريل دحية الكلبي "(٨) وقال ﷺ " دحية الكلبي يشبه جبريل" (٩)

---

(١) البخاري ٦٩٩٠ (٢) مسلم ٤٥٧ (٣) البخاري ٣٢٣٢ (٤) البخاري ٢

(٥) البخاري ٥ (٦) مسند أحمد ٢٢٢٢٣ وصححه الألباني في فقه السيرة

(٧) البخاري ٤٩٨٠ (٨) صحيح الجامع الصغير حديث ٧ (٩) صحيح الجامع الصغير حديث ٢٣٦٢

وأحيانا كان يأتي ﷺ في صورة أعرابي، كما في الحديث الذي جاء ليسأل فيه عن الإسلام والإيمان والإحسان وأشراط الساعة، فلما انتهى رَسُول اللَّهِ ﷺ قال لعُمَر بْنُ الخَطّاب ﷺ« يَا عُمَرُ أتَدْرِي مَن السَّائِلُ » قال عُمَر اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ « فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ » (١)

٥) أن يلقي الملك في قلبه من غير أن يراه ما شاء الله له أن يلقيه كقوله ﷺ " إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته " (٢)

٦)وحي الله تعالى إليه من وراء حجاب كفرض الصلوات ليلة المعراج . (٣)

---

(١) مسلم١٠٢

(٢)صحيح الترغيب والترهيب جزء ٢ حديث١٧٠٢ وقال الألباني حسن صحيح وفي السلسلة الصحيحة ٨٦٥\٦حديث٢٨٦٦ والرُّوع بضم الراء القلب أو العقل.

(٣) زاد المعاد - (ج ١ / ص ٧٠) بتصرف وإضافات

** أبرز مراجع هذا الفصل ((إمتاع الأسماع للمقريزي - زاد المعاد لابن القيم - أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير- تاريخ ابن خلدون - تاريخ الإسلام للذهبي - تاريخ دمشق لابن عساكر)

الفصل الثالث

الدعوة السرية والمسلمون الأوائل

انتهت فترة النبوة، وبدأت فترة الرسالة بعودة الوحي ثانية، ونزول الآيات الأولى من سورة المدثر" يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) (١) فودّع النبي ﷺ حياة الراحة، وكأن الأربعين عاما التي مضت من عمره لم تكن، فما جدوى الحياة بلا غاية ورسالة تجعل لها معنى وقيمة.

لقد بدأ رسول الله ﷺ عمره مع الرسالة، فشمّر عن ساق الاجتهاد، قام يدعو إلى الله عز وجل الحر والعبد، الصغير والكبير، الرجل والمراة، الأسود والأحمر، يدعو الناس إلى ما فيه خير الدنيا والأخرة، غير آبه بما قد يلاقيه من أذي أو تكذيب، فالدعوة إلى الله لا تطيب إلا بالأذى والتضحية، حمل النبي ﷺ أمانة التبليغ إلى الناس كافة، بل إنه حمل عبء البشرية كلها، وعبء قضية التوحيد كلها، لا يرجو الأجر إلا من الله، ولا ينتظر الشكر على صنيعه، تحمل من سفاهات قومه ما يفوق الحسبان، فلم يقم يوما ليدعو الله عليهم أن يبيد أولهم عن أخرهم ويستخلف غيرهم، بل كان إذا اشتدوا عليه بالتكذيب والتعذيب زاد هو في شفقته ورحمته بهم، لم يزده جهل السفهاء إلا حلما، ولم يزده بطش الجبارين إلا عفوا، ولم تزده مشقة التبليغ إلا صلابة، ولم يزده شدة التكذيب إلا أملا في التصديق، ولم يزده شدة البلاء إلا صبرا وعزيمة.

كان - ﷺ - يُبشّر المؤمنين بالنصر، وهو لا يملك حتى سلامته الشخصية، إيمانا منه بنصر الله غير متعجل بقدومه، كان عطفه على الكبير والصغير سواء، حلمه بالسيد والعبد سواء، رحمته للقوي والضعيف سواء، جوهر حياته الرضا بقضاء الله، والصبر على البلاء، ربّى صحابته على تعاليم رسالة الإسلام، فكانوا شامة في جبين البشرية كلها، لم يقم يوما لينهرهم أو يسبّهم، أو يلعنهم، أو يقسو عليهم، أو يحتكرهم، أو يوبخهم، أحسن استغلال مواهب أصحابه، وأخرج طاقاتهم وجوانب الإبداع في شخصيتهم، فجعل منها قوة دافعة لحركة الدعوة ونشر الرسالة، لا قوة معطلة لها، لم يصادر آراءهم، ولم يستصغر شأنهم، تقرب إلى كل واحد منهم حتى فهمه، وألان له الحديث حتى أحبّه، حتى أصبح كل واحد منهم يشعر وكأنه الأقرب عند رسول الله ﷺ من الآخرين، كان ألين الناس لهم، كان أحن على الابن من أبيه، وعلى الرجل من نفسه التي بين جنبيه لم يأت حبهم له من فراغ، فقد فهم طبائعهم، وتعامل معها بحكمة جليلة

---

(١) (المدثر ١/٥)

أنزل الناس منازلهم، وحفظ لهم قدرهم ومكانتهم، يرفع من شأن السيد فيحفظ له حقه ويعطي المحتاج حتى يكفيه ذلة السؤال، ويهب للطامع حتى يرضى، يكون في حاجة العبد والأرمل واليتيم، يرد المظالم، ويدافع عن الحقوق، يحترم الأعراف والتقاليد ما دامت لا تتعارض مع ثوابت دعوته، يرفق وقت الرفق، ويغضب إذا انتهكت المحارم، ربّى صحابته على الخصال التي تميزهم عن غيرهم، كالعفو عند المقدرة، والحلم عن الجاهل، والرحمة بالفقير العاجز والعدو الأسير، والصفح عن المسيء، وصلة الرحم، والتواضع مع الغنى، والتعفف مع الفقر والتمتع بالطيبات من غير إسراف، وعفة النفس، والصبر على البلاء، والشكر على النعم، والشدة في الحق، والرفق في الدعوة والتربية، والنصرة للمظلوم، ورد المظالم، والتأدب في الطلب، والبأس عند القتال، وكانت أفعاله أمامهم ترجمة لما يأمرهم به فما كان من أصحابه إلا أن أطاعوه وعزروه، ووقروه، ونصروه، وآثروه على أنفسهم، وأموالهم، وأولادهم، والدنيا وما فيها، قال له عمر بن الخطاب ﷺ يوما : يَا رَسُولَ اللَّهِ لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلاَّ مِنْ نَفْسِي . فأجابه النَّبِيُّ ﷺ قائلا « لاَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ » فَقَالَ لَهُ عُمَرُ فَإِنَّهُ الآنَ وَاللَّهِ لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ« الآنَ يَا عُمَرُ » (١) لقد أدرك عمر ﷺ أن حبه لنفسه لن يجديه، فما كان منه إلا أن هذب نفسه، وألزمها قدرها، ولم يكن هذا شأن عمر وحده، وإنما أدرك الصحابة كلهم - ﷺ- قدره، فعظموا أمره، وحفظوا حقه، واتبعوا هديه، ومتى عرفنا ما عرفوا سدنا كما سادوا .

إن مراحل إعداد النبي ﷺ لتحمل عبء الرسالة ومشقة التبليغ أشرفت على خطواتها عناية الله تعالى، فلم يكن لعبد فضل يُذكر في تربية النبي ﷺ وإجماله بكل ما تحلى من صفات .

أما مراحل تبليغ الدعوة منذ بدايتها وحتى كتب الله لها التمكين، فهي جهد بشري، أشرفت عليه عناية الله تعالى وتدخلت أحيانا لنصرته، إلا أن هذا التدخل كان مُقترنا بشرط الالتزام بالمنهج السماوي، من غير زيغ أو تبديل، فمتى تحقق هذا الشرط تدخلت عناية الله تعالى لنصرة المؤمنين، وهذه العناية الإلهية لم تكن قاصرة على زمن النبوة فحسب، وإنما هي باقية حتى يرث الله الأرض ومن عليها، فمتى حقق المسلمون الشرط جاءت نصرة الله لهم [ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ](٢)

أما الشقّ البشري فهو جوهر هذه الرسالة، وبدونه لن تقوم رسالة

---

(١) البخاري ٦٦٣٢ (٢){الأنفال:٥٣}

وهذا الشق قائم على ركائز ثلاث " الإيمان والصبر والتضحية "فالإيمان بالرسالة نقطة الانطلاق الحقيقية للدعوة لها، فمتى آمن العقل بصدق رسالة الإسلام، وفطن إلى حاجة البشر إليها، وجد الحُجّة الدامغة على صدقها ومن ثم تُغرس بذرة التمكين والنصر للدعوة في قلوب أنصارها.

أما الصبر على مشاق الدعوة وابتلاءاتها فما من رسالة تريد أن تنتشر وتسود إلا وظهر لها معاندين، ومكذبين، ومثبطين، وحاقدين، وهذه سُنّة ربانية لم يخل منها زمان، ولم تسلم منها رسالة ، أو مشوار دعوة، ومقدار الثبات والصبر في التبليغ والدعوة متفاوت بين البشر، حتى بين الرُسل أنفسهم، لذا خصّ الله منهم أولي العزم، أشد الرُسل صبرا على الإيذاء والتكذيب، وبدون هذا الخُلق لا يمكن أن تثبت دعوة ويكتب لها النصر والتمكين، فما جدوى الدعوة إلى رسالة لا يقوى أنصارها على الثبات عليها، والصبر على مشقة تبليغها، فمقدار هذا الصبر هو المعيار الحقيقي لمدى الإيمان بها والقدرة على التضحية من أجلها .

أما الركيزة الثالثة فهي التضحية والقدرة على البذل والعطاء من أجل نصرتها، وهي نتيجة لمن أدرك السابقتين، قال تعالى [أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ](١) وهذا الافتتان غير مقصور على ناحية دون الأخرى، بل إنه يشمل كل مداخل النفس، ونوازع الهوى، فلن يقوى بنيان دون بذل الجهود المضنية في بنائه، ولن يُكتب لرسالة بالتمكين ما لم تقدم من أجلها التضحيات .

هذه الركائز الثلاث هي بمثابة خطوات متلاحقة، لا يمكن أن تسبق إحداهما الأخرى، فكل واحدة نتيجة للأخرى ومتى تحققت هذه الثلاث في نفس كل مسلم، كُتب لهذه الرسالة بالنصر والتمكين، فبذور التمكين لرسالة الإسلام تبدأ في قلوب معتنقيها، قبل أن تشبّ واقعا في أرض الحياة.

إن رسالة الإسلام ما جاءت لتحيا بمعزل عن حياة البشر وأمور معايشهم، وإنما جاءت لتوقظ البشرية من سباتها، تنقذها من ضلالها وانحرافها، جاءت لترشد الإنسان إلى سبل الهدي والرشاد، ليس فقط في أمور العقيدة، وإنما في شتى مناحي الحياة، جاءت لتحث الإنسان على العمل والابتكار، لا على التبعية والتواكل، جاءت لتبني وتُعمّر، لا لتهدم وتخرّب، جاءت لتحفظ الحقوق والأرواح والأعراض، لا لتُهدر الدماء وتستبيح الأعراض وتنتهك الحُرمات، جاءت لتسمو بنفس الإنسان وترتقي بروحه وعقله على السواء، لا لتجعله أسيرا لأهواء غيره ورؤى عقولهم، جاءت لترشده إلى ما فيه صلاحه في الدنيا والآخرة، لا لتتركه غريقا في بحور الشهوات والملذات .

---

(١) [العنكبوت: ٢]

إسلام خديجة

عاد رسول الله ﷺ إلى داره؛ ليبدأ منها الدعوة إلى الله، فإن أشد ما يمكن أن يلاقيه صاحب قضية، أن ينكرها أقرب الناس إليه، وأشدّ ما يمكن أن يلاقيه نبي مُرسل هو كُفر خاصة أهله به، فهم مرآته التي يُرى من خلالها لعامة الناس ورغم ما لاقى رسول الله ﷺ من شدة وتكذيب من قومه، إلا أن من أجَل نعم الله تعالى على نبيه أن تكون زوجه أول من يؤمن به ويصدّقه، فهي الدافع والمثبّت لما يُلاقي من الآخرين، وهي الملاذ والملجأ كلما ضاقت السبل واشتدت الصعاب.

لقد عاشرت خديجة رضي الله عنها رسول الله ﷺ خمسة عشر عاما، فما رأت منه إلا خيرا، وما سمعت منه قولا خبيثا أو عملا دنيئا، وما عرفت عنه كذبا ولا خيانة قط، وقد ألفت منه صفاءً للنفس لم تر مثله، وأمارات تدل على علو شأنه، وبلوغ أمره، فما كان منها إلا التصديق والإيمان المطلق، المبني على اليقين بصدق المحدّث.

لقد أيقنت خديجة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ يُعدُّ لغاية عُظمى، وينتظره أمر جلل؛ فمن اصطبغ بكل هذه الصفات، واتسم بهذه الأخلاق في مجتمع فقد القيم الروحية التي تُهذّب النفس، حقيق على أن ينال رفعة بين قومه وسيادة، ورسول الله ﷺ لم يسع لإدراك هذه السيادة، بل ترك العمران وأنس الجبال، فأيقنت أنه يُعد لغاية عُظمى ربما تكشفها لها الأيام، واتضح هذا جليا في رد فعلها لرسول الله ﷺ عندما نزل إليها من الغار يرجف فؤاده، والفزع قد ملك كل جوارحه، حتى أنه خشي على عقله من هول ما رأى، أما هي فبثبات المتيقن لحدوث أمر جلل في حياة رجل عظيم كزوجها، أيقنت أنه الأمر المنتظر، فهدأت من روعه، وعددت له من مكارم أخلاقه ما لو كان نصفه عند غيره ما أخزاه الله أبدا، فقالت " كَلاَّ أَبْشِرْ، فَوَاللَّهِ لاَ يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، فَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ "(١).

يا الله، أي يقين هذا الذي اكسبها تلك الطمأنينة والدعوة لم تجر على لسان بشر بعد؟ بل أي يقين هذا الذي جعلها تسوق تلك البشارة لزوجها وهو في مثل حالته؟ إنه يقين قلب قد احتوى رسول الله ﷺ بداخله وحاطه وحنا عليه، إنه يقين زوجة آنست من زوجها صفات وخلال قد أجدبت الأرض من أمثالها

---

(١) البخاري ٤٩٥٣

فمن كانت هذه صفاته وهذا خلقه فلن يخذيه الله أبدا، وقد رأت نموذج الرجل الجاهلي الذي تحلى ببعض من مكام الأخلاق فأبقى الله له ذكره ـ رغم شركه ـ فكيف يخْزي الله عبدا قد تجسدت في شخصه الكريم الفضائل كلها، والمحامد بأكملها.

أيقنت خديجة رضي الله عنها أن زوجها هو النبي المنتظر، والرسول المُكلف للناس كافة من لدن رب العالمين فآمنت به وصدقته؛ لتكون أول العالمين إسلاما وتصديقا للرسول ﷺ بلا خلاف، فلم يسبقها أحد إلى الإسلام لا رجل وامرأة؛ لتضرب أروع مثل في الأولين والآخرين، فما فكرت وما ترددت، وإنما صدّقت وآمنت؛ لتحمل مع زوجها همّ الدعوة والتبليغ، تسانده برأيها ومالها، تخفف عنه وتهون عليه ما يلقاه من سفاهات قومه، كان إسلامها أكبر من أن تزعزعه اتهامات قومها لرسول الله ﷺ بالجنون تارة، وبالسحر والكهانة أخرى، ولم يكن إسلامها لكونها زوجة رسول من عند الله، فلما أراد الله تعالى أن يضرب لنا مثلا من سيدات العالمين كان مثل الكفار من زوجات الأنبياء، قال تعالى [ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ] (١) فإن من زوجات الرسُل من كفرن بالله وكذبن الرسل، أما خديجة رضي الله عنها فقد سخرت ما بقي من عمرها ومالها في خدمة دين الله ونشر دعوته، جندت نفسها للذود عن رسول الله ﷺ والتخفيف عنه وموازرته، فما أجّله من هدف وما أعظمه من تكريم، وهكذا الزوجة الصالحة في حياة الدعاة وأصحاب الرسالات، لها دور لا يقل عن دوره، وأثر في إنجاح دعوته وبلوغ هدفه، فالدعاة وأصحاب الرسالات أناس قد جنّدوا أنفسهم لهدف أسمى وغاية عُليا، وأيقنوا أن بلوغها ليس سهل المنال، وأنه بحاجة إلى بذل وعطاء وتضحية وفداء، والأسرة أول ضحية في هذا العطاء، فربما قصّر في حق الزوجة والأبناء، وربما تعرض للاضطهاد والإيذاء، وربما لضياع المال والأعمال، فإن فقد الإنسان كل هذا ومعه مساندة أقرب الناس إليه وإيمانهم بسمو هدفه وتعاليه، فإن البلاء يكون أشد والاختبار أعظم، لذا جعلها رسول الله ﷺ وصية باقية لمن آمن به وصدّقه ألا يحرم نفسه حسن الاختيار ويظفر بزوجة تكون عونا له في طريق الطاعة، ودافعا إلى الأمام، لا مثبطا ومجهضا للطموح والآمال، فقال ﷺ " ليتخذ أحدكم قلبا شاكرا ولسانا ذاكرا وزوجة صالحة تعينه على أمر الآخرة "(٢)

---

(١) {التحريم: ١٠}

(٢) السلسلة الصحيحة٥/٢٠٨ حديث٢١٧٦

لقد كانت خديجة رضي الله عنها نموذجًا فريدا من نوعه، عجيب في أمره، فقد أبلت بلا مُقابل، وأعطت بلا حساب وصدقت بلا أدنى شك، إنها السيدة التي عاشت في ظلمات الجاهلية قرابة نصف قرن، وما أن التمست دفء الأمان مع رسول الله ﷺ حتى كانت له نعم الزوجة التي تُعين زوجها على حوائج الدهر، ولما علمت من صفاء نفسه ما علمت احترمت حبه للخلوة، وطول تأمله، وميله للعزلة، فلم تضجر، ولم تمل، وإنما كانت له عونا بنفسها ومالها، وظلت هكذا قرابة خمسة عشر عاما، حتى اصطفاه الله لرسالته واختاره لنبوته، فكانت أول العالمين إسلاما وأصدق المؤمنين إيمانا، أزالت عن رسول الله ﷺ كل نصب، وآنسته من كل وحشة، وهونت عليه كل محنة، وجعلت نفسها ومالها في خدمة رسالة الإسلام، فكانت المأوى الآمن لرسول الله ﷺ والصدر الحنون الذي يُهوّن عليه ما يجد، فكلما ضاقت عليه الدنيا بأهلها، كانت نعم الصديق ونعم الزوجة ونعم المؤمنة الصدّيقة، ولمدة عشرة أعوام بعد الرسالة قضتها خديجة وهي تحنو على زوجها وتحتضنه، تُشفق عليه وتحترمه، تؤمن به وتوازره، وتتحمل من أجله الصعاب، فقد أحبّت من أحبه، وعادت من عاداه، تحملت معه ويلات الحصار وفساد التجارة وخسارة الأموال ومشقة الدعوة وعناء التبليغ، وهي من تجاوزت عامها الستون، إنها الصدّيقة التي عاشت ربع قرن من الزمان، وكأنها نسمة مُباركة تهُبّ على رسول الله ﷺ كلما اشتدت عليه الصعاب، وضاقت به السُبل؛ ليجعلها الله المنفث من كل ضيق، والمخرج من كل كرب، والمؤنس من كل وحشة، إنها خديجة المرأة التي سطرت تاريخ النساء في تبليغ الرسالة بصفحات من نور فكانت كل خطواتها هداية لمن جاء بعدها، نموذج حي ينبض للزوجة المسلمة، نموذج تجاوز في كل جزئياته طوق المكان والزمان قد رسمت فيه ملامح الطريق وخطواته لكل من أرادت أن تقتدي بها، فيا لله ما أروعها من نموذج وما أعظمها من امرأة ، حين أرادها الله لجواره، أراد الله أن يُبين فضلها، وأن يُظهر مكانتها، وأن يُثبت حسن صنيعها، وأن يُعلي من ذكرها، فبلغها الله منه السلام، ثم بشرها بمكانها في الجنة وهي في الدنيا، وهذه خصيصة اختصت بها خديجة رضي الله عنها عن كل نساء العالمين، فأتى جبْرِيلُ إلى النَّبيِّ ﷺ فقالَ "يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ، لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ "(١)

---

(١) البخاري ٣٨٢٠ ومسلم ٦٤٢٦

أما ما اختصت به عن باقي أمهات المؤمنين، فإن رسول الله ﷺ لم يتزوج عليها وهي حية، فلم يجمع بينها وبين أحد من النساء وهذا من كرامة الله لها، ثم رزق منها الولد ولم يرزق من غيرها إلا إبراهيم من جاريته مارية ومات صغيرا .

أما رسول الله ﷺ فقد أبقى على ذكراها حتى توفاه الله، لا يمل الحديث عنها والاستغفار لها وإظهار فضلها، فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا ذَكَرَ خَدِيجَةَ أَثْنَى عَلَيْهَا فَأَحْسَنَ الثَّنَاءَ، فَغِرْتُ يَوْمًا فَقُلْتُ مَا أَكْثَرَ مَا تَذْكُرُهَا حَمْرَاءَ الشِّدْقِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا خَيْرًا مِنْهَا، قَالَ « مَا أَبْدَلَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرًا مِنْهَا، قَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ وَرَزَقَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ (١)

إسلام علي وزيد رضي الله عنهما

بدأ رسول الله ﷺ في دعوة المقربين منه، الذين آنس منهم قربا وصدقا، منهم علي بن أبي طالب، ولم يكن عليّ مشركا فيقال أسلم، فقد كان عمره لا يتجاوز العاشرة، وكان يعيش في كفالة النبي ﷺ في منزله بين أهله كأحد أبنائه، فأخفى أمر إسلامه خوفا من أبيه أبي طالب، كما أسلم مولاه زيد بن حارثة، وكان عبدا ملكته خديجة ووهبته للنبي ﷺ فأحسن معاملته، فجاء قومه ليأخذوه فأبى، واختار البقاء مع النبي ﷺ ، فتبناه النبي ﷺ فكان يُسمّى زيد بن محمد حتى أبطل الإسلام التبني، فسُمي زيد بن حارثة، كذلك أسلم بنات النبي ﷺ وبهذا اكتملت أول أسرة مُسلمة؛ لتخرج منها تعاليم رسالة الإسلام إلى الدنيا جميعا .

(١) مسند أحمد٦ ، ١١٧ بإسناد حسن وحمراء الشدق: أي سقطت أسنانها وبقيت حمرة اللثاث. وقال ابن كثير في السيرة (ج ١ / ص ١٣٦)تفرد به أحمد وإسناده لا بأس به ولعل قوله "ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء " كان قبل أن يولد إبراهيم بن النبي ﷺ من مارية، وقبل مقدمها بالكلية .

إسلام أبو بكر الصديق والرعيل الأول من المسلمين

هو عبد الله بن عثمان بن عامر القرشي التيمي ﷺ، لقبه أبو بكر بن أبي قحافة، كنيته عتيق، كان معظما في قريش، على سعة من المال، حسن الوجه، أنيق المنظر، أعلم قريش بالأنساب، وبما فيها من خير وشر، من أعلم الناس بتعبير الرؤيا، صادقا في حديثه، حسن المجالسة، محبا للخير، وفيا للعهد، بسيطا في معاملاته، ذا مكانة عالية بين قومه، حتى إنهم اختاروه قاضيا في المغارم والديّات، وحكما في المفاخرات، كانت مكانته بين ذوي المصالح والأموال مرموقة، فهو إن لم يكن من أثريائها إلا أنه كان خبيرا في شئون التجارة وإدارة الأموال، أما رصيده الثقافي فقد جعله من صفوة أهل مكة، وجلسائه هم صفوتها، فما كان أحد أعلم بأنساب قريش خاصة والعرب قاطبة وأيامها وتاريخها منه، لذا كان غالبية جلسائه من ذوي أهل العلم وطلابه، وهذا ما جعل تأثيره بالغ على ذوي النفوذ المالي والصفوة العلمية، خاصة من الشباب الذين كانوا يرون فيه القدوة، ورجاحة العقل، ناهيك عن كونه مرجعا علميا لما يستعصي عليهم فهمه في الأنساب والتاريخ .

أيقن أبو بكر ببطلان معتقدات قومه، فما شاركهم في ضلالاتهم، وما سجد لأصنامهم وما أقر ببدعهم، ورجلٌ بهذه الصفات جدير بأن يُجالس من هو مثله، لا أن يُجالس أهل الشرك والضلال، أهل الفسق والمجون، فإن لم تكن هناك عقيدة تُهذب أخلاقهم، فهناك فطرة ترشد عقولهم إلى التعفف عما يشين المرء من أخلاق .

تطلع أبو بكر في وجوه السادة والشرفاء؛ ليبحث عن رفيق يؤانسه حياته، فالعيش بلا رفيق يشاركك هم الحياة وأحوالها كسجن كبير تلامس أطراف أسواره، ولا ترى الحياة خارجه، فوجد ضالته في رسول الله ﷺ فكأنه القمر بين نجوم متناثرة، لا يضل عنه قصد، فاتخذه صاحبا ورفيقا، واصطبغ بأخلاقه وصفاته، فكان التقارب بينهما واضحا، اشتركا في كثير من الصفات والأخلاق، ويظهر هذا جليا في وصف ابن الدغنة ـ سيد الأحابيش ـ لأبي بكر، فعن عائشة رضي الله عنها قالت " فَلَمَّا ابْتُلِيَ الْمُسْلِمُونَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا قِبَلَ الْحَبَشَةِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَرْكَ الْغِمَادِ لَقِيَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ ـ وَهُوَ سَيِّدُ الْقَارَةِ ـ فَقَالَ أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ ؟فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ أَخْرَجَنِي قَوْمِي فَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ فِي الأَرْضِ فَأَعْبُدَ رَبِّي . قَالَ ابْنُ الدَّغِنَةِ إِنَّ مِثْلَكَ لاَ يَخْرُجُ وَلاَ يُخْرَجُ ، فَإِنَّكَ تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَقْرِى الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، وَأَنَا لَكَ جَارٌ فَارْجِعْ فَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبِلاَدِكَ . فَارْتَحَلَ ابْنُ الدَّغِنَةِ ، فَرَجَعَ مَعَ أَبِى بَكْرٍ فَطَافَ فِي

أشْرافِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فقالَ لهُمْ إنَّ أبَا بَكْرٍ لا يَخْرُجُ مِثْلُهُ، ولاَ يُخْرَجُ، أتُخْرِجُونَ رَجُلاً يُكسِبُ المَعْدُومَ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ، وَيَحْمِلُ الكَلَّ، وَيَقْرِي الضَّيْفَ، وَيُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ. (١) فجاء وصفه للصديق بمثل ما وصفت به خديجة رضي الله عنها رسول الله ﷺ حين قالت له ((إنَّكَ لتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ))

وهذه من ثمار الصداقة النافعة، أن تتحلى بمكارم أخلاق من تصاحبه، فترتقي به ويرتقي بك، لا أن تصاحب من يقودك إلى الرذيلة والانحطاط فيغمسك في بحر الأهواء والمعاصي، قال رسول الله ﷺ « المَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ » (٢) فقد كان إسلام أبو بكر نتيجة طبيعية لاتخاذه رسول الله ﷺ أخا وصاحبا، كما كان إسلام من أسلموا على يديه نتيجة لاتخاذهم أبا بكر صاحبا، فلتنظر من تُصاحب، فبه يعرفك الناس وبه تعرف نفسك، لأنه مرآتك وعليه شق كبير في تكوين حياتك وتحديد مصيرك، فهو واحد من اثنين، إما مُعين على الطاعة وإما مُعين على المعصية

وَاخْتَرْ قَرِينَكَ وَاصْطَفِيهِ تَفَاخُـراً   إنَّ القَرِينَ إلَى المُقَارَنِ يُنسَـبُ

كان أبو بكر رجلا كثير الأسفار، ولطالما سمع ممن تنصروا وعاشوا في مكة، ومن أحبار اليهود الذين كان يقابلهم في أسفاره، أن نبيا قد أظل زمانه، وإن كان أمر النبوة ووحي السماء ليس بالجديد على مسامع العرب، إلا أن الفساد القائم جدير بأن يجعله لهو حديث، فيسخر منه كل من يسمع به، أما أبو بكر فقد تهيأت نفسه لاستقبال نبأ عظيم متعلق بالرسل والرسالات، فنبذ الفساد الذي عاش عليه قومه ظاهرا وباطنا، وأيقن أنهم يدينون بعقيدة لا تملك لهم خيرا تعدهم به إن هم آمنوا بها، ولا شرا لتوعدهم به إن هم كفروا بها، وإنما هي أصنامٌ لا تملك لهم ضرا ولا نفعا، وظل هكذا حتى نزل الوحي من السماء على رسول الله ﷺ وأُمر بالتبليغ، فدعا رسول الله ﷺ أبا بكر إلى الإسلام، فما كان من الصديق إلا أن قال آمنت بالله وبرسوله، فكان أبو بكر أول من أسلم من خارج بيت النبي ﷺ ، وهو أول من أسلم وله منعة بين قومه، وأول من أسلم ودعا إلى الله ورسوله، قَالَ عنه النَّبِيُّ ﷺ مدافعا عنه بين أصحابه « إنَّ اللهَ بَعَثَنِي إلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ كَذَبْتَ، وَقَالَ أبُو بَكْرٍ صَدَقَ، وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ ، فَهَلْ أنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي » (٣)

---

(١)البخاري٢٢٩٧

(٢)سنن أبي داوود٤٨٣٥وسنن الترمذي ٢٥٥٢وقال حسن غريب ومسند أحمد٨٦٤١والللفظ له وحسنه الألباني في سنن أبي داوود ٢٥٩/٤حديث٤٨٣٣ وفي السلسلة الصحيحة٩٧/٢ه٥حديث٩٢٧

(٣) البخاري ٣٦٦١

ملأ إسلام أبي بكر ﷺ قلب النبي ﷺ سرورا وأملا، فهو ليس بذاك الرجل الذي لا يبالي أقدّم شيئا للدعوة أم مر عليها مرور الكرام، وإنما أخذ الصدّيقُ على عاتقه هَمَّ الدعوة إلى الإسلام، فجنّد نفسه وحياته لخدمة الرسالة منذ اللحظة الأولى فأسلم على يديه جمع من الصحابة، كان لهم المكانة العُليا في الدين، وفي قلب الرسول الكريم ﷺ منهم عثمان بن عفان الأموي، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف الزهري، وسعد بن أبي وقاص الزهري، وطلحة بن عبيد الله التيمي - وهؤلاء سادة في أقوامهم - وهم خمسة من العشرة المبشرين بالجنة - فكانوا أول من أسلم وحمل على عاتقه أمر الدين والدعوة إليه .

لقد كان أبو بكر ﷺ كنزا خبأه الله لنبيه ورسالته، فما أن أسلم حتى جعل الدعوة إلى الله همه الدائم، وشغله الشاغل وهدفه الحثيث، ينظر إلى الرجال فيستقطب أخلص العقول وأصفاها، وأقربها سلامة إلى الفطرة، فيدعوها إلى الله ورسوله، أنفق كل ماله غير مرة في سبيل الله، فيوم أسلم كان يملك أربعين ألف درهم، ومات وما ترك دينارا ولا درهما(١) أعان المستضعفين من المسلمين، فجعل ماله وسيلة لنصرتهم، فأعتق منهم رقابا كثيرة، كان ودودا رحيما بالمؤمنين، حتى قال عنه رسول الله ﷺ « أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ » (٢) وهذه أهم صفات الدعاة المخلصين، بل إن أهم أسباب قبول الداعية أن يكون بالناس رحيما، ليس بفظ ولا غليظ، طيب الحديث، حسن المجالسة، بشوشاً ودوداً، فالداعية رسول لم يُبعث إليه، ولا بد أن يتحلى بكل أخلاق الأنبياء إن أراد لدعوته النصرة والتمكين، وكل هذه الصفات جمعها أبو بكر ﷺ، فكان طرازاً مميزاً من الدعاة، استطاع أن يستقطب فئة ربما تبدو في الظاهر غير معنية بدين ولا برسالات، إنهم أصحاب النفوذ والسُلطان، وأهل المال والتجارة، بل وجعل منهم النواة الأولى التي حملت على عاتقها عبء التبليغ ومشقة الجهاد .

لكن ماذا كان يعرف أبو بكر من أمور الدين كي يدعو إليه ويستجيب له هؤلاء الرجال وهم من قومهم بمكانة ؟! كم من الآيات والأحاديث كان يحفظ ؟ كم من الأحكام كان يفقه؟ إن الدعوة الصادقة إلى الله ورسوله ليس لها مختصون يختكرونها دون غيرهم، فالصدّيقُ ﷺ ما كان يعلم يومها سوي أن الله واحد أحد له ملك كل شيء، وأن محمداً ﷺعبده ورسوله، وأن الله جامع الناس ليوم يحاسبهم فيه على أعمالهم وأن الجنة دار من أطاع الله، وأن النار دار من عصى الله، كان هذا هو كل ما عند أبي بكر ﷺ عن الإسلام، ومع ذلك دعا إليه

---

(١) صفة الصفوة - (ج ١ / ص ٢٤٢) (٢)سنن الترمذي ٤١٦٠وقال حَسَنٌ صَحِيحٌ وسنن ابن ماجة ١٥٩ومسند أحمد١٣٢٤٢وصححه الألباني في جامع الترمذي ٣٧٩١وفي الصحيحة ١٢٢٤

فآمن على يديه رجال من خيرة الرجال، وهبوا حياتهم للدين والدعوة، فكان لهم جزيل العطاء، فهذا الرعيل الأول الذي أسلم على يدي أبي بكر كان له السبق في الإسلام وفي قلب رسول الله ﷺ .

اما هؤلاء الصحابة، فكانت قناعتهم بصدق رسول الله ﷺ وامانته اكبر دعوة إلي هذا الدين؛ ليتبعوه، فمن لم يُعلم عنه كذبٌ أو خيانة قط في حق البشر، أيكون أول كذبه على الله عز وجل ؟!

وهذا ما جسده جعفر بن أبي طالب ﷺ في خطابه للنجاشي فكان مما قاله له " أيُها المَلِكُ كُنّا قوْماً أهْلَ جَاهِلِيّةٍ نَعْبُدُ الأصْنَامَ وَنَأكُلُ المَيْتَة وَنَأتِي الفَوَاحِشَ وَنَقطعُ الأرْحَامَ وَنُسِيءُ الجِوَارَ يَأكُلُ القَوِيُّ مِنّا الضّعِيفَ فكُنّا عَلَى ذَلِكَ حَتّى بَعَثَ اللّهُ إليْنَا رَسُولاً مِنّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقهُ وَأمَانَتَهُ وَعَفافَهُ فدَعَانَا إلى اللّهِ لِنُوَحّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلعَ مَا كُنّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الحِجَارَةِ وَالأوْثَانِ وَأمَرَنَا بِصِدْقِ الحَدِيثِ وَأدَاءِ الأمَانَةِ وَصِلَةِ الرّحِمِ وَحُسْنِ الجِوَارِ وَالكَفّ عَنِ المَحَارِمِ وَالدّمَاءِ وَنَهَانَا عَنِ الفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزّورِ وَأكْلِ مَالِ اليَتِيمِ وَقذفِ المُحْصَنَةِ وَأمَرَنَا أنْ نَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَأمَرَنَا بِالصّلاةِ وَالزّكَاةِ وَالصّيَامِ – فَعَدّدَ عَلَيْهِ أمُورَ الإسْلامِ - فصَدّقْنَاهُ وَآمَنّا بِهِ وَاتّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ فعَبَدْنَا اللّهَ وَحْدَهُ فلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئاً وَحَرّمْنَا مَا حُرّمَ عَليْنَا وَأحْلَلْنَا مَا أحِلّ لنَا.(١)

وهذا أيضا ما بينه أبو سفيان - قبل إسلامه - في جوابه لهرقل عظيم الروم حينما سأله عن رسول الله ﷺ فكان مما سأله عنه: كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قال هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ، قالَ فَهَلْ قَالَ هَذَا القَوْلَ مِنْكُمْ أحَدٌ قطُ قَبْلَهُ ؟ قال لا ، قالَ فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ قال لا، قَالَ فَأشْرَافُ النَّاسِ يَتْبَعُونَهُ أمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ قال بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ ، قَالَ أيَزِيدُونَ أمْ يَنْقُصُونَ؟ قال بَلْ يَزِيدُونَ، قَالَ فَهَلْ يَرْتَدُّ أحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أنْ يَدْخُلَ فِيهِ ؟ قال لا ،قَالَ فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالكَذِبِ قَبْلَ أنْ يَقُولَ مَا قَالَ ؟ قال لا ، قَالَ فَهَلْ يَغْدِرُ قال لا، قَالَ مَاذَا يَأمُرُكُمْ ؟ قال يَقُولُ اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأمُرُنَا بِالصَّلاَةِ وَالصِّدْقِ وَالعَفَافِ وَالصِّلَةِ .

فَقَالَ هرقل لِلتَّرْجُمَانِ: قُلْ لَهُ سَألْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ، فَذَكَرْتَ أنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا

وَسَألْتُكَ هَلْ قَالَ أحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا القَوْلَ فَذَكَرْتَ أنْ لاَ، فَقُلْتُ لَوْ كَانَ أحَدٌ قَالَ هَذَا القَوْلَ قَبْلَهُ لَقُلْتُ رَجُلٌ يَأتَسِي بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ ،وَسَألْتُكَ هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ

---

(١)مسند أحمد ١٧٦٦ وصححه الألباني في فقه السيرة

فذكَرْتَ أنْ لا، قُلتُ فلوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ قُلتُ رَجُلٌ يطلبُ مُلْكَ أبِيهِ.
وَسَألتُكَ هَلْ كُنتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بالكَذِبِ قَبْلَ أنْ يَقُولَ مَا قَالَ فَذكَرْتَ أنْ لا، فَقدْ أعْرِفُ أنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ، وَسَألتُكَ أشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أمْ ضُعَفَاؤُهُمْ فَذكَرْتَ أنَّ ضُعَفَاءَهُمُ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أتْبَاعُ الرُّسُلِ (١)

إن الله عز وجل أرسل رسوله وجمله بالصفات والأخلاق التي تجعل منه حجة على قومه بصدق ما جاء به، لذا جعل الله عز وجل سيرته قبل الوحي حجة عليهم، فقال [قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ](٢) أربعون عاما قبل البعثة لم يُعرف عنه إلا الصدق والأمانة، لم يأت بغريب قول، أو مستنكر خُلق، أو بذيء لفظ، أقرّ ببطلان معتقدات قومه، فلم يجاريهم في باطلهم، نبي أمي لم يقف يوما فيهم خطيبا كالخطباء، ولا شاعرا كالشعراء، لم يجالس راهبا أو فيلسوفا فيؤتى جوامع الكلم ومنطق الحكم، قضى طيلة عمره بين أظهرهم، رأوه وليدا، وشابا يافعا، ثم زوجا وأبا، حتى أتم عامه الأربعون ولم تُعرف عنه ذلة واحدة، أو هفوة مُنكرة، أليست كافية على أن تكون دليلا على صدقه! فما أقبحها من عقول تريد الحق وفق هواها، وتأبى أن يكون هواها وفق الحق.

لقد كان الظلام المتفشي في كل صور الحياة الجاهلية دافعا لكثير من ذوي العقول المستنيرة؛ لتقف من معتقدات قومها موقف الناقض المتبين له فساد عقائدهم، حتى جاءتهم دعوة الإسلام من رجل ما عرفوا عنه إلا الصدق والأمانة، فما كان منهم إلا أن لبّوا واستجابوا، غير مبالين بما يكون من موقف أقوامهم منهم.

كان الرعيل الأول من المسلمين من أكثر الناس عطاءً لهذا الدين، فلم يقف أمر الدين عندهم على مجرد ألفاظ تتفوه بها الألسن، بل إنهم جعلوه هدف حياتهم، فدعوا إليه كل من آنسوا منه رشدا وهداية، واستشعروا قدر المسئولية الملقاة على عاتقهم تجاه هذه الدعوة الوليدة، فأمن على أيديهم الصدر الأول من المسلمين، أهل السبق والفضل، منهم: أمين الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح، وأبو سلمة المخزومي وامرأته أم سلمة، وعثمان بن مظعون، وسعيد بن زيد بن نفيل وامرأته فاطمة بنت الخطاب شقيقة الفاروق عمر، وخبّاب بن الأرت، وجعفر بن أبي طالب وامرأته أسماء بنت عميس، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن جحش، وبلال بن رباح، وعمار بن ياسر، وصهيب الرومي، وعامر بن فُهيرة، والأرقم بن أبي الأرقم، وأسماء بنت أبي بكر

---

(١) البخاري ٧ (٢) [يونس:١٦]

وأم أيمن حاضنة الرسولﷺ، وأم الفضل امرأة العباس، وغير هؤلاء كثير أسلموا قبل الجهر بالدعوة، كانوا خليطا من الناس ليس لهم سمة غالبة، فأسلم الوجهاء في أقوامهم كعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وأسلم التجار والأعيان كأبي بكر، وطلحة بن عبيد الله، وأسلم الموالي كصهيب، وخبّاب، وأسلم العبيد كبلال، وعبد الله بن مسعود، وأسلم من النساء جمع غفير، فالإسلام ليس دعوة طبقية تبناها الضعفاء والعبيد ضد السادة والأغنياء، وإنما رسالة آمن بها وصدّقها جمع غفير من كل الفئات والطبقات .

الدِعوة السرية ومراحل بناء الشخصية المُسلمة

ظلت الدعوة في طورها السري قرابة الثلاث سنوات، واقتضت الحكمة الإلهية أن تظل هذه الدعوة سرية طوال هذه المُدة؛ ليزداد أتباعها قبل الجهر بها، فلا تقتصر على أفراد قلة يمكن أن يُحاصروا، كما أن الدعوة السرية في مجتمع تفشى فيه الفساد أدعى إلى استقطاب أرجح العقول التي تنتقد هذا الفساد، وهذه العقول هي أصفى العقول التي يمكن أن تدعو إلى الإسلام بإيمان صادق، وهي أصدق القلوب تضحية من أجله، كما أن تناقل الخبر بين أهل مكة أن دينا جديدا يُدعى إليه لم يُجهر بدعوته يكون بمثابة تهيئة للدعوة الجهرية، فلا يكون أمر الدعوة مفاجئا تقف عنه العقول، وإنما يتدرج الخبر في انتشاره، حتى إذا جاء الأمر بالجهر بالدعوة تكون عقولهم قد تهيأت لاستقباله، كما أنها لم تكن فقط توطئة للجهر بها، وإنما إتماما لمراحل إعداد الرسولﷺ لحمل الرسالة، فقد بلغ النبي ﷺ بعدها ذروة اليقين بتأييد الله ونصره .

شمّر رسول الله ﷺ عن ساق الاجتهاد، وأخذ يدعو كل من آنس منه رشدا وصلاحا، وبدأ يرسم ملامح الجماعة المُسلمة، بداية بالفرد المُسلم، وما يجب أن يتحلى به، فاتخذ عدة خُطوات كانت البداية الحقيقة لتشكيل شخصية الفرد المُسلم، وتهيئته للتعامل مع كافة المستجدات بقدرة وحكمة ومرونة، على أنها لم تقتصر على الفترة السرية من حياة الدعوة، وإنما أخذت في الاستمرار والترقي وتنوع الأساليب طيلة حياة رسول الله ﷺ، فحياة المسلم متجددة دائما، وفقا لمستجدات الحياة، وتغيرات الواقع، وتلك سمة بارزة في الشخصية المسلمة التي لا تعيش بمعزل عن العالم المحيط بها.

أولا: اتخذ الرسول الكريم ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم مقرا لاجتماع المسلمين والدعوة إلى الإسلام، وهذا الاختيار تجمعت فيه شروط عدة تضمن أمن المسلمين وسرية الدعوة، فقد كانت الدار قريبة من الصفا وسط حركة الناس بحيث يصعب رصد تحركات خاصة لأناس معينين، كما أن إسلام الأرقم لم يكن معروفا، فهو شاب صغير لم يتجاوز السادسة عشر، مما يستبعد نصرته لرسول الله ﷺ وإيوائه ومن آمن معه، فكانت داره أول مدرسة في الإسلام تخرج فيها كبار الصحابة، لم تكن قاصرة على جانب العقيدة فقط، وإنما شملت بناء الشخصية المُسلمة من كافة الجوانب، فالدعوة لن تظل حبيسة بين هؤلاء، وبهؤلاء وأمثالهم ستتكون النواة الأولى للدولة الإسلامية، فلم يكن أمر الدين عندهم آيات تُتلى وعبادات تؤدى، وإنما رسالة وليدة تحتاج إلى من يؤمن بها ويدعو إليها، لذا لم يكن الأمر قاصرا على شرح تعاليم الدين، ومعرفة الخالق، ووسائل التقرب منه، وطرق عبادته فحسب، وإنما منهج مُتكامل لوجود حقيقي للجماعة المسلمة في واقع الحياة، أي أن يكون الإسلام دين يُتقرب به من الخالق سبحانه ودولة تجسد منهجه في واقع الحياة، وتجعله أساس كل تشريع، ليس طقوسا تؤدى وواقع الحياة عنها في شُغل!

إن رسول الله ﷺ كان يسير بدعوته وفق خطوات محسوبة، ومنهج أشرفت على خطواته العناية الإلهية، وولي مراحل تطبيقه نبي مُرسل تحفظه عناية الله تعالى، وهدف هذا المنهج هو التطبيق العملي للإسلام في واقع الحياة، بتكوين الدولة المُسلمة وفقا للتدرج الذي اقتضته الحكمة الإلهية في تربية الأفراد والأمم على السواء، وهذه هي الحقيقة الغائبة عن أذهان كثير من مسلمي اليوم، أن يكون الإسلام عقيدة ومنهج حياة، لا عبادات تؤدى، وسلوكيات المسلمين وأخلاقهم وتعاملاتهم غير نابعة ولا مرتكزة على العقيدة التي يؤمنون بها .

ثانيا: ومن أجل تطبيق هذا المنهج انشغل رسول الله ﷺ بإعداد أصحابه من كافة المناحي؛ ليكونوا كُلا متكاملا لا أجزاء مُنفصلة، ليكونوا جماعة واحدة، لا أفراد منعزلين، ليكونوا قلوبا عدة في صدر واحد، فبدأ النبي ﷺ برسم ملامح الشخصية المُسلمة التي تتميز في سمتها، وفكرها، ونظرتها عن تلك الشخصية التي أفرزتها البيئة الجاهلية، فكانت أسس التربية النبوية مرتكزة على ما يلي:

١- **التربية الإيمانية**: فالبناء العقائدي أساس الدعوة إلى الإسلام، لذا ظل شغل رسول الله ﷺ الشاغل طيلة العهد المكي، وما بعده، لأنه جوهر الرسالة، وبه تستقيم العبادة، وعليه تقوم مجمل التكاليف والعبادات

ولهذا جعله القرآن محور الحديث، وجوهر النقاش، وأصل الخلاف، فجاءت معظم الآيات المكية تدور في فلك الدعوة إلى التوحيد وإثباته بالحجج العقلية، والبراهين الدامغة، ثم توثيق باقي أركان الإيمان، حتى إذا ثبُت الجانب العقائدي وغرس الإيمان في القلوب، توالت التكاليف تباعا، فالعقيدة وحدها هي القادرة على حث المسلم على البذل والعطاء، والصبر والثبات، مهما اشتدت المحن، وعظمت الابتلاءات، فجعل رسول الله ﷺ البناء العقائدي الركيزة الأساسية التي يقوم بها هذا الدين، وجعل التطهير من دناءات الجاهلية وشركها، سمة أساسية في الشخصية المُسلمة، فاعتمد على ترسيخ الثوابت العقائدية فيما يتصل بالتوحيد، والإيمان بالغيب، والبعث، ونبذ كل صور الشرك والضلال ظاهرا وباطنا، والسمع والطاعة لله ورسوله، والرضا بالقضاء، والإخلاص في السر والعلانية، والصدق في القول والعمل، فهيأهم إلى استقبال مستجدات التكاليف والعبادات، وتجسيد القرآن في أخلاقهم وأفعالهم وأقوالهم، حتى يشعر الناس بفارق الحياة والأخلاق تحت راية الإسلام، كما اعتمد على إشراك أصحابه في مسئولية الدعوة إلى الله ورسوله، فأشعر كل واحد منهم بعِظم المسئولية الملقاة على عاتقه، فكان لسلامة الفطرة التي اتسم بها العرب دور بارز في تقبلهم لكل هذه التكاليف وتعاليم الإسلام، وإيمانهم بها، فرغم ما بدأت به الدعوة من تعجب واستنكار في الجانب العقائدي إلا أنهم سرعان ما تقبلوا هذه التعاليم، وأقروا بها قياسا بغيرهم من الأمم الذين بُعث إليهم رسلهم لا يدعونهم لشيء سوى التوحيد، فلم يجدوا من يستجيب ويُصدِّق.

كان من ثمار التربية الإيمانية سرعة استجابة الصحابة لهذه التكاليف، والتعامل معها على أنها شرع إلزامي يستوجب الطاعة المُطلقة لله ولرسوله ﷺ، وما أن انتهى العهد المكي حتى تعلقت قلوب الصحابة بالوحي وتعاليم الإسلام، ينتظرونها على شوق ولهفة، فقد استقبلوا القرآن وكأنه قد جاء ليروي قلوبهم بعد ظمأ طويل، بل إنهم كانوا يتعجلون الفرائض والأحكام والأوامر والنواهي.

٢- **التربية الدعوية:** كانت التربية الدعوية خطوة فيصلية في بناء الشخصية المسلمة، لأن تجسيد ما تعلموه في واقع الحياة والدعوة إليه هو استجابة لتعاليم الإسلام، وقد كان شُغل النبي ﷺ الشاغل أن يُعلم أصحابه كيف يُقيمون الحجة على من يدعونه بصدق ما يدعون إليه وبطلان ما دونه؟ ومن تأمل سيرة رسول الله ﷺ يمكن له أن يرسم ملامح المنهج الدعوي الذي سلكه رسول الله ﷺ منذ بداية دعوته، فهي تبدو كحلقات متتالية كل حلقة تقود إلى التي تليها، فبدأ ﷺ بوسيلة القول والجهاد بالقرآن وإظهار الحجة على من عانده

[فلا تُطِعِ الكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا](١) ولأهمية هذه الوسيلة وقوة تأثيرها، ولأن الوضع الراهن آنذاك كان لا يقبل وسيلة أخرى، فقد استمرت هذه الوسيلة طيلة العهد المكي، حتى هاجر رسول الله ﷺ وأقام دولة الإسلام وصار أمره فيها مُطاعا، فاتخذ وسيلة لحماية دولة الإسلام فحرّك السرايا والغزوات، واتخذها وسيلة للدفاع عن الدعوة وحمايتها ممن تتعارض مصالحه مع إقامتها، وممن تُسوّل له نفسه الاجتراء عليها، وظلت هذه الوسيلة حتى تشكلت الملامح السياسية للدولة الإسلامية، وفرضت نفسها على الخريطة السياسية في الجزيرة العربية، وأقر بقوتها القاصي والداني، حتى كان صُلح الحديبية، فكان نقطة فاصلة في عمر الرسالة ووسائل الدعوة إليها، فاتخذ رسول الله ﷺ وسيلة بلاغية، وهي الكتب والرسائل، وجعلها الوسيلة؛ لتحقيق عالمية الرسالة، وتبليغ الدعوة إلى العالم الخارجي، فلما دخل الناس في دين الله أفواجا كانت آخر وسائله ﷺ إرسال البعوث إلى كل أرجاء الجزيرة؛ ليقوموا بمهمة البلاغ، والتعليم؛ وليرسخوا تعاليم الدين بين القبائل المنتشرة في كل ربوع الجزيرة العربية، فتشكلت ملامح التربية الدعوية طيلة حياة النبي ﷺ لتأتي الوسيلة وفقا لما تقتضيه ظروف الزمان والمكان وطبيعة الأشخاص، فوسائل الدعوة يفرضها الواقع وظروفه، وما جاز مع فئة قد لا يجدي نفعا مع غيرها، فالعرب لم يكونوا يدينون بدين له معالم واضحة ومنهج محدد؛ ليقارنوا بين هذا وذاك، وإنما أحجار يعبدونها من دون الله، وبلا شك دعوة رجل يسجد للصنم ويعتقد أنه من يرزقه تختلف عن دعوة أهل الشرائع السماوية من يهودية ونصرانية، فهم أهل عقيدة ينتمون إليها ويتعصبون لها، ويُقرون بصدقها وصلاحيتها، لذا فإن دعوتهم بحاجة إلى أسلوب آخر ووسيلة أخرى لاستقطابهم إلى هذا الدين، فرسم رسول الله ﷺ المنهج الدعوي الذي يُلائم أفكارهم ويُظهر الإسلام كعقيدة بديلة لما يؤمنون به، وذلك بفهم حقيقة ما يؤمنون به أولا، ثم تحديد مواضع النقص والخلل في هذه العقيدة، ثم إظهار الإسلام كبديل لها خال من أي نقص أو خلل، وهذا المنهج الدعوي اتبعه النبي ﷺ مع عدي بن حاتم الذي منعته العزة - أول الأمر - في أن يدخل في دين الإسلام، لما رأى من ضعف المسلمين وهوانهم على الناس .

قال عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ " دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لِي « يَا عَدِيُّ بْنَ حَاتِمٍ أَسْلِمْ تَسْلَمْ » ثَلاثًا، قُلْتُ إِنِّي عَلَى دِينٍ. قَالَ « أَنَا أَعْلَمُ بِدِينِكَ مِنْكَ »فَقُلْتُ أَنْتَ أَعْلَمُ بِدِينِي مِنِّي! قَالَ « نَعَمْ أَلَسْتَ مِنَ الرَّكُوسِيَّةِ وَأَنْتَ تَأْكُلُ مِرْبَاعَ قَوْمِكَ » قُلْتُ بَلَى.

---

(١) [الفرقان: ٥٢]

قالَ « فإنَّ هذَا لا يَحِلُّ لكَ فِي دِينِكَ »قالَ عدي فلَمْ يَعْدُ أنْ قالَهَا فتَوَاضَعْتُ لهَا، فقالَ ﷺ « أمَا إنِّي أعْلَمُ مَا الّذِي يَمْنَعُكَ مِنَ الإسْلامِ، تَقُولُ إنَّمَا اتَّبَعَهُ ضَعَفَةُ النَّاسِ وَمَنْ لا قُوَّةَ لهُ وَقدْ رَمَتْهُمُ العَرَبُ، أتَعْرِفُ الحِيرَةَ » قلْتُ لمْ أرَهَا وَقدْ سَمِعْتُ بِهَا، قالَ ﷺ « فوَالّذِي نفْسِي بِيَدِهِ ليُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الأمْرَ حَتَّى تَخْرُجَ الظّعِينَةُ مِنَ الحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالبَيْتِ فِي غَيْرِ جِوَارِ أحَدٍ وَليَفْتَحَنَّ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ »قلْتُ كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ؟ قالَ « نعَمْ كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ وَليُبْذَلَنَّ المَالُ حَتَّى لا يَقْبَلَهُ أحَدٌ » قالَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ فهَذِهِ الظّعِينَةُ تَخْرُجُ مِنَ الحِيرَةِ فتَطُوفُ بِالبَيْتِ فِي غَيْرِ جِوَارٍ وَلقدْ كُنْتُ فِيمَنْ فتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَالّذِي نفْسِي بِيَدِهِ لتَكُونَنَّ الثّالِثَةُ لأنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قدْ قالهَا.(١)

فانظر إلى المنهج الدعوي في احتواء الآخر ودعوته إلى الدين بالحلم واليسر، لا بالشدة والعُنف، بالحجة والدليل، لا بالجهل والتضييق، فبدأ بدعوته إلى الإسلام، فلما امتنع أثبت له بطلان عقيدته التي يؤمن بها، ثم عالج موطن الضعف الذي كان يعتقده في الإسلام، فأخبره أن الإسلام قادم إلى العزة والقيادة والتمكين، وأن هذا الضعف هو مرحلة وقتية سرعان ما ستزول، وتبدأ بعدها مرحلة التمكين، فالمسلمين لا يتعجلون النصر ولا يعارضون السنن الربانية، بل يُحسنون التعامل معها، فيسيرون بخطى محسوسة وفقا للتدرج الذي جعله الله سُنّة في تربية الأمم، وتأهيلها للقيادة والتمكين، فلما أراد الله عز وجل أن ينتقم من فرعون أمهله حتى ربى موسى عليه السلام داخل بيته؛ ليشب فيكون سببا في هلاكه وقومه، فالمنهج الرباني في الدعوة قائم على الصبر واليسر والتأني، لا على العجلة والشدة والبطش.

لقد كان رسول الله ﷺ الداعية الأول، يتعامل مع المجتمع الذي يعيش فيه بكل مرونة، يفهم طبائع الرجال وأنماط تفكيرهم، فالعبد البسيط ليس كالسيد الوجيه في طريقة التفكير وأسلوب الجدال، وهذا السيد ليس كالشاعر الذائع الصيت فصيح المنطق، وهذا الشاعر ليس كالراهب الذي عنده علم من الكتاب الأول، فكان ﷺ يدخل لكل إنسان من المدخل الذي يفهمه، يلين له القول، يُحسن له المنطق، يبسّط له الأمور، يجمل له التكاليف، ويعطيه صورة كلية عن الدين، أما التفاصيل فتأتي بعد ذلك.

وهذا المنهج الدعوي قد جسّده النبي ﷺ مع عمرو بن سلمة العبسي عندما جاءه يسأله عن الدين والتكاليف، قالَ عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ السُّلَمِيُّ " كُنْتُ وَأنَا فِي الجَاهِلِيَّةِ أظُنُّ أنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلالَةٍ وَأنَّهُمْ ليْسُوا عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَعْبُدُونَ الأوْثانَ

---

(١)مسند أحمد ١٨٧٥٤ والركوسية دين بين النصارى والصابئين والمرباع أن يأخذ الملك الربع من الغنيمة دون أصحابه.

فَسَمِعْتُ بِرَجُلٍ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَارًا فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُسْتَخْفِيًا جُرَءَاءُ عَلَيْهِ قَوْمُهُ فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ فَقُلْتُ لَهُ مَا أَنْتَ ؟ قَالَ « أَنَا نَبِيٌّ » فَقُلْتُ وَمَا نَبِيٌّ ؟ قَالَ « أَرْسَلَنِي اللَّهُ ». فَقُلْتُ وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلَكَ ؟ قَالَ « أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الأَرْحَامِ وَكَسْرِ الأَوْثَانِ وَأَنْ يُوَحَّدَ اللَّهُ لاَ يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ » قُلْتُ لَهُ فَمَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا ؟ قَالَ « حُرٌّ وَعَبْدٌ »
قَالَ وَمَعَهُ يَوْمَئِذٍ أَبُو بَكْرٍ وَبِلاَلٌ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ. فَقُلْتُ إِنِّي مُتَّبِعُكَ.
قَالَ « إِنَّكَ لاَ تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا أَلاَ تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ وَلَكِنِ ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي ». قَالَ فَذَهَبْتُ إِلَى أَهْلِي وَقَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وَكُنْتُ فِي أَهْلِي فَجَعَلْتُ أَتَخَبَّرُ الأَخْبَارَ وَأَسْأَلُ النَّاسَ حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ حَتَّى قَدِمَ عَلَيَّ نَفَرٌ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ فَقُلْتُ مَا فَعَلَ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي قَدِمَ الْمَدِينَةَ ؟ فَقَالُوا النَّاسُ إِلَيْهِ سِرَاعٌ وَقَدْ أَرَادَ قَوْمُهُ قَتْلَهُ فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ. فَقَدِمْتُ الْمَدِينَةَ فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَعْرِفُنِي ؟ قَالَ « نَعَمْ أَنْتَ الَّذِي لَقِيتَنِي بِمَكَّةَ » (١)

فهذا الحديث يرسم صورة متكاملة الجوانب لطبيعة الدعوة في المرحلة المكية عموما، أولها إيضاح الأسس التي انطلق منها رسول الله ﷺ يدعو الناس، بناء أخلاقي وبناء عقائدي « أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الأَرْحَامِ وَكَسْرِ الأَوْثَانِ وَأَنْ يُوَحَّدَ اللَّهُ لاَ يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ » فأي عقل يرد مثل هذا القول؟ وأي فطرة تستنكر هذا المنهج؟ لقد ركز رسول الله ﷺ على ثوابت الدعوة التي تظهر تميزها وصلاحها عن تلك التي سادت البيئة الجاهلية بعقائدها المتناثرة، آلهة شتى لا تنفع ولا تضر، والإسلام يدعو إلى التوحيد الخالص لله عز وجل، فساد وضلال وانحلال، والإسلام يدعو إلى مكارم الأخلاق وبناء مجتمع آمن مترابط، فترى ماذا سيكون الجواب؟ هل يمكن أن يرد هذه الدعوة عاقل بصير؟

قال عمرو بن سلمة " إِنِّي مُتَّبِعُكَ " فقد أيقن أن في إتباعه النجاة، نجاة في الدنيا من ظلمات الجاهلية، ونجاة في الآخرة من عذاب النار .

ثم تأمل حرص رسول الله ﷺ على ترتيب الأولويات وتدرج الدعوة وتحديد المهام « إِنَّكَ لاَ تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا أَلاَ تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ وَلَكِنِ ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي » توجيه نبوي لمبدأ ترتيب الأولويات الدعوية وتحديد الأهداف والتحرك وفق أسس ثابتة ومنهج واضح، فانتشار الإسلام هو الهدف الأكبر في هذه المرحلة، فمتى تحقق الهدف يمكن أن ننتقل لما بعده ، لذا قدمت عودته ودعوته لقومه عن اختيار الصدام مع قريش

---

(١) مسلم ١٩٦٧

ثم انظر إلى حرص النبي ﷺ على سرية دعوته، ضمانا لأمن من اتبعه، فاستخدم التورية في الكلام، فقال له آمن بي « حُرٌّ وَعَبْدٌ » ففهم الرجل بالحر أبي بكر، والعبد بلال ـ رضي الله عنهما ـ وإنما قصد النبي ﷺ أن ممن اتبعني من هو حر، ومنهم من هو عبد.

ثم انظر إلى حرصه ﷺ على سلامة من يتبعونه، فأمنهم الشخصي وسلامتهم له أهمية عنده، كذلك التفافه بأصحابه والتفكير فيهم وتذكره لهم، ولو كان اللقاء ساعة واحده منذ أعوام عدة، فإن المرء لا يتذكر إلا ما أشغل قلبه وعقله « نَعَمْ أَنتَ الَّذِي لَقِيتَنِي بِمَكَّةَ ».

ثم تأمل في منهاج التربية بالأعمال القلبية« ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي » فنقل إليه اليقين بأن أمره سيظهر وسلطانه سيطغى على أهل الشرك والضلال، وهذا اليقين باعث قوي في النفس على الثبات والالتزام.

إن المنهج الدعوي في الإسلام يدور في فلك الوسيلة التي حددها القرآن للدعوة إلى الدين، قال تعالى [ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ] (١) فالحكمة تُعني وضع الشيء في موضعه بغير زيادة أو نقصان، والحكمة في الدعوة تشير إلى فهم أحوال وحاجات المدعوين، وتحديد الوسيلة والأسلوب الأكثر فائدة، ومعرفة الأبواب التي يدخل منها الداعية للناس، وتقديم الدين بالحجج والبراهين لا بالخرافات والأكاذيب، فقد فسر بعض أهل العلم الحكمة بأنها الآيات والأحاديث أي أن الدعوة تقوم على القرآن والسنة النبوية لما فيها من الفقه البين، وإيضاح الحق، والردع عن الباطل.

وإذا كان المنهج في دعوة المشرك للإسلام قائم على الحكمة واللين، فإن هذا المنهج في حق المسلمين أولى، قال تعالى [وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا](٢) فكأنه أمر إلهي للين الجانب لمن آمن بالله ورسوله، والتجاوز عن أخطائهم وهفواتهم، والرفق بهم، والقيام في شأنهم، فإن الدين سلعة غالية لا يعطيها الله إلا لمن أحب؛ وليعلم الداعية أن الدعوة الصادقة إلى الله هي التي تتجرد من كل صراع طبقي، ونزعة عنصرية، ودوافع الكبرياء والعظمة والغرور والجاه وتزكية النفس، قال ﷺ « رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ » (٣)

---

(١)[النحل:١٢٥]　　(٢)[الكهف:٢٨]　　(٣)مسلم ٦٨٤٨

لقد رسم رسول الله ﷺ منهج الدعوة إلى الله بكل جزئياته، فلم يترك بابا إلا طرقه، ولا وسيلة إلا استخدمها، فوضع الأسس الدعوية التي تقوم بها الدعوة، وترك للابتكار جزءاً، وهو المُتعلق بتحديد الوسائل التي تتلاءم مع ظروف المجتمع، وواقع الحياة، وأنماط التفكير السائدة، وكل ما ينقصنا فهم هذا المنهج النبوي في الدعوة، وتبني هذه الأفكار وتجديدها بما يتلاءم وواقع الحياة، ثم تجسيدها في هذا الواقع وفق عمل دعوي منظم، بعد ترتيب الأهداف الدعوية وتحديد الخُطط التي تُقيّم مدى فاعلية هذه الأفكار والوسائل، ومدى تحقيق الأهداف المرجوة، فالعمل العشوائي لا يقود إلى نتائج إيجابية.

لقد غدت مناهج التربية النبوية تهيم في واد بعيداً عن واقع الحياة الذي نحياه، فما أمس حاجتنا في هذا الزمان إلى تطبيق هذا المنهج النبوي في احتواء الآخر وحسن دعوته .

٣- **البناء الاجتماعي :** يُعدّ الهيكل الاجتماعي الشكل العام للجماعة المُسلمة، وكان هدف النبي ﷺ هدم الشكل الاجتماعي للأسرة العربية في المجتمع الجاهلي، وبناء شكل آخر يتصف بأخلاق الإسلام ومبادئه، وما كان هذا ليحدث إلا بدعوة النساء إلى الإسلام، فهن الركيزة الأساسية للنواة الأولى في الجماعة المسلمة وهي الأسرة، فالأمر لن يقتصر على تربية أفراد، وإنما يستلزم أسر مُسلمة، ومن ثم إنجاب جيل مُسلم .

وعلى الرغم من السرية التي أحيطت بها الدعوة في بدايتها، إلا أنها استطاعت أن تستقطب عددا من النسوة ليكنّ السابقات في الإسلام، منهن أم الفضل امرأة العباس، وسمية بنت خياط أم عمار، وفاطمة بنت الخطاب، وأسماء بنت عميس، وأسماء بنت أبي بكر، وأم أيمن الحبشية حاضنة رسول الله ﷺ رضي الله عنهن.

وإن كان انتشار الإسلام بين السيدات كان بطيئا أول الأمر، إلا أن الأمر لم يدم طويلا حتى بدأت ملامح الأسرة المسلمة تطفو على الأفق ذات شكل وملامح مختلفة عن تلك التي تربت في كنف الجاهلية فاصطبغت بأخلاقها فخرج لنا نموذجا كأسرة آل ياسر رضي الله عنهم، وهي أول أسرة مسلمة افتتنت في دينها وعُذبت في الله، حتى قُتلت سُمية أم عمار رضي الله عنها، عذبها أبو جهل وطعنها فماتت، فكانت أولُ شهيدة في الإسلام، إلا أنها ظلت نموذجا خالدا، وسيرة عطرة لمن جاء بعدها من النساء، وهكذا يفعل الإيمان في النفس المؤمنة، ينتشلها من سلبيتها وبلادة أفكارها، إلى آمال أكبر وافق أوسع، يدفعها إلى التضحية بقليل فان؛ لتجني كثيرا باقيا، فأين سمية من أبي جهل قبل الإسلام

إن الإسلام قد أوكل للمرأة مسئوليات جسام، وجعلها شريكا في كل عمل، ومصدر كل قوة للرجل، فهي الأم كنز الفضائل والأخلاق والقيم، وهي الزوجة المُعين والدافع على الطاعة والنجاح والرُقي، وهي الداعية الملتزمة مهما اشتدت الفتن وازدادت الصعاب، وهي المُعلمة والمربية لجيل يشب على تعاليم الإسلام، وهي الطبيبة التي تصون أعراض نساء المؤمنين.

لقد أخرج الإسلام الأسرار الدفينة في نفس المرأة، وأحسن توظيفها، وأعطاها الدفعة التي تنقصها؛ لتتولى مهامها المنوطة بها، لا كما يتوهم السفهاء أنه أهدر حقوقها، وألزمها بجملة من القيود التي تقيد حركتها، وتقتل جوانب إبداعها .

إن نجاح رسول الله ﷺ في إعادة هيكلة المجتمع العربي وتغيير بنيته الاجتماعية لم يكن بمحض الصدفة، ولا بالأمر العشوائي الذي لم يُعدّ له جيدا ويسير وفق خطوات محسوبة ومنهج مرسوم، فالهيكل الاجتماعي في المجتمع الجاهلي كان له شكلٌ وسمة وروابط ممتدة جذورها عبر تاريخ طويل ارتبط في قلوبهم بأصولهم وإرث الآباء والأجداد، وكل هذه الترسبات لا يمكن أن تتغير جملة واحدة، أو أن يُدخِل الإسلام عليها تعديلات شكلية أو حتى جوهرية ويترك الجذور كما هي، فقد تناول رسول الله ﷺ المجتمع العربي هدمًا من أصوله وجذوره، ثم شرع في بناء صرح اجتماعي جديد، هدم فيه كل ما هو متعلق بالجاهلية من الموالاة والجماعات المُتحالفة وشكل القبيلة والنزعات القبلية والشخصية الفردية وشكل الأسرة وما ارتبط بها من مفاسد جاهلية، وبدأ في إعادة تشكيل البناء الاجتماعي وفقا للمنهج الإسلامي وتعاليمه وآدابه وأخلاقه، لتظهر الأسرة في شكل جديد يصطبغ بقيم الإسلام وتعاليمه، وتظهر الأخوة والروابط الوثيقة متصلة بالدين، لا بالعرق والدم .

٤- تعميق الحس الأمني: كان الجانب الأمني من الأهمية بمكان، فالدعوة لا تزال في بدايتها، وهي غنية عن مواجهة الأعداء في هذه المرحلة، فضروري أن تظل حبيسة في صدور من آمنوا بها لا يدعون إليها إلا من آنسوا منه رشدا وهداية، ولأن الرعيل الأول من المسلمين قد تربوا في بيئة غلبت عليها النزعة القبيلة وروح التعصب القبلي في المجتمع العربي، فقد اعتنى رسول الله ﷺ بأمرين كسر بهما هذه النزعة في نفوس كل من يؤمن به ويصدّقه؛ ليعلم أنه مقبل على مرحلة جديدة لا مكان فيها لنعرات الجاهلية وتعصباتها العمياء:

أ - إن رسول الله ﷺ لم يحرص في بداية الدعوة على أن يكون أهله وعشيرته أول من يؤمن به ويصدقه، رغم أن هذا له فائدة عظيمة وعز وتمكين لدعوته وأمان لشخصه، إلا أن رسول الله ﷺ أرجأ هذه الخطوة لمرحلة مُقبلة، فقد فهم رسول الله ﷺ طبيعة المجتمع الذي يعيش فيه، وأنماط التفكير السائدة فيه، فربما صرف الناس أنظارهم عن دعوته إذا خص بها قومه وعشيرته أولا، لما يرون فيها من عز لقومه دونا عن باقي القبائل .

ب - إن دعوة النبي ﷺ لم تكن قاصرة على من أنس منهم رشدا من بطون قريش وأهل مكة فقط، وإنما دخل في الإسلام مبكرا جدا غير واحد من قبائل خارج مكة، كعبد الله بن مسعود من قبيلة هُذيل، وأبي ذر الغفاري من بني غفار، وعمار بن ياسر من مَذحج وغيرهم كثير.

وفي كلا الأمرين دلالة واضحة على أن النبي ﷺ عمد إلى تجسيد عالمية رسالته في قلوب أصحابه منذ بدايتها، وأنه لم يبعث لقوم دون غيرهم، أو لجنس دون غيره، وإنما هي رسالة عامة للناس كافة .

كذلك كان النبي ﷺ يتحاشى الصدام المباشر مع كفار قريش سواء في طور الدعوة السرية أو بعد الجهر بالدعوة، وكان شديد الحرص على التركيز على جانب الدعوة بدلا من الصدام المباشر، وهذا من فقه القيادة الناجحة، فتقدير الموقف وتبعاته والتخلي عن نزعات العنترية أجدى من الاندفاع الذي لا يخدم القضية التي يُقاتل الداعية من أجلها، ويتضح هذا جليا يوم إسلام أبي ذر الغفاري ﷺ، قال أبو ذر ﷺ: فلما دخلت على النبي ﷺ قُلتُ لهُ اعْرِضْ عَلَيَّ الإِسْلامَ، فعَرَضَهُ فأسْلَمْتُ مَكَانِي، فقالَ لِي « يَا أبَا ذرٍّ اكْتُمْ هَذا الأمْرَ، وَارْجِعْ إلى بَلَدِكَ، فإذا بَلَغَكَ ظُهُورُنَا فأقبِلْ » فقُلْتُ وَالذِي بَعَثكَ بِالحَقِّ لأصْرُخَنَّ بِهَا بَيْنَ أظهُرِهِمْ. فجَاءَ إلى المَسْجِدِ، وَقُرَيْشٌ فِيهِ فقالَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، إنِّي أشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ، وَأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ . فقالوا قُومُوا إلى هَذا الصَّابِئِ.

فقامُوا فضُرِبْتُ لأمُوتَ فأدْرَكَنِي العَبَّاسُ، فأكَبَّ عَلَيَّ ثمَّ أقبَلَ عَلَيْهِمْ، فقالَ وَيْلَكُمْ تَقتُلُونَ رَجُلاً مِنْ غِفارَ، وَمَتجَرُكُمْ وَمَمَرُّكُمْ عَلى غِفارَ، فأقلَعُوا عَنِّي (١)

فقد أدرك النبي ﷺ أن عودته إلى قومه والدعوة إلى الله ورسوله فيهم، أجدى وأنفع لقضية الإسلام من الجهر بالدعوة في أندية قريش، الأمر الذي ربما يؤدي إلى قتله .

---

(١) البخاري ٣٥٢٢

فالداعية ليس بمعزل عن الواقع الذي يعيش فيه، وعن أنماط التفكير التي تحكمه، كما أنه لا يتخذ الصدام معه وسيلة من وسائل دعوته، فأحيانا تُجدي المهادنة نفعا أكثر من الصدام المُباشر، وأحيانا تكون الدعوة السرية أكثر جدوى من الجهر بها، فلكل موضوع فكرة ووسيلة، والداعية له وسائله العديدة في إيصال دعوته وتبليغها للناس، والوسائل تتنوع وفقا لحاجات الواقع وطبيعة المجتمع، فلكل وسيلة زمانها ومكانها الملائم لها، فمن الوسائل ما يصلح لزمان ولا يصلح لزمان آخر، ومنها ما يصلح في بلد ولا يصلح في آخر، وقد تكون هذه الوسيلة مثمرة، لكنها في وقت آخر تصبح مثار سخرية واستهزاء، بل إن منها ما هو عديم النفع في بلد، وفي أخرى أكثر نفعا وأقوى تأثيرا

إن فقه الدعوة بحاجة إلى مجاراة الواقع، وفهم طبيعة المجتمع الذي تتم فيه الدعوة، ثم ابتكار الوسائل التي تتلاءم مع أنماط التفكير وظروف المعيشة السائدة، فدعوة المسلم العاصي للعودة إلى كنف الإسلام ليست كدعوة الرجل الكافر الذي لا يؤمن بالله ولا برسوله، ودعوة الأمي تختلف عن دعوة العالم، وهكذا، فلكل إنسان مدخل خاص يُدخل له منه، وفي الدين أمور كلية وأخرى تفصيلية، فلا تتطرق للجزئيات قبل الإقناع بالكليات .

٥- **التربية الخُلقية:** الأخلاق هي كل فضيلة تجدها وسطاً بين طرفي الإفراط والتفريط، ومكارم الأخلاق هي الفضيلة الوسطى بين طرفين مذمومين، فالكرم وسط بين التقتير والتبذير، والشجاعة وسط بين الجُبن والتهور، والحلم وسط بين الحدة والتبلد، والصبر وسط بين القسوة والجذع، والبسمة وسط بين العبوس والضحك، والعدالة وسط بين الرحمة والقسوة، والحكمة وسط بين البلاهة والخداع، وما من شك أن البناء الاخلاقي متى صاحبه منهج ينظم حياة البشر كافٍ للارتقاء بأي أمة، وهذا ما فعله الإسلام بالعرب فجاءت دعوته لتعيد بناء المجتمع وفق ركيزتين أساسيتين، هما (الدين والأخلاق) وعلى الرغم من أن العرب الجاهليين كان لديهم رصيد ضخم من العادات والتقاليد الإيجابية والأخلاق الحسنة، إلا أن الرقي الأخلاقي لم يكن يطفو على سماتهم الشخصية، فقد كانت تنقصهم الدفعة الروحية التي تبرز هذا الجانب الأخلاقي الدفين بداخلهم، فقد غاب عن حياتهم المنهج الذي يحث على هذه الفضائل ويثيب عليها، فتساوى لديهم الطيب والخبيث، وهذه الفضائل تُكتسب بالعقل والمعرفة والتربية والنشأة، فربما يستطيع الإنسان أن يأتي بفعل حسن بتكلفه، لكنه يعجز على أن يأتي به دون تكلف إن لم تكن فيه سجية وطبعا، لذا كانت عمليه إعادة هيكلة البناء الأخلاقي للمجتمع العربي

أهم أهداف دعوة الإسلام، فهي الثمرة النافعة التي يراها المرء في نفسه بمجرد التزامه بالمنهج الإسلامي، وهذه الهيكلة ارتكزت على ثلاثة أسس واضحة :

١ـ التوسط في كل تصرف وسلوك يقوم به المسلم باعتبار الوسطية روح الإسلام [وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا] (١)

٢ـ تجريد الفضائل الجاهلية من هدفها التفاخري وعصبيتها؛ لتكون عبادة خالصة لله عز وجل

٣ـ تطهير المجتمع من كل الأخلاق السلبية والفواحش التي اعتادها الناس وبيان حكم الإسلام فيها .

إلا أن هذه الأسس لابد وأن تكون قولا وعملا، ممارسة وتطبيقا، لا أن تكون كلمات جوفاء بعيدة عن واقع الحياة وأخلاق الدعاة، فقد جُبل الناس على عدم الانتفاع ممن لم يعمل بقوله، وهنا تظهر لنا الحكمة الإلهية في تحلي رسول الله ﷺ بمجمل الأخلاق وأسمى الصفات، تكون فيه سجية وطبعا يُقِر بها كل من يتعامل معه قبل الرسالة؛ لتكون أوامره ونواهيه بعد الرسالة في ناحية البناء الأخلاقي مقترنة بالعمل، ويكون سلوكه وهديه سجية وطبعا لا تكلف ولا اصطناع، لذا بلغ رسول الله ﷺ منتهى الكمال الأخلاقي، فهو كما وصفه رب العالمين [فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ] (٢) وقال [وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ] (٣)

قال عبد الله بن عمرو " لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاحِشًا وَلاَ مُتَفَحِّشًا، وَكَانَ يَقُولُ « إِنَّ خِيَارَكُمْ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاَقًا » (٤)

كما جاءت صفته ﷺ في التوراة بنحو ما جاء بها القرآن "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَحِرْزًا لِلأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلاَ غَلِيظٍ وَلاَ سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ، وَلاَ يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ. وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا . (٥)

وهذه زوجه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قد سُئِلت عن خُلق رسول الله ﷺ فقالت " كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنُ "(٦) يأتمر بأمره وينتهي بنهيه، ويكفي من القرآن آية لتهذيب الأخلاق ورُقيها [خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ] (٧)

وهذا خادمه أنس بن مالك يقول " خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ وَاللَّهِ مَا قَالَ لِي أُفًّا قَطُّ وَلاَ قَالَ لِي لِشَيْءٍ لِمَ فَعَلْتَ كَذَا وَهَلاَّ فَعَلْتَ " (٨)

---

(١)[البقرة:١٤٣] (٢)[آل عمران:١٥٩] (٣)[القلم:٤] (٤)البخاري ٦٠٣٥

(٥)البخاري ٢١٢٥ (٦) مسند أحمد ٢٦٠٤٤ (٧)[الأعراف:١٩٩] (٨)مسلم ٦١٥١

وصحابي آخر يقول له : يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، فقالَ ﷺ« إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً » (١)

إن أخلاق المرء هي المرآة الصافية لسيرته، ومظهر جلي من مظاهرها، وهذا الرُقي الأخلاقي الذي كان يتحلى به رسول الله ﷺ في مجتمع تفشى فيه الفُحش والبغي ومنكر الأخلاق والأفعال، كان جديرا بأن يكون دعوة صادقة لرسالة الإسلام، فالنفس السوية تميل إلى ما هو سوي، كما أن النفوس البشرية مجبولة على عدم الانتفاع بكلام من لا يعمل بعلمه، فالدعوة أحيانا تكون بالسلوك المُلتزم أقوى من القول الفصيح والحجج الدامغة، فالالتزام الخُلقي هو البرهان العملي على الإيمان، وإلا فما قيمة الإيمان برسالة لا ترتقي بأخلاقك وتهذب سلوكك ؟

ولأن البناء الأخلاقي ركيزة في بناء المجتمع مع العقيدة، فقد حظيت التربية الخُلقية بحظ وفير في المنهج القرآني، ويتضح هذا جليا في كم الآيات التي ربطت مكارم الأخلاق بصفات المتقين، وعباد الرحمن، والمحسنين، وأهل التقوى والصلاح، وجعلتها شريك للفرائض التي أمر بها الدين .

قال تعالى [وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا] (٢) وقال [وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ] (٣)

وقال [الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلَا يَنْقُضُونَ المِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ] (٤)

وعشرات الآيات التي اشتملت على كثير من مكارم الأخلاق وأثنت على أصحابها خيرا، بل إن عناية القرآن بالتربية الخُلقية لم تقتصر على إكساب المسلم جملة من الأخلاق الحميدة وحسب، وإنما شملت أيضا تطهيره من كثير من الأخلاق القبيحة والأمور السلبية التي لا يستقيم حال المسلم باقترافها، فتجد سورة الإسراء ـ وهي سورة مكية ـ قد اشتملت على جملة من الأخلاق الإيجابية التي لا بد أن يتحلى بها المسلم، وأخرى سلبية لا بد أن يتحرر منها المسلم وهي كالتالي

١ـ طاعة الوالدين من طاعة الله والبر بهما في الكبر

٢ـ إيتاء كل ذي حق حقه

٣ـ الإحسان إلى اليتامى

---

(١) مسلم ٦٧٧٨ (٢){الفرقان:٦٣}

(٣){المؤمنون ٨ } (٤){الرعد ٢٠/٢٢}

٤- الوزن بالقسطاس المستقيم
٥- الوفاء بالعهد وإيفاء الكيل والميزان

وهذه كلها أمور إيجابية وأخلاق حميدة، ثم تتوالى الآيات بعرض صور من الأخلاق السلبية التي لا تتماشى ومنهج الإسلام وأخلاق أهله ، منها

١- النهي عن قتل الأولاد مخافة الفقر
٢ - حرمة النفس المسلمة والنهي عن قتلها بغير حق
٣- اجتناب الزنا
٤- لا تقفُ ما ليس لك به علم
٥- الاقتصاد في النفقة واجتناب التبذير .

فالبناء الأخلاقي لا يقتصر على التحلي بأفضل الأخلاق وأتمها، وإنما يشمل أيضا الترفع عن الرذائل وارتكابها، وهذه الأسس الأخلاقية جديرة بأن ترتقي بشخصية الإنسان، وأن تُظهر الفارق في سلوكه وتصرفاته قبل أن يتحلى بها، وبعد أن يجعلها سمة أساسية لشخصيته وبنائه الأخلاقي .

آيات كثيرة جاءت لتهذب الأخلاق بجوار أداء العبادات، لأنها المُكمل لها، كما جاء القصص القرآني غنيا بكثير من أخلاق الأنبياء والمرسلين الذين جملهم ربهم بأفضل الأخلاق وأتمها، وجعل من سيرهم وأخلاقهم هديا وسننا متبعة، وجعل من قصصهم عبرة باقية وعظة موقظة، فتجدهم أصلح الناس حالا، وأتمهم وأكملهم خُلقا، حتى قبل أن يُوحى إليهم، فهذه سورة يوسف ﷺ - وهي سورة مكية - جاءت لترسم صورة كلية لأخلاق المسلم في كل أحواله، فتجده ﷺ- الشاب المُبتلى وريث الأنبياء يُباع كالرقيق ببضعة دراهم ويصبر، وتجده المؤتمن على حفظ الأعراض فيتقي الله في هذه الأمانة، وتجده المُخيّر بين الفُحش والسجن فيختار السجن تعففا وتقوى، وتجده الداعية الذي يحمل هم رسالة التوحيد حتى وهو في سجنه، وتجده المُطالب بإظهار حقه وتبرئته مما رُمي به في عِرْضِه، وتجده الحاكم المُتصرف في أمور الرعية فيلين لهم جانبه، وتجده الرءوف بأخوته رغم ما لاقى جراء بطشهم به، وتجده البار بوالديه المُقر لهما بكل فضل، وتجده العبد الشاكر الذي لا يجحد نعم الله عليه، وتجده الزاهد المُترفع عن مُتع الدنيا ونعيمها الزائل إلى ما عند الله عز وجل من نعيم باق وأجر كريم.

ومن يتدبر آيات القرآن يتضح لديه حظ التربية الخلقية في آياته، ثم جاءت السُنة؛ لترسخ هذه المبادئ في أنفس المسلمين قولا وعملا، فقد جعل رسول الله ﷺ تهذيب النفس المؤمنة وإجمالها بأطيب الصفات ومكارم الأخلاق، سمة أساسية للشخصية المسلمة، لا يمكن أن يُقبل منها فُحش أو دناءة

أو منكر من قول أو عمل، وإلا فما الفارق بين العيش في الجاهلية والعيش في كنف الإسلام ؟! ولهذه المكانة، وإقرارا لهذا الأثر للأخلاق في بناء الفرد والمجتمع، فقد حرص رسول الله ﷺ على صبغ أصحابه بأجمل الأخلاق وأكملها. فقد جعلها رسول الله ﷺ شغله الشاغل، والتحلي بها أمله الدائم، فلما يخلو موقف إلا ويدعو فيه إلى مكارم الأخلاق ويحث عليها أصحابه، فهي عنوانهم، وهي برهان صدق إيمانهم، وهي وسيلتهم للتقرب إلى الله عز وجل، بل إنه جعلها عنوان دعوته، وأول حديثه عن رسالته، لأنها من أسمى ما جاءت به هذه الرسالة، بل إن الشريعة الإسلامية كلها حُسن الخُلق .

قال أبو ذر رضي الله عنه " لما بلغني مَبْعَثُ النَّبِيِّ ﷺ قلت لأخي ارْكَبْ إِلَى هَذَا الوَادِي، فاعْلَمْ لِي عِلْمَ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، يَأْتِيهِ الخَبَرُ مِنَ السَّمَاءِ، وَاسْمَعْ مِنْ قَوْلِهِ، ثُمَّ ائْتِنِي. فَانْطَلَقَ الأَخُ حَتَّى قَدِمَهُ وَسَمِعَ مِنْ قَوْلِهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَبِي ذَرٍّ، فَقَالَ لَهُ رَأَيْتُهُ يَأْمُرُ بِمَكَارِمِ الأَخْلَاقِ، وَكَلَامًا مَا هُوَ بِالشِّعْرِ . (١)

نعم، يأمر بمكارم الأخلاق، فما قيمة أي رسالة لا تزرع الفضيلة في قلوب من يؤمن بها؟ وما قيمتها إن لم تؤلف بين قلوب أنصارها وتجمع أمرهم على وحدة الدين ومكارم الأخلاق؟ لهذا قال ﷺ « إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ »(٢).

بل إن هذا التوجه النبوي قد شمل كل أحوال النبي ﷺ، فتجد الأخلاق في دعائه، فقال ﷺ «اللهم اهْدِنِي لأَحْسَنِ الأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ » (٣)

وفي وصاياه، فقال ﷺ « إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ ، وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ فَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ الدِّينَ فَقَدْ أَحَبَّهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُسْلِمُ عَبْدٌ حَتَّى يُسْلِمَ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ وَلَا يُؤْمِنُ حَتَّى يَأْمَنَ جَارُهُ بَوَائِقَهُ » قالوا وَمَا بَوَائِقُهُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ ؟

قال « غَشْمُهُ وَظُلْمُهُ، وَلَا يَكْسِبُ عَبْدٌ مَالًا مِنْ حَرَامٍ فَيُنْفِقَ مِنْهُ فَيُبَارَكَ لَهُ فِيهِ، وَلَا يَتَصَدَّقَ بِهِ فَيُقْبَلَ مِنْهُ، وَلَا يَتْرُكُهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ إِلَّا كَانَ زَادَهُ إِلَى النَّارِ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ وَلَكِنْ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالْحَسَنِ، إِنَّ الْخَبِيثَ لَا يَمْحُو الْخَبِيثَ » (٤)

---

(١) البخاري ٣٨٦١ ومسلم ٦٥١٦ (٢) موطأ مالك ١٦٤٢ ومسند أحمد ٩١٨٧ وسنن البيهقي ٢١٣٠١ واللفظ له وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١١٢/١ حديث ٤٥

(٣) البخاري ١٨٤٨ ومسند أحمد ٨١٤

(٤) مسند أحمد ٣٧٤٤ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٧٦٩٧ رواه أحمد ورجاله وثقوا وفي بعضهم خلاف، بَوَائِقُهُ : ظلمه وشروره ـ الغَشْمُ: الظلم والغصبُ

وقال ﷺ « إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ، وَلاَ تَجَسَّسُوا، وَلاَ تَحَسَّسُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا إِخْوَانًا » (١) وفي حثه على الصالحات والفوز بالجنة فقال ﷺ « مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ المُؤْمِنِ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الفَاحِشَ البَذِيءَ» (٢) وقال ﷺ « أَكْثَرُ مَا يَلِجُ بِهِ الإِنْسَانُ النَّارَ الأَجْوَفَانِ الفَمُ وَالفَرْجُ وَأَكْثَرُ مَا يَلِجُ بِهِ الإِنْسَانُ الجَنَّةَ تَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحُسْنُ الخُلُقِ» (٣) إن رسالة الإسلام جاءت بكل ما تحتاجه البشرية؛ لتقيم عوجها، وتكمل بنيانها، فما من معضلة بالمجتمع إلا وقدمت لها حلا منهجيا قابلا للتطبيق، وإكمالا لكل جوانب النقص التي تتخللها، بمنهج وسطي معتدل يقود إلى الرُشد والصلاح مترفع عن التشدد والتضييق شاملا الأعمال والأخلاق والمعاملات كل على السواء .

٦ـ **التربية القيادية:** لم تكن المشاركة في صنع القرار من الأمور المألوفة عند العرب الجاهليين، فقد كانوا يتبعون شيخ القبيلة في كل ما يقطع من أمر، وكل ما يُبدي من رأي، إلا من كان له شيء من الوجاهة والسيادة، فربما شارك في صُنع القرار، وهذا الوضع الاستبدادي في اتخاذ القرار لم يكن قاصرا على العرب وحدهم، بل إن كل الحضارات القديمة كانت قائمة على التسلط وفرض الرأي، وربما دفع قرار فردي من حاكم مستبد إلى إزهاق أرواح من يملك أمرهم، وسلب أموالهم، واستباحة أعراضهم، بل إن هذا الوضع لم يسلم منه حتى التاريخ الحديث في حروبه التي تكاد لا تنتهي، إلا أن هذا الوضع لا يتماشى ومنهج الإسلام، فالإسلام لا يُقر مصادرة الآراء واحتكار القرار، والحُكم بالهوى والعاطفة، والإسلام لا يعرف التلاعب بمصائر الشعوب، والاستخفاف بأرواح البشر، والإسلام لم يأت ليريق الدماء، ويزهق الأرواح بغير سبب، وإنما جاء ليسمو بحياة الإنسان من الدونية والانحطاط، من الهرج وسفك الدماء، من البطش والظلم، من الهيمنة والاستبداد، ومن التبعية والتواكل

لقد جاء رسول الله ﷺ برسالته، فوجد أناسا قد قبلوا بالتبعية وتجردوا من المسئولية واتصفوا بالسلبية، فأيقن أن هؤلاء لا تقوى بأمثالهم رسالة، ولا تبنى بهم حضارة، من غير تربية واجتهاد، ومن غير تعليم وتوجيه، فشمّر عن ساق الاجتهاد، يوجه ويُربي، يرشد ويُعلم، يدرب الصغير على القيادة

(١) البخاري ٥١٤٣ (٢) سنن الترمذي ٢١٢٣ و قال حديث حسن صحيح

(٣) سنن الترمذي ٢١٣٥ وقال حديث صحيح ومسند أحمد ٩٢٣٤ واللفظ له وحسنه الألباني في جامع الترمذي ٣٦٣/٤ حديث ٢٠٠٤

والكبير على أخذ القرار وتحمل المسئولية، والجماعة على المشاركة في الرأي وعدم الاتصاف بالسلبية، غرس في قلوب أصحابه قيمة الجماعة والمشورة وقيمة السمع والطاعة، وعدم الخضوع والاستسلام لقوى الظلم والطغيان، والتحرر من هيمنة السادة برأيهم والاتباع الأعمى لهم.

تربية القادة لا تربية العبيد، هكذا كان همّ رسول الله ﷺ وهدفه الحثيث، أن يربي رجالا تقوم بهم الرسالة وتشيد بهم الحضارة، وتُقاد بهم الجيوش، ويُخاض بهم أعتى المعارك، تربية القادة على حقائق الرسالة وثوابت الدين والانطلاق منها لا التحايل عليها، والعمل من أجلها لا التآمر عليها، تربية القادة على اتقاء الله في الرعية والأمانة في حمل المسئولية، تربية القادة على الرأي والمشورة لا الهيمنة واحتكار القرار ومصادرة الأراء المعارضة.

ثم تربية الرعية على السمع والطاعة ما لم يؤمروا بمعصية، والالتفاف حول القادة، لأنهم ينجون بنجاتهم، وفيه وحدة صفهم ورد تآمرات أعدائهم، ونبذ روح الفرقة فيهم .

ربما لم تظهر آثار هذه التربية جلية في العهد المكي لما كان من حال القهر والاستضعاف الذي كان عليه المسلمون طيلة العهد المكي، إلا أن البذرة الأولى في مشوار إعداد القادة قد بدأت مبكرا جدا، تكاد تتماشى مع عمر الدعوة، ففي دار الأرقم وضع رسول الله ﷺ الأسس التي تحكم العلاقة بين القائد والرعية، ومسئولية كل منهما، وحدود التكاليف المنوط بها، بما يتلاءم والظروف المحيطة، فلما كان حال الدعوة قاصرا على عرض مضمونها ولم يكلفوا بجهاد، جعل رسول الله ﷺ مفهوم القيادة منحصرا في تعليم مبادئ الدين، فقسّم المسلمين إلى جماعات صغيرة، وجعل على كل جماعة من يقوم بتعليمهم القرآن، ثم غرس في قلوبهم قيمة السمع والطاعة لله ورسوله كقائد أعلى للجماعة المسلمة، ونبذ كل صور الطغيان متمثلا في قوى الشرك التي جعلت نفسها حكما على مصائر الشعوب وسنّت لهم القوانين والتشريع، فأيقن الصحابة أن الأمر لم يعد تبعية عمياء، ولا هو بالفوضى القاتلة، وإنما حكمة في القرار وفهم للواقع المحيط .

وقد ظهرت بعض من ثمار هذه التربية في عدة مواقف في العهد المكي منها هجرة الحبشة، فلما عرض رسول الله ﷺ علي أصحابه الهجرة للحبشة، لم يجعلها أمرا إلزاميا، فترك لهم حرية الاختيار إيمانا منه أن ترك الخيار لهم أدعى إلى تحمل نتائجه، فهاجر من هاجر وبقى من بقى، فلما كان من أمر وفد قريش ما كان، وحاول الوفد أن يثير النجاشي عليهم لقولهم ببشرية المسيح عليه السلام، اجتمع الصحابة؛ لينظروا في الأمر، فأجمعوا قرارهم على قول الحق فيه

دون محاباة لأحد، قالتْ أم سلمة : فاجْتَمَعَ القَوْمُ فقالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى إِذَا سَأَلَكُمْ عَنْهُ ؟ قَالُوا نَقُولُ وَاللَّهِ فِيهِ مَا قَالَ اللَّهُ وَمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا كَائِنًا فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ. (١)

فوحدة الصف واجتماع الراي من أهم مقومات الجماعة المسلمة، فما جدوى الفرقة وما مفادتها؟ إنها تُشعب الأهواء، وتفرق السبل، وتخبط السياسات، وتعطل المصالح، وتُكثِر الأطماع، وتجرئ الأعداء، وتدب الحقد في النفوس، وتُظهر بوادر الفتن، وتحرك نوازع الشر والتخبط في القرارات وتضارب الآراء وتغلب النزعة الفردية على المصلحة العامة للجماعة المسلمة، أما اجتماع الكلمة والرأي ووحدة الصف والقرار، فهو طوق النجاة القادر على حماية أي جماعة من الغرق .

وموقف ثانٍ يبدو أثناء الحصار في شعب أبي طالب علم فيه النبي ﷺ أصحابه كيف يلتفون حوله ويسمعون له ويطيعون أمره، أما كان يعجزهم - وفيهم أسد الله حمزة والفاروق عمر وسعد بن ابي وقاص - أن يقتالوا راس الكفر أبا جهل وأعوانه، إن رسول الله ﷺ كان يُقدّر العواقب جيدا وينظر إلى المستقبل، لا تأخذه حمية ولا عاطفة وقتية يقدم بها على قرار يجر خلفه ويلات، وهذه سمات القائد الناجح، أن يُحسن تقدير المواقف وقراءة الأحداث وفقا للواقع الذي يعاصره، فجعل ﷺ من الحصار درسا عمليا للتربية على القيادة، واتخاذ القرار المناسب، وإبصار العواقب وبُعد النظر، وحسن التقدير، والتحكم في العواطف والانفعالات بحيث تكون دافعا إلى التأني لا إلى العجلة وسرعة اتخاذ القرارات، فماذا كانت النتائج؟ لقد خرج من الشعب الفاروق عمر الذي ملأ الأرض عدلا، وخرج من الحصار سعد قاهر الفرس وبطل القادسية، وخرج من الحصار حمزة بطل يوم بدر وشهيد أحد، رضي الله عنهم أجمعين.

وموقف ثالث بعد بيعة العقبة الثانية، فلما قضيت البيعة قال لهم رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « ارْفَعُوا إِلَى رِحَالِكُمْ » فَقَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عُبَادَةَ " وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَئِنْ شِئْتَ لَنُمِيلَنَّ عَلَى أَهْلِ مِنًى غَدًا بِأَسْيَافِنَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « لَمْ أُومَرْ بِذَلِكَ ». قَالَ فَرَجَعْنَا فَنِمْنَا حَتَّى أَصْبَحْنَا (٢)

صورة مثالية ترسم العلاقة بين القائد وجنوده تحت راية الإسلام، ووفقا لمنهجه العظيم، فأول الأمر " لَئِنْ شِئْتَ لَنُمِيلَنَّ عَلَى أَهْلِ مِنًى غَدًا بِأَسْيَافِنَا "

---

(١)مسند أحمد١٧٦٦ وصححه الألباني في فقه السيرة و في صحيح السيرة النبوية

(٢)مسند أحمد ١٦٢١٣ وقال الهيثمي (ج ٦ / ص ٤٩) رواه أحمد والطبراني بنحوه ورجال احمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع

فالأمر إليك يا رسول الله ﷺ، فأنت القائد المُطاع، فما كان من القائد إلا التقيد بالشرع الرباني والوقوف عند أوامره ونواهيه « لَمْ أُومَرْ بِذَلِكَ » ومنتهى الأمر " فَرَجَعْنَا فَنِمْنَا " امتثال مطلق، فإن من أهم أسباب نجاح القيادة، وعي القائد بالمنهج الذي يُسيّره، وفقهه للضوابط التي تحكمه، ثم وعي الجنود بحق القائد في اتخاذ القرار وتنفيذهم له دون اعتراض أو تشكيك ما لم يأمر بمعصية .

هكذا كانت التربية القيادية في العهد المكي، تربية قائمة على ركيزة السمع والطاعة في الأمر والنهي، فلما هاجر الرسول ﷺ وأصحابه إلى المدينة تغيرت الصورة تماما وتحددت معالمها فانشغل رسول الله ﷺ بجزئيات العلاقة بين القائد والرعية في كل صورها وبمختلف أحوالها، وأخذ يُربي أصحابه على القيادة كما يعلمهم السورة من القرآن، فتراه يُشاور أصحابه في غزوة بدر، ويجعلهم شركاء له في صنع القرار، وفي غزوة أحد لما اجتمعوا على الخروج ولم يكن من رأيه وهواه أقرّ بما اجتمعوا عليه ليس إلا لتعليمهم وحدة الصف، والمشاركة في صنع القرار، وتحمل نتائجه، بل إن مبدأ الشورى لا يكاد يخلو منه موقف في حياة النبي ﷺ، لا في حضر، ولا في سفر، فكان يُشاور أصحابه في كل صغيرة وكبيرة، فلا يقطع أمرا بلا مشورة، حتى قال أبو هُرَيْرَةَ ﷺ " مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ مَشُورَةً لأَصْحَابِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ" (١) وأمّر أسامة بن زيد ﷺ وهو لم يتجاوز العشرين من عمره، على جيش فيه من تجاوز الستين وشابَ في الإسلام، ويلزمهم بالسمع والطاعة له، وعدم الطعن في إمرته، كذلك أمّر عمرو بن العاص ﷺ وعُمره في الإسلام لا يتجاوز بضعة أشهر على جيش فيه أبو بكر وعمر وعبيدة ﷺ . ونوّع بين القادة والمهام التي يوكلون بها، فلكل إنسان سمة تميزه عن غيره، والقائد الناجح هو من يتمكن من الاستفادة من كل المواهب والقدرات المُتاحة في الجماعة التي يحكمها، بل وأكمل نقص أحدهما بالآخر، فعالج لين أبي بكر بشدة عمر، وعالج جُراة خالد بأناة أبي عبيدة، ولا يؤمر على الناس إلا من يرتضون، وفي استعداده للمعارك كان يأخذ كافة التدابير التي من شأنها أن تقود إلى النصر، فكان يدرس طباع العدو المقبل على حربه، ويتعرف على جوانب ضعفه، ويرسل العيون تأتيه بالأخبار، ويعد الكمائن ومعسكرات التدريب، ويتعرف على طباع الملوك والأمراء الذين يتعامل معهم، ويُفاوض ويفهم شخصية من يفاوضه، ومن يُحاربه، ومن يسالمه، ومن يُهادنه، وبل ويُقدم التنازلات التي لا تتعارض مع المصلحة العامة للمسلمين، والتي تنم عن فهم عميق للواقع، ورؤية ثاقبة للأحداث

---

(١)سنن الترمذي ١٨١٨

لقد جمع رسول الله ﷺ كل سمات القيادة الناجحة، وأخذ يُربي عليها أصحابه، فما كان من أصحابه إلا أن وعوا ما تعلموا، وأصبحوا أعوانًا على الحق، أمرهم شورى بينهم، يطيعون الخليفة ما أطاع الله فيهم، فإن عصى الله فلا طاعة له عليهم، وأصبح دستور حياتهم قول النبي ﷺ« لا طاعَة لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ »(١) وقوله ﷺ « السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ حَقٌّ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِالْمَعْصِيَةِ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلا سَمْعَ وَلا طَاعَةَ »(٢)

وأصبح الخليفة كولي اليتيم، إن اغتنى تعفف، وإن افتقر أكل بالمعروف، وأصبح الحاكم راع لكل من يحكم، وأيقن أنه مسئول أمام الله عن رعيته .

إننا نحيا الآن أزمة حقيقة في إعداد القادة، والتربية على تحمل المسئولية، فهذا الذل السياسي والتبعية العسكرية والسياسية التي تحياها الأمة الإسلامية هو نتيجة طبيعية لبعد القادة عن المنهج الذي يُسيّر تحركاتهم ويضبط قراراتهم ويحدد منهجهم، ثم بُعد المحكومين عن فهم الضوابط التي تحدد العلاقة بينهم وبين حكامهم، المنهج الذي وضع ضوابط للعلاقة بين المسلمين بعضهم بعضا، وبين المسلمين وحكامهم، وبين المسلمين وغيرهم، وألزم الحاكم بالسير عليها، وأعطاه حق اتخاذ القرار وتحمل نتائجه، ثم الزم الرعية بالسمع والطاعة له، والالتفاف حوله ما لم يأمر بمعصية .

إننا بحاجة إلى أن نراجع مناهج التربية في بلادنا العربية والإسلامية، ونقف مع أنفسنا وقفة صادقة، أهذه المقررات قادرة على تربية قادة ؟ أهذه المقررات قادرة على غرس قيمة السمع والطاعة في الحق ؟ أهذه المقررات قادرة على تخريج جيل يملك وعيا سياسيا، وبصيرة مستقبلية، ورؤية واضحة حول طبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وبين المسلمين وغيرهم ؟

٧ـ **التربية على الصبر والتضحية:** إن طريق الدعوة منذ نوح عليه السلام وحتى محمد ﷺ لم يكن مفروشا بالورود والرياحين، وإنما بالابتلاء والصبر والبذل والعطاء والتضحية، فلا يظن أحد أن السلامة من الابتلاء دليل على صحة العمل، فإن طريق الدعاة وأصحاب الرسالات مليء بالمخاطر، فقد تُراق الدماء وتُستباح الأعراض وتُنصب المشانق وتُفتح السجون ويُشرد الدعاة ويُفتتن الصالحون وتشوه معالم منهجهم، وقد تُسلب الأموال وتتعطل الأعمال، وقد يُصاب البدن وتتشوه الخلقة

---

(١) مسند أحمد ١١٠٧ وصححه الألباني في مشكاة المصابيح ٣٦٩٦

(٢) البخاري ٢٩٥٥ ومسلم ٤٨٦٩

وكل هذا - مع سلامة المنهج - دليل على صدق العمل ووضوح الرؤية والإصابة في الاجتهاد، فإن هذا الخلق مع الدعاة وحملة الرسالة ليس بالأمر الجديد، وإنما هو قديم قدم الرسالات السماوية، فقد لازمها منذ بدايتها، وقد جاء القصص القرآني بنماذج عدة من هذا الابتلاء في حق الأنبياء والدعاة أيضا، فترى في قصة شعيب عليه السلام [قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ] (١)

وفي قصة مؤمن آل ياسين [وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ * إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ * قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ] (٢)

وفي قصة سحرة فرعون الذين أصبحوا كافرين وأمسوا شهداءً صالحين [فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى * قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى * قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى] (٣)

وغيرها كثير من القصص الذي تناول هذه القضية بوضوح، وجعلها سمة ملازمة للرسل والدعاة على السواء، على أن هذا ليس من هوان أمرهم على الله، وإنما لاختبار مدى صدقهم وثباتهم على مشقة التبليغ، فبدون دعوة لن تكون هناك رسالة، وبدون دعاة لن يُكتب لرسالة بالبقاء والتواصل، وبدون الصبر والتضحية لن يُكتب لرسالة بالنصر والتمكين .

ولما جاء رسول الله ﷺ برسالته، وآمن به من آمن، كان لزاما أن تجري عليهم سُنّة الله في خلقه، فيتعرضوا للأذى والابتلاء، ويفتتنوا في دينهم ودنياهم، يتعرضوا لضياع المال وفساد التجارة وتنالهم يد البطش والتعذيب، إلا أن هذا الخلق لم يكن معهودا بأرض العرب، فما عهدوا أن يموت إنسان من أجل عقيدته - اللهم إلا ما كان من أمر أصحاب الأخدود - فعمد رسول الله ﷺ على غرس روح التضحية والفداء في نفوس أصحابه، وجعلها صفة ملازمة لإيمانهم، وحثهم على الصبر والثبات، وبين لهم أن هذا خُلق الأولين مع الرسل ومن آمن بهم

---

(١){هود:٩١}　(٢){يس ٢١/٢٦}　(٣){طه ٧٠/٧٣}

عَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ قَالَ " شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ ، قُلْنَا لَهُ أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلاَ تَدْعُو اللَّهَ لَنَا قَالَ « كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ، فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ، مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لاَ يَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ » (١)

نعم، ولكنكم تستعجلون، فمن هذا الذي يريد أن يُغير الحياة بين عشية وضحاها؟ ومن هذا الذي يريد أن يهتدي كل الخلق لمجرد دعوته لهم؟

ومن هذا الذي يريد لدعوته النصرة والتمكين دون أن يُقدّم أسبابه؟

إن سُنة الله عز وجل في الكون أن يَبتلي قبل أن يُمكن، وعلى قدر الثبات تكون القوة في التمكين، فالعجلة في تحقيق النتائج من أكبر الأخطاء التي تلازم الدعاة، ولهذا بين الله عز وجل هذه المسألة بشيء من التفصيل، مُقصرا وظيفة رسوله عند الإنذار والبلاغ [وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ](٢) أما الهداية فهي من عند الله [إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ](٣)

فإن لم يؤمن أحد بالرسول فلا يُعدُّ هذا تقصيرا منه في البلاغ عن رب العالمين

إن الله عز وجل أرسل رسله، وأوكل لهم مهمة التبليغ عنه، وأيدهم بالمعجزات الباهرة، كدليل على صدق قولهم وأجملهم بأكمل الأخلاق والصفات، وأودع في قلوبهم يقينا بنصر الله لهم، وأنه آت لا مناص، وأن العاقبة لله ورسوله، فلا يتعجلون الهداية والنصرة، ولا يستبطئون الإجابة والتمكين، فاجتهد الرسل في التبليغ عن رب العالمين ما أمر، كما اجتهدوا في أن ينقلوا اليقين بنصر الله إلى قلوب من آمنوا بهم، لأنه وعد صادق [وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ] (٤)

فهذا موسى عليه السلام، أمره الله أن يخرج ببني إسرائيل من مصر، فاستجاب لأمر ربه وخرج بهم، فأدركه فرعون بجنوده، فوجد أصحاب موسى أنهم في حال لا تحمد عقباه، البحر من أمامهم وفرعون بجنوده من خلفهم، فأيقنوا أنه الهلاك!غير أن موسى عليه السلام أجابهم بثبات المؤمن الواثق بنصر الله له [قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ] (٥)

---

(١)البخاري٣٦١٢ و ٦٩٤٣ (٢){سبأ:٢٨} (٣){القصص:٥٦}

(٤){الروم:٦} (٥){الشعراء:٦٢}

نعم، فما كان الله ليبعثه ويخذله، وما كان ليأمره بالخروج ولا ينصره، فإن الله ناصر من ينصره، فهذا اليقين الذي أجاب به موسى ﷺعلى قومه، هو نفسه اليقين الذي لطالما جاهد النبي ﷺ في أن ينقله إلى قلوب المسلمين فيتحملوا ما هم به من عذاب، ويصبروا على ما هم فيه من ابتلاء وفتن في سبيل نشر الدعوة، وتبليغ رسالة التوحيد، ليس فقط في أرض العرب، وإنما أيضا في كل ربوع المعمورة، فالنبي ﷺ لا يملك لهم نصرا سريعا، ولا وعدا فوريا بالنصر، ولا يملك أن يدفع عنهم ما هم به من تعذيب، فهو حتى لا يملك رد الأذى عن نفسه، ولا يملك أن يأمرهم بقتال من يحاربونهم، فهم يومئذ قلة مستضعفة، وإنما أوكلهم إلى إيمانهم، وأخبرهم بأن وعد الله آت، وأن ما عند الله من نعم تهون من أجلها كل الصعاب، ويُتحمل من أجلها أعتى ألوان العذاب، غير أن ما عند الله لا يتأتى إلا بإذن الله وفي الوقت الذي يشاء، فالاستعجال لن يُقدم مجي النصر، والتريث لن يؤخره، وإنما كل شيء عنده بمقدار .

عن سعد بن وقاص قال " قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاَءً قَالَ « الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاَؤُهُ وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ فَمَا يَبْرَحُ الْبَلاَءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ » (١)

فالابتلاء سُنّة جارية في كل زمان ومكان، يُمحّص الله به المؤمنين، ويُطهر قلوبهم، يُميز به الخبيث من الطيب والصادق من المنافق، يجعله سببا في مغفرة الذنوب، ورفع الدرجة، وسببا في التمكين والنصر، فسُنّة الله أن يبتلي قبل أن يُمكن، وفي قصص الأنبياء دروس وعبر لرحلة الصبر على الدعوى، ومشقة التبليغ، وعظم البلاء قبل النصر والتمكين .

والصبر أنواع منها :

أـ صبر على أداء الطاعات: أي صبر على ما أمر الله به من عبادات، والاجتهاد في أدائها على أكمل وجه، رغم المشقة التي قد تُصاحبها .

ب ـ صبر على اجتناب المحرمات: والمحرمات هي كل منكر من قول أو عمل نهى الله عنه لرجحان مفسدته وبيان مضرته، وعلى الرغم من ميل النفس إليه، فإن في تركه ونهي النفس عنه، طاعة لله عز وجل [وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى] (٢)

---

(١)سنن الترمذي ٢٥٧٨وقال حسن صحيح وسنن ابن ماجة ٤١٥٩ومسند أحمد ١٦٢٩وسنن الدارمي ٢٨٣٩وسنن البيهقي ٦٧٧٢وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢٧٣/١حديث ١٤٣

(٢){النازعات ٤١/٤٢}

وتربية النفس على الصبر في الطاعات أنفع لها من تربيتها على الصبر في اجتناب المحارم، وفي كل خير، وإن كان الأول مُقدم، ففعل الطاعة أحب إلى الله من ترك المعصية، وترك الطاعة أبغض عند الله من ارتكاب المعصية.

ج – صبر على الابتلاءات: وتشمل كل ما به ضرر للإنسان من مرض أو ابتلاء في مال أو ولد أو غير ذلك، فالصبر عليها هو حبس للنفس عن الجزع، وحبس للسان عن التسخط، وحبس للجوارح عن اللطم وشق الجيوب.

قال تعالى [وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ](١)

وهذا الابتلاء يجعله الله في طريق عباده، إما ليردهم إليه من غفلة أصابتهم، فإن الله يقبض أرواحا ليُحيي أخرى.

وإما ليغفر ذنوبهم حتى إذا قبضوا لم يكن عليهم ذنب، وفي هذا قال الرسول ﷺ« مَا مِنْ مُصِيبَةٍ تُصِيبُ الْمُسْلِمَ إِلاَّ كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا عَنْهُ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا » (٢) وقال ﷺ « مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حُزْنٍ وَلاَ أَذًى وَلاَ غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلاَّ كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ »(٣)

وقال ﷺ « فَمَا يَبْرَحُ الْبَلاَءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ » (٤)

وقال ﷺ « عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » (٥)

وإما لرفع درجة العبد ومنزلته « مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ » (٦)

وإما ليختبر إيمانهم ويميز صدقهم، فإن من العباد من إذا ابتُلي قنط وأيس من رحمة الله ودعا بدعوى الجاهلية، قال ﷺ « لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ » (٧)

٨ـ التربية بأعمال القلوب: الدين إيمان وعمل صالح، فأما الإيمان فهو من أعمال القلوب، وأما العمل الصالح، فهو من أعمال الجوارح، وقبول الثانية مرهون بصدق الأولى، فالقلوب عالم مُستقل لا يطلع عليه إلا الله [يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ] (٨) فكم من الأعمال التي يقوم بها العبد

---

(١) [البقرة:١٥٥]
(٢) البخاري ٥٦٤٠
(٣) البخاري ٥٦٤١
(٤) سنن الترمذي ٢٥٧٨ وقال هذا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.
(٥) مسلم ٧٦٩٢
(٦) البخاري ٥٦٤٥
(٧) البخاري ١٢٩٧
(٨) (غافر ١٩)

ولا يعلم صدق نيته فيها إلا الله، وكم من العباد من يأتي بعظائم الأعمال، ولا يخلص فيها صدق النية لله، فترد عليه وكأنها لم تكن .

قال ﷺ« لأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا » قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ؟ قَالَ « أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا » (١) فالقلب هو المُحرك للجوارح وأساس الأعمال، به تستقيم الأمور وتُقبل الأعمال، فهو الشعرة التي بين الإيمان والنفاق وبين الإخلاص والرياء، قال عنه رسول الله ﷺ « أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ،وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ » (٢)

بل إن به الحكم على الصلاح، والطلاح، والهداية، والضلال [فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ](٣) قال عنه أبو هريرة ﷺ «الْقَلْبُ مَلِكٌ، وَلَهُ جُنُودٌ؛ فَإِذَا صَلَحَ الْمَلِكُ صَلَحَتْ جُنُودُهُ، وَإِذَا فَسَدَ الْمَلِكُ فَسَدَتْ جُنُودُهُ»(٤) ولأنه طريق الهداية ودليل الرشاد، ولأنه سبب الضلال والزيغ والفساد، فقد جعله الله مقياس صلاح الأعمال، ومنه الحكم على الأفعال، قال ﷺ « إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلَا إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ » وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى صَدْرِهِ (٥) هذا هو القلب، فكيف تصلح الجوارح وتصلح الأعمال دون أن يكون القلب صالحاً ؟ قالَ ﷺ « لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ »(٦)

وأعمال القلوب كثيرة، منها الإخلاص وصدق المحبة والتوكل على الله، ومنها اليقين والإيثار والخوف والخشية والتجرد لله سبحانه وتعالى والمراقبة والمحاسبة والرجاء، وغيرها كثير من الأعمال القلبية التي تعتبر المحرك والدافع لأعمال الجوارح، إلا أن تربية القلوب وإصلاحها لا تكفيها كلمات النصح والإرشاد، والتوجيه إلى الصلاح وتبيين الفساد، لذا اعتمد النبي ﷺ في تربيته على أسلوب تربوي قوي التأثير على القلوب، باق أثره في النفس .

---

(١)سنن ابن ماجة ٤٣٨٦ وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢٣٤٦

(٢)البخاري ٥٢ومسلم ٤١٧٨ (٣){الحج:٤٦}

(٤) شعب الإيمان - البيهقي - (ج ١ / ص ١٣٢) حديث١٠٩ (٥)مسلم ٦٧٠٧

(٦)مسند أحمد ١٣٣٨٩ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ١ / ص ٢١٣ حديث١٦٥) رواه أحمد وفي إسناده علي بن مسعدة وثقه جماعة وضعفه آخرون،وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢٥٥٤ وفي السلسلة الصحيحة ٢٨٤١

وهو التربية بالحدث مقترنا بأبلغ عبارات النصح والإرشاد، والمقصود بالتربية بالحدث، توظيف الحوادث والمواقف التي تمر بالإنسان في خدمة الدعوة وتربية القلوب، وهذه الوسيلة غرس بها رسول الله ﷺ كثير من العبادات القلبية في قلوب أصحابه وترك لهم فرصة الاجتهاد في بلوغ ذروة السنام، فغرس في قلوبهم حُسن الظن بالله، والصبر على البلاء، وهم مُحاصرون شعب أبي طالب، بعدما تآمر أهل الشرك على النيل منهم، وعلمهم صدق التوكل على الله في الهجرة إلى المدينة، حينما خرج من مكة، وقد شهرت مئات السيوف للنيل منه، وهو واثق في نصر الله عز وجل، فيقول لصاحبه « لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا »(١) ويبيت ليله يوم بدر داعيا الله عز وجل مبتهلا متضرعا سائله النصر؛ ليُعلم أصحابه المعنى الحقيقي للتوكل على الله، بترك النتائج والرضا بها، بعد بلوغ كل الأسباب المؤدية إلى النصر، ويُربيهم على صدق اليقين بالله عز وجل يوم الحديبية، حينما صالح قريش على العودة عن العمرة هذا العام، فقد وجد أصحابه في أنفسهم وحدث بعضهم بعضا حتى كادوا أن يزيغوا، حتى الفاروق عُمر ﷺ لم يبصر العواقب، فنهض مُسرعا إلى رسول الله ﷺ يناقشه ويجادله، فأجابه رسول الله ﷺ قائلا « يَا ابْنَ الْخَطَّابِ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَلَنْ يُضَيِّعَنِي أَبَداً » فكان جواب رسول الله ﷺ جواب من بلغ ذروة اليقين بما عند الله، وأن الله لن يتركه، وما هي إلا ليال قلائل حتى نزلت سورة الفتح فأرسل رسول الله ﷺ إلى عُمر وقرأها عليه، فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَفَتْحٌ هُوَ ؟ قَالَ « نَعَمْ » (٢) فعلم الفاروق بعدها أنه كان أعظم فتح في الإسلام، ويُعلمهم الرضا على قضاء الله في أشد الابتلاءات، فيدفن ابنه إبراهيم ثم يقف قائلا « إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلاَ نَقُولُ إِلاَّ مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ » (٣) فالرضا عن الله عز وجل عبادة قلبية تُجتلب بأحوال شتى؛ لتعبر عن امتنان المؤمن لربه على السراء وإن قلت، وتركه الجزع على الضراء وإن عظمت، فهو شكر على النعم وصبر على النقم، قال ﷺ « إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا » (٤) ويُعلم أصحابه قيمة الإيثار فيجود بكل ما يملك لفقراء المُهاجرين، ولا يرد سائلا، ثم يقول لأصحابه « مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلاَّ مَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا » (٥)

---

(١)البخاري ٣٦١٥ ومسلم ٧٧٠٦

(٢)البخاري ٣١٨٢ ومسلم ٤٧٢٣

(٣)البخاري ١٣٠٣

(٤)مسلم ٧١٠٨

(٥)البخاري ١٤٤٢ ومسلم ٢٣٨٣

ويقف يوم أحد بعدما أصيب في بدنه، وفي أهله، وفي أصحابه، فصف أصحابه ثم وقف ليشكر الله عز وجل « اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ كُلُّهُ اللَّهُمَّ لا قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ وَلاَ بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ وَلاَ هَادِيَ لِمَا أَضْلَلْتَ وَلاَ مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ وَلاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلاَ مُقَرِّبَ لِمَا بَاعَدْتَ وَلاَ مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ ...» (١)

وتدور دائرة الزمان ويدخل مكة فاتحا مُنتصرا فيدخلها خاشعا لله منكسرا متذللا وهو الفاتح المنتصر، فيستعرض تاريخا طويلا من الأذى والكيد والتنكيل، فلما دان له الأمر وملك رقابهم قال لهم «مَا تَرَوْنَ أَنِّي صَانِعٌ بِكُمْ؟ » قَالُوا خَيْرًا أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ. قَالَ « اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ » (٢)

ويبيت ليله ساجدا لله عز وجل، وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيقال لَهُ أَتَكَلَّفُ هَذَا وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ؟ فَقَالَ ﷺ « أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا » (٣)

٩- التربية للفهم الواقع المُحيط وحُسن التعامل مع ظروف المجتمع: إن المجتمع بناء شامخ يبدأ بنواة بسيطة وهي الفرد، فالفرد جزء من البناء الاجتماعي لأي مجتمع، يؤثر فيه ويتأثر به، يصطبغ بأخلاقه ويتحلى بآدابه، تسير عليه قيمه وأخلاقه، فالفرد إذن جزء من بناء كلي، لا يمكن أن ينفصل عنه أو يتملص من الواجب المُحتم عليه تجاهه، ولما جاء الإسلام كان المجتمع العربي قد تبلورت سماته وأخلاقه وتشكلت عاداته وتقاليده التي لا يجرؤ أحد على الاستخفاف بها أو التقصير في أدائها، لأنها المُسّير لعجلة الحياة في هذا المجتمع، وهي الضابط لسلوك أفراده وتصرفاتهم، فبدا الصدام وشيكا بين الفاسد من هذه التقاليد والأعراف، وبين ما جاء به الإسلام من قيم وأخلاق وأسس ومبادئ، وهذا الصدام ليس في صالح الدعوة، لأنه دافع إلى النفور منها، فالنفس البشرية تميل إلى النفرة مما خالف العادة والمألوف حتى تتهيأ له وتتدرج عليه، والدعوة لا تزال في بدايتها، لم تترسخ في القلوب ولم تتسع في الأرض، لذا عمد النبي ﷺ على التعامل مع هذه الأعراف والتقاليد كوسيلة لخدمة دعوته لا كوسيلة مثبطة لها منفرة منها، فقبل كل التقاليد والأعراف التي لا تتعارض مع رسالة الإسلام، وأقرّ التعامل بها بين المُسلمين كحق الجوار وإكرام الضيف وإغاثة الملهوف وغيرها كثير، إلا أنه جردها من صبغتها الجاهلية كالتفاخر والرياء، وجعلها أعمال خالصة لله تعالى.

---

(١)مسند أحمد ١٥٨٩١ وصححه الألباني في الأدب المفرد ٢٤٣/١ حديث ٦٩٩

(٢)البيهقي ١٨٧٣٩ (٣) البخاري ١١٣٠ ومسلم ٧٣٠٢ واللفظ له

أما ما كان فيه تعارض مع قيم الإسلام وتعاليمه كالعصبية القبلية والتعامل الربوي وغيره، فالصدام معه في بداية الدعوة لن يعود عليها بكثير نفع، فارجأ رسول الله ﷺ الصدام مع هذه العادات والتقاليد الباطلة طيلة العهد المكي مراعاة للمصالح والمفاسد، لذا ظلت كثير من هذه الأعراف ضابطا وحكما على تصرفات العرب حتى بعض المسلمين، إلى أن كان يوم الفتح، وقف رسول الله ﷺ يضع كل رواسب الجاهلية، ويقضي على آثارها، ويهدم عاداتها الباطلة وأعرافها الظالمة وتقاليدها الباغية، ويضع ما بقي من مآثرها ظاهرا وباطنا، فخطب ﷺ في الناس قائلا « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ وَتَعَاظُمَهَا بِآبَائِهَا، فَالنَّاسُ رَجُلَانِ رَجُلٌ بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ، وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ وَخَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ » (١) ثم فصّل الأمر في حجة الوداع.

وبالإجمال، فإنه يتسنى لنا رسم ملامح السياسة الدعوية لرسول الله ﷺ، وموقفه من تقاليد المجتمع الجاهلي، طيلة العهد المكي، فقد كانت قائمة على ضابطين أساسيين : الأول: الحذر من التفريط في مضمون الدعوة، أو عرضها ناقصة، أو مبتورة، أو خلطها بأمور مخالفة لهديها وتعاليمها لأي سبب كان .

الثاني: الحذر من تعرض الدعوة للوأد، أو القضاء عليها، نتيجة للمغالبات التي تفوق طاقة الذين أسلموا معه.

ولتجنب كلا الأمرين، فقد تعامل رسول الله ﷺ مع ظروف المجتمع الذي يعيش فيه بكل حكمة، فكانت السياسة الشرعية في ذلك الوقت منع المسلمين من الرد على المجتمع الجاهلي، وحثهم على الصبر والثبات واحتمال الأذى، فإن أي مواجهة مُباشرة مع المجتمع الجاهلي قد تودي إلى معركة كبيرة، ربما يفنى فيها المسلمون أو أكثرهم، أو قد تتدخل القبائل دفاعا عن أبنائها، ولو كانوا مسلمين، بدافع العصبية الجاهلية، مما يمكن أن تنشأ عنه حربا أهلية يكون المسلمون حطبها، مما يودي بالدعوة إلى التقوقع والانحصار وخسارة كل ما حققته من مكاسب، فكان احتمال الذل والاستضعاف والتعذيب أهون شرا، وأقل ضررا من محاولة دفع الظلم، لكن هذه المراعاة للمصالح والمفاسد لا تتم مع الشعور بالمذلة، أو التعرض للإبادة الكاملة، وإنما تكون مع الاستعلاء بالدين والشعور بالعزة، لذا كان رسول الله ﷺ يوازن بين الأمرين، فعوّض هذا الصبر والاحتمال على الأذى، ببناء يقين في النفوس بأن نصر الله قادم، وأن العاقبة لله ولرسوله وللمؤمنين .

---

(١) سنن الترمذي ٣٥٨١ وصححه الألباني في جامع الترمذي ٣٨٩/٥ حديث ٠ ٣٢٧

فما كان من الرعيل الأول إلا أن سبحوا في فلك السياسة الدعوية النبوية، فتجنبوا الصدام مع المجتمع قدر المُستطاع، فمن هذا الفهم لعادات المجتمع وتقاليده وحسن التعامل معه ما فعله عبد الله بن مسعود ﷺ، فيقول " بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ يُصَلِّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ، وَجَمْعُ قُرَيْشٍ فِي مَجَالِسِهِمْ إِذْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ أَلاَ تَنْظُرُونَ إِلَى هَذَا الْمُرَائِي أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَى جَزُورِ آلِ فُلاَنٍ، فَيَعْمِدُ إِلَى فَرْثِهَا وَدَمِهَا وَسَلاَهَا فَيَجِيءُ بِهِ، ثُمَّ يُمْهِلُهُ حَتَّى إِذَا سَجَدَ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ فَانْبَعَثَ أَشْقَاهُمْ ، فَلَمَّا سَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، وَثَبَتَ النَّبِيُّ ﷺ سَاجِدًا، فَضَحِكُوا حَتَّى مَالَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ مِنَ الضَّحِكِ فَانْطَلَقَ مُنْطَلِقٌ إِلَى فَاطِمَةَ رضي الله عنها وَهْيَ جُوَيْرِيَةٌ، فَأَقْبَلَتْ تَسْعَى وَثَبَتَ النَّبِيُّ ﷺ سَاجِدًا حَتَّى أَلْقَتْهُ عَنْهُ، وَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ تَسُبُّهُمْ (١)

كان من عادة العرب ألا يتجرأ الموالي والعبيد على دفع الأذى عن أحد، فأيقن عبد الله أنه إذا أقبل على رسول الله ﷺ يرد عنه الأذى لن يصل إليه إلا جسد هامد، فأبقى على نفسه، كما كان من أعرافهم ألا يتطاولوا على امرأة حرة، وإن كانت البادئة بالشر، فلهذا لم يجرؤ أحدهم على النيل من فاطمة رضي الله عنها.

ومن هذا الفهم أيضا لظروف المجتمع ما فعله مُهاجري الحبشة ﷺ من تجنب الصدام مع أهل الحبشة، وإبراز مواطن الخلاف بين العقيدتين، مع عدم تقديم تعاليم الرسالة ناقصة أو التهاون في شيء من ثوابتها، لذا أعرض جعفر بن أبي طالب ﷺ في بداية حديثه مع النجاشي عن التعرض لموقف الإسلام من بشرية المسيح ﷺ، حتى سأله النجاشي عن قولهم في المسيح، فلم يجد جعفر بُدا من عرض تعاليم الدين كاملة غير مبتورة دون محاباة أو موالاة وإن كان المُقابل هو الموت، تروي أم المؤمنين أم سلمة تفاصيل هذا المشهد قائلة " فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ عِنْدِ النَّجَاشِي قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَاللَّهِ لأُنَبِّئَنَّهُ غَدًا عَيْبَهُمْ عِنْدَهُ ثُمَّ أَسْتَأْصِلُ بِهِ خَضْرَاءَهُمْ. قَالَتْ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ - وَكَانَ أَتْقَى الرَّجُلَيْنِ فِينَا - لاَ تَفْعَلْ فَإِنَّ لَهُمْ أَرْحَامًا وَإِنْ كَانُوا قَدْ خَالَفُونَا، قَالَ وَاللَّهِ لأُخْبِرَنَّهُ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَبْدٌ، قَالَتْ ثُمَّ غَدَا عَلَيْهِ الْغَدَ فَقَالَ لَهُ أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ قَوْلاً عَظِيمًا، فَأَرْسِلْ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلْهُمْ عَمَّا يَقُولُونَ فِيهِ، قَالَتْ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ يَسْأَلُهُمْ عَنْهُ، قَالَتْ وَلَمْ يَنْزِلْ بِنَا مِثْلُهُ - فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى إِذَا سَأَلَكُمْ عَنْهُ قَالُوا نَقُولُ وَاللَّهِ فِيهِ مَا قَالَ اللَّهُ وَمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا كَائِنًا فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ. فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالَ لَهُمْ مَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؟

---

(١)البخاري ٥٢٠

فقالَ لهُ جَعْفرُ بْنُ أبي طَالِبٍ نَقولُ فِيهِ الذِي جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَرُوحُهُ وَكَلِمَتُهُ ألقاهَا إلى مَرْيَمَ العَذرَاءِ البَتُولِ . قالتْ فضَرَبَ النَّجَاشِيُّ يَدَهُ إلى الأرْض فأخَذَ مِنْهَا عُوداً ثمَّ قالَ مَا عَدَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا قُلتَ هَذا العُودَ. (١)

ومن هذا الفهم أيضا لظروف المُجتمع وطبائع الرجال ما فعله الداعية الفذ مُصعب بن عُمير لما ذهب إلى المدينة، فقد أحسن التعامل مع أهلها، وفقا لظروف المجتمع الذي يعشون فيه، بل إنه أحسن التعامل مع الأشخاص وفهم طبائعهم، فلما قدم عليه سيد قومه سعد بن مُعاذ بغية صرفه عن الدعوة إلى الإسلام بين الناس، فما كان من مُصعب إلا أن رد بكلمات بسيطة تحفظ له هيبته وتُقيم عليه الحجة، فقال له " أوتجلس فتسمع فإن رضيت أمرا قبلته وإن كرهته كف عنك ما تكره، فقال سعد أنصفت، فبدأ مُصعب يعرض عليه الإسلام، ويقرأ عليه القرآن، فبدت علامات الإسلام على وجهه، وأسلم في حينها "

فهذا الفهم لظروف المجتمع والبيئة المُحيطة من أهم أسباب نجاح أي دعوة، وإقبال الناس على الداعية، وتأثيره فيهم وعدم النفرة منه، مع التزامه بعرض حقائق الدين كاملة غير مبتورة.

بل إن من أجَل الأمور التي بدت فيها رؤية النبي ﷺ واضحة لربط أصحابه بالواقع المُحيط، وعدم انعزالهم عنه وعن أحوال السياسة العالمية آنذاك، ما كان من حُزن المسلمين لهزيمة الروم من الفرس، فعَن ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قوْلِ اللَّهِ تَعَالَى (الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أدْنَى الأرْضِ) قالَ :غُلِبَتْ وَغَلَبَتْ كانَ المُشْرِكُونَ يُحِبُّونَ أنْ يَظْهَرَ أهْلُ فارِسَ عَلَى الرُّومِ لأنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ أهْلُ أوْثانٍ، وَكَانَ المُسْلِمُونَ يُحِبُّونَ أنْ يَظْهَرَ الرُّومُ عَلَى فارِسَ لأنَّهُمْ أهْلُ كِتَابٍ، فَذكَرُوهُ لأبِي بَكْرٍ فَذكَرَهُ أبُو بَكْرٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فقالَ « أمَا إنَّهُمْ سَيَغْلِبُونَ » فَذكَرَهُ أبُو بَكْرٍ لهُمْ فقالُوا اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أجَلاً فإنْ ظَهَرْنَا كانَ لنَا كذا وَكَذا وَإنْ ظَهَرْتُمْ كانَ لكُمْ كذا وَكَذا ، فَجَعَلَ أجَلَ خَمْسِ سِنِينَ فلمْ يَظْهَرُوا فَذكَرُوا ذلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فقالَ:« ألا جَعَلتَهُ إلى دُونِ العَشْرِ » وَالبِضْعُ مَا دُونَ العَشْرِ ـ قالَ ثمَّ ظَهَرَتِ الرُّومُ بَعْدُ. (٢)

ومُجمل القول أن رسول الله ﷺ كان يُربي أصحابه على حُسن التعامل مع البيئة المُحيطة، وفهم ظروف المجتمع الذي يدعو فيه، لأن الصدام يؤدي إلى النفور، وقد يودي بالداعية إلى الموت ولم تكسب دعوته بموته شيئا، كذلك كان يربيهم على فهم الواقع المحيط به، ومجريات الأمور السياسية، وتتبع أخبارها، فإن فيه عظيم نفع لهم ولدعوتهم.

---

(١) مسند أحمد١٧٦٦ وصححه الألباني في فقه السيرة و في صحيح السيرة النبوية

(٢)سنن الترمذي ٣٤٩٧ وقال هَذا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ ومسند أحمد ٢٥٤٢

إن ما نراه الآن من عزوف كثير من الشباب المسلم عن تتبع مجريات السياسة، وخوض غمار العمل السياسي والاهتمام بأخبار الواقع الذي يُحيط بمجتمعهم، حتى أصبح عباقرة السياسة من غير المسلمين، وتركوا لهم المجال مفرغا، هو قطعا سوء فهم منهم لتعاليم هذا الدين، فهذه الغربة السياسية التي نعيشها في واقعنا المعاصر ليست مطلبا شرعيا ولن تخدم إلا أعداء الدين، إنها قطعا نتيجة للفهم الخاطيء لأمور الدين، فتجد من يستدل على هذه العُزلة السياسية بحديث رسول الله ﷺ « مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ » (١)

ففارق كبير بين أن يتدخل المسلم في عمل غيره - مما لا يعنيه - وبين أن يفقه حدود هذا العمل وأصوله وضوابطه، أي فرق بين أن تتدخل في تنفيذ هذا العمل الذي لم تُكلف به، وبين أن تقول كلمة الحق إذا تجاوز صاحب العمل حدوده التي شرعها الله، ولن نستطيع أن ندرك هذا إلا إذا فهم المسلم واقعه ومجريات الأحداث حوله.

❁ لقد بدأ رسول الله ﷺ من دار الأرقم الخطوات الأولى نحو بناء أعرق حضارة تجسد تعاليم الإسلام في أرض الواقع، فكانت دار الأرقم تجربة فريدة كان لها أكبر الأثر في تاريخ الإسلام وحياة الرسول ﷺ والمسلمين، فقد تخرج فيها الجيل الأول من الصحابة الذين حملوا هَمّ الدعوة والرسالة منذ بدايتها، بل إنه تخرج فيها تسعة من العشرة المُبشرين بالجنة، وثلاثة من الخلفاء الراشدين، وكوكبة من القادة والدعاة الذين كان لهم بصمات واضحة في تاريخ الإسلام .

ورغم أن هذه الدار كانت من البساطة في البنيان بحيث لو تطلع إليها أحد في هذا الزمان لظنها بيت خرب، لما رأى من التطاول في البنيان في المدارس والجامعات، إلا أنها خرّجت أفضل جيل أشرقت عليه الشمس، وهذا لأنها اعتمدت في تدريسها على المنهج الذي ارتضاه الله للبشر، فسارت بخطى محسوسة نحو القيادة والتمكين، ومع أنها بدأت من نقطة الصفر، إلا أنها واصلت مراحل البناء والتأهيل طوال حياة النبي ﷺ حتى اكتملت مراحل إعدادهم قبيل وفاة النبي ﷺ، فلما توفى رسول الله ﷺ لم يبدأوا من جديد؛ ليصلوا إلى نفس الكم أو ينقصون، وإنما أكملوا المسيرة بنفس الخطى وعلى نفس المنهج، وما هي إلا سنوات قلائل حتى دانت لهم الأرض شرقا وغربا، يخضعونها لحكم الله وشرعه .

---

(١)سنن الترمذي ٢٤٨٨وسنن ابن ماجة ٤١١١ وموطأ مالك١٦٣٨ومسند أحمد١٧٦٣وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير ٥٩١١وفي مشكاة المصابيح ٤٨٣٩

هكذا كانت تربية رسول الله ﷺ لأصحابه، تربية قائمة على ركيزتين أساسيتين، الإيمان بالله والعمل الصالح، وكل ما ترى في أمور الدين يمكن إجماله جميعا تحت هاتين الركيزتين، فالإيمان أمر متعلق بقلب الإنسان، والعمل الصالح مُتعلق بجوارحه ، والعمل ينقسم إلى ثلاثة أقسام: أولها يتعلق بالله (وهو العبادة) والثاني يتعلق بما يتعاطاه الناس بعضهم مع بعض (وهي المعاملات)، والثالث يتعلق بآداب النفس وآداب المجتمع (وهي الأخلاق)، فالدين: عقائد، وعبادات، ومعاملات، وأخلاق، وهذه الأقسام الأربعة اكتملت بالرسالة المحمدية وتعاليم خاتم المرسلين، فبَلَغت الغاية الّتي ليس وراءها غاية. (١)

إن التاريخ كله لم يأت برجل مثل رسول الله ﷺ، والتاريخ كله لم يعرف سيرة نبي مرسل، ولا مصلح، ولا مرب، ولا قائد، متكاملة الجوانب مثل سيرة رسول الله ﷺ، والتاريخ كله لم يشهد جيلا مثل الذي رباه رسول الله ﷺ، فكُل ما ترى في الصدِّيق من رحمة ولين جانب وصدق وإخلاص وعزيمة وأمانة، وكل ما ترى في الفاروق عُمر من قوة إيمان وعدل وشدة في الحق، وكل ما ترى في عثمان من حياء وورع وتقوى وحلم ورفق، وكل ما ترى في علي من شجاعة وإقدام وعلم وتقوى، وكل ما ترى في خالد وأبي عبيدة وسعد وجعفر من تدبير الحرب وفنون القتال وكل ما ترى في ابن عمر وسلمان وأبي الدرداء من زهد وتقشف وانقطاع إلى الله، وكل ما ترى في أبي هريرة وابن عباس وابن سعود وزيد بن ثابت من قوة حفظ وعلم غزير وفقه عميق وفصاحة وبيان ورأي صائب وقول سديد، وكل ما ترى في بلال وصهيب وخبّاب وعمار من شوق إلى لقاء الله وجنته ومن قوة إيمان وصدق في القول والعمل، وكل ما ترى في سعد بن مُعاذ من سداد في الرأي وخوف من الله وقول الحق لا يخشى فيه لومة لائم، وكل ما ترى من بسالة المجاهدين في ميادين القتال، وفي إنفاق الأغنياء في سبيل الله، وفي روح الإيثار والإخاء التي سادت هذا الجيل، ومن صبر على المحن والابتلاءات، ومن شكر على النعم، إن كل هذا مقتبس من وحي النبوة، ومهبط الوحي، إنه ثمار جناها كل هؤلاء من بقائهم في واحة الهدي النبوي، يقتبسون من رياحينها، ويتنسمون من عبق عطرها، فقد كان رسول الله ﷺ كالشمس المُشرقة التي لا يكاد يخلو مكان من نفع شعاعها، فتراها تُنير قمم الجبال العالية وسفوح التلال وبطون الأودية ورمال الصحراء، وتراها تنفذ بين ذرات المياه، وتكسر ظلمة الليل الحالك .

(١) الرسالة المحمدية للعلامة السيد سليمان الندوي. (ج ١ / ص ١٩٦)

إن الإسلام لم يأت ليمر على حياة من يعتنقه مر الكرام، فلا هو بالرابط، ولا المنظم للسلوك، ولا المُهذب للأخلاق ولا الدافع للرقي والتقدم، إن الإسلام جاء ليبني منهجا متكاملا، لا تجد فيه نقصا فتقول ليته كان فيه، ولا تشريعا فتقول ليته لم يكن فيه، لم يُحرِّم شيئا فيه فائدة، ولم يُحل شيئا فيه ضرر، جاء ليجعل لحياة البشر سمة ومنهجا، جاء ليقيم العوج الذي ساد في حياتهم، ويردهم إلى رشدهم، جاء لينتقل بحياتهم من الضيق إلى السعة، ومن التخبط إلى الوضوح، ومن الشرك إلى التوحيد .

لقد جاء الإسلام بكل ما تحتاجه البشرية من تعاليم، وكما استطاع هذا المنهج أن ينتشل العرب من الفوضى والجاهلية التي كانوا يعيشون فيها؛ ليشيدوا حضارة دانت لها معظم المعمورة، فإن إحياء هذا التراث وتجديد هذا الواقع ليس بعيد المنال، فما دام المسلمون قد وصلوا بهذا المنهج إلى ذروة سنام المجد، وارتقوا به إلى أعلى درجات العزة والتمكين، فالعودة إليه هي دليلهم؛ لبلوغ هذا المجد ثانية، فالدين لم يتغير، والمنهج لم يتبدل، والهمة لم تضعف والسبات يمكن أن يُوقظ منه، وما ينقصنا هو إيماننا بأحقيتنا في القيادة والصدارة، وقدرتنا على تسيير دفة الحياة وفقا لمصالحنا وأهدافنا .

إن إيماننا بصدق قضيتنا هو الباعث الحقيقي للنصرة والتمكين، لأنه كان نفس الباعث في قلوب الأولين، وقد مُثل جليا في خطاب المغيرة بن شعبة لما وقف بين يدي قائد الفُرس، فسأله القائد من أنتم؟

أجابه قائلا: " نَحْنُ أُنَاسٌ مِنَ الْعَرَبِ كُنَّا فِي شَقَاءٍ شَدِيدٍ وَبَلَاءٍ شَدِيدٍ، نَمَصُّ الْجِلْدَ وَالنَّوَى مِنَ الْجُوعِ، وَنَلْبَسُ الْوَبَرَ وَالشَّعَرَ، وَنَعْبُدُ الشَّجَرَ وَالْحَجَرَ فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ، إِذْ بَعَثَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الأَرَاضِينَ تَعَالَى ذِكْرُهُ وَجَلَّتْ عَظَمَتُهُ إِلَيْنَا نَبِيًّا مِنْ أَنْفُسِنَا، نَعْرِفُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ، فَأَمَرَنَا نَبِيُّنَا رَسُولُ رَبِّنَا ﷺ أَنْ نُقَاتِلَكُمْ حَتَّى تَعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ أَوْ تُؤَدُّوا الجِزْيَةَ، وَأَخْبَرَنَا نَبِيُّنَا ﷺعَنْ رِسَالَةِ رَبِّنَا أَنَّهُ مَنْ قُتِلَ مِنَّا صَارَ إِلَى الجَنَّةِ فِي نَعِيمٍ لَمْ يَرَ مِثْلَهَا قَطُّ، وَمَنْ بَقِيَ مِنَّا مَلَكَ رِقَابَكُمْ (١)

فما أروعه من جيل وما أعظمها من رسالة انتشلت العرب من ظلمات الجاهلية وتيه الصحراء ليملكوا كنوز كسرى وقيصر.

---

(١)البخاري ٣١٥٩

أسس الدعوة إلى الله والتدرج في الدعوة

إن رسالة الإسلام لم تأت لتفرض جملة من التكاليف والعبادات، وتُلزم البشر بالانسياق والرضوخ لها جملة واحدة، فإن هذا لا يتفق وطباع النفس البشرية، والله عز وجل خالق البشر، وهو أعلم بحاجات عقولهم وقلوبهم على السواء ومُطلع على خبايا النفس ومكنونات القلوب، فإن نفوس البشر طُبعت على النفرة من ترك المألوف، كما أن صرف النفوس عما ألفته ليس بالأمر اليسير، لذا كان لزاما أن تأتي التكاليف تباعا وفق استعداد الناس لاستقبالها، وهذا التدرج في نزول التكاليف والدعوة إليها، جعله الله سُنّة لا تتبدل، وسببا في توثيق عُرى الرسالة وترسيخ دعائمها، وقد أشارت إلى هذا التدرج أم المؤمنين عائشة فقالت " إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ الْمُفَصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الإِسْلامِ نَزَلَ الْحَلالُ وَالْحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ، لَقَالُوا لا نَدَعُ الْخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ لا تَزْنُوا، لَقَالُوا لا نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا، لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ (بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ) وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلا وَأَنَا عِنْدَهُ " (١)

وأشار إليه أيضا ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فقال " إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا أَنْ لَا إِلَه إِلَّا اللَّه، فَلَمَّا صَدَّقَ بِهَا الْمُؤْمِنُونَ زَادَهُمْ الصَّلَاة، فَلَمَّا صَدَّقُوا بِهَا زَادَهُمْ الصِّيَام، فَلَمَّا صَدَّقُوا بِهِ زَادَهُمْ الزَّكَاة، فَلَمَّا صَدَّقُوا بِهَا زَادَهُمْ الْحَجّ، فَلَمَّا صَدَّقُوا بِهِ زَادَهُمْ الْجِهَاد، ثُمَّ أَكْمَلَ لَهُمْ دِينهمْ فَقَالَ { الْيَوْم أَكْمَلْت لَكُمْ دِينكُمْ وَأَتْمَمْت عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيت لَكُمْ الْإِسْلَام دِينًا } "(٢)

فالقرآن لم ينزل جملة واحدة، والتكاليف لم تُفرض مرة واحدة، وإنما أنزلها الله تباعا طيلة فترة الرسالة، واقتضت حكمته أن يفرض التكاليف كحلقات متتالية، فتأتي الصلاة قبل الزكاة، ويأتي الصيام قبل الحج وهكذا، حتى التحريم لم يخل من التدرج، حتى إذا تكاملت جوانب الإيمان، جُمعت كل التكاليف واتضحت ملامح الدين وكملت شرائعه، لذا قال القرطبي في تفسير قول الله تعالى " لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ " أي تصديقا بشرائع الإيمان مع تصديقهم بالإيمان.(٣)

فالتدرج سُنّة ربانية ليست قاصرة على رسالة الإسلام، وإنما شملت كل الشرائع السماوية، فهذا نبي الله موسى عليه السلام قامت دعوته أيضا على التدرج، قال تعالى [فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى] (٤)

---

(١) البخاري ٤٩٩٣ (٢) فتح الباري لابن رجب - (ج ١ / ص ٨٦)

(٣) تفسير القرطبي - (ج ١٦ / ص ٢٦٤) (٤) {طه:٤٤}

فأمره الله تعالى بالدعوة باللين واليُسر مع رجل ادعى الألوهية من دون الله، ثم قال تعالى على لسان موسى مخاطبا فرعون[قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا](١) فهل هذا قولا لينا ؟ لقد استخدم موسى عليه السلام القول اللين في بداية دعوته، فلما لم يجد من فرعون إلا العناد والتكذيب، غيّر لغة الخطاب وأسلوب الدعوة، وكذا فعل عليه السلام مع بني إسرائيل .

ووفقا لهذا التدرج، فإن المرحلة المكية هي أول أطوار الدعوة، فإلام يدعو رسول الله ﷺ أولا ؟ وما هو الأساس الذي يرتكز عليه الدين، وتقوم به الرسالة، وسط كل هذه العبادات التي جاء بها الإسلام ؟

كانت دعوة رسول الله ﷺ إلى الإسلام طيلة العهد المكي مرتكزة على الدعوة إلى التوحيد، فإنه أصل الرسالة، ومن أجله بعث الله الأنبياء والمرسلين [وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ] (٢)

لذا ظل رسول الله ﷺ ما يقارب نصف عمره بعد الرسالة يدعو إلى التوحيد، يسعى إلى ترسيخ العقائد وإخلاص العبودية لله عز وجل، ونبذ كل صور الشرك، وقد ظهر هذا جليا في حديثه لعمرو بن سلمة العبسي « أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الأَرْحَامِ وَكَسْرِ الأَوْثَانِ وَأَنْ يُوَحَّدَ اللَّهُ لاَ يُشْرَكُ بِهِ شَىْءٌ » (٣)

وفي خطابه الأخير لعمه أبي طالب وهو على فراش الموت « يَا عَمِّ ، قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ » (٤)

وفي دعوته للناس بسوق ذي المجاز« يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ تُفْلِحُوا » (٥) فكان ترسيخ العقيدة وثبات الإيمان قضية رسول الله ﷺ الأولى طيلة العهد المكي، بل إنه جعلها دائما في مقدمة دعوته ووصاياه للدعاة وللبعوث والسرايا، بل وفي مُراسلة الملوك والأمراء، فبدأ بالتوحيد قبل التكاليف لأن ما بعده أيسر منه، فإذا أيقن العبد أنه لا إله إلا الله، لن يستثقل التكاليف والعبادات مهما كثرت

وهذا التدرج في الدعوة والتركيز على الأسس التي يقوم بها الدين قد أقره رسول الله ﷺ كمنهج للدعوة إلى الإسلام، فلا تكن بداية الدعوة قائمة على التفاصيل ومواطن الخلاف، وإنما بالأسس التي تقوم بها الرسالة وتصح بها العقيدة، والانتقال بينها من الأولى ثم الذي يليه .

---

(١)[الإسراء:١٠٢]   (٢)[الأنبياء:٢٥]

(٣)مسلم ١٩٦٧   (٤)البخاري ١٣٦٠

(٥) مسند أحمد١٦٤٤٦ وذكره الألباني في صحيح السيرة النبوية

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا عَلَى الْيَمَنِ قَالَ « إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ، فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً تُؤْخَذُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا فَخُذْ مِنْهُمْ، وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ» (١)

لقد كان العهد المكي غنيا بالتربية الروحية وتوثيق العقيدة وإخلاص العبودية لله عز وجل، فجاءت معظم الآيات المكية تدعم أركان الإيمان، ولم تتطرق إلى تشريع وتفصيل الأحكام، وإنما عنيت بتأكيد الوحدانية لله عز وجل وتزكية النفوس ومكارم الأخلاق والإيمان بالغيب، وكان لهذه التربية أكبر الأثر في ثبات المؤمنين على إيمانهم رغم ما نالوا من أذى وتعذيب، ثم جاء العهد المدني غنيا بالبناء التشريعي والعبادات المختلفة بعدما غدا الصحابة أكثر تهيؤا لاستقبال ما جاء من تكاليف .

إن التدرج لم يقتصر على فرض العبادات ومنهج رسول الله ﷺ في الدعوة فقط، وإنما شمل أيضا الأسلوب الذي اتبعه رسول الله ﷺ في كل مرحلة وفقا لمتطلباتها، فلما كان المنهج الدعوي بمكة مقتصرا على وسيلة القول والجهاد بالقرآن وإظهار الحجة على من عانده، اتبع رسول الله ﷺ أسلوب العرض واقتصر عليه، فلم يفعل سوى عرض الدعوة على الناس، فلما هاجر ﷺ وأقام دولة الإسلام، وصار أمره فيها مُطاعا، اتخذ أسلوب الحماية لهذه الجماعة وتلك الدولة عن طريق السرايا والغزوات، فلما أظهره الله على من عانده وردَّ كيد المشركين يوم الأحزاب اتخذ ﷺ أسلوب الإلزام، بغية إلزام المشركين بهيمنة دولة الإسلام وكسر شوكتهم وإدحاض تآمراتهم، فلما أظهره الله يوم حنين ودانت أرض الجزيرة لشرع الله ومنهجه، اتخذ رسول الله ﷺ أسلوبا جديدا يتلاءم والواقع الذي أصبح فيه عز الإسلام وهو أسلوب التأليف، فأجزل العطاء لرؤساء القبائل والمؤلفة قلوبهم، بغية كسر شوكتهم وتأليف قلوبهم وإمالة أتباعهم .

ومُجمل القول إن منهجية التدرج في الدعوة سُنّة كونية، وسُنّة شرعية، لا يمكن التغاضي عنها، أو تخطيها إلى ما دونها، وهي لا تزال قائمة لم تنسخ، يعمل بها حسب الأحوال، وغياب العمل بها يُعد تصادما مع الواقع لا يجني سوى الفشل والنفور، فلكل زمان لغة وأسلوب حياة، والفارق في الداعية ليس في جوهر الدعوة، وقد وضع رسول الله ﷺ منهجا دعويا متنوع الوسائل والأساليب

---

(١) البخاري١٤٥٨ والكرائم جمع كريمة وهي خيار المال وأفضله

جاءت كل منها متدرجة وفقا لظروف الدعوة زمانا ومكانا، فبدأت الدعوة بمرحلة الاصطفاء والتأسيس، فلما قويت شوكتها وصلب عودها بدأت مرحلة المواجهة والمقاومة، وفي الأخير دان الناس لراية التوحيد وبدأت الدعوة مرحلة النصر والتمكين، وكما قامت دعوة الإسلام على التدرج في كل شيء حتى كتب الله لها التمكين، لا يمكن أن تعود كما كانت بين عشية وضحاها دون بذل وعطاء، ودون تخطيط مُسبق ومنهج مُحدد، ودون فهم سليم للسنن الكونية التي حكم الله بها نظام الكون وسيّر الخلق عليها .

** أبرز مراجع هذا الفصل ((تفسير القرطبي - تفسير الطبري - فتح الباري - تاريخ الإسلام - صحيح السيرة النبوية للألباني - السيرة النبوية دروس وعبر - السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث - الرسالة المحمدية - نور اليقين - الحكمة في الدعوة إلى الله - التدرج في دعوة النبي □ - البصيرة في الدعوة إلى الله))

الباب الثالث

نور النبوة يبدد ظلام الجاهلية

الفصل الأول : الجهر بالدعوة

الفصل الثاني : أساليب المشركين في محاربة الدعوة

الفصل الثالث : الهجرة إلى الحبشة

الفصل الأول

الجهر بالدعوة

خطبة الصفا

إن رسالة الإسلام ما جاءت لتحيا في الخباء، وتتغطى بأستار الظلام، ويُدعى إليها في السر، وما جاءت لتخاطب أناس دون غيرهم، وما جاءت لتتجنب الصدام والمواجهة مع أعدائها، فما هذا شأن الشرائع السماوية، وإنما جاءت ليُصدع بها على رءوس الخلائق، وتفرض نفسها على واقع الحياة، وتواجه أهل الشرك والضلال، وقوى الظلم والطغيان، وما كانت سرية الدعوة إلا مرحلة انتقالية كتهيئة وتوطئة لما بعدها، فهذا شأن الله العليم، أن يضع بين الأحداث العظام مُقدمات تهيئ القلوب والعقول لاستقبال الحدث الجلل، والشأن الأكبر .

ظلت الدعوة إلى الإسلام في طورها السري قرابة الثلاثة أعوام، قاصرة على أناس دون غيرهم، وهذا ما قيّد انتشارها، إلا أن هذا لم يحل دون انتشار جزئي لمبادئ دعوة الإسلام بين أهل مكة، وتناقل الناس أخبارها، فتحدث عنها الحر والعبد، والرجال والنساء، والكبير والصغير، وتناقلت الأخبار بين القرشيين أن رسول الله ﷺ يتحدث عن وحي ورسالة ووحدانية لم يألفوها، غير أنهم لم يبالوا بدعوته، فهي حتى الآن دعوة سرية لم يعب بها آلهتهم، ولا معتقداتهم، ولم يمس بها مصالحهم وسيادتهم على العرب، فكان بالنسبة لهم كغيره ممن تحدثوا عن الألوهية، وهم كثير منهم زيد بن نفيل الذي شاع خبره في مكة، وأمية بن الصلت الذي جابت أشعاره كل الجزيرة، وغيرهم كثير، فاعتبروا دعوة رسول الله ﷺ ومن صاحبه في ركاب دعوة من سبقوه، ولم يكلفوا أنفسهم حتى في التفكير عن سبب شرود هؤلاء عن معتقداتهم، فألفوا الضلال واستعذبوه حتى غدا سُنّة يتوارثونها .

لم يدم الوقت طويلا حتى نزل الأمر من السماء بالجهر بالدعوة، فجاء الوحي بمعظم آيات سورة الشعراء، وهي التي سماها الإمام مالك (سورة الجامعة) لما اشتملت عليه من أخبار الرسل السابقين، وجدالهم مع أقوامهم، ابتداءً بجدال موسى عليه السلام لفرعون، وتثبيت الله تعالى لموسى ومن آمن معه، ثم جدال إبراهيم عليه السلام قومه في أصنامهم وبطلان معتقداتهم في نفعها، وجدال نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام لأقوامهم، وكيف نجّا الله من آمن وأهلك الكافرين. فلاشك أن كل هذا القصص يحمل في طياته دوافع التثبيت واليقين بنصر الله تعالى

وهذه قيمة القصص القرآني، يشرح تجارب السابقين لتكون بيانا وإرشادا للتابعين، فالتاريخ حوادث تتكرر، ودعوة الرسل كتجارب الشعوب تظل قيمتها دروسا وعبر لا يضيع نفعها، ولا ينتقص عطاؤها، وانظر إلى جدال شعيب عليه السلام لقومه [وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ](١) فجعل من مصير السابقين حُجة على عقولهم، وإنذار ووعيد لمن عاند واستكبر .

وبعد عرض سريع لتاريخ البشرية وشأنها مع الرسل والأنبياء، جاء الأمر بالجهر بالدعوة، قال تعالى [وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ](٢) فكان أمرا من الله تعالى بالجهر بالدعوة على رءوس الخلائق في البلدة الحرام، ولم يختص بطن دون بطن.

قال ابن عباس وغيره في قوله تعالى{قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} (٣) لم يكن بطن من بطون قريش إلا ولرسول الله ﷺ نسب يتصل بهم .

فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن استجاب للأمر، فلم يتوانى ولم يتردد وإنما صَعد ﷺ عَلَى الصَّفَا فَهَتَفَ « وَاصَبَاحَاهُ » فقالوا: مَنْ هَذَا الذي يَهْتِفُ؟ قَالُوا: مُحَمَّدٌ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ (٤) فدَعَا قُرَيْشًا فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وَخَصَّ فَقَالَ « يَا بَنِى فِهْرٍ، يَا بَنِى عَدِىٍّ » فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولاً لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فلما اجتمع الناس فَقَالَ لهم « أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ » قَالُوا نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلاَّ صِدْقًا، قَالَ « فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ » (٥) « يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ يَا بَنِى عَبْدِ شَمْسٍ وَيَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ وَيَا بَنِي هَاشِمٍ وَيَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ وَيَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبِلاَلِهَا » (٦) « يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لاَ أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا » (٧)

---

(١){هود:٨٩} (٢)(الشعراء٢١٤ :٢١٥)

(٣)صحيح السيرة النبوية للألباني والآية من سورة [الشورى : ٢٣]

(٤)سنن البيهقي ١٨١٨١ (٥)البخاري ٤٧٧٠

(٦)سنن النسائي ٣٦٥٩وصححه الألباني في سنن النسائي حديث٣٦٤٤ ، سأبُلُّها ببلالِها أي أصلها بصلتها

(٧)البخاري٢٧٥٣

فقام أبو لهب على رءوس الخلائق وقال لرسول الله ﷺ " تَبًّا لكَ سَائِرَ اليَوْمِ، أَلِهَذا جَمَعْتَنَا فنَزَلَ فيه قول الله تعالى (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ) (١)

بهذه الكلمات التي جهر بها رسول الله ﷺ علانية على مسامع قريش سادة وعبيدا، رجالا ونساءً، بدأت الدعوة إلى دين الله تدخل طورا جديدا، طور الدعوة العلنية إلى دين الله عز وجل، وهو الطور الذي تكشفت فيه ملامح العداوة بين الإسلام والجاهلية، فلم يعد أمر رسول الله ﷺ ودعوته بالنسبة للمشركين كمن تحدثوا عن الألوهية من قبل، وإنما صارت دعوة عامة بأوامر واضحة، تحمل البُشرى لمن آمن بها، والوعيد لمن كذّب بها، وبيّنَ النبي ﷺ بكلماته هذه أنه إنما هو بشير ونذير، لا يملك لأحد ضرا ولا نفعا، إنه لا يملك حتى أن ينقذ ابنته فاطمة، فسمّاها على رؤوس الخلائق؛ ليبين للناس عامة أن رسالته لا تستثني أحدا من الجزاء الذي أعده الله للمؤمنين والكافرين على السواء، فكل يُثاب على قدر عمله .

قابل أهل قريش نبأ رسول الله ﷺ بشيء من التعجب والاندهاش، إلا أنهم لم يبدوا رأيا أو تعليقا فوريا على ما سمعوا إلا أبو لهب خاسر الدنيا والآخرة، فكان أول من بادر بالعداوة، فنهره بكلمات فظة تبين مدى ما يحمل قلبه من سفه وجهل فقال " تَبًّا لكَ سَائِرَ اليَوْمِ، أَلِهَذا جَمَعْتَنَا " وأي أمر أهم من هذا يجتمع الناس إليه! لو أن النبي ﷺ حدّثهم عن أمر من أمور التجارة لكانوا آذانا صاغية!

وهذا صنف من البشر يأخذ كل أمور الدنيا بمقاييس مادية، فإذا حدثته عن غذاء الروح أعرض واستكبر .

إن رسول الله ﷺ لم يحدثهم عن أمر من أمور تجارتهم، ولا عن مُلك يطلبه لهم ويود نصرتهم، وإنما يحدثهم عن رسالة تدعو إلى التوحيد، ووعد لمن آمن وصدّق بالنجاة والجنان، ووعيد لمن كذّب وكفر بالعذاب والخسران، فأي أمر بعد هذا يستحق أن يتحدث القوم عنه!

لقد بادر أبو لهب بالعداوة وجهر بها عيانا بسوء لفظه، لذا جاءته البشارة بما يستحق عاجلة غير آجلة، في أول يوم يُجهر فيه بالدعوة، وهذا - والله أعلم - لغلظة لفظه على رسول الله ﷺ دونا عن قريش جميعا في أول خطاب لرسول الله ﷺ عن دعوته، وهو الأقرب إليه نسبا ورحما، فكان من الأليق به ألا يكون الأحدَ لفظا وعداوة، وإن لم يؤمن برسول الله ﷺ

---

(١) البخاري ٤٧٧٠

وهنا يبرز لنا مقام رسول الله ﷺ عند ربه، وأنه مقام عظيم، فالأدب معه في الخطاب واجب، ومن ينل منه ببذيء لفظ، أو سيء قول، أو فعل، أو رسم، أو تشبيه، سينتقم الله عز وجل منه إن عاجلا أو آجلا.

ألم يُخاطب الله عز وجل المؤمنين محذرا إياهم بتوخي منتهى الأدب في الحديث معه ﷺ، فقال تعالى [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ](١) لقد جاء اللفظ القرآني محددا وصريحا، فذكر الله تعالى أمرا ربما ظنه الكثير هينا، فجعله الله سببا في إحباط عمل المؤمنين إن هم أقدموا عليه " لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ " إنه عمل قد يبدو بسيطا عند الكثير لكنه عند الله أمر عظيم .

بل إن من عظيم أمر هذه الآية أنها نزلت في الشيخين، أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فقد روى البخاري عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ أَنَّ رَكْبٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فقَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَمِّرِ الْقَعْقَاعَ بْنَ مَعْبَدِ بْنِ زُرَارَةَ، قَالَ عُمَرُ بَلْ أَمِّرِ الأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ مَا أَرَدْتَ إِلاَّ خِلاَفِي، قَالَ عُمَرُ مَا أَرَدْتُ خِلاَفَكَ، فَتَمَارَيَا حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا فَنَزَلَ فِي ذَلِكَ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا) حَتَّى انْقَضَتْ(٢)

لقد عجّل القرآن لأبي لهب البشارة بالنار رغم أن كثيرا من المشركين قد أغلظوا على رسول الله ﷺ وأصحابه بعده فتأن الله بهم، إلا أنه انتقم منهم أجمعين، لكنه لم يعرض صورة حية لجزائهم، كما عرضها في حق أبي لهب، وهذا لأن أبا لهب إمام كل من ارتكب نفس جرمه، يقودهم جميعا إلى النار، ألم يقل الله تعالى عن فرعون وقومه [وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ](٣) فكل من جاهر بالعداء لله ورسوله كان إمام كل من خلفه يقودهم إلى جهنم، ومما يؤصل هذا المعني أن النبي ﷺ ذَكَرَ الصَّلاَةَ يَوْماً فَقَالَ « مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُوراً وَبُرْهَاناً وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلاَ بُرْهَانٌ وَلاَ نَجَاةٌ وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ »(٤) فلما كانت الصلاة مقياس الإيمان، جاء الجزاء موازيا لمكانتها، فمن أعرض عنها تكبرا وجحودا حُشر مع كل من تكبر على دعوة الله وجحد بها .

---

(١) {الحجرات:٢} (٢)البخاري ٤٣٦٧

(٣){القصص:٤١} (٤)مسند أحمد ٦٧٣٣ وصححه الألباني في مشكاة المصابيح ٥٨٧

كذلك كانت سورة المسد بمثابة تحد عظيم من الله عز وجل للمشركين، فقد جاءت هذه الآيات لتجزم أن أبا لهب سيموت كافرا، ولو أن في عقولهم بقية من خير لاهتدوا جميعا بهذه الآيات! أما كان بوسع أبي لهب أن يقف على رءوس الخلائق ويعلن إسلامه ولو نفاقا!

تُرى لو كان القرآن من عند رسول الله ﷺ أكان سيُغامر بمستقبل دعوته كلها هكذا في أول يوم يجهر فيه بها ؟

إن من أنزل القرآن هو عالم الغيب والشهادة السميع العليم، الذي يعلم أن أبا لهب لن يسلم حتى ولو نفاقا، فعاش أبو لهب طيلة حياته يحارب رسول الله ﷺ ودعوته حتى مات على الكفر بعد بدر؛ ليخسر الدنيا والآخرة، وهو عم رسول الله ﷺ وصهره! فقد كانت رقية بنت رسول الله ﷺ زوجة عتبة بن أبي لهب وأم كلثوم زوجة عتيبة بن أبي لهب، فلما نزلت سورة المسد طلقاهما بغضة في رسول الله ﷺ، فكان طلاقهما قبل الدخول بهما كرامة من الله لهما، فتزوج عثمان ﷺ من رقية، ولما توفيت بعد غزوة بدر تزوج من أم كلثوم، ولهذا كان يُقال له (ذو النورين) (١)

ولنا مع خطاب الصفا وقفة أخرى، فهو أول خطاب إعلامي جهري تحدث عن الإسلام بعد ثلاثة أعوام من الدعوة السرية، ومع ذلك فقد وضع فيه رسول الله ﷺ أسس الإعلام في المنظور الإسلامي، فحوى خطابه جملة من المفاهيم والدلالات الإعلامية التي ترسم الشكل العام لمبادئ الإعلام الإسلامي، نذكر منها :

١- **حُسن المدخل وجذب الانتباه:** فقد جسّد النبي ﷺ في خطبته أعلى درجات فنون الاتصال، فأحسن استخدام الوسيلة، ثم أحسن استخدام الأسلوب المثير للانتباه، فصعد الجبل؛ ليصل كلامه إلى كل من يسمعه بنفس القوة وعلى نفس الدرجة من التأثير، وهو في الوقت نفسه يُخاطب أكبر عدد من الناس في آن واحد، ثم استهل خطابه بما تقتضيه ظروف المجتمع من ألفاظ غاية في إثارة الانتباه، فهتف « وَاصبَاحَاهُ » وقد كانوا يستخدمون هذا اللفظ في التحذير من عدو قادم، أو غارة من لصوص، فينتبه كل أهل القبيلة للصارخ، فاستخدمه رسول الله ﷺ جذبا للانتباه، وإثارة للاهتمام، فحقق الغرض تماما، حتى إن من لم يستطع أن يأتي أناب عنه من يأتيه بالخبر.

---

(١) نخائر العقبى - (ج ١ / ص ١٦٢- ١٦٤)

٢ـ استخدام أسلوب الحوار: فالإعلام الناجح هو الذي يحقق قدرة عالية في التأثير دون مصادرة للآراء، وإنما بمنح الفرصة للمشاركة والحوار المفتوح، لما في الأسلوب الحواري والمُشاركة الفعالة والحوار المفتوح من قدرة على التأثير والإقناع، وهذا ما فعله رسول الله ﷺ فلم يحتكر الحديث، وإنما بدأ حديثه بفتح باب الحوار والمناقشة بأسلوب استفهامي يقتضي طرفي حوار، سائل ومُجيب، وهذا أدعى إلى شدة التركيز وعدم صرف الانتباه .

٣ـ الاعتماد على الصدق: فالمصدر الإعلامي هنا هو رسول الله ﷺ، وقد أقرّ بصدقه أهل مكة جميعا يوم أن حكموه في أهم قضاياهم، في أمر الحجر الأسود بعدما كادوا أن يقتتلوا من أجله، فرضوا به حكما، بل وصاحوا قائلين " هذا الأمين رضينا به حكما " فقد أقاموا الحجة على أنفسهم بصدقه، ثم انتزعها منهم عيانا قبل أن ينطق بأمر رسالته؛ ليكون قولهم حجة عليهم فاستشهد بالأمر المعلوم الذي تمت القناعة به ـ وهو صدقه ـ على الأمر الجديد الذي يريد توصيله للناس ـ وهو نبوته .

لقد جعل رسول الله ﷺ معيار الصدق همزة الوصل بين الإعلام والجمهور المُخاطب، وهذا الضابط من أهم مبادئ الإعلام في المنظور الإسلامي، العرض الموضوعي للأحداث، وتجنب التعتيم الإعلامي، والتضليل وتلفيق الأخبار، والكذب والافتراء، فالحق يوما سيظهر، ولن يخسر إلا المصدر الإعلامي بفقدان الثقة وعدم الأهلية، والتاريخ الحديث يعج بتجارب لأنظمة استخدمت التضليل الإعلامي للتستر على جرائمها، أو لتزييف حقائق مبادئها، فانكشف سترها، وابتعد الناس عن وسائلها التضليلية .

٤ـ مبدأ الترغيب والترهيب: إن الإسلام لم يأت ليقذف في قلوب البشر جملة من الأوامر والنواهي، ويُحيطها بجملة من عبارات الوعيد والإنذار، خالية من البشرى وبث الطمأنينة، وليس هذا مطلبا في الإعلام الإسلامي أن يعتمد لغة الزجر والوعيد والإنذار والتهديد، فإنه يصرف القلوب عن أي طرح إعلامي، بل ويفقده تأثيره وقدرته على الإقناع، وإنما يفترض بالإعلام أن يفتح للناس آمال أوسع وطموحات أكبر، أن يبني لهم الأمل القائم على السعي والعمل، لا على الإتكالية والأماني الزائفة، أن يستفيد من الطاقات والإمكانات المُتاحة لا أن يجعلها قوى مُعطلة ويثبط فيها الهمم ويقتل روح الإبداع والابتكار، يعتمد على منهج وسط في الوعد والوعيد والبشارة والإنذار والأمر والنهي، فهذا المنهج اعتمده القرآن في كثير من الآيات التي جمعت بين الوعد والوعيد والبشارة والإنذار

وفي خطبة الصفا « يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا » « فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ » إلا أن ضرورة الحال كانت تقتضي تقديم الإنذار والتركيز عليه لما فيه من مُحرك للقلوب وباعث على التفكير في الأمر وأخذه محمل الجد، ثم تجد هذا المبدأ في كثير من الأحاديث النبوية التي حققت التوازن بين الترغيب والترهيب في سياق واحد، كقوله ﷺ « الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ » (١) بل إن هذا التوازن قد حرص عليه أيضا الصحابة، لما رأوا من شدة حرص النبي ﷺ عليه، فهذا عبد الله بن مسعود ﷺ قال " قَالَ النَّبِيُّ ﷺ كَلِمَةً وَقُلْتُ أُخْرَى، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ « مَنْ مَاتَ وَهْوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ »وَقُلْتُ أَنَا مَنْ مَاتَ وَهْوَ لا يَدْعُو لِلَّهِ نِدًّا دَخَلَ الْجَنَّةَ . (٢)

فجدير بالإعلام الإسلامي أن ينوع من لغة خطابه، ووسائل وأساليب عرض دعوته، لا أن يصُبها في قالب يبث في النفس الصد والنفور، فيقودها إلى البلادة والفشل .

٥- توظيف الأعراف والتقاليد لخدمة الطرح الإعلامي: فالإعلام المنعزل عن الواقع الذي يبث فيه مادته الإعلامية وعن تقاليد المُجتمع وقيمه الدينية، والإعلام المنعزل عن ظروف الزمان ولغة التعامل الدارجة بين أفراده وأنماط التفكير السائدة فيه، لا يمكن أن يحقق التواصل مع الجمهور، بل إنه سيهتف بعيدا عن حاجات عقولهم، ولن يجد من يستمع إليه، وفي خطاب رسول الله ﷺ، ربط النبي ﷺ بين موضوع خطابه وبين مُسلمات المجتمع الذي هو جزء منه، فتجده يستخدم المصطلحات المُتعارف عليها؛ لجذب الانتباه، وإثارة اهتمام السامع، فيبدأ حديثه بقوله « وَاصَبَاحَاهُ » وهي كلمة متعارف عليها بين قبائل العرب التي ألفت الحروب والغارات، فإذا نودي بهذه الكلمة التفت الجميع إلى الصارخ، وانتبهوا إلى ما يقول، ثم نادى بطون قريش بألقابها « يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ، يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ، يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، وَيَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، وَيَا بَنِي هَاشِمٍ، وَيَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ » والنداء بألقابهم يثير الحمية والنخوة في قلوبهم، ولما في صيغة النداء بالألقاب من رفع المكانة، وإنزال الناس منازلهم، وهذا أدعى إلى تليين القلوب وتخفيف حدة العداء، ولو في اللقاء الأول، وهذا ما حدث بالفعل، فإن أحدا من قريش بكل بطونها قد تجرأ على رسول الله ﷺ باللفظ في هذا الخطاب، إلا ما كان من أمر أبي لهب.

---

(١) البخاري ٦٤٨٨ (٢) البخاري ٤٤٩٧

ثم خصّ النبي ﷺ أسماءً بعينها في خطابه، فجهر بها على رءوس الخلق، وهذا وإن كان أمرا لم تُقره العرب كثيرا في حديثها، إلا أنه يوصل الفكرة موضوع الخطاب، بأنه ﷺ لا يملك لأحد ضرا ولا نفعا، وإن كان عمه العباس، وإن كانت عمته صفية، بل وإن كانت ابنته الجويرية الصغيرة، وهذا إثارة للعقول في استيعاب القول وفهم المضمون .

فهذا التوظيف الإعلامي لمسلمات المجتمع، جدير بأن يجعل الطرح الإعلامي أشد إثارة، وأقوى إقناعا، وأسهل استيعابا وأقرب إلى الفهم، وأبسط في الأسلوب، بعيدا عن التكلف والتعقيد، مصطبغا بعادات الأمة وأعرافها، خاليا من الاقتباسات الدخيلة على تقاليد الشعوب .

٦- **تطور وسائل الإعلام بما يتوافق وحاجات العصر** : ظلت الدعوة إلى الإسلام في طورها السري قرابة الثلاثة أعوام اقتصرت فيها وسائل الدعوة على الأحاديث المباشرة بين رسول الله ﷺ وأصحابه في نطاق ضيق، وبين الصحابة بعضهم بعضا، إلا أن هذا الأسلوب الدعوي قابل للتطور وفقا لمستجدات الأحداث، فكان الأمر بالجهر بالدعوة هو بمثابة تكليف بتغيير لغة الخطاب، وأسلوب الدعوة، ووسائل الاتصال بالناس، فلكل مرحلة متطلباتها الإعلامية التي تخدم الهدف المُراد تحقيقه، وكذلك حاجات الناس، وهذا التطور في لغة الخطاب ووسائل الاتصال بالناس تراه جليا طيلة أحداث السيرة العطرة، تتطور الوسائل بتطور الأهداف وظروف المكان والزمان، فالانعزالية والتخلف عن مواكبة العصر يفقد المصدر الإعلامي جمهوريته، وقدرته على التأثير والجذب والإقناع .

٧- **تحديد الأهداف**: وترتيبها وفقا لما يقتضيه فقه الأولويات، وهذا التحديد للأهداف يشمل تحديد الوقت والزمان المُناسب، والمكان المُلائم، والمحتوى والأسلوب الأكثر فاعلية في توصيله، وفهم طباع الجمهور المتلقي، وفي خطبة الصفا قد جمع رسول الله ﷺ كل هذه الضوابط بعناية فائقة، ثم حدّد الهدف الأكثر أهمية في دعوته ورسالة الإسلام عامة، وهو قضية التوحيد، فلم يزد في خطابه عن بيان حقيقة التوحيد والبعث والحساب والنعيم لمن آمن وصدّق، والجحيم لمن كذّب وعصى، ولم يتطرق إلى أي جانب آخر، وهذا التنظيم في الطرح الإعلامي يجعل التركيز على الأهداف الكبرى هو الشغل الشاغل، والهدف الحثيث، وترتيب عرضها من الأهم فالمهم، وما من عمل يسير وفق خطوات مُحددة، ومنهج مرسوم، إلا وكُتب له النجاح، ولازمه التوفيق .

٨ـ اعتماد أسلوب التأكيد بالتكرار: التكرار، أسلوب قرآني اعتمده القرآن في كثير من الآيات والقصص، لما له من قوة في التأثير، وقدرة على الإقناع، ومُخاطبة أعماق النفس بفكرة واحدة، ولكن بصيغ مختلفة، وهذا المنهج القرآني استلهمه النبي ﷺ واعتنى به كثيرا، فقلما يخلو موقف دعوي ولا تربوي ولا خطابي إلا واستخدمه ﷺ وفقا لما تقتضيه أحوال السامعين، ففي خطبة الصفا تجده ﷺ يُركز على فكرة واحدة ويتناولها بصيغ متعددة «لا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» «إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ» «أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ» «يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ .... وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»

فكل هذه العبارات تدور حول فكرة الإنذار بما كلفه الله تعالى به من تبليغ رسالته، واقتصار وظيفته عند البلاغ، وبيان جزاء من آمن وجزاء من كفر، صاغها رسول الله ﷺ في عبارات مُختلفة، تتسم بالوضوح والبيان؛ لتكون سهلة الإدراك من السامعين، سريعة الإيصال إلى المقصود بعيدة عن التكلف. (١)

✪ إن الجانب الإعلامي في السيرة النبوية يحمل في طياته المنهج النبوي للتصور الإعلامي في الإسلام، منهج له معالم بارزة لمقومات الإعلام بمفهومه الإسلامي، منهج يجعل للإعلام معنى وقيمة، يحدد له هدفا ومُثلا عُليا يسعى إلى تحقيقها، منهج يضع الأسس والضوابط، ويترك للقائمين عليه حرية اختيار الوسائل والأساليب الأكثر فاعلية والأكثر ملائمة للجمهور المُخاطب، منهج لا يقتصر نفعه على فئة أو مُجتمع مُعين، وإنما يتعدى نفعه؛ ليشمل البناء الأخلاقي للبشرية كلها، فما دمنا قد اجتمعنا على الحياة في كوكب واحد فيمكن لمثلنا العليا وأهدافنا السامية أن تلتقي.

لقد طالعنا العالم الغربي بالصورة الحقيقة لوسائل إعلامه إبان تفجيرات سبتمبر، لكنه قطعا لم ير الصورة الحقيقية للإعلام الإسلامي، هذه الصورة التي رسمها رسول الله ﷺ طيلة مشوار دعوته، وضع فيها الأسس والضوابط التي يستقيم بها حال الوسائل الدعائية، هذه الأسس التي يكشفها مضمون خطبه ووصاياه منذ بداية دعوته وحتى الساعات الأخيرة من حياته.

إن الغرب بالقطع لم ير هذا النموذج الفريد في الصدق الإعلامي، وتحري الموضوعية، هذا النموذج الفريد في أمانة النقل والحياد في التحليل

---

(١) المرجع: الجوانب الإعلامية في خطب الرسول ﷺ

هذا النموذج الفريد في البُعد عن الفُحش والدناءة في القول والعمل، هذا النموذج الذي يرتقي بالوسيلة الإعلامية؛ لتُفيد البشرية وتقارب بين الشعوب، هذا النموذج الذي يدعو إلى المُثل العُليا والقيم الأخلاقية، هذا النموذج التي يتعامل مع العصر وفق مُتطلباته ويُركز على احتياجاته، هذا النموذج الذي يحترم عقل المُستمع ولا يستخف به، فالإعلام الغربي قد جسّد الصورة الحقيقة لإعلام المجتمع الجاهلي الذي جاء الإسلام ليحاربه، هذا الإعلام الذي امتلك أقوى وسيلة اتصال آنذاك، وهي الشعر، فأساء استخدامها، جعلها في الهجاء أكثر من التذكير بالنعم والاعتبار بمن سبق، وفي تأجيج روح العصبية أكثر من الحض على الإخاء والتعاون، وفي الدعوة إلى الحروب وسفك الدماء أكثر من التسامح والعفو، وفي المُفاخرة بالأحساب والأنساب أكثر من الدعوة إلى صالح الأقوال والأعمال، فهل أفادته هذه الوسيلة الإعلامية في بناء مُجتمع متماسك ؟

لقد جاء رسول الله ﷺ ولا يعرف العرب وسيلة إعلامية أقوى تأثيرا وأشد جذبا من الشعر، ولم يعرفوا أسلوبا لدفع روح الحماسة والحث على البذل والتضحية والبأس في القتال أشد من الهجاء والطعن في الآخرين، فكيف تعامل رسول الله ﷺ مع هذا الواقع ؟

لقد غيّر رسول الله ﷺ أسلوب الاتصال، ولغة الخطاب، وقد تمثل هذا جليا يوم بدر، فقد اعتنى النبي ﷺ بالتعبئة الإيمانية والإعداد النفسي لجند الإسلام، في الوقت الذي كانت المفاخرة والمنافرة في صفوف المشركين هي الوسيلة للحض على القتال.

لقد جاء رسول الله ﷺ ليضفي سمات المنهج الإسلامي على كل جوانب الحياة، تلك السمات التي تطرقت إلى كل جوانب الحياة، فأصلحت فاسدها وردّت عوجها، فاستقام أمرها، فيا ليتنا ندرك هذه الحقائق .

مع بني عبد المطلب

ما من أحد يحمل هَمّ رسالة يود تبليغها إلا ويتطلع لنصرة ذويه وخاصته؛ ليكونوا له عونا وسندا، حاميا وناصرا، ولما نزل على رسول الله ﷺ الأمر بالجهر بالدعوة جمع بنو المطلب على طعام أعده لهم، بغية تبليغهم دعوة الله يحبوه الأمل في أن يكونوا ناصريه ومؤيديه، ولعلهم أن يفوزوا بالسبق في الدعوة إلى الإسلام، غير أن الأمر جاء على غير ما أحَبَّ وتمنى، فلم يبد قومه أي بوادر إيمان ولا نصرة ولا تأييد .

روى أحمد في مسنده عَنْ عَلِيٍّ بن أبي طالب ؓ قال: قَالَ جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَنِى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فِيهِمْ رَهْطٌ كُلُّهُمْ يَأْكُلُ الْجَذَعَةَ وَيَشْرَبُ الْفَرَقَ فَصَنَعَ لَهُمْ مُدًّا مِنْ طَعَامٍ فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا وَبَقِيَ الطَّعَامُ كَمَا هُوَ كَأَنَّهُ لَمْ يُمَسَّ ثُمَّ دَعَا بِغُمَرٍ فَشَرِبُوا حَتَّى رَوَوْا وَبَقِيَ الشَّرَابُ كَأَنَّهُ لَمْ يُمَسَّ أَوْ لَمْ يُشْرَبْ فَقَالَ « يَا بَنِى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِنِّي بُعِثْتُ إِلَيْكُمْ خَاصَّةً وَإِلَى النَّاسِ بِعَامَّةٍ وَقَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ هَذِهِ الآيَةِ مَا رَأَيْتُمْ فَأَيُّكُمْ يُبَايِعُنِي عَلَى أَنْ يَكُونَ أَخِي وَصَاحِبِي ».

قَالَ فَلَمْ يَقُمْ إِلَيْهِ أَحَدٌ - قَالَ - فَقُمْتُ إِلَيْهِ وَكُنْتُ أَصْغَرَ الْقَوْمِ، فَقَالَ « اجْلِسْ » قَالَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ كُلُّ ذَلِكَ أَقُومُ إِلَيْهِ فَيَقُولُ لِي « اجْلِسْ » حَتَّى كَانَ فِي الثَّالِثَةِ ضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى يَدِي. (١)

وذكر ابن الأثير في كتابه (الكامل) أن رسول الله ﷺ دعا بني عبد المطلب إلى طعام أعده لهم ثم قال لهم :

(الحمد لله، أحمده واستعينه وأؤمن به وأتوكل عليه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ثم قال: إن الرائد لا يكذب أهله، والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، وإنها الجنة أبداً والنار أبدا، فقال أبو طالب: ما أحب إلينا معاونتك وأقبلنا لنصيحتك وأشد تصديقنا لحديثك، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم، غير أني أسرعهم إلى ما تحب، فامض لما أمرت به فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك، غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب، فقال أبو لهب: هذه والله السوأة! خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم. فقال أبو طالب: والله لنمنعنه ما بقينا (٢)

---

(١)مسند أحمد١٣٨٧ و قال الهيثمي في مجمع الزوائد حديث١٤١٠٩ رواه أحمد ورجاله ثقات

(٢)الكامل في التاريخ (ج ١ / ص ٢٥٨)وتفسير ابن كثير (ج٣ ص ٣٦٣)

توالت الآيات التي تدعو النبي ﷺ بالجهر بالدعوة فقال تعالى [وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ](١) وقال [فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ](٢) وبدأت رسالة الإسلام تتحدث عن بطلان معتقدات قريش ومن سار على نهجها في إشراك آلهة مع الله الواحد القهار، وأظهرت مفاسد معتقداتهم في اتخاذ أحجار وأخشاب آلهة من دون الله، وهي مجرد جمادات لا تملك نفعا ولا ضرا، ولا تملك منهجا ينظم حياة البشر، ولا تملك وعدا لمن آمن بها، ولا وعيدا لمن جحد بها، قال تعالى [وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا] (٣)

وجاهر النبي ﷺ بدعوته على رءوس الخلائق، وصدع بها في مجالس الرجال وأنديتهم، وفي كل مكان يرى فيه جمعا من الناس، يبين لهم حقيقة التوحيد، وأنهم مُتَبر ما هم فيه وباطل، فاجتمعت قريش على عداوته والنيل ممن آمن به وصدقه، غير أن الله قد حماه بعمه أبي طالب، الذي ظل على دين قومه، وربما هذا الذي حفظ له مكانته بينهم فما تجرأ أحد منهم على النيل من رسول الله ﷺ ولا أن يُفاجئوا أبا طالب بشيء في شأنه ﷺ، فهان عندهم أمر الله ورسوله، وعزّ عندهم شأن أبي طالب وقومه، وهذه العصبية العمياء ليست بالخُلق الجديد، وإنما هي إرث يتوارثه أهل الشرك والضلال جيل بعد جيل، ألم تر إلى جدال قوم نبي الله شعيب عليه السلام وجوابه عليهم [قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ](٤)

ظل رسول الله ﷺ يصدع بدعوته، يحبوه الأمل في أن تستمع إليه آذان قومه، وتعي قلوبهم قوله، فما أجابه إلى أمره إلا القليل، وأغلبهم من المستضعفين، الذين تحملوا من ألوان العذاب التي تفنن فيها المشركون ما تعجز الألسن عن وصفه، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ " كَانَ أَوَّلَ مَنْ أَظْهَرَ إِسْلَامَهُ سَبْعَةٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَعَمَّارٌ وَأُمُّهُ سُمَيَّةُ وَصُهَيْبٌ وَبِلَالٌ وَالْمِقْدَادُ، فَأَمَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَمَنَعَهُ اللَّهُ بِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ فَمَنَعَهُ اللَّهُ بِقَوْمِهِ، وَأَمَّا سَائِرُهُمْ فَأَخَذَهُمُ الْمُشْرِكُونَ وَأَلْبَسُوهُمْ أَدْرَاعَ الْحَدِيدِ وَصَهَرُوهُمْ فِي الشَّمْسِ

---

(١)(الحجر:٨٩) (٢)(الحجر:٩٤)

(٣)(الفرقان:٣) (٤)(هود٩١/٩٢)

فَمَا مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَقَدْ وَاتَاهُمْ عَلَى مَا أَرَادُوا إِلاَّ بِلالاً فَإِنَّهُ قَدْ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي اللَّهِ وَهَانَ عَلَى قَوْمِهِ فَأَخَذُوهُ فَأَعْطَوْهُ الْوِلْدَانَ فَجَعَلُوا يَطُوفُونَ بِهِ فِي شِعَابِ مَكَّةَ وَهُوَ يَقُولُ أَحَدٌ أَحَدٌ (١)

لقد أيقن هؤلاء المستضعفون أن الابتلاء سُنّة ربانية، فهانت عندهم أنفسهم في الله عز وجل، وأيقنوا أن وعده آت لا مناص، فكان ثباتهم على الإيمان دعوة جديدة للدين الجديد، فما هذا الذي صنعته العقيدة في نفوسهم كي يتحملوا من أجلها كل هذا العذاب؟ ألم يكونوا يسجدون لهذه الأصنام بالأمس القريب؟ ألم يكونوا يسألونها الشفاعة والعفو والمغفرة؟ ألم يكونوا يعتقدون في نفعها وضرها؟ إنه الإيمان الذي بدّل أجسادهم غير الأجساد، وأرواحهم غير الأرواح، فلم يستوعب أهل الشرك والضلال هذه المعاني السامية، والقيم النبيلة، التي تغير حياة الأفراد والشعوب وتبني أملا جديدا في القلوب، يخترق أفق الأرض؛ ليتصل برب الأرض والسماء، هذه المعاني التي لا تستوعبها آذان صمٌ، وقلوب عميٌ، ترى الحق فتعرض عنه، وتعلم الباطل فتتمادى فيه، لقد جاءت رسالة الإسلام في غفلة من البشر عن التوحيد وشرع السماء، لذا كانت غربتها شديدة، وعاش أهلها غرباء بين أهل زمانهم.

قال ﷺ« بَدَأَ الإِسْلاَمُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ » (٢)

فَقِيلَ مَنِ الْغُرَبَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟

قَالَ ﷺ «الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِي مِنْ سُنَّتِي » (٣)

وقال ﷺ « أُنَاسٌ صَالِحُونَ فِي أُنَاسِ سَوْءٍ كَثِيرٍ مَنْ يَعْصِيهِمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُطِيعُهُمْ » (٤) ولكن لما عاش المسلمون الاوائل تلك الغربة وهم بين ذويهم؟ وما الذي سيطوي صفحة الإسلام بغربة كما بدأ، بعد العز والتمكين ؟

منذ أن خلق الله عز وجل آدم وأسكنه وذريته الأرض، أرسل الله إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، وما من أمة خلت إلا وجاءها من عند ربها نذير؛ لتحق كلمة العذاب على المكذبين، ويحق النعيم للمحسنين، وما من رسالة إلا وجاءت بالأحكام التي تنفع الناس بقدر احتياجهم إليها، ولما جاءت رسالة الإسلام

---

(١)سنن ابن ماجة ١٥٥ومسند أحمد ٣٩٠٩وحسنه الألباني في سنن ابن ماجة ٥٣/١حديث ١٥٠

(٢)مسلم ٣٨٩

(٣) سنن الترمذي ٢٨٣٩وقال حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيح

(٤)مسند أحمد٦٨٠٩وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير ٣٩٢١

كان الفساد قد ضرب أطناب الأرض وانتقل أهلها من ضلال إلى ضلال، جهل عظيم، وضلال مبين، وجاهلية عمياء في الأفكار والمعتقدات، ما بين أهل كتاب قد حرّفوا تعاليم شرائعهم وأبدلوها بتعاليم من أهوائهم، ومجوس يسجدون للنار من دون الرحمن، وعرب يعبدون الأوثان والأشجار والأصنام، فكانت الحاجة مُلحة إلى رسالة تأتي بقانون يُنظم حياة البشر وينتشلهم مما هم فيه من فساد وانحرافات، قال رسول الله ﷺ « أَلاَ إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلاَلٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلاَّ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ ...... » (١)

لقد جاءت بعثة الرسول ﷺ على حين فترة من الرسل، واندثار في العقائد، فجاء بدين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فناصبها قومه العداوة والبغضاء، واتخذوا تعاليمها موضع سخرية واستهزاء، فكان الإسلام غريبا على أهل ذاك الزمان، الأعداء كثيرون، وفيهم المال والسلطان، والمستجيبون قلة مستضعفة تفتن وتبتلى، فعاش المسلمون الأوائل في غربة من الأتباع والأنصار، غرباء في أهليهم، الابن مُسلم وأبواه كافرين، والزوجة مُسلمة والزوج كافر، والأب مُسلم والابن كافر، غربة حقيقية للمؤمن في بيته، فإذا خرج إلى نور الحياة وجد القوة والسيادة مع أهل الشرك والضلال، والذل والاستضعاف مع أهل التوحيد والإيمان، فكانت غربة في المجتمع الذي هو جزء منه، ثم إذا قصد البيت الحرام وجده قد أحيط بسياج من الأصنام إذا سجد كانت بين يديه، وإذا دعا كانت نصب عينيه، فكانت غربة حتى في العبادة.

ورغم هذه المحن، فقد مضى رسول الله ﷺ بدعوته، يدعو إليها سرا وجهارا، ليلا ونهارا، فما استجاب له إلا القليل والكل بين منكر ومكذب وساخر، حتى هاجر رسول الله ﷺ وكتب الله لدعوته بالتمكين ففرضت الفرائض، وشرعت الأحكام والحدود، وعمّ الإسلام أرض العرب، فما عاد فيها دين غيره، واختفى الشرك والضلال، وأصبح الإسلام قويا عزيزا

---

(١) مسلم ٧٣٨٦ والمعاني: كل مال نحلته أي أعطيته عبدا من عبادي وملكته إياه فلا يستطيع أحد أن يحرمه من تلقاء نفسه ـ حنفاء أي مسلمين أو مستعدين لقبول الحق ومائلين إليه عن الباطل ـ فاجتالتهم بالجيم وروي بالخاء المعجمة أي أزالتهم هذا وأذهبتهم ـ لأبتليك أي بتبليغ الرسالة ـ وأبتلي بك أي من أرسلك إليهم) انظر الديباج على مسلم - (ج ٦ / ص ٢٠١) ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح - (ج ١٥ / ص ٣١١)

ثم حمله أصحابه بعده إلى أرجاء المعمورة، فنصر الله دينه، وأعلى كلمته، وتحقق وعده، وعاش المسلمون بهذا الدين زمانا في عزة ومنعة، يحكمون بشرع الله، ويتحاكمون إليه، ويقيمون حدوده، وينفذون أحكامه، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر، لكن ما زال النقص يدب إلى المسلمين قرناً بعد قرن، إلى أن وقع في المسلمين ما وقع من التفريط في دين الله، وتضييع شرع الله، وعدم القيام بأمر الدين، قال ﷺ « اصْبِرُوا، فإِنَّهُ لا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إلاَّ الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ، حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ »(١)

فلا يزال الضعف والركون إلى الدنيا يسري في الأمة، قرناً بعد قرن، حتى يبتعد الناس من جديد عن شرع الله القويم، وتكثر الفتن، ففي حينها يعيش أهل الدين غربة جديدة، تشمل كل صور الحياة، بين ربا يُتعامل به بين أهل الإسلام، يشرّعونه ويدافعون عنه، وخمر يُباع ويُشترى عيانا، وزنا لا يرى فيه أهل الزمان عيبا، وصورا من الضلال لا تنتهي، من حكم لطواغيت البشر، وتشريع من عقول البشر، وإعراض عن التشريع الإلهي، ثم بدع في العقيدة والسنن، فغدا المتمسك بدينه في غربة جديدة، لا يأمن فيها على نفسه من الفتن والابتلاءات، وهكذا كلما ابتعد الناس عن الشرع القويم رأوا هذا الدين غريبا، ورأوا أصحابه غرباء، إنها غربة القلوب والعقول عن الحق، إنها الغربة التي أخبر بها النبي ﷺ فقال « يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ » (٢)

وقال ﷺ « إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ وَدَعِ الْعَوَامَّ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلاً يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ » قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلاً مِنَّا أَوْ مِنْهُمْ قَالَ « لاَ بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ » (٣)

---

(١)البخاري٧٠٦٨

(٢)سنن الترمذي ٢٤٢٨ وقال حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ وصححه الألباني في جامع الترمذي ٢٢٦٠

(٣)سنن ابي داوود ٤٣٤٣ وسنن الترمذي ٣٣٣٥ وحسنه وسنن ابن ماجة ٤١٥٠ وسنن البيهقي ٢٠٦٨٨ وقال الألباني في جامع الترمذي ٣٠٥٨ ضعيف لكن بعضه صحيح

ابتلاء وتجارة مع الله

بذل النبي ﷺ حياته كلها في سبيل الدعوة إلى دين الله، يحبوه الأمل في أن يؤمنوا به ويصدقوه، ويملؤه الشوق في ألا يرى إله يُعبد إلا الله، غير أن الأمر بحاجة إلى بذل وعطاء، فأمر الرسالة لا يمكن له التمكين بدون تضحية، وهذه التضحية لا يمكن أن تقتصر على النبي ﷺ وحده، وإنما تشمل كل من تبعه في دعوته، ورسول الله ﷺ لن يبقى حيا حتى يُخضع الدنيا كلها لعدل الإسلام ونور التوحيد، ورسالته ليست رسالة خاصة لقوم دون غيرهم، وإنما هي رسالة عامة للناس كافة في كل زمان ومكان، فكما أعد الله رسوله ﷺ طيلة الأربعين عاما التي سبقت البعثة، فإن من يحملون أمر الرسالة معه، ويبلغونها إلى غيرهم سواء في أرض الجزيرة أو في غيرها، هم أيضا بحاجة إلى إعداد وتربية، وهذه التربية تدرجت خطواتها طيلة مشوار دعوة النبي ﷺ، وكان للعهد المكي الحظ الأوفر منها، فما أذن الله لهم بالهجرة إلا بعد أن تكاملت جوانب شخصيتهم، واتضحت ملامحها التي تميزها عن غيرها، وتهيأت أنفسهم للبذل الحقيقي من أجل الرسالة، هذا العطاء الذي لم يقف عند مجرد الدعوة وعرض الدين، وإنما توسع ليشمل التضحية بالمال والنفس والولد من أجل الرسالة.

لقد منّ الله على المؤمنين بأن ذاقوا حلاوة الإيمان، فهان عليهم ما وجدوا من ابتلاء في سبيل الله قبل أن يُمكّن الله لهم ولرسالتهم، قال ﷺ « ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً » (١) هذا الإيمان الذي وقر في القلب فسما به، وأرضخ الجوارح للذود عنه، هذا الإيمان الذي جسّده رسول الله ﷺ في أعلى صوره وأعظم درجاته، ولطالما جاهد النبي ﷺ في أن يبث في قلوب أصحابه الثقة والثبات واليقين بأن ما عند الله خير وأبقى، وأن عدل الإسلام لن يسود إلا إذا حورب وانتصر، وأن الصراع بين أنصار الحق وجنود الباطل سُنة ربانية بدأت منذ بدء الخليقة في صورتها الأولى بين آدم عليه السلام وإبليس، ثم انتقلت دائرة الصراع إلى ذريتهم، وكان القلب ساحة القتال، وأن هذه المعركة يتوقف النصر فيها على درجة الإيمان الذي في القلوب، لا بالعدد ولا بالعُدة، فأزاح الله برسوله ﷺ الغشاوة التي كانت على أعينهم، وأجلى به الران الذي كان على قلوبهم، فجسّدوا الإيمان قولا وعملا، سرا وجهرا، فزكى الله صنيعهم، وامتدح إيمانهم، واصطفاهم على أهل زمانهم، فكانوا سُفراء نبيه، ائتمنهم على رسالته، فجابوا بها الدنيا، يُخرجونها من ذل الشرك إلى نور التوحيد، تكلؤهم عناية الله عز وجل، وتتغشاهم رحمته، أيقنوا أن الدنيا نعيم فان

---

(١)مسلم ١٦٠

ومُتع زائلة، فأعرضوا عنها راغبين غير مكرهين، جعلوا بغيتهم وأسمى أهدافهم القُرب من الله ونيل رضاه، لأن فيه خلاصهم في الدنيا والآخرة.

في هذه السطور سنعرض بعض النماذج لأناس هانت عليهم أنفسهم في الله، وابتُلوا في سبيله فصبروا، إيمانا منهم بسمو هدفهم وصدق وعد رسولهم، فسيَرُهم ليست قصصا نبغي به إظهار عظمة الرجال، وإنما هي نماذج لأناس ضحوا من أجل الرسالة، وبعطائهم وصل إلينا هذا الدين، فهؤلاء قد أدّوا ما عليهم من حق تجاه هذا الدين، ثم رحلوا ليُجازوا على عملهم، وبقيت الرسالة وبقي أنصارها، واختلف عطاؤهم وفقا لظروف زمانهم وأحوال مجتمعاتهم، حتى أظلنا هذا الزمان وقد شهد تخلفا ملحوظا لأنصار هذه الرسالة في كل مجالات الحياة، حتى غدا تخلفهم مقياسا لغيرهم على صحة اعتقادهم، فصرف الناس قلوبهم عن هذه الرسالة، وبل واجتمعوا على النيل منها، وحرب أنصارها، وتغييب مناهجها، وإفساد أصولها، فغيروا الأفكار، وبدّلوا المفاهيم، حتى جعلوا من أبناء هذه الأمة من يتحدث بأفكارهم، ويتبنى قيمهم ومعتقداتهم، فانتقلوا بالدعوة من الأصول إلى القشور، ومن السنن إلى البدع، فغدا الملتزمون في غربة حقيقة، يُحاربهم ذووهم قبل أعدائهم، وكل هذا لخلل في مناهج التربية التي شبّ عليها أبناء هذه الأمة، وحيدها عن التربية الروحية التي تُهذب القلوب وتورثها الإيمان واليقين بعظم هذه الرسالة، وتُرشد العقول إلى تقديم الحجج والبراهين الدالة على صدقها وبطلان غيرها .

إن من أراد أن يهب حياته لهذه الرسالة فعليه أن يُقيّم نفسه أولا أين هو من تعاليمها وهديها؟ وما حظه من تربيتها والتحلي بأخلاقها؟وإلى أي مدى يُمكن أن يدافع من أجلها ويبتلى في مشوار دعوته لها؟

بلال بن رباح ﷺ: عبد حبشي لأب وأم من سبايا الحبشة، كان سيده أمية بن خلف، أحد رءوس الكفر الذي حارب الإسلام ودعوته ما بقي من حياته، فما ظنك بما هو فاعله بعبد عنده قد أسلم! كان إذا حميت الشمس وقت الظهيرة ألقى ببلال في الصحراء، يُقلبه على وجهه وعلى ظهره، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يُخيره بين أن يظل في حاله هذه، أو أن يثني على اللات والعُزى ويسب محمدا وربه، فما كان من بلال إلا أن أعلى بكلمة التوحيد (أحد أحد) وكأنه قد عانى مرارا من شرك الجاهلية، فلما أنار الله قلبه بالتوحيد قرت به عينه، فما استلذ إلا بترديدها، بل إنه اتخذها منهج حياة، فعاش عليها حتى مات ﷺ.

وفي يوم وهو على حاله هذا رآه أبو بكر الصديق ﷺ، فقال لأمية ألا تتقي الله في هذا المسكين؟ فقال له: أنت أفسدته فأبعدته، فقال أبو بكر عندي غلام على دينك أسود أجلد من هذا أعطيكه به، فأعطاه أبو بكر غلامه وأخذ بلالا فأعتقه، فكَانَ عُمَرُ ﷺ يَقُولُ: أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا، وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا. يَعْنِي بِلالاً (١)

آل ياسر: قدم ياسر من بلاد اليمن واستقر به المقام في مكة، فحالف أبا حذيفة بن المغيرة الذي زوجه سمية إحدى إمائه فرزقهم الله عمارا، الذي شب بين شباب قريش يؤمن بما يؤمنون به، حتى جاءت رسالة التوحيد فسمع بها عمار، فأجاب مُسرعا، فأسلم هو وصهيب الرومي في يوم واحد، وحمل أمر الدين إلى أبويه، فعرضه عليهم، فأسلموا، فكانت أسرتهم أول أسرة مسلمة تفتن في دينها، فكان بنو مخزوم يأخذون عمار ووالديه وقت الظهيرة ويلقونهم في الصحراء ويتفننون في إذاقتهم أشد ألوان العذاب، فعن عُثْمَانُ بن عفان ﷺ وهو يحكي عن عمار بن ياسر قال " أَقْبَلْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ آخِذاً بِيَدِي نَتَمَشَّى فِي الْبَطْحَاءِ حَتَّى أَتَى عَلَى أَبِيهِ وَأُمِّهِ وَعَلَيْهِ يُعَذَّبُونَ، فَقَالَ أَبُو عَمَّارٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ الدَّهْرَ هَكَذَا؟ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ « اصْبِرْ » ثُمَّ قَالَ « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لآلِ يَاسِرٍ وَقَدْ فَعَلْتَ »(٢)

ثم نظر إليهم ﷺ وقال لهم " صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة " (٣)

ظلت هذه الأسرة على هذا الحال حتى مات ياسر من شدة العذاب، وهو لا يشرك بالله شيئا، ولم يقر أعينهم بما أرادوا من سب الله ورسوله ﷺ، أما سُمية فأغلظت القول على أبي جهل فطعنها بحربة فماتت من ساعتها؛ لتكون أول شهيدة في الإسلام، ولتحمل رسالة خالدة لكل نساء الأمة أن الدين رسالة لا يمكن التفريط فيها، وأن أمر الدعوة إلى الله لابد له من تضحية وفداء، قال تعالى [أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ] (٤)

أما عمار فأغلظوا عليه العذاب حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة فوق صدره، وهو مُلقى وقت الظهيرة في الصحراء، وتارة يغطونه في الماء حتى تختنق أنفاسه، وعزموا على ألا يتركوه حتى يسب محمدا ﷺ، وأن يُثني على اللات والعُزى، ففعل عمار ما أرادوا منه وهو مغشي عليه، فتركوه، فلما أفاق غمرته مشاعر الحزن والأسى، متناسيا ما كان فيه من العذاب الذي صبوه عليه صبا فأيقن أنه بكلماته هذه صار على شفا الهلاك فأسرع الخُطى نحو النبي ﷺ

---

(١)البخاري ٣٧٥٤

(٢)مسند أحمد ٤٧٧ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد - (ج ٩ / ص ٤٨٠)رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح

(٣)أخرجه الحاكم في المستدرك٣٨٨/٣وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي وعند الهيثمي في مجمع الزوائد حديث١٥٥٩١وعزاه إلى الطبراني وقال رجاله ثقات

(٤){العنكبوت:٢}

يقص عليه ما حدث، فقال له رسول الله ﷺ « مَا وَرَاءَكَ؟ » قَالَ شَرٌّ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا تُرِكْتُ حَتَّى نِلْتُ مِنْكَ وَذَكَرْتُ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ ، قَالَ « كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟ » قَالَ مُطْمَئِنًا بِالإِيمَانِ قَالَ « إِنْ عَادُوا فَعُدْ » (١)

وفي عمّار نزل قول الله عز وجل [مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ] (٢) وعنه قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « مُلِيءَ عَمَّارٌ إِيمَانًا إِلَى مُشَاشِهِ » (٣)

خبّاب بن الأرتّ ﷺ: كان قوم من بني ربيعة قد سبوا الأرتّ والد خبّاب وباعوه في مكة إلى سباع بن عبد العُزى، فعاش وابنه خبّاب كغيرهم من العبيد الذين لا قيمة لهم في مجتمع لا يعرف سوي التفرقة بين السادة والعبيد، وكان خباب مولى لسيدته أم أنمار، وكان قينا - يصنع السيوف - وما أن سمع بدعوة رسول الله ﷺ ودينه الذي يدعو إلى التوحيد حتى أسرع إلى مقابلة النبي ﷺ وأسلم قبل دخول دار الأرقم، فلما علم المشركون بإسلامه أضافوه إلى قائمة الضعفاء المعذبين فتحول حديد سيوفه إلى آلات تعذيب تنال منه، رغبة في صرفه عن دينه، فكان إذا اشتد حر الظهيرة ألصقوا ظهره بالرمال الحارة، ثم بالحجارة المُحماة على النار، فما كان يطفئ لهيبها إلا لحم جسده، ومع ذلك لم يجبهم إلى ما طلبوه، فما ارتد، وما سب، وما كفر، وما امتدح أصنامهم، وإنما صبر واحتسب حتى يئسوا منه، وصار شغله الشاغل الدعوة إلى دين الله وتعليم القرآن الكريم، فقد كان عبد الله بن مسعود ﷺ يعتبر خبابا ﷺ مرجعا فيما يتصل بالقرآن حفظا ودراسة، وهو الذي كان يُعلم فاطمة بنت الخطاب وزوجها آيات سورة طه حينما دخل عليهم الفاروق عمر ﷺ وكانت سببا في إسلامه .

صُهيب بن سنان الرومي ﷺ: لم يكن صهيب روميا، وإنما هو عربي تعرض قومه للسبي من الروم، وكان صهيب من السبايا، فعاش بين الروم فترة أخذ عنهم لسانهم، ثم باعه تجار الرقيق، فانتهى به المطاف إلى مكة حيث اشتراه عبد الله بن جدعان الذي أعتقه، وأشغله بالتجارة معه، وما أن سمع صهيب بالدين الجديد الذي يدعو إليه رسول الله ﷺ إلا أجاب مُسرعا، فأسلم هو وعمار بن ياسر في يوم واحد في دار الأرقم.

---

(١)سنن البيهقي ١٧٣٥٠

(٢)لباب النزول للسيوطي - (ج ١ / ص ١٢١) عن ابن عباس والآية من سورة النحل ١٠٦

(٣)سنن النسائي ٥٠٢٤وسنن ابن ماجة ١٥٢وصححه الألباني في سنن النسائي ١١١/٨حديث٥٠٠٧ والسلسلة الصحيحة ٤٤٧/٢حديث٨٠٧ والمشاش أي رؤوس العظام

نال صُهيب من المشركين قسطا وفيرا من العذاب آملين في أن يصرفوه عن دينه، فما أجابهم إلى ما أرادوا، ولما أراد الهجرة قال له كفار قريش " أتيتنا صعلوكا حقيرا فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ؟ والله لا يكون ذلك " فقال لهم صهيب " أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا نعم، قال فإني قد جعلت لكم مالي فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال ربح صهيب (١) وقد كناه النبي ﷺ بأبي يحي قبل أن يولد له.

وذات يوم قال له عمر بن الخطاب ﷺ" أي رجل أنت لولا خصال ثلاث فيك، قال وما هن؟ قال اكتنيت وليس لك ولد، وانتميت إلى العرب وأنت من الروم، وفيك سرف في الطعام! قال صهيب: أما قولك اكتنيت ولم يولد لك، فإن رسول الله ﷺ كناني أبا يحيى، وأما قولك انتميت إلى العرب ولست منهم وأنت رجل من الروم، فإني رجل من النمر بن قاسط، فسبتني الروم من الموصل بعد إذ أنا غلام عرفت نسبي، وأما قولك فيك سرف في الطعام، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول خياركم من أطعم الطعام (٢)

عامر بن فهيرة ﷺ:_مولى الطفيل بن عبد الله الأزدي، أخو عائشة لأمها، أسلم قبل دخول دار الأرقم وعُذب في الله أشد العذاب حتى اشتراه أبو بكر الصديق ﷺ وأعتقه، وهو الذي كان يرعى غنم أبي بكر؛ ليخفي آثار أقدام رسول الله ﷺ وأبي بكر عند خروجهم إلى غار ثور في بداية رحلة الهجرة، وكان رفيق رسول الله ﷺ وصاحبه في رحلة الهجرة إلى المدينة، أدرك بدرا وأحد واستشهد يوم بئر معونة.

هذا ولم يقف العذاب على الرجال فحسب، بل إنه شمل النساء، فعُذبن أشد ما يكون العذاب، وفُتنّ في دينهن، فصبرن واحتسبن الأجر عند الله، فمنهم :

لبيبة جارية بني مؤمل بن عديّ: كان عمر بن الخطاب يعذبها أشد ما يكون العذاب حتى ترتد عن دينها، فما أجابته إلى ما أراد، حتى ملّ من تعذيبها، وهي صابرة، فلما تركها قال لها " إني لم أتركك إلا سآمة " فأجابته بلسان المؤمنة ((كذلك يفعل الله بك إن لم تسلم)) ثم اشتراها أبو بكر ﷺ وأعتقها.

زنّيرة : كانت جارية لبني مخزوم، وكان أبو جهل يسومها أشد العذاب رغبة في صرفها عن دينها، حتى عميت مِن شدة العذاب، فقال لها إن اللات والعُزى قد فعلا بك هذا، فأجابته قائلة ((وما يدري اللات والعُزى من يعبدهما، ولكن هذا أمر من السماء وربي قادر على رد بصري))

---

(١)صححه الألباني في فقه السيرة ص١٥٢ (٢)السلسلة الصحيحة ١٠٩/١ حديث ٤٤

فأصبحت من الغد وقد رد الله عليها بصرها، فقالت قريش هذا من سحر محمد، ثم اشتراها أبو بكر ﷺ وأعتقها .

كان الصديق ﷺ قد جعل ماله كله في سبيل الله، فما أن علم أن أحدا من العبيد يُعذب لإسلامه سارع إلى شرائه وأعتقه حتى عابه أباه على صنيعه هذا وقال له " يا بني أراك تعتق رقابا ضعافا، فلو إنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالا جلدا يمنعونك ويقومون دونك، فقال أبو بكر ﷺ: يا أبت إني إنما أريد ما أريد، فنزل فيه قول الله تعالى [فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى*وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى*فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى*وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى *وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى *إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى *وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى *فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى *لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى* الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى *وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى* الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى *وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى* إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى *وَلَسَوْفَ يَرْضَى] (١)

نعم، فما قيمة المال إن لم يكن عونا على الطاعة، وما قيمته إن لم يوجه إلى الصالحات من الأعمال، قال ﷺ « نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ »(٢)

لقد وصلت إلينا الرسالة بعدما قطعت شوطا كبيرا سيرا على أشلاء من ضحّوا من أجلها، بعدما أزهقت من أجلها أرواح، وأنفقت أموال، وتحملت أنفس طاهرة ما لا تقوى الجبال الراسيات على حمله، وبهؤلاء وأمثالهم تنتشر الدعوات وتُبنى الأمم، حينما يؤمن أنصارها أن للنصر والتمكين ضريبة تُؤدى، فيؤدونها من أنفسهم وأموالهم بنفس راضية مطمئنة، وما كُتب لأنصار رسالة يوما نصرا وتمكينا وهم يعيشون في ترف فاحش، يدعون دعاء المُترف، يلتزمون التزاما أجوف، ثم يتساءلون في تعجب واندهاش، وربما في شك وريبة، لماذا تخلى الله عن أمة رسالة التوحيد؟ .

---

(١)مستدرك الحاكم ٣٩٤٢ وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم والآيات من سورة (الليل ٥/ ٢١)

(٢)مسند أحمد١٨٢٣٦ وصححه الألباني في مشكاة المصابيح ٣٧

** أبرز مراجع هذا الفصل ((تفسير الطبري - الكامل في التاريخ - سيرة ابن كثير - البداية والنهاية - الجوانب الإعلامية في خطب الرسول - السيرة النبوية دروس وعبر - مجلة البحوث الإسلامية - لباب النزول))

الفَصْلُ الثَّانِي

أساليب المشركين في محاربة الدعوة

كان طبيعيا أن تنتقل دائرة الصراع بين رسول الله ﷺ، وبين المشركين إلى حيز أكبر، فلم يقتصر أمر المشركين على ما فعلوه من اضطهاد للضعفاء من المسلمين، ومن إعراض وتكذيب لرسول الله ﷺ ومن سخرية واستهزاء لمضمون الرسالة، وإنما وسّعوا دائرة الصراع، وجددوا أساليب القمع، وابتكروا أساليبا جديدة لم تكن تعهدها أرض العرب، بغية الحيلولة دون نشر هذه الرسالة، وهذا الموقف العدائي الذي اتخذوه تجاه الدّعوة كان نتاج التربية التي شبّوا عليها، وحُكم المجتمع الذي تربوا فيه، فقد كانت النزعة القبلية هي السمة الغالبة في معاملاتهم وأساليب تفكيرهم، فولدت بداخلهم دوافع الكبر والحسد، فكانوا يرون أن النبوة قد زادت بني عبد المطلب شرفا ومكانة، في الوقت الذي تتسارع فيه بطون قريش لنيل المكانة الرفيعة، والقيادة بين أهل مكة، وجسّد هذا المعنى أبو جهل قائلا " تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء! فمتى ندرك هذه؟ والله لا نسمع به أبدا ولا نصدقه "

هكذا تفعل العصبية العمياء، فسلطان العصبية لا عقل عنده، وهذه النزعة القبلية، والنظرة السطحية، وعدم فهم المعنى الحقيقي للنبوة ورسالة الإسلام، هي التي قادت جمعا من العرب إلى الانسياق خلف من ادّعوا النبوة بعد وفاة النبي ﷺ، فهذا مُسيلمة الكذاب يخطب في قومه قائلا " أريد أن تخبروني بماذا صارت قريش أحق بالنبوة والإمامة منكم ؟ والله ما هم بأكثر منكم ولا أنجد، وإن بلادكم لأوسع من بلادهم، وأموالكم أكثر من أموالهم "

وهذا طلحة النمري ـ أحد أتباع مُسيلمة ـ يقول لمُسيلمة " أشهد أنك كاذب وأن محمداً صادق، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر " (١)

فالعصبية تُعمي القلوب، وتشوش الأفكار، وتخلط الحق بالباطل، وتُعارض سلامة الفطرة، بل إنها تقود إلى ضلال بعد ضلال، وقد كانت تلك العصبية نتيجة للأوضاع الاجتماعية والسياسية التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي.

---

(١) الكامل في التاريخ - (ج ١ / ص ٣٧٣)

أما الجانب الاقتصادي فالمكاسب المادية التي كانت تعود على تجار مكة من احتكارهم لتجارة الأصنام ولبس الطواف وغيرها، كانت إحدى أسباب محاربتهم لدعوة رسول الله ﷺ، فهذه الدعوة تحارب بدعهم، وتُقوض عقائدهم، وتُعرّض هذه التجارة للانهيار، فما كان منهم إلا أن حاربوها بكل ما يملكون من قوة، آملين أن تظل لهم السيادة على العرب، وأن تبقى أمور هذه التجارة الرابحة في أيديهم، وهذا الخُلق لا يزال قائما في تصرفات البشر، فلا يكاد يخلو منه زمان، أناس تتهاوى عندهم القيم السماوية والمبادئ من أجل حفنة دنانير!

أما الجانب الثقافي، فإذا أردت أن تحكم على أي مجتمع، فانظر إلى حال أهل العلم فيه، فهم عماد أي مُجتمع، وسبيل تقدمه وفلاحه، أو ضياعه وانحطاطه، فترى المجتمع الجاهلي مُجتمع مُغيب، أسلم عقله إلى غيره يُفكر به ويقرر نيابة عنه، أهل العلم فيه الكُهان، وأهل الطب فيه العرافين، وأهل السياسة فيه الوجهاء والأغنياء وإن كانوا سُفهاء الراي والمشورة، فأنى لهؤلاء أن يستقيم بهم راي، أو يرتقي بهم شعب!

كانت هذه بعض الأسباب التي قادت المجتمع الجاهلي إلى مُحاربة الدعوة، غير أن حكمة الله عز وجل اقتضت أن يكون أول من يُكذب النبي ﷺ قومه، وأن يكونوا أول من يُجاهر بعدائه لدعوته، بل وإخراجه وحربه، فأراد الله عز وجل أن يكون عز الدين في غير موضع قومه، حتى لا يُقال نبي أرسل لقومه خاصة ويريدون مجدا دنيويا، فرسالة الإسلام رسالة عامة، لن تقف حدودها عند حدود جزيرة العرب، بل إنها للناس كافة في كل زمان ومكان.

كما أراد الله أن تسير خطوات تربية هذه الأمة في كل مناحي الحياة، لا تقتصر على جانب دون الآخر، فإن آمن كل أهل مكة منذ بدء الدعوة، فبأي إيمان كانوا سيُقاتلون من أجل عقيدتهم إن لم يُفتنوا من أجلها ويُعذبوا؟ وبأي حُجة كانوا سيظهرون سلطان دعوتهم إن لم يُحاربوا ويُضطهدوا ويُمحصوا بين الحين والحين؟ وبأي تربية كانوا سيربون أبناءهم إن لم يتربوا هم أولا على التضحية والبذل من أجل نشر تعاليم الإسلام؟

إن الابتلاء نعمة عظيمة تمحص الخلق وتميز الخبيث من الطيب، فهذا موسى عليه السلام، كانت دعوته ـ في بدايتها ـ مُنصبة على إقامة الحُجة على فرعون، ولم تتطرق إلى تربية أمة تحمل همّ رسالة، قال تعالى على لسان بني إسرائيل

[قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ

وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ](١) لقد آمن كل بني إسرائيل بموسى ﷺ منذ أن جاء بالنبوة، ولكنه ـ في ظاهره ـ إسلام من يبحث عن الخلاص من ذل فرعون وبطشه ـ إلا من شرح الله صدره للإيمان منهم ـ فماذا استفادت دعوة موسى ﷺ من إيمان كل بني إسرائيل بها؟

إنهم سقطوا في أول اختبار لهم بعد كل ما رأوا من الآيات والبراهين [وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ] (٢) فتربية الأمم ميزة خص الله بها هذه الأمة، وائتمنها على تأديب غيرها وتوجيههم.

سنتناول بعض أساليب المشركين في محاربة الدعوة وصد الناس عنها، ولك أن تعجب كل العجب حينما ترى أن الماضي الذي كان منذ أربعة عشر قرنا من الزمان، هو نفسه الحاضر الذي تراه في القرن الحادي والعشرين، فأهل الباطل فكرهم واحد وأساليبهم مُتنوعة [إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ] (٣)

فهذه الوسائل القمعية والأساليب الملتوية إن لم تزد لا تقل، بل إنها دائما في تقدم وازدهار، مواكبة لصيحة التطور البشري في باقي مجالات الحياة، وقدرتها على النجاح في النيل من أنصار الدعوة غير مرهون بقوتها وكفاءتها، وإنما بحال من يُحارَبون بها، فعلى قدر إيمانهم تكون فاعلية هذه الوسائل فيهم .

١ ـ المُساومة والإغراء السياسي : الإغراء السياسي مفهوم مُستحدث لم يكن مُتداولا من قبل، إلا أن العرب تعاملوا به مع رسول الله ﷺ بكل معانيه المعاصرة، وذاك أن رسول الله ﷺ لم يكترث بمعارضتهم لدعوته، وأخذ يدعو كل من يُقابل، حرا كان أو عبدا، قريبا أوغريبا، كبيرا أو صغيرا، فأرّق صناديد الكفر صمود النبي ﷺ في مواجهة سفاهاتهم وتعذيبهم لأتباعه، ففكروا في مساومته عسى أن يترك أمر الرسالة، ويجيبهم إلى ما يريدون، وهم بذلك لم يستوعبوا بعد معنى النبوة ووحي السماء وكون النبي ﷺ رسولا مرسلا من عند رب العالمين لا يمكن أن يركن إلى ما يريدون من متع زائلة، كما أن رسول الله ﷺ ليس بالشخصية التي تجيبهم إلى عروضهم الحمقى بدون النبوة، فما ظنك به وهو رسول من رب العالمين .

ذات يوم اجتمع نفر من سادة قريش؛ لينظروا في أمر رسول الله ﷺ ودعوته، فاتفقوا على أن يرسلوا من يساوم رسول الله ﷺ عسى أن يترك أمر دعوته، وله

---

(١){الأعراف:١٢٩}　　(٢){الأعراف:١٣٨}　　(٣) {الأنفال:٣٦}

ما يطلب من متع الدنيا، فاتفقوا على أن يرسلوا إليه عتبة بن ربيعة، وكان يومئذ من أشرف سادات قريش وأوسعهم مالاً وأعلمهم بالشعر والسحر وأمور الكهانة وكان ذا رأي راجح فيما بينهم، فذهب عتبة إلى رسول الله ﷺ آملا أن يصرفه عن أمره، فقال له يا ابن أخي: إنك منا حيث قد علمت من الشرف في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفّرت من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها، لعلك تقبل منا بعضها .

فقال له الرسول ﷺ : قل يا أبا الوليد أسمع .

قال يا أبن أخي: إن كنت إنما تريد بما جئت به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فاختر لنفسك؟

فقال النبي ﷺ أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال نعم، قال ﷺ فاسمع مني، وتلا عليه النبي ﷺ آيات من سورة فصلت (حمٓ* تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ *وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ.....) وظل النبي ﷺ يقرأ عليه آيات سورة فُصلت التي تحمل الأمر تارة والرحمة أخرى والوعيد تارة والإنذار بالصاعقة أخرى، وما ينتظر المؤمنين من نعيم، وما ينتظر الكفار من جحيم، وعتبة منصت لهذا الكلام الذي ما سمع مثله قط من قبل، حتى بلغ النبي ﷺ السجدة فسجد ثم قال لعتبة: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك (١)

أقبل عتبة إلى مجالس القوم الذين ينتظرونه بوجه غير الذي ذهب به، وقد تأثر بما سمع من آيات القرآن، فقال لهم إني قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، ثم قدّم إليهم نصيحة حكيمة لو أن بقلوبهم بقية من خير لأطاعوه فيها، غير أن الحقد قد ملأ قلوبهم فأبوا أن يُحكموا عقولهم في قوله.

---

(١)دلائل النبوة للبيهقي - (ج ٢ / ص ٧٩) حديث ٥٠٩ ورواه ابن هشام عن ابن اسحق باسناد حسنه سامي أنور جاهين في تخريج سيرة ابن هشام، وأورده ابن كثير في تفسير سورة فصلت من حديث جابر بن عبد الله وفي البداية والنهاية ٦٢/٣وفي مسند الحافظ أبي يعلى وحسنه الألباني في فقه السيرة، والآيات من سورة فصلت

فقال لهم" يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي وخلو بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به، فعابوا عليه رأيه وقالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم

صورة مثالية من الإغراء السياسي، رغم أنهم لم يعرفوه، لكنهم فطنوا إلى ضعف النفس البشرية ومطامعها، فأي شيء يحتاجه أي إنسان لا يحمل همّ رسالة ولا دعوة أكثر من هذا؟ المال والرياسة على قومه، فقد تعاملوا مع رسول الله ﷺ باللغة التي يفهمونها، فهم تُجار لا يعرفون إلا لغة المال وقيمة الرياسة، حرفتهم المُساومات والإغراءات سواء أكانت مشروعة أو غير مشروعة، وهذا الميل البشري لهاتين الصفتين هو ما وجدوه بين أقوامهم، وسمعوه عن أجدادهم، ورأوه في أسفارهم، فهو النموذج البشري لإنسان المجتمع الجاهلي وما جاوره من مجتمعات سواء متحضرة أو بدوية، وها هو رسول الله ﷺ يُغيّر هذه المفاهيم ويُصحح هذه النظرة ويرد للبشرية كرامتها ورشدها، فإن بعث رسول الله ﷺ في حقيقته تكريم للبشرية كلها، إنه ارتقاء بها واحترام لعقلها، وهو تمييز لها عن غيرها، فالحقيقة التي لا تخفى على منصف أن بعث النبي ﷺ حاجة من حاجات النفس البشرية، أنقذها من مجتمع الغاب الذي يأكل القوي فيه الضعيف، ومجتمع الجاهلية الذي يؤمن بالخرافات ويُصدّق الأكاذيب، ومجتمع الدونية الذي يجعل إشباع الغرائز الشهوانية جلّ أهدافه وأقصى آماله .

إن هذا الحديث يرسم صورة لم تر البشرية مثلها في تكامل الخُلق المحمدي، تبدو في أدبه ﷺ في أسلوب دعوته وتوقيره وإجلاله لمن يجادله وإنزاله منزلته، فرغم دناءة القول وانحطاط الأسلوب، إلا أن رسول الله ﷺ ظل منصتا لا يقطع الحديث ولا يتعجل الرد ولا يرفع صوته ولم يزد عن عرض دعوته وجوهر رسالته، فلما فرغ الرجل من مقالته أجابه رسول الله ﷺ قائلا " أو قد فرغت يا أبا الوليد " وكأنه يخبره بأنه قال كل ما عنده، فليسمع كل ما عند رسول الله ﷺ فالأدب في العرض بوابة تدبر الحديث، ثم احتوى رسول الله ﷺ فكر مخاطبه فرأى الدنيا قد ملكته بمفاهيمها الخاطئة وزخارفها المتنوعة ومتعها الكثيرة، فحدد رسول الله ﷺ لغة الخطاب التي تناسبه، فلم يعرض عليه تعاليم رسالته ولا أسس دعوته، فهي ليست بالجديدة على أذنه، وإنما اختار آيات من القرآن يُسمعها له بعيدا عن آذان قريش، خارجة من فيه من اصطفاه الله على الخلق جميعا، فكيف لا تؤثر فيه وتسلب فكره وتجذب قلبه

لقد اختار رسول الله ﷺ آيات من صورة فُصلت، وهي - رغم قصرها - تحمل في طياتها الدعوة إلى التوحيد والإقرار بأن القرآن منزل من عند الله العزيز الحميد، وأنه ليس بكلام بشر، ثم تناولت عرضا موجزا لموقف الكافرين من الدعوة وإعراضهم عنها، وتحديد مهمة الرسول وإثبات بشريته، والتذكرة بأحوال السابقين والترهيب من نفس مصيرهم لمن سار على هديهم، ثم إنذار قريش ومن سار على نهجها بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، فأثرت الآيات في قلب سامعها، وأحدثت به دويا صرفه عن عزمه وأنساه مقصده من اللقاء والحوار، فما أعاد عرضه ولا زاد في مضمونه ولا غير لهجته، بل إنها غيرت حتى ملامح وجهه وأسلوب منطقه وهدفه الذي كان يسعى إليه، فبعد أن كان يتآمر معهم على رسول الله ﷺ إذا به ينصحهم بأن يخلو سبيله ويتركوه والناس.

إن حديث عتبة يكشف عن أعماق نفوس المشركين وخبايا مكنوناتها وحديثها الباطني بصدق ما جاء به رسول الله ﷺ ويقينها الداخلي بعلوّ أمر ما يدعو إليه، والتنبؤ بسلطانها وهيمنتها، إنه يكشف أكثر من ذلك، يكشف حقيقة الإعراض وأسبابه، فالبشر من حيث الدعوة صنف من أربع :

الأول : من يكون طالبا للحق مستعدا لقبوله، لكن خُفي عليه الحق، ومثل هذا بحاجة إلى توجيه ودعوة يسيرة وحجة دامغة ليُقر بالحق ويُذعن له .

الثاني: من يعرف الحق ويُعرض عنه لهوى في نفسه، ومثل هذا بحاجة إلى الدعوة باللين تارة وبالشدة أخرى، بالترغيب تارة وبالترهيب أخرى، فهو بحاجة إلى الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة بكل ما تشمله هذه الكلمات من معان، وما تحوي من طرق وأساليب .

الثالث: من يعرف الحق الممزوج بالباطل وصرفته بعض الشبهات أو التأويلات الناجمة عن سوء الفهم عن إتباع الحق، ومثل هذا بحاجة إلى إيضاح وتبيين وإقامة الحجة بالبرهان والدليل وكشف الشبهات وتفنيد التأويلات، ولا يكون كل هذا إلا بالمجادلة والمناظرة مع طيب النفس وحُسن القول وسلامة اللفظ، قال تعالى [وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ] (١)

الرابع: من يُقر بالحق ويعترف به إلا أنه يُعرض عنه ولا يتبعه، لعجز في داخله، إما كِبر أو حسد، وإما ضعف أو جبن، وإما عجز أو كسل

---

(١) {العنكبوت:٤٦}

وإما تهاونا واستخفافا، وهؤلاء ليسوا بحاجة إلى لين جانب ويُسر خطاب، وإنما بالوعد والوعيد والبشرى بسوء المنقلب.

سُئل عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ عن أشدّ ما رأى المشركين نالوا من رسول الله ﷺ فقال" حَضَرْتُهُمْ وَقَدِ اجْتَمَعَ أَشْرَافُهُمْ يَوْماً فِي الْحِجْرِ، فَذَكَرُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فقالوا مَا رَأَيْنَا مِثْلَ مَا صَبَرْنَا عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ قَطُّ، سَفَّهَ أَحْلاَمَنَا وَشَتَمَ آبَاءَنَا وَعَابَ دِينَنَا وَفَرَّقَ جَمَاعَتَنَا وَسَبَّ آلِهَتَنَا لَقَدْ صَبَرْنَا مِنْهُ عَلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ.

قَالَ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ طَلَعَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَقْبَلَ يَمْشِي حَتَّى اسْتَلَمَ الرُّكْنَ ثُمَّ مَرَّ بِهِمْ طَائِفاً بِالْبَيْتِ فَلَمَّا أَنْ مَرَّ بِهِمْ غَمَزُوهُ بِبَعْضِ مَا يَقُولُ. قَالَ فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ ﷺ ثُمَّ مَضَى فَلَمَّا مَرَّ بِهِمُ الثَّانِيَةَ غَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ ﷺ ثُمَّ مَضَى ثُمَّ مَرَّ بِهِمُ الثَّالِثَةَ فَغَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا فَقَالَ ﷺ « تَسْمَعُونَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَمَا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالذَّبْحِ » فَأَخَذَتِ الْقَوْمَ كَلِمَتُهُ حَتَّى مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلاَّ كَأَنَّمَا عَلَى رَأْسِهِ طَائِرٌ وَاقِعٌ حَتَّى إِنَّ أَشَدَّهُمْ فِيهِ وَصَاةً قَبْلَ ذَلِكَ لَيَرْفَؤُهُ بِأَحْسَنِ مَا يَجِدُ مِنَ الْقَوْلِ حَتَّى إِنَّهُ لَيَقُولُ انْصَرِفْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ انْصَرِفْ رَاشِداً فَوَاللَّهِ مَا كُنْتَ جَهُولاً (١)

لقد جئتكم بالذبح، أي تهديد هذا وأي حدة في الخطاب هذه! إن هؤلاء لم يعد يجدي معهم لين قول وحسن منطق، ولم يعد يُجدي معهم سوى البُشرى بسوء المنقلب، فهؤلاء هُم الصنف الرابع الذي يعرف الحق ويعْرض عنه، فلا يستحق إلا هذا الأسلوب وبهذه الكيفية، فالدعوة إلى الدين لن تجدي إذا سارت على منوال واحد ووتيرة واحدة، وإنما تتفاعل مع الأشخاص وطبائعهم، والزمان ومفاهيمه، والمكان وتقاليده، ففيها اليُسر والشدة، وفيها اللين والحِدة، وفيها الدعوة بالحسنى والجهاد بالسيف.

بل إن حديث عُتبة هذا يُشير إلى أساليب المشركين ومكرهم بأصحاب الرسالات، وفطنتهم إلى ما فيه سلب القلوب وصرف العقول عن أهدافها، فأيقنوا ما للمال والجاه والسلطان من سحر على النفوس، وقدرة على تبديل الضمائر وصرف القلوب عن غاياتها، وتحقيق ما لا تستطيع آلاف السيوف تحقيقه، فكم من الدعاة من سقط في مشوار دعوته تحت بريق المال وإغراءات الجاه والسلطان، وكم من الدعاة من غيّر أولوياته وبدّل أهدافه عندما نال مكانة عالية أو وظيفة مرموقة، وكم عرض المشركون من أموال لصرف أصحاب الرسالات عن دعوتهم، وفي تاريخ الأمة مع الاستعمار نماذج كثيرة لدعاة بذلوا الحق وباعوا الرسالة وقضية أوطانهم من أجل حفنة أموال

---

(١) مسند أحمد ٧٢٣٣ وذكره الألباني في صحيح السيرة النبوية ص١٤٨

وكم من خطيب نادى بأعلى صوته يحث على الجهاد والبذل والعطاء، فلا يزال المستعمرون به يغرونه بالمال تارة، والمناصب أخرى حتى سقط في شركهم، وخرج للناس بثوب غير الذي عهدوه فيه، فبدّل الحق باطلا والباطل حق، وألان الجانب لأهل الشرك وأهدافهم.

بل لقد تجاوزت إغراءات المشركين لرسول الله ﷺ المكاسب المادية والمكانة الاجتماعية، فشملت مجال العقيدة التي هي جوهر رسالته وأساس دعوته، فجاءه رهط من قريش فقالوا: يا محمد هلم اتبع ديننا ونتبع دينك، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، فإن كان الذي جئت به خيرا مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيرا مما في يدك قد شركت في أمرنا وأخذت بحظك، فقال: معاذ الله أن أشرك به غيره، فأنزل الله تعالى (قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) (١) فأمر الله عز وجل رسوله ﷺ فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية، فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش، فقرأها عليهم حتى فرغ من السورة، فيأسوا منه عند ذلك .

لقد كان أسلوب المُساومة أكبر دليل على تصديق المشركين لرسول الله ﷺ وقناعتهم الداخلية بصدق ما جاء به، إلا أنهم أبوا الحق والاعتراف به، وهكذا كان إبليس عندما ارتكب أول معصية، لقد أيقن أن آدم عليه السلام خُلق لغاية كُبرى وأن تكريم الله له يقتضي تكريمه له، طاعة لله عز وجل، إلا أنه أعرض واستكبر، كبرا وعنادا رغم معرفته للحق.

ومما يُجسد إعراض المشركين عن الدعوة رغم علمهم بصدق رسول الله ﷺ، ما يرويه المغيرة بن شعبة رضي الله عنه فقال " إن أول يوم عرفت رسول الله ﷺ أني أمشي أنا وأبو جهل بن هشام في بعض أزقة مكة إذ لقينا رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل (يا أبا الحكم هلم إلى الله وإلى رسوله أدعوك إلى الله) فقال أبو جهل: يا محمد هل أنت منته عن سب آلهتنا؟ هل تريد إلا أن نشهد أنك قد بلغت؟ فنحن نشهد أن قد بلغت فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حق لاتبعتك! فانصرف رسول الله ﷺ وأقبل علي فقال: والله إني لأعلم أن ما يقول حق، ولكن يمنعني شيء إن بني قصي قالوا: فينا الحجابة، فقلنا نعم، ثم قالوا: فينا السقاية، فقلنا: نعم، ثم قالوا: فينا الندوة، فقلنا: نعم، ثم قالوا، فينا اللواء، فقلنا: نعم، ثم أطعموا وأطعمنا حتى إذا تحاكت الركب، قالوا: منا نبي والله لا أفعل . (٢)

---

(١)أسباب النزول - (ج ١ / ص ٣٠٧)

(٢)رواه البيهقي بإسناده عن المغيرة بن شعبة وذكره الألباني في صحيح السيرة النبوية

تفان من أجل الدعوة هكذا فعل رسول الله ﷺ، إنه تناسى كل شيء في سبيل تبليغها، فهذا أبو جهل فرعون هذه الأمة يناديه رسول الله ﷺ يا أبا الحكم، والنداء بالكنية تكريم عند العرب، فقد تناسى رسول الله ﷺ كل مواقفه السيئة وتحلى بضبط النفس وانشغل بهدفه الأساسي وقضيته الأولى، ولم يتطرق إلى أمور جانبية أو عداوة شخصية قد تصرفه عن دعوته، أما أبو جهل وغيره فهم نموذج تكرر مع كل رسول، أناس يرون الحق ويقرّون به في قرارة أنفسهم، ثم يعرضون عنه ويحاربون أنصاره لهوى في أنفسهم ، فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال " قال أبو جهل للنبي ﷺ " قد نعلم يا محمد أنك تصل الرحم وتصدق الحديث ولا نكذبك، ولكن نكذب الذي جئت به، فأنزل الله عز وجل [قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ] (١)

٢) **التفاوض مع أبي طالب:** أبو طالب الشيخ الجليل، كبير السن عظيم الجاه، وقور الهيبة، مُجاب الأمر بين قومه، جسّد العصبية الجاهلية في صورتها الثانية، العصبية التي تحمي الحق وتذود عنه بكل شيء، عصبية وكرامة لا إيمانا واعتقادا، منذ أن صدع رسول الله ﷺ بالحق وبدأت ملامح العداوة تتكشف من سادات قريش لرسول الله ﷺ، وقف أبو طالب بجوار النبي ﷺ يدافع عنه وينصره حمية وعصبية، غير مدفوع بعقيدة، فقد عاش ومات على الشرك وربما هذا ما حفظ له مكانته وهيبته بين القرشيين، فما تجرأ أحدهم على النيل من رسول الله ﷺ ولا أن يُفاجئوه بشيء في شأن النبي ﷺ غير أنهم لجأوا إلى حيلة التفاوض معه، عسى أن يكفيهم أمر ابن أخيه ويكفّه عن دعوته، فتوجه جمع من أشراف قريش يرأسهم أبو جهل وأبو سفيان وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن المغيرة والأسود بن المطلب - وكانوا أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ ودعوته - فقالوا لأبي طالب" إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه "

لم يكن الأمر قد أخذ بُعد العداء الصريح والمواجهة والصدام مع كُفار قريش لبني هاشم، فلم يجد أبو طالب ضرورة لإظهار نصرته لرسول الله ﷺ ومعاداتهم علانية، فردهم ردا جميلا حتى انصرفوا عنه، ثم دعا رسول الله ﷺ ليتبين منه مدى ثباته على أمره ودعوته، فربما رجع عنها وكفاه شر معاداة قريش التي اجتمعت على محاربة دعوته، فقال أبو طالب: يا ابن أخي

---

(١)سنن الترمذي ٣٣٤٢ ومستدرك الحاكم ٢/٣١٥ وقال صحيح على شرط الشيخين) والآية {الأنعام:٣٣}

إن بني عمك زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم وفي مسجدهم فانته عن ذلك، فحلق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، ثم قال له: ما أنا بأقدر على أن أدع لكم ذلك على أن تشعلوا لي منها شعلة (يعني الشمس) (١)

فما وجد أبو طالب من رسول الله ﷺ إلا ثباتا ويقينا، وأنه سيمضي في دعوته غير آبه بما يلاقي من قومه سواء أنصفه عمه، أو خذله وأسلمه إليهم .

إن كل مسلم بحاجة إلى نظرة تأمل في هذه الكلمات الفياضة، وهذا الإيمان والاستعداد المتناهي للتضحية والفداء من أجل الرسالة وتبليغها، إلى هذه الصورة الفريدة من البذل والعطاء التي لم تر البشرية مِثلها إلا في سير الرسل والأنبياء، كان رد رسول الله ﷺ واضحا وضوح الشمس التي مثّل بها، أن أمره فرض عليه لا يمكن أن يكف عنه أو يتركه، ولا يمكن أن يُقصّر تجاهه أو يتهاون، ولا يمكن أن يضعف أو يجبن، سواء وجد من ينصره أو لم يجد، سواء تعصب له قومه أو أسلموه .

نعم، لقد نالت يد الأذى الكثير من الأنبياء والمرسلين، وقتلت منهم الكثير، إلا أن هذا لا يُعني أن أحدهم قد قصّر في تبليغ دعوته وأقامة الحجة على قومه، إن نصرهم أمر حتمي قد قدّره الله عز وجل قبل أن يبعثهم [وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنصُرُهُ إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ] (٢) [وَإنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ] (٣) وهذا رسول الله ﷺ يُقرُّ ببشريته، إلا أنه يُظهر أنه رسول مُكلف ونبي مُرسل، يُقرُّ بإمكانية إيذائه وتعذيبه، إلا أنه يؤمن بأن العاقبة له ولمن آمن به وصدّقه، يُقرُّ بضعفه وعجزه عن نصرة أنصاره، إلا أنه يؤمن بأن العز والتمكين سيكون له ولدعوته، يُقرُّ بحاجته إلى من ينصره أخذا بالأسباب، إلا أنه يؤمن أن الله سينصره ويُظهر أمره، فأيقن أبو طالب أن أمر ابن أخيه رسالة سيعيش عليها، ولن يتردد في أن يموت من أجلها، فلما رأى هذا التصميم من رسول الله ﷺ واساه وآزره وأخبره أنه حاميه وناصره، وأنه لن يسلمه لهم ولن يخذله، فليفعل ما يشاء، وليبلغ ما يشاء، وليهادن من يشاء، وليعادي من يشاء فإنه لن يتركه وإن اجتمعت الدنيا كلها ضده ثم أنشد قائلا :

وَاللهِ لَن يَصِلوا إليكَ بِجَمعِهِم ... حَتّى أُوَسَّدَ في التُّرابِ دَفينا
فاصدَع بِأمرِكَ ما عَليكَ غَضاضَةٌ ... وَابشِر بِذاكَ وَقَرَّ مِنهُ عُيونا

---

(١)السلسلة الصحيحة١/١٩٤حديث٩٢وقال الألباني حسن، ثم قال: وأما حديث يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته. فليس له إسناد ثابت" وهو في السلسلة الضعيفة ٢/٣١٠حديث٩٠٩

(٢){الحج:٤٠} (٣){الصافات:١٧٣}

وَدَعَوتَني وَزَعَمتَ أنَّكَ ناصِحٌ — وَلَقَد صَدَقتَ وَكُنتَ ثَمَّ أمينا
وَعَرَضتَ ديناً قَد عَلِمتُ بِأنَّهُ — مِن خَيرِ أديانِ البَرِيَّةِ دينا
لَولا المَلامَةُ أو حِذاري سُبَّةً — لَوَجَدتَني سَمحاً بِذاكَ مُبينا

هكذا كانت تفعل العصبية والحمية القبلية، فكانت عندهم أشد من عصبيتهم لمعتقداتهم الدينية، فكان المرء يقبل أن يُسَبّ إلهه الذي يعبد، ويُقتل من أجل سَبة لقبيلته .

عاش أبو طالب بقية حياته مدافعا عن رسول الله ﷺ، بكل ما تحمل كلمة الدفاع من معان، فتحمل من أجله ويلات الحصار في الشعب وهو الشيخ المُسن، وتحمل عداء قريش كلها وهو سيدها ووجيهها، ثم جمع معه بني هاشم وبني المطلب، ودعاهم إلى نصرة رسول الله ﷺ والقيام دونه، وألا يسلموه لهم ولا يرى منهم مكروها، فأجابوه لما أراد منهم إلا ما كان من أبي لهب الذي ما ترك طريقا يُحارب فيه الرسول ﷺ إلا سلكه .

٣) التنكيل والتهديد لمن يتبع الرسول ﷺ : يد البطش والتعذيب، تلك الوسيلة التي لم تعرف البشرية أحمق منها، توارثتها الأجيال جيل بعد جيل، وظنوا أنها السلاح النفاذ، والورقة الرابحة، والقوة الضاربة لقمع أي رسالة وضمور اي دعوة، والتنكيل بأي جماعة.

يد البطش والتعذيب، خُلق متوارث بتعاقب الأجيال يختلف هدفه أحيانا، إلا أن أغلبه كان سلاحا ضد الحق، ووسيلة لقمع أنصار الدين وأصحاب الرسالة ومجددي السُنة .

يد البطش والتعذيب، ذاك الابتلاء الذي جعله الله في طريق أصحاب الرسالات وأنصار الحق والمؤمنين بالرسل .

مَثله القرشيون بأسلوبهم الساذج، ومثله المعاصرون بأسلوبهم الحديث، وهم يأملون صرف القلوب عن مُعتقداتها لمجرد مسهم بشيء من الإيذاء والتعذيب، وأي قوة هذه التي تُثني القلوب عما تؤمن به؟

إن أصحاب الأخدود ألقوا في النار وهم أحياء من أجل عقيدتهم ولم يُبالوا، فكيف يعتقد هؤلاء أنهم سيثنون عزم الفئة المؤمنة عن إيمانها إذا نكلوا بهم أو عذبوهم ؟ ربما ظنوا أنهم على شاكلتهم، يبيعون الغالي بالرخيص، ويشترون الفاني بالباقي، إن هذا ليس بخلق أهل الإيمان، لأن القيم والعقائد لا تتهاوى أبدا أمام مغريات المادة وشهوات الحياة وذلات الهوى وميول النفس .

أخذ عدد المسلمين في التزايد، وتزايد معه مقدار العداء الذي كانت تواجه به الدعوة، فقامت كل قبيلة على من فيها من المسلمين تذيقهم أشد ألوان العذاب

تفتنهم في دينهم وتتفنن في تعذيبهم، بين الكي بالنار والغط في الماء والإلقاء في الصحراء وامتناع الطعام والشراب، غير أن هذا المصير في بدايته لم ينل إلا المستضعفين من المسلمين والعبيد والإماء، أما الشريف إذا أسلم قاموا إليه يوبخون صنعه، ويقبحون رأيه، ويضعون شرفه، ويذكرونه بمن مات على دينهم من آبائهم وهم خير منهم، وإن كان الذي أسلم تاجرا ساوموه بالأموال فإن أبى هددوه بخسارة تجارته وهلاك ماله .

عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: قُلْتُ لابْنِ عَبَّاسٍ: يَا أَبَا عَبَّاسٍ أَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَبْلُغُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْعَذَابِ مَا يُعْذَرُونَ بِهِ فِي تَرْكِ دِينِهِمْ؟ فَقَالَ: نَعَمْ وَاللَّهِ إِنْ كَانُوا لَيَضْرِبُونَ أَحَدَهُمْ وَيُجِيعُونَهُ وَيُعَطِّشُونَهُ حَتَّى مَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَسْتَوِيَ جَالِسًا مِنْ شِدَّةِ الضُّرِّ الَّذِي بِهِ حَتَّى إِنَّهُ لَيُعْطِيهِمْ مَا سَأَلُوهُ مِنَ الْفِتْنَةِ، حَتَّى يَقُولُوا لَهُ اللاتُ وَالْعُزَّى إِلَهُكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ فَيَقُولُ نَعَمْ حَتَّى إِنَّ الْجُعَلَ لَيَمُرُّ بِهِمْ فَيَقُولُونَ لَهُ أَهَذَا الْجُعَلُ إِلَهُكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ فَيَقُولُ نَعَمْ افْتِدَاءً مِنْهُمْ مِمَّا يَبْلُغُونَ مِنْ جَهْدِهِ . (١)

إن لأهل الباطل منهج يدعون إليه، ويُدافعون عنه، وينوعون وسائلهم لنصرته، بل ويجتهدون في إثبات صدقه، وهذا المنهج لا يزال قائما، وهذه الأساليب لا تزال باقية، فأسلوب المساومة والإغراء بالأموال والمناصب تارة والتهديد والوعيد تارة أخرى قائما يُحارب به أنصار السنة وأصحاب الرسالة، إلا أن هذا الأسلوب لم يفلح مع أصحاب رسول الله ﷺ الذين تربوا في مدرسته، فاصطبغوا بأخلاقه وصفاته، وتجردوا من كل حب للدنيا وميل للشهوات، فكان ثباتهم نموذجا فريدا يدعو للعجب، فقد ثبتوا على دينهم رغم ما هم به من فتنة وابتلاء، وقد جاءتهم رخصة الإكراه [مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ] (٢) فأبت ألسنتهم على أن تُجارى معتقدات قد غيبت عقولهم لسنوات طوال، وأبت قلوبهم على أن ترقّ لأصنام تُعبد من دون الرحمن، وأبت جوارحهم على أن تئن من تعذيب السفهاء وقد ذاقت قلوبهم حلاوة الإيمان، فتساوى عندهم طيب الدنيا وخبيثها، وأيقنوا أن الأمر ليس أجسادا تُبلى وأعمارا تنتهي، وإنما أرواح تسمو وقلب يخشع وحياة أبدية ونعيم مقيم ووعد لا يُكذب فأيقنوا أن عذاب الدنيا وإن اجتمع لا يُقاس بعذاب الآخرة شيئا، وأن نعيم الدنيا وإن اجتمع لا يعادل شيئا أمام نعيم الآخرة، وهكذا يصنع الإيمان الصادق بنفس المؤمن.

---

(١) سنن البيهقي ٢ ١٧٣٥ والجُعل : الخنفساء

(٢) [النحل: ١٠٦]

٤) **السخرية من الرسول ﷺ:** إن من أكبر الظلم أن يُنكر الحق عيانا من أجل الدفاع عن الباطل، هكذا فعلت قريش في دفاعها عن الوثنية ضد نور التوحيد، عن الأصنام ضد الواحد القهار، عن الجاهلية العمياء ضد نور الإسلام، فهذه قريش التي ائتمنت رسول الله ﷺ على أعظم أمر في جاهليتها فرضيت به حكما في شأن الحجر الأسود صارخين " هذا الأمين ارتضينا به حكما " وهو الذي شهدوا له بالصدق يوم الصفا " مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلاَّ صِدْقًا " وهو الذي ائتمنه الله على رسالته وعلى مسئولية هداية البشر جميعا وإنقاذهم من جاهليتهم وضلالهم، وهو الذي جبله الله على أطيب الأخلاق والصفات فأقر بها الموافق والمفارق، فما كان من قريش إلا أن ألقت كل هذا وراءها ظهريا، واتخذت من شخص رسول الله ﷺ مصدرا للسخرية والاستهزاء، وتفننت في إلقاء التهم إليه جزافا، لا لشيء سوى لصرف الناس عنه ومحاولة إثنائه عن دعوته، فهذا أبو لهب عم رسول الله ﷺ عارض دعوته عيانا أمام الناس وسخر منه قائلا " تبا لك ألهذا جمعتنا " ومن يومها ترك أبو لهب المال والتجارة وجعل تجارته الرابحة في الصد عن رسول الله ﷺ، فاستخدم ماله وجاهه بين قومه لهذا العمل، كان ﷺ يطوف في وفود الحجيج داعيا إلى الله ورسوله يقول « يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ تُفْلِحُوا » ويقول ﷺ « أَنَا رَسُولُ اللَّهِ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا » فيتبعه أبو لهب صائحا في الناس " إِنَّهُ صَابِئٌ كَاذِبٌ " وَيَتْبَعُهُ حَيْثُ ذَهَبَ وَيَقُولُ " إِنَّ هَذَا يَدْعُوكُمْ إِلَى أَنْ تُفَارِقُوا دِينَ آبَائِكُمْ وَأَنْ تَسْلُخُوا اللاَّتَ وَالْعُزَّى إِلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْبِدْعَةِ وَالضَّلاَلَةِ " (١)

بأي لسان كان يتحدث، وعن أي بدعة وضلالة كان يُشير! بأي عقل كان يُفكر هؤلاء! أأرق سادات العرب أن يعبدوا الله وحده ويتركوا كل إله يُعبد دونه؟

أم أرقهم أن يصلوا الأرحام ويطعموا الطعام ويتحلوا بمكارم الأخلاق؟

أم أرقهم أن يكون لهم منهج يهدي خُطواتهم وينظم حياتهم؟

أم أرقهم أن يكون مقياس التفاضل بين البشر التقوى والعمل الصالح؟

بماذا جاء رسول الله ﷺ ليستحق كل هذا العداء؟

لقد اعتادوا السيادة بالرياسة والمال، وما ألفوا مقياس القلوب والأعمال، ومتى كان المال والرياسة سببا في تسييد أحد، إن العقل الذي لا يعي الحق ويؤمن به لا يمكن أن يؤتمن على مصير غيره فيكون عليه سيدا، والقلب الذي لا يُهذب رغبات النفس ويُزهدها في طلب ملذات فانية، لا يمكن أن يُقر بالحق ولو كان عيانا أمام عينيه.

---

(١) مسند أحمد ١٦٤٥٠ و١٩٥٢٠

فهذا الوليد بن المُغيرة ـ سيد من سادات مكة، ساد بالمال والسن، فبماذا أفاده ماله وأفادته رياسته؟ لقد سمع من رسول الله ﷺ قول الله تعالى [إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي القُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَالبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ] (١) فقال له أعد علي، فأعاد عليه رسول الله ﷺ، فوصف القرآن وصفا لو سمعه جاهل لظن أنه حديث، قال " والله، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو وما يُعلى عليه، وما يقول هذا بشر " (٢)

هكذا أقر الوليد بصدق ما جاء به رسول الله ﷺ وإعجاز القرآن وظهور امره، إلا أنه أبى إلا الكفر والضلال وإنكار الحق ميلا إلى أهواء النفس، بل والتمادي في الصد عن رسول الله ﷺ والافتراء عليه عيانا، فقد اجتمع إليه سادات مكة ينظرون في أمر رسول الله ﷺ يحاولون صرف الناس عنه في هذا المُنتدى العربي الذي يجمع الناس كل عام ـ موسم الحج ـ فقال لهم: يا معشر قريش إنه قد حضر الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأيا واحدا ولا تختلفوا يُكذّب بعضكم بعضا ويرد قول بعضكم بعضا، فقالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيا نقوم به فقال: بل أنتم قولوا أسمع، فقالوا: نقول كاهن فقال ما هو بكاهن لقد رأيت الكهان فما هو بزمزمة الكاهن وسجعه، فقالوا: نقول مجنون فقال: ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته، فقالوا: نقول شاعر فقال: ما هو بشاعر قد عرفنا الشعر برجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر، قالوا: فنقول ساحر قال: ما هو بساحر قد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثه ولا عقده، قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، إن أصله لعذق وإن فرعه لجني، فما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا أعرفه أنه باطل وأن أقرب القول لأن تقولوا: ساحر فقولوا: ساحر يُفرّق بين المرء وبين أبيه و بين المرء وبين أخيه وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته، فتفرقوا عنه بذلك فجعلوا يجلسون يسألون الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه و ذكروا لهم أمره (٣)

---

(١) {النحل: ٩٠}

(٢) دلائل النبوة للبيهقي - (ج ٢ / ص ٧٥ حديث ٥٠٥) وقال البيهقي هكذا حدثناه موصولا عن ابن عباس والمعاني: طلاوة بضم الطاء وفتحها أي الحسن والقبول

(٣) سيرة ابن اسحاق - (ج ١ / ص ١٢٨) الزمزمة: كلام خفي لا يسمع ـ العذق: النخلة ـ الجناة: ما يجني من الثمر.

هكذا كانت السيادة فيهم هاديا إلى الظلم والضلال، لا يخجلون من الكذب والافتراء، وهكذا سولت لهم أنفسهم، وانظر إلى هذا الاجتماع في الوصف، فقد ركزوا على جانب العصبية القبلية، لما لها من مكانة في قلوب العرب، فإن أحدا سيقبل أن يسمع قولا يُفرق جماعتهم ويصرف الابن عن أبيه، والمرأة عن زوجها، فاعتمدوا في صدهم على ما لا يُساير هوى الناس، وهكذا فعل أحفادهم في العصر الحديث، فقد ألصقوا الإرهاب بالإسلام، وجعلوا الإسلام سببا لكل خراب ودمار، لأن هذا لا يساير هوى الناس، فأضلوهم عن الصراط وأبدلوا الحق باطلا والباطل حق .

تزايد أعداد المُسلمين وتزايدت معه حدة المشركين مع رسول الله ﷺ فاتهموه بالجنون وبالسحر وبالكهانة وبالكذب والافتراء على الله، وإذا قابلوه استقبلوه بنظرات ناقمة وألفاظ ساخرة وعواطف منفعلة وتمنوا أن لو ينالوا منه، فتأذى رسول الله ﷺ من أفعالهم وأقوالهم ومعاملتهم، إلا أنه لا يعرف السب واللعان، ولا يعرف رد السيئة بمثلها، ولا يعرف أي منكر من أخلاق أو أفعال، همه تبليغ رسالة ربه غير آبه بهذه السفاهات التي لا يخلو منها طريق داعية وصاحب رسالة، فتولى القرآن الكريم بالرد عليهم وبيّن كذبهم وافترائهم على رسول الله ﷺ .

قال تعالى [وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ] (١) وقال [وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ * إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ] (٢) وقال [وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ] (٣) ثم توالت الآيات تدعو رسول الله ﷺ بألا يُبالي بأقوالهم ولا ينشغل بسفاهاتهم، قال تعالى [فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ] (٤)

---

(١) {القلم ٥١/٥٢} (٢) {الحجر ٦/٩}

(٣) {ص ٤/٧} (٤) {الحجر ٩٤/٩٩}

وقال تعالى [قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ] (١) وقال تعالى [وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ](٢)

هكذا كان دفاع القرآن عن رسول الله ﷺ وتثبيته له، فلم يكترث بما يقولون ومضى في طريق دعوته يُبلغ رسالة ربه غير آبه بما يلاقي من سفاهات قومه، فكان الله عز وجل يجعل له مثبتات على الطريق تُهون عليه الصعاب وتدفع الطمأنينة إلى قلبه، كانت بشائر النصر تأتي بين الحين والحين، وفي أحلك ساعات الشدة يهبه الله مخرجا ينفث عنه شدته، إنها المنح بعد المحن، منح يجعلها الله في طريق أصحاب الرسالات؛ ليثبت به فؤادهم ويربط به على قلوبهم ، فالابتلاء مهما طال لن يدوم .

كَتَبَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ يَذْكُرُ لَهُ جُمُوعًا مِنَ الرُّومِ وَمَا يَتَخَوَّفُ مِنْهُمْ فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّهُ مَهْمَا يَنْزِلْ بِعَبْدٍ مُؤْمِنٍ مِنْ مُنْزَلِ شِدَّةٍ يَجْعَلِ اللَّهُ بَعْدَهُ فَرَجًا وَإِنَّهُ لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ. (٣)

نعم إن الابتلاء سُنّة جارية إلا أن نصر الله للمؤمنين والتمكين لهم هو أيضا سُنّة جارية [وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا] (٤) وهذا القانون الإلهي قد طبق بأكمل صوره مع رسول الله ﷺ وصحابته وستراه جليا طوال أحداث السيرة النبوية، يأتي الفجر بنوره بعد أشد ساعات الليل ظلمة، قال تعالى [وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا] (٥) وقال [وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا](٦) فانظر إلى كل هذه الاتهامات التي ألصقوها برسول الله ﷺ أتدفع أحدا إلى أن يستمع إليه ويعي قوله ؟ لقد جعلها الله سببا ودافعا إلى ميل النفس لسماع رسول الله ﷺ وتدبر قوله ، روى مُسلم عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ ضِمَادًا قَدِمَ مَكَّةَ وَكَانَ مِنْ أَزْدِ شَنُوءَةَ وَكَانَ يَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ فَسَمِعَ سُفَهَاءَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يَقُولُونَ إِنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ. فَقَالَ لَوْ أَنِّي رَأَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ لَعَلَّ اللَّهَ يَشْفِيهِ عَلَى يَدَيَّ

فَلَقِيَهُ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ وَإِنَّ اللَّهَ يَشْفِي عَلَى يَدِي مَنْ شَاءَ فَهَلْ لَكَ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ« إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَمَّا بَعْدُ » فَقَالَ أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ. فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَقَالَ لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ وَقَوْلَ السَّحَرَةِ وَقَوْلَ الشُّعَرَاءِ، فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، وَلَقَدْ بَلَغْنَ نَاعُوسَ الْبَحْرِ

---

(١){يونس:١٦} (٢) {الأنعام:١٠} (٣)الموطا ٩٦٧

(٤){النساء:١٤١} (٥){الطلاق:٢} (٦){الطلاق:٤}

فقالَ هَاتِ يَدَكَ أُبَايِعْكَ عَلَى الإِسْلاَمِ فَبَايَعَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « وَعَلَى قَوْمِكَ » قَالَ وَعَلَى قَوْمِي قَالَ ابْنِ عَبَّاسٍ فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً فَمَرُّوا بِقَوْمِهِ فَقَالَ صَاحِبُ السَّرِيَّةِ لِلْجَيْشِ هَلْ أَصَبْتُمْ مِنْ هَؤُلاَءِ شَيْئًا فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ أَصَبْتُ مِنْهُمْ مِطْهَرَةً. فَقَالَ رُدُّوهَا فَإِنَّ هَؤُلاَءِ قَوْمُ ضِمَادٍ (١)

٥)**السخرية من مضمون الدعوة:** رغم ما كان يبدو على طبيعة المجتمع الجاهلي من سمات البداوة وغلبة الروح الجاهلية في التفكير والتعامل، إلا أن القرآن قد أقر لهم بحقيقة كُبرى، إنها قدرتهم على الجدال ولبس الحق بالباطل، لذا جاء القرآن ليرد على كل شبههم نحو الرسالة بالأدلة العقلية التي تتلاءم مع قدرة عقولهم، ثم دلل عليها بالأمثلة من واقع الحياة التي ألفوها، وبذا تُقام عليهم الحجة بالدليل العقلي، ورغم التشابه البيّن في أفكارهم ودعواهم وحججهم التي ضاهوا بها رسالة الإسلام، إلا أن هذا التشابه قد اختلف في استجابتهم لهذه الحجج الدامغة وإيمانهم بصدق ما جاءت به رسالة الإسلام، وهذا التفاوت كان منشأه تفاوت العقول في الحكم على الأمور دون تدخل أهواء النفس، فكلا من عمر بن الخطاب وأبي جهل كانا على نفس الدرجة من العداء للدعوة وللرسول ﷺ، ولكن الفارق كان في قدرة عقولهم على الفصل في الأمور دون التأثر بحكم مُسبق على الدعوة وعلى الرسول ﷺ، فالإنصاف في الحكم هو أساس الفطرة السليمة ولو كان لعدو، فما بالك بحكم على رسالة تخاطب العقل وترد على اتهاماتهم بالعقل! فلو أنصفوا لحكموا عقولهم في إجابات القرآن على أسئلتهم .
كانت قضية التوحيد من أهم ما رفضته عقولهم وأبت أن تقتنع به، فتناول القرآن هذه القضية هدما وبناءً، فأشار أولا إلى محور النقاش وهو سُخريتهم من التوحيد، فقال الله تعالى [أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ] (٢) ثم تناول الحديث عن استحالة وجود عدة آلهة لهذا الكون، فقال تعالى [مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ] (٣) وقال تعالى [قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا] (٤) وقال تعالى [لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ] (٥)
ثم انتقل الحديث إلى التحدي في إثبات آلهة أخرى يملكون النفع والضر للناس، يتصرفون في الكون كما يشاءون، وإن كان هناك آلهة فأين ملكهم؟

---

(١) مسلم٢٠٤٥ وناعوس البحر أي لجة البحر ووسطه أو قعره الأقصى

(٢){ص:٥}   (٣){المؤمنون:٩١}

(٤){الإسراء:٤٢}   (٥){الأنبياء:٢٢}

وأين سلطانهم؟ وما هو منهجهم ؟ وكيف نتعرف عليهم ؟ فإن لم تقيموا الحجة على ادعائكم فارضخوا للحق واعترفوا به.

قال تعالى [وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ] (١)

كذلك كانت قضية البعث بعد الموت مثار استنكار وتعجب، رغم أن قضية بقاء النفس البشرية بعد الموت غريزة أوجدها الله في نفوس البشر، إلا أنهم تفاوتوا في تصورها كل كما صوّر له عقله، ولغياب تعاليم الشرائع السماوية في المجتمع الجاهلي فقد بعدوا في تصورهم عن طبيعة هذه الحياة المُستقبلية، رغم أن غير واحد من الشعراء الذين اتصلوا باليهود والنصارى قد أشار إليها في بعض أشعاره، فالحديث عنها ليس بالأمر الجديد على آذان العرب كما ادعوا، ومع ذلك جعلوه وسيلة للطعن في الرسالة، واتخذوه ذريعة لصرف الناس عنها

لذا تناولها القرآن بنحو ما تناول به قضية التوحيد فأخذها هدما وبناء، ثم دلل عليها بالأمثلة من واقع الحياة، ليكون أقوى في الحجة وأكثر إيضاحا وأظهر في البيان.

قال تعالى واصفا استنكارهم للبعث [وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أَفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ](٢)

وقال تعالى [أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ] (٣)

فهذا موضوع الجدل، فبين الله عز وجل قدرته على البعث بعد الموت لأنه كالخلق أول مرة، فكما بدأ الخلق سيعيده، قال تعالى [وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا](٤)

وقال تعالى [أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] (٥)

وقال تعالى [يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ](٦)

---

(١){المؤمنون:١١٧} (٢)[سبأ - الآية:٧، ٨]

(٣){الصافات١٦/١٧} (٤) {الإسراء٤٩/٥١}

(٥){الأحقاف:٣٣} (٦) {الأنبياء:١٠٤}

ثم جاء القرآن بالأمثلة من واقع الحياة على البعث والنشور، فقال تعالى [وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ](١)

ثم بين الله العلة من البعث والثواب والعقاب، فلا يُعقل أن يتساوى المحسن والمسيء، ولا الظالم ولا المظلوم، وإلا لكان الظالم أسعد حظا من المظلوم، وهذا يتنافى مع نظام الله في الكون، القائم على الجزاء من جنس العمل.

قال تعالى [أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ](٢)

وقال تعالى [أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ] (٣)

وبهذه الكيفية أجاب القرآن على شكوكهم وشُبهاتهم بإجابات عقلانية وردود منطقية، ثم بين لهم رب العالمين طلاقة قدرته التي لا تُقاس بمقاييس البشر، وإنما تستوعبها عقول البشر مما يجدون سُلطان ربهم عليه في الدنيا، فقال تعالى[أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ](٤) وقال تعالى [أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا](٥) وقال تعالى [إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ] (٦) وقال تعالى [وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ](٧)

٦- **التعتيم الإعلامي :** الإعلام، وسيلة نفاذة تسلب العقل رشده فتجعله أسير غيره، تُحرك مشاعره في الاتجاه الذي تُريد، جديرة بأن تقلب الحق باطلا بنقدها اللاذع، وأن تجعل الباطل حق بزيفها المُعتاد، جديرة بأن تُقيم الحجة والدليل على ما يشاء القائمين عليها تصديقه أو تكذيبه.

الإعلام تلك الوسيلة التي أقر بأهميتها القرآن الكريم والسنة المُطهرة، لما لها من تأثير قوي على النفوس بمختلف وسائلها وبكل أساليبها، جاء الإسلام بدعوته، وقد غدا العرب وكأنهم قرية صغيرة بما أوجدوا من تقدم في وسائل الاتصال لم تشهد البشرية آنذاك مثلها، إنها الشعر

---

(١)[الأعراف:٥٧] (٢)[الجاثية : ٢١] (٣)[ص : ٢٨]

(٤)[يس:٨١] (٥)[النازعات:٢٧] (٦)[النحل:٤٠]

(٧)[الأنعام:٧٣]

هذا الحدث الفريد وهذه الظاهرة المميزة التي لم تسجل لأمة من قبل، ولا لحضارة من قبل، كما سجلها التاريخ للعرب الجاهليين، كان الشاعر ينشد القصيدة في أقصى الجنوب فلا يمضي عليها كثير وقت حتى تكون على كل لسان في أرض الجزيرة العربية، حفظوا به إرث الأجداد في أيام مجدهم وعراقة أنسابهم، حضوا به على القتال، وأبدعوا في وصف مختلف مشاهدها بأبسط الكلمات، لم يتركوا بابا إلا طرقوه بالشعر حتى بدا الشاعر في المجتمع الجاهلي وكأنه قناة فضائية تبث ما تشاء من أفكار بلا رقيب عليها، ولعل ما يبين هذه المكانة ما يرويه كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ فقال: خَرَجْنَا نَسْأَلُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكُنَّا لا نَعْرِفُهُ لَمْ نَرَهُ قَبْلَ ذَلِكَ فَلَقِيَنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فَسَأَلْنَاهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ هَلْ تَعْرِفَانِهِ؟ قُلْنَا لا. قَالَ فَهَلْ تَعْرِفَانِ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَمَّهُ قُلْنَا نَعَمْ . قَالَ كُنَّا نَعْرِفُ الْعَبَّاسَ كَانَ لا يَزَالُ يَقْدَمُ عَلَيْنَا تَاجِراً. قَالَ فَإِذَا دَخَلْتُمَا الْمَسْجِدَ فَهُوَ الرَّجُلُ الْجَالِسُ مَعَ الْعَبَّاسِ.

قَالَ فَدَخَلْنَا الْمَسْجِدَ فَإِذَا الْعَبَّاسُ جَالِسٌ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَهُ جَالِسٌ فَسَلَّمْنَا ثُمَّ جَلَسْنَا إِلَيْهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْعَبَّاسِ« هَلْ تَعْرِفُ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ يَا أَبَا الْفَضْلِ قَالَ نَعَمْ هَذَا الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ سَيِّدُ قَوْمِهِ وَهَذَا كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ. قَالَ كعب" فَوَاللَّهِ مَا أَنْسَى قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ « الشَّاعِرُ »؟! قَالَ نَعَمْ. (١)

نعم الشاعر، فهذه الدعوة بحاجة إلى من ينقل أفكارها وتعاليمها بين الناس بالوسيلة الأكثر تأثيرا في عقولهم والأكثر قبولا لديهم، فالدعوة ليست بمعزل عن لغة العصر وأسلوب التفاهم ووسائل الإعلام المتاحة فيه، إلا أن هذا ما كان ليفوت سادات مكة، فقد أيقنوا أن إسلام شاعر من شعراء العرب مع رسول الله ﷺ جدير بأن يجعل تعاليم رسالة الإسلام على كل لسان بأرض العرب، فأيقنوا أنه لا خلاص لمحاصرة هذه الدعوة إلا بالتضييق الإعلامي عليها وصد الشُعراء عنها، فأتمروا على أن يحجبوا أي شاعر ينزل بمكة عن سماع رسول الله ﷺ خشية أن يُصدقه، إلا أن الله عز وجل كان دائما ما يؤيد رسوله ﷺ ويجعل له المخرج والمنفث كلما اشتدت الصعاب، ويُظهر أمره وسُلطان دعوته بما يمكر به المُشركون ويُحاربون به، فقد قدم شاعر من قبيلة دوس يُدعى الطفيل بن عمرو إلى مكة مُعتمرا فالتف حوله سادات مكة ووجهائها، يحذرونه من مغبة الاستماع لرسول الله ﷺ ـ وكان الطفيل رجلاً شريفا شاعراً لبيبا سيدا مجابا في قومه ـ فقالوا له: يا طفيل إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا وقد فرق جماعتنا وشتت أمرنا

---

(١) مسند أحمد١٦٢١٣

وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه وبين الرجل وبين أخيه وبين الرجل وبين زوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيئاً.

قال الطفيل واصفا تأثير هذا القول على نفسه: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت ان لا أسمع منه شيئا ولا أكلمه حتى حشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد كُرسفا (قُطنا) فرقا من ان يبلغني شيء من قوله وانا لا أريد أن أسمعه، فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، فقمت منه قريبا فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله، فسمعت كلاما حسنا، فقلت في نفسي واثكل أمي والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفي علي الحسن من القبيح فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان الذي يأتي به حسنا قبلته وإن كان قبيحا تركته. فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته، فتبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فقلت: يا محمد، إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا، فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله عز وجل إلا أن يسمعنيه، فسمعت قولا حسنا فاعرض علي أمرك، فعرض رسول الله ﷺ عليّ الإسلام وتلا عليّ القرآن فلا والله ما سمعت قولا قط أحسن منه، ولا أمرا أعدل منه، فأسلمت وشهدت شهادة الحق وقلت: يا نبي الله إني امرؤ مطاع في قومي، وإني راجع إليهم فداعيهم إلى الإسلام، ورجع إلى قومه داعيا إلى الله ورسوله ﷺ فما زال بهم حتى أسلموا وهاجروا ثم لحقوا بالرسول ﷺ عام خيبر (١)

هكذا كان إسلام شاعر سبب في إسلام قومه جميعا، فالدعوة إلى الله بحاجة إلى كل الوسائل المُتاحة وإلى كل السُبل المؤدية إلى قلوب الخلق وعقولهم، وإلى كل الأساليب التي تأخذ بمجامع أفئدتهم، لتقودهم إلى خير الدنيا والآخرة، وترشدهم إلى ما فيه النجاة والفلاح، فمهما غلت قيمة السلعة فإنها بحاجة إلى حُسن عرض ليُقبل عليها الناس، وإلا فإن قيمتها ستظل بداخلها لا يعرف عنها أحد شيئا .

لم يكتف المشركون في حملتهم الإعلامية المنظمة ضد رسالة الإسلام بصد الشعراء عنها وحرمانها من أي وسيلة دعائية تنشر مبادئها وأفكارها وتعاليمها بين الناس، وإنما لجأوا إلى حصار إعلامي شامل لهذه الدعوة وتضييق كل السُبل المؤدية إلى ذيوع أمرها وانتشار خبرها، وبالطبع ساعد سادات العرب جميعا أهل مكة في هذا الأمر

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي حديث٢١٠٨)اللبيب: الذكي العاقل - ابى: رفض وامتنع - وا ثكل : أسلوب ندبة يدل على الدعاء بالموت والفقد

فإنهم لن يتقبلوا أن تخرج هذه الدعوة من محبسها الضيق بمكة لتنتشر في كل ربوع الجزيرة فتقضي على سيادتهم القائمة على الفساد العقائدي والمالي.

كان سادات مكة إذا حضر موسم الحج كل عام خرجوا على مشارف مكة يستقبلون الحُجاج، يحذرونهم من السماع لرسول الله ﷺ أو إجابته إلى ما يطلب منهم، ثم وحّدوا وصفهم لئلا تتضارب أقوالهم وقالوا بأنه ساحر يُفرق بين المرء وقومه، فعَنْ جَابِرٍ قَالَ مَكَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يَتْبَعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ بِعُكَاظٍ وَمَجَنَّةَ وَفِي الْمَوَاسِمِ بِمِنًى يَقُولُ « مَنْ يُئْوِينِي مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي وَلَهُ الْجَنَّةُ » حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ أَوْ مِنْ مُضَرَ فَيَأْتِيهِ قَوْمُهُ فَيَقُولُونَ احْذَرْ غُلاَمَ قُرَيْشٍ لاَ يَفْتِنُكَ وَيَمْشِي بَيْنَ رِحَالِهِمْ وَهُمْ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ (١)

نعم لقد استطاع أهل مكة أن يضيقوا كل السُبل على الدعوة، لكنهم جهلوا من يُحاربون، إنهم يحاربون الله ورسوله، فأنى لهم ولأمثالهم بالنصر !

لقد رد الله كيدهم في نحورهم وجعل حصارهم الإعلامي هو نفسه الوسيلة التي تنتشر بها تعاليم رسالة الإسلام، فما من أحد في الجزيرة كلها إلا وقد سمع عن دعوة الإسلام، وعن خبر رسول الله ﷺ، نعم إنهم سمعوا الحق ممزوجا بالباطل، إلا أن هذا قطعا لن يدوم، فرسالة الإسلام قادمة لقيادة البشرية كلها، وما أن علم الناس ببطلان ما سمعوا عنها حتى شغفت قلوبهم إلى تتبع أخبارها، وتقصي أمرها، خاصة بعد نصر المُسلمين في غزوة بدر .

هكذا كان تأثير الحصار الإعلامي على الدعوة الإسلامية في بدايتها، ودار الزمان دورته حتى شهدت هذه الرسالة أشرس وأعنف حرب إعلامية لتشويه صورتها، وتبديل ثوابتها، وإلصاق كل دمار وخراب إلى تعاليمها وهديها، هذه الحرب التي غدا المسلمون فيها وكأنهم فريسة سهلة لا تجرؤ على أدنى مُقاومة، رغم كل ما تملك من وسائل الرد وتصحيح الأوضاع .

إن هذه الحرب الإعلامية التي يشنها الغرب على الإسلام بحاجة إلى من يتصدى لها بمثل أسلوبها ووسائلها، فإن الحق لن يُنصف إن لم يجد من يذود عنه، فهذا من أدنى حقوق هذه الرسالة على من يؤمن بها، إنه حق الإنصاف، بل إن رسول الله ﷺ قد جعل الدعوة إلى الله وإدحاض كيد المشركين وإبطال حججهم ضرب من أنواع الجهاد، فقال ﷺ « جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ » (٢)

---

(١)مسند أحمد ١٤٨٣٠ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/١٣٣ حديث٦٣

(٢)سنن أبي داوود ٢٥٠٦ وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داوود وفي مشكاة المصابيح ٣٨٢١

وقال ﷺ لأصحابه « اهجوا قريشا فإنه أشدُّ عليها من رشق بالنبل » (١)

وقال ﷺ لحسان بن ثابت وهو يرد على المشركين بشعره « إنَّ رُوحَ القُدُس لا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ مَا نَافَحْتَ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ » (٢)

إن الله يؤيد وينصر كل من ينافح عن الله ورسوله ﷺ بكل وسيلة ممكنة، فإن سُنَّة الله في الكون أن يؤيد من يدافع عنه وينصر شرعه ومنهجه[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ] (٣)

نعم إن التدافع والصراع بين الحق والباطل سُنة ربانية قائمة حتى قيام الساعة، ولكن كل نفس مسئولة عما قدمته لنصرة هذه الرسالة ومحاسبة على تقصيرها تجاهها والدفاع عنها، خاصة إذا تشوهت ثوابتها ونال منها الأعداء كل منال، في غفلة من أنصارها، ربما جاهلين أو متجاهلين !

٧- **تزييف حقائق الرسالة:** كانت أسس الدعوة إلى الله تعتمد على ترسيخ قضية التوحيد في النفوس، لذا كانت مُعظم الآيات المكية تُخاطب عقول البشر بحقيقة التوحيد والإيمان بالدار الآخرة، فجاءت آيات كثيرة تقص على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين أخبار من سبق من الرسل، وكيف صبروا على ما كُذبوا به، وتحملوا سفاهات أقوامهم؛ لتبليغ رسالة رب العالمين، ثم جاءت بنهايات عدة لأمم سابقة كذبت رسلها فأهلكها الله عز وجل، منهم من كان بأرض العرب، ومنهم من كان بغيرها، وتناول القرآن قصص السابقين بكل جزئياته التي تُفيد المسلمين في العظة والاعتبار بالأمم السابقة، معتمدا على أسلوب التكرار في عرض السياق الكلي للأحداث دون تكرار المواقف والمشاهد المختلفة، فتجد قصة موسى عليه السلام في أكثر من موضع، إلا أنها لا تشرح نفس المشهد، وإنما تعتني بجانب آخر من جوانب القصة، فأيقن المسلمون قيمة هذا القصص في بناء الشخصية المُسلمة، والاعتبار من الآخرين والعظة من مصائرهم والتحلي بأخلاق المُرسلين ومن سار على نهجهم، إلا أن كُفار قريش قد ألفوا الضلال بعد الضلال، فجعلوا هذا القصص ذريعة للطعن في الرسالة، فوصفوا القرآن بأنه إفك، وأنه أساطير الأولين، وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش الذين جابوا بلاد الفرس والروم وعلم من أخبارهم وقصصهم الكثير، فكان إذا فرغ النبي ﷺ من مجلس دعا فيه جمع من قريش إلى الله ورسوله، جمعهم النضر حوله وأخذ يقُص عليهم من أحاديث ملوك الفُرس ثم يقول لهم بماذا محمد أحسن حديثا مني ؟

---

(١) مسلم،٦٥٥ (٢) مسلم،٦٥٥ (٣){محمد:٧}

فجاء القرآن ليرد على سفاهاتهم وبهتانهم، فقال تعالى (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً *وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً) (١)

٨- **طلبهم معجزات بعينها:** عمد المشركون إلى تعجيز رسول الله ﷺ؛ ليطعنوا في نبوته وصدقه أمام الناس كافة فتخاصموا إليه؛ ليطلبوا معجزات يحددونها هم ويأتي بها الرسول ﷺ أمام أعينهم؛ لتكون بُرهانا على نبوته لهم، وهذا ليس بالخُلق الجديد، فقد جاء به من هم على وتيرتهم من السابقين الذين طلبوا المعجزات، ولما جاءتهم كفروا بها، فثمود قوم نبي الله صالح عليه السلام سألوه آية بعينها، ناقة تخرج من صخرة عينوها له، فدعا صالح عليه السلام ربه فأخرج لهم منها ناقة على ما سألوه، إلا أنهم كفروا بمن خلقها وكذبوا رسوله وعقروها، فأخذهم عذاب أليم، قال تعالى [فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ](٢) فأبادهم الله عن آخرهم وانتقم منهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، فقد جرت سنة الله فيهم وفي أمثالهم أنهم لا يؤخرون إن كذبوا بها بعد نزولها، كما قال الله تعالى في قصة المائدة التي طلبوها من عيسى عليه السلام أن تنزل عليهم من السماء فقال تعالى [قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ](٣)

فهناك فارق بين أن يؤيد الله نبيه بالمعجزات الباهرة ليدل على صدقه، ثم يمهل قومه وقتا لتقوم عليهم الحجة بعد ذلك إن هم كفروا بها، وبين طلبهم المعجزة، وجعلها مقياس إيمانهم بقولهم " إن جاءت فإننا سنؤمن " فهنا أقاموا الحجة على أنفسهم، إما أن يؤمنوا، وإما أن يأخذهم العذاب الأليم

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَتْ قُرَيْشٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ أَنْ يَجْعَلَ لَنَا الصَّفَا ذَهَباً وَنُؤْمِنَ بِكَ. قَالَ « وَتَفْعَلُونَ »قَالُوا نَعَمْ. قَالَ فَدَعَا فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ إِنَّ رَبَّكَ عَزَّ وَجَلَّ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلاَمَ وَيَقُولُ:إِنْ شِئْتَ أَصْبَحَ لَهُمُ الصَّفَا ذَهَباً فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْهُمْ عَذَّبْتُهُ عَذَاباً لاَ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ وَإِنْ شِئْتَ فَتَحْتُ لَهُمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ. قَالَ « بَلْ بَابُ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ » (٤)

لقد أراد المُشركون أن يكون الحق وفقا لأهوائهم، لا أن تكون أهواءهم وفقا للحق، والله عز وجل لم يُرسل رسوله ليأتيهم بالمعجزات الخارقة

---

(١)[الفرقان ٤-٦] (٢){هود:٦٥} (٣){المائدة:١١٥}

(٤)مسند أحمد٢٢٠٣ وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٣١٤٢ والسلسلة الصحيحة٣٣٨٨

الواحدة تلو الأخرى، وإنما أرسله بمعجزة خالدة باقية تكفل سبحانه بحفظها ثم أيده بين الحين والحين بالمعجزات التي تقر بها عينه ويثبت الله بها قلوب أتباعه إلا أنها معجزات تأييده ليست وفقا لأهواء أحد، ثم بين الله وظيفة رسوله التي عجزت عقول المشركين عن إدراكها وعن فهم حقيقة النبوة، فاقتصرت وظيفة الرسول على التبليغ والإنذار، فلا يملك أن يأتي بآية من عنده أو يحدد منهجا لم يؤمر به، فقال تعالى [وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا] (١)

٩- الإيذاء البدني للرسول ﷺ : توقف إيذاء المشركين لرسول الله ﷺ على نحو ما ذكرنا من الأذى النفسي الذي لحق به ﷺ من السخرية والاستهزاء والتطاول ببذيء الألفاظ، وما كانوا يفعلونه بأصحابه نظير إتباعهم له، حتى تُوفي أبو طالب الذي كان يذود عن رسول الله ﷺ ويرد عنه كل أذى، فما اجترأت قريش على أن تنال من جسد رسول الله ﷺ أو أن تمسه بسوء مخافة غضب أبي طالب الذي كان على مثل دينهم.

كان موت أبي طالب نقطة فاصلة في فكر المشركين وعدوانهم تجاه رسول الله ﷺ، حتى قال ﷺ بعد موته " ما زالت قريش كاعة حتى توفي أبو طالب"(٢) فلما مات أبو طالب تجرأ سُفهاء قريش على رسول الله ﷺ فأذاقوه أشد ألوان الإيذاء البدني، وما كان من رسول الله ﷺ إلا الصبر والاحتساب.

هذه بعض صور مما فعله المشركون مع رسول الله ﷺ بعد موت عمه، الصورة الأولى كان دنيؤها عقبة بن أبي مُعيط - وهو سيد من سادات مكة - فانظر كيف قادته سيادته إلى الجهل والسفه، إلى الدونية والانحطاط، إلى عمى البصيرة وسوء الخُلق، فقد جَاءَ عُقْبَةُ ذات يوم إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، فَوَضَعَ رِدَاءَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ بِهِ خَنْقًا شَدِيدًا، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَفَعَهُ عَنْهُ وهو يقول أتقتلون رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ. وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ (٣)

---

(١)(الإسراء ٩٠-٩٣)

(٢)المستدرك على الصحيحين ٤٢٤٣ وقال صحيح على شرط الشيخين، وذكره الألباني في صحيح السيرة وقال إسناده جيد)) وقال الخطابي في غريب الحديث (ج ١ / ص ١٢٩) كاعة جمع كانع وهو الجبان كما يقال بائع وباعة وقائد وقادة ، يُقال كع الرجل عن الأمر إذا جبن وانقبض

(٣)البخاري ٣٦٧٨

إلى هذا الحد كان الحقد والكراهية قد تأصل في قلوبهم حتى ما عادوا يرون أو يسمعون إلا لشيطان أنفسهم، وإلى هذا الحد غابت المروءة والأخلاق الحسنة عندما تعارضت مع مصالحهم وسيادتهم، إن المرء ليعجب من أخلاق تظهر في الحلم واليُسر وتختفي في الغضب والعُسر، إنها حقا أخلاق الجُبناء الذين لا يخجلون من سفههم ولا يُقيمون وزنا لتوابع أعمالهم.

أما اللقطة الثانية فاجتمع فيها كافة سادات قريش، إنها عمل جماعي اشتركوا فيه جميعا كل قدر استطاعته، إما بالرأي أو بالمشاركة أو بالتقييم والهتاف.

عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُصَلِّي عِنْدَ الْبَيْتِ، وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ، إِذْ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أَيُّكُمْ يَجِيءُ بِسَلَي جَزُورِ بَنِي فُلَانٍ فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ ؟ فَانْبَعَثَ أَشْقَى الْقَوْمِ فَجَاءَ بِهِ - في رواية أنه عُقبة بن أبي معيط - فَنَظَرَ حَتَّى إِذَا سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَضَعَهُ عَلَى ظَهْرِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ وَأَنَا أَنْظُرُ، لَا أُغَيِّرُ شَيْئًا، لَوْ كَانَ لِي مَنْعَةٌ.

قَالَ فَجَعَلُوا يَضْحَكُونَ وَيُحِيلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَاجِدٌ لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ، حَتَّى جَاءَتْهُ فَاطِمَةُ، فَطَرَحَتْ عَنْ ظَهْرِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ ثُمَّ قَالَ« اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ » ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ إِذْ دَعَا عَلَيْهِمْ - قَالَ وَكَانُوا يُرَوْنَ أَنَّ الدَّعْوَةَ فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ مُسْتَجَابَةٌ - ثُمَّ سَمَّى« اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ، وَعَلَيْكَ بِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ » وَعَدَّ السَّابِعَ فَلَمْ يَحْفَظْهُ، قَالَ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ عَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَرْعَى فِي الْقَلِيبِ قَلِيبِ بَدْرٍ. (١)

لقد تخلى سادة قريش عن كل الأخلاق والمروءة التي لطالما تغنوا بها في أشعارهم عندما اصطدمت بعقائدهم، فأذاقوا رسول الله ﷺ من الأذى ما لا يُحتمل، وأي إيذاء بعد أن تدنس أجساد الساجدين بالقاذورات، وسادات مكة يضحكون ويتمايلون على هذا المشهد العجيب، فأي صبر هذا! وأي قوة تحمل هذه لأب يعتصر قلبه ألما ولوعة حينما يرى أن من يرد عنه الأذى هي ابنته الجويرية، وما من فتاة إلا وترى في أبيها الحصن المنيع الذي يرد عنها أي أذى

أما اللقطة الثالثة فهي انتقام جماعي من رسول الله ﷺ وصاحبه الصديق، شارك فيها جمع من سادات مكة، تروي تفاصيلها أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ عندما سُئلت " مَا أَشَدُّ مَا رَأَيْتِ الْمُشْرِكِينَ بَلَغُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ قَالَتْ: كَانَ الْمُشْرِكُونَ قَعَدُوا فِي الْمَسْجِدِ يَتَذَاكَرُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي آلِهَتِهِمْ فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ

---

(١)البخاري ٢٤٠ و ٣١٨٥

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فقامُوا إِلَيْهِ، وَكَانُوا إِذَا سَأَلُوا عَنْ شَيْءٍ صَدَقَهُمْ، فقالوا: أَلَسْتَ تَقُولُ كَذَا وَكَذَا؟ فقال « بَلَى » فَتَشَبَّثُوا بِهِ بِأَجْمَعِهِمْ، فَأَتَى الصَّرِيخُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقِيلَ بَادِرْ صَاحِبَكَ، فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِنَا وَإِنَّ لَهُ لَغَدَائِرَ فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ وَهُوَ يَقُولُ وَيْلَكُمْ (أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ) فَلَهَوْا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَقْبَلُوا عَلَى أَبِي بَكْرٍ، فَرَجَعَ إِلَيْنَا أَبُو بَكْرٍ فَجَعَلَ لا يَمَسُّ شَيْئًا مِنْ غَدَائِرِهِ إِلاَّ جَاءَ مَعَهُ وَهُوَ يَقُولُ تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ"(١)

هكذا بلغ السفه بكفار قريش، فما عادوا يُراعون حُسن عشرة، أو طيب نسب، أو نُبل أخلاق، وما عادوا يُراعون حق حر ولا حق عبد، فأخذوا يصبون من أنواع العذاب على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه ما يعجز المرء عن وصفه، وكل هذا لأنه يدعوهم إلى الهداية والنجاة.

أما الصدّيق ﷺ فقد قرن مصيره بمصير رسول الله ﷺ، وكان قبل قد جعل ماله في سبيل الله، وها هو الآن قد جعل جسده فداءً لجسد رسول الله ﷺ.

خطب علي بن أبي طالب ﷺ في الناس ذات يوم فقال من أشجع الناس؟ فقالوا أنت، قال أما أني ما بارزني أحد إلا أنصفت منه، ولكنه أبو بكر، لقد رأيت رسول الله ﷺ أخذته قريش فهذا يجاذبه وهذا يكبكبه، ويقولون له أنت تجعل الآلهة إلها واحدا، فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر يضرب هذا ويدفع هذا ويقول ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ثم بكى علي ﷺ، ثم قال أنشدكم الله أمؤمن آل فرعون أفضل أم أبو بكر؟ فسكت القوم، فقال علي والله لساعة من أبي بكر خير منه، ذاك رجل يكتم إيمانه وهذا يعلن بإيمانه (٢)

ودارت دائرة الزمان وأقبل يوم بدر، فمنّ الله تعالى على رسوله وعلى المؤمنين بالنصر، وأمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أن يُلقى سادة قريش أَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابُهُ في القليب ثم وَقَفَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ « جَزَاكُمُ اللَّهُ شَرًّا مِنْ قَوْمِ نَبِيٍّ مَا كَانَ أَسْوَأَ الطَّرْدِ وَأَشَدَّ التَّكْذِيبِ" (٣)

سنوات طوال من الأذى والتجريح والإهانة والصد، سنوات طوال مرت على دعاء النبي ﷺ عليهم، فأمهلهم الله ثم أخذهم أخذ عزيز مُقتدر، فالله يمهل الظالمين، لكنه لا يهملهم، فانتقامه قطعا سيصيب كل ظالم وكل جبار.

ومرت السنون وأشرقت شمس الرسالة وعلا صوتها وخفت صوت الشرك ودعاة الباطل فتأمل رسول الله ﷺ هذا التاريخ الطويل من الصد والإعراض

---

(١)سنن الحميدي ٣٤٣ وقال ابن حجر في الفتح (ج ٧ / ص ١٧٠) أخرجه أبو يعلى بإسناد حسن

(٢)ذكره الحافظ في الفتح (ج ٧ / ص ١٧٠)وقال أخرجه البزار من رواية محمد بن علي عن أبيه

(٣)مسند أحمد ٢٦١١٤ وقال الألباني في فقه السيرة رجاله ثقات لكنه منقطع بين إبراهيم وهو النخعي وبين عائشة

ثم تذكر أفعال قومه وتعذيبهم له ولأصحابه، فقال ﷺ « لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلاَثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلاَلٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلاَّ شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلاَلٍ » (١)

إن النصر والتمكين لابد له من ضريبة تؤدى، وكان الابتلاء هو الضريبة التي أداها المسلمون الأوائل حتى كتب الله لهم بالتمكين.

وبعد، فهذه بعض من وسائل المشركين لصد الدعوة وحرب الرسول ﷺ والمؤمنين، لكن هيهات أن تفلح ،كاندهم مع نبي مرسل متصل بخبر السماء، ومع أصحابه الذين تربوا على يديه، فتحلوا بمجمل صفاته وأخلاقه، واقتفوا أثره وهديه، واتبعوا سنته ومنهجه، فما أفلح فيهم مكر ماكر، ولا كيد حاسد، ولا انتقام ظالم، ولا بطش جبار .

كذلك من الوسائل التي لجأ إليها المشركون للصد عن الدعوة وحرب الرسول ﷺ الحصار الاقتصادي والاجتماعي، متمثلا في حصار المسلمين ومن ينوء عنهم في شِعب أبي طالب، إلا أننا آثرنا عرضه في سياقه الزمني لارتباط الأحداث التي بعده بنتائجه .

العناية الإلهية

لم يكن النبي ﷺ بمعزل عن أنصاره فيُبتلوا ويسلم، ويُعذبوا ويأمن، وإنما ابتعثه الله ليجاهد في سبيله ويتحمل الأذى والمشقة والعناء من أجل تبليغ رسالة الإسلام، فكلما ازداد الابتلاء عظم الأجر والثواب، والابتلاء في حياة الرسل وأنصار الرسالات ليس بالخُلق الجديد، فما أرسل الله رسولا إلا وتعرض للأذى والتكذيب، وتحمل من سفاهات قومه ما يفوق الحُسبان، إلا أن الله تعالى قد أودع في قلب نبيه ﷺ رحمة حوت المؤمن والكافر على السواء، قال تعالى [فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ] (٢) وقال سبحانه [وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ] (٣) فمع كل ما لاقى من المشركين من أذى وإعراض وتكذيب، لم تزده إلا رحمة بهم وشفقة عليهم ولسان حاله يدعو لهم « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ »(٤)

---

(١)سنن الترمذي ٢٦٦٠ وقال حسن وسنن ابن ماجة ١٥٦ومسند احمد١٤٤١٩ وصححه الألباني في جامع الترمذي٦٤٥/٤وفي صحيح الترغيب والترهيب ٣٢٨١ وقال الترمذي: وَمَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ حِينَ خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَارًّا مِنْ مَكَّةَ وَمَعَهُ بِلاَلٌ إِنَّمَا كَانَ مَعَ بِلاَلٍ مِنَ الطَّعَامِ مَا يَحْمِلُهُ تَحْتَ إِبْطِهِ

(٢){آل عمران:١٥٩} (٣)(الأنفال:٣٣) (٤)البخاري ٣٤٧٧

وإن شاء دعا الله عليهم فأباد الله أولهم عن آخرهم، والمستعرض لتاريخ الرسل والرسالات يرى نماذج عدة لرسل قد أيسوا من تصديق أقوامهم لهم، فدعوا الله عليهم فانتقم الله منهم، إلا أن رسول الله ﷺ قد شملت رحمته البار والفاجر، والمسلم والكافر، وغمر بعطفه القوي والضعيف، فاكتنز دعوته لأمته بدلا من أن يجعلها في انتقام الله من الظالمين، فانتقام الله قطعا سيصيبهم، قال ﷺ « لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا » (١)

وانظر إلى تاريخ الرسل مع أقوامهم، بدءا من نوح عليه السلام، لقد ظل يدعو قومه تسعمائة وخمسين عاما، فلم يجبه منهم إلا قليل، فلما أيس من إيمانهم قال [وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا] (٢)

وهذا موسى عليه السلام لما جاء بالآيات البينات إلى فرعون وقومه، فأبوا أن يؤمنوا، فقال [وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ] (٣) وغيرهم كثير من الأنبياء والمرسلين الذين قنطوا من نصرة أقوامهم وسئموا من تكذيبهم وإعراضهم فدعوا الله؛ لينتقم منهم وينزل بهم غضبه، أما رسول الله ﷺ فقد جاءه مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عليه ثُمَّ قالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمِ الأَخْشَبَيْنِ.

فقالَ النَّبِيِّ ﷺ بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا » (٤) فمتى كان ذلك ؟ لقد كان في أشد لحظات الضيق والعناء، بعدما كذبته مكة، سادتها وعبيدها، وأخرجته الطائف فارا أمام صبيانهم وسفهائهم، وقام العرب قاطبة يتواصون فيما بينهم بالإعراض عنه وتكذيبه، فلم يزده كل هذا إلا حلما وشفقة وعفوا ورحمة.

إن الله عز وجل قد أرسل رسوله، ووعده بالنصر والتأييد، وإن كان النبي ﷺ قد أوذي وعُذب وكُذب، فإن الله عز وجل أراد له لذة الابتلاء في سبيله ليجعله أسوة لأمته إلى يوم القيامة ويعلي شأنه فوق الخلق جميعا، وبين الحين والحين يتعهد الله بتقديم بشريات النصر والتأييد؛ ليتسلى بها رسول الله ﷺ وتطيب بها نفسه، وصور التأييد الرباني للنبي ﷺ في المرحلة المكية من عمر الرسالة تكاد لا تُحصى منها ما يرويه ابن عباس فقال " إن الملأ من قريش اجتمعوا في

---

(١) مسلم ٥١٢
(٢) {نوح ٢٦/٢٧}
(٣) {يونس:٨٨}
(٤) البخاري ٣٢٣١

الحِجر فتعاقدوا باللات والعزة ومناة الثالثة الأخرى ونائلة وإساف لو قد رأينا سحمد لقمنا إليه قيام رجل واحد فلم نفارقه حتى نقتله فأقبلت ابنته فاطمة تبكي حتى دخلت على النبي ﷺ فقالت هؤلاء الملأ من قومك قد تعاقدوا عليك لو قد رأوك قاموا إليك فقتلوك فليس منهم رجل إلا عرف نصيبه من دمك، قال يا بنية ايتيني بوضوء فتوضأ ثم دخل المسجد فلما رأوه قالوا ها هو ذا ها هو ذا، فخفضوا أبصارهم وسقطت أذقانهم في صدورهم فلم يرفعوا إليه بصرا ولم يقم إليه منهم رجل ، فأقبل رسول الله ﷺ حتى قام على رؤوسهم فأخذ قبضة من تراب وقال شاهت الوجوه ثم حصبهم فما أصاب رجلا منهم من ذلك الحصى حصاة إلا قتل يوم بدر (١)

ولما نزل قول الله تعالى { تبت يدا أبي لهب } جاءت امرأة أبي لهب إلى النبي ﷺ ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر قال يا رسول الله إنها امرأة بذيئة وأخاف أن تؤذيك فلو قمت، قال إنها لن تراني فجاءت فقالت يا أبا بكر إن صاحبك هجاني قال لا وما يقول الشعر قالت أنت عندي مصدق وانصرفت فقلت يا رسول الله لم ترك قال لا لم يزل ملك يسترني عنها بجناحه (٢)

الصادح بالقرآن

لقد جرت مقاييس البشر أن يخوض غمار الحرب أكثر الناس شجاعة، وأن يتحمل مسئولية القيادة أصلح الناس رأيا، وأن يقدم التضحيات أكثر الناس بأسا، وأن يجود على الناس أكثر الناس كرما، فهؤلاء من تهون عليهم أنفسهم، أما أن تسمو دعوة الإسلام بعبد أجير عند سيد من سادات قريش؛ ليقف أمام كبرياء سادتها بإصرار وتحد، ويسمعهم القرآن رغما عنهم، فهذا أجَل تأثير يمكن أن تفعله رسالة الإسلام في النفس البشرية، تنتشلها من سطحيتها ودناءة أفكارها واحتقار شأنها؛ لتسمو بها بهمّة تُعانق الجبال الراسيات، وتمنحها الدفعة الروحية التي تنقصها؛ لتمارس دورها المنوط لها في الحياة، وكأنها تصوغ قدرها كيفما تشاء .

هكذا فعلت رسالة الإسلام بعبد الله بن مسعود، كان عبدا ضعيف البنية عند عقبة بن مُعيط ، يعيش في بيئة قد حرمت العبيد من كافة الحقوق الآدمية، فربما يشعر بسمو قدره إن خاطبه سيده

---

(١)صحيح ابن حبان٦٥٠٢ وصححه شعيب الأرنؤوط

(٢) صحيح بن حبان٦٥١١ وقال الأرنؤوط: صحيح بشواهده

أما إن صادفه المسير أمام سيد من سادات مكة، فيمر محني الرأس تكاد جبهته تعانق رمال الصحراء، هكذا كان حاله قبل الإسلام، فكيف غيرته تعاليم الإسلام وتربية الرسول ﷺ ؟

روى عبد الله ﷺ قصة إسلامه فقال" كنت غلاما يافعا في غنم لعقبة بن أبي معيط أرعاها، فأتي علي النبي ﷺ وأبو بكر فقال يا غلام هل معك من لبن؟ فقلت نعم ولكني مؤتمن! قال ائتني بشاة لم ينزل عليها الفحل، فأتيته بعناق فاعتقلها رسول الله ﷺ ثم جعل يمسح الضرع ويدعو حتى أنزلت، فأتاه أبو بكر رضوان الله عليه بشيء فاحتلب فيه ثم قال لأبي بكر اشرب فشرب أبو بكر ﷺ، ثم شرب النبي ﷺ بعده، ثم قال للضرع أقلص فقلص فعاد كما كان .

قال ثم أتيت النبي ﷺ فقلت يا رسول الله علمني من هذا الكلام أو من هذا القرآن، فمسح رأسي وقال ﷺ إنك غلام معلم، قال فلقد أخذت من فيه سبعين سورة ما نازعني فيها بشر (١)

وعبد الله بن مسعود نموذج فريد لرجل يحمل عبء الرسالة، فبمثله تُقام الرسالات، فالذي يحفظ أمانة سيده في غيبته ولا دين له ولا عقيدة جدير بأن يحفظ حق الله في تبليغ رسالته عندما يؤمن به وبرسوله ﷺ، وهكذا كان ابن أم عبد منذ أسلم، فكان أول من صدح بالقرآن في مكة .

روي الزبير بن العوام ﷺ صدح ابن أم عبد بالقرآن في مكة فقال" اجتمع يوما أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا والله ما سمعت قريشا هذا القرآن يُجهر لها به قط فمن رجل يُسمعهموه ؟

فقال عبد الله بن مسعود أنا، قالوا إنا نخشاهم عليك! إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه، قال دعوني فإن الله سيمنعني، قال الزبير فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام ثم قرأ [الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ] رافعا بها صوته، ثم استقبلهم يقرؤها، فتأملوه فجعلوا يقولون ماذا قال ابن أم عبد ؟

فقال قائلهم: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد، فجعلوا يضربون في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا في وجهه. فقالوا له هذا الذي خشينا عليك، فقال ما كان أعداء الله أهون علي منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدا، قالوا لا حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون (٢)

---

(١)صحيح بن حبان ٤ ٦٥٠ وقال الأرنؤوط: إسناده حسن

(٢)أخرجه الطبري في تاريخه ٢/٣٣٤والقرطبي في تفسيره ٧/١٤٧وابن هشام عن ابن إسحق وصحح إسناده سامي أنور جاهين في تحقيق سيرة ابن هشام ١/١٨٠ والآيات من سورة الرحمن

هكذا فعل الإسلام بابن أم عبد الذي عاش طيلة حياته عابدا زاهدا فقيها ورعا، وكان أقرأ الصحابة للقرآن، ذُكر ذات يوم عند عبد الله بن عمر فقال: إنَّ ذَاكَ الرَّجُلَ لا أَزَالُ أُحِبُّهُ بَعْدَ شَيْءٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُهُ سَمِعْتُهُ يَقُولُ «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ، مِنِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ - فَبَدَأَ بِهِ - وَمِنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، وَمِنْ سَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، وَمِنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ» (١)

---

(١)مسلم ٦٤٨٩

** ابرز مراجع هذا الفصل ((تفسير القرطبي - فتح الباري - شرح النووي على مسلم - مرقاة المفاتيح - سيرة ابن هشام - الكامل في التاريخ - البداية والنهاية - الرسالة المحمدية - مجلة البحوث الإسلامية - السيرة النبوية دروس وعبر))

الفصل الثالث

الهجرة إلى الحبشة

هي أول رحلة تجرد إلى الله عز وجل، جعلها الله بمثابة توطئة وتهيئة للحدث الأعظم في حياة رسول الله ﷺ، وهو الهجرة الكبرى إلى المدينة، ثم توطئة لخروج الرسالة عن حدود مكة وخروج الدعاة في كل صوب يدعون إلى الإيمان بالله ورسوله ﷺ، حظيت بالسبق والصدارة على الهجرة للطائف ثم الهجرة للمدينة، فنال أهلها عظيم الفضل حتى قال لهم رسول الله ﷺ « لَكُمْ أَنْتُمْ يَا أَهْلَ السَّفِينَةِ هِجْرَتَانِ » لكن ما المقصود بالهجرة؟

قال رسول الله ﷺ « إِنَّ شَأْنَ الْهِجْرَةِ لَشَدِيدٌ »(١)

وقال ﷺ « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ وَإِنَّمَا لامْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ هَاجَرَ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ »(٢)

ففي هذين الحديثين إشارة واضحة إلى أن مفهوم الهجرة في الإسلام غير قاصر على ترك الأهل والوطن، وترك المال والأعمال، والإقامة في وطن آخر وتحصيل عمل آخر، لأنها إذا اقتصرت على هذه الأهداف فلا ميزة تميزها ولا حظ لها في الإسلام، لأن الهجرة في الإسلام تحفل بمعان سامية وأهداف عظيمة وغايات كبرى، فهي معيار التمييز بين الإخلاص والرياء، وبين الإيمان والنفاق، وهي وسيلة لنصرة العقيدة ونشر تعاليمها، والدعوة إليها جهارا رغم ما تحمله من عناء ومشقة، ورغم ما تحمله من آلام الفراق والغربة، فإن المُهاجرين قد ضحوا بكل شيء في سبيل نصرة عقيدتهم وتحملوا من أجلها كل ألوان العذاب .

لقد كانت الهجرة في المفهوم الإسلامي وسيلة للبحث عن وطن بديل، وأرض خصبة تحتضن هذه الرسالة، ويُجسد فيها الصحابة تعاليم الإسلام عقيدة وسلوكا، ليست مجرد فرار بالدين من أرض الشرك والضلال إلى أرض شرك وضلال، فما الميزة العقائدية في أرض الحبشة عن أرض مكة أو عن غيرها؟ لا شيء، الكل كان في ضلال مُبين وإن كان بصور شتى .

هذا هو معنى الهجرة في الإسلام، فهي رحلة تجرد لله عز وجل، ليست رحلة طلب دنيا أو تبديل وطن، وإنما رحلة دعوة ونشر للعقيدة، فمجرد الانتقال من بلد لآخر لم يكن بالأمر الجديد على العرب الجاهليين، وإنما هو قديم قدم وجودهم في هذه البلاد، فقد سجّل لنا التاريخ عشرات الرحلات للعرب

---

(١) مسلم ٤٩٣٩ (٢) البخاري ٦٩٣٥

المُهاجرين الذين هاجروا من الجنوب إلى الشمال، لكن الهدف هو الذي ظفر بالسبق، فكل هذه الهجرات كانت لأسباب دنيوية قد نال الكثير منهم بغيته منها فأقاموا إمارات وممالك، إلا أنهم قطعا لم يألفوا رحلة الفرار بالعقيدة والبحث عن وطن آخر تُقام فيه تعاليمها، لذا وقف أهل مكة من هذه الهجرات موقف المُندهش، ألهذا الحد بلغ الإيمان بهذه العقيدة؟ ألهذه الدرجة تُفرق الأوطان وتُترك الأموال من أجلها؟ ألهذا الحد يترك هؤلاء أطيب أرض الله ليبحثوا عن عيش في أرض غيرها؟

وقد جسّد هذا المعنى جليا عمر بن الخطاب عندما وقف أمام أم عبد الله بن عامر بن ربيعة وهي مُهاجرة إلى أرض الحبشة موقف المندهش سائلا إياها، إنه الانطلاق يا أم عبد الله؟ قالت نعم، والله لنخرجن من أرض آذيتمونا وقهرتمونا فيها حتى يجعل الله لنا فرجا .

هكذا كان مفهوم الهجرة في الإسلام، رحلة تجرد كاملة إلى الله عز وجل، لم يكن للدنيا ومتعها فيها حظ ولا نصيب، لذا حققها الصحابة على أكمل وجه وأتم حال، ضربوا فيها من صور الصبر والثبات ما يُقر لهم بصدق النية وسلامة القصد، حتى إذا تغير الحال غير الحال وانتهت دواعي الهجرة، وقف رسول الله ﷺ مُعلنا مرحلة جديد في تاريخ الدعوة قائلا « لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا »(١) فقد ظفر أهل الهجرة بحظهم فيها.

هكذا كانت دوافع الهجرة، نصرة دين الله وشرعه، متجردة من أي مكسب دنيوي، ولكن هل كانت كل هذه الهجرات أحداث طارئة افترضتها عليهم الظروف التي مرت بها الدعوة آنذاك؟ وهل كان اختيار الأماكن أمرا عشوائيا ؟ وهل حققت كل هجرة الأهداف المرجوة منها ؟

إننا الآن بصدد الحديث عن أول هذه الهجرات، وهي الهجرة الأولى والثانية إلى الحبشة، وكانت في مطلع العام الخامس من البعثة، وقد وصلت الدعوة فيه إلى ما يقرب من طريق مسدود مع أهل مكة، فقد بلغ أذاهم لرسول الله ﷺ وأصحابه مبلغا عظيما، وتفنن المشركون في افتتان المسلمين في دينهم، بالترغيب تارة وبالترهيب أخرى، باللين تارة وبالشدة أخرى، بالجدال تارة وبالمساومة أخرى، فكان لزاما أن يُفكر رسول الله ﷺ في مخرج يُغير به هذا الوضع القائم، فأيقن أن ترك مكة إلى غيرها من الأرض هو الحل الأمثل، لكن إلى أين ؟

وهل سيقبل الصحابة ترك أوطانهم وأهليهم وأموالهم وأولادهم؟

---

(١) البخاري ٢٧٨٣

إنه اختيار صعب، بحاجة إلى توطئة وتهيئة نفوس المسلمين لتقبله، لذا عالج القرآن هذا الأمر، وهيأ نفوس المسلمين إلى إمكانية ترك الأهل والوطن والهجرة في سبيل الله وحمل رسالته خارج حدود مكة، فقال تعالى [يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ](١) وقال [قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ] (٢)

فكانت بمثابة دعوة صريحة إلى البحث عن وطن آخر تُقام فيه شعائر هذا الدين، فالأرض كلها لله، والرزق بيده سبحانه، لن يزيد في مكان وينقص في غيره.

هكذا هيأ القرآن أنفس المسلمين إلى إمكانية الهجرة في سبيل الله إلى أرض غير مكة، ولم يبق إلا تحديد المكان، إلى أين يُهاجر المسلمون؟ إلى الشام أم إلى العراق أم إلى اليمن أم إلى مصر أم إلى الحبشة ؟

إن المتمعن في أمر الهجرة إلى الحبشة أسبابا ونتائج يتأكد له أنها لم تكن قرارا عشوائيا، ولم تكن قاصرة على مجرد الفرار بالدين ـ كما تصور كثير من الكتاب في تناولهم لأحداثها ـ فهذه الهجرة منذ بدايتها إلى نهايتها لا يرى المتأمل فيها خللا واحدا، وهذا يدل على أنها كانت تسير وفق خُطة مدروسة، وقد جاءت بعد تفكير شديد، وبُعد نظر، وفهم للواقع المُحيط ، وحُسن تقدير للعواقب، وحُسن اختيار للأشخاص والمكان على السواء.

لقد وقع اختيار رسول الله ﷺ على الحبشة، ولم يكن هذا الخيار عبثا، فإنه النبي المرسل الذي لا ينطق عن الهوى، وكل ما يأتي به هو وحي من عند الله، ولكن لماذا الحبشة دونا عن غيرها؟

إن المُتطلع للواقع السياسي آنذاك يستبعد نُصرة الرسالة في بلاد الشام والعراق، لما كان بين الفرس ـ المسيطرة على العراق ـ والروم ـ المسيطرة على الشام ـ من حروب لا تنتهي، ولما كان لأهل البلدين من صلات بأهل مكة، سواء تجارية أو سياسية، فنُصرة المُسلمين في البلدين أمر بعيد تستبعده الهيمنة البيزنطية على أرض الشام بعقيدتها التي لن تقبل غيرها في بلادها، وتستبعده أيضا الهيمنة الفارسية على بلاد العراق التي تؤمن بعقيدة تدعو إلى الفُحش والإباحية ولن تقبل لها بديل.

---

(١){العنكبوت٥٦/٦٠} (٢){الزمر: ١٠}

أما مصر فهي قريبة من بلاد الشام وخاضعة للاحتلال الروماني، والحديث عن عقيدة جديدة بها سيثير حفيظة الكنسية الرومانية، الأمر الذي يجعل من هؤلاء المهاجرين في خطر أقوى من بقائهم في مكة .

وأما بلاد اليمن، فهي قبائل عربية تنظر إلى أهل مكة على أنهم سادة العرب، والخروج عليهم يُعدّ جريمة سياسية لا يمكن أن يُشاركوا فيها، كما كانت تجارة المكيين تطأ بلاد اليمن كل عام فلا يمكن أن يهنأ المهاجرون فيها باستقرار أو أمن.

كذلك فإن طريق الوصول إلى كل هذه الجهات محفوف بالمخاطر، فهو مليء بأحلاف قريش الأمر الذي يجعل رصدهم والنيل منهم أمرا ممكنا، فلم يبق إلا الحبشة، وقد تجمعت فيها كثير من الإيجابيات التي لم تجتمع في مكان آخر :

أولها - شيوع العدل عن ملكها، فالذي يُذاع صيته ويتجاوز خبر عدله البحار؛ ليصل إلى أهل مكة، قطعا لن يقبل بظلم فئة جاءت تحتمي به، فأسوأ الأحوال أنه لن ينالهم سوء منه وهم في بلاده، فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ " لَمَّا ضَاقَتْ عَلَيْنَا مَكَّةُ وَأُوذِيَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفُتِنُوا وَرَأَوْا مَا يُصِيبُهُمْ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْفِتْنَةِ فِي دِينِهِمْ وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لا يَسْتَطِيعُ دَفْعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَعَمِّهِ لا يَصِلُ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا يَكْرَهُ مِمَّا يَنَالُ أَصْحَابَهُ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ« إِنَّ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ فَالْحَقُوا بِبِلَادِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ » فَخَرَجْنَا إِلَيْهَا أَرْسَالاً حَتَّى اجْتَمَعْنَا بِهَا فَنَزَلْنَا خَيْرَ دَارٍ إِلَى خَيْرِ جَارٍ آمِنًا عَلَى دِينِنَا وَلَمْ نَخْشَ مِنْهُ ظُلْمًا (١)

ثانيا - أهل الحبشة غير عرب، فهيمنة مكة وسيادتها لا تمثل لهم شيئا، وبالقطع هم غير مدفوعين إلى موالاة سادتها واحترام مكانتهم، الأمر الذي يجعل مساومتهم على رجوع هؤلاء المهاجرين أمرا بعيد الحدوث، وهذا ما حدث بالفعل، فقد أبى النجاشي أن يردهم مع وفد قريش .

ثالثا - إن أهل الحبشة نصارى، وهم على كل حال بعيدون عن هيمنة الكنيسة البيزنطية وإشرافها المباشر، فإن صح اعتقادهم في المسيح عليه السلام فهم أقرب إلى الإسلام من غيرهم، وهذا بالفعل ما حدث، فقد أسلم ملك الحبشة أصحمة وأسلم غيره من بلاد الحبشة، وإن لم يصح اعتقادهم فالدعوة آنذاك كانت مقصورة على عرض مضمونها، ولم تتطرق إلى فتح باب المُجادلات مع غير المُسلمين .

---

(١)مسند أحمد١٧٦٦وذكره الألباني في صحيح السيرة النبوية ص١٧٧

لهذه الأسباب - وغيرها - وقع اختيار رسول الله ﷺ على أرض الحبشة؛ لتكون الملجأ الآمن الذي يأوي المهاجرين المسلمين.

أما عن أسباب هذه الهجرة والأهداف المرجوة من تحقيقها، فإن اقتصار هذه الأسباب على الفرار بالدين من بطش قريش هو انتقاص بيّن لقيمة هذه الهجرة وما حققت من أهداف، بل إن اختيار الأشخاص الذين هاجروا أكبر دليل على أن هذه الهجرة لم تكن قاصرة على الفرار بالدين من بطش قريش وظلمها فقط ، فإن كان هذا هو السبب الوحيد لكان العبيد والمستضعفين أولى الناس بالهجرة، لكن هذا لم يحدث، بل إن مُعظم الذين هاجروا كانوا من سادة مكة ووجهائها، ولهم عصبية تمنعهم وتحميهم، أمثال عثمان بن عفان الأموي، وعبد الرحمن بن عوف الزهري، والزبير بن العوام الأسدي، وعُثمان بن مظعون الجمحي، ومُصعب بن عُمير، وجعفر بن أبي طالب، وأبو عبيدة بن الجراح وغيرهم كثير ممن له المنعة والسيادة في قومه، رضي الله عنهم أجمعين، كذلك من النساء اللآتي هاجرن من أشراف قريش كرقية بنت رسول الله ﷺ وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وأسماء بنت عُميس، وفاطمة بنت صفوان بن أمية، وهؤلاء لم يتعرضن لفتنة ولا لتعذيب، فهل يُعقل أن يُهاجر الأقوياء ويبقى المستضعفون إن كانت هذه الهجرة سببها الوحيد الفرار بالدين !

إن الفرار بالدين هو أحد الأسباب، لكنه ليس السبب الرئيسي، وإنما اجتمعت معه عدة أسباب وأهداف أراد النبي ﷺ تحقيقها في هذا الطور من الدعوة، منها

١- لما اشتد حصار المشركين وتعذيبهم للمسلمين أراد النبي ﷺ أن ينقذ دعوته من الإجهاض عليها ومحاصرة أنصاره، فإن كل ما تفعله قريش حتى الآن لا يعدو عن كونه تعذيبا لفئة خارجة عن دينها، لكن إذا تزايد عدد المسلمين ومثّلوا قوة في مكة أيقنت قريش أن لا خلاص لها إلا بالحرب نصرة لمعتقداتهم، وهذا ما كان سيجد قبولا عند كثير من العرب، فيجهضوا الدعوة ويقضوا على أنصارها ربما في غداة واحدة، ففارق كبير بين التعذيب وبين حرب الإبادة، وفارق أيضا كبير بين تأثير كلا منهما على الدعوة .

٢- إن الفرار بالدين من أرض ازداد فيها البطش والظلم بالمسلمين، ولم يجدوا منعة ولا نصرة، إلى أرض غيرها ابتغاء المنعة والنصرة هو سُنّة شرعها الله لكل من ضُيّق عليه إلى يوم القيامة، فكانت هذه الهجرة تجسيدا لهذه السُنة .

٣- أراد النبي ﷺ أن يستثير الحمية القبلية نصرة لمن تبعه من المسلمين، هذه الحمية التي تُرقق قلوبهم رحمة بحال المُسلمين، فما من بيت من بيوت قريش إلا وقد دخله من أمر الهجرة وجدا وشدة، فمنهم من ازداد نقمه على المسلمين

وعلى رسول الله ﷺ، ومنهم من دفعته الحمية إلى الرفق بالمسلمين والنظر في ما يحدث لهم من اضطهاد وتعذيب، ويمثل كلا الموقفين وفد قريش إلى النجاشي، قالتْ أمُّ سَلمَة " فلمَّا خرَجَا مِنْ عِنْدِ النجاشي قالَ عَمْرُو بْنُ العَاص: وَاللَّهِ لأنَبِّئَنَّهُ غدا عَيْبَهُمْ عِنْدَهُ ثمَّ أسْتَاصِلُ بِهِ خَضْرَاءَهُمْ.

فقالَ لهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أبِي رَبِيعَة- وَكَانَ أتْقى الرَّجُلَيْن فِينَا- لا تَفْعَلْ فإنَّ لَهُمْ أرْحَاماً وَإنْ كَانُوا قدْ خَالَفُونَا

ويبينه أيضا موقف عُمر من أم عبد الله بن عامر وهي في طريقها إلى الهجرة قالت أم عبد الله بن عامر بن ربيعة " والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشة....إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف عليّ وهو على شركه، وكنا نلقى منه البلاء أذي لنا وشدة علينا، فقال إنه للانطلاق يا أم عبد الله؟ فقلت نعم والله لنخرجن في أرض من أرض الله، إذ آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا فرجا، فقال صحبكم الله، ورأيت له رقة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه فيما أرى خروجنا، فلما قصّت على زوجها أمر عُمر، قال أطمعت في إسلامه! قالت نعم، قال فلا يُسلم حتى يُسلم حمار الخطاب!

فهذا دليل على أن الهجرة قد أكسبت المسلمين تعاطفا في قلوب بعض سادات مكة، كما أنها كانت دعوة صامتة لهذا الدين، فإن الثبات الذي أظهروه رغم شدة التعذيب ثم الهجرة وفراق الأهل والوطن من أجل عقيدتهم كان له أكبر الأثر في قلوب كثير من أهل مكة، وكأنه جرس إنذار لهم؛ ليُراجعوا موقفهم من هذه الدعوة التي غيرت بني جلدتهم وأبدلت أحوالهم .

٤- أراد النبي ﷺ أن يوفر وطنا آمنا لمن آمن به واتبعه، لما لهذا الأمر من تشجيع لغير المسلمين بالدخول في الإسلام، فإن كثيرا من العرب كان يأبى الإسلام لما رأى من هوان أهله وبطش الناس بهم، ولما كتب الله لرسالته بالعزة والتمكين وبسط سلطانها وقهر عدوها، دخل الناس في دين الله أفواجا، فأراد الرسول ﷺ أن يوفر الأمن والطمأنينة لأنصاره، ولمن يؤمن به غيرهم حتى إن كان خارج مكة .

٥- إن هذه الدعوة ما جاءت لتظل حبيسة داخل جبال مكة، وقد عمد رسول الله ﷺ في غير موقف إلى إظهار عالمية هذه الرسالة منذ بدايتها، وأنها ما جاءت لتخص قوم دون غيرهم أو جنس دون غيره، وإنما للناس كافة، وهي حتى الآن لم تخرج من حدود مكة، فأراد رسول الله ﷺ أن يقوم هؤلاء المهاجرون بالدعوة إليها خارج أرض العرب، وتحقق ما تمنى رسول الله ﷺ، فإن هؤلاء المهاجرين لم يقفوا مكتوفي الأيدي صامتين منعزلين عن الناس، وإنما جهروا بشعائرهم

وأخذوا في الدعوة إلى الإسلام بين نصارى الحبشة في شكل لا يثير حفيظة أهلها ولا رجال الكنيسة، فكان من ثمار دعوتهم أن أسلم النجاشي، وصار يدعو إلى الإيمان بالله ورسوله ﷺ، فكان إسلام عمرو بن العاص على يديه .

٦- كذلك قام هؤلاء المُهاجرون بالدعاية الإعلامية لهذه الرسالة سواء في القبائل المُحيطة بمكة والتي تُتابع أخبارها أو في أرض الحبشة التي نزل إليها المهاجرون، هذه الدعاية التي تحققها الإجابات عن تساؤلات الناس عنهم وعن سبب هجرتهم وإلام يدعون؟ ويتناقل الناس أخبارها وتأخذ حيزا من حديثهم، وبهذا تستقطب العقول المعنية بأمر الرُسل والرسالات خاصة من القساوسة والرهبان، فقد أشار ابن اسحق في سيرته أن وفدا من نصارى الحبشة قد قدم على رسول الله ﷺ في مكة يسأل عن حقيقة دعوته وتعاليم رسالته، فلما قرأ عليهم القرآن أقروا بصدقه وآمنوا برسول الله ﷺ .

٧- كانت هذه الهجرة بمثابة تحد حقيقي لخروج الدعوة خارج حدود مكة وإثبات قدرتها على المواجهة وإقامة الحجة على صدقها، كما كانت بمثابة اختبار حقيقي لقدرة الدعوة على مواجهة معتقدات النصارى وقولهم في عيسى عليه السلام قبل أن تواجه معتقدات اليهود بالمدينة وبعد أن بينت فساد الوثنية بمكة.
وبهذا تكون رسالة الإسلام قد واجهت - في حياة رسول الله ﷺ - معتقدات أكثر سُكان الأرض، الوثنية بصورتها البشعة في أرض العرب، والنصرانية التي غدت وكأنها طلاسم لا تعاليم رسالة توحيد، واليهودية التي غدت أحكام من هوى الأحبار والرهبان، وبهذا أثبتت قدرتها على مجابهة معتقداتهم، فلم يكن انتصار مهاجري الحبشة على وفد قريش مجرد انتصار على وثنية قريش، وإنما أيضا انتصار حقيقي لمعتقدات المسلمين في المسيح عليه السلام وأمه.

٨- كانت هذه الهجرة بمثابة إنذار لقريش بأن الإسلام سيغدو قوة وليدة تتقدم ببطء لكنها دائما في تقدم، وأنها قادرة على إقامة قاعدة لها خارج مكة تحمي أنصارها وترد الظلم الواقع عنهم، وهذا الهاجس هو الذي دفع قريش إلى إرسال وفد منها ليرد المهاجرين إلى الحبشة وهو أيضا الذي أحدث التضارب في قراراتها وعدم اتفاقهم على أمر قاطع يجمعهم، فما قطعوا أمرا إلا وهم منقسمون على أنفسهم بين مؤيد ومُعارض له، فانتفت وحدتهم تجاه حرب الدعوة وأنصارها .

٩- كانت هذه الهجرة إحدى الحلول التي قدّمها الإسلام لتحقيق عالميته، فالقرآن نزل بلسان عربي، وكل مُسلم بحاجة إلى أن يتعلم لغة القرآن إن لم يكن يُحسنها، فكانت هذه الهجرة البوابة التي انطلقت منها لغة القرآن إلى العالمية بهدف نشرها في كل ربوع الدنيا، وهذا من شأنه أن يقارب بين الشعوب لتحقيق إحدى غايات الخلق، التعارف [يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا](١) فعالمية رسالة الإسلام ووحدة اللغة من وسائل تحقيق هذا التعارف.

١٠- ويبقى السؤال، لماذا لم يهاجر النبي ﷺ مع من هاجروا إلى الحبشة؟

قال تعالى [وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ](٢) فالقرآن - وهو معجزة الإسلام الأولى - نزل بلسان عربي مُبين، فكان من الطبيعي أن يُخاطب في المقام الأول من نزل بلسانهم، فإذا أنكره من فهمه، فكيف لمن لا يُحسن فهمه أن يُقر بإعجازه؟

لقد جاءت الدعوة لتخاطب العرب فتجعل منهم أمة تخاطب العالم بأسره، وإيمان العرب بها هو البوابة الحقيقة التي خرج منها الإسلام ليحقق عالميته، فكان من الطبيعي أن يبقى رسول الله ﷺ في مكة أو يتركها إلى بلد عربي آخر، أما أن يتركها إلى خارج حدود الجزيرة دون أن يؤمن بها العرب، فلن تحقق معه الدعوة إلا النفور والإعراض.

كذلك كان البقاء في مكة - دون غيرها - ضرورة مُلحة افترضها الواقع الذي آلت إليه الدعوة، فإنه من العسير التخلي عن هذا الموقع المتميز الذي يستقبل الوفود من شتى أنحاء الجزيرة العربية، فأصبح من اليسير الالتقاء بهم ودعوتهم وهذا بالطبع ما كان ليحدث في مكان غير مكة في تلك الفترة من عمر الرسالة الوليدة.

هكذا كانت الهجرة إلى الحبشة، ليست قرارا عشوائيا، ولا أمرا فُجائيا، ولا عملا خاليا من حسن التخطيط وإبصار العواقب، وإنما منهج نبوي في التخطيط والإدارة، قائم على بُعد النظر، وإدراك العواقب، وتحديد الأهداف وتقييمها بين الحين والحين، والسير وفق منهج محدد وخطوات مدروسة.

درس نبوي لكل القادة والحُكام، ألا يتعجلوا في إصدار الأوامر قبل تقدير العواقب وتحديد الأهداف وترتيب خطوات السير، ألا يغتروا بما في أيديهم من سلطان، فيقودوا أممهم إلى الهلاك والدمار بدلا من التقدم والازدهار، ألا يُحمِلوا الناس من الأوامر والتكاليف فوق طاقتهم فيضعف جهدهم وتقل هممهم.

---

(١) {الحجرات:١٣}   (٢) {إبراهيم:٤}

الهجرة الأولى إلى الحبشة

خرج بضع عشرة بين رجل وامرأة متوجهين خفاءً إلى الحبشة، وكان عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ أول أسرة هاجرت إلى الله ورسوله، ثم تبعهم عبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وأبو حذيفة بن عتبة وامرأته سهلة بنت سهل، وأبو سلمة بن عبد الأسد وامرأته أم سلمة بنت أبي أمية، وعثمان بن مظعون، وعامر بن ربيعة وامرأته ليلى بنت أبي حثمة، وسهيل بن بيضاء، وأبو سبرة بن أبي رهم العامري، فيسر الله لهم سفينة متجهة إلى الحبشة، فأقاموا فيها في خير دار آمنين على دينهم لا يؤذون ولا يُفتنون، والرسول ﷺ في مكة يدعو إلى الله ورسوله، يتحمل سفاهات قومه، ويبث الثقة واليقين بنصر الله في قلوب من بقى من المسلمين .

وتتوالى الآيات القرآنية تحمل البشرى والوعود الصادقة لمن آمن بالله ورسوله ﷺ، وتحمل الوعيد والتهديد لمن كفر بالله ورسوله ﷺ، وكان جلّ ما يسعى إليه رسول الله ﷺ أن يُسمع قريش القرآن، فهم أهل بلاغة وفصاحة، والقرآن قول لم تألفه أسماعهم، ورغم كل ما كانوا يُبدون من كبر وجحود إلا أنهم ما كانوا يُنكرون تأثير القرآن في نفوسهم.

وبينما رسول الله ﷺ في جمع من المسلمين والمشركين إذ قرأ آيات من سورة النجم، وهذه الآيات تحمل الوعد والوعيد، والبشارة والإنذار، والترغيب والترهيب، تُذكرهم بالسابقين ومصائرهم، وأنهم كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالا وأولادا، فلم يُعجزوا الله عز وجل، آيات تُحرك القلوب القاسية وتُلين الجوارح والأبدان، ثم حملت لهم الآيات إنذارا مُباشرا بأن ما يعدهم به الله آت لا محالة، وأن الساعة ميعادهم أجمعين

قال تعالى [أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى* أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى * أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى* أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى* وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى * وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى * وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى * وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى * وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى * وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى * وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى * فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى * هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى * أَزِفَتِ الْآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ *

أفمِنْ هَذَا الحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ * فَاسْجُدُوا لِلهِ وَاعْبُدُوا](١)

ثم سجد رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين في آية السجدة، فسجد المشركون الحاضرون مع رسول الله ﷺ وكأن الآيات قد كسرت حاجز الكبر الذي غلف قلوبهم، وأزالت روح السخرية والاستهزاء التي لطالما لاحت بها أعينهم والسنتهم، فسجدوا للحق لما سمعوه، وكأن جوارحهم قد أبت أن تطيعهم في كفرهم، فأقرت بالحق المبين وبالذكر الحكيم، فسجدت لله رب العالمين .

لقد كان العرب أهل فصاحة وبلاغة، وكانوا يعلمون علم اليقين أن القرآن ليس بكلام بشر، وأن الرسول ﷺ لا يكذب ولا يفتري، قال تعالى (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَـكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ) (٢)

وسرعان ما تطايرت الأنباء إلى المهاجرين بالحبشة مع التجار والأشعار، أن قريشا قد آمنت برسول الله ﷺ وسجدت معه، فظنوا أنها النصرة من قريش، فعزم غير واحد منهم بالرجوع إلى مكة، حيث الأهل والوطن والعشيرة وصحبة رسول الله ﷺ، وبينما هم على مشارف مكة، إذ علموا أن ما وصلهم من خبر غير صحيح، وأن بطش المشركين قد بلغ ذروته لمن آمن بالله ورسوله ﷺ، فما استطاع أحد منهم أن يدخل مكة إلا مُتخفيا أو في جوار .

وهنا يجدر بنا التنوية إلى ما ماجت به العديد من كتب السير من قصص باطلة لا يصح انتسابها لرسول الله ﷺ أو الافتراء على رسول الله ﷺ بفعلها، ومن ضمنها قصة الغرانيق، ومضمونها أن الشيطان قد ألقى على لسان رسول الله ﷺ كلمات قالها الرسول ﷺ وهو يقرأ القرآن على الجمع الذي ذكرنا آنفا من المسلمين والمشركين، فلما سمعوها تعجبوا من ثناء رسول الله ﷺ على آلهتهم بخير فسجدوا معه .

أما الكلمات التي يزعمون أن النبي ﷺ امتدح بها أصنامهم فهي (تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهم لتُرجى)

وفي رواية [إن شفاعتها لتُرجى وإنا لمع الغرانيق العلى]

وفي أخرى [والغرانقة العلى تلك للشفاعة ترتجى]

أما عن مكانها فوسط آيات سورة النجم،بعد قول الله تعالى (أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى [تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهم لترجى] أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى)فأي افتراء على رسول الله ﷺ بعد هذا، أحاديث مرسلة تخالف القرآن الكريم، وصحيح السُنة المُطهرة، فكيف تجد من ينقلها أو يُحدِّث بها!

---

(١){النجم ٦٢/٣٣ }　　(٢){الأنعام:٣٣}

ألا يُخالف هذا قول الله تعالى (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ)(١)

ويخالف قول الله تعالى (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (٢)

ويخالف قول الله تعالى (لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ) (٣)

ويخالف قول الله تعالى (وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) (٤)

ويخالف قول الله تعالى (تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) (٥)

ويخالف قول الله تعالى {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى} (٦)

فهذه الآيات القرآنية حجة دامغة على بُطلان هذه القصة، ومع أن هذه القصة لم تثبت بسند صحيح عن رسول الله ﷺ فقد وقف عندها بعض أهل العلم يحاولون أن يلتفوا بها؛ ليثبتوا غير ما تعنيه، أو أن يؤولوا معناها؛ ليُثبتوا أنها لا تخالف عصمة الأنبياء، وأنها لا تتعارض مع حقائق رسالة الإسلام التي تنفي أي صورة من صور الركون من رسول الله ﷺ للمشركين، والتي تنفي أيضا إمكانية خطأ رسول الله ﷺ وهو يُبلغ القرآن عن رب العالمين لا سهوا ولا عمدا.

والذي لا ريب فيه أن الحق لا يُعرف بالناس، وإنما يُعرف الناس بالحق، والعبرة بما صح من الخبر، وهذه القصة لا يصح انتسابها إلى النبي ﷺ بوجه من الوجوه، ولولا خشية الإطالة لأسهبنا في تفصيل بطلانها، ولكن يكفينا الإشارة إلى من تحدث عن بُطلانها من أهل العلم، وتناولوها بكل الوجوه وتتبعوا كل أسانيدها ثم أقاموا الحجة بالدليل والبرهان على بطلانها سندا ومتنا، فمن هؤلاء القاضي عياض في كتابه " الشفا " والشيخ الألباني في رسالة بعنوان " هدم قصة الغرانيق " والشيخ الشنقيطي في كتابه " أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن " فمن أراد الاستزادة فليرجع إلي كتبهم، رحمهم الله جميعا

---

(١)[الحاقة ٤٤: ٤٧ (٢)[الحجر ٩]

(٣)[القيامة ١٦: ١٨] (٤)[فصلت ٤١-٤٢]

(٥)[السجدة٢ : ٣] (٦) [النجم:٣-٤]

الهجرة الثانية إلى الحبشة

عاد المسلمون إلى مكة؛ ليجدوا أن قريشا قد اشتاطت غضبا على رسول الله ﷺ ومن آمن معه، فما استطاع أحد منهم أن يدخل مكة إلا سرا أو في جوار، مخافة بطش قريش، فأشار النبي ﷺ على أصحابه بالعودة إلى الحبشة ثانية، فخرج بضع وثمانون رجلا، وبضع عشرة امرأة مهاجرين إلى أرض الحبشة، ويسر الله لهم السفر، فأقاموا بأرض النجاشي في خير مقام، آمنين على أنفسهم ينعمون بطيب الجوار، غير أن قريشا قد ساءها أن يهنأ المسلمون المهاجرون بأرض الحبشة بالأمن والطمأنينة وقد فروا من أيديهم، فعمدت قريش إلى إرسال وفد إلى النجاشي محملا بأجمل الهدايا؛ ليطلبوا منه أن يطرد المهاجرين من جواره ويخرجهم من بلاطه، فأرسلوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة ـ قبل إسلامهم ـ وكان عمرو بن العاص كثير التردد على بلاط النجاشي، فأحسن الهدايا وتوجه نحو الحبشة كسفير لقريش يتحدث بلسانها

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ :" لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ جَاوَرْنَا بِهَا خَيْرَ جَارٍ النَّجَاشِيَّ أَمِنَّا عَلَى دِينِنَا وَعَبَدْنَا اللَّهَ لا نُؤْذَى وَلا نَسْمَعُ شَيْئًا نَكْرَهُهُ فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ قُرَيْشاً ائْتَمَرُوا أَنْ يَبْعَثُوا إِلَى النَّجَاشِيِّ فِينَا رَجُلَيْنِ جَلْدَيْنِ وَأَنْ يُهْدُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَا مِمَّا يُسْتَطْرَفُ مِنْ مَتَاعِ مَكَّةَ وَكَانَ مِنْ أَعْجَبِ مَا يَأْتِيهِ مِنْهَا إِلَيْهِ الأَدَمُ فَجَمَعُوا لَهُ أَدَماً كَثِيراً وَلَمْ يَتْرُكُوا مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطْرِيقاً إِلاَّ أَهْدَوْا لَهُ هَدِيَّةً ثُمَّ بَعَثُوا بِذَلِكَ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيِّ وَعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ وَأَمَرُوهُمَا أَمْرَهُمْ وَقَالُوا لَهُمَا ادْفَعَا إِلَى كُلِّ بِطْرِيقٍ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ تُكَلِّمُوا النَّجَاشِيَّ فِيهِمْ ثُمَّ قَدِّمُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَاهُ ثُمَّ سَلُوهُ أَنْ يُسْلِمَهُمْ إِلَيْكُمْ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَهُمْ.

قَالَتْ فَخَرَجَا فَقَدِمَا عَلَى النَّجَاشِيِّ وَنَحْنُ عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ وَعِنْدَ خَيْرِ جَارٍ فَلَمْ يَبْقَ مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطْرِيقٌ إِلاَّ دَفَعَا إِلَيْهِ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَا النَّجَاشِيَّ ثُمَّ قَالا لِكُلِّ بِطْرِيقٍ مِنْهُمْ إِنَّهُ قَدْ صَبَأَ إِلَى بَلَدِ الْمَلِكِ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ وَلَم يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْ وَجَاءُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ لا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتُمْ وَقَدْ بَعَثَنَا إِلَى الْمَلِكِ فِيهِمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ لِنَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ فَإِذَا كَلَّمْنَا الْمَلِكَ فِيهِمْ فَتُشِيرُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يُسْلِمَهُمْ إِلَيْنَا وَلا يُكَلِّمَهُمْ فَإِنَّ قَوْمَهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْناً وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ.

فَقَالُوا لَهُمَا نَعَمْ. ثُمَّ إِنَّهُمَا قَرَّبَا هَدَايَاهُمْ إِلَى النَّجَاشِيِّ فَقَبِلَهَا مِنْهُمَا ثُمَّ كَلَّمَاهُ فَقَالا لَهُ

" أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّهُ قَدْ صَبَأَ إِلَى بَلَدِكَ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكَ وَجَاءُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ لا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ وَقَدْ بَعَثَنَا إِلَيْكَ فِيهِمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَعْمَامِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ لِتَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ فَهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْناً

وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ وَعَاتَبُوهُمْ فِيهِ " قَالَتْ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَبْغَضَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ وَعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ مِنْ أَنْ يَسْمَعَ النَّجَاشِيُّ كَلَامَهُمْ ، فَقَالَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ صَدَقُوا أَيُّهَا الْمَلِكُ قَوْمُهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ فَأَسْلِمْهُمْ إِلَيْهِمَا فَلْيَرُدَّاهُمْ إِلَى بِلَادِهِمْ وَقَوْمِهِمْ.

قَالَت فَغَضِبَ النَّجَاشِيُّ ثُمَّ قَالَ لَاهَا اللَّهِ أَيْمُ اللَّهِ إِذًا لَا أُسْلِمُهُمْ إِلَيْهِمَا وَلَا أَكَادُ قَوْمًا جَاوَرُونِي وَنَزَلُوا بِلَادِي وَاخْتَارُونِي عَلَى مَنْ سِوَايَ حَتَّى أَدْعُوَهُمْ فَأَسْأَلَهُمْ مَا يَقُولُ هَذَانِ فِي أَمْرِهِمْ فَإِنْ كَانُوا كَمَا يَقُولَانِ أَسْلَمْتُهُمْ إِلَيْهِمَا وَرَدَدْتُهُمْ إِلَى قَوْمِهِمْ وَإِنْ كَانُوا عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مَنَعْتُهُمْ مِنْهُمَا وَأَحْسَنْتُ جِوَارَهُمْ مَا جَاوَرُونِي .

قَالَتْ ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَدَعَاهُمْ فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُ اجْتَمَعُوا ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مَا تَقُولُونَ لِلرَّجُلِ إِذَا جِئْتُمُوهُ ؟ قَالُوا نَقُولُ وَاللَّهِ مَا عَلَّمَنَا وَمَا أَمَرَنَا بِهِ نَبِيُّنَا ﷺ كَائِنٌ فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ فَلَمَّا جَاءُوهُ وَقَدْ دَعَا النَّجَاشِيُّ أَسَاقِفَتَهُ فَنَشَرُوا مَصَاحِفَهُمْ حَوْلَهُ سَأَلَهُمْ فَقَالَ مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ وَلَمْ تَدْخُلُوا فِي دِينِي وَلَا فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ ؟ قَالَتْ فَكَانَ الَّذِي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لَهُ :

" أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ وَنُسِيءُ الْجِوَارَ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجِوَارِ وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ – فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ - فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا وَحَرَّمْنَا مَا حُرِّمَ عَلَيْنَا وَأَحْلَلْنَا مَا أُحِلَّ لَنَا فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا فَعَذَّبُونَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَشَقُّوا عَلَيْنَا وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكَ وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ.

فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ؟

فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ نَعَمْ. فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ فَاقْرَأْهُ عَلَيَّ. فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ (كهيعص) فَبَكَى وَاللَّهِ النَّجَاشِيُّ حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلَا عَلَيْهِمْ.

ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ إِنَّ هَذَا وَاللَّهِ وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ انْطَلِقَا فَوَاللَّهِ لَا أُسْلِمُهُمْ إِلَيْكُمْ أَبَدًا وَلَا أُكَادُ.

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَاللَّهِ لَأُنَبِّئَنَّهُ غَدًا عَيْبَهُمْ عِنْدَهُ ثُمَّ أَسْتَأْصِلُ بِهِ خَضْرَاءَهُمْ. فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ - وَكَانَ أَتْقَى الرَّجُلَيْنِ فِينَا - لَا تَفْعَلْ فَإِنَّ لَهُمْ أَرْحَامًا وَإِنْ كَانُوا قَدْ خَالَفُونَا .

قَالَ وَاللَّهِ لَأُخْبِرَنَّهُ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَبْدٌ.

قَالَتْ ثُمَّ غَدَا عَلَيْهِ الْغَدَ فَقَالَ لَهُ أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ قَوْلًا عَظِيمًا.

فَأَرْسِلْ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلْهُمْ عَمَّا يَقُولُونَ فِيهِ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ يَسْأَلُهُمْ عَنْهُ ــ

قَالَتْ وَلَمْ يَنْزِلْ بِنَا مِثْلُهُ - فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى إِذَا سَأَلَكُمْ عَنْهُ ؟

قَالُوا نَقُولُ وَاللَّهِ فِيهِ مَا قَالَ اللَّهُ وَمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا كَائِنًا فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالَ لَهُمْ مَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ؟

فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ نَقُولُ فِيهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَرُوحُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ .

قَالَتْ فَضَرَبَ النَّجَاشِيُّ يَدَهُ إِلَى الْأَرْضِ فَأَخَذَ مِنْهَا عُودًا ثُمَّ قَالَ " مَا عَدَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا قُلْتَ هَذَا الْعُودَ "

فَتَنَاخَرَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ حِينَ قَالَ مَا قَالَ ، فَقَالَ وَإِنْ نَخَرْتُمْ وَاللَّهِ اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ سُيُومٌ بِأَرْضِي - وَالسُّيُومُ الْآمِنُونَ- مَنْ سَبَّكُمْ غُرِّمَ ثُمَّ مَنْ سَبَّكُمْ غُرِّمَ ثُمَّ مَنْ سَبَّكُمْ غُرِّمَ فَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي دَبْرًا ذَهَبًا وَأَنِّي آذَيْتُ رَجُلًا مِنْكُمْ - وَالدَّبْرُ بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ الْجَبَلُ - رُدُّوا عَلَيْهِمَا هَدَايَاهُمَا فَلَا حَاجَةَ لَنَا بِهَا فَوَاللَّهِ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنِّي الرِّشْوَةَ حِينَ رَدَّ عَلَيَّ مُلْكِي فَآخُذَ الرِّشْوَةَ فِيهِ وَمَا أَطَاعَ النَّاسَ فِيَّ فَأُطِيعَهُمْ فِيهِ.

قَالَتْ: فَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ مَقْبُوحَيْنِ مَرْدُودًا عَلَيْهِمَا مَا جَاءَا بِهِ وَأَقَمْنَا عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ مَعَ خَيْرِ جَارٍ(١)

إن هذا الحديث يحمل في طياته معان عظيمة، وقيم نبيلة، وتعاليم سامية، إنه تجسيد حي لصورة من صور تحدي النفس ومُعتقداتها، وتحدي الدنيا بمغرياتها، إنه يكشف عن مكنونات الأنفس لكل من كان له فيه حديث، يُخرج الخبء والمكنون في ظلمات النفس، والأسرار الدفينة في أعماقها؛ لتكشف عن نوايا كل منهم.

---

(١) مسند أحمد١٧٦٦ وصححه الألباني في فقه السيرة وذكره في صحيح السيرة النبوية ص١٧٧

فأولهم وفد قريش، عمرو بن العاص وصاحبه، يحملون سفارة قريش إلى النجاشي، وهم على يقين بضعف حجتهم وبطلان دعوتهم، كان عمرو بن العاص دائم التردد على النجاشي، يعلم طباعه وخُلقه، ويعلم رحمته وعدله، أيقن أن مثله ليس له مدخل يدخل منه ليكسب تأييده، فربما حمل أثمن الهدايا وأنفس العطور، وربما رشا القساوسة والبطارقة؛ ليُصدّقوا كلامه عند الملك، لكنه على يقين من أن قوله لن يجد قبولا عند هذا الملك العادل إلا بالحجة والدليل، فأي حجة يحملونها، وأي دليل يجدونه؛ ليُبرروا بطشهم وظلمهم لأناس من بني جلدتهم، فأيقنوا أنه الخزي والعار أن يُبدّلوا الحق باطلا والباطل حق، لكنهم تحدوا أنفسهم وأصروا على المُكابرة، فأقاموا دعوتهم وأظهروا حجتهم، فظهر بهتان قولهم وضعف سندهم، وهوان أمرهم من أول طلبهم .

قالتْ أم سلمة " وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَبْغَضَ إلى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ وَعَمْرِو بْنِ العَاصِ مِنْ أَنْ يَسْمَعَ النَّجَاشِيُّ كَلَامَهُمْ "فإن الصدق سينفح من كلامهم، واليقين ستُشعه وجوههم، وسلامة منهجهم ستكشفه أقولهم، ومهما طعن فيهم، ومهما صال وجال بالقول المنمق، فإنه على يقين من أن الملك لن يركن إلى قوله، ولن تخدعه المظاهر الكاذبة والهدايا النفيسة، ولن يؤثر عليه كلام قساوسته، إن العدل عندما يتحقق يعرف كل صاحب حق حقه، فلا يجرؤ على سلب حق غيره، وهكذا كان نظام الحُكم عند النجاشي، أن يأتي كل صاحب دعوة بالبينة والدليل، وإلا فلا مكان لنصرته على حساب غيره .

وأما النجاشي، فهو نموذج فريد، قلما أن تجد مثله في زمان قد ضرب الفساد كل أوجه الحياة، فلم يسلم منه أحد، لا حاكم ولا محكوم، ولا طالب دين ولا طالب دنيا، إنه نموذج للحاكم الذي يعرف قيمة النعمة التي أنعمها الله عليه ، ويُقر بها جهارا " فَوَاللَّهِ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنِّي الرِّشْوَةَ حِينَ رَدَّ عَلَيَّ مُلْكِي فَآخُذَ الرِّشْوَةَ فِيهِ، وَمَا أَطَاعَ النَّاسَ فِيَّ فَأُطِيعَهُمْ فِيه " ليس بذاك الحاكم الذي يجعل عشرات الوسطاء بينه وبين قومه، ويُقيم عشرات الحواجز بينه وبين كل من ظلِم وأراد أن يسترد حقه.

وليس بذاك الحاكم الذي يتعجل إصدار الأوامر والأحكام بغير بينة ولا دليل، فلا يُبالي أأنصف أم ظلم، ولا يُبالي أتريث أم تعجل، ولا يُبالي أأعطى أم منع .
وليس بذاك الحاكم الذي ينكر نعم الله عليه فينسب كل نجاح لنفسه، وكل نصر لعبقريته، فإذا كانت الهزيمة ردها إلى قضاء الله وقدره

[وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا] (١)

إنه العدل الذي يضمن للمظلوم النصرة وللظالم الردع، يضمن للفقير بالمنونة وللغني بحفظ ماله، لقد كان النجاشي نموذجا مثاليا لحاكم هذب نفسه قبل أن تُهذبه شريعة، فاتخذ من العدل شعارا لحكمه، ومن الرحمة همزة وصل بينه وبين شعبه، فأكرمه الله بهذه الأخلاق النبيلة، وأذاع صيته بين العباد في مختلف البلاد، فكان مقصد أصحاب رسول الله ﷺ ونال ثناء رسول الله ﷺ، والحق أنه كان أهلا لهذا الثناء، فأقر بالحق بعدما تبين له، واختار رضا الله ورسوله على رضا من دونهم، فأيده الله وأظهره، ولما مات أظهر كرامته وفضله، فأخبر النبي ﷺ خبر موته وصلى عليه الرسول ﷺ صلاة الغائب، وأقر له بالأخوّة، وطلب من أصحابه أن يستغفروا له، فعَنْ أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قالَ:

نَعَى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّجَاشِيَّ صَاحِبَ الْحَبَشَةِ، يَوْمَ الَّذِي مَاتَ فِيهِ فَقَالَ ﷺ « اسْتَغْفِرُوا لأَخِيكُمْ » (٢)

وأما القساوسة والبطارقة، فهم نموذج يتكرر في كل زمان ومكان، أناس لا يُقيمون لما يحملون من عقيدة في صدورهم وزنٌ ولا اعتبار، لا يُبالون بتغيير أحكام الله وشرعه عيانا أمام الناس لمجرد لعاعة من الدنيا، إنه النموذج الأكثر خذيا وعارا لرجال الدين في كل رسالة، لذا جاء التحذير منه مُباشرا، واضحا وصريحا [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ] (٣)

إنهم علماء السوء وعُباد الضلالة وأئمة الفساد، يأكلون الدنيا بالدين، يُتاجرون بالمناصب والرياسة في الخلق ليأكلوا أموالهم بغير حق، إنهم دعاة الباطل ومنكري الحق، يُعرضوا عن الحق رغم علمهم به، وما أعجب فطنة العرب الجاهليين لهذا الأمر، وتأكدهم من وجوده في كل مكان، فانظر إلى التكليف المُباشر لرجال الوفد " قَالُوا لَهُمَا ادْفَعَا إِلَى كُلِّ بِطْرِيقٍ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ تُكَلِّمُوا النَّجَاشِيَّ فِيهِمْ فَلَمْ يَبْقَ مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطْرِيقٌ إِلاَّ دَفَعَا إِلَيْهِ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَا النَّجَاشِيَّ " فقد أيقنوا أنه مُفتاح الحديث معهم، ولغة التعامل التي يجيدونها، فلما أقروا أعينهم بفتات من المتاع، جاء التكليف لهم مُباشرا وصريحا، غنيٌّ عن الالتفاف والتورية " فَقَالاَ لِكُلِّ بِطْرِيقٍ مِنْهُمْ إِنَّهُ قَدْ صَبَا إِلَى بَلَدِ الْمَلِكِ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْ

---

(١)[النساء:٧٨] (٢)البخاري١٣٢٧ومسلم ٢٢٤٨ (٣)[التوبة:٣٤]

وَجَاءُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ لا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتُمْ ، وَقَدْ بَعَثَنَا إِلَى المَلِكِ فِيهِمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ لِنَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ فَإِذَا كَلَّمْنَا المَلِكَ فِيهِمْ فَتُشِيرُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يُسَلِّمَهُمْ إِلَيْنَا وَلا يُكَلِّمَهُمْ فَإِنَّ قَوْمَهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ "

فلما طعمت البطون ومُلئت الجيوب وقُرت العيون كان جوابهم " أن نَعَمْ " فقد قنعوا بالهدية، وقلبوا القضية وأنكروا الحق عيانا بدون حجة ولا بينة، وصدّقوا الباطل قولا واحدا، بل وقاموا إلى نُصرته فقالوا " صَدَقُوا أَيُّهَا المَلِكُ قَوْمُهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ فَأَسْلِمْهُمْ إِلَيْهِمَا فَلْيَرُدَّاهُمْ إِلَى بِلادِهِمْ وَقَوْمِهِم "

نموذج مخز لرجال يحملون أمر عقيدة، قد يُقبل من عربي وثني – رغم أنهم لم يفعلوه – أو فارسي مجوسي، لكن لا يُقبل من قس يحمل في صدره تعاليم شريعة سماوية، وإن كانت قد شابها التحريف .

إنهم لم يقتصروا على ذلك، وإنما أنكروا الحق ثانية بعدما أقره رجل منهم " فَضَرَبَ النَّجَاشِيُّ يَدَهُ إِلَى الأَرْضِ فَأَخَذَ مِنْهَا عُودًا ثُمَّ قَالَ مَا عَدَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا قُلْتَ هَذَا العُودَ. فَتَنَاخَرَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ حِينَ قَالَ مَا قَالَ فَقَالَ وَإِنْ نَخَرْتُمْ "

فلم ينخرون؟ ومن أي حديث يعجبون؟ أليس البشارة ببعثه ﷺ ثابتة عندهم في الإنجيل؟

ألم يُقر بها أحبار اليهود وقساوسة النصارى الذين أسلموا!

إنه لخطب جلل وأمر عجب، لقد تناسوا واجبهم تجاه دينهم عندما انصفوا الباطل بلا بينة ولا دليل، وتذكروه الآن عندما جاء الحق واضحا وضوح الشمس، وقد شهد به شاهد منهم، فبأي عقيدة كانوا يؤمنون؟ وبأي أسلوب كانوا يُفكرون؟ أهم رجال دين أم تُجار دنيا ؟

إن القيم السماوية ثابتة ثبات الجبال الراسيات في الأرض، باقية بقاء الروح في الجسد، لا يمكن أن تُفارقه ما دام فيه نفس يخرج ويعود، وما دام فيه قلب ينبض بالحياة، أما إذا تهاوت هذه القيم وتلك التعاليم والسُنن، فقطعا إنها لم تدخل ذاك القلب، ولم يؤمن بها أو يفكر في صدقها يوما .

وأما جعفر بن أبي طالب، ذاك السفير المُبدع والشاب المُلهم، المُتحدث اللبق قوي الحجة فصيح القول، التلميذ النجيب لخير مُعلم وطئت قدمه الأرض، فإن أمره جد عظيم، وحديثه إلهام أوجده الله في قلبه وأجراه على لسانه، فقد جمع الدعوة كلها في كلمات قلائل، وأقام الحجة على صدق عقيدته بأسلوب بسيط قوي مؤثر، أظهر قوة حجته بأقوى العبارات وأروع تصوير، علم حق الرسالة عليه فقام بها خير قيام، وانصفها أيم إنصاف، إنه سفير الدعوة والدين

الصادح بالقول الفصل رغم الشدة والمحنة والغربة والابتلاء، عرض رسالته في أسلوب شيق يجذب السامع ويبهر عقله، فتناول عرضا سريعا بعبارات آية في القوة لصورة الحياة الجاهلية، وما آلت إليه من فساد قد ضرب أطنابها وغلبت عليها روح الجاهلية وتعاليمها، فلم يعد فيها خيرٌ يُتمسك به، ولا فلاحٌ يُرتجى منها، مجتمع لا يستقيم حاله بهذه الكيفية، ولنتأمل هذه الصورة الرائعة " أَيُّهَا المَلِكُ كُنَّا قَوْماً أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ المَيْتَةَ وَنَأْتِي الفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ وَنُسِيءُ الجِوَارَ، يَأْكُلُ القَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ "

هكذا كان حال مُجتمعهم، وهكذا هو الحال الذي يُطالب به الوفد القادم، إنهم يُريدون هذا الوضع ويصدقون عليه ويدعون إليه، فأقام الحجة على بطلان سعيهم وانحطاط أهدافهم.

ثم عرض عليه صورة ثانية لوجه آخر من الحياة مختلف تماما عن الصورة الأولى، يُشعِر المتطلع إليه بعظيم الفارق، وأثر التغيير فيدفعه إلى التفكير، كيف حدث؟ وعلى يد من ؟

فأشار إلى القائد الأعلى والمربي العظيم والرسول الكريم، أشار إليه بعبارات بسيطة أجملت معانيها سطور طوال وأقوال كثيرة، فعرض طيب نسبه، وعلو شأنه، وسمة قدرة ورفعة منزلته، قبل أن يكون رسول مكلف، فهو غني عن طلب مكانة أو سيادة " فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولاً مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ " فهذا هو صاحب الدعوة، والداع إلى الصلاح والتقوى، إلى كل فضيلة وخُلق كريم، إلى مكارم الأخلاق، إلى مُجتمع يسوده الحب والتماسك، لا البغض والعصبية .

" فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الحِجَارَةِ وَالأَوْثَانِ وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الحَدِيثِ وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الجِوَارِ وَالكَفِّ عَنِ المَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ وَنَهَانَا عَنِ الفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالِ اليَتِيمِ وَقَذْفِ المُحْصَنَةِ وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَأَمَرَنَا بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ – فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الإِسْلاَمِ - فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ "

هذه هي الصورة الثانية التي توحي للمستمع بعظيم التغيير وجلالة القدر، إنها أخلاق لم يدع إليها إلا الأنبياء، إنها لم تجر على لسان مُصلح في ذاك الزمان، إنها تعاليم شرائع السماء التي وطئت الأرض منذ قرون قريبة على لسان المسيح عيسى عليه السلام، ها قد جاءت؛ لتبعث في الحياة الأمل من جديد .

ثم ختم العرض ببطلان دعوة قومه، وظلمهم البين، وافترائهم العظيم، وجمّل حديثه بالثناء على الملك، تأليفا لقلبه

فالبشر - كل البشر - مجبولون على حب الثناء والذكر الحسن، وما ضر داعية كجعفر حينما يثني على ملك كالنجاشي، لقد أثنى عليه بكلمات قلائل استمالة لقلبه، إلا أن وقعها على النفس كان قويا ومؤثرا، كلمات تأسر العقل والنفس، وتأخذ بمجامع القلب لما فيه مصلحتهم، وفي الوقت نفسه أثنى عليه بما هو أهل له، فعدد له محاسنه، وأخبره أنهم اختاروا جواره دونا عن جوار غيره، يقينا منهم بعدله ورحمته، وأنه لن يقبل لهم الظلم في بلاطه، فقال : " فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا فَعَذَّبُونَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَشَقُّوا عَلَيْنَا وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكَ وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ وَرَجَوْنَا أَنْ لا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ "

فأي عرض للدين هذا؟ وبأي لسان كان ينطق؟ إنه الإلهام الرباني الذي أجراه الله على لسان عباده الصالحين، فنطقوا بأفصح العبارات التي يعجز غيرهم عن صياغتها، مهما أوتي من جوامع الكلم ومنطق الحكم.

إن النجاشي قد هاله ما سمع، وحق له أن يعجب، وحق له أن ينبهر، فقد عرض عليه صورتين متناقضتين تناقض الليل والنهار، صورة لمجتمع لم يعد فيه خصلة من خير، ومجتمع أشبه بالمدينة الفاضلة التي تكاملت فيها كل صفات الخير، فمتى تحققت هذه الصورة وعلى يد من؟ فأيقن النجاشي أنه وحي السماء والخبر الأعظم والرسالة الخاتمة، فأقر بها عيانا، وشهد شهادة الحق من غير خشية على جاه أو سلطان، ومن غير محاباة للحق وموالاة للباطل، إنه الصدق الداخلي مع النفس قبل الآخرين، فلما قرت نفسه أراد الاستزادة، فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ؟ فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ نَعَمْ. فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ فَاقْرَأْهُ عَلَيَّ. فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ (كهيعص) فانظر إلى فقه الداعية المُلهم، ماذا اختار من القرآن ليقرأ؟ إنه اختار آيات تُعظم العذراء مريم وتُعلي من شأنها ومكانتها، فقرأ عليه فواتح سورة مريم التي تناولت حملها المعجز وقول الإسلام المنصف فيه، فماذا كانت النتيجة ؟ " بَكَى النَّجَاشِيُّ حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلا عَلَيْهِمْ ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ إِنَّ هَذَا وَاللَّهِ وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ انْطَلِقَا فَوَاللَّهِ لا أُسْلِمُهُمْ إِلَيْكُمْ أَبَدًا وَلا أَكَادُ "

فيا لله له من فهم صحيح لفقه الدعوة إلى الله تعالى، جاءت ثماره يانعة مشرقة، عاجلة غير آجلة، فلما كان اليوم التالي أبى ذاك العبقري الفذ عمرو بن العاص أن يعترف بفشله، فجاء بحيلة جديدة تُثير الملك عليهم، وكأنه فطن إلى صميم الخلاف بين العقيدتين فقال

" وَاللَّهِ لأُخْبِرَنَّهُ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَبْدٌ " إن جعفر قد فهم ظروف البيئة التي يعيش فيها، فلم يتخذ الصدام معها مسلكا لدعوته، وإنما تجنب الصدام قدر المُستطاع، وأخذ يدعو إلى الدين ككل، متجنبا مواضع الخلاف الظاهرة، فلم يتعرض لقضية بشرية المسيح عليه السلام حتى وجد نفسه أمام خيار من اثنين، إما أن يُحابي ويُجامل على حساب دين الله ويعرض الدين ناقصا وتعاليمه مبتورة، وإما ألا يخشى في الحق لومة لائم ويعرض تعاليم الدين كاملة وقوله في بشرية المسيح عليه السلام، وليكن ما يكون، فأيقن جعفر ألا موالاة لأحد على حساب دين الله وإظهار شرعه، إلا أنه اعتنى بأمر هام يُحقق له الموازنة في القول ويأمن به رد الفعل، فبين للملك أنهم لا يُألهون المسيح عليه السلام، وأنهم يؤمنون بأنه بشر رسول، إلا أنهم في الوقت نفسه يُعظمون العذراء مريم، ولا يخوضون في عرضها كما خاض فيه اليهود وغيرهم، فقال " نَقُولُ وَاللَّهِ فِيهِ مَا قَالَ اللَّهُ وَمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا كَائِناً فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ " فجاء بها صريحة واضحة وضوح الشمس في كبد السماء

فقال " نَقُولُ فِيهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَرُوحُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ

فماذا كان الجواب؟ لقد كان مُفاجئة حقيقية؟ هل بقي من يحمل في نفسه سلامة الاعتقاد وصدق المنهج؟

هل بقي من لم ينساق خلف طلاسم القساوسة والمبشرين حول طبيعة المسيح عليه السلام ؟ " ضَرَبَ النَّجَاشِيُّ يَدَهُ إِلَى الأَرْضِ فَأَخَذَ مِنْهَا عُوداً ثُمَّ قَالَ: مَا عَدَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا قُلْتَ هَذَا الْعُودَ. فَتَنَاخَرَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ حِينَ قَالَ مَا قَالَ فَقَالَ وَإِنْ نَخَرْتُمْ وَاللَّهِ "

فما جدوى نخرهم وقد كتموا الحق وأعرضوا عنه، وما جدوى نخرهم وقد خالفوا سرائرهم وباعوا ضمائرهم، لقد أقر النجاشي بالحق الذي يعرفه كثير من قساوسة النصارى في الماضي والحاضر، إلا أنهم يعرضون عنه وينكرونه جهارا، ربما لدنيا أغرتهم، وربما لسلطان ومكانة وشهوة قد سيطرت على عقولهم وقلوبهم، فلم يجدوا حرجا من أن يبيعوا الغالي بالرخيص، ويشتروا بآيات الله وشرعه ثمنا قليلا.

إن أمثال النجاشي اليوم كثير، ليسوا حكاما ولا ملوكا، وإنما نصارى قد اقتنعوا باطنا بفساد عقائدهم، وأن الخلاص ليس في طلاسمها التي تحتاج إلى عشرات المبشرين المهرة والقساوسة؛ ليفسروا دلالاتها ويشرحوا مضمونها، ومن هؤلاء من يدعون إليها وهم في قرارة أنفسهم لا يؤمنون بها

إن أمثال هؤلاء بحاجة إلى صاعقة تزلزل قلوبهم، صاعقة تأتيهم على ألسن دعاة المسلمين، أو على ألسن من أسلموا من النصارى؛ لتُقام عليهم الحجة، تقام على ضمائرهم ومكنونات قلوبهم، قبل أن تقام على ظاهرهم ومنطق ألسنتهم.

هجرة أبو بكر الصديق

أخذت الأوضاع في مكة تنتقل من سوء إلى أسوأ، وازدادت نقمة الكفار على المسلمين، فقامت كل قبيلة على من أسلم فيها تُصليه أشد العذاب فغدا البقاء في مكة على هذا الحال ضرب من المُحال، فكان استقرار أوضاع المُهاجرين بأرض الحبشة دافع لكثير من المسلمين إلى اللحوق بهم، كان منهم الصديق ﷺ، والظاهر أن تفكيره في الهجرة كان بعد موت أبي طالب وازدياد نقمة قريش على رسول الله ﷺ وأنصاره.

قالت أم المؤمنين عَائِشَةَ رضي الله عنها " لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ قَطُّ ، إِلاَّ وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ، وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلاَّ يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ طَرَفَيِ النَّهَارِ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً، فَلَمَّا ابْتُلِيَ الْمُسْلِمُونَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا قِبَلَ الْحَبَشَةِ ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَرْكَ الْغِمَادِ لَقِيَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ - وَهُوَ سَيِّدُ الْقَارَةِ - فَقَالَ أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ ؟

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ أَخْرَجَنِي قَوْمِي فَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ فِي الأَرْضِ فَأَعْبُدَ رَبِّي .

قَالَ ابْنُ الدَّغِنَةِ إِنَّ مِثْلَكَ لاَ يَخْرُجُ وَلاَ يُخْرَجُ، فَإِنَّكَ تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، وَأَنَا لَكَ جَارٌ فَارْجِعْ فَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبِلاَدِكَ. فَارْتَحَلَ ابْنُ الدَّغِنَةِ، فَرَجَعَ مَعَ أَبِى بَكْرٍ، فَطَافَ فِي أَشْرَافِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَقَالَ لَهُمْ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لاَ يَخْرُجُ مِثْلُهُ، وَلاَ يُخْرَجُ، أَتُخْرِجُونَ رَجُلاً يُكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ وَيَحْمِلُ الْكَلَّ، وَيَقْرِى الضَّيْفَ، وَيُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ . فَأَنْفَذَتْ قُرَيْشٌ جِوَارَ ابْنِ الدَّغِنَةِ وَآمَنُوا أَبَا بَكْرٍ وَقَالُوا لاِبْنِ الدَّغِنَةِ مُرْ أَبَا بَكْرٍ فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، فَلْيُصَلِّ وَلْيَقْرَأْ مَا شَاءَ، وَلاَ يُؤْذِينَا بِذَلِكَ، وَلاَ يَسْتَعْلِنْ بِهِ، فَإِنَّا قَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا .

قَالَ ذَلِكَ ابْنُ الدَّغِنَةِ لأَبِى بَكْرٍ، فَطَفِقَ أَبُو بَكْرٍ يَعْبُدُ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، وَلاَ يَسْتَعْلِنُ بِالصَّلاَةِ وَلاَ الْقِرَاءَةِ فِي غَيْرِ دَارِهِ، ثُمَّ بَدَا لأَبِى بَكْرٍ فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ، وَبَرَزَ فَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ، وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَيَتَقَصَّفُ عَلَيْهِ نِسَاءُ الْمُشْرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ يَعْجَبُونَ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلاً بَكَّاءً لاَ يَمْلِكُ دَمْعَهُ حِينَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَأَفْزَعَ ذَلِكَ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَأَرْسَلُوا إِلَى ابْنِ الدَّغِنَةِ فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا لَهُ إِنَّا كُنَّا أَجَرْنَا أَبَا بَكْرٍ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ

وَإِنَّهُ جَاوَزَ ذَلِكَ، فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ، وَأَعْلَنَ الصَّلَاةَ وَالْقِرَاءَةَ، وَقَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا، فَأْتِهِ فَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ فَعَلَ، وَإِنْ أَبَى إِلاَّ أَنْ يُعْلِنَ ذَلِكَ فَسَلْهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْكَ ذِمَّتَكَ، فَإِنَّا كَرِهْنَا أَنْ نُخْفِرَكَ، وَلَسْنَا مُقِرِّينَ لأَبِي بَكْرٍ الاسْتِعْلاَنَ. فَأَتَى ابْنُ الدَّغِنَةِ أَبَا بَكْرٍ، فَقَالَ قَدْ عَلِمْتَ الَّذِي عَقَدْتُ لَكَ عَلَيْهِ، فَإِمَّا أَنْ تَقْتَصِرَ عَلَى ذَلِكَ وَإِمَّا أَنْ تَرُدَّ إِلَيَّ ذِمَّتِي، فَإِنِّي لا أُحِبُّ أَنْ تَسْمَعَ الْعَرَبُ أَنِّي أُخْفِرْتُ فِي رَجُلٍ عَقَدْتُ لَهُ.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ إِنِّي أَرُدُّ إِلَيْكَ جِوَارَكَ، وَأَرْضَى بِجِوَارِ اللَّهِ (١)

إنها لذة الابتلاء في الله التي تسكن القلب فتورثه نعمة الرضا على الله عز وجل، مهما اشتدت الصعاب، ومهما ضاقت السُبل، ومهما تأخر الفرج.

تلك اللذة التي شعر عُثمان بن مظعون أنه محروم منها لما رأى من أحوال المُسلمين وهم يُعذبون في الله وهو آمن في جوار الوليد بن المغيرة فقال " والله إن غدوي ورواحي آمنا بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني، لنقص كبير في نفسي، فمشى إلى الوليد بن المغيرة، فقال له: يا أبا عبد شمس وفت ذمتك قد رددت عليك جوارك فقال الوليد مندهشا: لما يا ابن أخي؟ لعله آذاك أحد من قومي.

قال عُثمان لا ولكني أرضى بجوار الله ولا أريد أن أستجير بغيره، فقام الوليد ليرد عليه جواره علانية، فقال عُثمان صدق قد وجدته وفيا كريم الجوار، ولكني قد أحببت ألا أستجير بغير الله ..... "

كلمات تعجز الأقلام عن وصفها، وتعجز الألسن عن الثناء عليها، وتعجز القلوب عن إدراك معانيها وعظيم أمرها، كلمات تجمع أسمى معاني الرضا عن الله عز وجل، إنه الصدق الباطني الذي لا يطلع عليه أحد إلا الله، إنه اليقين بصدق الدعوة، ونصر الله ووعد الرسول ﷺ، إنها آثار التربية على تعاليم رسالة الإسلام.

إسلام حمزة

ربما تدفع العصبية رجال من بني هاشم إلى الذود عن رسول الله ﷺ وحمايته، أمنوا به أم لم يؤمنوا، فقد فاقت العصبية القبلية عندهم بكثير العصبية الدينية، لكن أن تدفع هذه العصبية سيد من سادات بني هاشم إلى الإسلام حمية وعصبية لرسول الله ﷺ فهذا أمر عُجاب، إنه حمزة بن عبد المطلب، أخو رسول الله ﷺ في الرضاعة، صديق الطفولة في بادية بني سعد

---

(١) البخاري ٢٢٩٧

وصديق الشباب في مكة، سيد من سادات مكة كلها، رجل قوي البنية، شديد الشكيمة، مُهاب بين قومه، فارس مقدام، لم يبالي كثيرا بمُعتقدات قومه، كغيره كثير من أهل مكة، اقتنعوا داخليا بفساد مُعتقداتهم وبطلان أصنامهم، وأنها لا تصلح لأن تكون إلها يُعبد .

كان حمزة قد اعتاد الصيد، ينعزل به عن أجواء مكة، وذات يوم وهو عائد من قنصه اعترضته أمة لعبد الله بن جُدعان، وأخبرته أن أبا جهل قد تطاول على رسول الله ﷺ بالسُباب وبذيء الألفاظ، غير أن رسول الله ﷺ قد أعرض عنه وانصرف، فاشتاط حمزة غضبا من صنيع أبي جهل، وتوجه إلى حيث يجلس بين سادات مكة فلما رآه أقبل نحوه ورفع قوسه وشجّ به رأس أبي جهل، وقال له أمام سادات مكة " أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول " بهذه الكلمات التي وقعت على آذان قريش كأنها الصاعقة أعلن حمزة إسلامه علانية، غير أن قلبه لم يكن ينعم بالإسلام بعد، فعاش ليال في حيرة من مقولته حتى شرح الله قلبه للإسلام، فتوجه إلى رسول الله ﷺ يبشره بإسلامه، فقال له " أشهد إنك لصادق شهادة المصدق والمعارف، فأظهر يا ابن أخي دينك، فوالله ما أحب أن لي ما ألمعت الشمس وأني على ديني الأول " فسُرَّ بذلك رسول الله ﷺ أشد سرور، فكان حمزة ﷺ ممن أعز الله به الدين.

علمت قريش أن رسول الله ﷺ قد مُنع بإسلام حمزة أشد من حماية أبي طالب، فعاش حمزة ﷺ مدافعا عن رسول الله ﷺ ورسالته، وكأنه سيف يُسَلُّ فيتوجه إلى حيث أراد رسول الله ﷺ حتى استشهد يوم أُحد؛ ليكون سيد الشهداء (١)

إسلام عمـــر

ربما يُسلم رجل فيعيش ويموت وما شعر الإسلام به، وربما يسلم آخر فيُحرك دفة الرسالة قدر شبر، وآخر يُسمِعُ للرسالة دويّ، وآخر يُزيد في رقعتها أرضا، وآخر يجود بعمره؛ ليحقق هدف الرسالة، ولكل منهم أجر على مقدار صنيعه، أما أن يأتي رجل يحمل في طياته أسمى الصفات فيبلغ مُنتهاها، ويُلقي به القدر في بحور الوثنية، فتسرع أطواق النجاة لانتشاله فكأنه البعث بعد الممات فيجود بكل غال ولا يبالي، ويكون إسلامه عزا وفتحا عظيما! فهذا أسمى ما تصنعه رسالة في نفس إنسان، أن تنشئه من جديد، بقيم وأهداف جديدة .

---

(١) مستدرك الحاكم٤٨٧٨

إنه الفاروق عمــر، الرجل الذي أعز الله به الإسلام بعد الهوان، وأشرق الله به شمس الرسالة بعد غيابها، وفرّق الله به بين الحق والباطل، بعد أن التبس على الناس التفريق بينهما، قال عَبْدُ اللَّهِ بن مسعود ﷺ عن إسلامه " ما زلْنَا أعِزَّةً مُنْذُ أسْلَمَ عُمَرُ (١)

إنه الرجل الذي حرّك دفة الرسالة أميالا، وأسمع لها دويا قد جاب مشارق الأرض ومغاربها، وأزاد في رقعتها أوطانا، فطالت أطراف المعمورة كلها، وأجاد بعمره دفاعا عنها، فعاش وكأنه قد صاغ قدره كيفما يشاء .

إنه الرجل الذي لم يزده نقد الناقدين إلا مدحا، وما وقف منصف أمام حكم اشترك فيه عمر إلا وأيقن أنه لم يزغ عن جادة الصواب .

هو عمر بن الخطاب العدوي القُرشي، يلتقي مع رسول الله ﷺ **في** كعب بن لؤي، وُلد بعد الفيل بثلاث عشرة سنة، كان من أشراف قريش، وإليه كانت السفارة في الجاهلية، فكانت قريش إذا وقعت حرب بينها أو بينها وبين غيرها ابتعثوه سفيرا، فكان سفير قريش ومُفاخرها، وكان من أعلمهم بتاريخ العرب وأيامها ومفاخر أنسابها، وكان من أعلم الناس بالشعر وأنواعه وطيبه ومنكره .

لما ظهرت دعوة الإسلام لم يكن موقف عمر منها بعيدا عن موقف قومه من ملازمة العداء والاضطهاد، فكان من أجرأ قريش على إيذاء المستضعفين من المسلمين، حتى أنه كان يُعذب جارية من بني عديّ قد أسلمت، فكان يعذبها أشد ما يكون العذاب، حتى ترتد عن دينها، فلم تجبه إلى ما أراد حتى ملَّ من تعذيبها وهي صابرة مُحتسبة فلما تركها قال لها" إني لم أتركك إلا سآمة" فقالت له " كذلك يفعل الله بك إن لم تسلم "

ورغم ما يبدو من أن عُمر كان من أبعد الناس عن الإسلام؛ لكثرة جرائره مع ضعفاء المسلمين، وعداوته لرسول الله ﷺ وحبه للخمر، إلا أن أبواب الهداية أكثر من أبواب الضلال، وطريق الهداية أيسر من طريق الضلال، وإن توهم الناس العكس، فإن أكثر المحاربين لدعوة الإسلام، صاروا من أخلص المدافعين عنها، وها هو عُمر أشدّ الناس عداوة للإسلام قد رق قلبه له، وأخلص له أيم إخلاص.

ولكن رجل مثل عمر لا يتغير فجاة وينصرف عن معتقداته ويعدل عن عداوته للإسلام بلا مُقدمات، فربما تزهق الأرواح من أجل العقائد وإن كانت باطلة .

ومع كثرة الروايات في إسلام عمر، والتي قد يشعر البعض بتناقض بينها

---

(١)البخاري ٣٦٨٤ وفي سنن ابن ماجة حديث١٠٨ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ " لَمَّا أَسْلَمَ عُمَرُ نَزَلَ جِبْرِيلُ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ لَقَدِ اسْتَبْشَرَ أَهْلُ السَّمَاءِ بِإِسْلَامِ ولكن ضعفه الألباني

إلا أن عين الإنصاف أن نعلم أن عمر ليس بالشخصية التي تُلقي بنفسها جزافا لأمر يغير مجرى حياته كلها لسبب واحد قد طرأ عليه، وإنما تتكاتف الأسباب فتهيء النفس لاستقبال هذا الحادث الجلل، فمقدمات إسلام عُمر كانت ومضات أنارت له الطريق، ثم إشراقة غيرته من حال إلى حال، ثم دعوة بددت ما بقي من آثار ماض مُلوث وجاهلية عمياء، ويأتي القدر ليسطر حياة عمر كما شاءها ربه سبحانه، فتأتي اللحظة الحاسمة؛ ليتدفق عمر نحو الإسلام كالسيل الجارف الذي لا ترده أكوام الرمال.

كان لثبات المؤمنين المُعذبين على أيدي سادات قريش أثر في نفس عُمر الذي كان يُشاركهم تعذيبهم، فهم من بني جلدتهم، أناس أفرزتهم بيئة واحدة، كانوا يُشاركونهم معتقداتهم، ثم اعتنقوا الإسلام فتغيرت أحوالهم، وتبدلت أخلاقهم وعلت هممهم، وهاهم يتحملون من أجله أشد ألوان العذاب، فأي دافع يحملهم على الصبر على كل هذا الأذى والتعذيب، ورسول الله ﷺ لا يملك أن يرد عنهم ما هم به من تعذيب! فكأن قوة عُظمى قد ملكت قلوبهم فهونت عليهم ما هم به من أذى وابتلاء، فضربوا من ألوان الصبر ما يبهر العقول المُبصرة ويُحرك النفوس السوية، وهكذا كان عمر، ذا فطرة سليمة، ربما شابها شيء من مفاسد الجاهلية، إلا أنه لا يزال يملك بصيرة نيّرة، يحكم بها على ما يراه بعقل منصف غير متحيز، لذا لما رأى عُمر مخرج المرأة المهاجرة من مكة متوجهة إلى أرض الحبشة، بدت الرحمة، وقد بددت القسوة التي ملكت قلبه، فرثى مخرجها بشيء من اللين الذي دفعها إلى أن تأمل في إسلامه.

قالت أم عبد الله بن عامر بن ربيعة: والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشة .....إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف عليّ وهو على شركه، وكنا نلقى منه البلاء أذي لنا وشدة علينا، فقال إنه للانطلاق يا أم عبد الله.

فقلت نعم والله لنخرجن في أرض من أرض الله، إذ آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا فرجا .

فقال صحبكم الله، ورأيت له رقة لم أكن أراها ثم انصرف، وقد أحزنه فيما أرى خروجنا، فلما قصت على زوجها أمر عُمر، قال أطمعت في إسلامه! قالت نعم، قال فلا يُسلم حتى يُسلم حمار الخطاب!

يا الله، ألهذا الحد كان عُمر بعيدا عن الإسلام! ألهذا الحد أثرت تلك البيئة المنحرفة في هذا العقل الراجح!

ألهذا الحد تُغير التربية التي يشب عليها الفرد مجرى حياته !

كان أهم ما يُميز عُمر عن باقي قومه أمرين، الأول أنه كان لا يسير وفق أهوائه وعواطفه، وإنما يُحكّم عقله في كل أموره

فكلا من عمر بن الخطاب وأبي جهل كانا على نفس الدرجة من العداء للدعوة وللرسول ﷺ ولكن الفارق كان في قدرة عقولهم على الفصل بين الأمور دون تدخل لأهواء النفوس، وما تحمله من حُكم مُسبق على الدعوة ومضمونها، والأمر الثاني أن عُمر كان شخصية إيجابية في قومه، فكان يُدافع عما يؤمن به بكل قوته، فإن أحدا من كُفار مكة كلها قد أعلن صراحة نيته مقتل رسول الله ﷺ إلا عُمر، بل إنه قد خطا خطوات عملية في سبيل تحقيق هدفه، في الوقت الذي اقتصر فيه أمر المشركين مع رسول الله ﷺ على السخرية والاستهزاء، فإلى أي حد ستقوده إيجابيته هذه إن هو أسلم !

كان عُمر ذا دراية جيدة بالشعر، وأمور السحر والكهانة، وما شابهها من أفعال البشر، وكان سادة قريش لطالما يُرددون في وصفهم للقرآن أنه من قول البشر، فكيف كان حُكم عُمر على القرآن عندما سمعه بعيدا عن آذان قومه وتأثير أقوالهم ؟

لما أراد الله لعُمر الهداية أسمعه القرآن بعيدا عن آذان قريش وأبصارهم، فبهرته بلاغة القرآن وروعة تقسيمه وقوة تأثيره على النفس، فملّ عقله عن ترديد أقوال قومه في سحر رسول الله ﷺ وتأليفه للقرآن، يصف عمر هذه اللحظات الحاسمة في حياته قائلا " كنت للإسلام مُباعدا وكنت صاحب خمر في الجاهلية أحبها وأشربها وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش .....فخرجت ليلة أريد جلسائي أولئك في مجلسهم ذلك فجئتهم فلم أجد فيه منهم أحد فقلت لو أني جئت فلانا الخمّار وكان بمكة يبيع الخمر لعلي أجد عنده خمرا فأشرب منها فخرجت فجئت فلم أجده فقلت فلو أني جئت الكعبة فطفت بها. (١) فَوَجَدْتُ رسول الله ﷺ قَدْ سَبَقَنِي إِلَى الْمَسْجِدِ، فَقُمْتُ خَلْفَهُ فَاسْتَفْتَحَ سُورَةَ الْحَاقَّةِ فَجَعَلْتُ أَعْجَبُ مِنْ تَأْلِيفِ الْقُرْآنِ فَقُلْتُ هَذَا وَاللَّهِ شَاعِرٌ كَمَا قَالَتْ قُرَيْشٌ.

فقرأ (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ) قُلْتُ كَاهِنٌ قَالَ (وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ) إِلَى آخِرِ السُّورَةِ ، قَالَ عمر: فَوَقَعَ الإِسْلاَمُ فِي قَلْبِي كُلَّ مَوْقِعٍ (٢)

كانت هذه الأسباب مُقدمات لإسلام عُمر، وربما مُقدمات لحديث في أعماق النفس عن صدق رسول الله ﷺ ودعوته وسمو تعاليم رسالته، ولما كان مُعظم أتباع الرسول ﷺ من الضعفاء، كان إسلام سيد من سادات مكة عز للإسلام يُعطي لتابعيه عزا يُهوّن عليهم ما يُلاقونه من ابتلاء

---

(١) سيرة ابن هشام - (ج ١ / ص ٣٤٦) (٢)مسند أحمد ١٠٨

لذا دعا رسول الله ﷺ فقال " اللَّهُمَّ أعِزَّ الإسْلامَ بِأحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إلَيْكَ، بِأبِي جَهْلٍ أوْ بِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ" (١)

ولما كان لعمر بن الخطاب مكانة بين سادات مكة خصه رسول الله ﷺ بالدعاء فقال " اللَّهُمَّ أعِزَّ الإسْلامَ بِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ خَاصَّةً » (٢)

بهذا الدعاء لم يبق بين عمر وبين الإسلام إلا ما بين ذرات المطر ونزول الغيث، ولم يبق إلا تحدي نفسه لما يدور في أعماقها من صراع داخلي حول صدق رسول الله ﷺ أو كذبه.

كان عمر دائم الجلوس مع سادات مكة الذين أقنعوا عُمر الا خلاص لما هم فيه إلا بمقتل رسول الله ﷺ فعزم عُمر على القضاء على رسول الله ﷺ، فتوجه إلى حيث يجلس رسول الله ﷺ في دار الأرقم قاصدا قتل رسول الله ﷺ وإنهاء دعوته، وبينما هو في طريقه إذ لقيه رجل من بني عدّي يُدعي نُعيم بن عبد الله، وكان يُخفي إسلامه، ولما رأى الشر في عيني عُمر سأله عن وجهته، فأخبره عُمر بنيته في قتل رسول الله ﷺ فأراد نُعيم أن يصرف عُمر عن عزمه فلم يستطع، فقرر أن يصرفه عن وجهته، فأخبره بإسلام أخته وزوجها سعيد بن زيد .

سمع عُمر هذا الخبر وكأنه صاعقة قد نزلت به، فتحولت موجات الغضب التي كان يكتنزها إلى رسول الله ﷺ نحو أخته وختنه، فتوجه إلى دارهما، وبينما هو قريب من الباب إذ سمع آيات من القرآن تُتلى داخل المنزل فأيقن بصدق الخبر .

دخل عُمر على أخته والشرر يتطاير من عينيه، فسألهم عن حقيقة اتباعهما لرسول الله ﷺ فأجابوه أن نعم قد أسلمنا، فبطش عُمر بختنه سعيد بن زيد، ولما عمدت أخته رده عن زوجها ضربها فأدماها.

نظر عُمر إلى أخته وزوجها وقد كسا الدم وجهيهما، فانهارت نفسه، وكأن شُحنة الغضب قد تسربت بضربهما، وأصبح عُمر وقد سيطرت ملامح الأسى على قلبه، فسالاهما أن يُعطيانه الصحيفة التي بها آيات القرآن، فطمعت أخته في إسلامه، فطلبت منه أن يغتسل قبل أن يقرأها، فقام واغتسل، وكأنه قد أزال بغسله هذا ما بقي في قلبه من مفاسد الجاهلية وآثار تربيتها .

---

(١)سنن الترمذي٤٠٤٥وقال حسن صحيح ومسند احمد٥٨٢٩ والحاكم ٣\٨٣وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي وصححه الألباني في جامع الترمذي٥\١١٧حديث٣٦٨١وفي مشكاة المصابيح جزء٣ حديث ٦٠٣٦ وقال حسن صحيح

(٢)سنن ابن ماجة ١١٠وقال الألباني في صحيح ابن ماجة ٨٥"صحيح دون قوله خاصة " وفي السلسلة الصحيحة جزء٧ حديث٣٢٢٥

كما أزال بغسله هذا ما بقي من شحنات الغضب التي أعمت بصره، والتي يمكن أن تُبعده عن فهم ما سيقرأ من آيات القرآن الكريم، فالغضب يسلب العقل أي قدرة على التفكير فيُشله تماما.

اغتسل عُمر وكأنه بدّل جسدا غير الجسد، وروحا غير الروح، وعقلا غير العقل، فما أن قرأ الآيات الأولى من سورة طـــه حتى رق قلبه، وتنبه عقله، وتفاعلت جوارحه مع القرآن، فخرج في حينها خباب بن الأرت من أحد حُجرات الدار التي اختبأ فيها لما سمع صوت عُمر وقال: " يا عُمر والله إني لأرجو أن يكون الله خصك بدعوة نبيه فإني سمعته أمس يقول اللَّهُمَّ أعِزَّ الإِسْلامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، فالله الله يا عُمر "

الله الله يا عمر، ما دخل لفظ الجلالة في حديث إلا زانه فأخرج حظ الشيطان منه، فبهذه الكلمات ذاب جبل الجليد الذي رسبته سنوات عُمر الماضية، فأصبح عُمر نقيا وكأنه وليد في المهد بعقل راجح، ولم يبق سوى مواجهة رسول الله ﷺ بإسلامه.

لم تمض سوى دقائق، حتى عاد عُمر من نفس الطريق الذي جاء به وإلى نفس الجهة التي عمد التوجه إليها نحو الصفا، ولكن بحال غير الحال، فمنذ قليل كان قصده قتل رسول الله ﷺ والآن إلى نفس الجهة ولكن بهدف غيره.

وهكذا يفعل الإيمان في البشر، يُبدّل القلوب غير القلوب، والعقول غير العقول، فما جدواهما إن لم يبصرا الحق ويُدافعا عنه، وما جدواهما إذا كانا المرشد إلى الضياع والهلاك!

إن الإيمان الصادق يزلزل النفس فتندفق وكأنها سيل عرم، وهكذا كان إيمان عُمر منذ ساعته الأولى في الإسلام سيل جارف يمحو كل آثار الماضي القبيح؛ ليبدأ حاضر يصوغه بيديه؛ ليغير مجرى الرسالة كلها، فيخطو بها مئات الأميال نحو الأمام.

توجه عُمر إلى دار الأرقم؛ ليُعلن إسلامه لرسول الله ﷺ فطرق الباب، ففزع الصحابة لما علموا أنه عُمر، ولكن حمزة ذاك الأسد القابع في عرينه ينتظر أوامر رسول الله ﷺ، ذاك السيف الذي يُغمد حيث شاء رسول الله ﷺ قال " يا رسول الله ائذن له فإن كان جاء يريد خيرا بذلنا له وإن كان جاء يريد شرا قتلناه بسيفه " فقال رسول الله ﷺ ائذن له، فدخل عمر فنهض رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة فأخذ حُجزته ثم جبذه نحوه بشدة وقال له ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة.

فقال عُمر: يا رسول الله جئتك لأؤمن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله، فكبّر رسول الله ﷺ فرحا بإسلام عُمر وكبّر الصحابة فرحا بإسلام عُمر حتى أسمعت تكبيراتهم أهل مكة (١)

منظر عجيب لهذين الرجلين، حمزة وعمر، لقد اتفقت نواياهم على نصرة الله وشرعه، إلا أنها لم تأت في وقت واحد ولم تأت بنفس الطريقة، فحمزة قد بدأ إسلامه حمية وتعصبا، ثم منّ الله عليه بثبات الإيمان، أما عمر فقد اتخذ كل وسيلة تصرف قلبه عن الدين لكنه فشل، ولم يملك إلا الإقرار بالحق وصدق الرسول ﷺ وها هما قد اصطدمت أهدافهما أمام رسول الله ﷺ، بداية متناقضة للرجلين أمام رسول الله ﷺ، كيف أوقف الإسلام كلا منهما في موقف متباين، حمزة لا يبالي بمكانة عمر وقبيلته، ولا ينتظر سوى أمر رسول الله ﷺ بقتله بسيفه الذي جاء به، وعمر الذي يبدو معاديا لله ولرسوله، رغم أن ما يشغله كيف يواجه رسول الله ﷺ بإسلامه بعد كل هذا العداء والصراع والظلم والبطش والتعذيب؟

نظر رسول الله ﷺ إلى عمر وقد أيقن أن مثله لم يعد يصلح معه لين قول أو رفقة في الدعوة، فجاءت دعوته له غاية في القوة، وربما القسوة ((فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة))

فالدعوة ليست لين ورفق ومهادنة فقط ، وإنما قوة وشدة وصلابة في الحق، وهذا التنوع تقتضيه ظروف الأحوال والأشخاص، فمثل عمر لم يعد يصلح معه عرض تعاليم الإسلام ومبادئ دعوته وهو يسمع عنها ليل نهار.

وقعت كلمات رسول الله ﷺ على آذان عمر كالصاعقة التي توعده رسول الله ﷺ بها، فأيقن عمر ألا خلاص إلا بإعلان كلمة التوحيد علها أن تشفع له عند رسول الله ﷺ وتنسيه تاريخه الطويل في عدائه وتعذيبه للمسلمين .

ومنذ ساعته الأولى في الإسلام عمد عُمر إلى الدعوة لدين الله عز وجل بنفس الشدة التي كان يحاربه بها، فقال لرسول الله ﷺ " ألسنا على الحق ؟ قال بلى، قال ففيم الإخفاء ؟

فخرج المسلمون صفين، عمر في أحدهما، وحمزة في الآخر، حتى دخلوا المسجد، فنظرت قريش إلى عمر وإلى حمزة، فأصابتهم كآبة شديدة لم يصبهم مثلها، وأيقنوا أن الإسلام قد عز، وأن رسول الله ﷺ قد مُنع، ومن ساعتها لقبه رسول الله ﷺ بالفاروق .

---

(١)أخرجه الحاكم في المستدرك ٨٩/٤ والبيهقي في الدلائل ٢١٩/٢ وابن هشام عن ابن اسحق وإسناده حسن

ثم قال عمر: يا رسول الله ﷺ إني لا أدع مجلسا جلسته في الكفر إلا أعلنت فيه الإسلام، فأتى المسجد وفيه بطون قريش متحلقة، فجعل يعلن الإسلام ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله علانية على الملأ، فثار المشركون فجعلوا يضربونه ويضربهم، فلما تكاثروا عليه خلصه منهم العاص بن وائل السهمي (١) قال عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ - رضي الله عنهما - لمَّا أسْلَمَ عُمَرُ اجْتمَعَ النَّاسُ عِنْدَ دَارِهِ وَقَالُوا صَبَا عُمَرُ. وَأنَا غُلامٌ فوْقَ ظَهْرِ بَيْتِي، فَجَاءَ رَجُلٌ عَلَيْهِ قَبَاءٌ مِنْ دِيبَاجٍ فَقَالَ قَدْ صَبَا عُمَرُ. فَمَا ذَاكَ فَأنَا لَهُ جَارٌ.

قَالَ فَرَأَيْتُ النَّاسَ تَصَدَّعُوا عَنْهُ فَقُلْتُ مَنْ هَذَا ؟ قَالُوا الْعَاصِ بْنُ وَائِلٍ (٢)

---

(١) ذكره الألباني في صحيح السيرة النبوية ص١٩٤وقال رواه الطبراني في (الأوسط) ورجاله ثقات كما قال الهيثمي

(٢) البخاري٣٨٦٥

** أبرز مراجع هذا الفصل((مقالات من مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - مقالات من مجلة البيان - عبقرية عمر للعقاد - فقه السيرة للغزالي - الحكمة في الدعوة إلى الله - موسوعة البحوث والمقالات العلمية، جمع وترتيب الشيخ: علي بن نايف الشحود - المفصل في فقه الدعوة

الباب الرابع

محن ومنح

الفصل الأول: في شعب أبي طالب

الفصل الثاني : الإسراء والمعراج

الفصل الثالث: رحلة البحث عن الأنصار

الفصل الرابع: الهجرة إلى المدينة

الفصل الأول

في شعب أبي طالب

الحصار الشامل، وسيلة فتاكة ومكيدة عجيبة لم تعهدها أرض العرب من قبل بهذه البشاعة والشدة في التطبيق، استلهموها من قُطاع الطرق والمجرمين، وأضافوا عليها بصمات من بنات أفكارهم، فخرجت بصورة لم تُسبق إليها وأحكموا سد كل ثغراتها؛ لتحقق الغرض المطلوب والهدف المرجو منها، ولو أنها كانت تحارب أنفسا خاوية من العقيدة، لأبادت أولهم عن آخرهم في أقل من نصف مُدتها .

صارت مكة وكأنها صراع بين حزبين، الأول هو رسول الله ﷺ ومن آمن معه، وهم يومئذ قليل غير أنهم في زيادة مُستمرة، والثاني هم الوثنيون وهم كثير، ولديهم المال والسلطان والقوة والجبروت، وفيهم سادة مكة والعرب كلها، والصراع هكذا غير متكافيء، إلا أن هذه الصورة قد تغيرت بإسلام عمر وحمزة - رضي الله عنهما - فثقلت بهما كفة المسلمين، فكان لإسلامهما أثر كبير في نفوس المشركين، فهم من سادات قريش وذوي الجاه والمكانة الرفيعة فيها، وقد يفتح إسلامهما الباب لإسلام غيرهما، فأيقن المشركون أن الأمر بحاجة إلى حل أشد سرعة ووسيلة أقوى تأثيرا، فتجمع سادات قريش لإيجاد حل يقتلع هذه الحركة الجارفة والدعوة الوليدة من جذورها، فتعاهدوا على قطع كل علاقة تربطهم ببني هاشم وبني المطلب، ونصوا بذلك بنودا قاسية تُحكم سيطرتهم على مجريات الأمور وتغلق كل باب للرحمة والإنسانية في التطبيق، فكانت المقاطعة شاملة لجميع النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والإنسانية فتعاقدوا على ((ألا يناكحوهم، ولا يبايعوهم، ولا يؤووهم، ولا يخالطوهم، ولا يدخلوا بيوتهم، ولا يُكلموهم، ولا يقبلوا منهم صُلحا ولا تأخذهم بهم رأفة، ولا يكون بينهم وبينهم شيء، ويقطعوا عليهم الأسواق فلا يتركون طعاماً يدنو من مكة ولا بيعاً إلا بادروا إليه ليقتلهم الجوع، ولا يدخلوا إليهم شيئا من الرفق، واتفقوا على إخراجهم من مكة إلى شعب أبي طالب وكتبوا بذلك صحيفة علقوها في جوف الكعبة ضمانا للالتزام بما اتفقوا عليه فيها))

وبذلك تكون قريش قد قطعت الطريق على كل من تسول له نفسه اتباع رسول الله ﷺ أو حتى نصرته، وهم بمكرهم هذا قد قدّروا أنه لن ينصر رسول الله ﷺ من لم يؤمن به من عشيرته، غير أن أبا طالب قد فوت عليهم الفُرصة وقطع عليهم كيدهم، فقد انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب في نصرته لرسول الله ﷺ مسلمهم إيمانا ويقينا، وكافرهم حمية وتعصبا

ولم يخرج من بني هاشم سوى أبي لهب الذي اتخذ من ماله وسيلة لتفعيل هذا الاتفاق الغاشم، فكان الصحابة إذا قدمت عير مكة يأتي أحدهم السوق؛ ليشتري شيئا من الطعام قوتا لعياله، فيقوم أبو لهب فيقول" يا معشر التُجار غالوا على أصحاب محمد حتى لا يُدركوا معكم شيئا وقد علمتم مالي ووفاء زمتي فأنا ضامن لا خسار عليكم " فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافا حتى يرجع أحدهم على أطفاله وهم يتضاغون من الجوع، وليس في يده شيء يُطعمهم به .

هكذا تم الاتفاق على المقاطعة الشاملة للمسلمين، والحق أنهم سدوا كل المداخل التي قد تُخل بتطبيق هذا الاتفاق، وراعوا كل الجوانب التي قد تُفسد عليهم خطتهم وتودي بحصارهم إلى الفشل، فمن الناحية الاجتماعية أقروا بعدم التناكح، لا ينكحوهم ولا ينكحوا منهم، لما في الزواج من مصاهرة وتأليف ورحمة وتواصل بين الأصهار، الأمر الذي يودي بالحصار إلى الفشل .

أما من الناحية الاقتصادية فكانت أشدها على الإطلاق، فقد ضربوا عليهم حصارا اقتصاديا شاملا، لا يبيعوهم، ولا يبتاعوا منهم، يغالوا عليهم في الأسواق؛ ليعجزوهم عن الشراء، لم يتركوا طعاما ولا بيعا إلا ابتدروا إليه واشتروه، وبذا أفقدوهم كل مسببات الحياة ولوازم العيش من طعام وشراب؛ ليكون الرضوخ والاستسلام هو الخيار الوحيد أمام المُحاصرين .

أما من الناحية الإنسانية فاتفقوا على ألا يُجالسوهم، ولا يحادثوهم، الأمر الذي يجعلهم في عزلة كاملة عن المجتمع الذي يعيشون فيه، واتفقوا على ألا يزاوروهم في بيوتهم منعا لتدخل العاطفة والرحمة في تنفيذ الحصار، فهم رغم كل شيء من بني عمومتهم، وقطعا ستتحرك مشاعر الرحمة في القلوب إذا نظروا إلى أقاربهم وأبنائهم وقد افتقدوا كل مسببات الحياة، وبدا شبح الموت على وجوههم، لا لشيء سوى لأنهم اعتنقوا دينا غير دينهم .

أما من الناحية السياسية فقد اتفقوا على ألا يقبلوا أي تفاوض معهم، ولا يقدموا أي تنازل لهم إلا بتسليم رسول الله ﷺ لهم، وقطعوا أي اتصال بينهم وبين أي قبيلة أخرى في مكة أو في خارجها.

بل إنهم فاقوا كل ذلك، واتفقوا على تنكر حتى تعبيرات الوجه معهم، فاتفقوا على ألا تأخذهم بهم رأفة ولا شفقة وقطعا تبدو الرحمة أول ما تبدو على تعبيرات الوجه ثم لين الكلام، فحرموهم حتى من نظرات الرحمة التي قد تُهون على قلوبهم بشاعة الجرم المرتكب في حقهم .

لقد أحكم المشركون قبضتهم على المسلمين وفرضوا حصارا لم تشهد البشرية مثله لأنصار رسالة في تاريخها كله، ولو فُرض هذا الحصار بهذه الشدة على جماعة في زماننا هذا لما استطاعوا أن يصبروا شهرا واحدا

أما هؤلاء فقد أحكموا سيطرتهم على شروط اتفاقهم ثلاثة أعوام بهذه الصورة، حتى وجد المسلمون شدة وعناءً لم تسبق ولم تلحق إلا أنهم لم يرضخوا ولم يستسلموا وإنما صبروا واحتسبوا .

كان حال المسلمين في الحصار قد بلغ أشده بإحكام المقاطعة الاقتصادية، فنفذ الماء والطعام، وتعالت أصوات بكاء الأطفال وأنين الشيوخ والمرضى، ولم يجد المسلمون ما يقيمون به أصلابهم إلا ورق الشجر .

قال عُتبة بن غزوان المازني وهو يخطب ذات يوم بالبصرة: لقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ، ما لنا طعام إلا ورق الشجر حتى قرحت أشداقنا، ولقد التقطت يوماً تمرة فشققتها بيني وبين سعد بن أبي وقاص، والتقطت بردة فشققتها بيني وبين سعد بن أبي وقاص فاتزرت ببعضها، واتزر ببعضها! (١)

وقال سعد بن أبي وقاص: لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ بمكة فخرجت من الليل أبول، فإذا أنا أسمع قعقعة شيء تحت بولي، فنظرت فإذا قطعه جلد بعير، فأخذتها فغسلتها، ثم أحرقتها فرضضتها بين حجرين ثم استففتها، فشربت عليها من الماء، فقويت عليها ثلاثاً. (٢)

وقال ابن عباس: حصرنا في الشعب ثلاث سنين، وقطعوا عنا الميرة حتى إن الرجل ليخرج بالنفقة فما يبايع حتى يرجع، فهلك من هلك. (٣)

هكذا كانت أحوال أهل الشعب، كرب وبلاء، شدة وعناء، ورسول الله ﷺ لا يملك لهم إلا التثبيت واليقين بأن وعد الله آت، فلا يتعجلون النصر قبل أن يقدموا أسبابه، فإن التمكين للرسالة لن يتأتى على أيدي رجال لا يتحملون الصعاب ولا يثقون في الوعود ولا يصبرون على البلاء ولا يثبتون عند المحن ولا يقمعون شهوات أنفسهم .

عاش المحاصرون في الشِعب على هذا الحال قرابة الثلاث سنوات يأملون في أن ينتهي حصارهم، وأن يعودوا إلى ديارهم وتجارتهم، فقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، إلا أنهم لم يقنطوا ولم يرضخوا وإنما اعتصموا بالله والتفوا حول رسوله ﷺ في صبر وثبات يبهر العقول .

تُرى بماذا كانت أنفس المحاصرين تُراودهم ؟ من أجل ماذا يتحملون كل هذه الصعاب؟

---

(١)مختصر تاريخ دمشق - (ج ٧ / ص ٣٨٠) وقرحت: أي تجرحت

(٢)السيرة النبوية لابن إسحاق - (ج ١ / ص ٦٧) والقعقعة: حركة الشيء يُسمع له صوت.

(٣) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد - (ج ٢ / ص ٣٧٧) والميرة: الطعام ونحوه مما يُجلب للبيع .

أما المُسلم منهم فما كان يدفعه على الصبر على هذا البلاء العظيم طيلة هذه المدة سوى الإيمان بأن وعد الله آت، وأن الرسول ﷺ صادق، وأن ما هم به هو تزكية للنفس ودرس عملي على الصبر وتربية النفس وتجردها من أي حب لمتع الدنيا وشهواتها، وحقق الحصار هذا الهدف العظيم، فلما أراد الله لهم النصرة وساحوا في بلاد الله فاتحين لم يشغلهم متاع فان ولا مُلك زائل، وإنما شغلهم هدف أسمى هو نشر الدعوة، والتضحية من أجلها بكل غال وثمين فتساوى عندهم موقع الجندي مع موقع القائد، فقدموا أروع الأمثلة لأناس قد تجردوا من كل حب للدنيا وحملوا هم الرسالة وبلغوها حتى جابت مشارق الأرض ومغاربها.

وأما المشرك، فقد كانت عصبيته وكرامة قبيلته أعظم عنده من الزاد ومن التجارة، فتحمل ويلات الحصار حمية لقومه بني هاشم وبني المطلب...

فكانت التقاليد والأعراف التي تحكم البناء الاجتماعي في المجتمع الجاهلي تفرض على أبناء القبيلة الواحدة الترابط والتضامن بأعلى صوره، وبكل أشكاله، وفي كل الظروف، وإن كان المقابل حياته لا تجارته.

إن بني المطلب وبني هاشم قطعا لم يكونوا يُدافعون عن رسالة تتعرض للإجهاض، ولا عن نبي مُرسل مُهدد بالموت، فإنهم لم يؤمنوا به ولم يُصدّقوا نبوته، وإنما وقفوا يدافعون عن كرامتهم وشرف قبيلتهم وعلو نسبهم بين القبائل، وقفوا يُدافعون عن تاريخ أجدادهم ومُستقبل أبنائهم في مجتمع قائم على النزعة القبلية، ويجسد هذا جليا الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، الذي كان شديد العداوة لرسول الله ﷺ، وكان يهجوه بالشعر، ومع ذلك دخل في الشعب معه، فهو يقبل أنّ يعاديه وأن يهجوه، ولا يقبل أن يمسّ أحد كرامته وسيادته، أما أبو طالب فكان كل شأنه عجب، كان إذا نام الناس أمر أحد بنيه أو بني إخوته أن يأتي فراش رسول الله ﷺ فينام عليه، وأمر رسول الله ﷺ أن يأتي بعض فراشهم فينام عليه مخافة أن يصيبه مكروه من مكرهم، فلم يعد الأمر حياة رسول الله ﷺ وأمنه، وإنما فاق هذا بكثير، فقد أصبح دفاعا عن كرامة أعظم بطون قريش، وعن سيادتهم على مكة وأهلها .

ظل هذا الحصار الغاشم قائما لا يُبطله شيء سوى مساعدات ذوي الرحمة من قريش، فكانوا يوقرون البعير زادا ويوجهونه نحو الشعب فيخفف عنهم بعض آلامهم، إلا أنها مُساعدات في الخفاء يرسلونها في جنح الليل لم يقو أصحابها على المجاهرة بها عيانا أمام سادات قريش، الأمر الذي يجعلنا لا نبالغ في شأنها، أو أن نجعلها سببا رئيسيا في تحمل المحاصرين لويلات الحصار طوال هذه المُدة، أو أن يكونوا سببا في نقض هذه المعاهدة، فالمروءة التي تظل في

سبات طيلة الأعوام الثلاث أنى لها أن تفيق من سباتها فجأة؛ لتغير هذه الأوضاع، نعم لقد أحسنوا استغلال الفرصة لما أتتهم لنقض الصحيفة، لكنهم لم يكونوا ليفعلوا إن لم تُتح لهم الفرصة على نحو ما سيأتي .

لما طال أمد الحصار سعى هشام بن عمرو إلى نقض هذه الصحيفة التي ربما أضرت بمصالحهم قبل أن تطعن في مروءتهم، فتوجه إلى زهير بن أبي أمية ـ وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب ـ فقال له يا زهير أرضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء وأخوالك حيث قد علمت لا يُباعون ولا يُبتاع منهم أما إني أحلف أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه ما أجابك؟ وأستحثه على نقض الصحيفة، ثم ذهبا إلى المُطعم بن عديّ، والبُختري بن هشام، وزمعة بن الأسود بن عبد المطلب، وذكروهم بحق القرابة والحمية لبني هاشم فاتفقوا جميعا على أن يقوموا على نقض الصحيفة، وبينما هم على عزمهم إذ سلط الله الأرضة على الصحيفة فمحت ما بها من ظلم وبهتان، فأخبر رسول الله ﷺ عمه بهذا الأمر، فسار أبو طالب إلى سادات قريش وأخبرهم بما أخبره به رسول الله ﷺ ثم قال لهم " فإن يكن صادقا فلتنتهوا عن قطيعتنا وإن يكن كاذبا دفعته إليكم" فرضوا بحكمه وأحضروا الصحيفة، فإذا هي كما أخبر رسول الله ﷺ (١)

فأراد أبو جهل أن يصرف الناس عما أراد أبو طالب من بطلان القطيعة، فقام إليه هشام بن عمرو وجمعه الذي أعده لهذا الأمر، وأقروا ببطلان العمل بهذه الصحيفة، فمُزّقت الصحيفة وبطل العمل بها، وخرج المُسلمون من الشِعب وقد بدت على وجوههم علامات النصر المستمد من الصبر على البلاء الذي أصابهم، وإن تغيرت وجوههم من شدته إلا أن قلوبهم قد ازدادت نقاءً، فخرجوا يحملون هم الرسالة، وهم تبليغها بعدما هذبتهم المحن التي تعرضوا لها وعلموا أن أمر الرسالة كائن، ولن توقفه شرذمة تعاديه وتتآمر عليه .

أما رسول الله ﷺ فما كاد يخرج من محنته هذه حتى تعرض لمحنة هي أشد منها قد أصابت حياته الخاصة، فمنذ أن اصطفاه الله للرسالة وطيلة الأعوام العشر التي مضت، لم يهنأ رسول الله ﷺ بما يأمل في حياته العامة من إجابة قومه لدعوته، ولا في حياته الخاصة، فقد أشقى بالذود عنه أقاربه، ولم يلبث رسول الله ﷺ أن يهنأ بنهاية الحصار الذي فُرض عليه وعلى أتباعه وعشيرته بسبب دعوته، حتى تعرض لمحنتين لا تقل احداهما فداحة عن الأخرى أما الأولى فقد مات عمه أبو طالب، وأما الثانية فقد ماتت زوجته خديجة بنت خويلد.

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي - (ج ٢ / ص ١٩١) والأرضة: دُويبة بيضاء تشبه النملة تأكل الخشب ونحوه

١- **التربية على الصبر والثبات:** أما الصبر فهو خُلق الأنبياء والمرسلين، وسمة الأتقياء والصالحين، يشتمل على أكثر مكارم الأخلاق، فالعفو والحلم صبر عن دواعي البطش والانتقام، والتريث صبر عن دواعي العجلة، والجود صبر عن دواعي الإمساك، والشجاعة صبر عن دواعي الفرار، وقلما تجد خلقا إلا وللصبر له منه حظ ونصيب.

وأما الثبات فهو الاستقامة على الهدي ضد نوازع النفس وميول الهوى، وهو دليل على سلامة المنهج وصدق الاجتهاد، وهو الضريبة التي يقدمها أصحاب الرسالات بغية نيل أهدافهم، وهو الوسيلة لبلوغ هذه الأهداف وإدراك تلك الآمال، وهذه الأخلاق لا تتأتى إلا بالمران عليها وتربية النفس على التحلي بها وبلوغ أقصى درجاتها، فكان من منة الله وفضله أن يجعل لعباده من الابتلاءات ما يكسبهم بها هذه الأخلاق فتصير صفة فيهم تجمّلهم وتخدم دعوتهم .

لقد كان حصار الشعب درسا عمليا للتربية على الصبر والثبات في المقام الأول، فإن من يحملون همَّ هذه الرسالة وهمَّ تبليغها لا يمكن أن تقبل منهم هفوات العامة، ودناءة أنفسهم، وميلهم إلى هوى النفس وشهواتها، فالداعية الذي يحمل هم قضية أكبر من أن تحركه عواطف جياشة أو انفعالات عابرة أو أهواء دنيئة، وليس بأمثال هؤلاء تُقام الحضارات، وتُبنى المجتمعات، وترتقي الشعوب، إن النصر والتمكين لا يمكن أن يتأتى على أيدي رجال لا يهذبون أنفسهم، ولا يتحكمون في شهواتهم ورغباتهم وانفعالاتهم، ولا يحكمون عقولهم في تقدير المواقف وإبصار العواقب ولا يصبرون على البلاء، ولا يثبتون عند المحن .

لقد مرت السنون وغدا الحصار ذكرى وتاريخا، إلا أن قيمته وعطاءه كان كامنًا في نفوس الصحابة، يُعلمّونه من جاء بعدهم، تراه جليا في رحلة الفتوحات ومشوار الدعوة خارج جزيرة العرب، ترى رجالا تجردوا من كل حب للدنيا، وأخلصوا في حمل الأمانة وتبليغ الرسالة، فكُتب لهم العز، وجاء على أيديهم النصر، وقامت بهم أعرق حضارة شهدتها البشرية .

٢- **التربية على السمع والطاعة والالتفاف حول رسول الله ﷺ :** إن الأمة التي تحيا بلا منهج لا يمكن أن تُقيم بناء شامخا، فهي كإنسان بلا عقل ينظم أموره ويرشده إلى ما فيه صلاحه وفلاحه، والأمة التي لا تلتف حول قائد لا يمكن أن تُحقق التماسك بين أفرادها، وتجمع أمرهم، وتوحد صفهم

وتنبذ فيهم الفرقة ودعوات التعصب، وكل حضارة قد شهدتها البشرية لم تجمع بين الأمرين قط ، فإمبراطورية الروم أو الفرس - كمثال - كانت قائمة على وحدة القائد، لكنها لم تعرف وحدة المنهج والعقيدة، لذا تهاوى بنيانيهما سريعا في أعوام قلائل، ولم يقو على مواجهة جنود الإسلام، وهذا الخلل أكمله الإسلام فجاء بالأمرين، ففي الإسلام منهج حياة، وفي الرسول ﷺ القائد الأسوة وفي سيرته الترجمة العملية لهذا المنهج، فمتى اجتمع الأمرين تحقق النصر لهذه الأمة .

لقد كان من أكبر نتائج هذا الحصار أن التف الصحابة حول رسول الله ﷺ، فلا يقطعون أمرا إلا بإذنه، ولا يقدمون على شيء إلا برأيه، تنفيذا للسياسة الدعوية التي سلكها النبي ﷺ في هذه المرحلة والقائمة على تجنب الصدام قدر المستطاع، خشية أن يشتعل فتيل حرب أهلية بين القبائل يكون المسلمون ضحيتها، لذا كانت أوامره ﷺ لأصحابه مُحددة بالصبر على الأذى، وتحمل الصعاب طيلة فترة الحصار، وهم ما كان يعجزهم أن يغتالوا أبا جهل أو غيره، وما كان يعجزهم أن يسلوا سيوفهم ويقوموا على أهل مكة حصدا بالسيوف، فإن ماتوا ماتوا شُرفاء، وإن بقوا بقوا أعزة، إلا أن الأمم لا تُبنى هكذا، ولا يُربى القادة هكذا، وإنما بالصبر والتأني والثبات والتضحية وضبط النفس والتحكم في الأعصاب وتجنب الانفعالات الزائدة والقرارات المُفاجئة التي تهدم أكثر ما تبني .

٣- هَمُّ الرسالة همٌ أبدي لا يتعطل تحت أي ظرف: إن مُستجدات الأحداث مهما عظمت لا يجب أن تصرف أصحاب الدعوة عن قضيتهم الأساسية ورسالتهم التي من أجلها ذاقوا ألوان العذاب.

لقد حوصر رسول الله ﷺ وأصحابه في الشعب، إلا أنهم يوما لم يتوانوا في الدعوة إلى الله ورسوله، فُرادى وجماعات، ليلا ونهارا، سرا وعلانية، فالتعذيب والاضطهاد لا يقتل دعوات ولا يثني عزائم أنصارها ولا يقتل روح العطاء فيهم، وإنما يزيدهم ثباتا ويقينا بصدق دعوتهم، ويزيد دعوتهم عمقا وانتشارا .

كان الصحابة إذا جاء موسم الحج خرجوا يستقبلون الحجاج، يعرضون عليهم تعاليم رسالتهم، ومبادئ دينهم يُظهرون لهم بطش قريش وظلمها، يصححون الصورة السيئة التي رسمها الإعلام التضليلي لقريش وأنصارها، فهكذا كان هَمّ الصحابة وهُم في أشد كرب وأصعب حال، فهَمّ الرسالة هَمّ أبدي لا تُعطله الأحداث الطارئة ولا المستجدات العارضة .

إن الدعوة التي لا تجد من يؤمن بها ويدافع عنها لا يمكن أن تبقى وتستمر، فحق لنا أن نعي هذه الحقائق التي لا تتبدل ولا تتغير، فما انتشرت دعوة ولا قامت أمة إلا وقد بُذلت من أجلها جهود مضنية، وأزهقت في سبيلها أنفس طاهرة زكية، وأنفقت من أجلها الأموال، وكل هذا العطاء بعد أن آمن أنصارها بسموها عما يماثلها، وهذا الإيمان هو المحرك الأساسي الذي يجعل أنصارها يتفانون في الدفاع عنها، فيا ليت المسلمين يدركون هذه الحقائق بعد أن طالعنا هذا الزمان بدعوات شتى وأفكار مستحدثة، ونجح الإعلام التضليلي في تزييف حقائق الرسالة ووصم أهلها بالتخلف والرجعية وإلصاق أبشع الجرائم وأحط الأخلاق لأنصارها، ولم تجد الرسالة من ينتصف لها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٤ـ حُسن التعامل مع الواقع لما فيه من نفع للجماعة المُسلمة: إن الإسلام لا يُصادر كل غريب عنه ويقف منه موقفا عدائيا، وإنما يقبل كل ما تبين نفعه للجماعة المسلمة ويأخذ منه ما لا يتعارض وتعاليمه ومبادئه، ففي هذا الحصار الغاشم لم يجد رسول الله ﷺ حرجا في مُساندة قومه وعشيرته له ولأصحابه، حمية وتعصبا، وهم لا يؤمنون به ولا يصدقونه، فالمرونة في التعامل مع الواقع المحيط والاستفادة من كل الإمكانات المُتاحة فيه لخدمة الرسالة وأنصارها مطلب قوي، شريطة ألا يكون المُقابل بتر تعاليم الرسالة، أو النيل من ثوابتها، أو التراجع عن أفكارها وآرائها .

إن الانعزال عن العالم ومهاجمة مفاسده عيانا ليس مطلبا شرعيا، لما فيه من تأجيج روح العداء للدعوة ونفور الناس عنها، فلكل زمان متطلباته الدعوية، فما كان جائزا أيام مجد الإسلام وأهله ليس بجائز الآن ونحن نعيش تخلفا ملحوظا عن ركب التقدم العالمي، ففهم الواقع المحيط وحسن التعامل معه شرط أساسي لنجاح الدعوة وتثبيت خطاها

٥ـ شدة أسلوب الحصار في قمع الدعوة : إن هذا الأسلوب الغاشم جدير بأن يُقوّض أي دعوة، وأن يُحطم أي جماعة، وأن يئد أي فكرة تسعى لتجسيد رسالة الإسلام في واقع الحياة، إن لم تُعد له العدة، وتتهيأ له الأنفس ويُدرب عليه الرجال، فإن كان أسلوب التصفية الجسدية وأسلوب الاغتيال ينال من القادة والمفكرين وأصحاب الهمم العالية في بناء مجتمعاهم، فإن أسلوب الحصار ينال من كل أفراد المُجتمع كبيرهم وصغيرهم، صحيحهم وسقيمهم بل إنه يتجاوز ذلك؛ لينال من كل من يتعاطف معهم ويحاول الدفاع عنهم .

٦- **انتشار الإسلام وقوة صوت الدعوة كابوس يُهدد الكفار** : إن الرسالة التي جاءت لتخاطب العقل بالحجة والدليل جديرة بأن تهزم كل خصومها وتُقيم عليهم الحجة وتثبت بطلانهم، وهذا ما فعلته رسالة الإسلام مع العرب الوثنيين، فلما عجزوا عن رد الحجة بالحجة، وقمع الدعوة بأفكارهم ومعتقداتهم، لجأوا إلى أساليب همجية تهدف إلى النيل من أنصارها والبطش بهم، ظنا منهم أنهم سيقوضون دعوتهم ويحاصرون معتقداتهم ويظهرون باطلهم عليهم، وهذا وهم بين، فالتاريخ كله حجج وبراهين على أن الدائرة دائما لأنصار الحق وإن تأخرت [وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ] (١)

٧- **التكاتف على الحق وأهله**: أخلاق ذميمة تلك التي يتحلى بها أنصار الباطل، فإنهم يدعون إلى الوحدة والتكاتف لا لإقامة العدل ونشره، ولا للدعوة إلى نصرة المظلوم وإنصافه، ولا لنشر روح الأخوة والدعوة إلى مكارم الأخلاق، وإنما لمحاربة كل هذا، يتكاتفون لمحاربة الأخلاق الفاضلة والقيم النبيلة والعقائد السوية، يتكاتفون لمحاربة الدعوة إلى السلام والأمن ونشر الطمأنينة.
لقد تكاتف أنصار الباطل على النيل من رسول الله ﷺ وأنصاره ومَن نصرهم وهو على مثل دينهم، فالكفر ملة واحدة وأفكاره واحده وأساليبه دائما متجددة ومكره للإسلام والمسلمين لن ينقطع .

٨- **الإعراض عن الحق بعدما تبين**: قال تعالى [وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ](٢) وهكذا أصحاب الهوى وأنصار الضلالة وأئمة الفساد، مهما تأتهم من آية يعرضوا عنها ويجحدوا بها، ألم تأت فرعون الآيات البينات على يد موسى عليه السلام، فلم تزده إلا عنادا ومكابرة، وهؤلاء القرشيون ألم تأتهم الآيات تلو الآيات تدل على صدق رسول الله ﷺ وصدق ما جاء به، ألم ينتهي حصارهم الغاشم بمعجزة بينة راوها بأم أعينهم، فما زادهم كل هذا إلا طغيانا كبيرا وإعراضا وتكذيبا .

٩- **التضليل الإعلامي يقلب الحق باطلا**: إن أي دعوة لا تملك الوسيلة الإعلامية التي تدافع عنها وتنشر مبادئها وترد عنها اتهامات أهل الباطل وافتراءاتهم، لا يمكن أن تقوى على المواجهة في وجه الطغيان وأنصاره، لقد استطاع العرب الجاهليون أن ينسجوا خيوط إعلامهم وفق أهوائهم وميولهم، ويظهروا أمام العرب جميعا أنهم المدافعون عن الآلهة أمام هؤلاء الصبأة

---

(١) {الصافات:١٧٣}   (٢) {القمر:٢}

الخارجين عن دينهم، ولما كان فيهم السيادة والوجاهة، ولما كان فيهم الشعراء والخطباء ولما كان فيهم المال والسلطة، استطاعوا أن يقلبوا الحق باطلا وأن يجعلوا الباطل حق، أن ينشروا تضليلهم في كل الأرجاء، ويبثوا الشكوك في قلوب المؤمنين، ومن في طريقه للإسلام، لكن الصحابة لم يستسلموا لزيفهم وباطلهم وتصدوا لهم بكل وسيلة تمكنوا منها، فما أن أهلّ الموسم وقدم الناس على مكة من كل مكان حتى خرجوا ليعرضوا قضيتهم ويصححوا صورتهم ويوبخوا أفعال سادة بلدتهم، خرجوا ليكشفوا ظلمهم وكذبهم فاكتسبوا تعاطف الكثير وحققوا الدعاية المطلوبة لهذا الدين .

١٠- الاستفادة من الأوضاع الاجتماعية التي نعاصرها: فقد استفاد النبي ﷺ من جاه عمه ومن نصرته، ولم يقل إنه كافرٌ ولا أستعين به ولا ألجأ إليه، لأن الأوضاع تختلف من زمن إلى زمن، والإنسان يقدّم أعظم المصلحتين ويدرأ أعظم المفسدتين، والمقصود الأعظم نصرة الدين، وقد قبل ﷺ أن يكون مع عمه في شعبٍ واحدٍ وهو كافرٌ يسجد لغير الله .

((عــــام الحُــزن........عام الفـــرج))

عام الحُزن، هكذا اعتاد كُتاب السير أن يسموه لما فيه من حوادث مُفجعة ومحن متتالية وصورة قاتمة لمُستقبل الدعوة، وفاة أبو طالب ذاك السند الخارجي والقوة المانعة التي وفرت لرسول الله ﷺ المساحة التي يتحرك فيها بين قومه لدعوة الناس وإبلاغ دعوة الله عز وجل، ثم وفاة خديجة السند الداخلي والملاذ الآمن والصدر الحنون الذي يحنو عليه ويشاركه همه ومحنه، مصدر الراحة والطمأنينة، النسمة المباركة التي تهفو عليه كلما اشتدت الصعاب وازدادت المحن، ثم إخفاق تجربة الطائف وأُغلِق أقرب منفذ يمكن أن تتوجه إليه الدعوة وتنطلق منه، هكذا كان هذا العام، لذا أسموه عام الحُزن، وأي حُزن بعد كل هذا، ابتلاء في حياته العامة بإعراض قومه وبطشهم ونيلهم منه وممن آمن به، ابتلاء في حياته الخاصة بوفاة سنده الداخلي وقوته الخارجية، ابتلاء في المجتمع الذي يعيش فيه كله بصدهم وإعراضهم عن تأييده ونصرته، لقد ضاقت مكة بالدعوة، وأعرضت عنها الطائف، وأخذت بعض قبائل العرب تساوم عليها، فهل وقف رسول الله ﷺ مكتوف الأيدي ؟

وهل يعتقد أهل الكفر أنهم كسبوا الحرب وتحققت أهدافهم ؟

وهل يقنط المسلمون من نصر الله وتأييده ؟

تساؤلات عدة تطرحها الصورة القاتمة التي بدا عليها حال الدعوة، وهواجس في النفس من المصير الذي ستؤول إليه، إلا أن كل هذه المحن والابتلاءات كانت البداية الحقيقة لقرب انتصار رسول الله ﷺ ودعوته، والبداية الحقيقة لفتح أبواب أكبر وآفاق أوسع أمام هذه الدعوة وأمام أنصارها، والبداية الحقيقة لطور جديد في عمر الرسالة وأسلوب الدعوة .

إن هذا العام يكاد يكون منتصف عمر رسالة التوحيد، فانظر إلى شكل الحياة قبله وشكل الحياة بعده، واستعرض تلك السنوات العشر التي مضت والسنوات العشر التي تلته، إنها صورة متباينة تباين الليل والنهار! من ذل واستضعاف وتعذيب وإهانة، إلى نصر وتمكين وعز ودولة للإسلام تجمع أمره، فما الذي حدث ؟

إن سُنّة الله في الكون ألا يجمع الشدائد والمحن على عبد حتى يأتيه الفرج تباعا وسنة الله في الكون ألا يجمع على عبد مؤمن عسرين أبدا، قال تعالى [فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا* إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا] قال الفاروق عمر" إِنَّهُ مَهْمَا يَنْزِلْ بِعَبْدٍ مُؤْمِنٍ مِنْ مُنْزَلِ شِدَّةٍ يَجْعَلِ اللَّهُ بَعْدَهُ فَرَجًا وَإِنَّهُ لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ ... " (١)

وسُنّة الله في الكون أن يبتلي قبل أن يُمكن.

وسُنّة الله في الكون أن العاقبة تكون لله ولرسوله وللمؤمنين .

وسُنّة الله في الكون دوام المدافعة بين الحق والباطل .

وسُنّة الله في الكون ألا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا .

إن بشائر النصر كانت تفوح بها هذه المحن المتتالية، كما كانت إيذانا ببدء مرحلة جديدة في حياة هذه الدعوة، وطي صفحة من صفحات حياتها كانت مليئة بالجروح والآلام.

إن أحداث هذا العام أتت تباعا، محن متتالية ومنح متتالية، بدأت بوفاة خديجة وختمت برحلة الإسراء والمعراج، ولعلنا نقف مع كل حدث فيها على حدة، نتأمل أسبابه ونتائجه، نقف عند آثاره وفوائده، نستلهم منه العبر والعظات ونحاول أن نستفيد منه في واقع حياتنا، نخترق حاجز الزمان والمكان، ونتصل مع رسول الله ﷺ بالمشاعر والوجدان، نقتطف قبسات من واحة نبوته، ونتعايش مع أخلاقه وإنسانيته، نزداد فيه حبا، وللقائه شوقا، ولسنته تمسكا، ولهدية تجديدا واتباعا .

---

(١) الموطا ٩٦٧ والآيات من سورة {الشرح ٥/٦}

وفاة خديجة رضي الله عنها

كانت خديجة من نعم الله الجليلة على رسول الله ﷺ، عاشت معه ربع قرن من الزمان، تحن عليه ساعة قلقه، ترفق به وتهون عليه في محنه وشدائده، تؤازره في أحرج أوقاته، تعينه على إبلاغ رسالته، تشاركه في مغارم الجهاد المر ومشقة الدعوة والتبليغ، تحملت عداء الأقارب والأرحام وفساد التجارة وخسارة الأموال، صبرت على عناء الحصار وشدته وهي المرأة المُسنة، واست رسول الله ﷺ بنفسها قبل مالها ورأيها، فكانت من أجلّ نعم الله تعالى على رسوله ﷺ.

لقد فارقت خديجة الحياة وتركت في قلب رسول الله ﷺ وجدا عليها وحزنا على فراقها، ربما لم يعوضه شيء، لذا ظل رسول الله ﷺ واصلا لها باقيا على ذكراها، بارا بأصدقائها وأقاربها، لا يمل الحديث عنها والاستغفار لها، وإظهار فضلها ومحبته لها، فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا ذَكَرَ خَدِيجَةَ أَثْنَى عَلَيْهَا فَأَحْسَنَ الثَّنَاءَ - قَالَتْ - فَغِرْتُ يَوْماً فَقُلْتُ مَا أَكْثَرَ مَا تَذْكُرُهَا حَمْرَاءَ الشِّدْقِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا خَيْراً مِنْهَا.

قَالَ ﷺ « مَا أَبْدَلَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْراً مِنْهَا، قَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ وَرَزَقَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلاَدَ النِّسَاءِ » (١)

فكان من وفاء عهده ﷺ بها أنه كان يصل أقاربها وأصدقائها بعد وفاتها، فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: مَا غِرْتُ عَلَى نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ إِلاَّ عَلَى خَدِيجَةَ وَإِنِّي لَمْ أُدْرِكْهَا، قَالَتْ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا ذَبَحَ الشَّاةَ فَيَقُولُ ﷺ « أَرْسِلُوا بِهَا إِلَى أَصْدِقَاءِ خَدِيجَةَ » قَالَتْ فَأَغْضَبْتُهُ يَوْمًا فَقُلْتُ خَدِيجَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « إِنِّي قَدْ رُزِقْتُ حُبَّهَا » (٢) وقالت عائشة " اسْتَأْذَنَتْ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ أُخْتُ خَدِيجَةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيجَةَ فَارْتَاعَ لِذَلِكَ ، فَقَالَ « اللَّهُمَّ هَالَة » (٣) قال الإمام النووي " في هذه الأحاديث دلالة لحسن العهد وحفظ الود ورعاية حرمة الصاحب والمعاشر حيا وميتا وإكرام معارف ذلك " (٤)

---

(١)مسند أحمد٢٥٦٠٦ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٥٢٨١ (رواه أحمد واسناده حسن بإسناد حسن) وحمراء الشدق: أي سقطت أسنانها وبقيت حمرة اللثاث وكانت وفاتها في شهر رمضان في السنة العاشرة من النبوة، ولها خمس وستون سنة، وقال ابن كثير في السيرة (ج ٢ / ص ١٣٦)تفرد به أحمد وإسناده لا باس به ولعل قوله " ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء " كان قبل أن يولد إبراهيم بن النبي ﷺ من مارية، وقبل مقدمها بالكلية

(٢) مسلم٦٤٣١ (٣)البخاري ٣٨٢١ (٤)فتح الباري - ابن حجر - (ج ٧ / ص ١٣٧)

أي أخلاق هذه التي كان يتحلي بها رسول الله ﷺ، إن على كل مُسلم أن يقف متأملا أمام هذا الكم الهائل من النصوص التي تسمو بأخلاق الفرد والأسرة؛ لتبلغ أسمى درجاتها، تجعل الترابط بين أفرادها ميثاقه البر والوفاء والرحمة والعُرفان بالجميل، إنها المثالية المُطلقة في حياة البشرية كلها، فأي زوج هذا الذي يبقى على ود زوجة قد واراها التراب أمام زوجة شابة يُكِنّ لها كل حب، ولم يتزوج بكرا غيرها!

إنها المقاييس المثالية التي لم تألفها البشرية في العُرفان بالجميل وإثبات الفضل لأهله، سواء أكانوا أحياء أم ماتوا، سواء أغار أقرب الناس إلى قلوبنا أم لم يغاروا .

إن لهذه الأخلاق الرفيعة شان عظيم في تاليف النفوس وجمع الجماعة المسلمة على قلب واحد، وإلا فما قيمة أي جماعة تغلب عليهم روح الجحود وتتملكهم نزعات الغيرة والأنانية؟

إن الإسلام جاء ليسمو بعواطف البشر ويوجهها إلى ما فيه نفعهم وتآلفهم، وشكران النعمة للمنعم، فقد كان أقوام ممن كانوا قبلنا يجحدون نعم الخلق وينكرون الفضل على أهل الفضل، فتمادوا في الجحود حتى جحدوا نعم الخالق عز وجل وأخلدوا إلى الأرض، واتبعوا هواهم، وغرتهم أموالهم وأهلوهم، فكفروا بنعمة ربهم، قال تعالى [يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ}(١)

وفاة أبي طالب

أبو طالب رجل أمره عجب العجاب، دفعته الحمية إلى أعمال لو أنها من رجل مُسلم لعجزت الألسن عن الثناء عليه، اسمه عبد مناف بن عبد المطلب، شقيق عبد الله والد رسول الله ﷺ، كفل رسول الله ﷺ بعد وفاة عبد المطلب وظل في كنفه حتى كبُر، لما بُعث رسول الله ﷺ ونزلت عليه الآيات آمرة إياه بالتبليغ عن رب العالمين وقف أبو طالب يشد عضد ابن أخيه، يذبُ عنه ويردّ عنه كل من يؤذيه، سخر مكانته بين قومه في الدفاع عن رسول الله ﷺ رغم بقائه على دين قومه .

كان بقاؤه على دين قومه الخيط الذي حفظ مكانته بين قومه، فما استطاعوا أن يُفاجئوه بشيء في حق رسول الله ﷺ فربما لو أسلم لهان أمره عليهم

---

(١)(النحل٨٣)

ولوجد من سفاهات قومه ما وجد المسلمون من سادات قريش، إلا أن هذا لا يشفع له إعراضه عن الإسلام، فقد واتته الفرصة في اللحظات الأخيرة من حياته أن يختمها بالإسلام، لكنه مات على شركه، فلو أن الإيمان بالراي والهوى، لكان أبو طالب أول من يُسلم ويُصدق، ولو علم الله في قلبه خيرا لرزقه لشهادة وهو على فراش الموت، فكم من سادات الكفر الذين حاربوا الإسلام مرارا أسلموا وحسن إسلامهم .

كانت نصرته لرسول الله ﷺ عُنوانها الحمية والعصبية غير مدفوع بعقيدة أو مكترث بتوابع إنصافه لرسول الله ﷺ ، فقد تحمل من أجله الويلات والصعاب، من فساد للتجارة إلى معاداة قومه وبني عمومته إلى آلام الحصار في الشعب وهو الشيخ المُشرف على عامه التسعين .

خرج أبو طالب من الشعب يتلفظ بآخر أنفاسه في الحياة، وما هي إلا أيام ومرض أبو طالب مرض الموت، فرأى سادات قريش أن يضعوا حدا لموقفهم من رسول الله ﷺ قبل موته خشية أن تنالهم سبة من أقوامهم إن هم نالوا من رسول الله ﷺ بعد موته، فرسول الله ﷺ قد تجاوز الخمسين من عمره، وله فيهم طيب نسب وعظيم مكانة وهم يُقرون بذلك رغم كفرهم بنبوته .

عزم جمع من سادات قريش على وضع حد للعداء مع رسول الله ﷺ وتحكيم أبي طالب في الأمر، فتوجهوا إليه راغبين أن يكف رسول الله ﷺ عن سب آلهتهم والنيل من معتقداتهم ويكفوا هم عن إيذائه والبطش بأتباعه، في مُساومة جديدة للتنازل عن ثوابت العقيدة

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا مَرِضَ أَبُو طَالِبٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَهْطٌ مِنْ قُرَيْشٍ مِنْهُمْ أَبُو جَهْلٍ فَقَالُوا: يَا أَبَا طَالِبٍ ابْنُ أَخِيكَ يَشْتِمُ آلِهَتَنَا يَقُولُ وَيَقُولُ وَيَفْعَلُ وَيَفْعَلُ فَأَرْسِلْ إِلَيْهِ فَانْهَهُ. قَالَ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ أَبُو طَالِبٍ وَكَانَ قُرْبَ أَبِي طَالِبٍ مَوْضِعُ رَجُلٍ فَخَشِيَ إِنْ دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى عَمِّهِ أَنْ يَكُونَ أَرَقَّ لَهُ عَلَيْهِ فَوَثَبَ فَجَلَسَ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ. فَلَمَّا دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ لَمْ يَجِدْ مَجْلِساً إِلاَّ عِنْدَ الْبَابِ، فَجَلَسَ، فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: يَا ابْنَ أَخِي مَا تُرِيدُ مِنْ قَوْمِكَ ؟ قَالَ ﷺ « إِنِّي أُرِيدُ مِنْهُمْ كَلِمَةً وَاحِدَةً تَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ وَتُؤَدِّي إِلَيْهِمُ الْعَجَمُ الْجِزْيَةَ » قَالَ كَلِمَةً وَاحِدَةً! قَالَ « كَلِمَةً وَاحِدَةً » قَالَ « يَا عَمِّ قُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ » فَقَالُوا وَهُمْ يَنْفُضُونَ ثِيَابَهُمْ وَهُمْ يَقُولُونَ (أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) قَالَ فَنَزَلَ فِيهِمُ الْقُرْآنُ (ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ) إِلَى قَوْلِهِ (مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاَقٌ) (١)

---

(١)سنن الترمذي ٣٥٣٩وقال هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ ومسند أحمد ٣٨٤١ والسياق مركب من الروايتين

إن المرء في مرضه يشعر بالضعف والعجز، فلما أيقن أبو طالب أنه الموت ألآن الحديث مع سادة قريش، فلم يعد لدية القدرة والطاقة التي يواجههم بها، إلا أن رسول الله ﷺ لا يساوم على رسالته ودعوته، لا يعنيه كثيرا نصرة عمه له أو تخاذله عنه، لا يعنيه مواجهة قريش بعمه أو بدونه، فإن قضية الرسالة أكبر من أمر أبي طالب، وأكبر من سادة قريش جميعا ومكة ومن حالفها، وأكبر من الجزيرة بكل شركها وضلالها.

إن هؤلاء وغيرهم مجرد مرحلة وقتية في عمر الرسالة سرعان ما ستزول وتنتهي، وتنطلق هذه الرسالة إلى العالم أجمع، إلى ملك كسرى وقيصر تخضعهم لشرع الله وحكمه

فأين قريش وسادتها وسط هذه الآمال والطموحات، لذا ساقها إليهم رسول الله ﷺ ثانية، تلك البشارة بملك الدنيا ونعيم الآخرة، تلك البشارة بسيادة العرب والعجم، تلك البشارة برضا الله ورسوله ﷺ إن هم آمنوا به وصدقوه، لكنهم اعتادوا الخسارة وألفوا الضلال والعناد، فخسروا آخر هدية عرضها عليهم رسول الله ﷺ « إِنِّي أُرِيدُ مِنْهُمْ كَلِمَةً وَاحِدَةً تَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ وَتُؤَدِّي إِلَيْهِمُ الْعَجَمُ الْجِزْيَةَ » قَالَ كَلِمَةً وَاحِدَةً! قَالَ « كَلِمَةً وَاحِدَةً » كلمة التوحيد هي جل ما يريده رسول الله ﷺ منهم « يَا عَمِّ قُولُوا لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ »

إنها الجاهلية في القلوب العمياء والعقول الخاوية، إنها الجاهلية التي تصمّ الآذان وتعمي القلوب والأبصار، إن أمثال هؤلاء لا يستحقوا إلا ما حدث لهم يوم بدر، وما ينتظرهم من عذاب في الآخرة، لقد دعاهم رسول الله ﷺ بكل لغة، بكل وسيلة، استخدم معهم كل الأساليب فاعرضوا واستكبروا، فغدوا وكأنهم أجساد جياف بحاجة إلى من يطهّر الأرض منها، بحاجة إلى من ينقذ البشرية من ضلالهم، بحاجة إلى من يخلص الناس من شرورهم وضررهم وظلمهم .

أشرف أبو طالب على الاحتضار ولم يعد له من حظ الدنيا سوى بضع دقائق يودع فيها الحياة، فأقبل إليه رسول الله ﷺ مُسرعا يدعوه إلى الله ورسوله، لم يقنط من إسلامه، يحبوه الأمل في أن يفوز بحظه من الإسلام قبل موته، فقال ﷺ « أَيْ عَمِّ، قُلْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ »

فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِى أُمَيَّةَ يَا أَبَا طَالِبٍ، تَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، فَلَمْ يَزَالاَ يُكَلِّمَانِهِ حَتَّى قَالَ آخِرَ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ « لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ » فَنَزَلَتْ (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)

وَنَزَلَتْ (إِنَّكَ لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

(١) بهذه الكلمات ختم أبو طالب حياته؛ ليموت على غير دين الله ورسوله، هذا الدين الذي ضحى بالكثير من أجله، إلا أنها تضحية الحمية والعصبية التي لا مكان فيها لنصرة دين الله وشرعه، ولما أمر رسول الله ﷺ بألا يستغفر لمن مات من المشركين، وأن الهداية ليست ملكا لأحد يهبها من يشاء ويصرفها عمن يشاء، كف رسول الله ﷺ عن الاستغفار لعمه، ولمن مات على غير الإسلام، إلا أن الله قد أخبره أنه هوّن على عمه العذاب جراء صنيعه مع رسول الله ﷺ، فقد سأل العَبَّاسُ رسول الله ﷺ فقال يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَا أَغْنَيْتَ عَنْ عَمِّكَ فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ؟ قَالَ ﷺ « هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلاَ أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ »(٢)

وقال ﷺ « لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ، يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ، يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغُهُ » (٣)

كان أبو طالب يقول:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا

ويقول كذبتم وبيت الله نبزي محمدا ولما نقاتل حوله ونناضل

وصدق الشيخ في مقولته، فما طالت يد الأذى رسول الله ﷺ حتى مات أبو طالب، فبعد موته تجرأ السُفهاء على رسول الله ﷺ، حتى إن سفيه من سفهاء قريش قد قابل رسول الله ﷺ فنثر التراب على رأسه، وحتى إنهم ليضعون سلى الجزور على ظهره وهو ساجد يُصلي ، فقال ﷺ بعد موته " ما زالت قريش كاعة حتى توفي أبو طالب " (٤) وبموت أبي طالب وبطش قريش برسول الله ﷺ ومن آمن منه أيقن رسول الله ﷺ أن أهله لن ينصروا دعوته ولن يجيبوه إلى ما طلب من نصرته لتبليغ رسالة ربه، فقد صارت مكة وكأنها مُستنقع يبث الشر على كل من يُحاول أن يُطهره، ففكر رسول الله ﷺ في أن يتوجه برسالته إلى خارج مكة، عله أن يجد من ينصره، فقرر رسول الله ﷺ أن يتوجه إلى الطائف حيث قبيلة ثقيف؛ فربما إن لم تجبه تحميه ليبلغ رسالة ربه.

---

(١) البخاري ٣٨٨٤ والآيات من [التوبة١١٣] و [القصص:٥٦]

(٢) البخاري ٣٨٨٣

(٣) البخاري ٣٨٨٥

(٤) مستدرك الحاكم ٤٢٤٣ وقال صحيح على شرط الشيخين. كاعة جمع كائع وهو الجَبَانُ

ولنا مع هذين الحادثين وقفات

١ ـ **الوفاء ورد الجميل:** لقد جسد رسول الله ﷺ الوفاء بالعهد ، رد الجميل في كل صوره، ومع كل من تعامل معه، مسلم كان أو كافر، حي كان أو ميت، فهذه خديجة قد فارقت الحياة، لكن رسول الله ﷺ أبقى على ذكراها، وحفظ حقها، وبيان فضلها والاستئناس بالحديث عنها، ووصل أقاربها وأصدقائها، وكل من يُذكره بها، هكذا حقوق الأموات على الأحياء، لا أن نواريهم التراب، ونقطع أرحامهم، ولا نصل أصدقاءهم .

روى البيهقي عن عائشة قالت: جاءت عجوز إلى النبي ﷺ وهو عندي فقال لها رسول الله ﷺ من أنت؟ قالت: أنا جثامة المزنية . فقال بل أنت حسانة المزنية ، كيف أنتم كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا. قالت بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله فلما خرجت قلت يا رسول الله تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال! فقال إنها كانت تأتينا زمن خديجة وإن حسن العهد من الإيمان (١)

إن حُسن العهد من الإيمان، هذه هي الصورة الحقيقة للإسلام عندما يتجسد في واقع الحياة، عندما يتخلى عن النعرات الجاهلية والتعصبات العمياء، عندما يأخذ كل مسلم من رسول الله ﷺ الأسوة والاقتداء، كلمات حق لكل مسلم أن يُذكر بها نفسه صباح مساء، أين هو من هذه التعاليم السمحة والأخلاق النبوية والقيم السماوية؟ أين هو من منهج رسول الله ﷺ في التعامل مع الصديق والعدو؟ من منهج رسول الله ﷺ في صلة الأرحام، وحفظ الحقوق، والوفاء بالعهد، والرد الجميل للأحياء والأموات على السواء ؟

إننا نهيم في واد بعيدا عن هذه التعاليم، واد أخذنا إلى انحطاط بعد انحطاط، قيم مادية ومشكلات نفسية وتفكك أسري وخلل في التربية، تبعية واتكالية وتأخر وجاهلية في الأفكار والأخلاق، كل هذا لبعدنا عن المنهج الذي يرشدنا ويوجهنا، لغياب القدوة التي نتمسك بها ونجعلها نصب أعيننا .

بل لم يقصر النبي ﷺ حُسن العهد والوفاء على من آمن به وصدقه، وإنما اقره في حق كل من كان له عليه منة أو فضل، فهذا المطعم بن عدي كانت له وقفات إيجابية مع رسول الله ﷺ في مشوار دعوته، فوقف رسول الله ﷺ يوم بدر معلنا عرفانه بالجميل لمطعم بن عدي قائلا لأسارى بدر « لَوْ كَانَ مُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلاَءِ النَّتْنَى لأَطْلَقْتُهُمْ لَهُ »(٢) يعفوا عن أناس قدموا لقتاله واستئصال دعوته وإبادة أنصاره ردا لجميل مشرك

(١)رواه البيهقي حديث ١٨٢ وصحيحه الألباني في السلسلة الصحيحة ٤٢٤/١ حديث٢١٦

(٢) سنن أبي داوود ٢٦٩١ وسنن البيهقي١٣٢١٧ وصححه الألباني في سنن أبي داوود٦١/٣ حديث٢٦٨٩

هكذا هي أخلاق النبي ﷺ وهكذا كان يتعامل مع أعدائه قبل أصحابه .

وهذا أبو طالب الذي هوّن الله عليه العذاب وجعله في ضحضاح من النار رغم كفره، إنما هو عُرفان بالجميل جراء كل ما صنع من أجل رسول الله ﷺ وحمايته له .

٢- استشعار نعمة الهداية: إننا بصدد الحديث عن نموذجين ربما تشابهت أهدافهم في الدنيا لكن قطعا اختلفت منازلهم في الآخرة، خديجة وأبو طالب، جمعهم حب رسول الله ﷺ والذود عنه بكل شيء، إلا أنهما اختلفا في نية العمل، فأما خديجة فآمنت بالله ورسوله وصدّقته ونصرته، وأما أبو طالب فقد نصر رسول الله ﷺ حمية وتعصبا، قال تعالى [إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ] (١)

فالهداية ليست عطاءً يهبه الرسول ﷺ من يشاء، ويحرمه عمن يشاء، وليست مغنما دنيويا تنفق من أجله الأموال وتستخدم لنيله النفوذ ويقهر من أجله السلطان، إنها نعمة ربانية جدير بمن أنعم عليه الله بها أن يعترف بها ويشكر الله عليها، فقد حُرم منها الكثير، وشقي من أجلها الكثير، وخُتم من أجلها بالسوء للكثير.

ها هو أبو طالب عم رسول الله ﷺ قد حُرم الهداية ولذة الإيمان، فكتب عليه الشقاء والخسران، وهو أحق الناس بالهداية والإيمان، لكنه عالم القلوب الذي يطلع عليه علام الغيوب .

إن من أعجب ما ترى وتشاهد في حياة البشر أن تتقلب أحوالهم بين صنوف شتى متفاوتة بين الإيمان والعصيان والهداية والضلال، فعَنْ أَنَسٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ « يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ » فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا ؟قَالَ « نَعَمْ إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ » (٢)

فلا تغرنك نفسك مهما أتيت من الطاعات، ولا تقنط من صلاح عبد مهما اقترف من آثام، ولا تيأسن من دعوة عاصٍ للعودة إلى كنف الإسلام .

٣- أثر صحبة الصالحين والطالحين في تقرير مصير الفرد: صاحب أبو بكر رسول الله ﷺ فاصطبغ بمكارم أخلاقه وصفاته، ولما جاء الوحي آمن به وصدقه، فكان إيمانه نتيجة طبيعية لحُسن اختيار الصديق

---

(١){القصص:٥٦} (٢)مسلم ٦٩٢١وسنن الترمذي ٢٢٩٠ واللفظ له وحسنه وسنن ابن ماجة ٣٩٦٦ومسند أحمد ١٢٤٣٦ وصححه الألباني في سنن ابن ماجة ٣٨٤٣

ثم أسلم على يدي أبي بكر نفر من كبار الصحابة كان أبو بكر صديقا لهم، فكان إسلامهم نتيجة لحسن اختيارهم للصحبة، وها هو أبو طالب قد جاءته فرصة قلما تأتي لفرد في حياته، فقد عاش تسعين عاما على الكفر والضلال، ثم جاءته دعوة رسول الله ﷺ وهو على فراش الموت بأن ينطق كلمة التوحيد، ويشفع له رسول الله ﷺ عند ربه، فبماذا نصحه أصدقاءه؟ وبماذا أفاده جلساءه؟

قَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ يَا أَبَا طَالِبٍ، تَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَلَمْ يَزَالا يُكَلِّمَانِهِ حَتَّى قَالَ آخِرَ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ .

هكذا قاده أصحابه إلى النار، وكم من صديق قاد صاحبه إلى المعاصي بعدما كان في طاعة، وكم من صديق أنقذ صاحبه من النار بعدما كاد أن يسكنها، قال رسول الله ﷺ « الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ » (١)

ولله در القائل :

لا خَيرَ في وُدِّ إمرئٍ مُتَمَلِّـــقٍ ... حُلو اللِسانِ وَقَلبُهُ يَتَلَهَّــــبُ
يَلقاكَ يَحلِفُ أَنَّهُ بِكَ واثِـــــقٌ ... وَإِذا تَوارى عَنكَ فَهوَ العَقــرَبُ
يُعطيكَ مِن طَرَفِ اللِسانِ حَلاوَةً ... وَيَروغُ مِنكَ كَما يَروغُ الثَعلَبُ
وَاِختَر قَرينَكَ وَاِصطَفيهِ تَفاخُـراً ... إِنَّ القَرينَ إِلى المُقارَنِ يُنسَــبُ

٤- الابتلاء بفراق الأحباب: الابتلاء، سُنّة جارية جعلها الله في طريق الأنبياء والصالحين؛ ليرفع الله بها درجاتهم ويجعل من صبرهم أسوة لغيرهم، ومن يتأمل حياة رسول الله ﷺ منذ بدايتها يجدها تموج بين أنواع شتى من الابتلاءات، ابتلاءات في الدنيا وابتلاءات في الدين، فهو الطفل يتيم الأب قبل أن يرى شمس الحياة، ويتيم الأم وهو لا يزال طفلا صغيرا، وهو الأب الذي روای التراب عن جميع أبنائه في حياته إلا فاطمة رضي الله عنها، وهو الزوج الذي افتقد زوجته مصدر قوته ودافعه على الثبات، وهو الرسول الذي جاء بخير الدنيا والآخرة لقومه فاتهموه بالجنون والسفه وآذوه أشد الإيذاء، وهو المُطارد من قومه بعدما فقد عمه سنده الخارجي في وقت هو في أمس الحاجة إليه بعدما غدا حاله مع أعمامه بين عم خذله وكذبه، وآخر قد مات وتركه، وآخر قد تأخر عن الإيمان به ونصرته، فكأن الله يقطع منه الرجاء بالخلق؛ ليكون اعتماده المطلق على الله وحده وهو ناصره ولن يخذله، وأن الدعوة غنية عن حماية الخلق وقد توكل ربهم بنصرها وتمكينها .

---

(١) مسند أحمد ٨٢٤٩ وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢/٩٧٥ حديث ٩٢٧

صور شتى من الابتلاءات صبر عليها النبي ﷺ واحتسب، إلا أنه كما ربى صحابته على الصبر والرضا على البلاء علمهم كيف يميزون بين البلايا، فكل مصيبة لا تصيب دين العبد فهي هينة، وما مصائب الدنيا إلا منح ربانية يمحو الله بها السيئات ويرفع بها الدرجات ويميز بها بين عباده.

قال الفاروق عمر ((والذي نفسي بيده! ما عليَّ على أي حالة أصبحت، إن كان على الفقر لهو الصبر، وإن كان على الغنى لهو الشكر))

وابتلاءات الدنيا يشترك فيها المسلم والكافر والبر والفاجر، أما ابتلاءات الدين فهي خصيصة لأهل الصلاح والتقوى يُبتلون بسبب إيمانهم وتمسكهم بين مساومات وإغراءات، تشويه للسمعة وفتن وتضييق وتشديد، سجن وتشريد وقتل وتعذيب وتلطيخ واجهة الدين وطعن في سلامة منهجهم وصدق أعمالهم، ابتلاءات شتى لأولياء الله ليحتسبوا دعوتهم ويجردوا أعمالهم ويخلصوا منهجهم لله عز وجل؛ وليعلموا أنه لن يكفيهم إلا الله سبحانه [فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ](١) فالدين ليس حديقة يتنزه فيها كل من يشاء، ويتنعم بزهورها ورياحينها كل وافد إليها، وإنما هو سلعة غالية لا يعطيها الله إلا من أحب، فلن تجد يوما منافقا يُبتلى من أجل دينه.

قال رسول الله ﷺ " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لاَ يُحِبُّ وَلاَ يُعْطِي الدِّينَ إِلاَّ لِمَنْ أَحَبَّ فَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ الدِّينَ فَقَدْ أَحَبَّهُ " (٢)

إلى الطائـــف

أيقن رسول الله ﷺ أن مكة لم تعد تلك الأرض التي تقبل نبتة الإسلام، وأن أمر الرسالة آيل إلى غيرها، ولكن إلى أين؟ إن الدعوة التي أخفقت في بلاد الشرك والوثنية أنى لها أن تنجح في بلاد العقائد والشرائع السماوية!

والدعوة التي أخفقت مع ناطقي العربية لغة القرآن المعجز، أنى لها أن تنجح في بلاد غير العرب! لذا استبعد رسول الله ﷺ أن تكون نصرته خارج بطون العرب، فقرر أن يبحث عمن يحتضن رسالته ويؤازره حتى يبلغها بين هذه القبائل المتناثرة في كل بقاع الجزيرة العربية، فذهب وهله إلى الطائف ثاني أكبر مدينة عربية بعد مكة، تسكنها قبيلة ثقيف، مصيف أهل مكة، ولهم فيها تجارات وأملاك، فهي قوة ضاربة للمكيين وتجارتهم، فنصرتها لرسول الله ﷺ بمثابة تهديد لأمن قريش ومصالحها الاقتصادية، مما يجعلها في إحدى خيارين -

(١) (البقرة:١٣٧)

(٢) مسند أحمد ٣٧٤٤ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٧٦٩٧ رواه أحمد ورجاله وثقوا وفي بعضهم خلاف

إذا آمن أهل الطائف برسول الله ﷺ ونصروه ـ إما ان تحارب ثقيف وهذا أمر مستبعد بالنسبة للمكيين، وإما أن تخلي بين رسول الله ﷺ وبين الناس؛ ليبلغ رسالة ربه، وهذا جل ما يأمله رسول الله ﷺ ويسألهم إياه، إلا أن أهل الطائف لم يكونوا أحسن حالا من أهل مكة ، فأعرضوا عن بشائر الخير بعدما طرقت أبوابهم .

حمل رسول الله ﷺ رسالة ربه وتوجه بها نحو الطائف ـ التي تبعد عن مكة قرابة الخمسين ميلا ـ أخذها رسول الله ﷺ سيرا على الأقدم ذهابا وعودة ـ يصحبه زيد بن حارثة ـ فلما وصل إليها عمد إلى ثلاثة من سادتها هم عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عُمير، وهم يومئذ أشراف ثقيف، فبدأ يدعوهم إلى الله ورسوله، وإلى الدخول في الإسلام ونصرة رسول الله ﷺ، فلم يختلف حالهم عن حال أهل مكة شيئا، قابلوا كلامه بالسخرية والاستهزاء، وأغلظوا عليه الجواب، بل إنهم منعوه من أن يكلم أهلها أو أن يجالس عقلاءها وأولى النُهى بها .

ظل رسول الله ﷺ عشرة أيام يدعوهم فلم يجبه منهم أحد ثم أعرضوا عنه.

روى البيهقي في الدلائل عن ابن شهاب قال: كان رسول الله ﷺ في تلك السنين يعرض نفسه على قبائل العرب في كل موسم، ويكلم كل شريف قوم لا يسألهم مع ذلك إلا أن يأووه ويمنعوه ويقول « لا أكره أحدا منكم على شيء، من رضي منكم بالذي أدعوه إليه فذلك، ومن كره لم أكرهه، إنما أريد أن تحرزوني مما يراد بي من القتل حتى أبلغ رسالة ربي، وحتى يقضي الله عز وجل لي ولمن صحبني بما شاء الله »

فلم يقبله أحد منهم، ولم يأت أحد من تلك القبائل إلا قال قوم الرجل أعلم به، أترون أن رجلا يصلحنا وقد أفسد قومه ولفظوه؟ فكان ذلك مما ذخر الله عز وجل للأنصار وأكرمهم به .

فلما توفي أبو طالب ارتد البلاء على رسول الله ﷺ أشد ما كان، فعمد لثقيف بالطائف رجاء أن يأووه فوجد ثلاثة نفر منهم سادة ثقيف يومئذ وهم أخوة: عبد ياليل بن عمرو، وحبيب بن عمرو، ومسعود بن عمرو، فعرض عليهم نفسه، وشكا إليهم البلاء وما انتهك منه قومه .

فقال أحدهم: أنه يمرق أستار الكعبة إن كان الله بعثك بشيء قط .

وقال الآخر: أعجز الله أن يرسل غيرك .

وقال الآخر: والله لا أكلمك بعد مجلسك هذا أبدا، والله لئن كنت رسول الله لأنت أعظم شرفا وحقا من أن أكلمك

ولئن كنت تكذب على الله لأنت أشر من أن أكلمك .

وتهزءوا به وأفشوا في قومهم الذي راجعوه به، وقعدوا له صفين على طريقه، فلما مرّ رسول الله ﷺ بين صفيهم جعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة، وكانوا أعدوها حتى أدموا رجليه .

فخلص منهم وهما يسيلان الدماء، فعمد إلى حائط من حوائطهم، واستظل في ظل حبلة منه، وهو مكروب موجع، تسيل رجلاه دما، فإذا في الحائط عقبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، فلما رآهما كره مكانهما لما يعلم من عداوتهما لله ورسوله، فلما رأياه أرسلا إليه غلاما لهما يدعى عدّاسا وهو نصراني من أهل نينوى معه عنب، فلما جاءه عداس قال له رسول الله ﷺ « من أي أرض أنت يا عداس؟ »

قال له عدّاس: أنا من أهل نينوى، فقال له النبي ﷺ: من مدينة الرجل الصالح يونس بن متى، فقال له عداس: وما يدريك من يونس بن متّى ؟

قال له رسول الله ﷺ وكان لا يحقر أحدا أن يبلغه رسالة ربه « أنا رسول الله، والله تعالى أخبرني خبر يونس بن متى » فلما أخبره بما أوحى الله عز وجل من شأن يونس بن متى، خَرَّ عداس ساجدا لرسول الله ﷺ وجعل يُقبّل قدميه وهما يسيلان الدماء .

فلما أبصر عقبة وشيبة ما يصنع غلامهما سكتا، فلما أتاهما، قالا: ما شأنك سجدت لمحمد، وقبلت قدميه، ولم نرك فعلته بأحد منا؟ قال: هذا رجل صالح، أخبرني بشيء عرفته من شأن رسول بعثه الله إلينا يدعى يونس بن متى، فضحكا به، وقالا: لا يفتنك عن نصرانيتك، فإنه رجل خداع، فرجع رسول الله ﷺ إلى مكة. (١)

لم يجد رسول الله ﷺ منفثا لما به من كرب سوى السماء، فتوجه داعيا إلى الله عز وجل بكلمات فياضة تحمل في طياتها أسمى معاني الشكر والحمد، والالتجاء والانكسار، والرضا على الله عز وجل، رغم ما به من كرب وضيق وشدة وعناء، كلمات تُرجع الأمر كله لله في اليسر والعُسر، في الشدة والرخاء، كلمات ترد إلى الله كل الأمر، وتسأله تمام الرضا والعفو .

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي - (ج ٢ / ص ٢٨٨) حديث ٦٩٠ ورواه ابن هشام عن ابن اسحق والطبري في تاريخه وابن حجر في الفتح وابن كثير في السيرة وضعفه الألباني في فقه السيرة. المعاني ((أحْرَزْتَ الشيء : إذا حفظتَه أو ضَمَمْتَه إليك او صُنْته عن الأخذ ـ الذخر: ما يدخر لوقت الحاجة ـ الرُضخ: الشَدْخ. والرُضخ أيضا: الدَقّ والكسر ـ الحائط: البستان أو الحديقة وحوله جدار ـ خر: سقط وهوى بسرعة))

قال ﷺ ((اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي؟ أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي وَلَكِنْ عَافِيَتُكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سُخْطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ)) (١)

يا الله !

أما مكة، فصارت وكأنها أرض جدباء لا ينبت فيها نبت إلا مات، فلم تعد تصلح فيها دعوة الإسلام .

وأما الطائف، فقد صار السفهاء فيها سادة وتخلوا عن كل مكارم الأخلاق التي لطالما تباهى بها العرب من كرم للضيافة وإغاثة للملهوف، فنكلوا برسول الله ﷺ وهو قادم إليهم ببشائر الخير ودعوة الحق، فأخرجوه دامي القدمين، وقد آلموا قلبه بكلامهم قبل أن تؤلمه أحجارهم، وأبوا أن يكونوا هم الأنصار!

وأما المسلمين، فبين مُهاجر قد ترك الأهل والوطن وفرَّ بدينه من بطش قريش، وبين ضعيف يذوق كل يوم من العذاب ألوانا .

وأما سادة قريش، فقد أعمت مصالحهم الشخصية أعين قلوبهم فصارت قلوبهم وكأنها حجارة بل هي أشد قسوة، فأقاموا حاجزا بين دعوة رسول الله ﷺ وبين وصولها للناس - وإن تناقلت أخبارها - وغدوا يسجدون للأحجار ويُفاضلون بين الأديان

وأما بنو هاشم، فلم تعد لهم المنعة التي لطالما وقف بها أبو طالب مساندا لرسول الله ﷺ، فقد هان أمرهم بين سادة قريش، وإن كان العباس قد حاول جاهدا أن يشغل دور أبي طالب بجوار رسول الله ﷺ، ويرد عنه بعضا من أذى قومه وبطشه بهم .

وأما رسول الله ﷺ، فبين كل هذا واثق في نصر الله رحيم بقوم قد كذبوه وأدموه وسفهوه وعذبوه ولم يزد عن الدعاء شاكيا حاله لربه مرجعا إليه كل أمره، فلم يتأخر الرد كثيرا، وسُرعان ما أقبلت بشائر النصر من كل صوب لتحمل عن رسول الله ﷺ هذا العناء وتصرف عنه هذا البلاء، وأول هذه البشائر كان من داخله ﷺ، إنها الرحمة التي أودعها الله في قلبه ﷺ فلم تزده إلا حلما ورأفة رغم الإيذاء والتكذيب .

---

(١)مجمع الزوائد ٩٨٥١ - (ج ٦ / ص ٣٧)وقال الهيثمي رواه الطبراني وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة وبقية رجاله ثقات وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة٢٩٣٣

سألت عَائِشَة - رضي الله عنها - النَّبِيَّ ﷺ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ ؟ فقالَ ﷺ « لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، قَالَ فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ. ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ فَمَا شِئْتَ؟ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ » فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا » (١)

بل أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله! كلمات كان حقّ على أهل الشرك أن يراعوها وأن يتدبروها.

كلمات تُجسد أسمى صور الرحمة، في وقت قد بدت ملامح القنوت من الإجابة تتبادر إلى الأذهان.

كلمات تكشف مكنون صدر رسول الله ﷺ، وقد غدا أمله في هداية الناس يفوق كل دوافع الانتقام.

كلمات تأخذ بعقول المسلمين وأذهانهم إلى أمل بعيد يتجاوز التمكين الزائف والنصر السريع أو القنوط من الإجابة؛ لتأخذهم إلى أفق أبعد من الواقع المرير، إلى جيل جديد ينبت على التوحيد، إلى نصر وتمكين دُفعت ضريبته فأسس بنيانه في القلوب.

كلمات تُشير إلى حسن فهم الواقع المحيط والطاقات المعطلة به، والتي يجب أن تدخر لمستقبل الدعوة وخدمة الدين [لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ] (٢)

كلمات تُظهر مدى تعايش النبي ﷺ مع قضيته بكل مشاعره وأحاسيسه، ليس فقط بجوارحه " فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ "والذي يؤمن بقضيته هذا الإيمان، والذي يدافع عنها ويتحمل من أجلها كل هذه الآلام، والذي يدعو إليها بهذه الحماسة قطعا سيحالفه التوفيق، وإن أخفق عشرات المرات.

فإلى أين ذهبت بهم هذه الرافة ؟ وإلى أي مدى نجحت رؤية النبي ﷺ المستقبلية في ادخار الأعداء لاحتمال الاستفادة منهم مستقبلا؟

---

(١) البخاري ٣٢٢٣ ومسلم ٤٧٥٤

(٢) [التوبة:١٢٨]

لقد ذهبت إلى حيث سأل رسول الله ﷺ ربه، فأخرج الله من أصلابهم من عبد الله وجاهد في سبيله حق جهاد، أخرج من صُلب أبي جهل عكرمة المجاهد العظيم، وأخرج من صُلب الوليد بن المغيرة سيف الله خالد، وأخرج سهيل بن عمرو الذي ثبّت مكة يوم أن ارتد العرب، وأخرج قبيلة ثقيف التي ثبتت حينما ارتد العرب، والتي كانت من أشد القبائل بأسا في رحلة الفتوحات، فالقيادة الرحيمة مبنية على التوسط والاعتدال ليست بطشا مطلقا ولا رحمة مفرطة

دروس من رحلة الطائف

١- إن مُهمة الداعية تقتصر عند البلاغ وليس الإكراه، والسعي لهداية الناس، وليس تحقيق هدايتهم، واتخاذ الخطوات والسبل المشروعة؛ لتغيير الواقع السيئ لا تغيير الواقع، قال تعالى [وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ] (١)

فمهمة الداعية البلاغ وفتح أبواب الهداية وترغيب الناس فيها، وهداية الرُسل هداية إرشاد وبيان {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}(٢)

أما هداية التوفيق فمن الله تعالى ولا يُسأل عنها غيره [إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ] (٣)

٢- رغم الابتلاءات التي توالت على رسول الله ﷺ في حياته العامة والخاصة، فإنه لم يعرف الضعف والفتور والإتكالية والتواكل رغم عظم البلايا، فمهما اشتدت المحن وعظمت الابتلاءات، فإن المنهج بين واضح لا تغيير فيه ولا تبديل .

٣- الجهاد باللسان وتحمل الابتلاءات في سبيل دعوة الله تعالى لا يقل عن الجهاد بالسيف وبذل النفس في سبيل الله تعالى، فحينما سألت أم المؤمنين عائشة رسول الله ﷺ عن أشد الأيام ابتلاء أهو يوم أحد أم غيره؟ جاءها الجواب منافيا لظاهر الأحداث وما ألفه الناس في مفهوم النصر والهزائم، فاعتبر النبي ﷺ ما لقيه من إعراض في الطائف أشد مما حدث له ولأصحابه في أحد، فقال ﷺ « لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ ..."

---

(١){المائدة:٩٢} (٢)(الشعراء: ٥٢) (٣) {القصص:٥٦}

٤- ومن هذه الرحلة نتعلم أن الداعية لا يركن إلى قوم بعينهم، يستنفذ معهم طاقته وعمره في حين أنهم لم تبد عليهم أي علامات الإجابة أو التصديق، فربما أراد الله لهم الهداية على يد غيره، وربما أراد له النصر في مكان غير مكانه، وربما أمهلهم الله تعالى لحكمة في غيبه سبحانه، فإن لم ير الداعية بوادر الإجابة من قومه انصرف إلى غيرهم وأوجد وطنا جديدا لدعوته وأنبت لها بذورا جديدة .

٥- الداعية رسول لم يبعث إليه، فليكن حرصه على إبلاغ دعوته كحرص الأنبياء على إتمام رسالتهم وهداية الناس بهم، فهذا رسول الله ﷺ حينما توجه إلى الطائف لم يقصر حديثه على فئة دون غيرها، وإنما حدّث السيد والعبد والغني والفقير، ولم يجلس وينتظر من الناس أن يأتوه ليبلغهم دعوة ربه، وإنما عرض نفسه عليهم، فمهما غلت منزلة الداعية وعظم شرفه فهو المسئول عن دعوته وعرضها على الناس والحرص على هدايتهم وعدم القنوط من إجابتهم وعدم تعجل ثمار دعوته .

٥- قد يُبتلى الداعية في جسده، وقد يُبتلى بإعراض الناس عنه وسوء ردهم وقبح لفظهم، وإن لم يكن الهدف واضحا نصب عينيه صرفه هذا الابتلاء عن عزمه وغير وجهته وامتن على الله وعلى الخلق بما حدث له، وهذا خُلق المنافقين ودليل على عدم الصدق والتجرد لله في العمل [وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ] (١)

٦- الداعية الذي يريد لدعوته النصرة والتمكين يجب أن يتفاعل معها بعواطفه وجوارحه، يجب أن تشغل عقله وقلبه، يجب أن تسمو عن مجرد بذل شيء من الوقت أو المال، فهذا رسول الله ﷺ تفاعل مع دعوته بكل كيانه فشغلت قلبه وعقله وسيطرت على خلجات صدره فغدت همه الوحيد وشغله الشاغل، يفكر بها ليل نهار في الأمن والخوف، في الرخاء والشدة، في اليسر والعسر، والذي يتعايش مع قضيته بكل مشاعره وأحاسيسه وجوارحه والذي يؤمن بقضيته

هذا الإيمان والذي يدافع عنها ويتحمل من أجلها كل هذه الآلام والذي يدعو إليها بهذه الحماسة قطعا سيحالفه التوفيق فانظر إلى همّ الدعوة كيف سيطر على فكر رسول الله ﷺ " فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ " قُرابة المائة كيلو سيرا على الأقدام لم يشعر بها رسول الله ﷺ من شدة الهم والكرب .

---

(١) {العنكبوت:١٠}

٧ ـ من سمات القيادة الفعالة أنها تتسم بالرحمة المبنية على التوسط والاعتدال في كل أمورها، فهي ليست بطشا مطلقا يصرف الناس عنها [وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ](١) ولا رحمة مفرطة تُجرئ الناس عليها، والرؤية المستقبلية عند النبي ﷺ كانت واضحة جلية عبر عنها بقوله ﷺ « وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لا يَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ » (٢)

وهذا الوضوح للهدف والإيمان والتصديق بوعد الله وتأييده ونصره هو الذي دفع النبي ﷺ إلي بذل كل الجهد لهداية الناس واستبقائهم من الإهلاك العام لعل الله إن لم يُقدّر لهم الهداية أخرج من أصلابهم من يعبد الله تعالى ولا يشركه.

وفي الأثر أن إبراهيم عليه السلام رأى رجلا يفجر بامرأة فدعا عليه فأهلك ثم رأى رجلا على معصية فدعا عليه فأوحى الله إليه : إنه عبدي وإن مصيره مني خصال ثلاث: إما أن يتوب فأتوب عليه، وإما أن يستغفرني فأغفر له، وإما أن يخرج من صلبه من يعبدني، يا إبراهيم أما علمت أن من أسمائي إني أنا الصبور ؟ (٣)

٨ ـ رحلة الطائف من مبدأها إلى منتهاها حققت أسمى معاني النصر، إنه نصر العقيدة والإيمان، نصر الثبات على المنهج رغم المحن والابتلاءات، فالثبات على الدين وعدم التراجع مهما كانت المعوقات هو في حقيقته انتصار، فأصحاب الأخدود الذين ثبتوا على المنهج وأبوا الاستسلام والمساومة على عقيدتهم كانوا هم المنتصرين وإن كانت الخاتمة بموتهم، إلا أن الثناء على عملهم ظل خالدا حتى غدو قُدوات يُحتزى بهم، وهذا في حقيقته نصر، قال تعالى (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)(٤) ورحلة الطائف إحدى معاني نصر العقيدة والإيمان، فرغم علوّ صوت الباطل وغطرسة أهله وتجبر قوتهم، إلا أن رسول الله ﷺ واجه المجتمع الجاهلي كله بكل مفاسده، بكل عيوبه، بكل ضلالاته، وثبت أمام باطلهم، واجههم به في عقر دارهم، وهذا من أسمى صور النصر، أن تواجه الظالم بظلمه والفاسد بفساده والضال بضلاله، وكل هذا في عُقر داره، أن تقف على رءوس الشرك والضلال لتحذرهم انتقام الله تعالى غير آبه بما قد يفعلوا، غير آبه بما قد يُلاقي جراء هذا الجهر بالدعوة والدين في مجتمع تشبع بالفساد في كل شعيرات جسده، أليس كل هذا في حقيقته نصر ؟!

---

(١) [آل عمران:١٥٩] (٢)البخاري٣٩٤٣

(٣) مجمع الزوائد ١٣٧٦٢وقال : رواه الطبراني في الأوسط وفيه علي بن أبي علي اللهبي وهو متروك

(٤) [سورة البروج، الآية:٨]

ومعنى آخر من معاني النصر في هذه الرحلة وهو نصر التبليغ وإقامة الحُجة، فالنبي ﷺ برحلته إليهم أسقط عنهم الأعذار وأقام عليهم الحجة بتبليغه إياهم رسالة ربه وإن لم يؤمن بالنبي ﷺ أحد فلن يُلام أو يتهم بالتقصير تجاه دعوته لأنه بلّغ وأقام الحجة وأعذر وأنذر وما بعد ذلك فهو قضاء الله وقدره .

ومعنى آخر من معاني النصر وهو التفكير الحثيث في وطن بديل يحتضن الدعوة؛ لتخرج منه إلى الدنيا كلها، ولن يُصادف هذا الوطن من أول محاولة، وإنما يسعى جاهدا في إيجاد هذا الوطن سواء في الطائف أو في غيرها من بلاد الجزيرة، المهم أن يوجد الوطن البديل، وهذا السعي الذي بدأ بالطائف انتهى بيثرب، فكانت رحلة البحث عن وطن بديل متوجة بالنصر من مبدأها إلى منتهاها، وكم من الأحداث التي اعتبرها الناس إخفاقا وفشلا هي في حقيقتها إحدى معاني النصر

ومعنى آخر من معاني النصر هو الانتصار على الذات ودوافع الانتقام من داخل النفس، فنوح عليه السلام لما أيس من قومه قال [وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا] (١)

وموسى عليه السلام لما أيس من إجابة فرعون وقومه قال [وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ] (٢)
وكم من الأنبياء الذين أيسوا من إجابة أقوامهم فدعوا الله عليهم فانتقم منهم.

أما رسول الله ﷺ فكانت دوافع الرحمة والرأفة والحرص على هداية الناس، أجَلّ وأعظم من دوافع الانتقام، وإن عظمت البلايا، وإن اشتد التكذيب، وإن أوذي في جسده وكُذب في دعوته وأتهم بأبشع التهم وألصقت إليه أقبح الصفات، فبعد كل هذا جاءت كلمات رسول الله ﷺ تفيض بالحب والرحمة والشفقة والحرص الستناهي على الإجابة وعدم القنوط ، فقالَ النَّبِيُّ ﷺ « بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا » فالهدف واضح محدد، وهو إقرار العبودية لله تعالى على الأرض، سواء في هذا الجيل أو في الجيل الذي يليه، وهذا في حقيقته من أسمى معاني النصر .

إن معنى النصر أكبر من المفهوم الذي درج في أذهان العوام، فأقصروه على الانتصار في المعارك الحربية، بل إن له صور شتى ومعان عدة ، فقد يُقتل النبي ويسجن الداعية ويُعذب المصلح ويموت المجاهد، وقد تسقط الدولة ويُسام

---

(١){نوح٢٦/٢٧} (٢){يونس:٨٨}

المؤمنون أصناف العذاب، ومع ذلك يكون إحدى صور النصر، فكم من هزيمة أفرزت بعدها نصرا مبينا، وكم من شهيد نصر دعوته بشهادته، ولو عاش ألف عام يدعو إليها ما نصرها، لأن الهدف انتصار المنهج وإظهار العقيدة، أما الأشخاص فقد تكفل الله سبحانه بإكرامهم جزاء دعوتهم وصدقهم

ولنا في رسول الله ﷺ مثلٌ حيّ فقد خرج من مكة مُطاردا، فكان خروجه أعظم نصر، أقام دولة الإسلام وانطلق من بلدة صغيرة يرد البشرية قاطبة إلى شرع الله ومنهجه، ولو نظر إليه ناظر وهو خارج تتعقبه سيوف المشركين لما تنبأ بأن خروجه هذا نصر، فمعاني النصر أجل وأعظم من أن تنحصر في شكل واحد، إلا أن لهذا النصر أسباب ومقومات، قد لا تتوفر في الأمة فيتأخر عنها النصر، وقد أشار إلى بعضها سيد قطب رحمه الله في تفسيره(١) فمنها :

** **قد يتأخر النصر لأن الأمة لا تدرك قيمته:** فالأمة التي لا تسعى لطلب النصر وتخطو بكل قوتها نحوه، يتأخر عنها النصر حتى يستقيم أمرها ويوجد الرجال الذين يبذلون الجهود لطلبه والمحافظة عليه، وفي تاريخ الدول عبر سنوات الزمان تتجلى هذه الحقيقة، فالدول تبدأ قوية فتية، لأن رجالها يبذلون الجهود المضنية لنهضتها ويتحملون الصعاب والمشاق لتقدمها، ثم تأتي أجيال لم تساهم في هذا البناء ولم تبذل الجهد للحفاظ عليه فتضعف وتذهب دولتهم

** **قد يتأخر النصر لانحراف الأمة عن ثوابت المنهج وتمييع مفهوم الولاء والبراء**، والركون إلى الظالمين .

** **قد يتأخر النصر لأن الأمة لم تصلح بعد لحمل راية القيادة** ولم تستجمع قواها ولم تحشد كل طاقتها، ولو وهبها الله النصر على هذه الحالة لفقدته سريعا، فالنصر الذي لم تبذل من أجله التضحيات يذهب سريعا كما جاء، فالدين بحاجة إلى أمة قد تربت على المنهج زمانا حتى تتمكن من حمله وتبليغه للناس، فدولة الإسلام في المدينة جاءت بعد ثلاثة عشر عاما من التربية على تعاليم الإسلام في مكة.

** **قد يتأخر النصر لتتعمق الصلة بين الأمة وخالقها سبحانه:** فالابتلاءات تقوّي حبل الصلة بين العباد وخالقهم، ويقدّر الله تعالى هذه المحن والابتلاءات على الأمة كلها؛ لتهتدي إلى طريق الاستقامة، وتجدّد الصلة بخالقها، فمتى انتصرت التزمت بالمنهج القويم بغير زيغ ولا تبديل ولا جور ولا طغيان

** **قد يتأخر النصر لأن الأمة لم تأخذ بكل أسبابه بعد:** ومن أعظم أسبابه التجرد لله في القول والعمل، فقد سُئل النبي ﷺ عن الرَّجُلُ يُقَاتِلُ حَمِيَّةً

---

(١) في ظلال القرآن عند تفسير قول الله تعالى {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ} [الحج:٣٨]

وَيُقَاتِلُ شَجَاعَة وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، فَأَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فقالَ « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ العُلْيَا ، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ »(١)

** **قد يتأخر النصر لأن الباطل الذي تحاربه الأمة لم يبلغ ذروة الفساد الذي** يبغضه في قلوب الناس فيمهل الله تعالى دولة الباطل؛ ليكشف زيغه وفساده أمام كل الناس، فإذا ظهر الحق استتم له الأمر، ولم يجد الباطل جذور ينبت منها؛ ليطمس الحق ثانية، وفي السيرة حدث يفسر هذا الأمر، فحينما أراد ابن سلول أن يثير فتنة بين المهاجرين والأنصار أشار عمر ﷺ على النبي ﷺ بقتله، فقال النبي ﷺ « لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّهُ كَانَ يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ »(٢) فابن سلول رغم جرمه ونفاقه، لا يزال له شيئ من المهابة والسيادة بين قومه، فتركه النبي ﷺ حتى يظهر نفاقه عيانا فلما تكشفت حقيقته كان إذا أحدث الحدث، كَانَ قَوْمُهُ هُمْ الَّذِينَ يُعَاتِبُونَهُ وَيَأْخُذُونَهُ وَيُعَنِّفُونَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ، حِينَ بَلَغَهُ ذَلِكَ مِنْ شَأْنِهِمْ، كَيْفَ تَرَى يَا عُمَرُ؟ أَمَا وَاَللَّهِ لَوْ قَتَلْته يَوْمَ قُلْت لِي اُقْتُلْهُ لَأُرْعِدَتْ لَهُ آنُفٌ لَوْ أَمَرْتهَا الْيَوْمَ بِقَتْلِهِ لَقَتَلَتْه، فَقَالَ عُمَرُ قَدْ وَاَللَّهِ عَلِمْت لَأَمْرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَعْظَمُ بَرَكَةً مِنْ أَمْرِي (٣)

** **قد يتأخر النصر لضعف أصاب الأمة في أعمال القلوب** وانتشار عللها فيها، ولا أدل من ذلك من تأخر النصر في غزوة حنين، وفي الجيش رسول الله ﷺ لحدوث عُجْبٍ عَارِض! كاد أن يكون سبباً في هزيمتهم

** **قد يتأخر النصر لأن الأمة لم تترب على حقيقة الدين** وتتشرب روحه، فإذا انتصرت لا تقوم بتكاليف الانتصار من إقامة حكم الله في الأرض، وتطبيق شرعه، فمن البشر صنف يثبت عند المحن، ويضعف عند المنح في الأمن والرخاء وهذا جراء الخلل في التربية

** **قد يتأخر النصر لأن المناخ العام لم يهيأ بعد لإقامة دولة الحق ونشر العدل فيه**، فإذا أقيمت دولة الحق وسط الجور والطغيان لقيت معارضة لا يستقيم بها حالها، فيشاء الله دوام التدافع؛ لتتهيأ النفوس من حوله لاستقبال دولته

** **قد يتأخر النصر لعدم مواصلة الجهد في طلبه**، فمن الناس من يخطو لطلب النصر ويحقق أسبابه، وبينما هو في منتصف الطريق يُفتن فيفتتن، قال تعالى [وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ العَالَمِينَ] (٤)

---

(١) البخاري٧٤٥٨ (٢) البخاري٣٥١٨

(٣) الروض الأنف - (ج ٤ / ص ١٤) (٤) {العنكبوت:١٠}

** **قد يتأخر النصر لأن المسلمين ركنوا إلى الوعد ولم يسعوا إلى تحقيقه:** فإن لم تكن كمسلم لبنة تقيم بنيان الأمة فاحذر أن تكون ممن ينخرون في بنيانها

** **قد يتأخر النصر لأن الأمة لم تترب بعد على فقه الفتن وحسن التعامل مع الواقع،** فالثبات عند المحن أعظم دلالة على صدق الإيمان، فكم من دفعته العاطفة إلى خدمة الدين، ولكن قلة قليلة هي التي ثبتت عند المحن والفتن، فما بين النصر والهزيمة وبين القوة والضعف إنما هو صبر ساعة، فمن صبر عليها نال النصر والقوة، ومن عجز دونها سقطت قواه.

قال عمر بن الخطاب ﷺ لرجل بني عبس: كم كنتم يوم الهباءة ؟ فقال: كنا مائة كالذهب، لم نكثر فنتواكل ولم نقلّ فنذلّ. قال: فكيف كنتم تقهرون من ناوأكم ولستم بأكثر منهم عدداً ولا مالاً؟ قال: كنا نبصر بعد اللقاء هنيهة.

قال: فلذلك إذاً. (١)

** **قد يتأخر النصر لأن المسلمين لم تربهم المحن ولم تمحصهم الابتلاءات،** لقي سعيد بن جبير راهباً، فقال له «يا سعيد: في الفتنة يتبين مَنْ يعبد الله ممن يعبد الطاغوت»(٢)

** **قد يتأخر النصر لأن الأمة لا تحسن سوى دور الضحية والمظلوم الذي** أعتدي عليه واجتمعت كل قوى الشرك ضده، فربما شيئا منه صحيح، ولكن الأصح ما نخفيه في أنفسنا، وهو أن إساءاتنا لأنفسنا أعظم من إساءات الآخرين لنا، ولو اجتمع أهل الشرك كلهم ما فعلوا بنا أسوأ مما فعلناه بأنفسنا، والله تعالى حينما خاطب أهل أحد - وهم أصدق وأكرم وأنبل منا - ذكرهم بتقصيرهم فقال {قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أنفسِكُمْ} (٣) فلا يتأخر النصر إلا بسبب من أنفسنا {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ} (٤)

قدم وفد على عمر بن الخطاب ﷺ بفتح، فقال: متى لقيتم عدوكم؟ قالوا: أول النهار. قال: فمتى انهزموا؟ قالوا: آخر النهار، فقال: إنا لله! أوَ قام الشرك للإيمان من أول النهار إلى آخره ؟! والله إن كان هذا إلا ذنب أحدثتموه بعدي أو أحدثته بعدكم.

---

(١) عيون الأخبار - (ج ١ / ص ٥٣) ويوم الهباءة أحد أيام حرب داحس والغبراء

(٢) حلية الأولياء - (ج ٤ / ص ٢٨٠)

(٣) [آل عمران: ١٦٥]

(٤) [الشورى: ٣٠]

هذه بعض أسباب تأخر النصر، ويحسن بنا أن نرسم شروط النصر كما بينها القرآن، وهنا سنتوقف مع سورة العصر- ذات الآيات الثلاث - ، فهذه السورة - رغم قصرها - ترسم منهج النصر والتمكين بصورة جلية، وتأخذ بعقول المسلمين إلى فهم حقيقي لمعنى النصر أبعد مما ألفوه وفطنوه، حتى قال عنها الإمام الشافعي - رحمه الله- " لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم"

قال الله تعالى [وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ] فالله تعالى قد أقسم أن كل إنسان في خسر أي في هلاك وبوار، إلا من استثنى فهو المنتصر، ثم جاء بشروط هذا الانتصار بالترتيب:

(١) الإيمان (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا)

(٢) العمل الصالح (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(٣) أن يكون في جماعة، وهذا بيّن في استخدام لفظ الإنسان مفردا ثم الاستثناء بصيغة الجمع " إِلَّا الَّذِينَ

(٤) وجود مبدأ التواصي بين العباد والعمل به

(٥) التواصي بالحق (وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

(٦).التواصي بالصبر (وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

فمتى توفرت هذه الخصال في جماعة أيا كانت، فهي في أمان من الخسارة سواء في الدنيا أو في الآخرة، ومتى أهدرت أي أمة إحدى هذه الخصال حلت بها الخسارة بقدر ما أهدرت منها، والمتطلع لتاريخ الدول وقيام الحضارات واندثارها، يتيقن لديه أن أي جماعة حملت هذه الصفات أو شيئا منها، بلغت شيئا من النصر والتمكين بقدر تحقيقها لهذه الشروط، حتى إن كانت جماعة كافرة، فمتى تواصوا بشيء من الحق أو الصبر وعملوا به نالوا بعض ثمراته علوا وتمكينا، ولا أدل على ذلك من قول النبي ﷺ (إن أعجل الطاعة ثوابا صلة الرحم، حتى إن أهل البيت ليكونوا فجرة فتنمو أموالهم ويكثر عددهم إذا تواصلوا) (١) فقد حقق الفجرة هنا خصلة من الخير وهي التواصي بالحق في تواصيهم بصلة الرحم وعملوا به، فنالوا شيئا من ثمراته في الدنيا.

ومن تأمل تاريخ الإسلام منذ نشأته يستطيع أن يتعرف على أسباب القوة والتمكين وأسباب الضعف والهوان في تاريخ هذه الأمة، فكل خسارة حلت بها بسبب انتقاص إحدى هذه الخصال الست فيها، وما ظهور دولة الكفر على دولة الإيمان إلا لتحقيقها شيئا من هذه الخصال - خلاف الإيمان والعمل الصالح -

---

(١)صحيح ابن حبان ٤٤٠- (ج ٢ / ص ١٨٢) وصحيح وضعيف الجامع الصغير ٥٧٠٥ وقال الألباني صحيح

ما لم تحققه دولة الإيمان رغم أنها على الحق، فدولة الكفر رغم كفرها قد توفر لديها من الاتفاق على الجماعة، أو من مبدأ التواصي أو العدل فيما بينهم أو التحمل والصبر ما لم يتوافر لدى الجماعة المؤمنة، لذا قِيلَ: إنَّ اللَّهَ يُقِيمُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً، وَلَا يُقِيمُ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُسْلِمَةً.

وقيل: الدُّنْيَا تَدُومُ مَعَ الْعَدْلِ وَالْكُفْرِ وَلَا تَدُومُ مَعَ الظُّلْمِ وَالْإِسْلَامِ . (١)

---

(١)مجموع الفتاوى - (ج ٢٨ / ص ١٤٦)

** أبرز مراجع هذا الفصل ((تفسير الطبري - في ظلال القرآن - تاريخ الإسلام - البداية والنهاية - السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث - الرحيق المختوم - بحوث مؤتمر السنة النبوية في الدراسات المعاصرة - السيرة النبوية مواقف وعبر - السيرة النبوية دروس وعبر للسباعي - حقيقة الانتصار - موسوعة البحوث والمقالات العلمية - عوامل النصر والتمكين في دعوات المرسلين))

الفصل الثاني

الإســـراء والمعـــراج

منحة سماوية

دخل رسول الله ﷺ مكة في جوار المُطعم بن عدي، وقد ازداد القوم سفاهة وغيظا وجرأة وتكذيبا وعنادا، ورسول الله ﷺ لا يشغله إلا رسالة الإسلام، يدعو إليها بكل ثبات ويقين، وهو بين كل هذا يُهوّن على المُستضعفين من المسلمين الذين يُعذبون في مكة ويعدهم بنصر الله، وأن الله جاعل لهم من عسرهم يسرا، ومن ضيقهم فرجا، فلا يتعجلون النصر، وبين كل هذه الابتلاءات التي تلاحقت على رسول الله ﷺ، وبعد كل هذه المحن، جاءت هدية السماء إلى رسول الله ﷺ؛ ليعلم أن الله عز وجل راض عنه، وأنه يحمل هَمّ أعظم رسالة إلى الأرض، تلك الرسالة التي جعل الله معجزتها باقية إلى يوم القيامة، واختص لذاته بحفظها.

كانت رحلة الإسراء والمعراج بكل ما فيها من آيات، تفريجا لكرب رسول الله ﷺ وتخفيفا لما هو فيه من معاناة، فكانت تسرية وتسلية له مما قاسى من آلام التبليغ، وتعويضا له عما لاقى من سفاهات قومه، وكأن الله عز وجل يبلغه أن يا محمد :

إن كان أهل الأرض قد أعرضوا عنك، فإن أهل السماء قد أقبلوا عليك فاعرف قدرك عند ربك

وإن كان أهل الدنيا قد صدوك، فإن ربك يرحب بك ويريك من الآيات ما لم يُر بشرا من قبلك

وإن كان أهل الدنيا قد آذوك، فإنك لخيرة أهل الدنيا إماما وجيها فكن للأنبياء جميعا إماما

وإن كانت مكة قد لفظتك، ومن آمن معك، والطائف قد أدمتك وآذتك وأخرجتك، فإنك عن قريب سوف تبدأ حياة جهاد طويل ونضال شاق عسير، لن يقف عند حدود بلدك، فسوف ترميك العرب كلها عن قوس واحدة، وستقف بمن معك من المؤمنين أمام وثنية العرب، وشرك المجوس، ومكر اليهود، وضلالات النصارى، فاثبت وثبّت من آمن معك.

وإن كان تكذيبهم لك قد آذاك وآلمك، فسوف يريك الله من آيات الأرض والسماء ما يُقوي قلبك ويشد عضدك ويثبت الفئة التي آمنت معك في مواجهة الكفر بأنواعه وضلالاته .

هكذا تفعل المعجزات في النفس، تشد من ازرها وتبث فيها الطمأنينة والثبات، فحينما أراد الله أن يبعث موسى عليه السلام إلى فرعون الذي بغى في الأرض وجعل أهلها شيعا، بل إنه نصّب نفسه لأهل الأرض إلها من دون الله، فأراد الله أن يُثبِّت قلب موسى عليه السلام قبل أن يواجه هذا الطاغية المتجبر، فأراه من الآيات ما يثبت بها فؤاده، فلا يهاب فرعون بسلطانه ويواجه الكفر وأعوانه، وهو على يقين من أنه يعتصم بحصن حصين ويتمسك بحبل متين فلا يخاف فرعون بجبروته.

قال تعالى [وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى * قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى * وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى * لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى] (١)

لنريك من آياتنا الكبرى، نعم فرؤية الآيات من عوامل التثبيت، وإن كان الأنبياء قد آمنوا باطنا وظاهرا، إلا أن طمأنينة القلب دافع إلى بذل كل مجهود والتفاني من أجل رسالة الإسلام.

قال تعالى [وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] (٢)
فكانت رؤية الآية سببا في بث الطمأنينة في القلب.

لم تكن رحلة الإسراء والمعراج بالمعجزة التي يقهر الله بها الأمم؛ لترضخ وتؤمن كحالة سيدنا موسى عليه السلام، فقد حباه الله المعجزات المادية التي تؤكد صدق نبوته، ولم تكن بالمعجزة التي سألها قومه كدليل على صدق إيمانه كناقة قوم صالح عليه السلام، ولم تكن بالمعجزة التي تُظهر رسول الله ﷺ على أهل زمانه وتُقيم عليهم الحجة كمعجزات المسيح عليه السلام، إنها لم تكن شيئا من ذلك، فقد أنزل الله على رسوله ﷺ القرآن وجعله معجزة خالدة تكفل لذاته بحفظها وجعله معجزا مبهرا من يومه الأول، كافيا لإقناع الناس بالحجة والدليل العقلي على صدق النبي ﷺ ورسالته، فالقرآن معجزة عقلية أدبية لا حسية مادية، وهذا ليتلاءم وطبيعة الرسالة الخاتمة، فالمعجزات العقلية أبقى أثرا من المعجزات الحسية، لذا فكل معجزة حسية في حياة النبي ﷺ بعد القرآن بمثابة تسلية له وتكريما لشخصه، غير متعارضة مع المنهج العقلي الذي أقره القرآن

---

(١) {طه١٧/٢٣}

(٢) (البقرة: ٢٦٠)

بل إنها لم يكن لها أثر ذي بال في دخول الناس لإسلام، فكان المشركون إذا رأوا آية نسبوها إلى السحر، ولم تحرك فيهم ساكنا، ولم توقظ قلوبهم من غفلتها، إلا أنها كانت من عوامل التثبيت في قلوب المؤمنين وإظهار فضل رسول الله ﷺ ومكانته عند رب العالمين.

كذلك كانت هذه الرحلة بمثابة اختبار قاس لثبات الفئة المؤمنة على الإيمان، في وقت هم فيه قلة مُستضعفة، والدعوة فيه مُضطهدة، والقوم يُكذّبون الرسول ﷺ في مجيء الوحي إليه، فماذا سيقولون في ذهابه ﷺ إلى الشام وعروجه إلى السماء ؟

وهذا التمحيص جعله الله ملازما لدعوة نبيه ﷺ، بعد كل مرحلة يبتلي الله اتباع الرسل بما يمحصهم به؛ ليثبت المؤمنون وينخزل عنهم المنافقون، فبالمؤمنين فقط تنتشر الرسالات، وهذه الدعوة غنية عن جمع كغثاء السيل يقولون ولا يفعلون، تجدهم كالشعراء في كل واد يهيمون، وهذا التمحيص سُنّة مُلازمة لأصحاب الرسالات، يجعلها الله في طريق دعوتهم بين الحين والحين؛ ليختبر ثباتهم وصدق إيمانهم وقدرتهم على التضحية من أجل دعوتهم، ويبدو هذا جليا في مشوار الرسالة الطويل عبر سنوات الزمان البعيدة، كلما ازدادت الفتن ازداد معها الابتلاء على المؤمنين؛ ليميز الله الخبيث من الطيب، قال تعالى [وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الكَافِرِينَ](١) وقال [لِيَمِيزَ اللهُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ] (٢).

لقد كانت رحلة الإسراء والمعراج أعظم هدية إلى رسول الله ﷺ، فقد ارتقى فيها إلى مكانة لم يسبقه إليها أحد، ولن يلحقه بها أحد، ثم عاد منها بأعظم هدية إلى أمته، وهي الصلوات الخمس .

إلى السماء

إن حياة رسول الله ﷺ قبل الرسالة كانت دائما في مراحل إعداد متتابعة لتحمل أعباء هذه الرسالة وتهيئة الرسول ﷺ لاستقبال هذا الحدث الجلل وهو استقبال الوحي، ورؤيته على صورته الذي خُلق عليها، والآن وبعد انقضاء قرابة نصف عمر الرسالة في حياة الرسول ﷺ تأتي رحلة الإسراء والمعراج؛ لتمحو كل ما سبقها من آلام ومعاناة؛ ولتبدأ حياة الرسول ﷺ من بعدها

---

(١) [آل عمران:١٤١]

(٢) [الأنفال:٣٧]

وكأنها بدأت من جديد، إلا أن هذه الرحلة العجيبة بحاجة إلى إعداد خاص لتهيئة النبي ﷺ لرؤية ما شاء الله له أن يريه من آياته الكبرى، فكان حادث شق الصدر للمرة الثانية خطوة نحو هذا الإعداد .

فعَنْ أَنَس بْن مَالِكٍ ﷺ قَالَ: كَانَ أَبُو ذَرٍّ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ « فُرِجَ سَقْفُ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام فَفَرَجَ صَدْرِي ثُمَّ غَسَلَهُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا فَأَفْرَغَهَا فِي صَدْرِي ثُمَّ أَطْبَقَهُ » (١)

كذلك فإن رسول الله ﷺ كان دائما في ترق مستمر، تسمو روحه لتصل إلى أعلى درجات صفاء النفس، فكل هذه السنوات التي أعد فيها قبيل الرسالة؛ لتحمل أعبائها، ثم أمر الرسالة وما وجد بعده من ابتلاءات في سبيل تبليغها جعلت روح رسول الله ﷺ تبلغ ذروة تألقها وصفائها، بحيث أصبحت مهيأة تماما لاستقبال أجل وأعظم حدث في حياة الرسول ﷺ كلها .

عَنْ أَنَس بْن مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ « أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ - وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ بِهِ الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ خَرَجْتُ فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ عليه السلام بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ، فَقَالَ جِبْرِيلُ عليه السلام اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ. ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ مَنْ أَنْتَ ؟قَالَ جِبْرِيلُ. قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ مُحَمَّدٌ. قِيلَ وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عليه السلام. فَقِيلَ مَنْ أَنْتَ ؟

قَالَ جِبْرِيلُ. قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ مُحَمَّدٌ. قِيلَ وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ.

فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِابْنَيِ الْخَالَةِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَيَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّاءَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا فَرَحَّبَا وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ.

ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ. فَقِيلَ مَنْ أَنْتَ؟

قَالَ جِبْرِيلُ. قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ مُحَمَّدٌ قِيلَ وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ عليه السلام إِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ.ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عليه السلام قِيلَ مَنْ هَذَا؟ قَالَ جِبْرِيلُ. قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ مُحَمَّدٌ. قَالَ وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ عليه السلام فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا)ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ. قِيلَ مَنْ هَذَا؟ قَالَ جِبْرِيلُ.

---

(١)مسلم٤٢٩

قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ مُحَمَّدٌ. قِيلَ وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ.فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ عليه السلام فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عليه السلام، قِيلَ مَنْ هَذَا؟

قَالَ جِبْرِيلُ. قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ مُحَمَّدٌ. قِيلَ وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ؟

قَالَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى عليه السلام فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ مَنْ هَذَا؟

قَالَ جِبْرِيلُ. قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ مُحَمَّدٌ. قِيلَ وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ؟

قَالَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لاَ يَعُودُونَ إِلَيْهِ

ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى السِّدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَإِذَا وَرَقُهَا كَآذَانِ الْفِيلَةِ وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقِلاَلِ، فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا.

فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى، فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلاَةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ.فَنَزَلْتُ إِلَى مُوسَى عليه السلام فَقَالَ مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ خَمْسِينَ صَلاَةً.قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ يُطِيقُونَ ذَلِكَ فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ. قَالَ فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي فَقُلْتُ يَا رَبِّ خَفِّفْ عَلَى أُمَّتِي.

فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقُلْتُ حَطَّ عَنِّي خَمْسًا. قَالَ إِنَّ أُمَّتَكَ لاَ يُطِيقُونَ ذَلِكَ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَبَيْنَ مُوسَى عليه السلام، حَتَّى قَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ لِكُلِّ صَلاَةٍ عَشْرٌ فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلاَةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً - قَالَ - فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى عليه السلام فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ »(١)

---

(١)مسلم٤٣٣

أصبح رسول الله ﷺ في يومه هذا طيب النفس قرير العين مشرق الوجه، وكأن السنوات التي مضت من دعوته - والتي لاقى فيها ما لاقى من تكذيب وإعراض وأذى - وكأنها ما كانت، وكأن الدعوة قد بدأت من جديد؛ لتطوي صفحة من تاريخها، وتبدأ أخرى تُسطّر فيها تاريخ نصرها وتمكينها، وأول خطوات نصرها في تمحيص من آمن بها، فالدولة الجديدة لا مكان فيها لذوي العقائد الهشة، تزعزهم الشكوك والفتن، وتجزعهم الابتلاءات والمحن، والإسلام غني عن أمثالهم، عند الجد يكونون من مثبطي الهمم، وليس بأمثالهم تبنى الأمم وتنتشر الرسالات.

والإسراء رغم كونه هدية سماوية كان أيضا محنة وابتلاء، فالقوم يكذبون النبي ﷺ في خبر السماء وهم لا يُدركونه فكيف يصدقونه في رحلة الإسراء وفيها ما يُدركونه ؟

لقد أيقن النبي ﷺ أن واجبه كنبي مرسل أن يواجه الباطل بكل صوره، وألا يحابي أحدا على شرع الله ومنهجه، وأن ما تلاقيه دعوته من إعراض وتكذيب ليس بالخُلق الجديد في بني البشر، إنما هو خلق الأولين مع رسلهم، وما هؤلاء إلا تبع لهم، فقد اعتاد بنو البشر تكذيب الأنبياء والمرسلين، وما كان من رسل الله إلا الصبر حتى يأتيهم نصر الله.

كانت رحلة الإسراء وكأنها تحد قاص لمدى صدق رسول الله ﷺ في نفوس المسلمين والمشركين على السواء، فما أن أشرقت شمس اليوم الجديد حتى عزم رسول الله ﷺعلى إخبار الناس مسلمهم وكافرهم برحلة الإسراء والمعراج.

فعَن ابْن عَبَّاسٍ أن رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قال « لَمَّا كَانَ لَيْلَةُ أُسْرِيَ بِي وَأَصْبَحْتُ بِمَكَّةَ فَظِعْتُ بِأَمْرِي وَعَرَفْتُ أَنَّ النَّاسَ مُكَذِّبِيَّ » فَقَعَدَ مُعْتَزِلاً حَزِيناً ، فَمَرَّ عَدُوُّ اللَّهِ أَبُو جَهْلٍ فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ كَالْمُسْتَهْزِئِ هَلْ كَانَ مِنْ شَيْءٍ ؟

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « نَعَمْ » قَالَ مَا هُوَ قَالَ « إِنَّهُ أُسْرِيَ بِي اللَّيْلَة »

قَالَ إِلَى أَيْنَ؟ قَالَ « إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ »

قَالَ ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا إقَالَ « نَعَمْ »

قَالَ فَلَمْ يَرَ أَنَّهُ يُكَذِّبُهُ مَخَافَةَ أَنْ يَجْحَدَهُ الْحَدِيثَ إِذَا دَعَا قَوْمَهُ إِلَيْهِ، قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ دَعَوْتُ قَوْمَكَ تُحَدِّثُهُمْ مَا حَدَّثْتَنِي؟ فَقَالَ ﷺ « نَعَمْ »

فَقَالَ هَيَا يَا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ حَتَّى قَالَ فَانْتَفَضَتْ إِلَيْهِ الْمَجَالِسُ وَجَاءُوا حَتَّى جَلَسُوا إِلَيْهِمَا قَالَ حَدِّثْ قَوْمَكَ بِمَا حَدَّثْتَنِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « إِنِّي أُسْرِيَ بِي اللَّيْلَة »

قالوا إلى أينَ؟ قال « إلى بَيْتِ المَقدِسِ » قالوا ثمَّ أصبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا ؟ قالَ « نعَمْ » قالَ فمِنْ بَيْنِ مُصَفِّقٍ وَمِنْ بَيْنِ وَاضِعٍ يَدَهُ عَلى رَأسِهِ مُتَعَجِّبًا لِلْكَذِبِ. قالوا وَهَلْ تَسْتَطِيعُ أنْ تَنْعَتَ لنَا المَسْجِدَ ؟ وَفِي القوْمِ مَنْ قدْ سَافرَ إلى ذلِكَ البَلدِ وَرَأى المَسْجِدَ.فقالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « فذهَبْتُ أنْعَتُ فمَا زِلْتُ أنْعَتُ حَتَّى التَبَسَ عَليَّ بَعْضُ النَّعْتِ فجِيءَ بِالمَسْجِدِ وَأنَا أنظرُ حَتَّى وُضِعَ دُونَ دَارِ عِقالٍ أوْ عَقِيلٍ فنَعَتُّهُ وَأنَا أنظرُ إليْهِ » فقالَ القوْمُ أمَّا النَّعْتُ فوَاللَّهِ لقدْ أصَابَ (١)

خيّمت الدهشة والإنكار على وجوه الحاضرين، فكان أغلبهم من الوثنيين، فأخذ بعضهم ينظر إلى بعض ويسخر مما يسمع، حتى أن أحدهم ليضع يديه على رأسه خشية الانفجار من عجب ما يسمع، أتدعي يا محمد أنك ذهبت إلى بيت المقدس ثم عدت الليلة!

إنهم يتعجبون مما تدركه عقولهم، وكأنهم جاروا اليهود في تفكيرهم المادي عندما قالوا لموسى ﷺ (لنْ نُؤْمِنَ لكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً)(٢)

فإنما اندهشوا من تفاصيل رحلة الإسراء، فهي ما تستطيع عقولهم إدراكه، فهم يقصدون الشام في تجارة قد تتجاوز مدتها شهرا، ورسول الله ﷺ يقول إنه ذهب وعاد في ليلة، أما رحلة المعراج فربما لم يجادلوا فيها، فقد أنكروا قول الرسول ﷺ بأنه يأتيه الوحي من السماء، فيتساوى هذا مع عروجه إلى السماء، لذا كانت رحلة الإسراء بحاجة إلى معجزة أخرى لرسول الله ﷺ تبهر عقولهم، وتؤكد صدقه وظهوره عليهم، فكان أن جلا الله عز وجل لرسوله ﷺ بيت المقدس ليصفه لهم، وهم على علم بأن رسول الله ﷺ لم يأت المسجد الأقصى من قبل .

عن جَابِرِ بْن عَبْدِ اللَّهِ أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قالَ « لمَّا كذَّبَتْنِي قُرَيْشٌ قُمْتُ فِي الحِجْرِ فجَلا اللَّهُ لِي بَيْتَ المَقدِسِ فطفِقتُ أخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأنَا أنظرُ إليْهِ » (٣)

وموقف المشركين من رحلة الإسراء يظهر مدى غياب القيم الروحية عن هذا المتجمع، فحينما تطغى المادية على الأفكار وتأسر العقول والقلوب، يصعب على البشر إدراك ما لا تقوى عقولهم على استيعابه أو تجسيده أو تصوره، وهنا تتجلى لنا المفارقة الحقيقية بين الإسلام والجاهلية، فالإسلام يرتقي بالروح لإدراك معان سامية وقيم روحية فاضلة وأخلاق نبيلة من شأنها أن تحفظ للإنسان كرامته، وتحدد له وجهته، وترسم له خطاه؛ ليشعر بذاته وبكرامته .

---

(١)مسند أحمد ٢٨٣٧ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٢٩ رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح، وقال الألباني في كتابه الإسراء والمعراج: أخرجه أحمد والطبراني١٢٧٨٢ وسنده صحيح

(٢)(البقرة:٥٥) (٣)مسلم ٤٤٦.

أما الجاهلية بكل صورها فهي تجاهل للقيم الروحية؛ لاستعباد للبشر والهيمنة على عقولهم وأفكارهم، وأسر قلوبهم ليغرقوا في مستنقع الأفكار المادية التي تجعل الإنسان أسير هواه وشهواته.

هكذا كان موقف المشركين من رحلة الإسراء، فربما أعطتهم نشوة انتصار ازدادوا بها سخرية واستهزاء برسول الله ﷺ والمسلمين، رغم ما أيده الله به من معجزة قد أقروا بصدقه فيها، إلا أنهم قوم ألفوا الجدال والتكذيب، وتمادوا في الإعراض والسخرية والاستهزاء حتى من تعاليم الشريعة السماوية!

أما المسلمين فكانت هذه الرحلة بمثابة اختبار قاس لثبات الإيمان في قلوبهم، فأمام هذا الكم من السخرية التي قوبل بها حديث رسول الله ﷺ عن الإسراء، فقد تردد بعض المسلمين في إظهار ثقته وتأييده لرسول الله ﷺ، بل إن البعض قد دخله الشك من أمر رسول الله ﷺ فارتد مشركا، فعَن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ثُمَّ جَاءَ مِنْ لَيْلَتِهِ فَحَدَّثَهُمْ بِمَسِيرِهِ وَبِعَلَامَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَبِعِيرِهِمْ فَقَالَ نَاسٌ نَحْنُ نُصَدِّقُ مُحَمَّداً بِمَا يَقُولُ؟ فَارْتَدُّوا كُفَّاراً فَضَرَبَ اللَّهُ أَعْنَاقَهُمْ مَعَ أَبِي جَهْلٍ. (١)

أما المؤمنين الذين أنار الله قلوبهم بزينة الإيمان، فما احتاجوا إلى دليل على صدق رسول الله ﷺ بل آمنوا وأقروا بغير تردد أو شك، فها هو الصديق يضرب أروع الأمثلة في تمكين الإيمان في القلب وقوته، فما أن تعجب القوم من حديث رسول الله ﷺ حتى هرولوا إلى الصديق، جاهدين في أن يبثوا الإنكار في قلبه من حديث رسول الله ﷺ، لكن الصديق قد أدرك الإيمان حقا فما عاد يرى إلا ببصيرة المؤمنين، فرد كيدهم وأقر بصدق رسول الله ﷺ فكان تصديقه لرسول الله ﷺ من أعظم الدوافع التي ثبتت إيمان الفئة المؤمنة، فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: لما أسري بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه، وسمعوا بذلك إلى أبي بكر ﷺ، فقالوا هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس، قال أو قال ذلك ؟ قالوا نعم. قال لئن كان قال ذلك لقد صدق. قالوا أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟! قال نعم أني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة فلذلك سُمي أبو بكر الصديق (٢) وما أن فرغ رسول الله ﷺ حتى شرع في تعليم المؤمنين الصلوات الخمس، وأوقاتها، وبيّن لهم فضلها، ومكانتها من الدين.

---

(١)مسند أحمد٣٦١٢ وحسنه الألباني في كتاب الإسراء ص٧٥

(٢)مستدرك الحاكم ٤٤٠٧وقال هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي

الوقفة الأولى((فرض الصلاة)): خمس صلوات في اليوم والليلة، كانت الهدية التي عاد بها رسول الله ﷺ من السماء، فكأن المعراج لم ينتهِ بعد، ففي كل يوم تعرج روح المؤمن خمس مرات، تتسامى نفسه عن الدناءات وتعلو بقدر إخلاصها وصفائها؛ لترتقي أعلى الدرجات، ولك أن تُشاهد هذا جليا في صلاة مذنب قد تاب وعاد إلى الله؛ ليقف بين يديه وكأن روحه تناجي ربها عند سدرة المنتهى!

خمس صلوات تُطهر الأبدان من روث الدنيا وشهواتها، وترتقي بالقلوب من هموم الدنيا وملذاتها، عبادة ترفع من قدر المؤمن، وتمحو ذنوبه وآثامه، تخترق كل الحواجز التي صنعها البشر بينهم وبين خالقهم؛ لتبني ارتباطا بالمشاعر والواجدان بين العبد ورحمة ربه عز وجل، عبادة تعمر القلوب الفارغة، وتهدي العقول الحائرة.

خمس صلوات قدر يسير من العبادة فإن الدين لا يعرف المغالاة في العبادات.

قال تعالى [يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ] (١)

وقال [لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ] (٢)

وقال [يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا] (٣)

لقد كان تحديد عدد الصلاة رمزا لرفض المغالاة في العبادات، فالله سبحانه لا يكلف نفسا فوق طاقتها واستطاعتها. ففي صحيح البخاري عن طلحة بن عبيد الله ﷺ قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ، ثَائِرُ الرَّأْسِ، يُسْمَعُ دَوِيُّ صَوْتِهِ، وَلاَ يُفْقَهُ مَا يَقُولُ حَتَّى دَنَا، فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الإِسْلاَمِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ » فَقَالَ هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا قَالَ « لاَ، إِلاَّ أَنْ تَطَوَّعَ » قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « وَصِيَامُ رَمَضَانَ » قَالَ هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ قَالَ « لاَ، إِلاَّ أَنْ تَطَوَّعَ » قَالَ وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الزَّكَاةَ قَالَ هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا قَالَ « لاَ، إِلاَّ أَنْ تَطَوَّعَ » قَالَ فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ وَاللَّهِ لاَ أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلاَ أَنْقُصُ .قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أفلح إِنْ صَدَقَ (٤)

فهكذا تُعرض العبادات بما يرغب فيها النفس ويشوقها إلى أدائها، لا بما يدفع القلب إلى النفور منها والملل من تكرارها .

---

(١){البقرة:١٨٥} (٢){البقرة:٢٨٦}

(٣){النساء:٢٨} (٤)البخاري ٤٦

لقد استقبل الصحابة التكليف بالصلاة بشوق ولهفة، وكأنهم وجدوا ضالتهم التي لطالما أنشدوها في جاهليتهم، الاتصال بالخالق سبحانه في كل وقت بلا وساطة من أحد، ما هو إلا طهارة البدن، ثم تتصل الروح بخالقها، تناجيه وتتضرع إليه في شوق المحبين ودموع المذنبين، لا ينقطع اتصالها بربها طوال اليوم، بل إنه اتصال أبدي ما دام هناك روح في الجسد لا يسقط لأي عُذر.

ومكانة الصلاة في الدين لا تخفى على كل ذي عقل، فهي معيار الإخلاص والرياء، ومعيار الإيمان والنفاق، ومعيار القرب من الله والبعد عنه، ومعيار الطمع في رحمة الله، بل إن الطريقة التي فرضت بها الصلاة كافية في حد ذاتها لبيان فضلها ومكانتها في الدين، فكل العبادات جاءت عن طريق الوحي، إلا الصلاة استُدعي لها رسول الله ﷺ.

لكن أكل وقوف بين يدي الله صلاة ؟ إن الصلاة التي افترضها الله علينا هي الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر وتسمو بصاحبها من الاستمرار في الدناءات، واقتراف المعاصي، فهي ليست رياضة أبدان تركع وتسجد والقلوب في شهوات الدنيا تمرح وترغد وما أن انتهت الصلاة جاهرت ربها بالذنوب والمعاصي من غير توبة ولا حياء . قال تعالى [اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ] (١) قال أبو العالية عن هذه الآية " إن الصلاة فيها ثلاث خصال، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليست بصلاة، الإخلاص والخشية وذكر الله، فالإخلاص يأمر بالمعروف، والخشية تنهاه عن المنكر، وذكر الله القرآن يأمره وينهاه(٢) فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ فُلَانًا يُصَلِّي بِاللَّيْلِ فَإِذَا أَصْبَحَ سَرَقَ، قَالَ ﷺ « إِنَّهُ سَيَنْهَاهُ مَا يَقُولُ » (٣)

هذه هي الصلاة التي افترضها الله على العباد، عبادة تزكي نفوسهم، وتطهّر قلوبهم قبل أبدانهم، عبادة تشغل حيزا في حياة المؤمن اليومية يكاد اتصاله بربه لا ينقطع، يبدأ اتصاله بها ساعة مولده وهو لا يكاد يفقه قولا، فيؤذن في أذنه، ثم تلازمه مشوار حياته بين فرض ونافلة، يبدأ يومه بركعتي الفجر ويختمه بركعة الوتر، فإذا احتار في أمر صلى، وإذا حزبه أمر صلى، وإذا أذنب صلى، وإذا خسفت الشمس أو كسف القمر صلى، وإذا أجدبت السماء صلى، وإذا بشر بالخير سجد شكرا لله تعالى، وإذا وافته المنية وقدم على ربه كان آخر عهده بالدنيا، **فكأنها منهاج حياة** من الميلاد إلى ما بعد الممات.

---

(١) [العنكبوت:٤٥] (٢) انظر تفسير ابن كثير للآية

(٣)مسند أحمد ١٠٠٣٠ والبيهقي في شعب الإيمان وصححه الألباني في مشكاة المصابيح حديث١٢٣٧

الوقفة الثانية ((الإسراء والأقصى الجريح)) ذكرى الإسراء والمعراج كلما هفت على النفس نسماتها، أنَ القلب على حال مسرى رسول الله ﷺ وقد غدا جرح غائر ينزف كل يوم دما من جسد الأمة الإسلامية .

الأرض المقدسة مهجر الأنبياء ومسرى خاتمهم، إرث الأنبياء وأحق به خاتمهم. المسجد الأقصى، جاء ذكره في القرآن، وكأنه بشارة للمسلمين بأن دينهم سيظهر، ودولتهم ستتسع، فإنه يومها لم يكن مسجدا، وأرض الشام يومها كانت تحت الاحتلال الروماني، فجاء ذكره صريحا في القرآن كتوطئة للأحداث القادمة في تاريخ الدولة المسلمة، ثم جعله الله دسرى رسوله ﷺ وبوابة السماء؛ ليربط وجدان المسلمين به وبعظيم شأنه ففطن الصحابة لهذا الأمر، وما أن استقرت أحوال الجزيرة حتى خرجت جيوش الفتح الإسلامي لتحرير بيت المقدس وضمُه إلى كنف دولة الإسلام، ودانت الأرض المقدسة للإسلام عقيدة ومنهجا، وتولاها المسلمون بالرعاية والاهتمام وبُني المسجد الأقصى وعشرات المساجد بها، وغدت القدس الضلع الثالث في مثلث البلدان داخل قلوب المسلمين.

مكة والمدينة والقدس، هكذا اعتاد المسلمون ذكرها، وأعجب ما في تاريخها أنها مختبر إيمان المسلمين، ووسيلة جمع شملهم بعد الفرقة، فكلما داهمتها النكبات فطن المسلمون أنه الابتلاء الأكبر ببعدهم عن منهج الله، وأيقنوا أن عودتها مقترن بالعودة إلى المنهج الإلهي، فهكذا حدث مع الصليبيين، والتاريخ حوادث تتكرر، فما أشبه اليوم بالبارحة، فإنما هي فترات متفاوتة بين أحداث الزمان المتشابهة .

لقد جاء الصليبيون إلى الشرق تحت وطأة الجوع والجهل الذي خيّم على أوربا، فأعدّوا حملاتهم تحت ستار الدين واستولوا على القدس وغيرها من البلدان، ولم يدم الحال طويلا حتى هبّت الأمة من غفلتها، وفطنت إلى أهداف أعدائها، وأيقنت أن القدس بوابة عزها ومجدها، فإن تلطخت أرضها وصمت بالعار حتى تستردها .

ثم جاء اليهود ليحققوا ما أخفق فيه الصليبيون، إلا أنهم لم يستتروا خلف عباءة الدين، وإنما كانت عقيدتهم هي المحرك لأهدافهم، فالأقصى قد سُلب بعقيدة، ولن ينتزع منهم إلا بعقيدة أصح من عقيدتهم، ولا عقيدة أصح منها سوى إتباع شرع الله ومنهجه .

لقد نجح الإعلام الصهيوني في تحويل أبعاد القضية عند المسلمين، فبدأ الصراع معهم باعتبار القدس قضية إسلامية فما زالوا بالحكام والمحكومين حتى جعلوها قضية عربية، ثم قضية فلسطينية، وكل هذا لخروجها عن نصابها الصحيح

وصرف أفئدة المسلمين عنها، وتغييب مفهوم الجهاد من أجلها، إلا أن هذا النجاح نجاح زائف ونصر مؤقت، لا يشهد له التاريخ بالبقاء والاستمرار، والعودة إلى الإسلام كمنهج حياة أمر محقق، لأنه بشارة نبوية ووعد صادق غير مكذوب.

قال رسول الله ﷺ « لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَلا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلا وَبَرٍ إِلاَّ أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الإِسْلامَ وَذُلاًّ يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ » (١)

وقال ﷺ«لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوِ الشَّجَرُ يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ. إِلاَّ الْغَرْقَدَ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ » (٢)

الوقفة الثانية (الإسراء دعوة إلى التقدم العلمي) في عصر السيف والجمل

جاءت معجزة الإسراء والمعراج كتحد للبشرية أبد الدهر أنه مهما توصلتم من اختراعات وتقدم في تكنولوجيا الاتصالات، فإن لرسول الله ﷺ السبق في الخروج عن نطاق الأرض وجاذبيتها، بل والعروج إلى حيث لا يستطيع أحد أن يبلغ .

والرموز التي حوتها هذه الرحلة تأخذ بعقول المسلمين إلى أفق أوسع مما هم عليه، فهذا البُراق في رحلة خرجت عن نواميس الكون تأتي صفته على لسان النبي ﷺ " دابة تضع حافرها عند مُنتهى بصرها " فلماذا هذا الوصف الدقيق في رحلة اخترقت حاجز الزمان والمكان ؟

لقد جاءت كلمات الرسول ﷺ ووصفه للأحداث بما يناسب عقولهم ومداركهم آنذاك، لكنه يحمل أيضا بين طياته أفكار للمستقبل، فالأمر لن يقتصر على الخيل والجمل، وإنما يمكن ابتكار وسائل أخرى، أسرع وأيسر، والآن وبعد عشرات القرون من هذه الرحلة نشاهد ما صنعه البشر من آلات تسير أسرع من الصوت، فكأن البراق رمز يأخذ بعقول الأمة إلى التفكير والابتكار وتطويع كل مقومات الدنيا؛ لتيسير أحوال الناس، وهو رمز يُعني به أيضا بنو البشر جميعا أنه مهما توصلتم من اختراعات، فإنكم ما أوتيتم من العلم إلا قليلا (وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ) (٣) (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) (٤)

---

(١)مسند أحمد١٧٤٢٠ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٣٢/١ حديث٣

(٢) مسلم ٧٥٢٣ (٣)(النحل:٨)

(٤)(الإسراء:٨٥)

ثم معنى آخر يتجلى في قول النبي ﷺ «فَذَهَبْتُ أنعتُ فمَا زِلتُ أنعَتُ حتَّى التَبَسَ عليَّ بَعْضُ النَّعْتِ فجِيءَ بالمَسْجِدِ وَأنا أنظرُ حتَّى وُضِعَ دُونَ دَارِ عِقالٍ أوْ عَقيلٍ فنعتُهُ وَأنا أنظرُ إليْهِ»

والآن نرى الثورة التكنولوجية التي تنقل الأحداث مباشرة في أي موضع بالكرة الأرضية لأي موضع بها، وكان التباس الوصف على رسول الله ﷺ أمر مقصود قدره الله تعالى؛ لتحريك عقول الأمة إلى إمكانية عرض الأحداث في غير موضع حدوثها، وإلى إمكانية ابتكار وسائل تبدو في زمن من الأزمنة كمعجزة.

ثم يأتي رمز آخر يحمله المعنى اللغوي لكلمة العروج، والعروج هو الصعود في غير خط مستقيم فلماذا ؟

إن عقولهم ما كانت تدرك سوى الأرض وما عليها، والسماء وما يرونه فيها، وكانوا يعتقدون أن ما بينهما هواء لا غير، فلماذا لا يكون الصعود في خط مستقيم ؟ فحتى معاني الكلمات كانت تأخذ بعقولهم إلى التفكير في اكتشاف أسرار الكون والتعرف على خباياه وطبيعته، والذي من شأنه أن يعمّق الإيمان بالله، ويبرهن على وحدانية الملك القهار[سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أنَّهُ الحَقُّ أوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ] (١)
والرحلة من مبدأها إلى منتهاها إثارة للعقل على التفكير في كل جزئيات أحداثها، الانتقال من مكان إلى آخر بوسيلة يمكن للعقل استيعابها، والعروج إلى السماء واختراق نطاق جاذبية الأرض، أليست أفكارا تعطي للعقل وميض للبحث والتأمل، تعطيه الدافع للابتكار والاختراع ، ثم تحتفظ في ذاتها بالمعجزة

إن المتأمل لأحداث سيرة رسول الله ﷺ يجدها تحمل معان وقيم ودلالات تخدم كل عصر، بل إنها أحداث تخاطب كل عصر بلغته التي يُجيدها، ففي الوقت الذي تشهد فيه البشرية ثورة تكنولوجية لم تسبق، ها نحن نتحدث عن تفاصيل أعمق بكثير وأشد إبهارا مما يتحدث عنه رواد الفضاء في رحلاتهم للفضاء، أليس في هذا دليل على أن أحداث السيرة كلها أحداث مقصودة لتربية الأمة في كل زمان، وبكل لغة يجيدها أهل هذا الزمان

لقد جاءت دلالات كثيرة في القرآن تأخذ بعقول الأمة إلى أن ما توصل إليه أهل كل زمان ليس نهاية المطاف وليس آخر الاكتشافات، وإنما هو خطوة في مشوار ارتقاء الاجتماع البشري وازدهاره. لتظهر لنا حقيقة أخرى، وهي دعوة الدين إلى العلم

---

(١){فصلت:٥٣}

فالدين الذي بدأ دعوته بـ [اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ] (١)

والدين الذي فيه [إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ](٢)

والدين الذي فيه [قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ](٣)

والدين الذي فيه قول النبي ﷺ « مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ »(٤)

أنّى لدين يحمل كل هذه التعاليم والدعوات الصريحة إلى طلب العلم، وبيان عظيم فضله، وكبير أجره، أن يوصم أهله بالتخلف والرجعية، وأنّى له أن يكون سببا فيما آل إليه المسلمون الآن من تبعية فكرية، وتخلف ملحوظ عن ركب التقدم العلمي! إن العيب ليس قطعا في المنهج والعقيدة، وإنما في المنتسبين إليه اسما ورسما، وهم بعيدون عنه بعد المشرق من المغرب .

نشعر دائما أننا أقل من الغرب، ولا أدري من أين جاء هذا الإحساس بالعجز والقصور! بالضعف والتخلف !

نتحدث عن الغرب وكأنهم كوكب دُري لم تر البشرية من قبل له مثيل! رغم أن كل من اخترق أجواءه كشف عن زيغه وتفككه، وأظهر ضعف بنائه وعدم تماسكه، فمن أين جاءت هذه الهزيمة النفسية للعرب والمسلمين؟

الهزيمة التي شملت كل مناحي الحياة، الفكرية قبل الاقتصادية، والسياسية قبل العلمية !

إن التاريخ كله يشهد للمسلمين أبد الدهر بالعزة والسيادة والسبق العلمي والريادة الفكرية، فالغرب أنفسهم لم يجدوا حرجا في إنساب الصحوة العلمية التي يشهدونها الآن إلى علماء المسلمين، فهذا فرانسيس باكون الذي يُعدُّ منشئ العلم التجريبي، جاء عدد من العلماء الغربيين أمثال درابر، وكارليل، وجوستاف لوبون ليعلنوا صراحة أن (باكون) هو تلميذ المسلمين، وأن مثقفي الغرب هاجروا إلى الأندلس واستمعوا إلى علماء المسلمين، وأن المنهج التجريبي هو من صناعة المسلمين (جابر بن حيان وابن الهيثم والبيروني وغيرهم)

---

(١) {العلق:١}　　　(٢) {فاطر:٢٨}　　　(٣) {الزمر:٩}

(٤) سنن أبي داوود ٣٦٤٣ و سنن ابن ماجة ٢٢٨ وصححه الألباني في سنن أبي داوود ٣/١٧ حديث: ٣٦٤١

وهذه الدكتورة سجريد هونكه كشفت هذه الحقيقة الساطعة في كتابها (شمس الله تشرق على الغرب) لتبين دور المسلمين العظيم فيما قدّموه من بدايات وإضافات لعلوم كثيرة، ليست العلوم التجريبية والطبية والفلكية وحدها، ولكن في علوم السياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية، مما يُعد في نظر المثقفين (الطابق الأول) للحضارة المعاصرة.

وهذا ديكارت الفيلسوف الفرنسي الشهير صاحب مذهب الشك حتى تصل إلى اليقين، قد كشف العلماء المتخصصون أن مذهب ديكارت هو مذهب إسلامي مأخوذ من الإمام الغزالي ومن رسالته (المنقذ من الضلال) بل إن المرحوم الأستاذ عثمان الكعاك المؤرخ التونسي قد شاهد بنفسه في مكتبة السربون تراث ديكارت وقرأ تعليقه على رسالة المنقذ من الضلال بالفرنسية . (١)

إننا بحاجة إلى أن نصارح أنفسنا حكاما ومحكومين، علماء وأدباء ومصلحين، أباءً ومربين - إن كنا نريد عزة هذا الدين - لماذا نحن في آخر الركب؟ ولماذا نحن دائما المتهمون؟ ولماذا ديننا الوحيد من بين كل هذه العقائد المتناثرة في كل ربوع الدنيا الذي تتحد عليه قُوى الشرك وتحاربه بكل الوسائل؟

الوقفة الرابعة ((الإسراء دعوة إلى الأخذ بالأسباب)) ويأتي رمز آخر في هذه الرحلة التي اخترقت حاجز الزمان والمكان، أنها أقرت بالأخذ بالأسباب، فرغم خروجها عن نواميس الكون وإعجازها، إلا أنها لم تعارض سُنّة الله في الأخذ بالأسباب، فهذا البراق يركبه رسول الله ﷺ إلى القدس، ثم يربطه في الحلقة، ثم يعرج به إلى السماء، وهذا كله أخذا بالأسباب؛ ليعي كل مسلم أن عليه بلوغ منتهى الأسباب والسعي لتحقيق هدفه، حتى فيما يتوهم عجزه عن صنعه، ويترك النتائج لله، وهذا هو معني التوكل في الإسلام " الاعتماد علي الله ظاهرا وباطنا مع الأخذ بالأسباب دون الاعتقاد فيها أو الاتكال عليها، وترك النتائج إلى الله عز وجل ثم الرضا بها مهما كانت" وهذا هو المقصود بحديث رسول الله ﷺ أعقلها وتوكل .

فعن أنس ﷺ أن رجلا وقف بناقته على باب المسجد وأراد الدخول فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟ قَالَ « اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ » وفي رواية " قيد وتوكل " وأخرى " قيدها وتوكل " (٢)

---

(١) موسوعة البحوث والمقالات العلمية - (ج ٣٢ / ص ٢)

(٢) سنن الترمذي ٤٤١٥ وحسنه الألباني في جامع الترمذي ٤/٦٦٨حديث ٢٥١٧ وفي رواية قيد وتوكل وقيدها وتوكل، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير ٤٤٣٢و٤٤٣٣

فالسائل لم يُميّز بين التوكل والأخذ بالأسباب، أو أنه قد شعر بتعارض بينهما فوجهه النبي ﷺ إلى الجهة التي يقصدها الإسلام بالتوكل وحقيقة المعنى والمقصد ، وأنه لا يتعارض والأخذ بالأسباب، قال الإمام النووي: وفي ربط البراق الأخذ بالاحتياط في الأمور وتعاطي الأسباب، وأن ذلك لا يقدح في التوكل إذا كان الاعتماد على الله سبحانه وتعالى. (١)

وقال السهيلي: وَفِي هَذَا مِنْ الْفِقْهِ التّنْبِيه عَلَى الْأَخْذِ بِالْحَزْمِ مَعَ صِحّةِ التّوَكّل، وَأَنّ الْإِيمَانَ بِالْقَدَرِ- كَمَا رُوِيَ عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبّهٍ- لَا يَمْنَعُ الْحَازِمُ مِنْ تَوَقّي الْمَهَالِك. قَالَ وَهْب: وَجَدْتُهُ فِي سَبْعِينَ كِتَابًا مِنْ كُتُبِ اللهِ الْقَدِيمَةِ، وهذا نحو من قوله ﷺ" قَيّدْهَا وَتَوَكّلْ" (٢)

وقال مُطرِّف بن عبد الله: من نامَ تحت صَدَفٍ مائل وهو ينوى التَّوكل فليَرْمِ بنفسِه من طمَار وهو ينوى التَّوكل. والصدف هو البناء المرتفع يظهر ميله واحتمال انهياره، ثم ينام تحته العبد، ويدّعي أنه متوكل على الله عز وجل فهذا مثله مثل من يلقي بنفسه من أعلى جبل ثم يدّعي التوكل! أي أنه أنّه لا ينبغي لأحَد أنْ يُعرِّض نَفْسه للمهالك ويقول : قد توكلت على الله، لأنّه قد أمَرَ بالحُذَرَ (٣)

إن إرادة الله عز وجل لا تنافي مقتضيات العقل ومعطيات الفكر البشري، لذا جعل الله العقل ملازما للسمع في الإيمان، فقال على لسان أهل النار [وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ] (٤)

فالإسلام لا يدّعي لأهله الخوارق أو بلوغ المجد دون السعي من أجله، والإسلام لا يقف بالمسلمين عند أداء العبادات ويجعلهم كالآلة المقيدة بأوامر محددة لا تتخطاها، فما العبادات من الدين إلا ركن يقوم عليه البنيان الشامخ القائم على شرع الله ومنهجه في شتى المناحي؛ ليُجسّد الدين في واقع الحياة، وهذا البنيان يكتسب قوته وضمان استقراره من قوة أهله، فإن كان في أهله وهنٌ فهو بنيان خاو على عروشه.

ولله در القائل: علي المرء أن يسعى إلي الخير جهده، وليس عليه أن تتمّ المطالب أو أن يدرك المقاصد

---

(١) شرح النووي على مسلم - (ج ٢ / ص ٢١١)

(٢) الروض الأنف - (ج ٢ / ص ١٩٠)

(٣) غريب الحديث لابن قتيبة - (ج ٣ / ص ٦٦٠)

(٤) {الملك: ١٠}

الوقفة الخامسة ((الإسراء والمعراج بناء عقائدي، ودرس تربوي، وتوجيه أخلاقي)) قال الإمام حسن البنا رحمه الله ((إن الإسراء والمعراج مادة أساسية في منهاج التربية الإلهية، وذلك أن الله تعالى أعدّ رسوله الكريم ﷺ ليكون سيد المربين والمعلمين، فلابد أن يكون بمنزلة من العلم تفوق أي منزلة سواها من منازل البشر، ولهذا طاف الله به في السموات ليكون إيمانه رؤية ومشاهدة وليس إيمانا نظريا))(١)

فالإسراء والمعراج حدث مقصود به تربية الرسول ﷺ وتربية الأمة، فأما تربية الرسول ﷺ فيما أراه الله من الآيات البينات، وما ارتقى به إلى أعلى الدرجات، وما كشفه له من الغيب، فثبّت الله به فؤاده وربط على قلبه وشدّ من عزيمته لمواجهة المرحلة المقبلة من الدعوة، والتي تختلف عن المرحلة السابقة في الشكل والمضمون، في الوسائل والأساليب، في تتابع الأحداث وفي نتائجها، إنها حقا مرحلة بحاجة إلى إعداد جديد وتثبيت لقلب الرسول ﷺ ليقوى على مواجهة الطغيان، ومحاربة كل صور الشرك والضلال من وثنية ومجوسية إلى يهودية ونصرانية قد تآمروا جميعا على الدعوة والرسول ﷺ ، وقد ظهرت نتائج هذه التربية الإلهية من اليوم التالي للإسراء مباشرة، فقام رسول الله ﷺ ليحدّث المشركين عن تفاصيل رحلته قبل أن يخبر بها المؤمنين وهو على يقين من رد فعلهم وسفاهة أقوالهم إلا أنه اليقين بأن الله ناصره ولن يخذله، وأن الدعوة الصادقة إلى الله تقتضي الشجاعة والإقدام في التبليغ، وأن التراجع والتأني في عرض حقائق الدين لن يزيد الدعوة إلا نفورا منها وإعراضا عنها .

ثم ظهرت آثار هذه التربية الإلهية في رحلة الهجرة، حينما أشهرت مكة عشرات السيوف طالبة دمه، وهو بكل يقين يقول لصاحبه « لاَ تَحْزَنْ ، إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا » (٢) ثم ظهرت آثارها طيلة العهد المدني وما كان فيه من محن وابتلاءات لم يسلم منها شيء، حتى جسد رسول الله ﷺ بل وحتى عرضه الشريف .

أما تربية الأمة فبكل ما حملته رحلة الإسراء والمعراج من تفاصيل، وفي كل ما شاهد رسول الله ﷺ من الآيات والغيبيات، فبناء عقائدي يجسده تصديق رسول الله ﷺ فيما يُبَلّغ عن ربه عز وجل وإن خالف العادة والمألوف، وإن خالف مقاييس العقل والواقع، وإن خالف حتى نواميس الكون، هذا البناء العقائدي الذي جعل أبو بكر يُلقب بالصديق وجعل فئة من المسلمين يرتدوا على أدبارهم نفورا، وجعل فئة أخرى في حيرة وشك مُريب بين تصديق وتكذيب.

---

(١)السيرة النبوية دروس وعبر، مقال بعنوان نظرات في الإسراء والمعراج بقلم: الإمام حسن البنا

(٢) البخاري ٣٦١٥ ومسلم٧٧٦٠

ثم بناء تربوي أخلاقي فيما رأى رسول الله ﷺ من الغيبيات بمصائر البشر جراء أفعالهم، فنقل رسول الله ﷺ صورا شتى لهذه المصائر وللأسباب التي قادتهم إليها، نذكر منها قول النبي ﷺ« رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِىَ بِي رَجُلاً يَسْبَحُ فِي نَهَرٍ وَيُلْقَمُ الْحِجَارَةَ فَسَأَلْتُ مَا هَذَا فَقِيلَ لِي آكِلُ الرِّبَا » (١)

وقال ﷺ « أتيت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار، كلما قرضت وفت، فقلت يا جبريل من هؤلاء؟ قال خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون ويقرءون كتاب الله ولا يعملون به» (٢)

وقال ﷺ « دخلت الجنة ليلة أسري بي فسمعت في جانبها وجسا فقلت يا جبريل ما هذا قال هذا بلال المؤذن» (٣)

وقال ﷺ« دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَرَأَيْتُ قَصْرًا مِنْ ذَهَبٍ فَقُلْتُ لِمَنْ هَذَا ؟ قَالُوا لِفَتًى مِنْ قُرَيْشٍ. فَظَنَنْتُهُ لِي فَإِذَا هُوَ لِعُمَرَ »فقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لعمر « مَا مَنَعَنِي يَا أَبَا حَفْصٍ أَنْ أَدْخُلَهُ إِلاَّ مَا أَعْرِفُ مِنْ غَيْرَتِكَ » قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ كُنْتُ أَغَارُ عَلَيْهِ، فَإِنِّي لَمْ أَكُنْ أَغَارُ عَلَيْكَ.(٤)

وقال ﷺ« رأيت إبراهيم ليلة أسري بي فقال يا محمد أقرئ أمتك السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأنها قيعان وغراسها (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ») (٥)

ومن الفوائد التربوية والتوجيهات الدعوية في رحلة الإسراء والمعراج :

١- لما خُير رسول الله ﷺ بين الخمر واللبن اختار اللبن، فقال له جبريل " اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ " وفي رواية " فقيل لي هديت الفطرة أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك "(٦) وفي هذا إشارة إلى أن الإسلام دين الفطرة المتماشي مع طبيعة الإنسان، وأن الانحراف عنه يُعدُ انحرافا عن الفطرة السليمة، فالفطرة كاللبن على طبيعته لم يتغير، أما الخمر فهو ناتج من تغير كيماوي لعناصر الخمر كالعنب أو التمر أو غيره.

---

(١)مسند أحمد ٢٠٦٣٤

(٢)صحيح وضعيف الجامع الصغير ١٢٩ وقال الألباني حسن وصحيح ابن حبان كتاب الإسراء حديث٥٣

(٣) صحيح وضعيف الجامع الصغير ٣٣٧٢ وقال الألباني صحيح

(٤)مسند أحمد ١٣٣٢٤ وصحيح ابن حبان كتاب الإسراء حديث ٥٤

(٥)صحيح وضعيف الجامع الصغير ٣٤٦٠ وقال الألباني حسن

(٦) صحيح ابن حبان ٥١

كما أن فيه إشارة إلى أن أخطار الخمر تتجاوز الفرد لتشمل الأمة كلها، ففيها هلاك الأمة وضياعها، لذا قال عنها رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « الْخَمْرُ أُمُّ الْخَبَائِثِ وَمَنْ شَرِبَهَا لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ مِنْهُ صَلاَةً أَرْبَعِينَ يَوْمًا فَإِنْ مَاتَ وَهِيَ فِي بَطْنِهِ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً » (١)

٢ـ في استئذان جبريل عليه السلام عند كل سماء إشارة إلى أدب الاستئذان، والإفصاح عن الاسم، وآداب الاستئذان قد تناولها الإسلام بكل جوانبها، تأكيدا على حرمة البيوت وصون أهلها من الحرج أو المضايقة، والحفاظ على ستر العورات، والعورات هنا تشمل كل ما لا يُرغب الإطلاع عليه من أحوال البدن والطعام والشراب واللباس والمتاع بل وحتى عورات المشاعر والحالات النفسية من غضب وبكاء وأنين وتوجع، فكل هذا يحفظه أدب الاستئذان، لذا جاءت الإشارة إليه في غير موضع في القرآن والسنة، قال تعالى [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ](٢) وفي الصحيحين عن جابر رضي الله عنه قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي دَيْنٍ كَانَ عَلَى أَبِي فَدَقَقْتُ الْبَابَ فَقَالَ « مَنْ ذَا » فَقُلْتُ أَنَا. فَقَالَ « أَنَا أَنَا » كَأَنَّهُ كَرِهَهَا (٣)

٣ـ في حديث موسى عليه السلام لرسول الله ﷺ فوائد عدة، منها ضرورة تقديم النصيحة لمن هو في حاجة إليها، ففي الحديث الصحيح أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ « الدِّينُ النَّصِيحَةُ » قيل لِمَنْ ؟ قَالَ « لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ »(١) كذلك فإن التجارب تُنقل معارف الإنسان، والاستفادة منها دليل على حسن استيعابها، فهذا موسى عليه السلام قد لاقى في تبليغ بني إسرائيل شدة، فنقل تجربته مع قومه لرسول الله ﷺ ((قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ يُطِيقُونَ ذَلِكَ فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ)) وفي حديث موسى عليه السلام لرسول الله ﷺ فائدة كبرى، وهي الانشغال بأمر الرسالة وصلاح الناس وإرشادهم إلى ما فيه الفلاح والنجاة لهم، فما ضر موسى عليه السلام بأمة محمد ﷺ أطاعت أم عصت؟

إن الأنبياء والرسل حملوا هم قضية التوحيد في كل زمان، فجاء على ألسنتهم أخبار السابقين وتجاربهم وتركوا خلفهم منهج لنجاة من تبعهم، وهذا شأن حملة الرسالات والدعاة إليها أن يكون هم الرسالة وهداية الناس شغلهم الشاغل .

---

(١) سنن الدارقطني ٤٦٦٩ وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ٤/٤٦٩ حديث ١٨٥٤

(٢)[النور:٢٧]

(٣)البخاري ٦٢٥٠ ومسلم ٥٧٦١

٤- وفي ذكر البيت المعمور وزواره كل يوم دلالة واضحة على أن الله - سبحانه - غنيٌّ عن عبادة الناس جميعا ((وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ)) فهداية الناس جميعا لن تزيد في ملك الله شيئا، وعصيانهم جميعا لن ينقص من ملكه شيئا، وفي الحديث القدسي أن الله سبحانه وتعالى قال « يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ » (١)

٦- في تخفيف الصلاة عن الأمة في العمل وثبوتها في الأجر إشارة إلى فضل هذه الأمة ومكانتها عند ربها [كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ] (٢)

هذه المكانة التي جعلتها وصية على البشرية قاطبة، ومأمورة بتوجيهها إلى ما فيه صلاحها ورشدها وهدايتها، فهي أمة القيادة والهداية لا أمة الرجعية والتبعية!

٧- وفي مقابلة الأنبياء لرسول الله ﷺ إشارة إلى كيفية تلقي أهل الفضل بالثناء والترحيب والدعاء ((فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ))

---

(١)مسلم ٦٧٣٧

(٢){آل عمران: ١١٠}

** أبرز مراجع هذا الفصل ((تفسير الطبري - فتح الباري - شرح النووي على مسلم - البداية والنهاية - موسوعة البحوث والمقالات العلمية - الإسراء والمعراج مقدمات، أحداث، ونتائج - السيرة النبوية دروس وعبر - السيرة النبوية مواقف وعبر))

الفصل الثالث

رحلة البحث عن الأنصار

لم يعد الواقع في مكة يبشر بنصر للإسلام فيها، فكل يوم تشرق شمسه يزداد فيه أهل الشرك جهلا وحمقا وسخرية واستهزاء وبطشا وكيدا برسول الله ﷺ ومن آمن معه، ثم خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف حاملا دعوته وبشارته بملك العرب والعجم، وخير الدنيا والآخرة إلى أهلها، فكانوا أسوأ حالا وأقبح ردا من أهل مكة، فأيقن رسول الله ﷺ أن هذه البلدة لم تعد تصلح لدعوته، فما قيمة حبه لها أمام إعراض أهلها عن دعوته، وماذا ستجني الدعوة والرسالة من حبه لمكة وبقائه فيها؟ لا شيء، فما قيمة الأوطان التي لا تبالي بخير أبنائها وتقيم العثرات والحواجز والعقبات أمام سعيهم لإصلاح بلادهم والنهضة بها؟

إن صورة المجتمع الجاهلي في مكة نراها جليا في كثير من البلدان التي تأخذ على أيدي كل من يحاول تطهيرها من الفساد، ويردها إلى وجهتها التي أرادها لها الإسلام، وكأنهم ألفوا العيش في وحل الرذائل ومستنقع الآثام، وأخذوا يبثوا منه الشرور على كل من يحاول تطهيرهم وإنقاذهم من الدونية والانحطاط.

لقد أيقن رسول الله ﷺ أن مكة لن تكون منطلق دعوته ونواة دولته، رغم ما تمتلك من صفات قيادية وقدرة تسلطية على العرب جميعا، إلا أنها وقفت من الدعوة موقف عداء وعناد، لا يبشر بنصر ولا تأييد، فقرر رسول الله ﷺ أن يستغل قيادتها في البحث عن وطن بديل وحصن حصين يأويه وأنصاره، ويبدأ منه تشييد دولته، فتوجه رسول الله ﷺ إلى هذا المنتدى العربي الذي تحتضنه مكة كل عام، إلا أنه توجه بهدف جديد، غير قاصر على عرض دعوته وتبليغ رسالته، وإنما يطلب النصرة والتأييد والإيواء والحماية له ولمن آمن معه، فلم يعد الأمر دعوة إلى تبديل عقيدة بأخرى، وإنما دعوة إلى شراء الآخرة بالدنيا، فعرض نفسه على قبائل العرب التي لها قوة، وفيها منعة، ولها سيادة، فتباينت ردودهم لكن تشابهت أفكارهم، تلك الأفكار التي لا تعرف سوى مقاييس الدنيا، أما الآخرة فهم عنها في شغل ، تلك الأفكار التي تقيس نتائج الأعمال بما ستحققه لها من مكاسب دنيوية، تلك الأفكار التي أورثتها لهم البيئة المنحرفة التي تربوا فيها وصور السيادة التي ألفوها، تلك الأفكار التي نراها جليا في واقعنا المعاصر بإعراض الناس عن الدعوة والتمسك بها لما ستجنيه عليهم من ابتلاءات .

إن صورة الحياة الجاهلية موجودة في كل عصر بصور شتى، واجهها رسول الله ﷺ بكل ما أوتي من قوة واستطاع أن يقتلع جذورها من قلوب أصحابه والدولة التي أسسها، ثم عادت بأقبح صورها بعد وفاته ﷺ متمثلة في ردة العرب عن الإسلام، فواجهها الصحابة بقيادة الصديق ﷺ بكل ما أوتوا من قوة، واستطاعوا أن يظهروا عليها ويطمسوا معالمها، فظلت دفينة في أنفس أنصارها، تظهر بين الحين والحين، وما أن يسطع نجمها في الأفق فإذ بالله تعالى يجند لها جندا يحاربونها بكل وسيلة وفي كل مكان، وها هي قد سطع نجمها من جديد وعلا صوت أنصارها شرقا وغربا، وسخروا كل الموارد والإمكانات لتحقيق أهدافها الخبيثة، آملين العودة بالبشرية إلى صورتها الجاهلية

لقد عادت بشكل جديد ليس كردة العرب زمن الصديق، وليس كمكيدة ابن سبأ للنيل من الخليفة عثمان، وليس كأسلوب الدسائس الذي ألفوه لزرع بذور الفتنة في البنيان الإسلامي، وإنما عادوا يطعنون في الرسالة والدين بلسان أناس إليها ينتسبون، وبتعاليمها يراءون أنهم مستمسكون، إنها حقا لمكيدة خطيرة، لها أهداف كثيرة، لن يسلم منها مسلم آمن في سربه، ولا مستسلم لعلو صوت الباطل وغطرسة أهله .

لقد غدت الرسالة الآن بحاجة إلى أنصار جدد يُؤمنون بها، يتفانون في الدفاع من أجلها، إلى أنصار يقيمون أمرها ويجددون شبابها ويعيدون إليها عزها ومجدها، إلى أنصار ينصفون رسولها ﷺ ويبرءونه مما يُرمى به ويتهم، إلى أنصار يكونوا للناس هداة ودعاة إلى الحق، إلى أنصار يبتروا ألسن أهل الباطل ويظهروا زيف منهجهم وضعف حجتهم وافتراء أقوالهم وبطلان سعيهم

كان تكذيب أهل مكة لرسول الله ﷺ عائقا كبيرا في طريق الدعوة وقبول الناس لها، فكلما دعا رسول الله ﷺ قوما إلى الإسلام أعرضوا عنه بحجة أن قومه أعلم به منا ولو علموا صدقه لاتبعوه .

إلا أن رسول الله ﷺ لا يعرف اليأس طريق قلبه، وهكذا أصحاب الرسالات العظيمة والهمم العالية، إنهم يُفنون أعمارهم في سبيل نشر أفكارهم ورسالتهم، وإيمانهم بصدق رسالتهم وسمو هدفها هو الباعث الحقيقي وراء الصبر على كل ابتلاء قد يتعرضوا له في طريق دعوتهم

كانت رحلة البحث عن الأنصار مغامرة غير محمودة العواقب لمن يؤيد رسول الله ﷺ وينصره، فمكة صاحبة السيادة على العرب قاطبة، وعمل كهذا يُعني عداوة مكة ومن حالفها من قبائل العرب، فلم تكن هذه الرحلة بالأمر اليسير، فمن ذا الذي يجرؤ على معاداة قريش!

ركز رسول الله ﷺ دعوته على الوافدين إلى مكة من قبائل العرب عله أن يجد من ينصره، فجاب أسواقهم ومنتدياتهم وأماكن تجمعاتهم وتحدث إليهم فُرادى وجماعات، فعن رَبِيعَةَ بْنِ عَبَّادٍ الدِّيلِيِّ قَالَ: إِنِّي لَمَعَ أَبِي رَجُلٌ شَابٌّ أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتْبَعُ الْقَبَائِلَ وَوَرَاءَهُ رَجُلٌ أَحْوَلُ وَضِيءٌ ذُو جُمَّةٍ يَقِفُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْقَبِيلَةِ فَيَقُولُ « يَا بَنِي فُلانٍ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ آمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَأَنْ تُصَدِّقُونِي حَتَّى أُنَفِذَ عَنِ اللَّهِ مَا بَعَثَنِي بِهِ » وَيَقُولُ « يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ تُفْلِحُوا » وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ فَإِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَقَالَتِهِ قَالَ الآخَرُ مِنْ خَلْفِهِ يَا بَنِي فُلانٍ إِنَّ هَذَا يُرِيدُ مِنْكُمْ أَنْ تَسْلَخُوا اللاتَ وَالْعُزَّى وَحُلَفَاءَكُمْ مِنَ الْحَيِّ بَنِي مَالِكِ بْنِ أُقَيْشٍ إِلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْبِدْعَةِ وَالضَّلالَةِ فَلا تَسْمَعُوا لَهُ وَلا تَتَّبِعُوهُ. فَقُلْتُ لأَبِي مَنْ هَذَا قَالَ عَمُّهُ أَبُو لَهَب (١)
وأبو لهب رمز لقوى الطغيان في سعيها لإخفاق صوت الحق، سخر ماله ومكانته بين قومه وما بقي من عمره في محاربة الإسلام وصد رسول الله ﷺ عن دعوته [إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ](٢)

حقا إن لأهل الباطل رسالة يدافعون عنها، وربما يموتون من أجلها وهم على الباطل، فما أعجب أهل الحق الذين يُفرطون في رسالتهم وهم على الحق!

كان رسول الله ﷺ إذا سمع أن سيدا من سادات العرب قدم مكة كان أسرع الناس إلى لقائه، يعرض عليه أمر رسالته، ومبادئ دعوته، وهم بين متعجب وساخر، يأخذ في تبعاته قومه جميعا، فما من قبيلة إلا وردت رسول الله ﷺ ردا مُنكرا مخافة عداء قريش، والمنصف منهم يحسب مقدار النفع المادي الذي يعود عليه من إتباع رسول الله ﷺ ونصرته، فلا يجد إلا أرواحا قد تزهق من أجل رسالته هذه؟ فينصرف عنه، ويجسد هذه الصورة بشكلها القاتم وحقيقتها العارية رد بني عامر بن صعصعة، فقد كان ردهم يدل على عقول خاوية ودنيا قد ملكت النفوس، فقال سيدهم " فراس بن عبد الله " أرأيت إن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال ﷺ الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء، فقال له أفنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟لا حاجة لنا بأمرك (٣)

رغم كل ما به رسول الله ﷺ من كرب وبلاء إلا أن مبدأ المساومة على الدين مبدأ مرفوض شكلا ومضمونا، لا يقبله إلا متخاذل لا يبالي بأمر دعوته وقيمة رسالته .

روى البيهقي في الدلائل عن ابن شهاب قال: كان رسول الله ﷺ في تلك السنين يعرض نفسه على قبائل العرب في كل موسم ، ويكلم كل شريف قوم لا يسألهم إلا أن يأووه ويمنعوه ويقول « لا أكره أحدا منكم على شيء، من رضي منكم بالذي أدعوه إليه فذلك، ومن كره لم أكرهه، إنما أريد أن تحرزوني مما يراد بي من القتل حتى أبلغ رسالات ربي وحتى يقضي الله عز وجل لي ولمن صحبني بما شاء الله » فلم يقبله أحد منهم، ولم يأت أحد من تلك القبائل إلا قال: قوم الرجل أعلم به، أترون أن رجلا يصلحنا وقد أفسد قومه ولفظوه؟ فكان ذلك مما ذخر الله عز وجل للأنصار وأكرمهم به. (١)

إنهم لم يقتصروا عند الإعراض عن الدعوة، أو المساومة عليها، أو اتهام رسول الله ﷺ بالسحر أو التنكيل بمن آمن به وصدّقه، وإنما اتخذوا وسيلة إعلامية تكاد تقضي على أي بارقة أمل في إيجاد قبيلة تؤيد الرسالة وتنصرها، كانوا يتواصون فيما بينهم، يوصي مدبرهم وافدهم أن احذر غلام قريش لا يفتنك ولا تسمع إليه .

عن جابر بن عبد الله قال " مكَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يَتْبَعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ بِعُكَاظٍ وَمَجَنَّةَ وَفِى الْمَوَاسِمِ بِمِنًى يَقُولُ « مَنْ يُئْوِينِي مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّى وَلَهُ الْجَنَّةُ » حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ أَوْ مِنْ مُضَرَ فَيَأْتِيهِ قَوْمُهُ فَيَقُولُونَ احْذَرْ غُلاَمَ قُرَيْشٍ لاَ يَفْتِنُكَ وَيَمْشِى بَيْنَ رِحَالِهِمْ وَهُمْ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ........ (٢)

ظل رسول الله ﷺ يطوف بالقبائل يطلب النصرة والحماية، فلم يترك قبيلة إلا سألها، فعرض نفسه على (كِندة وكلب وحنيفة ومُرّة وغسّان وفزَارة وعُذرة والحارث بن كعب وبنو البكاء والحضارمة ومحارب بن خَصَفة وسُليم وبنو النّضر وغيرهم) فلم تختلف ردودهم كثيرا.

ولعلنا نقف مع نموذجين من القبائل التي الانت الرد لرسول الله ﷺ وأظهروا استجابة لدعوته وميل إلى نصرته، غير أن الشعرة التي ميزت أحداهما على الآخرى هي التجرد لله في النصرة والتأييد

---

(١)دلائل النبوة للبيهقي حديث ٦٩٠ والطبري في تاريخه وابن حجر في الفتح وابن كثير في السيرة

(٢) مسند أحمد ١٤٨٣٠ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١\١٣٣ حديث٦٣

فالنموذج الأول يمثله رد قبيلة شيبان - وهي بطن في بكر بن وائل - التي اختارت جوار الفرس والنموذج الثاني يمثله أهل يثرب الذين اختاروا جوار اليهود.

تذكر كُتب السير أن رسول الله ﷺ عرض نفسه على وفد بني شيبان، وكان فيهم هانئ بن قبيصة والمثنى بن حارثة، فعرض عليهم رسول الله ﷺ مبادئ دعوته وقرأ عليهم القُرآن، فقال له هانئ بن قُبيصة: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش وصدقت قولك، وإني أرى أن تركنا ديننا واتباعنا إياك على دينك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر لم نتفكر في أمرك وننظر في عاقبة ما تدعو إليه زلة في الرأي، وطيشة في العقل، وقلة نظر في العاقبة، وإنما تكون الزلة مع العجلة، وإن من ورائنا قوما نكره أن نعقد عليهم عقدا، ولكن ترجع ونرجع وتنظر وننظر....ثم قال المثنى بن حارثة: إنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أن لا نحدث حدثا ولا نؤوي محدثا، ولعل هذا الذي تدعونا إليه مما تكره الملوك، فأما ما كان مما يلي بلاد العرب فذنب صاحبه مغفور وعذره مقبول، وأما كان مما يلي بلاد فارس فذنب صاحبه غير مقبول، فإن أردت أن ننصرك ونمنعك مما يلي العرب فعلنا ؟

فقال رسول الله ﷺ ما أسأتم الرد إذ أفصحتم بالصدق، إنه لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه (١)

لقد أيقن سادة بني شيبان أن القرآن ليس بكلام بشر، وأن محمدا ﷺ نبي مرسل، إلا أنهم لم يخلصوا التجرد إلى الله عز وجل في نصرته وإظهار دعوته، وهنا تبرز قضية هامة، وهي قضية الولاء والبراء، فقد أبدى سادة القوم البراءة ممن يعادي الدعوة من العرب، لأنهم قطعا أضعف منهم قوة وأقل عددا، أما ولاؤهم للفرس فهم غير قادرين على خفر ذمتهم، ولا انتهاك حرمة جوارهم، ولا نصرة الدين على حساب عداوتهم، فقد والوا الدين على حساب الضعفاء، وتبرأوا من نصرته أمام الدول المهيمنة ذات القوة والنفوذ، وهذا المبدأ لا يتماشى وتعاليم الإسلام وأخلاق أهله ومبادئ دعاته وحملة رسالته، فالدين كل متكامل، والمسلمون يد واحدة يوالي بعضهم بعضا، والكفر ملة واحدة يتبرأ منهم المسلم

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٢ / ص ٢٩٧) حديث٦٩٥، وقال الحافظ في الفتح (ج ٧ / ص ٢٢٠) وقد أخرج الحاكم وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل بإسناد حسن عن بن عباس حدثني علي بن أبي طالب - وذكر شيئا من هذا الحديث - ، وفي عيون الأثر (ج ١ / ص ٢٠٢) والبداية والنهاية (ج ٣ / ص ١٧٧) وقال ابن كثير في السيرة(ج ٢ / ص ١٦٣) هذا حديث غريب جدا كتبناه لما فيه من دلائل النبوة ومحاسن الأخلاق ومكارم الشيم وفصاحة العرب

سواء أكانوا أقوياء أو ضعفاء ولا يظاهرهم على مسلم أبدا، أما الذي يتبرأ من العدو الضعيف ويستصغر شأنه ويوالي العدو القوي ويستعظم أمره، فليس همة قضية الدعوة وليس له في رسول الله ﷺ أسوة.

قال ﷺ « وَالْمُسْلِمُونَ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ تَرُدُّ سَرَايَاهُمْ عَلَى قَعَدَتِهِمْ » (١)

ويظهر من هذا الحديث مبدأ آخر، وهو شمولية أمر الدين التي يمثلها قول النبي ﷺ " إنه لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه " فالدين كل متكامل لا أجزاء منفصلة يمكن أن تنفصل عن بعضها بعضا، ولن يقوم بأمره إلا من أحاطه من كل جوانبه وأقام تعاليمه كافة ووقف عند حدوده جميعها، فلما ارتدت العرب وقالوا نصلي ولا نعطي الزكاة، رضي أصحاب رسول الله ﷺ، وأبى أبو بكر الصديق منفرداً برأيه، فرجح برأيه رأيهم جميعاً، فقال له عمر: يا خليفة رسول الله ﷺ تألف الناس وارفق بهم، فقال الصديق : جبار في الجاهلية خوار في الإسلام! بم أتألفهم؟ أبشعر مفتعل أم بقول مفترى! (٢)

ثم قَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَاللَّهِ لأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهَا، قَالَ عُمَرُ فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلاَّ أَنْ رَأَيْتُ أَنْ قَدْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ . (٣)

لقد أبى بنو شيبان أن يكونوا هم الأنصار، فرغم تصديقهم لرسول الله ﷺ إلا أن حظ النفس ونوازع الهوى في قلوبهم قد غلب على قرارهم، ولم يتجردوا من قيد النظر إلى المكسب الدنيوي، ولم يستوعبوا قيمة المكسب في الآخرة، فركنوا إلى جوار الفرس، وأيقنوا أن إظهارهم أمر رسول الله ﷺ ودعوته سيجر عليهم ويلات كثيرة وحروب عديدة أولها مع الفرس تلك القوى المهيمنة على ما يقرب من نصف المعمورة آنذاك .

لقد خسر بنو شيبان فرصة لن تتكرر أبد الدهر، لقد خسروا حُسن الذكر في الدنيا، وعظيم الأجر في الآخرة، وأعجب ما في أمرهم أنهم أسلموا بعد ذلك وحسن إسلامهم، بل إنهم أول من قاد الفتوحات الإسلامية في بلاد الفرس، وكان المثنى بن حارثة الشيباني بطل ميادين القتال معهم .

---

(١) سنن البيهقي ١٣٣١١ وحسنه الألباني في صحيح ابن خزيمة ٢٢٨٠ .

(٢) تاريخ الإسلام للإمام الذهبي - (ج ١ / ص ٣٢١) أسد الغابة - (ج ٢ / ص ٣٢٥)

(٣) البخاري ٦٩٢٥

قال عنه ابن الأثير في أسد الغابة " وهو الذي أطمع أبا بكر والمسلمين في الفرس، وهوّن أمر الفرس عندهم، وكان شهماً شجاعاً ميمون النقيبة حسن الرأي، أبلى في قتال الفرس بلاءً لم يبلغه أحد، وكان كثير الإغارة على الفرس، فكانت الأخبار تأتي أبا بكر، فقال: من هذا الذي تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه؟ فقال قيس بن عاصم: أما إنه غير خامل الذكر، ولا مجهول النسب، ولا قليل العدد، ولا ذليل الغارة، ذلك المثنى بن حارثة الشيباني، ثم قدم بعد ذلك على أبي بكر فقال: ابعثني على قومي أقاتل بهم أهل فارس، وأكفيك أهل ناحيتي من العدو، ففعل أبو بكر" (١)

إن الإسلام لم يأت ليجعل الإنسان أسير الهوى ورغبات النفس، ولم يأت ليجعل مقاييس الدنيا المحرك لأهدافه والمحدد لخطوات سيره، فهذا المثنى وقومه قد هابوا الفرس وأجلّوهم واستعظموا أمرهم وهم في الجاهلية، فلما أسلموا كانوا أجرأ الناس عليهم وهان في قلوبهم أمرهم، فما الذي تغير؟ إن البشر لم يذهبوا ويأتَ غيرهم، وإنما أهدافهم ودوافعهم وآمالهم وتطلعاتهم إلى الدار الآخرة هي التي تغيرت، إن الله عز وجل أعز بالإسلام أقواما بعد ذل وجاهلية، وأذل به أقواما بعد عز وسلطان، وهذه سُنّة باقية، فمن اعتلى بالإسلام أعلاه الله، ومن سخر منه انتقم الله منه وأذله، روى أحمد عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ « لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَلاَ يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إِلاَّ أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الإِسْلاَمَ وَذُلاًّ يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ » فَكَانَ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ يَقُولُ: قَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، لَقَدْ أَصَابَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمُ الْخَيْرُ وَالشَّرَفُ وَالْعِزُّ، وَلَقَدْ أَصَابَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ كَافِرًا الذُّلُّ وَالصَّغَارُ وَالْجِزْيَةُ (٢)

أما النموذج الثاني فهم بشائر الخير وطلائع النصر، إنهم البذرة الأولى لخير صحبة، وأعظم جيل، وأشرف قوم

إنهم الأنصار، درة في جبين الأمة العربية، بل والبشرية قاطبة، نموذج لرجال حملوا هَمَّ الرسالة وأقاموا بها أعرق حضارة، رمز جسد أسمى معاني التضحية والإيثار، بل إنهم بلغوا ذروة التألق الأخلاقي في حياة البشرية كلها، بدأ عهدهم مع الإسلام بإسلام فرد واحد، ثم إسلام ستة نفر من الخزرج، ثم دخل أهل يثرب في الإسلام أفواجا؛ ليكونوا حماة العقيدة وأنصار الله ورسوله ﷺ، ولتكون بلدتهم الحصن الحصين لرسول الله ﷺ ومن آمن به

---

(١)أسد الغابة - (ج ٢ / ص ٤٧٢)

(٢) مسند أحمد ١٧٤٢٠ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٣٢/١ حديث ٣

ولتخرج منها كتائب المجاهدين والدعاة؛ لترد البشرية إلى صوابها وتقيم عوجها وتصلح الفساد الذي عمّ كل صور الحياة فيها .

الأنصار والمدينة، ركنين قام عليهما الدين، وقرت بهما عين رسول الله ﷺ فحفظ لهما فضلهما، فأما الأنصار فقال ﷺ عنهم « الأَنْصَارُ لاَ يُحِبُّهُمْ إِلاَّ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يُبْغِضُهُمْ إِلاَّ مُنَافِقٌ، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللَّهُ »(١) وأما المدينة فقال عنها رسول الله ﷺ حينما طلع له أُحُدٌ « هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ، اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ، وَإِنِّي حَرَّمْتُ مَا بَيْنَ لاَبَتَيْهَا »(٢)

كان أول أمر الأنصار مع الإسلام حينما قدم وفد من بني عبد الأشهل من الأوس إلى مكة يلتمسون حلف قريش على أعدائهم من الخزرج، فعلم النبي ﷺ بقدومهم وبغيتهم، وفطن العلة التي يعاني منها أهل الوفد، وهي الحروب والعداء القائم بين أهل يثرب الأوس والخزرج، فأيقن أن الخلاص لما هم فيه من فرقة ونزاع هو اعتناقهم الإسلام، ونبذ روح الفرقة والتعصب فيهما، وإبدالها بأخوة الدين ووحدة البنيان الإسلامي، فتعرض رسول الله ﷺ للوفد يعرض عليه الإسلام .

روى أحمد عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ أَخِي بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ قَالَ: لَمَّا قَدِمَ أَبُو الْحَيْسَرِ أَنَسُ بْنُ رَافِعٍ مَكَّةَ وَمَعَهُ فِتْيَةٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ فِيهِمْ إِيَاسُ بْنُ مُعَاذٍ يَلْتَمِسُونَ الْحِلْفَ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى قَوْمِهِمْ مِنَ الْخَزْرَجِ سَمِعَ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَتَاهُمْ فَجَلَسَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ لَهُمْ « هَلْ لَكُمْ إِلَى خَيْرٍ مِمَّا جِئْتُمْ لَهُ »

قَالُوا وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ « أَنَا رَسُولُ اللَّهِ بَعَثَنِي إِلَى الْعِبَادِ أَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ لاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَأَنْزَلَ عَلَيَّ كِتَابٌ » ثُمَّ ذَكَرَ الإِسْلاَمَ وَتَلاَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ، فَقَالَ إِيَاسُ بْنُ مُعَاذٍ وَكَانَ غُلاَماً حَدَثاً أَيْ قَوْمِ هَذَا وَاللَّهِ خَيْرٌ مِمَّا جِئْتُمْ لَهُ. فَأَخَذَ أَبُو حَيْسَرٍ أَنَسُ بْنُ رَافِعٍ حَفْنَةً مِنَ الْبَطْحَاءِ فَضَرَبَ بِهَا فِي وَجْهِ إِيَاسِ بْنِ مُعَاذٍ

وَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْهُمْ وَانْصَرَفُوا إِلَى الْمَدِينَةِ فَكَانَتْ وَقْعَةُ بُعَاثٍ بَيْنَ الأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ إِيَاسُ بْنُ مُعَاذٍ أَنْ هَلَكَ .قَالَ مَحْمُودُ بْنُ لَبِيدٍ فَأَخْبَرَنِي مَنْ حَضَرَهُ مِنْ قَوْمِي عِنْدَ مَوْتِهِ أَنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا يَسْمَعُونَهُ يُهَلِّلُ اللَّهَ وَيُكَبِّرُهُ وَيَحْمَدُهُ وَيُسَبِّحُهُ حَتَّى مَاتَ فَمَا كَانُوا يَشُكُّونَ أَنْ قَدْ مَاتَ مُسْلِماً لَقَدْ كَانَ اسْتَشْعَرَ الإِسْلاَمَ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ حِينَ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا سَمِعَ. (٣)

---

(١) البخاري٣٧٨٣ومسلم ٢٤٦

(٢) البخاري٤٠٨٤ومسلم ٣٣٨١ واللابة أرض ذات حجارة سود كثيرة والمدينة بين لابتين اي حرتين

(٣) مسند أحمد٢٤٣٣٧وقال الهيثمي في مجمع الزوائد٣٦/٦رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات

كان إسلام إياس بن معاذ أول عهد الأنصار مع الإسلام، إلا أنه كان فتى لا رأي له بين السادة والشيوخ، فعجز عن نصرة رسول الله ﷺ بين قومه، حتى كان يوم بُعاث، فهلك السادة والشيوخ وبقي الفتية والشباب، لما أعد الله لهم الخير ونصرة رسول الله ﷺ، فعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: كَانَ يَوْمُ بُعَاثَ يَوْمًا قَدَّمَهُ اللَّهُ لِرَسُولِهِ ﷺ فَقَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَدِ افْتَرَقَ مَلَؤُهُمْ، وَقُتِلَتْ سَرَوَاتُهُمْ، وَجُرِّحُوا، فَقَدَّمَهُ اللَّهُ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي دُخُولِهِمْ فِي الإِسْلَامِ (١)

فإن نزعات الكبر والزعامة قد تأصلت في نفوس السادة والشيوخ، وهي التي منعت سادة مكة من الدخول في الإسلام، فقدر الله يوم بُعاث؛ ليفنى أمثالهم في يثرب، ويبقى من لم تتأصل نزعات السيادة والكبر في نفسه من الشباب، فهم أقرب إلى سلامة الفطرة التي قادتهم إلى اعتناق الإسلام والتضحية من أجله بكل شيء.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِظْهَارَ دِينِهِ وَإِعْزَازَ نَبِيِّهِ ﷺ وَإِنْجَازَ مَوْعِدِهِ لَهُ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَوْسِمِ الَّذِي لَقِيَهُ فِيهِ النَّفَرُ مِنْ الْأَنْصَارِ، فَعَرَضَ نَفْسَهُ عَلَى قَبَائِلِ الْعَرَبِ، كَمَا كَانَ صَنَعَ فِي كُلِّ مَوْسِمٍ.

فَبَيْنَمَا هُوَ عِنْدَ الْعَقَبَةِ لَقِيَ رَهْطًا مِنْ الْخَزْرَجِ أَرَادَ اللَّهُ بِهِمْ خَيْرًا

قَالَ لَهُمْ مَنْ أَنْتُمْ ؟ قَالُوا: نَفَرٌ مِنْ الْخَزْرَجِ.

قَالَ أَمِنْ مَوَالِي يَهُودَ؟ قَالُوا : نَعَمْ .

قَالَ أَفَلَا تَجْلِسُونَ أُكَلِّمُكُمْ ؟

قَالُوا: بَلَى. فَجَلَسُوا مَعَهُ فَدَعَاهُمْ إلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ الْإِسْلَامَ وَتَلَا عَلَيْهِمْ الْقُرْآنَ . وَكَانَ مِمَّا صَنَعَ اللَّهُ لَهُمْ بِهِ فِي الْإِسْلَامِ أَنَّ يَهُودَ كَانُوا مَعَهُمْ فِي بِلَادِهِمْ وَكَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ وَعِلْمٍ وَكَانُوا هُمْ أَهْلَ شِرْكٍ وَأَصْحَابَ أَوْثَانٍ وَكَانُوا قَدْ عَزَوْهُمْ بِبِلَادِهِمْ فَكَانُوا إذَا كَانَ بَيْنَهُمْ شَيْءٌ قَالُوا لَهُمْ إنّ نَبِيًّا مَبْعُوثٌ الْآنَ قَدْ أَظَلّ زَمَانُهُ نَتّبِعُهُ فَنَقْتُلُكُمْ مَعَهُ قَتْلَ عَادٍ وَإِرَمَ .

فَلَمّا كَلّمَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ أُولَئِكَ النّفَرَ وَدَعَاهُمْ إلَى اللّهِ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضِ يَا قَوْمُ تَعْلَمُوا وَاَللّهِ إنّهُ لَلنّبِيّ الّذِي تَوَعّدَكُمْ بِهِ يَهُودُ فَلَا تَسْبِقَنّكُمْ إلَيْهِ .

فَأَجَابُوهُ فِيمَا دَعَاهُمْ إلَيْهِ بِأَنْ صَدّقُوهُ وَقَبِلُوا مِنْهُ مَا عَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنْ الْإِسْلَامِ وَقَالُوا: إنّا قَدْ تَرَكْنَا قَوْمَنَا، وَلَا قَوْمَ بَيْنَهُمْ مِنْ الْعَدَاوَةِ وَالشّرّ مَا بَيْنَهُمْ فَعَسَى أَنْ يَجْمَعَهُمْ اللّهُ بِك، فَسَنَقْدَمُ عَلَيْهِمْ فَنَدْعُوهُمْ إلَى أَمْرِك وَتَعْرِضُ عَلَيْهِمْ الّذِي أَجَبْنَاك إلَيْهِ مِنْ هَذَا الدّينِ فَإِنْ يَجْمَعْهُمْ اللّهُ عَلَيْهِ فَلَا رَجُلَ أَعَزّ مِنْك .

---

(١) البخاري٣٧٧٧

أما هؤلاء الستة - أهل السبق في الإسلام - فهم: أبو أمامة أسعد بن زرارة، عوف بن مالك بن رفاعة، رافع بن مالك بن العجلان، قطبة بن عامر، عقبة بن عامر بن زياد، وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم. (١)

جاء إسلام هؤلاء النفر من أهل يثرب كمنحة ربانية بعد كل هذه المحن المتتالية لرسول الله ﷺ، ففي عام واحد خرج رسول الله ﷺ بدعوته إلى الطائف فكذبوه وآذوه، ثم عرض نفسه على قبائل العرب فساوموه على رسالته، أما بنو شيبان فقد عرفوا الحق وأعرضوا عنه وأبوا نصرة رسول الله ﷺ، وها هم أهل يثرب قد صدقوا رسول الله ﷺ ووعدوه بالنصرة والتأييد، مع أن المتطلع لواقع الجزيرة العربية آنذاك يستبعد تماما أن تكون يثرب هي نواة دولة الإسلام، فهي بلدة منقسمة على نفسها بين قبيلتين قد أنهكت الحروب قواهما وتوارثت الأجيال العداوة بينهما، كما كان لليهود شوكة قوية فيها، إلا أن هذا التواجد اليهودي وإن كان نقمة على أهل هذه البلدة، إلا أنه كان ضارة نافعة، فكانت كلما علت شوكة العرب على اليهود تواعدهم اليهود بأن نبيا قد أظل زمانه سوف يتبعونه ويقاتلونهم معه قتل عاد وإرم، ولما بُعث نبي آخر الزمان كانوا أشد المكذبين له، ولما جاءهم الحق كفروا به، قال تعالى [وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكَافِرِينَ] (٢) ومَنَّ الله على الأميين عُباد الأوثان أن عقلوا ما قاله اليهود فهدى الله قلوبهم للإسلام، وأصبحت المدينة هي قلب الدولة الإسلامية الجديدة وحصنها الحصين، وأصبح أهلها الأنصار الذين دافعوا عن رسول الله ﷺ وعن رسالته بكل ما يملكون فوهبوا أنفسهم طائعين راضين يبتغون رضا الله ورضا رسول الله ﷺ فجزاهم الله عن صنيعهم خير الجزاء.

عن أم المؤمنين عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه في كل سنة على قبائل من العرب أن يؤووه إلى قومهم حتى يبلغ كلام الله ورسالته ولهم الجنة، فليست قبيلة من العرب تستجيب له حتى أراد الله إظهار دينه ونصر نبيه وإنجاز ما وعده ساقه الله إلى هذا الحي من الأنصار فاستجابوا له وجعل الله لنبيه ﷺ دار هجرة (٣).

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٢ / ص ٣٠٢)بإسناد حسنه سامي أنور جاهين في تحقيقه سيرة ابن هشام ٢/٥٠

(٢) {البقرة:٨٩}

(٣)رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٦ / ص ٤٩) وقال رواه الطبراني في الأوسط وفيه عبد الله بن عمر العمري وثقه أحمد وجماعة وضعفه النسائي وغيره وبقية رجاله ثقات.

بيعـــــة العقبـــــة الأولى

ما أن سمع النفر من أهل يثرب القرآن من رسول الله ﷺ وتعاليم رسالته حتى شرح الله صدورهم للإسلام، فقال بعضهم لبعض: يا قوم تعلموا والله إنه النبي الذي تواعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه، فأسلموا جميعا وواعدوا رسول الله ﷺ العام المقبل وعادوا إلى المدينة يحملون معهم تعاليم أعظم رسالة؛ ليبلغونها إلى أقوامهم، فما استكانوا وتركوا أمر الرسالة، وإنما أخذوا على عاتقهم هَمَّ التبليغ، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفشا فيها ذكر رسول الله ﷺ ودعوته، وسرعان ما انقضى العام وعادوا لرسول الله ﷺ اثنا عشر رجلا، جاءوا ليبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام فبايعهم رسول الله ﷺ بيعة العقبة الأولى.

عن عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ – وهو مِنَ الَّذِينَ شَهِدُوا بَدْرًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمِنْ أَصْحَابِهِ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ « تَعَالَوْا بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلا تَسْرِقُوا، وَلا تَزْنُوا، وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ، وَلا تَأْتُونَ بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ لَهُ كَفَّارَةٌ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ اللَّهُ فَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ »(١)

سُمِّيت هذه البيعة ببيعة العقبة نسبة إلى المكان الذي وقعت فيها وهو بين منى ومكة، وسُمِّيت ببيعة النساء، لأن النبي ﷺ بايع على نفس هذه الشروط نساء قريش حين أسلمن بعد فتح مكة، وقد جاءت صيغة هذه الشروط في القرآن الكريم في قول الله تعالى [يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ] (٢)

كانت هذه البيعة هي الانطلاقة الأولى نحو بناء دولة الإسلام، ولم يكن الجهاد قد فرض بعد، فكانت بنود هذه البيعة كل نفعها عائد على المجتمع، ترسخ دعائمه وتقوي بنيانه، فتعاليم الإسلام إن لم تكن عبادات فهي من مكارم الأخلاق، فكانت كل شروطها دينية خُلقية، فقد بايعهم رسول الله ﷺ على إقرار التوحيد ونبذ الأخلاق التي من شأنها أن تهدم أي بناء كالسرقة والزنا ووأد البنات

---

(١) البخاري ٣٨٩٢ (٢){الممتحنة:١٢}

ورغم بساطة بنود هذه البيعة، إلا أنها كانت الباعث القوي في نفوس أهل المدينة للالتفاف حول هذا الدين الذي يدعو إلى مكارم الأخلاق، فعادوا إلى المدينة وكلهم أمل أن يجمع الله شمل أهليهم بهذا الدين من بعد الفرقة والحروب، وأرسل معهم رسول الله ﷺ مصعب بن عُمير؛ ليفقههم في الدين ويُقرئهم القرآن .

ومن الفوائد التربوية والدعوية في لقاء النفر من الأنصار والبيعة :

١- **إظهار الجدية في إصلاح أحوال المجتمع وتطهيره من الفساد:** فقد جاءت بنود البيعة بما يستقيم به حال المجتمع قبل أن يُلزمهم بنصرة الرسالة والجهاد من أجلها، فكيف يقوى مجتمع على خوض حرب من أجل العقيدة وهو بنيان خاوٍ على عروشه، وقد ضرب الفساد أصوله وجذوره ؟

٢- **التدرج في تكليف الناس وتوزيع المهام عليهم** باختبار قدراتهم واستعداداتهم، فقد كانت بنود البيعة خالية من المشقة في تنفيذها، بل إن نفعها يشمل كل المجتمع دون الإضرار بأحد من أفراده، فلما صدقوا في الأمور البسيطة جاءهم التكليف بمهام أكبر في البيعة الثانية فكانت بيعة على القتال.

٣- **جدير بالداعية أن يغتنم الفرص المتاحة لخدمة رسالته**، فاللقاء الأول لرسول الله ﷺ مع الأنصار لم يكن بسابق إعداد أو تخطيط، وإنما هو اغتنام للفرصة المتاحة أمامه .

٤- **فهم ظروف المجتمع المحيط** وسمات كل بلد أو جماعة وتأليف أهلها وأبرز عاداتهم ومعتقداتهم ييسر للداعية التأثير في المدعوين وجذب انتباههم لحديثه، فلما أقبل رسول الله ﷺ على النفر من الخزرج ((قَالَ لَهُمْ مَنْ أَنْتُمْ ؟ قَالُوا : نَفَرٌ مِنْ الْخَزْرَجِ، قَالَ أَمِنْ مَوَالِي يَهُودَ؟ قَالُوا: نَعَمْ)) فهو لم يكن يجهل التركيبة السكانية لأهل المدينة والمعتقدات السائدة بين أهلها، الأمر الذي جذب انتباه السامعين إلى قوله، كذلك جاءت بنود البيعة تنهي عن المفاسد الموجودة في المجتمع حاليا، ليست بأخلاق عفا عليها الزمان، ولا بأخلاق ربما تغشى المجتمع مستقبلا .

٥- **التأدب في عرض الدعوة والحديث مع المدعوين** بما يحفظ لهم كرامتهم وإن كانوا معارضين له((قَالَ أَفَلَا تَجْلِسُونَ أُكَلِّمُكُمْ ؟ قَالُوا: بَلَى فَجَلَسُوا مَعَهُ)) فالداعية رسول مكلف بالبلاغ، وعنده ينتهي دوره ووظيفته، فالدعوة لا تُفرض بالقوة والقلوب لا تُلان بالشدة والغلظة .

كذلك تُعرض الدعوة بما لا يزهدها في قلوب المستمعين، فهي ليست بضاعة

مزجاة تُستمال القلوب لقبولها، لذا جاء عرض رسول الله ﷺ لها بما يعطي للمستمع انطباع بأهمية القول وضرورة الإنصات إليه ((أفلا تَجْلِسُونَ أُكَلِّمُكُمْ)) فهو ليس كأي قول يُقال على أي حال، وإنما هو قول بحاجة إلى تدبر وإصغاء، فهوان المسلمين وضعف أمرهم واستضعافهم لا يعني هوان أمر الرسالة.

٦- **إن الإسلام عقيدة أول ما تنبع من القلب،** ليس كلمات تتردد أو عبادات تؤدى، وإنما رسالة تغير حياة الإنسان وأهدافه، فإن رسول الله ﷺ لم يقتصر على اعتناقهم للإسلام ثم تركهم، وإنما حملهم هَمَّ الرسالة ودعوة مَنْ وراءهم ففطنوا لهذا الأمر وقاموا به على أكمل وجه .

٧- **إن الدعاة وحملة الرسالة أناس يتجردون من كل دوافع الكبر** والنعرات الجاهلية ولا يتطرقون إلى أهداف ثانوية أو قضايا جانبية تصرفهم عن قضيتهم الأساسية، فإن النفر من الخزرج لما أسلموا وحملوا هم الرسالة إلى أهلها لم يشغلهم طبيعة الصراع القائم بين الأوس والخزرج من عرض قضيتهم على كل أهل المدينة، بل واستطاعوا أن يؤثروا في أناس من الأوس ويقنعوهم بالإسلام، وأقبلوا معهم لبيعة رسول الله ﷺ .

٨- **الإنصات والحوار الهادئ يؤثر في النفس** ويدفع العقل إلى تدبر القول واستيعابه، فالدعوة في حالة الغضب أو بأسلوب الزجر والوعيد والشدة والتهديد لا يمكن أن تؤثر في القلوب وتجذبها إلى الداعية وإدراك حقائق رسالته .

٩- **التبشير لا التنفير واليسر لا العسر** هو سمة الإسلام الغالبة في كل تعاليمه، قال رسول الله ﷺ« بَشِّرُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا وَيَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا »(١) فلما أراد رسول الله ﷺ أن يغرس هذه القيمة في قلوب أول دعاة يحملون الرسالة إلى المدينة جاءت البشارة ضمن البيعة ((فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ لَهُ كَفَّارَةٌ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ اللَّهُ فَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ))

فمن وفى بما عاهد عليه الله بشره رسول الله ﷺ بالجنة، ومن قصّر فيما عاهد عليه بشره بعفو الله عز وجل ومغفرته، إلا أنها البشارة التي لا تحث على التقصير، فالأمر راجع إلى مشيئة الله إن شاء عفا وإن شاء عاقب .

ومن هنا نتعلم أن الدعوة ليست ترهيب فقط، وليست وعيد وتهديد فقط ، فمنهج الإسلام قائم على السماحة واليسر، والداعية الكَيّس من يلتزم المنهج الوسط بين التبشير والتنفير ولا يطغى أحدهما على الآخر .

---

(١) مسلم ٤٦٢٢

١٠- **أدب تلقي العلم والرد على العلماء والدعاة:** فلما طلب رسول الله ﷺ من النفر من الأنصار أن يجلسوا ليحادثهم أجلّوا رسول الله ﷺ وأنصتوا له بكل أدب، فلما عرض عليهم الإسلام وقرأ عليهم القرآن، تيقنوا بصدق قوله، فقال بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ (يَا قَوْمُ تَعْلَمُوا وَاللهِ إِنَّهُ لَلنَّبِيَّ الَّذِي تَوَعَّدَكُمْ بِهِ يَهُودُ فَلَا تَسْبِقَنَّكُمْ إِلَيْهِ، فَأَجَابُوهُ فِيمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ بِأَنْ صَدَّقُوهُ وَقَبِلُوا مِنْهُ مَا عَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْإِسْلَامِ فلم يجادلوا في الحق بعد ما تبين وغدا همهم فهم الدين وتعاليمه لا الجدال فيه والتلاعب بتعاليمه .

فحري بطالب العلم أن يحفظ للعلماء والدعاة مكانتهم، فهم عماد هذه الأمة وسدها المنيع أمام الفتن والمكائد التي ترصد لها، قال رسول الله ﷺ « إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ » (١)

فللعلماء حقوق ولطلب العلم آداب لا يمكن التقصير فيها، حتى الخلاف في الرأي والجدال لإثبات الحق له آداب.

كان الشافعي رحمه الله كثير المناظرة فكان يقول : ((ما ناظرت أحدا قط على الغلبة، ووددت إذا ناظرت أحدا أن يظهر الحق على يديه)) وقال ((ما كلمت أحدا قط الا وددت أن يوفق ويسدد ويعان ويكون عليه رعاية من الله وحفظ)) (٢) وهكذا تكون أخلاق العلماء وآداب تلقي العلم .

١١ - **الإشعار بمراقبة الله على أعمالهم** وأنه مطلع على السرائر ((وَلَا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ)) ((فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ)) فقد بين النبي ﷺ إلى أن الأمر كله بيد الله وما عليه إلا التبليغ والإنذار، فهو لا يَطلع على الغيب ولا على بواطن الأمور، وهو بهذا يربي قلوبهم على مراقبة الله في السر والعلن، فلن يأتي الإخلاص في العمل من بطش نظام حاكم، ولا قوة قائد ودهاءه، ولا مهارة أتباعه في تتبع الناس وهتك عوراتهم، وإنما يأتي الإخلاص بعد الإيمان بمراقبة الله للعبد، فيكون الإخلاص نابعا من عقيدة لا من سطو وبطش .

١٢- **حُسن اختيار الدعاة والسفراء عن الدين والدولة:** فهُم واجهة الرسالة وسفراءها، وهم واجهة الدولة وعنوان أخلاق أهلها، وقد وقع اختيار رسول الله ﷺ على مُصعب بن عُمير، وفي الصحابة غيره كثير من هو أكبر منه سنا وأقرب إلى رسول الله ﷺ منه نسبا، إلا أن الأمر ليس وجاهة أو قرابة

---

(١)سنن أبي داوود٣٦٤٣ وسنن الترمذي٢٨٩٨وأحمد٢٢٣٤٧وصححه الألباني في سنن أبي داوود٣٦٤١

(٢) المجموع - (ج ١ / ص ٢٨)

وإنما دعوة ورسالة بحاجة إلى من يدعو إليها ويواجه من أجلها مجتمع كامل يدين بالشرك ولا يعرف شيئا عن التوحيد.

مصعب بن عُمير وصدق الدعوة

مصعب بن عُمير، ذاك الداعية الفذ رسول رسول الله ﷺ إلى المدينة، ذاك الفتى المُدلل في الجاهلية (١) والذي ترك الشرك بكل متعه وأقبل على الإسلام بكل صدق، فكان جديرا بأن يقع اختيار رسول الله ﷺ عليه كأول سفير في الإسلام يحمل رسالة الإسلام إلى أهل المدينة، وبين الصحابة يومئذ من هم أكبر منه سنّا وأكثر جاها، وأقرب إلى الرسول ﷺ قرابة، إلا أن رسول الله ﷺ قد ألقى على عاتقه مصير الرسالة كلها، فقد بدا جليا أن المدينة هي دار الهجرة ومبدأ دولة الإسلام ومنطلق الدعوة والدعاة إلى الدنيا بأسرها، فأيقن جيدا حدود وظيفته وأهميتها، فأثبت بفطنته وحسن دعوته أن رسول الله ﷺ قد أحسن الاختيار.

نزل مُصعب على أسعد بن زرارة، وبدأ يدعو الناس إلى الإسلام، ويفقه من أسلم منهم في أمور الدين ويؤمهم في الصلاة، فوجد مُصعب المدينة وكأنها أرض جدباء قد اشتاقت إلى قطرات الغيث؛ لتدب فيها الحياة من جديد، فقد أنهكت الحروب قوى أهلها، وقضت على سادتها، فكان سادة أهلها من الأوس والخزرج شبابا، وهم من قامت على أيديهم الرسالة، وسرعان ما فشا ذكر الإسلام في المدينة وغزا مصعب الأفئدة بما أنعم الله عليه من حُسن الخلق وسلامة المنطق ورجاحة العقل وحسن التصرف، كما هالهم ما رأوا من زهده وإخلاصه، فاخترق مجالسهم وتجمعاتهم، فما عاد بيت في المدينة إلا وقد دخله الإسلام أو علم عنه الكثير، وكان من نعم الله عليه أن أسلم على يديه سيدا بني عبد الأشهل سعد بن مُعاذ وأسيد بن حُضير رضي الله عنهم .

---

(١) مصعب بن عمير هو أول من سمي بـ " المقريء " يكنى أبا عبد الله، كان قبل إسلامه من انعم قريش عيشا وأعطرهم، وكانت أمه شديدة الكلف به، وكان يبيت وقعب الحيس عند رأسه، يستيقظ فيأكل ، فكان فتى مكة شبابا وجمالا وسنا وكان أبواه يحبانه، وكانت أمه تكسوه أحسن ما يكون من الثياب ، وكان أعطر أهل مكة يلبس الحضرمي من النعال، فلما اسلم أصابه من الشدة ما غير لونه وأذهب لحمه، ونهكت جسمه حتى كان رسول الله ﷺ ينظر إليه، وعليه فروة قد رقعها، فيبكي لما كان يعرف من نعمته، وكان ﷺ يذكره ويقول: ما رايت بمكة أحسن لمة ولا أرق حلة ولا انعم نعمة من مصعب بن عمير، لما أسلم وهاجر حلفت أمه ألا تأكل ولا تشرب ولا تستظل بظل حتى يرجع إليها، فكانت تقف في الشمس حتى تسقط مغشيا عليها، وكان بنوها يحشون فاها بشجار، وهو عود فيصبرن فيه الحساء لئلا تموت.. الاستيعاب في معرفة الأصحاب - (ج ١ / ص ٤٦٤)و الطبقات الكبرى - (ج ٣ / ص ١١٦)

كان إسلام أسيد وسعد بن معاذ، فتحٌ من الله على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين ومنحة عظيمة قد جبّت كل ما كان قبلها من محن متتالية على رسول الله ﷺ وأصحابه وذاك أن إسلامهما كان الطريق لدخول أهل المدينة في الإسلام أفواجا

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: خَرَجَ أَسْعَدَ بْنَ زُرَارَةَ بِمُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ يُرِيدُ بِهِ دَارَ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، وَدَارَ بَنِي ظَفَرٍ، وَكَانَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذِ ابْنَ خَالَةِ أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ فَدَخَلَ بِهِ حَائِطًا مِنْ حَوَائِطِ بَنِي ظَفَرٍ عَلَى بِئْرٍ يُقَالُ لَهَا: بِئْرُ مَرَقٍ، فَجَلَسَا فِي الْحَائِطِ ، وَاجْتَمَعَ إلَيْهِمَا رِجَالٌ مِمّنْ أَسْلَمَ، وَسَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، وأسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ يَوْمَئِذٍ سَيّدَا قَوْمِهِمَا مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ وَكِلَاهُمَا مُشْرِكٌ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ، فَلَمّا سَمِعَا بِهِ قَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ لِأُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ لَا أَبَالَك لك، انْطَلِقْ إلَى هَذَيْنِ الرّجُلَيْنِ اللّذَيْنِ قَدْ أَتَيَا دَارَيْنَا لِيُسَفّهَا ضُعَفَاءَنَا دَارَيْنَا، فَإِنّهُ لَوْلَا أَنّ أَسْعَدَ بْنَ زُرَارَةَ مِنّي حَيْثُ قَدْ عَلِمْت كَفَيْتُك ذَلِكَ هُوَ ابْنُ خَالَتِي، وَلَا أَجِدُ عَلَيْهِ مُقَدّمًا، فَأَخَذَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ حَرْبَتَهُ ثُمّ أَقْبَلَ إلَيْهِمَا، فَلَمّا رَآهُ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ قَالَ لِمُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ هَذَا سَيّدُ قَوْمِهِ قَدْ جَاءَك ، فَاصْدُقْ اللّهَ فِيهِ، قَالَ مُصْعَبٌ إنْ يَجْلِسْ أُكَلّمْهُ قَالَ فَوَقَفَ عَلَيْهِمَا مُتَشَتّمًا، فَقَالَ مَا جَاءَ بِكُمَا إلَيْنَا تُسَفّهَانِ ضُعَفَاءَنَا؟

اعْتَزِلَانَا إنْ كَانَتْ لَكُمَا بِأَنْفُسِكُمَا حَاجَةٌ، فَقَالَ لَهُ مُصْعَبٌ أَوَ تَجْلِسُ فَتَسْمَعُ فَإِنْ رَضِيت أَمْرًا قَبِلْته، وَإِنْ كَرِهْته كُفّ عَنْك مَا تَكْرَهُ؟

قَالَ أَنْصَفْت، ثُمّ رَكَزَ حَرْبَتَهُ وَجَلَسَ إلَيْهِمَا، فَكَلّمَهُ مُصْعَبٌ بِالْإِسْلَامِ وَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ فَقَالَا : فِيمَا يُذْكَرُ عَنْهُمَا: وَاَللّهِ لَعَرَفْنَا فِي وَجْهِهِ الْإِسْلَامَ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلّمَ فِي إشْرَاقِهِ وَتَسَهّلِهِ ثُمّ قَالَ مَا أَحْسَنَ هَذَا الْكَلَامَ وَأَجْمَلَهُ كَيْفَ تَصْنَعُونَ إذَا أَرَدْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا فِي هَذَا الدّينِ ؟ قَالَا لَهُ تَغْتَسِلُ فَتَطّهّرُ وَتُطَهّرُ ثَوْبَيْك، ثُمّ تَشْهَدُ شَهَادَةَ الْحَقّ ثُمّ تُصَلّي .

فَقَامَ فَاغْتَسَلَ وَطَهّرَ ثَوْبَيْهِ وَتَشَهّدَ شَهَادَةَ الْحَقّ ثُمّ قَامَ فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ ثُمّ قَالَ لَهُمَا : إنّ وَرَائِي رَجُلًا إنْ اتّبَعَكُمَا لَمْ يَتَخَلّفْ عَنْهُ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِهِ وَسَأُرْسِلُهُ إلَيْكُمَا الْآنَ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ أَخَذَ حَرْبَتَهُ

وَانْصَرَفَ إلَى سَعْدٍ وَقَوْمِهِ وَهُمْ جُلُوسٌ فِي نَادِيهِمْ فَلَمّا نَظَرَ إلَيْهِ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ مُقْبِلًا، قَالَ أَحْلِفُ بِاَللّهِ لَقَدْ جَاءَكُمْ أُسَيْدٌ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الّذِي ذَهَبَ بِهِ مِنْ عِنْدِكُمْ فَلَمّا، وَقَفَ عَلَى النّادِي قَالَ لَهُ سَعْدٌ مَا فَعَلْت؟

قَالَ كَلّمْت الرّجُلَيْنِ فَوَاَللّهِ مَا رَأَيْت بِهِمَا بَأْسًا، وَقَدْ نَهَيْتهمَا فَقَالَا : نَفْعَلُ مَا أَحْبَبْت، وَقَدْ حُدّثْت أَنّ بَنِي حَارِثَةَ قَدْ خَرَجُوا إلَى أَسْعَدِ بْنِ زُرَارَةَ لِيَقْتُلُوهُ وَذَلِكَ أَنّهُمْ قَدْ عَرَفُوا أَنّهُ ابْنُ خَالَتِك، لِيُخْفِرُوكَ، فَقَامَ سَعْدٌ مُغْضَبًا مُبَادِرًا، تَخَوّفًا لِلّذِي ذُكِرَ لَهُ مِنْ بَنِي حَارِثَةَ فَأَخَذَ الْحَرْبَةَ مِنْ يَدِهِ ثُمّ قَالَ وَاَللّهِ مَا أَرَاك أَغْنَيْت شَيْئًا، ثُمّ خَرَجَ إلَيْهِمَا، فَلَمّا رَآهُمَا سَعْدٌ مُطْمَئِنّيْنِ عَرَفَ سَعْدٌ أَنّ أُسَيْدًا إنّمَا أَرَادَ مِنْهُ

أَنْ يَسْمَعَ مِنْهُمَا، فَوَقَفَ عَلَيْهِمَا مُتَشَتِّمًا، ثُمَّ قَالَ لِأَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ يَا أَبَا أُمَامَةَ لَوْلَا مَا بَيْنِي وَبَيْنَك مِنْ الْقَرَابَةِ مَا رُمْت هَذَا مِنّي، أَتَغْشَانَا فِي دَارَيْنَا بِمَا نَكْرَهُ - وَقَدْ قَالَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ لِمُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ أَيْ مُصْعَبُ جَاءَك وَاَللّهِ سَيّدُ مَنْ وَرَائِهِ مِنْ قَوْمِهِ إنْ يَتّبِعْك لَا يَتَخَلّفُ عَنْك مِنْهُمْ اثْنَانِ- فَقَالَ لَهُ مُصْعَبٌ أَوَ تَقْعُدُ فَتَسْمَعُ فَإِنْ رَضِيت أَمْرًا وَرَغِبْت فِيهِ قَبِلْته ، وَإِنْ كَرِهْته عَزَلْنَا عَنْك مَا تَكْرَهُ ؟ قَالَ سَعْدٌ أَنْصَفْت ثُمّ رَكَزَ الْحَرْبَةَ وَجَلَسَ فَعَرَضَ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ وَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ قَالَا: فَعَرَفْنَا وَاَللّهِ فِي وَجْهِهِ الْإِسْلَامَ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلّمَ لِإِشْرَاقِهِ وَتَسَهّلِهِ ثُمّ قَالَ لَهُمَا : كَيْفَ تَصْنَعُونَ إذَا أَنْتُمْ أَسْلَمْتُمْ وَدَخَلْتُمْ فِي هَذَا الدّينِ ؟ قَالَا : تَغْتَسِلُ فَتَطّهّرُ وَتُطَهّرُ ثَوْبَيْك ، ثُمّ تَشْهَدُ شَهَادَةَ الْحَقّ ثُمّ تُصَلّي رَكْعَتَيْنِ قَالَ فَقَامَ فَاغْتَسَلَ وَطَهّرَ ثَوْبَيْهِ وَتَشَهّدَ شَهَادَةَ الْحَقّ ثُمّ رَكَعَ رَكْعَتَيْنِ ثُمّ أَخَذَ حَرْبَتَهُ فَأَقْبَلَ عَامِدًا إلَى نَادِي قَوْمِهِ وَمَعَهُ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ . قَالَ فَلَمّا رَآهُ قَوْمُهُ مُقْبِلًا ، قَالُوا : نَحْلِفُ بِاَللّهِ لَقَدْ رَجَعَ إلَيْكُمْ سَعْدٌ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الّذِي ذَهَبَ بِهِ مِنْ عِنْدِكُمْ فَلَمّا وَقَفَ عَلَيْهِمْ قَالَ يَا بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ كَيْفَ تَعْلَمُونَ أَمْرِي فِيكُمْ؟ قَالُوا: سَيّدُنَا وَأَفْضَلُنَا رَأْيًا، وَأَيْمَنُنَا نَقِيبَةً قَالَ فَإِنّ كَلَامَ رِجَالِكُمْ وَنِسَائِكُمْ عَلَيّ حَرَامٌ حَتّى تُؤْمِنُوا بِاَللّهِ وَبِرَسُولِهِ . قَالَا : فَوَاَللّهِ مَا أَمْسَى فِي دَارِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ رَجُلٌ وَلَا امْرَأَةٌ إلّا مُسْلِمًا وَمُسْلِمَةً وَرَجَعَ أَسْعَدُ وَمُصْعَبٌ إلَى مَنْزِلِ أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ فَأَقَامَ عِنْدَهُ يَدْعُو النّاسَ إلَى الْإِسْلَامِ حَتّى لَمْ تَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إلّا وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ مُسْلِمُونَ (١)

سبحان الله! ظل رسول الله ﷺ يدعو سادات مكة لأكثر من عشرة أعوام، فكانت سيادتهم دافعا إلى الكبر والحسد فعارضوا رسول الله ﷺ وكذبوه وآذوه وحاربوه، وها هما سيدا قومهما يُسلمان لمجرد سماع آيات من القرآن الكريم. فلا رسول الله ﷺ أيس من استجابة قومه، ولا مصعب تعجل ثمار دعوته، فالدعوة الصادقة إلى الله تكمن في إخلاص العمل وصدق النية، وترك النتائج إلى الله والرضا بها مهما كانت، وثمارها آتية ولو بعد حين .

إن نجاح دعوة مصعب بن عُمير في المدينة دليل حي على نجاح أي دعوة تسير وفق منهج محدد وخطوات مدروسة، فقد اجتمع في دعوته وضوح المنهج، وصدق مضمونه، وتهيئة الظروف المحيطة، وتقبلها للدعوة، ومع كل هذا كفاءة الداعية وقدرته على عرض مضمون دعوته بما يجذب إليها الأفئدة ويُقبلها عليها.

---

(١) دلائل النبوة ٢/٦ ٣٠باب ذكر العقبة الأولى حديث٢ ٧٠ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٦/٦ ٤باب ابتداء أمر الأنصار رواه عن عروة وقال رواه الطبراني مرسلا فيه ابن لهيعة وفيه ضعف وهو حسن الحديث وبقية رجاله ثقات،وفي ثقات ابن حبان - (ج ١ / ص ٩٧) والبداية والنهاية لابن كثير ١٥٢/٣

ولعلنا نستشف بعضا من خطوات هذا المنهج الدعوي الذي ترسمه هذه التجربة الدعوية.

١ـ فهم ظروف المجتمع وحال المدعوين: إن مُصعب من أهل مكة وربما جهل طباع أهل المدينة وأنماط تفكيرهم لذا لم يغامر بدعوته ويواجه أهلها بمفرده، فهو يجهل السيد والعبد والوجيه والسفيه، وقد تجهض دعوته في حال صدامها مع مجتمع يجهله، لذا لازم أسعد بن زرارة في طوافه على الناس وفي مجالساتهم، فدلّه أسعد على من قد يقبل دعوته وجنّبه من قد يُعرض عنها؛ لتأصل دوافع الكبر والحسد في نفسه، لذا لم يُجالس رجلا كأبي بن سلول وإنما جالس رجلا كسعد بن معاذ وأسيد بن حُضير، رغم أن كلهم سادة في أقوامهم، وهذا من حُسن فهم أسعد بن زرارة للبيئة التي يعيش فيها، أما مصعب فاستطاع أن يعرض دعوته ومنهج رسالته بما يجذب إليها القلوب، مستندا على منهج النبي ﷺ في دعوته في مكة، أي بناء عقائدي بعرض قضية التوحيد، وبناء أخلاقي بالدعوة إلى مكارم الأخلاق، الأمر الذي تعجز أي فطرة سوية على رده أو قيام حجة على بطلانه.

وهذا المنهج يعتمد على عرض صورتين متباينتين للمجتمع، صورته الحالية بما فيه من ضلال وفساد وانحراف عن الفطرة، وصورة مثالية للمجتمع وفق تعاليم الإسلام ومنهجه، وقد أتت ثمار هذه الدعوة باستجابة سادة يثرب لها بعد تجسيد هاتين الصورتين رأي العين وإظهار المفارقة البيّنة بين كلتيهما، فقد روى الطبراني عن عروة أن سعد بن معاذ رجع إلى قومه فدعا بني عبد الأشهل إلى الإسلام وأظهر إسلامه وقال فيه: من شكّ من صغير أو كبير أو ذكر أو أنثى فليأتنا بأهدى منه نأخذ به، فوالله لقد جاء أمر لتحزن فيه الرقاب، فأسلمت بنو عبد الأشهل عند إسلام سعد ودعائه، إلا من لا يذكر، فكانت أول دور من دور الأنصار أسلمت بأسرها. (١)

٢ـ اللين في الخطاب وحسن اختيار الأسلوب: لما أرسل الله عز وجل موسى عليه السلام إلى ذلك الطاغية الذي ادّعى الألوهية من دون الله تعالى، قال الله عز وجل موجها موسى عليه السلام في خطابه لفرعون [فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى] (٢) وقال [فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى] (٣)

---

(١) مجمع الزوائد ٩٨٧٦ وقال الهيثمي رواه الطبراني مرسلا فيه ابن لهيعة وفيه ضعف وهو حسن الحديث وبقية رجاله ثقات

(٢) {طه: ٤٤} (٣) {النازعات ١٨/١٩}

فالقلوب لا تلين بالغلظة والشدة، والدعوة لن تجني ثمار تُرجى حين تُعرض بأسلوب ينفّر منها القلوب قبل العقول.

عَنْ عَائِشَةَ أن رسول الله ﷺ قَالَ « إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ » (١)

فالرفق في الخطاب واللين في القول ومراعاة الأدب في الدعوة وأسلوب الحوار يكون - غالبا - مما يُثمر في الانصياع إلى الحق وإيثاره على غيره، فهذا مصعب بن عمير، قد أبدع في اختيار الألفاظ وبلغ منتهى الأدب في عرض دعوته لرجل قادم إلى زجره ونهيه .

قالَ لَهُ مُصْعَبٌ: أَوَ تَجْلِسُ فَتَسْمَعُ فَإِنْ رَضِيت أَمْرًا قبلته ، وَإِنْ كَرِهْته كُفّ عَنْك مَا تَكْرَهُ ؟ فماذا كان الجواب؟ لقد جعل مصعب أسيد يقيم الحجة على نفسه ببلاغة منطقه وعدل قوله وقوة حجته، قبل أن يعرض عليه دعوته، كما استطاع أن يمتص غضبه ويحتوي انفعاله الذي قد يحجبه عن استيعاب الدعوة وفهم مضمونها، وقبل كل هذا ألان له الخطاب بما يحفظ له مكانته، فما كان من أسيد إلا أن قال " أنصَفت " فقد أيقن أن الخيار بيده، ففي رضاه قبول الحق وفي سخطه بُعد مصدر الكراهية عنه، وبذا استطاع مصعب أن يكسر كل الحواجز النفسية التي قد تصده عن قبول الحق والتفكير فيه، فلما قدم سعد بن معاذ لنفس الغرض الذي جاء به أسيد، استخدم مصعب نفس طريقة الدعوة لأنها نجحت مع أسيد، فاختيار الوسائل والأفكار الناجحة تقتصر الطريق على الداعية وتوفر عليه الوقت والمجهود .

٣- إنزال الناس منازلهم: عن عَائِشَةَ أن رسول الله ﷺ قال « أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ » (٢) فهذا الهدي النبوي في إنزال الناس منازلهم تربية وتوجيه للداعية والمدعو في معرفة قدر الناس ومخاطبتهم بما يتلاءم وأحوالهم، فالمعاند المكابر يخاطب بخطاب يليق به، والجاهل الملتمس للعلم يخاطب بخطاب يليق به، والشريف في قومه والأب والمعلم والعالم والحاكم وكل من هو عظيم في نفسه أو وجيه بين قومه بحاجة إلى حكمة في دعوته تحفظ له مكانته، وبلاغة في القول تقتضي مراعاة الحال، فلكل مقام مقال، وقد قال الإمام مسلم رحمه الله ((فلا يقصر بالرجل العالي القدر عن درجته، ولا يرفع متضع القدر فوق منزلته، ويعطى كل ذي حق حقه من قوله تعالى [وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ] (٣)

---

(٤)مسلم ٦٧٦٧

(٥) سنن أبي داوود ٤٨٤٤ وقال مَيْمُونٌ لَمْ يُدْرِكْ عَائِشَةَ. وذكره مسلم في مقدمة صحيحه تعليقا

(٦)دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين - (ج ٤ / ص ٢٧) والآية من سورة {يوسف:٧٦}

وقديما قالوا ((لا تضعوا الحكمة في غيرِ أهلِها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم، وكن كالطبيب الحاذق يضع دواءه حيث يعلم أنه ينفع)) فجدير بالداعية أن يُراعي قدر الناس ويحفظ لهم هيبتهم ومقامهم، فهذا أسعد بن زرارة، قد فطن إلى مكانة أسيد بن حُضير في قومه فقال لِمُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ " هَذَا سَيِّدُ قَوْمِهِ قَدْ جَاءَك، فَاصْدُقْ اللّهَ فِيهِ " فوجهه إلى لين الخطاب وتوخي الحذر في الدعوة مع سيد من سادات قومه يغضب لغضبه قبيلة بأسرها، فلما جاء سعد بن معاذ وجه أسعد مصعب إلى مكانة سعد بن معاذ في قومه والتي لا تقتصر على سيادته فيهم، وإنما شملت قوة رأيه وتأثيره عليهم فإن أمن تبعه قومه دون دعوة، فقال لمصعب " أَيْ مُصْعَبُ جَاءَك وَاَللّهِ سَيّدُ مَنْ وَرَائِهِ مِنْ قَوْمِهِ إنْ يَتّبِعْك لَا يَتَخَلّفْ عَنْك مِنْهُمْ اثْنَانِ"فهذا الفهم لطبائع المدعوين وحفظ مكانتهم والأمل في هدايتهم قد قطع على مصعب نصف طريق الدعوة، فتعامل معهم بما لهم من مكانة في أقوامهم، بغضّ النظر عن موقفهم من الدين والدعوة، وبغضّ النظر عن الطريقة التي جاءوا يحدّثونه بها، فالهدف الأسمى يحجب فكر الداعية عن التطرق إلى قضايا فرعية أو استخدام أساليب بدائية تُنفرّ المدعوين، وتثير حفيظتهم وعداوتهم .

٤- **فهم أحوال المدعوين وتجنب الصدام معهم:** قال تعالى [وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ](١) فلما كان سبُّ آلهة المشركين دافعا لهم إلى سوء الأدب مع الله عز وجل، وجه الله تعالى المؤمنين إلى الإعراض عن سب آلهتهم دفعا للمفاسد، وهذا المنهج الرباني يوجه الدعاة إلى الطريقة المُثلى في دعوة أهل الباطل وأصحاب البدع والأهواء، فإظهار الحق وذكر فضائله مُقدم على الصدام المباشر مع معتقدات المدعوين والتلويح بصريح كفرهم وضلالهم، لما فيه من نفورهم عن الدعوة والداعية، فجدير بالداعية أن ينوع من لغة خطابة وفقا لأحوال الناس ووفقا لاحتياجاتهم، فدعوة الكافر المتعصب ليست كدعوة الكافر الجاهل بالحق، وكذلك دعوة المسلم الجاهل بتعاليم الإسلام ليست كدعوة المبتدع في الدين المتعصب لضلاله، ففهم أحوال المدعوين يوجه الداعية إلى الأسلوب والوسيلة التي تتلاءم وأفكارهم، فليس الداعية الكيّس الذي يبشّر الناس بجنات عدنٍ وهم قائمون على العصيان، وليس الداعية الكيّس الذي يظهر الله للناس أنه المنتقم الجبار فقط ! وأنه القاهر فوق عباده فقط !

---

(١){الأنعام:١٠٨}

ورحم الله الإمام علي ﷺ إذا قال ((إِنَّ الْفَقِيهَ حَقَّ الْفَقِيهِ مَنْ لَمْ يُقَنِّطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَلَمْ يُرَخِّصْ لَهُمْ فِي مَعَاصِي اللَّهِ، وَلَمْ يُؤَمِّنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَلَمْ يَدَعِ الْقُرْآنَ رَغْبَةً عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ، إِنَّهُ لا خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ لا عِلْمَ فِيهَا، وَلا عِلْمَ لا فَهْمَ فِيهِ، وَلا قِرَاءَةً لا تَدَبُّرَ فِيهَا.)) (١)

٥ـ فهم وظيفة الداعية وحدود مهمته: قال تعالى [قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ] (٢) فوظيفة الرسول قاصرة على التبليغ والإنذار، ومعلوم أن الأمة تبع للرسول ﷺ في كل أمر ونهي يوجه إليه، والدعاة رسل لأقوامهم يبلغونهم رسالة ربهم وسُنّة نبيهم، وعند البلاغ تقتصر مهمتهم، فالهداية من الله وحده، وما الداعية إلا سبب لها، وقد فطن مصعب إلى حدود مهمته جيدا، فوقف عندها ولم يتجاوزها؛ ليختلق الصدام مع المعاندين لدعوته، وهكذا كان نهج النبي ﷺ طيلة العهد المكي مقتصرا على عرض دعوته، مرغبا فيها، يذكر بفضائلها ويعدد محاسنها بما يرغب فيها النفوس، ففهم مصعب الدرس جيداً، فلما أقبل عليه أسيد قالَ مُصْعَب " إِنْ يَجْلِسْ أُكَلِّمْهُ " فإن أعرض فلا حاجة لمصعب بالتعرض له وعرض الرسالة عليه .

٦ـ تجديد النية والصدق فيها : قال رسول الله ﷺ « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى »(٣) فجدير بالداعية ألا ينتظر الشكر والثناء على عمله، وألا يبالي بالسخرية والاستهزاء من الإعراض عنه، ويصبر على الفتن والابتلاء الملازم لمشوار دعوته، ويُذكر نفسه بعظيم الأجر عند الله وحُسن الثواب في الخاتمة، فهذه المثبتات على الطريق تدفع الداعية إلى مزيد من البذل والعطاء والإخلاص في الدعوة والتفاني من أجلها .

قال رسول الله ﷺ " إن تصدق الله يصدقك "(٤) والصدق في الدعوة هو صدق مع الله عز وجل، وقد فطن لهذا أسعد بن زُرارة فقال لمصعب موجها " هَذَا سَيِّدُ قَوْمِهِ قَدْ جَاءَكَ، فَاصْدُقْ اللَّهَ فِيهِ " فلما صدق مع الله فيهما أنعم الله عليهم بالإسلام، وكتب لمصعب الأجر والثواب، فهذه حسنة واحدة من حسنات مصعب قد اهتز لها عرش الرحمن، فلما مات سعد بن معاذ قال رسول الله ﷺ « هَذَا الَّذِي تَحَرَّكَ لَهُ الْعَرْشُ وَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَشَهِدَهُ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ ...... » (٥)

---

(١)سنن الدارمي٣٠٣، والتقنيط : التيئيس وإغلاق باب الأمل في الرحمة والمغفرة من الله ـ رغبة عنه : ميلا وبعدا عنه

(٢){الحج:٤٩}

(٣)البخاري ١

(٤)سنن النسائي١٩٥٣وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير١٤١٥

(٥)سنن النسائي٢٠٦٧ومسند أحمد١٤٨٧٩وصححه الألباني في سنن النسائي١٠٠/٤حديث٢٠٥٥

٧- **عدم القنوت من هداية الناس:** ربما ينتج عن الإعراض عن الدعوة اليأس في قلب الداعية ويزين له الشيطان القنوت من هدايتهم، رغم أن الهداية قد تأتي في لحظة، قد تأتي بآية، أو حديث، أو موقف يُحرّك قلب الإنسان ويرد له بصيرته، فإن الخير دفين في كل نفس، مهما غلب على ظاهرها الشقاء والعداوة، والداعية الكيّس الذي لا يُقنّط الناس من رحمة الله عز وجل مهما اقترفوا من آثام، ولا يقنط هو من هداية ضال مهما اجتهد في دعوته، فهذا نموذج حي بين أيدينا، إنه أسيد بن حُضير، فحينما أقبل على مجلس مصعب " وَقَفَ عَلَيْهِمَا مُتَشَتِّمًا، فَقَالَ مَا جَاءَ بِكُمَا إِلَيْنَا تُسَفِّهَانِ ضُعَفَاءَنَا ؟ اعْتَزِلَانَا إِنْ كَانَتْ لَكُمَا بِأَنْفُسِكُمَا حَاجَةٌ " أفي قول مثل هذا بارقة أمل للهداية والنجاة ؟!

لقد أسلم أسيد بمجرد سماع آيات من القرآن الكريم، بل إن أعجب ما في أمره أن الملائكة كانت تنزل من السماء لتستمع إلى تلاوته! ففي الصحيحين عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ حَدَّثَهُ أَنَّ أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ بَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ وَفَرَسُهُ مَرْبُوطٌ عِنْدَهُ إِذْ جَالَتِ الْفَرَسُ فَسَكَتَ فَسَكَتَتْ فَقَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ، فَسَكَتَ وَسَكَتَتِ الْفَرَسُ ثُمَّ قَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ، فَانْصَرَفَ وَكَانَ ابْنُهُ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا فَأَشْفَقَ أَنْ تُصِيبَهُ فَلَمَّا اجْتَرَّهُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى مَا يَرَاهَا فَلَمَّا أَصْبَحَ حَدَّثَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ « اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ »

قَالَ فَأَشْفَقْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى وَكَانَ مِنْهَا قَرِيبًا فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَانْصَرَفْتُ إِلَيْهِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ الْمَصَابِيحِ فَخَرَجَتْ حَتَّى لاَ أَرَاهَا، قَالَ « وَتَدْرِى مَا ذَاكَ » قَالَ لاَ.

قَالَ « تِلْكَ الْمَلاَئِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ وَلَوْ قَرَأْتَ لأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا لاَ تَتَوَارَى مِنْهُمْ (١)

وهذا سعد بن معاذ، لما أقبل على مجلس مصعب وقف عَلَيْهِمَا مُتَشَتِّمًا، ثُمّ قَالَ لِأَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ يَا أَبَا أُمَامَةَ لَوْلَا مَا بَيْنِي وَبَيْنَك مِنْ الْقَرَابَةِ مَا رُمْت هَذَا مِنّي، أَتَغْشَانَا فِي دَارَيْنَا بِمَا نَكْرَهُ! وما هي إلا لحظات وطرق الإيمان ذاك القلب الغافل، فكان إسلامه فتحا عظيما، فالهداية هبة ربانية، وما الداعية إلا إحدى أسبابها .

(١) البخاري ٥٠١٨ ومسلم ١٨٩٥

إن المتطلع للمعتقدات الأكثر انتشارا بين البشر في هذا الزمان يعرف حق اليقين أنها لا تقوى على مواجهة تعاليم الإسلام والتأثير في الناس مثله، فقد غدت معتقدات البشر بين صنوف شتى من الشرك، فما من عقيدة إلا وجعلت بين الخالق والمخلوق وساطة اختلفت باختلاف معتقدات البشر، وافتقدت المنهج الذي ينظم حياتهم ويُسيّر أمور معايشهم وفق نظام محدد يخضع له الحاكم والمحكوم، والغني والفقير، والقوي والضعيف، أما الإسلام فقد أزال كل الحواجز بين البشر وخالقهم، وجاء بالمنهج الذي يتلاءم واحتياجاتهم المتغيرة، ويتعامل مع المستجدات بكل مرونة، فهو دين يتسم بالمرونة، لا يعرف الجمود ولا السطحية، والنفس البشرية تشتاق إلى السمو لا إلى التدني، والإسلام يمنحها هذا الرقي الذي تطلبه، وينتشلها من الانغماس في بحر الماديات؛ لتسمو الروح بجوار البدن، وما ينقص الإسلام حقيقة صدق الدعاة، وتفاهمهم لواقع الحياة وأنماط التفكير المختلفة عند الناس، ومجاراة الواقع بما لا يتعارض وثوابت الدين، فإن كانت تعاليم النصرانية - وهي من أكثر المعتقدات انتشارا - قد خلطت التوحيد بالوثنية وغدت وكأنها طلاسم لا يستطيع فهمها إلا قلة قليلة، فقد استطاع المبشرون النصارى أن يجذبوا إليها أفئدة الناس بقوة أسلوبهم وقدرتهم على الإقناع، وفهم طبيعة البشر وحاجة عقولهم، فإقبال الناس على النصرانية كعقيدة ليس إلا رضوخا منهم إلى سحر المبشرين، وكفاءة وسائلهم التبشيرية، رغم ضآلة السلعة، أما الإسلام فقد حباه الله مضمونا يغزو النفوس الحائرة، وينتشل العقول الضالة من تيهها، ويهدي البشر إلى المنهج الرباني الذي تقوده إليهم فطرتهم السوية .

إننا بحاجة إلى أن نؤمن أولا بسمو رسالة الإسلام وتعاليها، ثم فقه الدعوة إلى الله وتجديد أساليبها؛ لتتلاءم مع متغيرات العصر، فلكل زمان أسلوب حياة، ولكل فئة من البشر مدخل خاص وطريقة في التعامل ونمط في التفكير، فحينما تقوقعنا على أنفسنا صارت بلادنا مرتعا للمبشرين وأصحاب الأفكار الهدامة ونحن من قال الله عنا (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ](١) فجعل الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أسباب خيرية هذه الأمة، وما الدعوة إلى الله إلا أمر بالمعروف الذي قال عنه النبي ﷺ « لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ ثُمَّ لَتَدْعُوُنَّهُ فَلا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ » (٢)

---

(٢) (آل عمران ١١٠)

(٣)مسند أحمد ٢٤٠٠٢ وحسنه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير ٧٠٧٠

بيعة العقبة الثانية

انقضى عام وأقبل موسم الحج، فقرر الأنصار أن يُقبلوا إلى رسول الله ﷺ يبايعوه على النصرة والتأييد والإنصاف والحماية، وألا يتركوه مطاردا بين جبال مكة، ينال منه سفهاء المشركين، فقدم بضع وسبعون رجلا من الأنصار إلى مكة يقودهم رسول رسول الله ﷺ مصعب بن عمير، تغمر قلبه السعادة لما لاقى الإسلام من قبول في المدينة، أقبل وكله شوق أن يزف البشرى لرسول الله ﷺ أن قد غدا للإسلام وطن ومأوى وحصن يحتمي به، أما الأنصار فقد ملأ الإيمان قلوبهم، ذاك الإيمان الذي يأتي عن عقيدة سليمة واقتناع، فيمد صاحبه بقوة يظن بها أنه قادر على تفتيت الجبال الشامخات.

لقد عزم الأنصار على نصرة رسول الله ﷺ وتأييده، وهم بذلك يواجهون قريشا بأحلافها وبطشها، ويرمون العرب قاطبة عن قوس واحدة، إلا أن الإيمان قد هيج القلوب حماسة لنصرة رسول الله ﷺ وها هو يبحث عن مخرج يتنفس منه؛ ليُخرج هذه الدعوة المضطهدة إلى نور الدنيا؛ لتغزوا القلوب قبل البلاد، وتشرق شمس الرسالة من المدينة إلى ربوع الدنيا .

عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال " فلما بَعَثَنَا اللَّهُ إِلَيْهِ مِنَ الْمَدِينَةِ آوَيْنَاهُ وَصَدَّقْنَاهُ فَيَخْرُجُ الرَّجُلُ مِنَّا فَيُؤْمِنُ بِهِ وَيُقْرِئُهُ الْقُرْآنَ فَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ فَيُسْلِمُونَ بِإِسْلَامِهِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا وَفِيهَا رَهْطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ ثُمَّ ائْتَمَرُوا جَمِيعاً فَقُلْنَا حَتَّى مَتَى نَتْرُكُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُطْرَدُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ وَيَخَافُ فَرَحَلَ إِلَيْهِ مِنَّا سَبْعُونَ رَجُلًا حَتَّى قَدِمُوا عَلَيْهِ فِي الْمَوْسِمِ فَوَاعَدْنَاهُ شِعْبَ الْعَقَبَةِ .... (١)

كانت بيعة العقبة الأولى خطوة نحو توطيد الإسلام في قلوب الأنصار قبل بلدتهم، فجاءت بنودها بما يتلاءم وأحوال الأنصار في مبدأ الإسلام، فلما عادوا إلى بلدتهم حملوا هَمّ الرسالة واجتهدوا في إبلاغها والدعوة إليها، وحركتهم مشاعر الأخوة الدينية لنصرة رسول الله ﷺ والمسلمين المعذبين في مكة، فأيقن رسول الله ﷺ أن الأنصار هم حملة الرسالة، وأن بلدتهم هي مقصده ومهاجره، فأراد أن يأخذ عليهم العهود والمواثيق لنصرة رسول الله ﷺ ورسالته، فكانت البيعة الثانية بمثابة إقرار بالطاعة لله ورسوله ﷺ، والامتثال لأوامر رسول الله ﷺ ونواهيه وحمايته وأصحابه حتى يُبلغ رسالة ربه ولهم على ذلك الجنة .

---

(١) مسند أحمد ١٤٨٣٠ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/٦ ٥ رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١٣٣/١ حديث ٦٣

عن كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ ﷺ - وَكَانَ كَعْبٌ مِمَّنْ شَهِدَ العَقَبَةَ وَبَايَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِهَا - قَالَ: خَرَجْنَا فِي حُجَّاجِ قَوْمِنَا مِنَ المُشْرِكِينَ وَقَدْ صَلَّيْنَا وَفَقِهْنَا وَمَعَنَا البَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ كَبِيرُنَا وَسَيِّدُنَا فَلَمَّا تَوَجَّهْنَا لِسَفَرِنَا وَخَرَجْنَا مِنَ المَدِينَةِ قَالَ البَرَاءُ لَنَا يَا هَؤُلاءِ إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ وَاللَّهِ رَأياً وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَدرِي تُوَافِقُونِي عَلَيْهِ أَمْ لاَ. قَالَ قُلْنَا لَهُ وَمَا ذَاكَ قَالَ قَدْ رَأَيْتُ أَنْ لاَ أَدَعَ هَذِهِ البَنِيَّةَ مِنِّي بِظَهْرٍ يَعْنِي الكَعْبَةَ وَأَنْ أُصَلِّيَ إِلَيْهَا. قَالَ فَقُلْنَا وَاللَّهِ مَا بَلَغَنَا أَنَّ نَبِيَّنَا يُصَلِّي إِلاَّ إِلَى الشَّامِ وَمَا نُرِيدُ أَنْ نُخَالِفَهُ. فَقَالَ إِنِّي أُصَلِّي إِلَيْهَا. قَالَ فَقُلْنَا لَهُ لَكِنَّا لاَ نَفْعَلُ. فَكُنَّا إِذَا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ صَلَّيْنَا إِلَى الشَّامِ وَصَلَّي إِلَى الكَعْبَةِ حَتَّى قَدِمْنَا مَكَّةَ. وَقَدْ كُنَّا عِبْنَا عَلَيْهِ مَا صَنَعَ وَأَبَى إِلاَّ الإِقَامَةَ عَلَيْهِ فَلَمَّا قَدِمْنَا مَكَّةَ قَالَ يَا ابْنَ أَخِي انطَلِقْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاسْأَلْهُ عَمَّا صَنَعْتُ فِي سَفَرِي هَذَا فَإِنَّهُ وَاللَّهِ قَدْ وَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْهُ شَيْءٌ لَمَّا رَأَيْتُ مِنْ خِلاَفِكُمْ إِيَّايَ فِيهِ. قَالَ: خَرَجْنَا نَسْأَلُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكُنَّا لاَ نَعْرِفُهُ لَمْ نَرَهُ قَبْلَ ذَلِكَ فَلَقِيَنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فَسَأَلْنَاهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ هَلْ تَعْرِفَانِهِ قَالَ قُلْنَا لاَ. قَالَ فَهَلْ تَعْرِفَانِ العَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ عَمَّهُ قُلْنَا نَعَمْ. قَالَ كُنَّا نَعْرِفُ العَبَّاسَ كَانَ لاَ يَزَالُ يَقْدَمُ عَلَيْنَا تَاجِراً.

قَالَ فَإِذَا دَخَلْتُمَا المَسْجِدَ فَهُوَ الرَّجُلُ الجَالِسُ مَعَ العَبَّاسِ. قَالَ فَدَخَلْنَا المَسْجِدَ فَإِذَا العَبَّاسُ جَالِسٌ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَهُ جَالِسٌ فَسَلَّمْنَا ثُمَّ جَلَسْنَا إِلَيْهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلعَبَّاسِ « هَلْ تَعْرِفُ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ يَا أَبَا الفَضْلِ » قَالَ نَعَمْ هَذَا البَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ سَيِّدُ قَوْمِهِ وَهَذَا كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ. قَالَ فَوَاللَّهِ مَا أَنْسَى قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ « الشَّاعِرُ » قَالَ نَعَمْ. قَالَ فَقَالَ البَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنِّي خَرَجْتُ فِي سَفَرِي هَذَا وَهَدَانِي اللَّهُ لِلإِسْلاَمِ فَرَأَيْتُ أَنْ لاَ أَجْعَلَ هَذِهِ البَنِيَّةَ مِنِّي بِظَهْرٍ فَصَلَّيْتُ إِلَيْهَا وَقَدْ خَالَفَنِي أَصْحَابِي فِي ذَلِكَ حَتَّى وَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ فَمَاذَا تَرَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟

قَالَ « لَقَدْ كُنْتَ عَلَى قِبْلَةٍ لَوْ صَبَرْتَ عَلَيْهَا » قَالَ رَجَعَ البَرَاءُ إِلَى قِبْلَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَصَلَّى مَعَنَا إِلَى الشَّامِ، وَأَهْلُهُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ صَلَّى إِلَى الكَعْبَةِ حَتَّى مَاتَ وَلَيْسَ ذَلِكَ كَمَا قَالُوا، نَحْنُ أَعْلَمُ بِهِ مِنْهُمْ.

قَالَ: وَخَرَجْنَا إِلَى الحَجِّ فَوَاعَدْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ العَقَبَةَ مِنْ أَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فَلَمَّا فَرَغْنَا مِنَ الحَجِّ وَكَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي وَعَدَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَعَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ حَرَامٍ أَبُو جَابِرٍ سَيِّدٌ مِنْ سَادَتِنَا وَكُنَّا نَكْتُمُ مَنْ مَعَنَا مِنْ قَوْمِنَا مِنَ المُشْرِكِينَ أَمْرَنَا فَكَلَّمْنَاهُ وَقُلْنَا لَهُ يَا أَبَا جَابِرٍ إِنَّكَ سَيِّدٌ مِنْ سَادَتِنَا وَشَرِيفٌ مِنْ أَشْرَافِنَا وَإِنَّا نَرْغَبُ بِكَ عَمَّا أَنْتَ فِيهِ أَنْ تَكُونَ حَطَباً لِلنَّارِ غَداً ثُمَّ دَعَوْتُهُ إِلَى الإِسْلاَمِ وَأَخْبَرْتُهُ بِمِيعَادِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَسْلَمَ وَشَهِدَ مَعَنَا العَقَبَةَ وَكَانَ نَقِيباً - قَالَ - فَنِمْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ مَعَ قَوْمِنَا فِي رِحَالِنَا حَتَّى إِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ خَرَجْنَا

مِنْ رِحَالِنَا لِمِيعَادِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَتَسَلَّلُ مُسْتَخْفِينَ تَسَلُّلَ الْقَطَا حَتَّى اجْتَمَعْنَا فِي الشِّعْبِ عِنْدَ الْعَقَبَةِ وَنَحْنُ سَبْعُونَ رَجُلاً وَمَعَنَا امْرَأَتَانِ مِنْ نِسَائِهِمْ نُسَيْبَةُ بِنْتُ كَعْبٍ أُمُّ عُمَارَةَ وَأَسْمَاءُ بِنْتُ عَمْرِو بْنِ عَدِيٍّ وَهِيَ أُمُّ مَنِيعٍ. قَالَ - فَاجْتَمَعْنَا بِالشِّعْبِ نَنْتَظِرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَتَّى جَاءَنَا وَمَعَهُ يَوْمَئِذٍ عَمُّهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنَّهُ أَحَبَّ أَنْ يَحْضُرَ أَمْرَ ابْنِ أَخِيهِ وَيَتَوَثَّقُ لَهُ فَلَمَّا جَلَسْنَا كَانَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَوَّلَ مُتَكَلِّمٍ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ - قَالَ وَكَانَتِ الْعَرَبُ مِمَّا يُسَمُّونَ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الأَنْصَارِ الْخَزْرَجَ أَوْسَهَا وَخَزْرَجَهَا - إِنَّ مُحَمَّداً مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ وَقَدْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنَا مِمَّنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِنَا فِيهِ وَهُوَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ وَمَنَعَةٍ فِي بَلَدِهِ. قَالَ فَقُلْنَا قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْتَ فَتَكَلَّمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَخُذْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ مَا أَحْبَبْتَ. قَالَ تَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَتَلاَ وَدَعَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَرَغَّبَ فِي الإِسْلاَمِ وَقَالَ « أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ ». قَالَ أَخَذَ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ نَعَمْ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَنَمْنَعَنَّكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أُزُرَنَا فَبَايِعْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَنَحْنُ أَهْلُ الْحُرُوبِ وَأَهْلُ الْحَلْقَةِ وَرِثْنَاهَا كَابِراً عَنْ كَابِرٍ. قَالَ فَاعْتَرَضَ الْقَوْلَ وَالْبَرَاءُ يُكَلِّمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ التَّيِّهَانِ حَلِيفُ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرِّجَالِ حِبَالاً وَإِنَّا قَاطِعُوهَا يَعْنِي الْعُهُودَ فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ ثُمَّ أَظْهَرَكَ اللَّهُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى قَوْمِكَ وَتَدَعَنَا ؟ قَالَ فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ « بَلِ الدَّمَ الدَّمَ وَالْهَدْمَ الْهَدْمَ أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ » وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « أَخْرِجُوا إِلَيَّ مِنْكُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً يَكُونُونَ عَلَى قَوْمِهِمْ » فَأَخْرَجُوا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً مِنْهُمْ تِسْعَةٌ مِنَ الْخَزْرَجِ وَثَلاَثَةٌ مِنَ الأَوْسِ ، وكان الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ أَوَّلَ مَنْ ضَرَبَ عَلَى يَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ تَتَابَعَ الْقَوْمُ فَلَمَّا بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَرَخَ الشَّيْطَانُ مِنْ رَأْسِ الْعَقَبَةِ بِأَبْعَدِ صَوْتٍ سَمِعْتُهُ قَطُّ يَا أَهْلَ الْجُبَاجِبِ - وَالْجُبَاجِبُ الْمَنَازِلُ - هَلْ لَكُمْ فِي مُذَمَّمٍ وَالصُّبَاةُ مَعَهُ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى حَرْبِكُمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « هَذَا أَزَبُّ الْعَقَبَةِ هَذَا ابْنُ أُزَيْبٍ اسْمَعْ أَيْ عَدُوَّ اللَّهِ أَمَا وَاللَّهِ لأَفْرُغَنَّ لَكَ » ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « ارْفَعُوا إِلَى رِحَالِكُمْ » فَقَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عُبَادَةَ بْنِ نَضْلَةَ الَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَئِنْ شِئْتَ لَنَمِيلَنَّ عَلَى أَهْلِ مِنًى غَداً بِأَسْيَافِنَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « لَمْ أُومَرْ بِذَلِكَ » قَالَ فَرَجَعْنَا فَنِمْنَا حَتَّى أَصْبَحْنَا فَلَمَّا أَصْبَحْنَا غَدَتْ عَلَيْنَا جِلَّةُ قُرَيْشٍ حَتَّى جَاءُونَا فِي مَنَازِلِنَا فَقَالُوا يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّكُمْ قَدْ جِئْتُمْ إِلَى صَاحِبِنَا هَذَا تَسْتَخْرِجُونَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا وَتُبَايِعُونَهُ عَلَى حَرْبِنَا وَاللَّهِ إِنَّهُ مَا مِنَ الْعَرَبِ أَحَدٌ أَبْغَضَ إِلَيْنَا أَنْ تَنْشَبَ الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ مِنْكُمْ.

قَالَ فَانْبَعَثَ مِنْ هُنَالِكَ مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِنَا يَحْلِفُونَ لَهُمْ بِاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ هَذَا شَيْءٌ وَمَا عَلِمْنَاهُ. وَقَدْ صَدَقُوا لَمْ يَعْلَمُوا مَا كَانَ مِنَّا وَبَعْضُنَا يَنْظُرُ إِلَى بَعْضٍ (١)

وفي رواية جابر بن عبد الله قال: فَرَحَلَ إِلَيْهِ مِنَّا سَبْعُونَ رَجُلاً حَتَّى قَدِمُوا عَلَيْهِ فِي الْمَوْسِمِ فَوَاعَدْنَاهُ شِعْبَ الْعَقَبَةِ فَاجْتَمَعْنَا عِنْدَهُ مِنْ رَجُلٍ وَرَجُلَيْنِ حَتَّى تَوَافَيْنَا فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلامَا نُبَايِعُكَ؟ قَالَ ﷺ « تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ وَالنَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ وَعَلَى الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَنْ تَقُولُوا فِي اللَّهِ لا تَخَافُونَ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لائِمٍ وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي فَتَمْنَعُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ وَلَكُمُ الْجَنَّةُ » فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَبَايَعْنَاهُ وَأَخَذَ بِيَدِهِ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ - وَهُوَ مِنْ أَصْغَرِهِمْ - فَقَالَ رُوَيْدًا يَا أَهْلَ المدينة فَإِنَّا لَمْ نَضْرِبْ أَكْبَادَ الإِبِلِ إِلاَّ وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَإِنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ وَأَنْ تَعَضَّكُمُ السُّيُوفُ فَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَى ذَلِكَ وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللَّهِ وَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَخَافُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ جَبِينَةً فَبَيِّنُوا ذَلِكَ فَهُوَ أَعْذَرُ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ، قَالُوا أَمِطْ عَنَّا يَا أَسْعَدُ فَوَاللَّهِ لا نَدَعُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ أَبَداً وَلا نَسْلُبُهَا أَبَداً. قَالَ فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَبَايَعْنَاهُ فَأَخَذَ عَلَيْنَا وَشَرَطَ عَلَيْنَا وَيُعْطِينَا عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ. (٢)

أما النقباء فمن الخزرج ((أسعد بن زرارة والبراء بن معرور وعبد الله بن عمرو بن حرام و سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو، ورافع بن مالك بن العجلان و عبد الله بن رواحة وسعد بن الربيع وعبادة بن الصامت))

وأما نقباء الأوس فهم ((أسيد بن حضير وأبو الهيثم بن التيهان و سعد بن خيثمة)) (٣)

---

(١)مسند أحمد ١٦٢١٣ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد - (ج ٦ / ص ٤٩)رواه أحمد والطبراني بنحوه ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع، وصححه الألباني في فقه السيرة، وقال شعيب الأرنووط : حديث قوي وهذا إسناد حسن

(٢)مسند أحمد ١٤٨٣٠ وقال الهيمثي في مجمع الزوائد ٦/٤٥ رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/١٣٢ حديث ٦٣

(٣)ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد - (ج ٦ / ص ٤٩) عن الطبراني ، وعند ابن هشام في السيرة رفاعة بن عبد المنذر بدلا من ابن التيهان

هكذا كانت أحداث البيعة وبنودها، ولعلنا نقف معها وقفات تأمل لما تحمل من أسمى معاني البذل والعطاء في سبيل الله عز وجل.

الوقفة الأولى ((مع رسول الله ﷺ)) فقد عرض رسول الله ﷺ دعوته بكلمات موجزة، واضحة وصريحة، بلا لبس أو غموض، وأخبرهم أنه لا يملك شيئا من حظ الدنيا يهبه إليهم، فلا يملك مالا يهبه لهم جراء نصرتهم له، ولا يعدهم بملك أو سلطان ينتظرهم، فمن أول الأمر ربط قلوبهم بالآخرة مباشرة ((وَلَكُمُ الجَنَّةُ)) ليعلموا علم اليقين أنها بيعة على الموت وشراء الآخرة بالدنيا، وأنها بيعة تجرد لله عز وجل، ليس للدنيا ومتعها فيها حظ أو نصيب، وأنها بيعة تجر خلفها ويلات كثيرة وحروب عديدة وسخط العرب والعجم واليهود والنصارى وقطع كل عهود الجاهلية، وأنها بيعة لا رجعة فيها مهما اشتدت المحن وعظمت البلايا وتآمر عليهم أهل الشرك جميعا، وأنها بيعة سارية على كل من آمن بالله ورسوله من أهل المدينة، وأنها بيعة على إيواء رسول الله ﷺ إذا هاجر إليهم ومن معه من المؤمنين، ففطن الصحابة قيمة البيعة ومضمونها، وقبلوها على كل ما فيها، يقينا منهم بأن الإيمان بالله والجنة لابد له من ضريبة تؤدى، فما أجَلها من ضريبة وقد أدوها بصحبة رسول الله ﷺ .

الوقفة الثانية ((مع العباس)) كان العباس بن عند المطلب عم رسول الله ﷺ لا يزال على دين قومه، إلا أنه بعد موت أبي طالب كان يسعى جاهدا في أن يشغل دور أبي طالب في الذود عن رسول الله ﷺ وصد مكر المشركين عنه، وهو وإن لم يبلغ ما بلغه أبو طالب في هذا الشأن، إلا أنه لطالما ساند رسول الله ﷺ ودافع عنه بكل ما يملك وقلما كان يُفارق رسول الله ﷺ مخافة أن يُمس بسوء، وفي ليلة العقبة صحب رسول الله ﷺ راغبا في أن يستوثق له من عزم أهل المدينة، وقد كان على دراية بأهلها ويعرف ساداتها وسفهائها، فوقف فيهم قائلا " يا مَعْشَرَ الخَزْرَجِ إنَّ مُحَمَّداً مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ وَقَدْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنَا مِمَّنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِنَا فِيهِ وَهُو فِي عِزٌ مِنْ قَوْمِهِ وَمَنَعَةٍ فِي بَلَدِهِ " والحق أن فارق التأييد كان شاسعا بين أبي طالب والعباس، فمنعة أبي طالب لرسول الله ﷺ لم يجرؤ أحد على انتهاكها وخفر ذمته فيها، أما العباس فجاهد قدر المستطاع في أن يحمي رسول الله ﷺ ولكن دون جدوى، فقد نال رسول الله ﷺ من قومه أشد صور الإيذاء البدني والنفسي على السواء .

وقد فطن الأنصار إلى هذا الأمر جيدا، فلم يبالوا بقول العباس، لأن الواقع يخالفه، فأعرضوا عنه وتوجهوا إلى رسول الله ﷺ مباشرة، فهو بغيتهم ومقصدهم، فقالوا له " قدْ سَمِعْنَا مَا قُلتَ فتكَلَّمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فخُذْ لِنَفسِكَ وَلِرَبِّكَ مَا أحْبَبْتَ " فهكذا تكون النُصرة والتأييد، نابعة من إيمان وعقيدة قد سكنت في القلب، لا حمية وعصبية قد أورثتها لهم التربية الجاهلية .

الوقفة الثالثة ((مع الأنصار)) والحق إن الحديث عن الأنصار يأخذ بمجامع القلب، وكأن المرء يتحدث عن أناس قد صاغهم العقل في الخيال؛ ليجسدوا أعلى درجات الصدق وأشرف مراتب الفداء والتضحية، فأحكم الحبكة حتى لم تجد فيها نقصا ولا عيبا، فإذا به يفيق؛ ليجد نفسه يتحدث عن واقع شهدته البرية في أصحاب رسول الله ﷺ.

إنهم درة في جبين البشرية، ولا أدل على صدق هذا القول من هذه البيعة، فقد قال عنها كعب بن مالك ((وَلَعَمْرِي إِنَّ أَشْرَفَ مَشَاهِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي النَّاسِ لَبَدْرٌ وَمَا أُحِبُّ أَنِّي كُنْتُ شَهِدْتُهَا مَكَانَ بَيْعَتِي لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حَيْثُ تَوَاثَقْنَا عَلَى الإِسْلامِ)) (١) وقال عنها ابْنُ عَبَّاسٍ ((إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ كَانُوا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لأَنَّهُمْ هَجَرُوا الْمُشْرِكِينَ وَكَانَ مِنَ الأَنْصَارِ مُهَاجِرُونَ لأَنَّ الْمَدِينَةَ كَانَتْ دَارَ شِرْكٍ فَجَاءُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ- لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ)) (٢)

لقد اشترى الأنصار رضا الله ورسوله ﷺ وباعوا أمامها كل شيء، فكانت هذه البيعة عهد عليهم أن ينصروا رسول الله ﷺ ويحموه مما يحمون منه أبناءهم ونساءهم، فكأنها بيعة على الموت، فببيعتهم هذه قد عادوا العرب جميعا، بل قد عادوا مشركي المدينة واليهود الذين تربطهم بهم العهود والتحالفات، وهذا أمر عظيم قد فطنه أسعد بن زرارة فقال " رُوَيْداً يَا أَهْلَ المدينة فَإِنَّا لَمْ نَضْرِبْ أَكْبَادَ الإِبِلِ إِلاَّ وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَإِنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ وَأَنْ تَعَضَّكُمُ السُّيُوفُ فَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَى ذَلِكَ وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللَّهِ وَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَخَافُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ جَبِينَةً فَبَيِّنُوا ذَلِكَ فَهُوَ أَعْذَرُ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ "

لقد أراد أسعد أن يستوثق لرسول الله ﷺ من أهله، فربما يدفع الحماس أناس إلى أفعال تخلف وراءها ويلات، فيندمون عليها، وهذه البيعة قد تجر عليهم حروبا ما كانت يوما في حسبانهم، فما كانت قريشا يوما طرفا في حروبهم أو غيرها

(١)سنن الترمذي٣٣٨٥ومسند أحمد ٢٧٩٣٧وصححه الألباني في جامع الترمذي٣١٠٢

(٢)سنن النسائي ٤١٨٣وصححه الألباني في سنن النسائي٤١٦٦

كثير من قبائل العرب، إلا أن الأنصار قد اختاروا فأحسنوا الخيار، فاختاروا رضا الله ورسوله ﷺ فدافعوا عنه بأرواحهم قبل سيوفهم، وسالت دماؤهم دفاعا عن رسول الله ﷺ ورسالته، وهم راضون.

فلم تكن بيعتهم بيعة حماس وقتي ربما يضعف بمرور الزمن، وإنما كانت بيعة صادقة رضوا فيها بما وعدهم به رسول الله ﷺ وهي الجنة، فقالوا بإيمان صادق " أَمِطْ عَنَّا يَا أَسْعَدُ فَوَاللَّهِ لا نَدَعُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ أَبَداً وَلا نَسْلُبُهَا أَبَداً " وقد جسد هذه الصورة الرائعة من الإخلاص والصدق الداخلي شهيد يوم أحد سعد بن الربيع ـ أحد النقباء في بيعة العقبة ـ فلما جاءه رسول رسول الله ﷺ يلتمس خبره قبل وفاته قال له سعد « فَاذْهَبْ إِلَيْهِ فَأَقْرِئْهُ مِنِّى السَّلامَ وَأَخْبِرْهُ أَنِّى قَدْ طُعِنْتُ اثْنَتَىْ عَشْرَةَ طَعْنَةً وَأَنِّى قَدْ أُنْفِذَتْ مَقَاتِلِي وَأَخْبِرْ قَوْمَكَ أَنَّهُ لا عُذْرَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ إِنْ قُتِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَوَاحِدٌ مِنْهُمْ حَيٌّ »(١)

فأي صدق وفداء هذا! هكذا يكون الالتزام بالعهد مع الله ورسوله، فما أشرفها من بيعة وما أعظمهم من رجال.

وكما أراد العباس وأسعد بن زرارة أن يستوثقوا لرسول الله ﷺ من الأنصار، استوثق رسول الله ﷺ لهم على نفسه بأن يسالم من سالمهم ويعادي من عاداهم فقال لهم " أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّى أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ » فما أجملها من كلمات تنضح بالحب الصادق.

ظلت هذه البيعة طيلة العهد المدني شاهدا على ولاء الأنصار، وصدق قولهم وتضحيتهم، كما كانت شاهدا على قرب مكانتهم في قلب رسول الله ﷺ، ونرى هذا جليا يوم حنين، لما عاد الناس بالأموال والغنائم، وعادوا هم برسول الله ﷺ فرضوا بذلك أيما رضا، فقال لهم النبيّ ﷺ « لَوْلا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَارِ»(٢) وقَالَ ﷺ « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَلأَبْنَاءِ الأَنْصَارِ وَأَبْنَاءِ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ » (٣)

الوقفة الرابعة ((اختبار وطاعة)) ما إن اقترب الحديث على الانتهاء حتى حدث أمر عجيب، وكأنه اختبار وقتي لما أبرم من اتفاق، فقد أدرك إبليس عظم ما تم من بيعة، فوقف مصرخا على أهل الشرك أن يجتمعوا؛ ليستأصلوا هذا الجمع الذي تحالف بليل على خروج الإسلام من حبسه، وأن يذهبوا بالجاهلية وأهلها إلى حيث لا عودة.

---

(١)موطأ الإمام مالك ١٠٠١ (٢)البخاري ٤٣٣٠ (٣) مسلم ٦٥٧٠

قال كعب بن مالك " فلَمَّا بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - صَرَخَ الشَّيْطَانُ مِنْ رَأسِ الْعَقَبَةِ بِأبْعَدِ صَوْتٍ سَمِعْتُهُ قطُّ يَا أهْلَ الْجُبَاجِبِ - وَالْجُبَاجِبُ الْمَنَازِلُ - هَلْ لَكُمْ فِي مُذَمَّمٍ وَالصُّبَاةُ مَعَهُ قَدْ أجْمَعُوا عَلَى حَرْبِكُمْ.

فقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « هَذَا أزَبُّ الْعَقَبَةِ هَذَا ابْنُ أزْيَبَ اسْمَعْ أيْ عَدُوَّ اللَّهِ أمَا وَاللَّهِ لأفْرُغَنَّ لَكَ » ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « ارْفَعُوا إلَى رِحَالِكُمْ » فقَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عُبَادَةَ بْنِ نَضْلَةَ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَئِنْ شِئْتَ لَنَمِيلَنَّ عَلَى أهْلِ مِنًى غَدًا بِأسْيَافِنَا فقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « لَمْ أومَرْ بِذَلِكَ »

شعر المبايعون أن أمرهم قد انكشف، فما كان منهم إلا أن أعلنوا رغبتهم في إظهار صدق وعدهم، فأرادوا أن يحملوا بأسيافهم في وجه أهل الشرك جميعا، إلا أن الأمر بالجهاد لم يكن قد فُرض بعد، فأمرهم رسول الله ﷺ بالعودة إلى رحالهم، فامتثلوا للأمر دون نقاش أو تراخ.

الوقفة الخامسة ((حُسن التخطيط ومراعاة الحس الأمني في البيعة)) إن البيعة في منظور كفار قريش بمثابة تآمر عليهم مع رسول الله ﷺ يتمثل في إيوائه ومن معه، لذا كان لزاما أن تتم في سرية تامة لا يعلم عنها إلا من له فيها دور، خشية بطش قريش بهم، ففطن الأنصار هذا الأمر جيدا، فتمت البيعة في سرية وحرص شديدين، حتى أن من كان معهم من مشركي المدينة لم يعرفوا عن البيعة شيئا، رغم أنهم يجالسونهم ويحادثونهم ليل نهار.

قال كعب بن مالك ((فنِمْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ مَعَ قوْمِنَا فِي رِحَالِنَا حَتَّى إذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ خَرَجْنَا مِنْ رِحَالِنَا لِمِيعَادِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَتَسَلَّلُ مُسْتَخْفِينَ تَسَلُّلَ الْقطَا حَتَّى اجْتَمَعْنَا فِي الشِّعْبِ عِنْدَ الْعَقَبَةِ وَنَحْنُ سَبْعُونَ رَجُلاً وَمَعَنَا امْرَأتَانِ))

فأي حرص وحسن تخطيط هذا! لقد اختاروا أيام الحج لا قبله والناس يسقون ويستعدون للحج، ولا بعده والناس يعدّون رحالهم للسفر، ثم اختاروا الليلة الأخيرة من ليالي الحج؛ لينفر بعدها الناس كل إلى بلاده، ثم اختاروا الثلث الأخير من الليل وقد خيّم الصمت على المكان كله، ثم تحركوا في خفة وخفية، سبعون رجلا وامرأتان يخرجون من رحالهم ويغيبون عنها فترة ثم يعودون وما شعر بهم أحد! فلما التقوا برسول الله ﷺ وجههم رسول الله ﷺ إلى ضرورة السرية التامة واختصار الحديث خشية الرصد، فقد روى أحمد عن الشعبي قال: انْطَلَقَ النَّبِيُّ ﷺ وَمَعَهُ الْعَبَّاسُ عَمُّهُ إلَى السَّبْعِينَ مِنَ الأنْصَارِ عِنْدَ الْعَقَبَةِ

تَحْتَ الشَّجَرَةِ فقالَ« لِيَتَكَلَّمْ مُتَكَلِّمُكُمْ وَلاَ يُطِيلُ الْخُطْبَةَ فَإِنَّ عَلَيْكُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَيْنًا وَإِنْ يَعْلَمُوا بِكُمْ يَفْضَحُوكُمْ » (١)

لقد كانت البيعة درسا عمليا للتخطيط المدروس، والتطبيق العملي لمنهج الإسلام في حرية التعبير وإبداء الرأي والاستوثاق من القائد العام لما فيه مصلحة الجماعة التي في أمرته.

قال كعب ((فَاعْتَرَضَ الْقَوْلَ وَالْبَرَاءُ يُكَلِّمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ التَّيِّهَانِ حَلِيفُ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرِّجَالِ حِبَالاً وَإِنَّا قَاطِعُوهَا يَعْنِي الْعُهُودَ فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ ثُمَّ أَظْهَرَكَ اللَّهُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى قَوْمِكَ وَتَدَعَنَا ؟)) فقد أعطوا كل ما عندهم، ووعدوا بما يملكون، وحق لهم أن يأخذوا لأنفسهم ما يريدون، فاعترض الحديث ابن التيهان لأن حديثه متعلق بما يدور من نقاش وبيعة، فأراد أن يستوثق لقومه قبل أن يبايعوا رسول الله ﷺ، كذلك لما أخذ منهم رسول الله ﷺ البيعة قال ﷺ لهم « أَخْرِجُوا إِلَيَّ مِنْكُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً يَكُونُونَ عَلَى قَوْمِهِمْ »

فالنقباء قادة على أقوامهم، يأخذوا بأيديهم إلى الالتزام ببنود البيعة، ثم ترك لهم حق اختيارهم؛ ليكون تجربة عملية للشورى واختيار من يكفل أمرهم، ثم يأتي تمثيل النقباء بما يتلاءم وواقع الأنصار، فالخزرج أكثر عددا، لذا كان نقباؤهم أكثر عددا، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، ثم يأتي ولاء الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ ـ وهو سيد الأنصار وكبيرهم ـ للقائد العام للجماعة المسلمة رسول الله ﷺ فمعيار القيادة لم يعد كما ألفوا بالوجاهة والسن، وإنما الكل لرسول الله ﷺ تبع فيما يأمر وينهى.

بل إن البراء لم يقتصر على هذا، وإنما عرض إمكانات قومه، وبأسهم، تثبيتا لرسول الله ﷺ وأنه ركن إلى حصن حصين، وأنهم كلهم تابع لأمر رسول الله ﷺ ((فَأَخَذَ بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ نَعَمْ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَنَمْنَعَنَّكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أُزُرَنَا فَبَايِعْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَنَحْنُ أَهْلُ الْحُرُوبِ وَأَهْلُ الْحَلْقَةِ وَرِثْنَاهَا كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ))

كذلك مُشاركة المرأة في البيعة، وكانت بيعة الرسول ﷺ للنساء بالقول فلم يصافح امرأة قط ، وقد قال للنساء لما جئن يبايعنه بعد فتح مكة « إِنِّي لاَ أُصَافِحُ النِّسَاءَ إِنَّمَا قَوْلِي لِمِائَةِ امْرَأَةٍ مِثْلُ قَوْلِي لاِمْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ »(٢)

---

(١) مسند أحمد١٧٥٤٣وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩٨٨٧ رواه أحمد هكذا مرسلا ورجاله رجال الصحيح

(٢) سنن النسائي٤١٩٨وموطا مالك ١٨١٢وسنن ابن ماجة ومسند احمد٢٧٧٦٥وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٦٣/٢ حديث ٥٢٩

وقالتْ عَائِشَةُ" وَاللَّهِ مَا مَسَّتْ يَدُهُ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ فِي الْمُبَايَعَةِ، وَمَا بَايَعَهُنَّ إِلاَّ بِقَوْلِهِ (١) فلما انتشر الحديث عن البيعة وعلم به المشركون جاءوا؛ ليستوثقوا الخبر من أهل يثرب، فظهرت نتيجة حُسن التخطيط والإتقان في التنفيذ، فتولى مشركي يثرب الدفاع عن المسلمين، فأقسموا أنه ما حدث، وأنهم ما فارقوا رحالهم طيلة موسم الحج، وأنهم لم يقابلوا رسول الله ﷺ ولم يظاهروه على قريش، فأراد المسلمون أن يوصلوا الفكرة في عقول المكيين، فأعرضوا عن المشاركة في الحوار بهذه الكيفية، وانتقلوا بالحديث إلى ما هو بعيد عن الموضوع، فاختلقوا موضوع هامشي يأخذ بالحوار بعيدا عن قضية قرش المصيرية، قال كعب ((فَانْبَعَثَ مِنْ هُنَالِكَ مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِنَا يَحْلِفُونَ لَهُمْ بِاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ هَذَا شَيْءٌ وَمَا عَلِمْنَاهُ. وَقَدْ صَدَقُوا لَمْ يَعْلَمُوا مَا كَانَ مِنَّا، فَبَعْضُنَا يَنْظُرُ إِلَى بَعْضٍ وَقَامَ الْقَوْمُ وَفِيهِمُ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيُّ وَعَلَيْهِ نَعْلاَنِ جَدِيدَانِ فَقُلْتُ كَلِمَةً كَأَنِّي أُرِيدُ أَنْ أُشْرِكَ الْقَوْمَ بِهَا فِيمَا قَالُوا مَا تَسْتَطِيعُ يَا أَبَا جَابِرٍ وَأَنْتَ سَيِّدٌ مِنْ سَادَتِنَا أَنْ تَتَّخِذَ نَعْلَيْنِ مِثْلَ نَعْلَيْ هَذَا الْفَتَى مِنْ قُرَيْشٍ فَسَمِعَهُمَا الْحَارِثُ فَخَلَعَهَا ثُمَّ رَمَى بِهِمَا إِلَيَّ فَقَالَ وَاللَّهِ لَتَنْتَعِلَنَّهُمَا. قَالَ يَقُولُ أَبُو جَابِرٍ أَحْفَظْتَ وَاللَّهِ الْفَتَى فَارْدُدْ عَلَيْهِ نَعْلَيْهِ. قَالَ فَقُلْتُ وَاللَّهِ لاَ أَرُدُّهُمَا. قَالَ وَاللَّهِ صَلُحَ وَاللَّهِ لَئِنْ صَدَقَ الْفَأْلُ لأَسْلُبَنَّهُ))

فلما اطمأن مشركي قريش لما قاله سادة المدينة عادوا إلى ديارهم، إلا أن الأمر لم يدم طويلا، فقد أخبر بعض الأعراب ممن علم بأمر البيعة أهل قريش باجتماع العقبة، فعادوا مسرعين في طلب القوم، فوجدوهم قد ارتحلوا، فلم يُدركوا غير سعد بن عبادة، فأعادوه إلى مكة مغلولة يديه إلى عنقه وهم يضربونه، فاستجار بجبير بن مطعم بن عدي، والحارث بن حرب بن أمية، وكان سعد بن عبادة يجير قوافلهما المارة بالمدينة، فأجاروه فعاد إلى المدينة .

---

(١) البخاري٢٧١٣

** أبرز مراجع هذا الفصل ((تفسير الطبري ـ البداية والنهاية ـ السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث ـ سيرة ابن هشام ـ البصيرة في الدعوة إلى الله ـ التدرج في دعوة النبي ﷺ ـ الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى ـ السيرة النبوية مواقف وعبر ـ بحوث مؤتمر السنة النبوية في الدراسات المعاصرة ـ موسوعة البحوث والمقالات العلمية))

الفصل الرابع

الهجرة إلى المدينة

لقد كانت بيعة العقبة بكل ما جسدته من معان سامية، وقيم نبيلة، وأخوة مستمدة من الدين لا من العرق والدم، وإيثار ورغبة في التضحية والفداء، وصدق في العهد، خطوة حقيقة نحو بناء الجماعة المسلمة التي تجمعها قيم وتعاليم واحدة، وأهداف وطموحات مشتركة يسعى الجميع إلى تحقيقها في صورتها العليا بما يتماشى ومصلحة الجماعة العامة، لا في صورتها الفردية ونزعتها القبلية، كما كانت البداية الحقيقة لتأليف أهل المدينة وجمع شملهم بعد فرقة، ووحدة صفهم بعد الحروب والعداء والثأر المتوارث، قال تعالى [وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ](١) فقد جعل الله وحدتهم بعد فرقة وتآلفهم بعد العداوة آية بحاجة إلى تدبر .

كذلك كانت هذه البيعة بمثابة فتح من الله لرسوله ﷺ وللمؤمنين أن غدا لهم وطن يدين بدينهم، يأمنون فيه على أنفسهم، يمارسون فيه عقيدتهم بكل حرية، يجمعهم هدف واحد هو تبليغ رسالة الله عز وجل، تحوطهم فيه أخطار عدة لا خلاص منها سوى بالالتفاف حول قائدهم رسول الله ﷺ لإيمانهم أن به نجاتهم، فما أن انتهت البيعة حتى أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة، فبدأ المسلمون يهاجرون فرادى وجماعات إلى ذلك المأوى الجديد .

المهاجرون الأوائل

رغم ما تحمله الأوطان من مكانة في القلوب وحنين وشوق إلى كل ما فيها، إلا أن الأوطان عندما تبغي على أهلها يصعب فيها العيش والبقاء، وكذا كانت مكة، ما من أحد من أهلها إلا وقد تعلق قلبه بها، وكيف لا، وكل قلوب العرب متعلقة بها! فما ظنك بمن مكة بلده وداره وموطن ذكرياته، إن فراق الأوطان أمر شاق عسير، وإن لم يكن لغاية عُظمى، فربما صارت غربة تقتل الفؤاد حسرة وألما، وفراق مكة لم يكن يوما خيار يسير، وإنما كان أمرا بالغ الصعوبة، فرغم حياة البداوة والترحال التي ألفها العرب بحثا عن أسباب الحياة، إلا أن هذا لم يكن خُلق أهل مكة

---

(١){آل عمران:١٠٣}

فكل عربي يأمل في أن تكون مكة داره لا أن يُفارقها إلى غيرها، إلا أن أمر الرسالة كان أكبر - عند أصحاب رسول الله ﷺ - من آلام فراق الوطن، فحلم حرية العبادة كان يُراوض العقول، فإن الفتن قد حولت حياة المسلمين إلى جهاد مرير لا يأمنون فيه على أنفسهم وهم يصلون لله ركعتين علانية أمام الناس، والآن وبعد هذه السنوات الطوال من الجهاد والصبر على البلاء، أصبح للمسلمين بلدة تأويهم، يتمتعون فيها بحرية أداء العبادات.

لقد كان هذا جلُّ ما يحلمون به، وطن يجمعهم ويكون حصنهم وملاذهم، وأمام هذا الهدف يتركون المال والمصالح، وربما الزوجة والأولاد، ويفرون بدينهم مهاجرين إلى الله ورسوله ﷺ.

كان رسول الله ﷺ قد هيأ أنفس أصحابه إلى أن الهجرة من مكة أمر حتمي افترضه واقع الدعوة وما آلت إليه في مكة، فقد رأى رسول الله ﷺ رؤيا أنه مهاجر إلى أرض بها نخل، فأخبر بها أصحابه، فأيقنوا أن المقام في غير مكة، فقال ﷺ « رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أُهَاجِرُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى أَرْضٍ بِهَا نَخْلٌ، فَذَهَبَ وَهَلِي إِلَى أَنَّهَا الْيَمَامَةُ أَوْ هَجَرٌ، فَإِذَا هِيَ الْمَدِينَةُ يَثْرِبُ، فَهَاجَرَ مَنْ هَاجَرَ قِبَلَ الْمَدِينَةِ وَرَجَعَ عَامَّةُ مَنْ كَانَ هَاجَرَ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ . (١)

ما أن تمت بيعة العقبة الكبرى حتى أمر رسول الله ﷺ الصحابة بالهجرة إلى المدينة، فخرجوا من مكة مهاجرين فرادى وجماعات صغيرة، مخافة بطش قريش التي لم تألوا جهدا في صد المسلمين عن الهجرة بكل وسيلة، تارة بمصادرة أموالهم وتركهم بلا درهم ولا دينار، وأخرى بحبس أزاوجهم وأولادهم عنه وتركهم؛ ليهاجروا بدونهم، وأخرى بالاحتيال والإغراء؛ لصدهم عن عزمهم وعودتهم إلى مكة، إلا أن الصحابة قد جسّدوا أسمى صور التضحية في تركهم كل شيء مقابل الهجرة، فضحوا بالمال والوطن والأهل والولد، وما أن تمت بيعة العقبة الكبرى حتى تدفق المهاجرون إلى المدينة، فلم يبق في مكة سوى رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب ونفر قليل ممن حالت قريش بينهم وبين الهجرة، وكان أبو سلمة بن عبد الأسد أول من هاجر إلى المدينة، وذاك أنه هاجر إلى الحبشة، ثم عاد فآذته قريش أيما إيذاء، فما أن علم بإسلام نفر من الأنصار قبل بيعة العقبة الكبرى حتى عمد إلى الهجرة إلى المدينة مع امرأته وابنه، إلا أن القوم قد حبسوهما عنه، فهاجر وحده، وظلت أم سلمة قرابة العام تبكي حالها فلم يجد القوم بدا من أن يخلوا سبيلها؛ لتلحق بزوجها.

---

(١) البخاري ٣٦٢٢ و٧٠٣٥ ومسلم ٦٠٧٢

فخرجت أم سلمة بالراحلة وابنها في حجرها وليس معها أحد، فكفاها حسن توكلها على الله عز وجل، فيسر لها الله عثمان بن طلحة ـ ولم يكن قد أسلم بعد ـ فلما علم بأمرها أخذ بخطام بعيرها وقادها حتى أدرك قباء ثم تركها ورجع إلى مكة.

أما صهيب الرومي فلما عزم على الهجرة تبعه كُفارُ قُرَيْش فقالوا له: أتَيْتَنَا صُعْلوكًا حَقِيرًا، فكَثُرَ مَالُك عِنْدَنَا، وبَلَغْتَ الذِي بَلَغْتَ، ثُمّ تُرِيدُ أنْ تَخْرُجَ بِمَالِك وَنَفْسِك، وَاللهِ لا يَكُونُ ذَلِك، فَقَالَ لَهُمْ صُهَيْبٌ أَرَأيْتُمْ إنْ جَعَلْت لكُمْ مَالِي أتُخلون سَبِيلِي ؟ قَالُوا: نَعَمْ . قَالَ فَإِنّي جَعَلْت لَكُمْ مَالِي. قَالَ فَبَلَغَ ذَلِك رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ " رَبِحَ صُهَيْبٌ رَبِحَ صُهَيْبٌ " (١)

أما أسلوب الاحتيال فقد نجح مع عياش بن أبي ربيعة، فبعدما هاجر مع عمر بن الخطاب تبعه أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما، فقدموا المدينة فذكروا له حزن أمه وقالوا له: إنها حلفت لا يظلها سقف بيت، ولا يمس رأسها دهن حتى تراك، ولولا ذلك لم نطلبك، فنذكرك الله في أمك، وكان بها رحيما، وكان يعلم من حبها إياه ورأفتها به، فصدّق قولهم ورق لها، ولما ذكروا له منها أبى أن يتبعهما، حتى عقد له الحارث بن هشام عقدا، فلما خرجا به أوثقاه حتى دخلا به مكة ثم قالا: يا أهل مكة هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا، ولم يزل عياش بمكة حتى خرج مع من خرج قبل فتح مكة (٢) فكان رسول الله ﷺ يدعو له بالخلاص، ففي صحيح البخاري عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرَّكْعَةِ الآخِرَةِ يَقُولُ « اللَّهُمَّ أَنْجِ عَيَّاشَ بْنَ أَبِى رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ أَنْجِ سَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ..» (٣)

هجرة عمر بن الخطاب

كلما تتابعت بنا أحداث السيرة وجدنا لعمر بن الخطاب ﷺ في كل موقف شأن يُذكر، وعمل يُحسب له، فهو الرجل الذي أعز الله به الإسلام وأهله، فعاش طيلة عمره ناصرا لله ورسوله ﷺ فاستحق رضا الله عز وجل وحب رسوله ﷺ، وما أن تمت البيعة وأمر رسول الله ﷺ الصحابة بالهجرة حتى خرج عمر مهاجرا

---

(١) رواه ابن هشام عن ابن اسحق في سيرته وصححه الألباني في فقه السيرة ص١٥٢

(٢)مجمع الزوائد للهيثمي ٧٦/٦حديث ٩٩١٨وعزاه إلى البزار وقال رجاله ثقات

(٣)البخاري ١٠٠٦

إلى المدينة، إلا أن الحديث عن هجرته ﷺ قد شابها شيء من الأخطاءالتي ماجت بها العديد من الكتب، وتناقلها العامة فيما بينهم على أنها وقائع صحيحة، ودفعهم ما علموا من شجاعة عمر - التي لا ينكرها مسلم - إلى تصديقها، حتى أن أناسا قد أعدوا مقارنات بين هجرة رسول الله ﷺ وبين هجرة عمر، وبالغ آخرون فاستخرجوا دروسا لعامة الأمة من هجرة عمر دون النظر في مدى صدق هذه الروايات من عدمه، والذي صح أن هجرة عمر بن الخطاب كانت هجرة سرية كغيره ممن هاجر من المسلمين، فعن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ قَالَ(لَمَّا اجْتَمَعْنَا لِلْهِجْرَةِ اتَّعَدْتُ أَنَا وَعَيَّاشُ بْنُ أَبِى رَبِيعَةَ وَهِشَامُ بْنُ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ وَقُلْنَا الْمِيعَادُ بَيْنَنَا التَّنَاضُبُ مِنْ أَضَاةِ بَنِى غِفَارٍ فَمَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ لَمْ يَأْتِهَا فَقَدْ حُبِسَ فَلْيَمْضِ صَاحِبَاهُ، فَأَصْبَحْتُ عِنْدَهُ أَنَا وَعَيَّاشُ بْنُ أَبِى رَبِيعَةَ وَحُبِسَ عَنَّا هِشَامٌ وَفُتِنَ فَافْتَتَنَ وَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ، فَكُنَّا نَقُولُ مَا اللَّهُ بِقَابِلٍ مِنْ هَؤُلاَءِ تَوْبَةً قَوْمٌ عَرَفُوا اللَّهَ وَآمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوا رَسُولَهُ ثُمَّ رَجَعُوا عَنْ ذَلِكَ لِبَلاَءٍ أَصَابَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا وَكَانُوا يَقُولُونَهُ لأَنْفُسِهِمْ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِمْ [قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ] إِلَى قَوْلِهِ (مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ)

قَالَ عُمَرُ: فَكَتَبْتُهَا بِيَدِي كِتَابًا ثُمَّ بَعَثْتُ بِهَا إِلَى هِشَامٍ، فَقَالَ هِشَامُ بْنُ الْعَاصِ فَلَمَّا قَدِمَتْ عَلَيَّ خَرَجْتُ بِهَا إِلَى ذِي طُوًى فَجَعَلْتُ أُصَعِّدُ بِهَا وَأُصَوِّبُ لأَفْهَمَهَا فَقُلْتُ اللَّهُمَّ فَهِّمْنِيهَا، فَعَرَفْتُ أَنَّمَا أُنْزِلَتْ فِينَا لِمَا كُنَّا نَقُولُ فِي أَنْفُسِنَا وَيُقَالُ فِينَا فَرَجَعْتُ فَجَلَسْتُ عَلَى بَعِيرِي فَلَحِقْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُتِلَ هِشَامٌ شَهِيدًا بِأَجْنَادِينَ فِي وِلاَيَةِ أَبِى بَكْرٍ ﷺ (١)

والحديث صحيح ودلالة القصة واضحة أنها هجرة سرية كغيره من المسلمين، فليس فيها أي إشارة إلى إعلان الهجرة، كذلك تواعدهم في التناضب وهي على عشرة أميال من مكة، وقوله " فَمَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ لَمْ يَأْتِهَا فَقَدْ حُبِسَ فَلْيَمْضِ صَاحِبَاهُ " إشارة واضحة إلى حرصهم على السرية وتجنب الصدام مع كفار مكة، وعند ابن سعد في الطبقات قريبا من سياق هذه الرواية وزاد فيها قول عمر " وكنا نخرج سراً " (٢)

---

(١)سنن البيهقي واللفظ له ١٨٢١٢والهيمثي في المجمع ٧٦/٦حديث٩٩١٨وعزاه إلى البزار وقال رجاله ثقات، وصححه ابن حجر في الإصابة ٨٩٧١، وعند الحاكم في المستدرك ٣٦٢٨ جزءا منه وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي، ورواه ابن اسحق في سيرته وصرح فيه بالتحديث (والتناضب موضع فوق سرف على مرحلة من مكة وهي أرض تمسك الماء فيتكون فيها الطين، وأضاة بني غفار هو بئر ماء بني غفار)

(٢) الطبقات الكبرى - (ج ٣ / ص ٢٧١)

أما الحديث التي اتخذه الناس ضربا من ألوان البطولة - التي لا ننكرها لعمر بشرط بصحتها - فقد قال عنه الشيخ الألباني رحمه الله " به ثلاث رواة مجهولين " فمن باب أولى إثبات الرواية الصحيحة في هجرة عمر ﷺ وترك ما دونها . (١)

الصدّيق يتعجل الهجرة

كادت مكة أن تفرغ من المسلمين، فلم يبق فيها سوى أبو بكر الصديق وعلي - رضي الله عنهما - بقيا بأمر رسول الله ﷺ لهما، ومن بقى ممن حُبس أو فُتن، وكان أبو بكر قد استأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فأبقاه رسول الله ﷺ معه عله أن يؤذن له فيصحبه، فعن عائشة قالت « وَتَجَهَّزَ أَبُو بَكْرٍ قِبَلَ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « عَلَى رِسْلِكَ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي»

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَهَلْ تَرْجُو ذَلِكَ بِأَبِي أَنْتَ ؟

قَالَ « نَعَمْ »فَحَبَسَ أَبُو بَكْرٍ نَفْسَهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيَصْحَبَهُ، وَعَلَفَ رَاحِلَتَيْنِ كَانَتَا عِنْدَهُ وَرَقَ السَّمُرِ وَهُوَ الْخَبَطُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ(٢)

---

(١) دفاع عن الحديث النبوي والسيرة " (ص ٤٢- ٤٣) وقال الألباني في رده على د/ البوطي((جزمه بأن عمر رضي الله عنه هاجر علانية اعتمادا منه على رواية علي المذكورة وجزمه بأن عليا رواها وليس صوابا لأن السند بها إليه لا يصح وصاحب (أسد الغابة) لم يجزم أولا بنسبتها إليه رضي الله عنه وهو ثانيا قد ساق إسناده بذلك إليه لتبرا ذمته ولينظر فيه من كان من أهل العلم وقد وجدت مداره على الزبير بن محمد بن خالد العثماني: حدثنا عبد الله بن القاسم الأملي (كذا الأصل ولعله الأيلي) عن أبيه بإسناده إلى علي وهؤلاء الثلاثة في عداد المجهولين فإن احدا من أهل الجرح والتعديل لم يذكرهم مطلقا))وقد أشار الدكتور أكرم العمري في كتابه السيرة النبوية الصحيحة ٢٠٦/١ . إلى ضعف القصة التي تشير إلى جهر عمر رضي الله عنه بهجرته. كما أن هذه القصة لم يذكرها ابن إسحاق وابن هشام وابن كثير والذهبي في السيرة، ولم يذكرها ابن حجر في الإصابة، في ذكرهم لهجرة عمر رضي الله عنه

(١) البخاري ٣٩٠٥

في دار الندوة

دار الندوة، تلك الدار التي بناها قُصي بن كلاب جد رسول الله ﷺ؛ ليجمع بها أمر قريش ويوحّد بها كلمتهم، وكان لها أكبر فضل في لمّ شمل قريش، وتوحيد كلمتهم، وعلوّ شأنهم بين القبائل، فما كانوا يقطعون أمرا من أمور التجارة أو الحرب أو التحالفات أو أي شيء يخص الكعبة أو قريش عامة إلا فيها، إلا أنها لم تعد كذلك بعد البعثة النبوية وجهر النبي ﷺ بدعوته بين أهل مكة، فقد غدت دارا للتآمر على رسول الله ﷺ ومن تبعه من المسلمين، يجتمعون فيها ليوحدوا قولهم في أمر رسول الله ﷺ بين القبائل، يجتمعون فيها؛ ليتآمروا على كل من تبعه، إما بالبطش والتعذيب، أو بالمساومة والإغراء، أو بالحصار والتضييق، فما تركوا فُرصة ينالوا فيها من رسول الله ﷺ إلا اغتنموها، ولما خرج المسلمون من مكة مهاجرين إلى المدينة أحس أهل الكفر بخطورة الأمر، وأنه بحاجة إلى قرار حاسم، فقد أصبحت مكة وقد لفظت خيرة أهلها، حتى إن دورا بأكملها قد صارت خرابا، فأنشد عتبة بن ربيعة قائلا :

وكُلُّ دار وإن طالت سلامتُها يوما ستُدركُها النكباءُ والحُوبُ

فقام أبو جهل في أهل مكة محرضا إياهم على رسول الله ﷺ، متهما إياه بأنه فرّق جماعتهم وشتت شملهم، وهكذا فعل القادة المتغطرسين، يتنصلون من المسئولية، ويلقون باللوم على غيرهم، فما كان ضر أبا جهل لو خلى بين رسول الله ﷺ وبين العرب، يدعوهم إلى رسالته، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، ويصير كغيره من بني جلدته مخير بين الأمرين.

إن أبا جهل رمز للقادة الذين لا يُبالون إلى أين يقودون أممهم، إلى النجاة أم إلى الهلاك!

للقادة الذين أعمت المصالح الشخصية أعينهم، وأصمت آذان قلوبهم فكيف يأتي الخير على أيديهم!

للقادة الذين يتلاعبون بمصائر شعوبهم، فيُسخّرون كل طاقاتهم وإمكاناتهم؛ لتحقيق أطماعهم وطموحاتهم الشخصية وإن تعارضت مع مصلحة الأمم التي يقودونها .

ما أن خرج المسلمون مهاجرين إلى المدينة حتى أيقن أبو جهل أن رسول الله ﷺ حتما سيلحق بهم، فأراد أن يحول بين رسول الله ﷺ وبين الهجرة، خشية أن ينال منعة بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ويُعِدُّ لحربهم، وكان رسول الله ﷺ لا يزال في مكة لم يؤمر بالهجرة بعد، وأبقى معه أبا بكر وعليا رضي الله عنهما، فما كان من قريش إلا أن اجتمع سادتها في دار الندوة

ليجمعوا رأيهم في وسيلة للحيلولة دون هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، فقام كل منهم يُبدي رأيه، ويعرض حصائد خبرته في فنون الدسائس والمؤامرات، فتنوعت أراءهم، إلا أن أهدافهم كانت واحدة، حتى جاءهم أبو جهل برأي متميز، فرأى أن يجمعوا فتي من كل قبيلة، ثم يجتمعوا على قتل رسول الله ﷺ فيتفرق دمه على كل القبائل، ولن يجد بنو عبد مناف طاقة لحرب القبائل جميعا فيقبلون فيه الدية .

هكذا كان مكرهم برسول الله ﷺ، فقد اتفقوا على خطورة دعوته على مصالحهم وأهدافهم، واجتمعوا على ضرورة الخلاص منه، وبتر دعوته، وتقويض رسالته، وزيّنت لهم أنفسهم سوء أعمالهم، إلا أنهم قطعا جهلوا على من يتآمرون، وعلى من يكيدون، إنهم يحاربون الله ورسوله ﷺ، فكيف يلازمهم الفلاح والتوفيق؟

قال تعالى (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)(١) فجاء الإذن لرسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة .

الأمر بالهجرة

عن عَائِشَةَ رضي الله عنها قالت ((فَبَيْنَمَا نَحْنُ يَوْمًا جُلُوسٌ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ قَالَ قَائِلٌ لأَبِي بَكْرٍ هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَقَنِّعًا فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِينَا فِيهَا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ فِدَاءٌ لَهُ أَبِي وَأُمِّي، وَاللَّهِ مَا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلاَّ أَمْرٌ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَأْذَنَ، فَأُذِنَ لَهُ فَدَخَلَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأَبِي بَكْرٍ« أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ »

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ « فَإِنِّي قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ »

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: الصَّحَابَةُ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « نَعَمْ » قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَخُذْ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِحْدَى رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْنِ.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ« بِالثَّمَنِ » (٢)

لم تكن هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة مجرد انتقال من بلدة إلى أخرى، وإنما كانت فرارا برسالته من بلدة قد آذته إلى بلدة آمنت به وصدّقته

---

(١) [الأنفال - ٣٠]

(٢) البخاري ٣٩٠٥

من أهل قد كذبوه إلى صحبة قد نصروه، من جماعات صغيرة تُطارد وتُعذب وتُفتن من أجل الرسالة إلى بذور دولة جديدة، تحمل الرسالة إلى الدنيا كلها.

إنها لم تكن بالأمر اليسير على قلب رسول الله ﷺ، ولكن الأهداف الكُبرى بحاجة إلى تضحية كُبرى، فبقدر البذل والعطاء تكون النتائج أسمى وأشرف، وهكذا كانت رحلة الهجرة، فما جدوى البقاء في مكة وقد كذبت دعوته وآذته ومن آمن معه، وما جدوى البقاء في مكة وقد غدت كالأرض الجدباء التي لا ينبت فيها نبت إلا مات من جدبها، وما جدوى البقاء في مكة وقد غدا السفهاء فيها سادة وحكام، وما جدوى البقاء في مكة وقد عانى المسلمون فيها مرارة الغربة وهم بين أهليهم وإخوانهم، وما جدوى البقاء في مكة وقد غدا البلد الحرام رمزا للوثنية، بعدما أُحيط البيت الحرام بسياج من الأصنام، وما جدوى البقاء في مكة وما لقوله فيها أمر ولا نهي، فكم من الأوطان التي لا تبالي بخير أبنائها وتهفو إلى غيرهم، ولو عملت خيرا لآوت أبناءها وشدّت على أيديهم فعلت بهم، وكم من الأوطان التي تأخذ على أيدي أبنائها بدلا من أن تأخذ بأيديهم، وتشدّ عليهم بدلا من أن تعينهم وتساعدهم، وتبطش بهم بدلا من أن تأويهم وتساندهم

إنها جاهلية الأفكار التي تحجب نور الإسلام، نعم، لقد كان لمكة في قلب رسول الله ﷺ مكانة عظيمة وشوق لا ينقطع وهو بداخلها، فما ظنك به وهو يفارقها، لذا لما أيقن أنه الفراق نظر إليها رسول الله ﷺ نظرة المودّع ثم قال

« عَلِمْتُ أَنَّكِ خَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ وَأَحَبُّ الأَرْضِ إِلَى اللَّهِ وَلَوْلاَ أَنَّ أَهْلَكِ أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا خَرَجْتُ » (١)

إنه الشوق إلى أحب البلاد إلى الله وإلى رسوله ﷺ، إلا أنه الشوق الذي يُكبت في القلب، لا يحرّك العقل ويتحكم في قراراته، إنه الشوق الذي يُضحَى به في سبيل الهدف الأسمى، فما من مُصلِح ولا صاحب دعوة إلا وقد أيقن أن العواطف والأشواق لا تنشر دعوة، ولا تقيم دولة، ولا تنصر رسالة ولا تصلح مجتمع .

لقد كانت الهجرة النبوية درسا للأمة جميعها أن أصحاب الرسالات وأنصار الدعوة لا توقفهم شرذمة تُعاديهم، ولا تصدهم المكائد والمؤامرات عن دعوتهم، ولا تقيدهم وثنية الأفكار التي يعيشون بينها، ولا تحدهم بلدة، ولا يقيدهم وطن، ولا يستسلموا لقوة الباطل وبطش أهله وغطرسة أنظمته، فكم من الدماء قد أريقت في سبيل نشر الدعوة، وكم من أرواح قد أزهقت في طريق الدعوة، وكم من أموال قد أنفق أهل الباطل؛ ليحجموا انتشار الدعوة

---

(١)سنن ابن ماجة ٣٢٢٧ ومسند أحمد ١٩٢٣٠ واللفظ له والحاكم في المستدرك ٤٢٧٠ وقال صحيح على شرط الشيخين وصححه الألباني في سنن ابن ماجة ١٣٥٣/٢ حديث٤٠٦٩ وفي صحيح وضعيف الجامع الصغير ٧٠٨٩

فلا المسلمون قد نفذت دماءهم وخوت عزائمهم، ولا أهل الباطل قد أثنوا عن عزمهم وكفوا كيدهم، إنه الصراع الأبدي بين الحق والباطل، بدأ منذ بدء الخليقة وهو باق حتى قيام الساعة، والناس على أثره فريقان، أهل حق ينصرونه ويصبرون عليه، وأهل باطل يفنون أعمارهم دفاعا عنه .

إلى غار ثور

أعدّ رسول الله ﷺ كل الأمور المتعلقة بهجرته، ولم يُطلِع عليها إلا من له دور فيها، ووزع المهام على أصحابه كل بما هو له أهل، فأما علي بن أبي طالب فأمره أن ينام في فراشه ليلة الهجرة، ثم يمكث في مكة؛ ليرد الأمانات التي كانت عند رسول الله ﷺ لأهلها ثم يتبع النبي ﷺ إلى المدينة، وأما الرفيق فكان أبو بكر الصديق، وأما الراحلة فكان أبو بكر قد علف ناقتين أعدهما لأمر الهجرة لما قال له رسول الله ﷺ ((عَلَى رِسْلِكَ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي))

وصدق حدس الصديق، فنال صحبة رسول الله ﷺ إلا أن رسول الله ﷺ أبى إلا أن يدفع ثمنها، كي لا يحرم نفسه أجر الإنفاق في سبيل الله، وأما دليل الرحلة فهو عبد الله بن أريقط على الرغم من كونه مُشركا، إلا أنهما أمناه فدفعا إليه الراحلتين، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال.

وأما عبد الله بن أبي بكر فكان يأتياهما بأخبار مكة وما يُقال عن رسول الله ﷺ وصحبه، وأما عامر بن فُهيرة فكان يرعى الغنم حتى إذا أقبل الليل ركن بجوار الغار، فحلب لرسول الله ﷺ وصحبه فطعما وشربا، وفي الصباح يرعى بالغنم في الطريق الذي سلكه عبد الله بن أبي بكر؛ ليخفي آثار أقدامه عن قريش، وأما مكان الاختباء فغار ثور على قمة جبل جنوب مكة باتجاه اليمن، وهذا لتضليل قريش، فاتجاه المدينة شمالاً.

بهذا التخطيط لم يدع رسول الله ﷺ سبيلا لإتمام الأسباب التي تكفل نجاح هجرته إلا سلكه، وما كان بعد ذلك فهو ما أراده الله ولا راد لقضائه .

أتم رسول الله ﷺ تخطيطه، ووكل لكل شخص دوره، ثم خرج من داره نحو دار أبي بكر الصديق، وعلي قد تغشى بردة كان رسول الله ﷺ ينام فيها، وبات ليلته على فراش رسول الله ﷺ، ولما أتمت قريش أمرها أحاطت ببيت رسول الله ﷺ وبدأوا يرصدونه ويتآمرون فيما بينهم على النيل منه ﷺ بضربة سيف واحدة، إلا أن رسول الله ﷺ قد خرج بصاحبه تجاه الغار

وما أن أشرقت شمس يوم جديد حتى استبطأ المشركون خروج رسول الله ﷺ فاقتحموا الدار ورفعوا سيوفهم، وقبل أن يغمدوها جذبوا البردة فإذا هو علي بن أبي طالب ﷺ، الذي عرّض حياته للموت من أجل نجاة رسول الله ﷺ وإتمام هجرته، ولم يكن علي قد تجاوز العشرين من عمره، وها هو يهب حياته رخيصة في سبيل الله، فإن العظماء لا تحسب أعمارهم بالسنوات التي عاشوها، وإنما تُعَدُّ بالأعمال التي أنجزوها، فليست العبرة بطول الأعمار، وإنما بعرض الأحداث، فكم من مُعمّر قد سئمت الدنيا منه ولا تجد له عملا يُحسب له إنجازا، وكم من شباب صغار قد تركوا بصمة في تاريخ البشرية كلها، على الرغم من حداثة أعمارهم في الحياة، إن الرسالة التي تُربي في نفس الإنسان غاية يسعى إليها، هي الرسالة التي أفلح ونجا من اهتدى بها .

من صور التضحية

وعلى الجانب الآخر من صور التضحية والفداء أبو بكر الصديق ﷺ الذي ترك كل شيء من أجل صحبة رسول الله ﷺ فهانت عليه الدنيا بما فيها، وتمنى أن لو يفدي رسول الله ﷺ بنفسه قبل ماله وولده.

قال الفاروق عمر ﷺ وهو يصف تفاصيل يوم الهجرة :

"والله لليلة من أبي بكر خير من آل عمر، وليوم من أبي بكر خير من آل عمر، لقد خرج رسول الله ﷺ لينطلق إلى الغار ومعه أبو بكر، فجعل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه حتى فطن له رسول الله ﷺ فقال: يا أبا بكر مالك تمشي ساعة بين يدي وساعة خلفي؟

فقال: يا رسول الله ﷺ أذكر الطلب فأمشي خلفك ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك.

فقال: يا أبا بكر لو كان شيء أحببت أن يكون بك دوني؟

قال: نعم والذي بعثك بالحق ما كانت لتكون من ملمة إلا أن تكون بي دونك. فلما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر: مكانك يا رسول الله ﷺ حتى أستبر لك الغار فدخل واستبراه حتى إذا كان في أعلاه ذكر أنه لم يستبريء الحجرة، فقال: مكانك يا رسول الله حتى استبرئ الحجرة، فدخل واستَبْرَأ، ثم قال: أنزل يا رسول الله ﷺ فنزل، فقال عمر والذي نفسي بيده لتلك الليلة خير من آل عمر " (١)

---

(١)مستدرك الحاكم ٢٦٨/٤وقال هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين لولا إرسال فيه، والبيهقي في الدلائل ٣٣٨/٢حديث ٧٣٠

كم من مُهاجر قد توجه نحو المدينة من غير أن تتعقبه سيوف المشركين، وكم من مهاجر أمن فتنة المشركين وأبقى على نفسه وماله، أما الصديق فقد قرت عينيه بصحبة رسول الله ﷺ ولم يبال بما ستكلفه، نفسه أو ماله أو ولده! ولندع بناته يصفن حالته يوم الهجرة، قالت عائشة رضي الله عنها واصفة حال أبيها لما أخبره رسول الله ﷺ بأمر صحبته ((فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدا يبكي من الفرحة حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ)) أما ذات النطاقين فقالت ((لَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَخَرَجَ مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ احْتَمَلَ أَبُو بَكْرٍ مَالَهُ كُلَّهُ مَعَهُ خَمْسَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ أَوْ سِتَّةَ آلَافِ دِرْهَمٍ - قَالَتْ - وَانْطَلَقَ بِهَا مَعَهُ فَدَخَلَ عَلَيْنَا جَدِّي أَبُو قُحَافَةَ وَقَدْ ذَهَبَ بَصَرُهُ فَقَالَ وَاللَّهِ إِنِّي لَأُرَاهُ قَدْ فَجَعَكُمْ بِمَالِهِ مَعَ نَفْسِهِ. قَالَتْ قُلْتُ كَلَّا يَا أَبَتِ إِنَّهُ قَدْ تَرَكَ لَنَا خَيْرًا كَثِيرًا. قَالَتْ - فَأَخَذْتُ أَحْجَارًا فَتَرَكْتُهَا فَوَضَعْتُهَا فِي كُوَّةٍ فِي الْبَيْتِ كَانَ أَبِي يَضَعُ فِيهَا مَالَهُ ثُمَّ وَضَعْتُ عَلَيْهَا ثَوْبًا ثُمَّ أَخَذْتُ بِيَدِهِ فَقُلْتُ يَا أَبَتِ ضَعْ يَدَكَ عَلَى هَذَا الْمَالِ - قَالَتْ - فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ فَقَالَ لَا بَأْسَ إِنْ كَانَ قَدْ تَرَكَ لَكُمْ هَذَا فَقَدْ أَحْسَنَ وَفِي هَذَا لَكُمْ بَلَاغٌ. قَالَتْ وَلَا وَاللَّهِ مَا تَرَكَ لَنَا شَيْئًا وَلَكِنِّي قَدْ أَرَدْتُ أَنْ أُسْكِنَ الشَّيْخَ بِذَلِكَ. (١)

أي مثالية في البذل والتضحية هذه التي تحلى بها الصديق ﷺ، لقد صدق الصديق مع الله عز وجل، فهان عنده كل شيء، النفس قبل المال والولد، إن على كل مسلم أن يقف وقفة تأمل لهذه التضحية، لأسبابها، لنتائجها، ويبني لنفسه أمل من جديد وعهد جديد على أن يجعل الرسالة شغله الشاغل وهدفه الأسمى وسعيه الدءوب، إن كان يؤمن في قرارة نفسه أنها تستحق هذا العطاء وهذه التضحية .

في غار ثور

قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها " فَجَهَّزْنَاهُمَا أَحَثَّ الْجِهَازِ، وَصَنَعْنَا لَهُمَا سُفْرَةً فِي جِرَابٍ، فَقَطَعَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ قِطْعَةً مِنْ نِطَاقِهَا فَرَبَطَتْ بِهِ عَلَى فَمِ الْجِرَابِ، فَبِذَلِكَ سُمِّيَتْ ذَاتَ النِّطَاقِ ثُمَّ لَحِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ بِغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ فَكَمَنَا فِيهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ، يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ وَهْوَ غُلَامٌ شَابٌّ ثَقِفٌ لَقِنٌ، فَيُدْلِجُ مِنْ عِنْدِهِمَا بِسَحَرٍ فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ

---

(١) مسند أحمد٢٧٧١٦وقال الهيمثي في مجمع الزوائد (ج ٦ / ص ٧٤)رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع، ومستدرك الحاكم ٢٦٧ ٤وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم

فلا يَسْمَعُ أمْرًا يُكْتَادَانِ بِهِ إلاَّ وَعَاهُ، حَتَّى يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلاَمُ، وَيَرْعَى عَلَيْهِمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ مَوْلَى أبِى بَكْرٍ مِنْحَةً مِنْ غَنَمٍ، فَيُرِيحُهَا عَلَيْهِمَا حِينَ يَذْهَبُ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ، فَيَبِيتَانِ فِي رِسْلٍ وَهْوَ لَبَنُ مِنْحَتِهِمَا وَرَضِيفِهِمَا، حَتَّى يَنْعِقَ بِهَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ بِغَلَسٍ، يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلاَثِ، وَاسْتَأْجَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلاً مِنْ بَنِي الدِّيلِ، وَهْوَ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيٍّ هَادِيًا خِرِّيتًا- وَالْخِرِّيتُ الْمَاهِرُ بِالْهِدَايَةِ- قَدْ غَمَسَ حِلْفًا فِي آلِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ، وَهْوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ فَأَمِنَاهُ، فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا، وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلاَثِ لَيَالٍ بِرَاحِلَتَيْهِمَا صُبْحَ ثَلاَثٍ، وَانْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ وَالدَّلِيلُ فَأَخَذَ بِهِمْ طَرِيقَ السَّوَاحِلِ (١)

وجد سادة الشرك وأنصار الباطل ودعاة الفساد أنهم في مأذق حرج، فرسول الله ﷺ بين ظهرانيهم منذ ثلاثة عشر عاما، وقد عجزوا عن الاتفاق على الخلاص منه، وها هم قد اتفقوا جميعا على قتله لكنهم لم يجدوه!

إنه المكر الإلهي الذي يثبت العجز الأبدي للبشر على مخالفة أمر الله وسننه التي سيّر الناس عليها!

وعلى الفور أعلنت قريش هدية مقدارها مائة من الإبل لمن يأتي برسول الله ﷺ أو خبر عنه، وهكذا يُجنّد أهل الشرك والضلال المال لخدمة أهدافهم الدنيئة، فما عجزوا عن تحقيقه بأيديهم وعقولهم، جندوا له أموالهم وأفرغوا من أجله خزائنهم، وفي كل زمان الرمز الأبدي لعبّاد الدرهم والدينار، أناس يبيعون كل القيم والفضائل، يبيعون حتى حريتهم وكرامتهم من أجل حفنة أموال، فتسابق الفرسان؛ لنيل الجائزة، فجابوا كل الدروب المؤدية إلى المدينة، وما تركوا واديا إلا سلكوه، ولا جبلا إلا اعتلوه، ولا كهفا إلا دخلوه، حتى أيسوا من إدراك رسول الله ﷺ في كل الدروب المؤدية إلى المدينة، فقرروا تغيير جهة بحثهم، واعتلاء كل جبال مكة شمالا وجنوبا، شرقا وغربا، فقطعا رسول الله ﷺ في إحداها، وصدق ظنهم لكن بطل مكرهم، فجاء اعتلاؤهم للجبل الذي فيه غار ثور كصورة أخرى للمكر الإلهي الذي يجعلهم يقفون على بعد خطوات من رسول الله ﷺ وصاحبه ولا ينالون منه، لقد اعتلوا قمة الجبل، لكنهم عجزوا على أن يخطون عدة خطوات يتفقدوا بها الغار من الداخل، فربما عوّض شعورا بداخلهم أن اعتلاءهم قمة الجبل لم يكن هباءً منثورا.

قال تعالى [وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ] (٢)

---

(١)البخاري ٣٩٠٥ (٢) {الأنفال:٣٠}

تُرى كيف كان حال رسول الله ﷺ وصاحبه في الغار وهم ينظرون إلى أقدام القوم ليس بينها وبينهم إلا أمتار قلائل! إنه حقا لخطب جلل، إن ما يفصلهم عن الموت بضعة أمتار، فلما رأى الصديق أقدام القوم ليس بينها وبينهم سوى خطوات قلائل، حدثت نفسه بأنها النهاية، ليست نهاية حياته، فقد باعها لله منذ آمن، وإنما نهاية الدعوة والرسالة، فأما أبو بكر فهو فرد إن بقي أو مات، وأما رسول الله ﷺ فهو أمة ورسالة لم تكتمل بعد، فموته موت لها وفناء للدعوة، هكذا كان ظن الصديق، إنه الهمُّ الأبدي، همُّ الرسالة وحملها، إنه الهمُّ الغائب عن قلوبنا وعقولنا، أن تكون كل خطواتنا وأهدافنا مقترنة بقضية حياتنا، مرتبطة بتحقيق أهداف رسالتنا.

إن رسول الله ﷺ قد أخذ بكل الأسباب لإتمام هجرته، لكن هذه الأسباب غير معنية بصدق الإيمان، فالمؤمن الصادق في توكله على الله يفرغ في طلب الأسباب، لكنه لا يعتقد في نفعها أو ضرها، فلا يعلق عليها أمل نجاحه، ولا يرجع إليها سبب إخفاقه، وإنما الرضا المطلق بقضاء الله بأي حال كان.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ((إن الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا قدح في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع))(١)

لقد رسم القرآن صورة مثالية في وصف حال الرسول ﷺ والصديق في الغار، صورة عبر عنها القرآن بكلمات قلائل، إلا أنها انطوت على معان سامية، قال تعالى (إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)(٢)

إن الله معنا، فمعية الله لا تفارق عباده، لكن قليل منهم من يدركها، فهي إما معية عامة وهي التي تُحيط بكل الخلق، معية العلم والمراقبة والإحاطة [وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ](٣)

وإما خاصة، وهي التي تقتضي الإثابة والنصر والتأييد للصالحين من عباده [وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ] (٤) [إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ](٥) ومتى أيقن العبد بمعية الله له أبصر نور الإيمان، وسلك مسلك الصالحين، وخطى خُطى المرسلين، ومتى أدرك العبد معية الله له صرف سمعه وبصره عن الحرام، وعاش بقلبه وجوارحه ينعم بنور الإيمان

---

(١)منهاج السنة النبوية - (ج ٨ / ص ٥٩) (٢)[التوبة - ٤٠]

(٣)[الحديد:٤] (٤)[الأنفال:٦٦]

(٥)[النحل:١٢٨]

وهذه المعية هي التي أحاطت برسول الله ﷺ وصاحبه، وأيدتهم وأظهرتهم، فمن كان في معية الله ليس حق له أن يحزن، أو أن يألم، أو أن يخاف.

هكذا كان يقين رسول الله ﷺ في تأييد الله له، فما كان الله ليخرجه من بيته ويخذله، وكذا كان يقين موسى عليه السلام حينما أدركه فرعون بجنوده، قال تعالى(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)(١) ولنا هنا وقفة تأمل في قول موسى عليه السلام " إِنَّ مَعِيَ رَبِّي " وقول النبي ﷺ " إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا "

فموسى عليه السلام كان معه هارون أخيه ووزيره، ومعه أمة بكاملها هم بنو إسرائيل، ومع ذلك قال" مَعِيَ رَبِّي " بالإفراد، ورسول الله ﷺ قال" مَعَنَا " بالجمع ولم يكن معه في الغار سوى الصديق، إشارة صريحة إلى عظيم فضل الصديق رضي الله عنه، وأنه يعدل أمة وحده، لأنه ما كان يشغله نجاته ولا أمنه الشخصي ولا ماله ولا ولده، وما كان يشغله سوى نجاة رسول الله ﷺ وأمنه، لأن فيه إتمام دعوته وإنجاز أمر ربه، فما أبو بكر إلا فرد في أمة، أما رسول الله ﷺ فهو أمة في فرد، صورة مثالية من الإيثار والصدق ترسمها كلمات رسول الله ﷺ له ((يا أبا بكر لو كان شيء أحببت أن يكون بك دوني ؟ قال: نعم والذي بعثك بالحق ما كانت لتكون من ملمة إلا أن تكون بي دونك))(٢)

وترسمها كلمات الصديق لما أدركهم سُراقة وهم في طريق الهجرة، قال الصديق رضي الله عنه ((حَتَّى إِذَا دَنَا مِنَّا فَكَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ قَدْرُ رُمْحٍ أَوْ رُمْحَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الطَّلَبُ قَدْ لَحِقَنَا وَبَكَيْتُ.

قَالَ ﷺ « لِمَ تَبْكِي » قُلْتُ أَمَا وَاللَّهِ مَا عَلَى نَفْسِي أَبْكِي وَلَكِنْ أَبْكِي عَلَيْكَ))(٣)

صدق ومثالية أقرّ بها القرآن، فأثبت الجمع في المعية؛ لأن أبا بكر رجل بأمة، أما بنو إسرائيل فأين يقينهم من يقين موسى عليه السلام؟! إنهم ما كان يشغلهم أمر رسالة، ولا حياة نبي، ولا همّ دعوة، ولا مصير أمة.

لقد خرجوا من البحر بمعجزة تبهر عقل الجاهل السفيه لا الحليم الرشيد، فماذا كان جوابهم عليها؟ [وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ] (٤)

---

(١) [الشعراء - ٦١-٦٢]

(٢)مستدرك الحاكم ٤٢٦٨ وقال هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين لولا إرسال فيه ولم يخرجاه والبيهقي في الدلائل حديث، ٧٣

(٣)مسند أحمد ٣

(٤)}الأعراف:١٣٨{

ومعنا صورة أخرى تصف حال الرسول ﷺ والصديق ﷺ في تلك اللحظات الحرجة، ترسمها كلمات رسول الله ﷺ لأبي بكر وهم في الغار، فعن أنس ﷺ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ حَدَّثَهُ قَالَ: نَظَرْتُ إِلَى أَقْدَامِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رُءُوسِنَا وَنَحْنُ فِي الْغَارِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ أَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ فَقَالَ « يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا » (١)

يا الله " اللَّهُ ثَالِثُهُمَا " أي يقين هذا الذي كان ينعم به الأنبياء والمرسلون، صورة تعجز العقول عن إدراكها، والقلوب عن استيعاب مضمونها ودلالاتها، صورة تُجسّد أسمى درجات اليقين بنصر الله وصدق وعده، وتُجسّد أعلى درجات الإيمان بمعية الله عز وجل، فمن كان الله معه فمن ذا الذي يخذله! وهكذا تكون تربية القلوب على الإيمان الخالص، واليقين بما عند الله ووعده الصادق .

عادت جنود الباطل من حيث أتت، وقد دبّ اليأس في قلوبهم، ثلاثة أيام يهيمون في الأودية والطرقات، صعدوا التلال والجبال، تفقدوا الكهوف وحملوا السيوف وأرسلوا العيون ورصدوا الجوائز، وأخفق كل هذا في النيل من رسول الله ﷺ، وما أن انتهت الأيام الثلاثة حتى عزم رسول الله ﷺ على الرحيل، فلم يعد للبقاء معنى وقد حقق المراد وحُجبت عنهم العيون، ودب اليأس في القلوب وضعف الرصد.

وهنا يجدر بنا الإشارة إلى أن تأييد الله لرسوله ﷺ في الغار لا يشترط فيه كيفية نعلمها، فما تواتر من أنباء حول معجزات حدثت أثناء وجود رسول الله ﷺ في الغار، كالعنكبوت، والحمائم، والشجرة وغيرها، كلها أخبار لم يثبت فيها شيء صحيح، والظاهر أنها كالإرهاصات التي اختلقها الناس وربطوها بميلاد رسول الله ﷺ، في محاولة منهم لتجسيد كل معجزة بما تدركه عقولهم.

إن الله عز وجل أيّد رسوله ﷺ بما أظهره على من عانده، أما الكيفية فلم يثبت فيها شيء، ولعله تأييد إحالة، كقول الله تعالى " وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ " (٢) فربما اتخذوا كل التدابير واستنفذوا كل الوسائل والأساليب، إلا أن إرادة الله فوق مكرهم، فحال بينهم وما يريدون، فقد جاء اللفظ القرآني؛ ليدل على طلاقة قدرة الله في إحالتهم عن عزمهم دون الإشارة إلى الكيفية، فقال تعالى (إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (٣)

---

(١) مسلم ٦٣١٩ (٢)[الأنفال - ٢٤] (٣)[التوبة - ٤٠]

((وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا)) وفي موضع آخر قال تعالى ((وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ))(١) فما القول بالعنكبوت والحمائم إلا إيهام من العقل؛ لتجسيد المعجزة في صورة مادية يقبلها.

ردّ الله كيد المشركين، وعادوا من حيث أتوا، يجرون أذيال الخيبة، ورسول الله ﷺ وصاحبه قد مَنّ الله عليهما بنصر من عنده، كما مَنّ عليهم بأن سخّر لهم دليل مُشرك، ربما ما سيأخذه منهم مقابل عمله هذا لا يساوي شيئا بجوار هدية قريش لمن يأتي برسول الله ﷺ، إلا أن الله قد أتم المنة على رسوله ﷺ، فحال بينه وبين ذلك.

أما أهل الشرك، فإن كان اليأس قد دب في قلوبهم، إلا أن أئمة الكفر لم يهدأ لهم بال، وقد نجا رسول الله ﷺ من بين أيديهم، فأخذوا يجوبون الطرقات، يتقصون الأخبار، ويساومون من بقي من المسلمين عله أن يدلهم عن مكان رسول الله ﷺ، فهذا أبو جهل قد ازداد جهلا إلى جهله، فاندفع نحو بيت الصديق جاهدا في أن ينال اي خبر عن موطن اختبائه ورسول الله ﷺ، فسأل أسماء أين أبوك يا بنت أبي بكر؟

فقالت لا أدري والله أين أبي، فما كان من أبي جهل إلا أن لطمها على خدها فطرح منها القرط .

نعم، ربما تتهاوى الأخلاق والفضائل عندما تتعارض مع المصالح الشخصية، إلا أن الإيمان الراسخ لا يتهاوى وإن كان المقابل هو الحياة، فأما أبو جهل فقد تخلى عن كل مكارم الأخلاق والأعراف الجاهلية ونال من بنت الصديق رضي الله عنها، وأما أسماء فقد أيقنت أن مسئولية الرسالة وحفظ سر رسول الله ﷺ أمانة يهون من أجلها كل شيء، درس لنساء الامة لكن يبدو أنه قد قلّ من عاد يتدبر الدروس.

((إلى المدينة))

انقضت الأيام الثلاثة، وجاء عبد الله بن أريقط بالراحلتين في الموعد والمكان المحدد، وبدأت رحلة الهجرة إلى المدينة، يرعاها الله من فوق سبع سموات.

بدأ الموكب المبارك في السير، وأردف الصديق مولاه عامر بن فُهيرة خلفه؛ ليقوم على أمرهما في الطريق، أما قريش وإن كان اليأس قد دب في قلوبها، إلا أن فرسان الصحراء الذين يأملون في نيل الجائزة كثيرون، ومائة من الإبل ثروة ضخمة في بيئة مقفرة تستحق أن تُتحمل من أجلها المخاطر، وتهون فيها

---

(١) [المدثر – ٣١]

الصعاب، وسرعان ما جاب خبر هجرة الرسول ﷺ وجائزة قريش صحراء العرب من شرقها إلى غربها، فكثر الطالبون، فكان على الموكب المُبارك أن يفتدي طريق القوافل والبوادي العامرة، ويسلك طريقا آخر أكثر أمنا وإن كان أشد وعورة، فساعدتهم مهارة الدليل على إنجاز هذا الأمر، فسلك بهم طريق الساحل بعيدا عن طريق القوافل، إلا أنه كان يتقابل مع طريق القوافل في بعض المناطق، فكانوا يجدّون فيها السير؛ ليبتعدوا عن أي رصد من عيون قريش أو المطاردين.

وفي بعض الطريق، وبينما رسول الله ﷺ يتلو كلام ربه، والصديق يلتفت يمنة ويسرة، مخافة أن يُدرك الركب فأدرك فارسا مقبلا عليهما، ففطن أبو بكر أن الركب قد رُصِد.

قال أبو بكر واصفا هذه اللحظات الحرجة ((فلمْ يُدرِكْنَا أحَدٌ مِنهُمْ إلاّ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكِ بْن جُعْشُمٍ عَلَى فرَسٍ لهُ فقلتُ يَا رَسُولَ اللّهِ هَذَا الطّلَبُ قدْ لحِقنَا. فقال ﷺ « لا تحْزَنْ إنّ اللّهَ مَعَنَا » حَتّى إذا دَنَا مِنّا فكَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ قدْرُ رُمْحٍ أوْ رُمْحَيْنِ أوْ ثلاثةٍ قالَ قُلتُ يَا رَسُولَ اللّهِ هَذا الطّلَبُ قدْ لحِقنَا وَبَكَيْتُ، قالَ ﷺ « لِمَ تَبْكِي » قلتُ أمَا وَاللّهِ مَا عَلى نفسِي أبْكِي وَلَكِنْ أبْكِي عَلَيْكَ، قالَ فدَعَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللّهِ ﷺ فقالَ « اللّهُمّ اكْفِنَاهُ بِمَا شِئْتَ »)) (١)

ولندع سراقة يكمل تفاصيل هذا اللقاء، قال سراقة: جَاءَنَا رُسُلُ كُفّار قُرَيْشٍ يَجْعَلُونَ فِي رَسُولِ اللّهِ ﷺ وَأبِي بَكْرٍ دِيَةَ كُلّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا، مَنْ قتَلهُ أوْ أسَرَهُ، فبَيْنَمَا أنَا جَالِسٌ فِي مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ قوْمِي بَنِي مُدْلِجٍ أقبَلَ رَجُلٌ مِنْهُمْ حَتّى قامَ عَلَيْنَا وَنَحْنُ جُلوسٌ، فقالَ يَا سُرَاقةُ، إنّي قدْ رَأيْتُ آنِفا أسْوِدَةً بِالسّاحِلِ- أرَاهَا مُحَمّدًا وَأصْحَابَهُ. قالَ سُرَاقةُ فعَرَفتُ أنّهُمْ هُمْ، فقُلتُ لهُ إنّهُمْ لَيْسُوا بِهِمْ، وَلَكِنّكَ رَأيْتَ فُلانًا وَفُلانًا انْطَلقُوا بِأعْيُنِنَا.ثمّ لبِثتُ فِي المَجْلِسِ سَاعَةً، ثمّ قُمْتُ فدَخَلتُ فأمَرْتُ جَارِيَتِي أنْ تَخْرُجَ بِفرَسِي وَهْيَ مِنْ وَرَاءِ أكَمَةٍ فتَحْبِسَهَا عَلَيَّ، وَأخَذتُ رُمْحِي، فخَرَجْتُ بِهِ مِنْ ظَهْرِ البَيْتِ، فحَطَطتُ بِزُجّهِ الأرْضَ، وَخَفَضْتُ عَالِيَهُ حَتّى أتَيْتُ فرَسِي فرَكِبْتُهَا ، فرَفَعْتُهَا تُقرّبُ بِي حَتّى دَنَوْتُ مِنْهُمْ

فعَثرَتْ بِي فرَسِي، فخَرَرْتُ عَنْهَا فقمْتُ، فأهْوَيْتُ يَدِي إلى كِنَانَتِي فاسْتَخْرَجْتُ مِنْهَا الأزْلامَ، فاسْتَقسَمْتُ بِهَا أضُرُّهُمْ أمْ لا فخَرَجَ الذِي أكْرَهُ، فرَكِبْتُ فرَسِي، وَعَصَيْتُ الأزْلامَ، تُقرّبُ بي حَتّى إذا سَمِعْتُ قِرَاءَةَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ وَهُوَ لا يَلْتَفِتُ، وَأبُو بَكْرٍ يُكْثِرُ الالتِفاتَ سَاخَتْ يَدَا فرَسِي فِي الأرْضِ حَتّى بَلَغَتَا الرُّكْبَتَيْنِ ، فخَرَرْتُ عَنْهَا ثمّ زَجَرْتُهَا فنَهَضَتْ، فلمْ تَكَدْ تُخْرِجُ يَدَيْهَا، فلمّا اسْتَوَتْ

---

(١) مسند أحمد ٣ وقال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم

((وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا)) وفي موضع آخر قال تعالى ((وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ))(١) فما القول بالعنكبوت والحمائم إلا إيهام من العقل؛ لتجسيد المعجزة في صورة مادية يقبلها.

ردّ الله كيد المشركين، وعادوا من حيث أتوا، يجرون أذيال الخيبة، ورسول الله ﷺ وصاحبه قد مَنّ الله عليهما بنصر من عنده، كما مَنّ عليهم بأن سخّر لهم دليل مُشرك، ربما ما سيأخذه منهم مقابل عمله هذا لا يساوي شيئا بجوار هدية قريش لمن يأتي برسول الله ﷺ، إلا أن الله قد أتم المنة على رسوله ﷺ، فحال بينه وبين ذلك.

أما أهل الشرك، فإن كان اليأس قد دب في قلوبهم، إلا أن أئمة الكفر لم يهدأ لهم بال، وقد نجا رسول الله ﷺ من بين أيديهم، فأخذوا يجوبون الطرقات، يتقصون الأخبار، ويساومون من بقي من المسلمين عله أن يدلهم عن مكان رسول الله ﷺ، فهذا أبو جهل قد ازداد جهلا إلى جهله، فاندفع نحو بيت الصديق جاهدا في أن ينال أي خبر عن موطن اختبائه ورسول الله ﷺ، فسأل أسماء أين أبوك يا بنت أبي بكر؟

فقالت لا أدري والله أين أبي، فما كان من أبي جهل إلا أن لطمها على خدها فطرح منها القرط .

نعم، ربما تتهاوى الأخلاق والفضائل عندما تتعارض مع المصالح الشخصية، إلا أن الإيمان الراسخ لا يتهاوى وإن كان المقابل هو الحياة، فأما أبو جهل فقد تخلى عن كل مكارم الأخلاق والأعراف الجاهلية ونال من بنت الصديق رضي الله عنها، وأما أسماء فقد أيقنت أن مسئولية الرسالة وحفظ سر رسول الله ﷺ أمانة يهون من أجلها كل شيء، درس لنساء الامة لكن يبدو أنه قد قلّ من عاد يتدبر الدروس.

((إلى المدينة))

انقضت الأيام الثلاثة، وجاء عبد الله بن أريقط بالراحلتين في الموعد والمكان المحدد، وبدأت رحلة الهجرة إلى المدينة، يرعاها الله من فوق سبع سموات. بدأ الموكب المبارك في السير، وأردف الصديق مولاه عامر بن فُهيرة خلفه؛ ليقوم على أمرهما في الطريق، أما قريش وإن كان اليأس قد دب في قلوبها، إلا أن فرسان الصحراء الذين يأملون في نيل الجائزة كثيرون، ومائة من الإبل ثروة ضخمة في بيئة مقفرة تستحق أن تُتحمل من أجلها المخاطر، وتهون فيها

---

(١) [المدثر – ٣١]

قَالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ، سِوَارَيْ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ فِي يَدِ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ أَعْرَابِيٌّ مِنْ بَنِي مُدْلِجٍ، قَالَ الشَّافِعِيُّ: وَإِنَّمَا أَلْبَسَهُمَا سُرَاقَةَ لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِسُرَاقَةَ وَنَظَرَ إِلَى ذِرَاعَيْهِ « كَأَنِّي بِكَ قَدْ لَبِسْتَ سِوَارَيْ كِسْرَى » (١)

في طريق الهجرة

لقد عاش أبو بكر الصديق ﷺ طيلة حياته يضرب من صور التضحية أخلص العمل، ومن الحب الصادق أروع الصور، فاستحق رضا الله ورضا رسول الله ﷺ عنه، ومن هذه الصور في رحلة الهجرة ما يرويه ﷺ فيقول:

" ارْتَحَلْنَا مِنْ مَكَّةَ، فَأَحْيَيْنَا أَوْ سَرَيْنَا لَيْلَتَنَا وَيَوْمَنَا حَتَّى أَظْهَرْنَا وَقَامَ قَائِمُ الظَّهِيرَةِ، فَرَمَيْتُ بِبَصَرِي هَلْ أَرَى مِنْ ظِلٍّ فَآوِيَ إِلَيْهِ، فَإِذَا صَخْرَةٌ أَتَيْتُهَا فَنَظَرْتُ بَقِيَّةَ ظِلٍّ لَهَا فَسَوَّيْتُهُ، ثُمَّ فَرَشْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِيهِ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ اضْطَجِعْ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَاضْطَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ انْطَلَقْتُ أَنْظُرُ مَا حَوْلِي، هَلْ أَرَى مِنَ الطَّلَبِ أَحَدًا؟

فَإِذَا أَنَا بِرَاعِي غَنَمٍ يَسُوقُ غَنَمَهُ إِلَى الصَّخْرَةِ يُرِيدُ مِنْهَا الَّذِي أَرَدْنَا، فَسَأَلْتُهُ فَقُلْتُ لَهُ لِمَنْ أَنْتَ يَا غُلَامُ؟ قَالَ لِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ سَمَّاهُ فَعَرَفْتُهُ. فَقُلْتُ هَلْ فِي غَنَمِكَ مِنْ لَبَنٍ؟ قَالَ نَعَمْ . قُلْتُ فَهَلْ أَنْتَ حَالِبٌ لَبَنًا قَالَ نَعَمْ.

فَأَمَرْتُهُ فَاعْتَقَلَ شَاةً مِنْ غَنَمِهِ، ثُمَّ أَمَرْتُهُ أَنْ يَنْفُضَ ضَرْعَهَا مِنَ الْغُبَارِ، ثُمَّ أَمَرْتُهُ أَنْ يَنْفُضَ كَفَّيْهِ، فَقَالَ هَكَذَا ضَرَبَ إِحْدَى كَفَّيْهِ بِالأُخْرَى فَحَلَبَ لِي كُثْبَةً مِنْ لَبَنٍ، وَقَدْ جَعَلْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِدَاوَةً عَلَى فَمِهَا خِرْقَةٌ، فَصَبَبْتُ عَلَى اللَّبَنِ حَتَّى بَرَدَ أَسْفَلُهُ، فَانْطَلَقْتُ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَوَافَقْتُهُ قَدِ اسْتَيْقَظَ ، فَقُلْتُ اشْرَبْ يَا رَسُولَ اللَّهِ

فَشَرِبَ حَتَّى رَضِيتُ ثُمَّ قُلْتُ قَدْ آنَ الرَّحِيلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ « بَلَى » (٢)

إن القلم ليقف حائرا في وصف كلمات أبي بكر (فَشَرِبَ حَتَّى رَضِيتُ)، لقد بلغ الإيمان في قلب الصديق مبلغا لم يدركه عبد بعد الأنبياء والمرسلين، بل إن هذا الإيمان قد اقترن بأسمى معاني الصدق وأبلغ درجات الأدب، فعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: لَمَّا هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْكَبُ وَأَبُو بَكْرٍ رَدِيفُهُ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يُعْرَفُ فِي الطَّرِيقِ لاخْتِلافِهِ إِلَى الشَّامِ وَكَانَ يَمُرُّ بِالْقَوْمِ فَيَقُولُونَ مَنْ هَذَا بَيْنَ يَدَيْكَ يَا أَبَا بَكْرٍ فَيَقُولُ " هَادٍ يَهْدِينِي "(٣)

---

(١) سنن البيهقي ١٣٤١٤ و١٣٤١٧ وفي الدلائل ٧/ ١٠٥ ، حديث ٢٥٩١

(٢) البخاري ٣٦٥٢

(٣) مسند أحمد ١٢٥٦٠٥ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد - (ج ٦ / ص ٧٤) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح

فإنما قصد الصديق ﷺ هداية الإسلام والخير والنجاة، وفهم الناس هداية الطريق في دروب الصحراء.

لقد نال الصديق مكانة في قلب رسول الله ﷺ لم يشاركه فيها أحد، لذا قال عنه رسول الله ﷺ (لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ، أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أَخِي وَصَاحِبِي) (١)

وفي طريق الهجرة نزل قول الله تعالى [وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ] (٢) وكأنه تسرية وتسلية للرسول ﷺ، وأن خروجه لحكمة إلهية أكبر من تجبّر أهل مكة وبطشهم، فإنهم لن يعجزوا الله شيئا، والتاريخ يعجّ بأمثالهم، قد أخذهم الله بعذاب بئيس، وجعل العاقبة لرسله وللمؤمنين .

وفي طريق الهجرة مَرَّ موكب رسول الله ﷺ بخيمتي أم معبد الخزاعية، وكانت تطعم مَن يمر بها، فسألوها لحما وتمرا ليشتروا منها، فلم يصيبوا عندها شيئا من ذلك، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة بجوار خيمتها، فقال: ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ قالت شاة خلفها الجهد عن الغنم، قال: هل بها من لبن؟ قالت هي أجهد من ذلك، قال أتأذنين لي أن أحلبها؟ قالت: بابي أنت وأمي إن رأيت بها حلبا فاحلبها، فدعا بها رسول الله ﷺ فمسح بيده ضرعها وسمّى الله تعالى ودعا لها في شاتها، فحلبت، فدعا بإناء فحلب فيه ثم سقاها حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا، وشرب آخرهم، ثم حلب فيه الثانية حتى ملأ الإناء ثم غادره عندها... فلما أقبل زوجها رأى اللبن، فقال لها: من أين لك هذا يا أم معبد والشاء عازب (بعيدة المرعى) ولا حلوب في البيت ؟

قالت: لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك من حاله كذا وكذا، قال صفية لي يا أم معبد قالت: رأيت رجلا ظاهر الوضاءة، أبلج الوجه (مُشرق الوجه)، حسن الخُلق، لم تَعبْه ثُجلة (ضخامة البطن)، ولم تزريه صعلة (صغر الرأس) وسيم قسيم (حسن الهيئة وضيء)، في عينيه دَعَجُ (سواد العين) وفي أشفاره وَطف (في شعر أجفانه طول) وفي صوته صَهَل (غير حاد) وفي عُنُقه سَطع (طول) وفي لحيته كثاثة(كثافة)، أزجّ (دقيق الحاجبين)، أقرَن (حاجباه فيهما طول)، إن صَمَت فعليه الوقار، وإن تكلم سماه وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاه من بعيد

---

(١)البخاري ٣٦٥٦

(٢){محمد:١٣}

وأحسنه وأجمله من قريب، حلو المنطق فصلا لا نَزْر ولا هَذر (وسط ليس بالقليل ولا بالكثير) كأن مَنْطِقه خرزات نظم يتحدرن، رَبْعَة لا تشنأه من طول، ولا تقتحمه (لا تحتقره) عين من قِصَر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظرا، وأحسنهم قدْراً، له رفقاء يحُفون به، إن قال سمعوا لقوله، وإن أمر تبادروا إلى أمره، محفود (مخدوم) محشود (محفوف من أصحابه) لا عابس (ليس بعابس الوجه) ولا مُفنَّد (غير ضعيف الرأي) .

قال أبو معبد: هذا والله صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر، ولقد هممت أن أصحبه، ولأفعل إن وجدت إلى ذلك سبيلا (١)

وفي طريق الهجرة مَرَّ الموكب المبارك بعبد يرعى غنما فاستسقياه من اللبن، فقال ما عندي شاة تحلب غير أن هاهنا عناقا حملت أول الشتاء، وقد أخدجت (ألقت وليدها دون اكتمال خلقه) وما بقي لها لبن، فقال أدع بها، فدعا بها فاعتقلها النبي ﷺ ومسح ضرعها ودعا حتى أنزلت، وجاءه أبو بكر ﷺ بمجن فحلب وسقي أبا بكر، ثم حلب فسقى الراعي ثم حلب فشرب، فقال الراعي: بالله من أنت فوالله ما رأيت مثلك قط ؟! قال أو تراك تكتم علي حتى أخبرك؟ قال: نعم، قال فإني محمد رسول الله، قال أنت الذي تزعم قريش أنه صابئ!

قال إنهم ليقولون ذلك، قال فأشهد إنك نبي وأشهد أن ما جئت به حق، وأنه لا يفعل ما فعلت إلا نبي، وأنا متبعك ، قال إنك لا تستطيع ذلك يومك، فإذا بلغك أني قد ظهرت فأتنا (٢)

---

(١)مستدرك الحاكم ٤٢٧٤وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ويستدل على صحته وصدق رواته بدلائل فمنها نزول المصطفى ﷺ بالخيمتين متواترا في أخبار صحيحة ذوات عدد ومنها أن الذين ساقوا الحديث على وجهه أهل الخيمتين من الأعاريب الذين لا يتهمون بوضع الحديث والزيادة والنقصان وقد أخذوه لفظا بعد لفظ عن أبي معبد وأم معبد ومنها أن له أسانيد كالأخذ باليد أخذ الولد عن أبيه والأب عن جده لا إرسال ولا وهن في الرواة ومنها أن الحر بن الصباح النخعي أخذه عن أبي معبد كما أخذه ولده عنه فأما الإسناد الذي رويناه بسياقه الحديث عن الكعبيين فإنه إسناد صحيح عال للعرب الأعاربة وقد علونا في حديث الحر بن الصباح، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد - (ج ٦ / ص ٧٠)حديث١٠٠٩٩وقال: رواه الطبراني وفي إسناده جماعة لم أعرفهم.

(٢)مستدرك الحاكم ٤٢٧٣وقال هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي

وفي طريق الهجرة لقي رسول الله ﷺ الزُّبَيْرَ فِي رَكْبٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا تُجَّارًا قَافِلِينَ مِنَ الشَّامِ، فَكَسَا الزُّبَيْرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ ثِيَابَ بَيَاضٍ (١)

مضى الركب ترعاه عناية الله عز وجل حتى اقترب من المدينة، فلم يجد رسول الله ﷺ حاجة في تتبع الطرق الوعرة، فلم يعد لعيون قريش خطر حقيقي، وقد اقترب الركب من المدينة، فقد روى أحمد في مسنده عن فَائِدٍ مَوْلَى عَبَادِلَ قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ فَأَرْسَلَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى ابْنِ سَعْدٍ حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْعَرْجِ أَتَانَا ابْنٌ لِسَعْدٍ وَسَعْدٌ هُوَ الَّذِي دَلَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى طَرِيقِ رَكُوبَةٍ، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ أَخْبِرْنِي مَا حَدَّثَكَ أَبُوكَ. قَالَ ابْنُ سَعْدٍ حَدَّثَنِي أَبِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَاهُمْ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَكَانَ لِأَبِي بَكْرٍ عِنْدَنَا بِنْتٌ مُسْتَرْضَعَةٌ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَرَادَ الِاخْتِصَارَ فِي الطَّرِيقِ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ هَذَا الْغَائِرُ مِنْ رَكُوبَةٍ وَبِهِ لِصَّانِ مِنْ أَسْلَمَ يُقَالُ لَهُمَا الْمُهَانَانِ فَإِنْ شِئْتَ أَخَذْنَا عَلَيْهِمَا.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « خُذْ بِنَا عَلَيْهِمَا » قَالَ سَعْدٌ فَخَرَجْنَا حَتَّى أَشْرَفْنَا إِذَا أَحَدُهُمَا يَقُولُ لِصَاحِبِهِ هَذَا الْيَمَانِيُّ فَدَعَاهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَعَرَضَ عَلَيْهِمَا الْإِسْلَامَ فَأَسْلَمَا ثُمَّ سَأَلَهُمَا عَنْ أَسْمَائِهِمَا فَقَالَا نَحْنُ الْمُهَانَانِ.

فَقَالَ « بَلْ أَنْتُمَا الْمُكْرَمَانِ » وَأَمَرَهُمَا أَنْ يَقْدَمَا عَلَيْهِ الْمَدِينَةَ (٢)

خاتمة توجت هذه الرحلة الشاقة، وأبرزت مدى حرص رسول الله ﷺ على الدعوة، وأنه لم يعطله الكيفية التي خرج بها من مكة مطاردا عن أداء مهمته كداعية إلى الله عز وجل، كما أنها تُظهر مدى حرصه ﷺ على الشكل العام للجماعة المسلمة ومظهر أصحابه، فإنه لم يقبل أن يُعاب مسلم بعيب له يد فيه، فأبى أن يُسمَّى أحد من أصحابه باسم يصرف الناس عنه، أو يعيبون به عليه، أو يُشعره بالنقص والخجل، فلما علم باسميهما((المهانان))قال ﷺ ((بل أنتما المكرمان)) وهكذا كان نهجه ﷺ دائما، يشغله مشاعر أصحابه، وسمتهم بين الناس .

---

(١) البخاري ٣٦٠٩

(٢)مسند أحمد ١٧١٤٦وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩٩١٢(ج ٦ / ص ٧٣) رواه عبد الله بن أحمد وابن سعد اسمه عبد الله ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات وقال ابن كثير في السيرة انفرد به أحمد

الوصول إلى المدينة واستقبال رسول الله ﷺ

عن عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ قال (وَسَمِعَ المُسْلِمُونَ بِالمَدِينَةِ مَخْرَجَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ، فَكَانُوا يَغْدُونَ كُلَّ غَدَاةٍ إِلَى الحَرَّةِ فَيَنْتَظِرُونَهُ، حَتَّى يَرُدَّهُمْ حَرُّ الظَّهِيرَةِ، فَانْقَلَبُوا يَوْمًا بَعْدَ مَا أَطَالُوا انْتِظَارَهُمْ، فَلَمَّا أَوَوْا إِلَى بُيُوتِهِمْ، أَوْفَى رَجُلٌ مِنْ يَهُودَ عَلَى أُطُمٍ مِنْ آطَامِهِمْ لِأَمْرٍ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَبَصُرَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ مُبَيَّضِينَ يَزُولُ بِهِمُ السَّرَابُ، فَلَمْ يَمْلِكِ اليَهُودِيُّ أَنْ قَالَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَا مَعَاشِرَ العَرَبِ هَذَا جَدُّكُمُ الَّذِي تَنْتَظِرُونَ، فَثَارَ المُسْلِمُونَ إِلَى السِّلاَحِ، فَتَلَقَّوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِظَهْرِ الحَرَّةِ، فَعَدَلَ بِهِمْ ذَاتَ اليَمِينِ حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، وَذَلِكَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الأَوَّلِ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّاسِ، وَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَامِتًا، فَطَفِقَ مَنْ جَاءَ مِنَ الأَنْصَارِ مِمَّنْ لَمْ يَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُحَيِّي أَبَا بَكْرٍ، حَتَّى أَصَابَتِ الشَّمْسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى ظَلَّلَ عَلَيْهِ بِرِدَائِهِ، فَعَرَفَ النَّاسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺعِنْدَ ذَلِكَ، فَلَبِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً وَأُسِّسَ المَسْجِدُ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى، وَصَلَّى فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.(١)

وقفـــــات مع الهجـــــرة النبويـــــــة

الوقفة الأولى ((القيمة التاريخية للهجرة النبوية)) في تاريخ كل أمة أحداث عظام كان لها أجل تأثير في تغيير دفة حياتها ومصيرها، أحداث تُعدّ نقاط فاصلة في تاريخها، لا يختلف على بيان فضلها وعظيم أثرها اثنان، أحداث تكون نواة لانطلاقة جديدة نحو البناء والتقدم بعد القهر والجمود، نحو السيادة والتمكين بعد الذل والاستضعاف، أحداث تظل عالقة في أذهان أبناء هذه الأمة، يرون فيها جذورهم وأصولهم، يرون فيها عزّهم ومجدهم، يرون فيها انطلاقة دعوتهم وبناء دولتهم، يرون فيها معية الله ونصره وتأييده لمن نصر دعوته، وفي تاريخ أمتنا وسيرة رسولنا ﷺ وسيرة ديننا أحداث كثيرة كان لها أكبر الأثر في مسيرة الدعوة، وحياة الرسول ﷺ ومشوار دعوته، إلا أن هذه الأحداث تتفاوت ومقدار تأثيرها، منها ما اختص به الرسول ﷺ دون غيره ولم يجعل الله فيها أسوة ولا اقتداء، فهي أحداث تُظهر مكانته عند ربه كالإسراء والمعراج، فلما كانت معنية بإبراز مكانة الرسول ﷺ وعظيم فضله

---

(١) البخاري ٣٩٠٦

خالية من التأسي والاقتداء جاءت خارجة عن نطاق البشر، ومنها ما يتعلق بكونه نبي مرسل لأمته في أفعاله الأسوة والاقتداء وهي أحداث كثيرة، بلغ فيها رسول الله ﷺ منتهى الأخذ بالأسباب مع صدق التوكل على الله؛ لتكون في أفعاله الأسوة والاقتداء لأمته من بعده، وهذه الأحداث كثيرة، كهجرة الطائف، ودعوته لأهل مكة، ثم غزواته وفتوحاته، إلا أن بين هذه الأحداث العظام تبرز الهجرة النبوية إلى المدينة، كحدث فيصلي في تاريخ الرسالة ومشوار الدعوة، كحدث كان انطلاقة حقيقية نحو بناء أمة وتغيير واقع، كحدث غيّر دفة الحياة وشكلها، بل وأسلوب الدعوة ووسائل الدفاع عنها، كحدث جمع في طياته منهج متكامل لبناء الفرد والأمة ونشر الرسالة وحمل الدعوة، فالهجرة النبوية لم تكن مجرد انتقال بالدعوة والرسول ﷺ من بلدة إلى أخرى، وإنما كانت انتقال بالرسالة كلها من مرحلة في مشوارها وضعت فيها بذورها إلى مرحلة تفرض فيها نفسها على واقع الحياة؛ لتجني ثمار التربية طيلة العهد المكي، من مرحلة تقتصر على عرض الدعوة، ومهادنة أهل الشرك إلى مرحلة تُحمى فيها الدعوة بالجهاد، ويستنصر أنصارها في كل مكان، فالهجرة نقطة تحول في سياسة رسول الله ﷺ الدعوية وبناء سياسة جديدة تتلاءم والواقع الجديد والتكاليف الجديدة، والهجرة نقطة تحول في تفاعل الصحابة مع تعاليم الدين والانتقال بعواطفهم ومشاعرهم إلى العزة والتمكين بعد الذل والاستضعاف، والهجرة نقطة تحول في بناء الشخصية المُسلمة والارتقاء بفكر المسلمين لإدراك العالم المُحيط بهم والخروج من طور البداوة وسذاجة أفكارها، إلى مرحلة تُعَدُّ النواة الحقيقة لمجد الحضارة الإسلامية في قلوب أنصارها قبل أن يشهد بها واقع الحياة على الأرض، والهجرة نقطة تحول في فكر المشركين ووسائل قمعهم للرسالة وللرسول ﷺ وللمؤمنين، فما أخفقوا فيه وهم في مكة حاولوا مرارا أن يحققوه وهم في المدينة بشتى الطرق وأعتى الأساليب، والهجرة نقطة تحول في نظرة العرب الوثنيين إلى رسول الله ﷺ ورسالته، فأخذوا يرقبونه ودعوته التي تنتقل من نصر إلى نصر، فأيقنوا أن النجاة في الإيمان به وتصديقه، والهجرة نقطة تحول حتى في التكاليف والتشريع، فإن معظم التكاليف والأوامر والنواهي نزلت بالمدينة، والهجرة نقطة تحول في نظرة العالم الخارجي للدعوة وللرسول، فإن ثلاثة عشر عاما في مكة تعاني فيها الدعوة التضييق والحصار، لم تكن كافية لأن تُسمِع كسرى وقيصر بدعوة الرسول، وما هي إلا سنوات قلائل بعد الهجرة وطرقت أبواب ملوك الدنيا رسل رسول الله ﷺ يدعونهم إلى الله ورسوله، والهجرة نقطة تحول في تشكيل ملامح المجتمع المسلم وتماسك بنائه، فلم يعد الأمر فرد أو أسرة

مسلمة، وإنما جيل جديد يخرج إلى نور الحياة على التوحيد الخالص والتعاليم السماوية الحنيفة، والهجرة نقطة تحول في تعامل المسلمين مع غيرهم بمختلف عقائدهم وأفكارهم، فلم يعد الأمر قاصرا على العرب الوثنيين، وإنما دخل الإسلام طورا جديدا من الصراع مع أعدائه، مثلته اليهودية بقبائلها المنتشرة في الجزيرة، والنصرانية في أطراف الجزيرة الشمالية، بل ومن داخل البناء الإسلامي نفسه ظهر عدو جديد يتحرك في الظلام؛ ليبطش بالدعوة والرسالة هم المنافقون، ناهيك عن مشركي مكة والمدينة، فواجه رسول الله ﷺ والمسلمون كل هؤلاء الأعداء مجتمعين في وقت واحد .

لقد كانت الهجرة حدث فيصلي في تاريخ الرسالة بكل المقاييس، حدث يُعَدُّ نقطة البداية لبناء دولة الإسلام، ثم قدَّر الله أن يجعلها حدثا عالقا بأذهان الأمة، يتجدد الاتصال به كل عام؛ ليتذكر أبناء الأمة الخطوة الأولى نحو بناء دولة الإسلام، تلك الخطوة التي جاءت في واقع لا يؤذن للمسلمين بنصر أو تمكين، ومع ذلك لم يدم الحال طويلا حتى بنى الإسلام مجده وصنع تاريخ أبنائه بأيديهم، وقد فطن الصحابة لقيمة هذا الحدث وأثره في تغيير شكل الحياة في أرض العرب وفي مشوار الدعوة، فلما أراد الفاروق عمر ﷺ أن يضع تقويما للمسلمين غير تقويم الفرس والروم، تشاور مع الصحابة من أي الأحداث نأخذ نقطة البداية ونجعله تقويم ؟ من الميلاد أم من الإسراء أم من الهجرة أم من الوفاة أم من أي حدث له شأن في حياة الرسول ﷺ؟ فأشار عليه علي بن أبي طالب ﷺ أن يأخذ من الهجرة نقطة البداية للتقويم الإسلامي، إيمانا منه بأنها كانت نقطة البداية لبناء دولة الإسلام وحاضر الأمة وتاريخها المُشرف، فأقر عمر ﷺ برأيه وجعلها بداية التقويم الإسلامي، فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: مَا عَدُّوا مِنْ مَبْعَثِ النَّبِيِّ ﷺ وَلاَ مِنْ وَفَاتِهِ، مَا عَدُّوا إِلاَّ مِنْ مَقْدَمِهِ الْمَدِينَةَ .(١)

الوقفة الثانية ((مع آل أبي بكر)) إن عطاء أبو بكر للإسلام لم يقتصر عليه وحده، وإنما شمل كل أسرته، فقد كانت نموذجا مثاليا لأسرة داعية تحمل همَّ رسالة، وتعيش من أجلها، فجنّد لها نفسه وأهله وماله، وفي الهجرة كان لآل أبي بكر دور بارز في كل أحداثها، فمن داره انطلق رسول الله ﷺ مهاجرا، واتخذه رفيقا، ومولاه خادما لهما واتخذ ابنه عينا لهما على المشركين، وائتمن أهله على سرية المكان وزمان الهجرة.

---

(١) البخاري٣٩٣٤

أما الصديق فأخذ كل ماله ولم يترك لأهله شيئا، ومن كل هذه المهام والأشخاص تتكشف لنا عدة حقائق منها:

١- اتخذ أبو بكر تدابير الهجرة مبكرا، فعلف راحلتين قبل الهجرة بستة شهور، فإن صحب رسول الله ﷺ كان قد أعدَّ أمر الراحلة، وإن لم يصحبه جاهد بهما في سبيل الله بتوفير الراحلة لهجرة رسول الله ﷺ، وهذا من صدق ظنه وبُعد نظره وإخلاص عمله ﷺ.

٢- أخذ أبو بكر كل ماله ولم يترك لأهله شيئا، فربما احتاج المال في الطريق لمساومة أي ركب قد يدركهم؛ ليثنيه عن عزمه في النيل من رسول الله ﷺ والإبلاغ عنه، فأمن رسول الله ﷺ وسلامته أهم عند الصديق من زاد أهله ونفقتهم، وما قيمة المال إن لم يكن لصاحبه رسالة وهدف يحيا من أجله!

إن مُتع الدنيا وإن كثرت فهي متع فانية ولذة وقتية، أما مُتع الآخرة وإن شق الوصول إليها لكنها مُتع باقية، فإلى أي المتع يقود المال صاحبه؟! قال رسول الله ﷺ « نِعْمَ المَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ »(١) فجمع الرسول ﷺ سمتين أساسيتين في المال، طيب المصدر، فالمال الصالح هو الذي منشأه حلال، ثم طيب النفقة منه، فإن العبد الصالح لن ينفق ماله إلا في حلال.

٣- الاستقرار الداخلي الذي تحلت به أسرة الصديق، فلما قال له النَّبِيُّ ﷺ « أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ » حفاظا على سرية الخبر رد أبو بكر قائلا ((إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ)) وقد كان رسول الله ﷺ قد عقد على عائشة بنت الصديق رضي الله عنها فأراد الصديق أن يخبر رسول الله ﷺ أن أمره أمرهم جميعا، وأن أمنه وسلامته همهم جميعا، تزكية قائمة على حسن التربية لا على العاطفة لكونهن بناته، وهكذا يجب أن تكون أسرة الداعية، بناء داخلي متماسك، وإلا فكيف ينطلق إلى العالم الخارجي؛ ليصلحه وبنيانه الداخلي خاو على عروشه؟!

بل إن من عظيم شأن أسرة الصديق تقدم إسلامها، تقول السيدة عائشة ((لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ قَطُّ، إِلاَّ وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ))(٢) فلما استمسك الأب والأم بتعاليم الإسلام وسُنَّة رسوله ﷺ جاءت نتائج التربية نماذج مُشرفة، ذات النطاقين، وأم المؤمنين عائشة، وعبد الله بن أبي بكر، فإن صلاح الأبناء من صلاح آبائهم.

٤- ثم يأتي دور المخابرات وأهميتها في إنجاح أي دعوة، وبناء أي دولة، يجسّدها دور عبد الله بن أبي بكر في الهجرة وهو لا يزال شابا

---

(١) مسند أحمد ١٨٢٣٦ وصححه الألباني في مشكاة المصابيح٣٧٥٦

(٢)البخاري٢٢٩٧

قالت عائشة رضي الله عنها ((يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ وَهُوَ غُلَامٌ شَابٌّ ثَقِفٌ لَقِنٌ، فَيُدْلِجُ مِنْ عِنْدِهِمَا بِسَحَرٍ، فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ، فَلَا يَسْمَعُ أَمْرًا يُكْتَادَانِ بِهِ إِلَّا وَعَاهُ، حَتَّى يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلَامُ)) فبناء الخطط المستقبلية مرهون على معرفة رؤى العدو وتخطيطه المستقبلي، فإن قرار البقاء في الغار ثلاث ليالٍ ليس قرارا نهائيا، وإنما هو مرهون بضعف الرصد ويأس قريش في الطلب، فإن استمر الطلب بنفس القوة جُددت مدة البقاء في الغار؛ لتحقيق الهدف المرجو منها، درس مُهم هدف منه النبي ﷺ تربية الجماعة المؤمنة به ثم تربية الأمة من بعدهم، أنه إن كان أحد غنيا عن الأخذ بالأسباب لكان رسول الله ﷺ أولى، فهو النبي الموحى إليه من فوق سبع سموات، ومع هذا يأخذ بكل التدابير اللازمة لإنجاح مخططه وتحقيق هدفه، درس للقادة الذين يبنون خططهم الدفاعية لحماية أوطانهم على الظن والتخمين ويعطلون الأسباب، درس لكل شباب الأمة الذين يعطلون الأخذ بالأسباب في السعي على الرزق ويلقون باللوم على القدر المكتوب، درس لكل أب وأم لم يتق الله في تربية أبنائه على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فلما فشلوا ألقوا باللوم على النصيب المكتوب.

وقفة أخرى مع الأخذ بالأسباب تتجدد مع كل حدث في السيرة؛ ليعلم المسلم أنه يدين بدين يدعو إلى العمل والسعي لا إلى الإتكالية والتواكل، يدعو إلى الفهم والتدبر لا إلى السذاجة والخمول، يدعو إلى تحكيم العقل لا إلى تغييبه، وسبق أن سقنا كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ((إن الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا قدح في العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع))

ولنتأمل العنصر الذي وقع عليه الاختيار للقيام بهذه المهمة، شاب صغير، يُستبعد أن يكون عين رسول الله ﷺ على المشركين، لفتة أخرى لدور الشباب في بناء الأمم وإنجاح المخططات ونشر الدعوات، فظن قريش قد استبعد أن يؤتمن صغير مثله على سر الهجرة ومكان الرسول ﷺ، وهكذا ينظر صُناع القرار اليوم إلى شباب الأمة، إنهم لا يؤمنون بقدرة حماسهم على بناء للدولة وحمل الرسالة، لذا جعلوهم طاقة معطلة، بل وأحيانا عبء على خطط الدول المستقبلية، فليس عجيبا أن يظهر الإنحراف والتطرف في أوساط الشباب ما داموا قد أخفقوا في إخراج مواهبهم وقدراتهم في إطار قويم، وفق منهج محدد وخطوات محسوبة.

ثم لفتة أخرى لصفات الشاب الذي حمل سر رسول الله ﷺ وكان عينه التي يرى بها مكر قريش وتخطيطهم، تقول السيدة عائشة ((وَهُوَ غُلامٌ شَابٌّ ثَقِفٌ لَقِنٌ)) والثقف السريع الفهم، واللقن الحسن التلقي لما يسمعه ويعلمه، وهذه الصفات قد تتوافر لدى الكثير، إلا أن القليل من يحسن الاستفادة منها ويربيها، فإنها من أهم صفات الداعية الذي تقوم على يديه رسالة وتنتشر بأسلوبه دعوة، وهي أيضا صفات القائد الذي يقوى على حماية الدعوة وحماية أنصارها .

٥- ابنتي الصديق، ذات النطاقين وأم المؤمنين عائشة، جسدا النموذج المثالي للفتاة المُسلمة التي تعيش لدينها ورسالتها، الفتاة التي تجعل الدين شغلها الشاغل وهدفها الأول، قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها ((فَجَهَّزْنَاهُمَا أَحَثَّ الْجِهَازِ، وَصَنَعْنَا لَهُمَا سُفْرَةً فِي جِرَابٍ، فَقَطَعَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ قِطْعَةً مِنْ نِطَاقِهَا فَرَبَطَتْ بِهِ عَلَى فَمِ الْجِرَابِ، فَبِذَلِكَ سُمِّيَتْ ذَاتَ النِّطَاقِ)) إشارة إلى عظيم دور المرأة في الرسالة ونشر الدعوة، فربما أحيطت الدعوة في بدايتها بسياج من الفتن والمكائد، الأمر الذي جعل مشاركة المرأة في الدعوة محدودا نوعا ما، إلا أنها حينما أُتيحت لها الفرصة أثبتت قدرتها على حمل الرسالة والاستبسال من أجلها، فها هن بنات الصديق رضي الله عنهن أثبتن قدرة المرأة على حمل أعباء الرسالة والمشاركة فيها، بحفظهن سر رسول الله ﷺ وأمر هجرته، ثم اليقين في الله عز وجل يجسده حُسن استخلاف دور الأب الغائب من أجل الرسالة، فتأتي حيلة أسماء على جدّها؛ لحفظ سر أبيها ومكانته كأب مسئول عن أسرة، وقد خلفها وراءه وخرج مع رسول الله ﷺ ولم يترك لهن درهما ولا دينارا، ثم الثبات في وجه فرعون الأمة أبي جهل حينما أقبل بوجهه الكئيب يعلوه موجات غضب ناقمة على آل أبي بكر؛ لنصرتهم رسول الله ﷺ فيسألها عن مكان رسول الله ﷺ فما هابها طلعته الناقمة ولا بطشه الذي لا يخفى على صغير ولا كبير في مكة بأنصار رسول الله ﷺ وأجابت بكل ثبات أنها لا تعرف، فيكون الجزاء لطمة على وجهها فتصبر وتحتسب، ثم يأتي دور أم المؤمنين عائشة؛ لتحفظ لنا هذا التراث الغالي وتنقله إلى الأمة جميعها؛ لتضيء لهم الطريق وتنيره بقبسات من نور النبوة وآيات من صور التضحية والفداء .

لقد غدت الصحوة الإسلامية بحاجة إلى دور المرأة فيها وحمل الرسالة وهمّ نشرها، والعمل بما هي منوطة له من أجل الدين والرسالة، فإن إيمان المرأة بقضية الرسالة وحملها أمر الدعوة فيه صلاحها كفرد من الأمة، وصلاح أسرتها لكونها ركيزة أساسية يقوم عليها بنيان الأسرة، وصلاح بناتها كأمهات في المستقبل، وصلاح أبنائها كرجال يحملون أمر الدين، وصلاح زوجها كقدوة

لأبنائه وجيرانه، وصلاح أمها وأخواتها وجيرانها وأصدقائها بكونها داعية ترشدهم إلى طريق الهداية ونور الإيمان، هكذا تكون وظيفة المرأة في الإسلام، فلا هي بالرصيد المهمل والقوة المعطلة، ولا هي بالقوة الخارقة التي تقتحم كل المجالات وتثبت نجاحها فيها، فلكل من المرأة والرجل دور هو له أهل، ونجاح كل منهم مرهون بحُسن توزيع المهام وفقا لطبيعة كل منهم، فجدير بنا أن نُعيد تقويم أوضاع مجتمعاتنا وأسرنا المسلمة .

الوقفة الثالثة ((السرّية طريق النجاح)) قال رسول الله ﷺ ((استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان)) (١) فالحوائج كل هدف يسعى الإنسان إلى تحقيقه، والكتمان حفظ أسرار هذا الهدف حتى يتحقق، فما الكتمان إلا للشيء النفيس عظيم الشأن الذي في إفشائه خطورة، وإن أكثر ما يتم به التدبير الكتمان، فكم من الدعوات الإصلاحية التي لم تحط دعوتها بسياج من السرية فترصدها أهل الباطل وأخفقوها وهي في مهدها، وكم من الدول الكُبرى قد تهاوت وضعف بنيانها عندما اكتشفت أسرارها، وكم من الرجال الذي يحملون همَّ رسالة قد نالت منهم يد البطش حينما أهملوا في الأخذ بالأسباب ولم يحيطوا خطواتهم وأهدافهم المستقبلية بالسرية والكتمان.

فالسرية طريق النجاح، لذا قال عنها الفاروق عمر ((ما أفشيتُ سري إلى أحد قط فأفشاه فلمته، إذ كان صدري به أضيق)) وقال ((من كتم سره كان الخيار بيده، ومن عرَّض نفسه للتهمة فلا يلومنّ من أساء الظن به))وقال عمر بن عبد العزيز ((القلوب أوعية، والشفاه أقفالها، والألسنة مفاتيحها، فليحفظ كل إنسان مفتاح سره)) ولله در القائل :

وَاِحفظ لسانك وَاِحترز من لفظِه   فالمَرءُ يَسلم بِاللِسان وَيعطب
وَالسِرَّ فاِكتُمهُ وَلا تَنطِق بِـــــهِ   فهوَ الأَسيرُ لَديكَ إِذ لا يُنشَبُ
وَكَذاكَ سر المَرء إِن لَم يَطــوه   نَشَرَته أَلسِنَة تَزيد وَتَكـــــذِب

هكذا تبرز أهمية السرية في إنجاح الأعمال وتحقيق الأهداف، لذا اعتنى بها رسول الله ﷺ قولا وعملا، لا لشيء إلا لتربية أمته على كل ما فيه نفعها وسبيل إصلاحها وتقدمها.

وفي الهجرة النبوية درس عملي على أهمية السرية في تحقيق الأهداف، فالهجرة كحدث من مبدأه إلى منتهاه قد أحيط بالسرية

---

(١) السلسلة الصحيحة ١٤٥٣

وكأنه لغز لم يُفهم إلا بعد وصول النبي ﷺ إلى المدينة، فأمر الهجرة لم يُطلع عليه رسول الله ﷺ سوى من له فيه دور مُباشر ولا يستقيم عمله إلا بالإطلاع على أسرارها، كأبي بكر رفيقه في الهجرة، وعامر بن فُهيرة ممول الغذاء، والدليل الذي سيرافقهم طيلة الرحلة، وعلي الذي نام مكان رسول الله ﷺ، وآل أبي بكر لما لهم من دور في التغطية الإعلامية، فكل هؤلاء كان لهم دور في إنجاحها، وهم عدد محدود بالنسبة لحدث كبير كالهجرة في ظروفها التي حدثت فيها، فلما جاء الأمر بالهجرة توجه رسول الله ﷺ إلى دار أبي بكر في ساعة لم يكن يعتاد الذهاب فيها، ثم اختار ساعة الذروة والناس كل في داره هربا من طقس مكة القائظ وقت الظهيرة، وهذا يجنبه الرصد وتتبع العيون، ثم توجه نحو الدار متقنعا، قالتْ عَائِشَةُ ((فَبَيْنَمَا نَحْنُ يَوْمًا جُلُوسٌ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ قَالَ قَائِلٌ لأَبِي بَكْرٍ هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَقَنِّعًا - فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِينَا فِيهَا - فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ فِدَاءٌ لَهُ أَبِي وَأُمِّي وَاللَّهِ مَا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلاَّ أَمْرٌ)) (١) فلما رآه الصديق على هذه الهيئة وفي ذالك الوقت، أيقن أن أمرا عظيما قد حدث، فلما أقبل النبي ﷺ قال لأبي بكر « أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ » حرصا على السرية، فلما طمأنه ألا غريب في الدار أخبره رسول الله ﷺ بأمر الهجرة، ثم أخذا في بدء خطوات الهجرة سريعا ضمانا لكتمان الخبر، فخرجا من خلف البيت، ثم توجها نحو الجنوب ناحية اليمن لتضليل قريش، فلما اطمأنا إلى ضعف الرصد بدأ الركب نحو المدينة فسلكوا طريقا وعرا، لكنه آمنا بعيدا عن البوادي العامرة وطرُق القوافل، حتى قدم الركب إلى المدينة آمنا تحفظه عناية الله.

الوقفة الرابعة ((الإفادة من المشركين)) قالت أم المؤمنين ((وَاسْتَأْجَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلاً مِنْ بَنِي الدِّيلِ، وَهُوَ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيٍّ هَادِيًا خِرِّيتًا - وَالْخِرِّيتُ الْمَاهِرُ بِالْهِدَايَةِ - قَدْ غَمَسَ حِلْفًا فِي آلِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ، وَهُوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ فَأَمِنَاهُ، فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا ، وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلاَثِ لَيَالٍ بِرَاحِلَتَيْهِمَا صُبْحَ ثَلاَثٍ)) فدليل أعظم حدث في حياة الرسول ﷺ ومشوار دعوته رجل مُشرك، والمطّلع على أسرار الهجرة ومكان الاختباء وموعد الرحيل رجل مشرك، والرفيق طيلة الرحلة رجل مُشرك، فهل يجوز الاستفادة من قدرات المشركين فيما يفيد المسلمين؟ إن من حكمة الله عز وجل أن قدَّر في أحداث السيرة كل صنوف المعاملات والأخلاق والآداب بجوار التشريع والأحكام، لتكون هاديا ومرشدا للأمة حكاما ومحكومين، علماء وفقهاء

---

(١) البخاري ٣٩٠٥

ومشرعين، أن لكل أمر في أمور الدنيا أو الدين أصل في الشرع وضابط يسير عليه، لم يترك للأهواء والآراء المختلفة، ومن هذه الأمور حدود العلاقة بين المسلمين والمشركين، والضوابط التي تحدد إمكانية الاستفادة من المشركين، فأما علاقة المسلمين بالمشركين فهي على أربعة أصناف:

١- موالاة المشركين: والموالاة أصلها من الوَلاية، والوَلاية هي المحبة والمودة، قال تعالى (هُنَالِكَ الوَلَايَةُ لِلَّهِ الحَقِّ) (١) أي المحبة والمودة والنُّصرة لله الحق، والموالاة عمل قلبي يُعني محبة الشرك وأهله ونصرتهم على المسلمين، وهي عمل مُحرَّم بنص القرآن قد يصل بصاحبه إلى الكفر، قال الله تعالى [لَا يَتَّخِذِ المُؤْمِنُونَ الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ المَصِيرُ] (٢)

قد قسمها العلماء إلى قسمين ((التوليّ والموالاة))

فأما التوليّ فهو الذي جاء في قول الله تعالى (وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ)(٣) وهو بمعنى محبة الشرك وأهله ونصرتهم بغية استعلائهم على أهل الإيمان والتوحيد، أي نصرة المشرك على المسلم قاصدا ظهور الشرك على الإسلام، وهي ردة تُخرج صاحبها من الملة، فلم يعد لبقائه مسلما بينة، وقد ظاهر الشرك على الإسلام والضلال على الإيمان .

وأما الموالاة فتعني محبة المشركين لأجل دنياهم أو قراباتهم أو ما شابهه، أي أنها محبة لأجل الدنيا غير مقترنة بنصرة دين أو معنية بظهور الشرك على الإسلام، وهي في حق المسلم مُحرمة، ومعصية لكنها ليست كفرا، والدليل قصة حاطب بن أبي بلتعة حينما راسل مشركي مكة بخبر قدوم النبي ﷺ لفتح مكة فلما كُشف أمره سأله رسول الله ﷺ عما حمله على فعله، فإن كان قاصدا ظهور الشرك على الإسلام فهو كفر، وإن كان غيره فله حكمه، فقالَ له رسول الله ﷺ « مَا حَمَلَكَ يَا حَاطِبُ عَلَى مَا صَنَعْتَ » قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لا تَعْجَلْ عَلَيَّ، إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ، وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ المُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ، يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي، وَمَا فَعَلْتُ كُفْرًا وَلَا ارْتِدَادًا وَلَا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الإِسْلَامِ وَمَا بِي إِلاَّ أَنْ أَكُونَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَا غَيَّرْتُ وَلَا بَدَّلْتُ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ« صَدَقَ فَلَا تَقُولُوا لَهُ إِلاَّ خَيْرًا » (٤)

---

(١) [الكهف: ٤٤]　　(٢) {آل عمران:٢٨}

(٣) [المائدة: ٥١]　　(٤) البخاري ٣٩٨٣ ومسلم ٦٥٥٨

ثم نزل في حاطب قول الله تعالى [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ] (١)

فأقر الله له بالإيمان مع فعله، فإلقاء المودة للكافر لا يسلب اسم الإيمان، إلا أن المؤمن محب لله ولرسوله وللمؤمنين، ولا يكون في قلبه ميل إلى الشرك وأهله، لأن الحب في الله والبغض في الله هو أوثق عُرى الإيمان، كما قال النبي ﷺ « إِنَّ أَوْسَطَ عُرَى الإِيمَانِ أَنْ تُحِبَّ فِي اللَّهِ وَتُبْغِضَ فِي اللَّهِ » (١)

٢ـ البر بهم والإحسان إليهم: فإن كان الإسلام قد حرم موالاة المشركين، فإنه لم يقطع كل صلة بهم، ولم يُحرِّم الإحسان إليهم والبر والرأفة بهم، فقال تعالى [لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ] (٢) إلا أن هذا الإحسان متوقف على نوع معاملتهم مع المسلمين، فهم إما مشرك غير محارب ولا يسلك أي مسلك ضد الدين وأهله، فهذا يجوز فيه البر بهم والإحسان إليهم والتواصل معهم والاستفادة من قدراتهم وإمكاناتهم بما لا يخالف ثوابت الدين، أما إن كانت معاملتهم مع المسلمين قائمة على العداء والكيد للدين وأهله والتربص بهم وتمني كل سوء لهم، فهؤلاء لا بر ولا إحسان معهم، قال تعالى [إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ] (٣)

٣ـ الاستعانة بهم: روى أحمد عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَجُلاً اتَّبَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ أَتْبَعُكَ لأُصِيبَ مَعَكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » قَالَ لاَ. قَالَ « فَإِنَّا لاَ نَسْتَعِينُ بِمُشْرِكٍ » فَقَالَ لَهُ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ « تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » قَالَ نَعَمْ. فَانْطَلَقَ فَتَبِعَهُ (٤) وقال ﷺ « إِنَّا لاَ نَسْتَعِينُ بِالْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ »(٥) وروى الطبراني عن أبي حميد الساعدي أن النبي ﷺ خرج يوم أحد حتى إذا جاوز ثنية الوداع فإذا هو بكتيبة خشناء فقال " من هؤلاء ؟

---

(١) {الممتحنة:١}

(٢) مسند أحمد ١٩٠٢٧ وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٣٠٣٠

(٣) {الممتحنة:٨}

(٤) {الممتحنة:٩}

(٥) مسند أحمد ٢٥١١٨

(٦) سنن أبي داوود ٢٧٣٤ وابن ماجة ٢٩٣٩ ومسند أحمد ٢٥١١٨ والبيهقي ١٨٣٣٦ واللفظ له وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير ٢٢٩٢

" قالوا: عبد الله بن أبي في ستمائة من مواليه من اليهود من بني قينقاع فقال " وقد أسلموا ؟ " قالوا: لا يا رسول الله، قال"مروهم فليرجعوا فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين " (١)

وسوف يأتي تفصيل حكم الاستعانة بالمشرك في الحرب، في وقفات غزوة حنين إن شاء الله تعالى

٤- **الإفادة من المشركين:** وهي ما حدث في رحلة الهجرة، أي الاستفادة من مواهب المشركين وإمكاناتهم وعلومهم ومعارفهم وثقافتهم واختراعاتهم واكتشافاتهم العلمية وكل ما فيه فائدة للمسلمين، فالحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنى وجدها، بشرط عدم إخلالها بثوابت الدين والعقيدة، ومما يعضد هذا القول ما رواه الترمذي وصححه عن أبي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ قال: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا بِأَرْضِ قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ نَأْكُلُ فِي آنِيَتِهِمْ قَالَ « إِنْ وَجَدْتُمْ غَيْرَ آنِيَتِهِمْ فَلاَ تَأْكُلُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَاغْسِلُوهَا وَكُلُوا فِيهَا » (٢)

وعلى الآنية يُقاس كل ما فيه نفع للمسلمين من المشركين، فتجوز الإفادة متى تعذر البديل المسلم، إلا أن لهذه الإفادة ضوابط يجب مراعاتها، لئلا يتكل المسلمون على إنجازات الغير ويظلوا عالة لا يفيدون أمتهم ولا الإنسانية بما يسير أمورها ويخدم بقاءها، منها أن يكون المستفاد منه صاحب تخصص نادر لا يجيده المسلم بنفس كفاءته، كأن يستفاد من عالم فضاء في تدريس طلاب علم مسلمين أو طبيب متميز في تخصص نادر أو نحو ذلك، كذلك يكون من قوم ليسوا طرفا في صراع مع المسلمين، فيوقع بهم وهم يأتمنوه.

الوقفة الخامسة ((براعة التخطيط من أسباب النجاح))_إن المتأمل لأحداث الهجرة منذ بدايتها يتيقن لديه أنها سارت وفق منهج مرسوم بخطوات محددة، لم تسبق إحداها على الأخرى، بل أنها كحلق متتالية، بدأت بتفكير رسول الله ﷺ في ضرورة إيجاد وطن بديل يحتضن الدولة ويقيم فيه بنيانها القائم على تعاليمها ومبادئها، فعرض نفسه على القبائل مرات عدة بغية النصر والتأييد، فلما آمن به الأنصار ووعدوه النصرة، لم يتعجل نصرتهم، وإنما أمهلهم عاما يختبر فيه ثباتهم، فلما قدموا عليه العام التالي بايعهم البيعة الأولى، ثم تركهم عاما آخر؛ لتزكية نفوسهم واليقين من ثباتهم،

---

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩٥٧٢ رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه سعد بن المنذر بن أبي حميد ذكره ابن حبان في الثقات... وبقية رجاله ثقات

(٢)سنن الترمذي ١٦٥١قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح

وأرسل معهم مصعب لتمهيد البيئة في المدينة لاستقبال الإسلام والرسول ﷺ، فلما قدموا العام التالي أخذ عليهم البيعة الكبرى بالنصرة والحماية والإيواء له ولأصحابه إن هم هاجروا إليهم، فلما بايعوه أذن لأصحابه بالخروج وتأخر هو؛ ليتيقن من رسوخ أقدام المسلمين في المدينة وثبوت أرضها لاستقبال رسول الله ﷺ كقائد عام لها، فلما جاءه الأمر بالهجرة سارت أحداثها وفق منهج محدد وخطوات محسوبة استطاع فيها رسول الله ﷺ أن يدمج بين الموارد المادية المتاحة كالغار، والطريق الوعر الخال من العمران، والراحلة القادرة على تحمل مشاق السفر ووعورة الطريق، وبين الطاقات البشرية المتوفرة لديه كالصديق وعلي بن أبي طالب والخادم والدليل وعبد الله بن أبي بكر، واستطاع أن يستفيد من كل هذه الطاقات كل في مكانه الذي هو أهل له، أي دقة في الاختيار ودقة في توزيع المهام ثم دقة في التنفيذ والأداء، ولم يترك شيئا للصدفة، هكذا تنجح الخطط ، وبذا يتضح أن الهجرة كحدث لم يأت اعتباطا، ولم يكن أمرا عشوائيا لم يُعَدُّ له ويدرس جيدا، ولم يحسب حساب كل خطوة مستقبلية قد يتعرض لها رسول الله ﷺ.

أما الرؤية المستقبلية للجماعة المسلمة فقد كانت واضحة في فكر رسول الله ﷺ منذ أن صدع بالدعوة، بل إنه صرح بها ليس للمسلمين فحسب، وإنما للمشركين، فقد قال ﷺ لعمه أمام سادات قريشا جميعا « إِنِّي أُرِيدُ مِنْهُمْ كَلِمَةً وَاحِدَةً تَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ وَتُؤَدِّي إِلَيْهِمُ الْعَجَمُ الْجِزْيَةَ »(١) فقد كان واضحا لدى رسول الله ﷺ أن النصر والتمكين سيصاحب دعوته ورسالته، والعز والسيادة ستكون لمن آمن به وصدقه، فلما أيقن رسول الله ﷺ أن مكة لم تعد البلدة التي تأوي رسالته وتحتضن دعوته، استعرض الإمكانات المتاحة لدى الجماعة المسلمة، فوجدها طاقات متعددة، لكنها مُعطلة في الصحراء المقفرة منتشرة يمنة ويسرة، فقرر البحث عن وطن يجمع فيه كل هذه الطاقات والإمكانات المتوفرة لدى الجماعة المسلمة، ويجعلهم النواة التي ينطلق بها نحو العالم، فلما أخذ على أهل يثرب البيعة اتضحت الرؤية أكثر أن الوطن الذي سيحمل راية الإسلام إلى العالم هو يثرب، فأصبحت الخطة الاستراتيجية بعيدة المدى هي إقامة دولة إسلامية في المدينة ينطلق منها الإسلام إلى كل ربوع الجزيرة، ثم إلى العالم، أما الخطة قصيرة المدى فهي الانتقال الآمن له ولأصحابه إلى المدينة وتهيئة البيئة بها لاستقبال مستجدات الأحداث والتعامل معها بإيجابية ومرونة .

---

(١) سنن الترمذي ٣٥٣٩ وقال حديث حسن صحيح

هكذا كانت الهجرة، درسا عمليا في التخطيط، كما كانت درسا في السرية والأخذ بالأسباب، وهكذا يتيقن لكل مسلم أن ما نحن به من تخلف عن الركب العلمي لعيب فينا وفي أفكارنا وفي سلبيتنا، ليس في عقيدتنا ولا في تكاليفها. فالواقع المرير الذي تشهده الأمة بحاجة إلى صرخة من أعماق كل نفس مؤمنة؛ لتغيير هذا الواقع الأليم، لأننا إذا أردنا أن نستعرض حظ أمتنا، حُكاما وشعوبا، قادة وعلماء، من علم كعلم التخطيط وجدنا واقعا أليما وثقافة هزيلة، مع أن ديننا منذ بدايته كان قائما على التخطيط والنظرة المستقبلية للأحداث، وجدنا لبسا في المفاهيم والأفكار، فلم يعد الفرق واضحا بين الرسالة والوسائل والأهداف، وجدنا عدم تكامل وتنسيق بين الخطط الطويلة والخطط القصيرة المدى، وجدنا عدم وضوح للرؤية في تحديد المسئولين عن التخطيط، من الذي يخطط؟ ومن الذي يقرر ويرسم مستقبل الدول؟

إن معظم خططنا ـ سواء في الدعوة أو في أمور الدنيا ـ لا تعتمد على أسس واضحة وأهداف محددة مستمدة من دراسات علمية مسبقة، بل إن معظمها قائم على السذاجة في التصور والمثالية في الأهداف والمعلومات المزيفة، لا لشيء إلا لتجاهلنا واقع الحياة ومتطلباتها؛ لتجاهلنا الأخذ بالأسباب والسعي الدءوب من أجل تحقيق غايات أمتنا.

لقد كانت الهجرة درسا باقيا نفعه للأمة أن الانضباط في جميع شئون الحياة من حل أو ترحال مطلب شرعي، وأن الفوضى والارتجال والتخبط ـ ولو حسنت معه النية ـ أمر منبوذ لا يتوافق ومنهج الإسلام .

ومن الفوائد الدعوية والدروس التربوية في الهجرة :

١ـ **الهداية منحة ربانية :** لنا مع الهجرة ثلاثة نماذج متباينة الإجابة للإسلام ولدعوة الرسول ﷺ، فالأول الدليل والثاني سراقة والثالث اللصان، فأما الأول فقد لازم رسول الله ﷺ طيلة الرحلة وقطعا دعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام لكن لم يأت عنه خبر أنه أسلم، وأما الثاني فسراقة بن مالك الذي رأى آية بينة بأم عينه، فأقر بصدق رسول الله ﷺ وعلو أمره وظهوره على من عانده إلا انه لم يُسلم إلا بعد غزوة حُنين، وأما الثالث فهما اللصان، فما أن دعاهما النبي ﷺ للإسلام إلا أسلما في حينها، ولعلنا نتساءل أي من النماذج الثلاثة كان أبعد عن الإسلام قبل دعوة الرسول ﷺ ؟ إنهم قطعا اللصان، ومع ذلك كانا أسرع الناس استجابة للإسلام، قضية دعوية خطيرة يتجاهلها كثير من الدعاة، وهي دعوة أصحاب السوابق في الشر، فهم رغم ما يبدو من ظاهر أفعالهم البُعد عن الدعوة

والرسالة، إلا أن الواقع الذي أقرت به كثير من التجارب الدعوية أن هؤلاء يكونون من أشد الناس التزاما وتمسكا بالدين إذا وجدوا من يأخذ بأيديهم إلى التوبة والطاعة، كذلك جدير بالداعية ألا يقنط مَن إجابة أحد، ولا يتعجل قطف الثمار قبل أوانها، فها هو سُراقة ظل يُراقب نصر رسول الله ﷺ من بعيد ثم أسلم بعد سنوات عدة من دعوة رسول الله ﷺ له.

٢ـ **حُسن اختيار الرفيق:** لما استأذن الصحابة رسول الله ﷺ بالهجرة أذن لهم جميعا إلا الصديق، استبقاه رسول الله ﷺ عله أن يشرف بصحبة رسول الله ﷺ وهنا تبرز قيمتان، الأولى: حُسن اختيار الرفيق، ففي الحديث النبوي أن رسول الله ﷺ قال « الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ »(١)

وقال ﷺ « لاَ تُصَاحِبْ إِلاَّ مُؤْمِنًا وَلاَ يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلاَّ تَقِيٌّ »(٢)

فالصاحب مرآة صاحبه، يرى فيه محاسنه ومعايبه، ولهذا تقول العرب في أمثالها ((الرفيق قبل الطريق، والجار قبل الدار، والطباع سرّاقه))

وتقول ((الطيور على أشكالها تقع))

وقيل ((ابتغ الرفيق قبل الطريق فإن عرض لك أمر نصرك، وإن احتجت إليه أعانك))

وقيل ((إنما سُميَ السفر بهذا الاسم لأنه يسفر عن حقيقة المرء وعن أخلاقه))

وقيل ((قل لي من تصحب أقل لك من أنت))

ولله در القائل :

لا خيرَ في وُدِّ امرئٍ مُتملّـــقٍ ... حُلوِ اللِسانِ وَقلبُهُ يَتَلَهّـــبُ
يَلقاكَ يَحلِفُ أَنَّهُ بِكَ واثِـــقٌ ... وَإِذا تَوارى عَنكَ فَهوَ العَقـرَبُ
يُعطيكَ مِن طَرَفِ اللِسانِ حَلاوَةً ... وَيَروغُ مِنكَ كَما يَروغُ الثَعلَبُ
واختَر قَرينَكَ وَاِصطَفيهِ تَفاخُـراً ... إِنَّ القَرينَ إِلى المُقارَنِ يُنسَـبُ

أما القيمة الثانية، فإن صلاح الفرد وتقواه تجعله مطلب أهل الصلاح والتقى في المجالسة والمحادثة والسفر والجوار، فقد بلغ الصديق من الورع والتقوى مبلغا جعله مطلب رسول الله ﷺ في الصحبة في طريق الهجرة، فقال له النبي ﷺ ((عَلَى رِسْلِكَ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي.))

---

(١)سنن أبي داوود ٤٨٣٥ وسنن الترمذي ٢٥٥٢ وحسنه ومسند أحمد ٨٦٤١ واللفظ له وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ٩٢٧

(٢)سنن أبي داوود ٤٨٣٤ والترمذي ٢٥٧٤ وقال حديث حسن وحسنه الألباني في سنن أبي داوود ٤٨٣٢

٣- الصبر واحتمال الأذى صفات مُلازمة للدعاة في مشوار دعوتهم: فما جاءت الهجرة إلا بسبب الفتن والابتلاءات، وما ترك رسول الله ﷺ الوطن والولد إلا بعد أن كذبوه وعذبوه واتهموه بالجنون والكهانة والسحر والضلالة، وبعد أن أدموه ونكلوا به، وما ترك الصحابة المال والولد والأهل والوطن إلا بعد أن تحمّلوا أشد ألوان البطش والتعذيب، وبعد أن كُووا بالنيران وسُحبوا على ظهورهم على الرمضاء، وبعد أن سُلِبت أموالهم وافتتنوا في دينهم، فمشوار الدعوة شاق وعسير، وطريق الدعاة لم يكن يوما مفروشا بالورود والرياحين، فإنما هي سنن ربانية لازمت مشوار الدعوة منذ بدايته، فالسعيد من اجتهد وصبر، والشقي من قنط وكفر.

٤- الإصرار والعزيمة تُهوّن القرارات الصعبة : فلم تكن رحلة الهجرة سالمة من الفتن والابتلاءات، ولم تكن سالمة من التضحية والفداء، فها هو صهيب قد ترك كل ماله من أجل الهجرة، وغيره كثير يملك أو لا يملك، قصد المدينة وخرج مهاجرا إلى الله ورسوله ﷺ، فالعزيمة القوية والإرادة المُستمدة من الإيمان الصادق تُعين الإنسان على تحمل المشاق وأخذ القرارات الصعبة التي قد تُغير من شكل حياته كلها.

فالمسلم صاحب رأي يستخير فيه الله ثم يُقدم عليه، والرأي تعقبه عزيمة قوية تُمكنه من الإقدام على ما يريد تحت أي ظرف دون شك أو تردد، وفي هذا المعنى يقول البُرجُمي الشاعر الجاهلي

وَاِترُك مَحَلَّ السَوءِ لا تَحلل بِـهِ ... وَإِذا نَبا بِكَ مَنزِلٌ فَتَحَـــــوَّلِ
وَاِستَأنِ حِلمَكَ في أُمورِكَ كُلِّهـا ... وَإِذا عَزَمتَ عَلى الهَوى فَتَوَكَّـلِ
وَإِذا تَشاجَرَ في فُؤادِكَ مَـــــرَّةً ... أَمرانِ فَاِعمِد لِلأَعَفِّ الأَجمَــــلِ

٥- الهجرة من مكان فيه معصية لله أو أذى للإنسان أو ضيق رزق أمر واجب على المسلم بعد بذل كل جهد ممكن للإصلاح والتغيير، فمن لم يفعل هذا بغير عذر فقد ظلم نفسه، قال تعالى [إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا] (١)

٦- حفظ الأمانات من أخلاق المسلم مهما كانت الظروف: لقد خرج النبي ﷺ مهاجرا تتعقبه سيوف المشركين، ومع ذلك شَغَله أمر الأمانات التي عنده

---

(١)[النساء٩٧/٩٨]

فاستبقى لها عليا؛ ليردها إلى المشركين الذين استأمنوه عليها رغم كفرهم به، فمهما اشتدت الظروف وعظمت الابتلاءات، حري بالمسلم ألا ينسى أنه صاحب رسالة وعقيدة تُحركه، يؤمن بها ويصدّقها، وهذه العقيدة نصت على حفظ الأمانات وعدم التعدي عليها ولو كانت لكافر، فما دام استأمنك عليها فقد أصبح ردها واجبا ، قال تعالى [إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا](١)

٧- الانتماء إلى الوطن وحبه: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمَكَّةَ « مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلَدٍ وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ وَلَوْلا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ » (٢)

فربما نترك الأوطان نصرة للعقيدة وخدمة للرسالة، إلا أن الانتماء إلى الوطن وحبه جزء من العقيدة التي نؤمن بها، فها هو رسول الله ﷺ يفارق وطنه الذي وُلد وشب وشاب فيه، فيعلن صراحة أنه ما تركه لبغض له، أو نقمة عليه، فما أحب بلدا أشد من حبه لمكة، وإنما تركها لغاية أكبر من حبه، غاية تهون من أجلها كل الصعاب، إنها الرسالة وهمّها، والدعوة وعظيم أجرها، والأهداف الكبرى وتضحياتها .

لفتة إلى حب الأوطان، حب يقتضي أن يُترجم إلى واقع عملي بالسعي إلى النهوض بالوطن وإيثار مصلحة الجماعة على الفرد، والبذل في العطاء علما وعملا، لئلا يتأخر عن ركب التقدم العلمي.

---

(١)[النساء:٥٨]

(٢) سنن الترمذي ٣٩٠٥ وقال هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ ومسند أحمد ١٩٢٣٠

ولعلنا نختم الحديث عن العهد المكي بالإجابة عن تساؤل هام هو، كيف قامت الدولة الإسلامية في عهد النبوة ؟ كيف استطاع النبي ﷺ أن يُقيم دولة غيرت مجرى الحياة على الأرض كلها في أقل من عقدين من الزمان؟

إن الإجابة تكمن في الإيمان بفكرة رئيسة، وهي أن الإسلام كدين ومنهج حياة قادر على بناء دولة من عدم، بشرط توافر الموارد البشرية التي تؤمن به إيمان القول والعمل، فإن دولة النبوة قامت في المقام الأول على الموارد البشرية، أي الأفراد الذين يؤمنون بالرسالة وأحقيتها في حمل القيادة، فإذا استعرضنا مقومات المدينة - نواة الدولة الإسلامية - لا نجد لديها حظ وفير من الموارد المادية التي تقوى بها أي جماعة أو تقوم عليها دولة، لكنها شملت كما هائلا من الطاقات البشرية التي استطاع الرسول ﷺ أن يُحسن توظيفها ويستخرج مواهبها وطاقاتها الدفينة وجوانب إبداعها المختلفة بما يخدم الجماعة المسلمة لا الفرد المسلم فقط، فالبداية كانت بالفرد المُسلم، بتربيته، بإعداده، ومنه كانت الانطلاقة نحو بناء الأسرة المسلمة، زوجة وأبناء يتربون على تعاليم الإسلام، ومنها كانت الجماعة المسلمة التي تآلفت قلوبها واتحدت أهدافها وارتبطت مصائرها فغدت وكأنها قلوب عدة في صدر واحد، ومن الجماعة المُسلمة كانت دولة الإسلام، فمراحل بناء الدولة المسلمة في عهد النبوة كانت كالتالي:

١- **بدء الدعوة والجهر بها :** فإن أول مبدأ الإسلام كان الرسول ﷺ ثم امرأته خديجة - رضي الله عنها - ثم نفر قليل ممن آمن به وصدّقه، لكن هذه النواة لم تركن وتخمل، وإنما تحركت في جد ونشاط للدعوة إلى الإسلام، فالبداية كانت الدعوة إلى الدين وحمل الرسالة.

٢- **تكوين وتربية الجماعة المُسلمة :** وبتزايد عدد المسلمين بدأ رسول الله ﷺ في تكوين الجماعة المُسلمة، وبدأ في تربيتها على المنهج الإلهي، وكان أساس التربية قائما على قضية التوحيد الخالص لله عز وجل، ونبذ كل ما يعبد من دونه، كذلك التربية على تحمل أعباء التبليغ، والدعوة إلى الدين، والصبر على الابتلاءات، فهذه الأسس كانت اللبنة الأولى لبناء الجماعة التي تقوم بأمر الدين والرسالة.

٣- **توسيع الجماعة وانتشار الدعوة :** ولأجل هذا التوسيع عرض النبي ﷺ نفسه على القبائل وجاب الأسواق داعيا إلى الله عز وجل، حتى آمن به وفد الأنصار، فبايعهم على النصرة والحماية، وبدأت الجماعة المسلمة تدخل طورا جديدا في شكلها وأهدافها كان الانطلاقة الحقيقة نحو بناء الدولة المسلمة

٤- تهيئة البيئة الصالحة لإقامة دولة مسلمة تتقبل منهجه: هذه البيئة التي لم يتعجل النبي ﷺ وجودها، وإنما اتخذ خطوات عملية لتهيأتها، بل لوجودها من عدم، تمثل أولا في الاقتصار على دعوة وفد الخزرج وعدم إلزامهم بشيء سوى الدعوة للدين، فكأنه اختبار لمدى قابلية الأفراد والبلدة لتقبل الدين، وبعد عام عادوا إليه، فبايعهم البيعة الأولى بما كان فيها من بنود تُزكي النفس وتعمق الأفكار وتؤصل مبدأ الدين والدعوة في القلب والعقل

لئلا يكون إسلامهم قولا لا عملا، ثم أرسل معهم داعية فذ لتهيئة البيئة في المدينة لإقامة المجتمع المسلم فيها، وكل هذه خطوات عملية لإيجاد البيئة الصالحة لإقامة مجتمع مُسلم، فلما عادوا وتيقن من صدقهم وثباتهم أخذ عليهم البيعة الكبرى، ثم أذن لأصحابه بالهجرة ثم تبعهم إلى المدينة، وهناك وجد رسول الله ﷺ ثمار تخطيطه وعمله الجاد، فمجتمع المدينة بالكيفية التي وجدها الرسول ﷺ بعد الهجرة لم يتأت بين عشية أو ضحاها، ولم يتأت بالدعاء دون العمل، ولم يتأت بطريقة خالية من التأسي والاقتداء، وإنما هو ثمرة جهد مرير قد بُذل، وتضحية قد قُدّمت ومنهج مُحدد سار عليه الجميع، وضوابط واضحة تُسيّر عجلة المجتمع .

** أبرز مراجع هذا الفصل ((تفسير الطبري - البداية والنهاية - تاريخ الإسلام - دروسٌ وعبرٌ منَ الهجرةِ النّبويّةِ - موسوعة البحوث والمقالات العلمية - إمتاع الأسماع - السيرة النبوية دروس وعبر - إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد))

انتهى بحمد الله وتوفيقه الجزء الأول، ويليه الجزء الثاني، وأوله تنظيم أمور المدينة ومراحل بناء الدولة المسلمة.

وأخيرا، من كان له رأي أو تعليق أو فائدة فلا يحرمني نصيحته، وغفر الله لمن تجاوز عن الزلات والهنات والتمس لي العذر في النقص والتقصير، فلا أدّعي سلامة عملي هذا من السقط والخطأ.

وإن تجد عيبا فسدّ الخللا جلّ الذي لا عيبَ فيه وعلا .

menhag_hayat@yahoo.fr

المراجع

(١) أخبار مكة، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس المكي الفاكهي، تحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، الناشر: النهضة الحديثة - مكة ١٤٠٧ هـ

(٢) أروع القيم الحضارية في سيرة خير البرية - تحقيق علمي حول الشبهات المثارة حول زواج النبي ﷺ وجهاده وشمائله تأليف، انجوغو امبكي صمب، مطبعة دار الكتاب بمبل دكار – السنغال ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م

(٣) أسباب النزول، المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، الناشر: مؤسسة الحلبي

(٤) أسد الغابة، المؤلف: الفقيه المؤرخ علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير، الناشر: دار الفكر

(٥) الإسراء والمعراج، مقدمات.. أحداث.. نتائج، المؤلف: د/ صلاح سلطان، نسخة الكترونية من موقع المؤلف

(٦) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد البر، الناشر: نهضة مصر

(٧) الإصابة في تمييز الصحابة، المؤلف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، تحقيق: علي محمد البجاوي الناشر: دار الجيل – بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ

(٨) الإعلام في القرآن الكريم، المؤلف: د/ محمد عبد القادر حاتم، الناشر: مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٣

(٩) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، المؤلف / أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي، تحقيق: د محمد كمال الدين عز الدين علي، الناشر: عالم الكتب - بيروت - ١٤١٧هـ، الطبعة : الأولى.

(١٠) الأنوار في شمائل النبي المختار ﷺ، المؤلف: الحسين بن مسعود البغوي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه العلامة الشيخ إبراهيم اليعقوبي، الناشر: دار الضياء للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م

(١١) البصيرة في الدعوة إلى الله، المؤلف : عزيز بن فرحان العنزي ، الناشر : دار الإمام مالك - أبو ظبي، الطبعة: الأولى، تاريخ النشر ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

(١٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، المؤلف: أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، تحقيق: د. محمود الطحان، الناشر: مكتبة المعارف - الرياض، ١٤٠٣

(١٣) البلد الحرام فضائل وأحكام، إعداد كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، الطبعة الأولى١٤٢٤هـ

(١٤) التدرج في دعوة النبي ﷺ ، المؤلف : إبراهيم بن عبد الله المطلق، الناشر : وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية - مركز البحوث والدراسات الإسلامية، الطبعة : الأولى، تاريخ النشر : ١٤١٧هـ

(١٥) الجوانب الإعلامية في خطب الرسول ﷺ، المؤلف: سعيد بن علي ثابت، الناشر : وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، الطبعة : الأولى، تاريخ النشر : ١٤١٧هـ

(١٦) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الناشر: دار إحياء التراث العربي بيروت - لبنان ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

(١٧) الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى، المؤلف : سعيد بن علي بن وهف القحطاني، الناشر : وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، الطبعة : الأولى، تاريخ النشر : ١٤٢٣هـ

(١٨) الخصائص الكبرى، المؤلف: أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

(١٩) الدعوة إلى الله وأخلاق الدعاة، المؤلف : عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، مصدر الكتاب : موقع الإسلام

(٢٠) الرحيق المختوم، المؤلف: صفي الرحمن المباركفوري، الطبعة السابعة عشر ، الناشر: دار الوفاء

(٢١) الرسالة المحمدية، المؤلف: العلامة السيد: سليمان الندوي، وهي ثماني محاضرات ألقاها في جامعة مدارس الهند، المصدر: نُسخة الكترونية من مُلتقى أهل الحديث

(٢٢) الروض الأنف، المؤلف: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي(٥٠٨-٥٨١هـ) دار الفكر

(٢٣) السلسلة الصحيحة، المؤلف : محمد ناصر الدين الألباني (١٣٣٢هـ ١٩١٤م، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م)، الناشر : مكتبة المعارف – الرياض

(٢٤) السلسلة الضعيفة، المؤلف : محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف – الرياض

(٢٥) السنن الكبرى، المؤلف: الحافظ الجليل أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (٤٥٨هـ) دار الفكر

(٢٦) السيرة النبوية الصحيحة،المؤلف: د. أكرم ضياء العمري، الناشر: مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م

(٢٧) السيرة النبوية، المؤلف: عبد الملك بن هشام، تحقيق: سامي أنور جاهين، الناشر: المكتب الثقافي للنشر والتوزيع

(٢٨) السيرة النبوية دروس وعبر، مجموعة أبحاث في السيرة النبوية، جمع وإعداد، الباحث في القرآن والسنة : علي بن نايف الشحود

(٢٩) السيرة النبوية دروس وعبر، المؤلف: د/ مصطفى السباعي، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة التاسعة، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٣٠) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، المؤلف: علي محمد محمد الصلابي، مصدر الكتاب : موقع المؤلف على الإنترنت

(٣١) السيرة النبوية مواقف وعبر، المؤلف: د/ عبد العزيز بن عبد الله الحميدي، الناشر: دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع ٢٠٠٥م ، الإسكندرية

(٣٢) السيرة النبوية من خلال أهم كتب التفسير، المؤلف : عصام بن عبد المحسن الحميدان، الناشر : مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، مصدر الكتاب : موقع مكتبة المدينة الرقمية

(٣٣) السيرة النبوية عند الهيثمي في كتابه مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، المؤلف : سليمان بن عبد الله السويكت، الناشر : مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، مصدر الكتاب : موقع مكتبة المدينة الرقمية

(٣٤) السيرة النبوية في دائرة المعارف البريطانية، المؤلف : وليد بن بليهش العمرى، الناشر : مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، مصدر الكتاب : موقع مكتبة المدينة الرقمية

(٣٥) السيرة النبوية، المؤلف: الإمام أبو الفداء إسماعيل بن كثير (٧٠١ - ٧٤٧ هـ) الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، تحقيق: مصطفى عبد الواحد

(٣٦) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، المؤلف: أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض، تحقيق طه عبد الرءوف سعد، الناشر: مكتبة الصفا الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

(٣٧) الطبقات الكبرى، المؤلف: محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري، الناشر : دار صادر – بيروت

(٣٨) القول المبين في سيرة سيد المرسلين، المؤلف: محمد الطيب النجار، الناشر : دار الندوة الجديدة بيروت – لبنان

(٣٩) الكتابة العربية المعاصرة في السيرة النبوية، قضايا وملاحظات، المؤلف: أحمد بن محمد فكير- كلية الآداب- أكادير

(٤٠) المجتمع المدني في عهد النبوة، المؤلف: د/ أكرم العمري، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م

(٤١) المجموع شرح المهذب، المؤلف: الإمام أبو زكريا محي الدين بن شرف النووي، الجزء الأول ، الناشر : دار الفكر

(٤٢) المستدرك على الصحيحين، المؤلف: الحافظ محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا، مع الكتاب : تعليقات الذهبي في التلخيص، الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ، ١٤١١ هـ – ١٩٩٠م

(٤٣) المصنف في الأحاديث والآثار [مصنف ابن أبي شيبة]، المؤلف : أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي تحقيق : كمال يوسف الحوت، الناشر : مكتبة الرشد – الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ

(٤٤) المطالب العالية، المؤلف: الحافظ ابن حجر العسقلاني، مصدر الكتاب : موقع جامع الحديث

(٤٥) المعلم الأول ﷺ، المؤلف : فؤاد بن عبد العزيز الشلهوب، مصدر الكتاب : موقع الإسلام

(٤٦) المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، المؤلف : عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي أبو محمد، الناشر : دار الفكر – بيروت الطبعة الأولى ، ١٤٠٥

(٤٧) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، المؤلف : العلامة الفقيه أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الطبعة الثانية ، ١٣٩٢

(٤٨) الوجه الحقيقي لليهود، المؤلف: عبد العزيز الشناوي، الناشر: مكتبة الإيمان

(٤٩) إمتاع الأسماع، المؤلف: تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، الناشر: دار الأنصار بالقاهرة، الطبعة الأولى١٤٠١هـ

(٥٠) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، المؤلف : جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، الناشر : مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الخامسة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م

(٥١) بحوث مؤتمر السنة النبوية في الدراسات المعاصرة " جامعة اليرموك ، إربد ، الأردن ١٨-٤-٢٠٠٧

(٥٢) تاريخ ابن خلدون،المؤلف: العلامة عبد الرحمن ابن خلدون المغربي، الناشر: دار إحياء التراث العربي بيروت – لبنان، الطبعة الرابعة

(٥٣) تاريخ الأدب الجاهلي، المؤلف: د/ شوقي ضيف، الناشر: دار المعارف

(٥٤) تاريخ دمشق،المؤلف: الإمام الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن المعروف بابن عساكر ٤٩٩ ـ هـ ـ ٥٧١ هـ ، دراسة وتحقيق : علي شيري ، الناشر : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٩ ـ هـ ـ ١٩٩٨ م

(٥٥) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تأليف: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، الناشر: دار الكتاب العربي ـ لبنان بيروت ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م الطبعة الأولى

(٥٦) تاريخ الأمم والملوك، المؤلف: محمد بن جرير الطبري أبو جعفر، الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ

(٥٧) تاريخ الخلفاء، المؤلف : عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد، الناشر : مطبعة السعادة – مصر، الطبعة الأولى ، ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م

(٥٨) تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام، المؤلف: محمد بهاء الدين بن الضياء المكي الحنفي القرشي

(٥٩) تصحيح أخطاء الموسوعة الإسلامية الصادرة عن دار بريل في لايدن بهولاندا، المؤلف: د. أحمد ابو زيد

(٦٠) تفسير القرآن العظيم، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (٧٠٠ ـ ٧٧٤هـ) تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م

(٦١) تهذيب سيرة ابن هشام، المؤلف: عبد السلام هارون، الطبعة الرابعة والعشرون، ٢٠٠٢م

(٦٢) تفسير اللباب في علوم الكتاب، المؤلف : أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى : ٧٧٥هـ) مصدر الكتاب : موقع التفاسير

(٦٣) تَهذِيبُ سُنَن أبي دَاودَ وَإيضاح مُشكِلاتِهِ، المؤلف : محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد ابن قيّم الجوزية

(٦٤) جامع البيان في تأويل القرآن [تفسير الطبري] المؤلف: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ ، ٨٣٩ ـ ٩٢٣م) تحقيق: العلامة أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م

(٦٥) جامع العلوم والحكم، المؤلف : أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، الناشر : دار المعرفة ـ بيروت الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ

(٦٦) جوامع السيرة، المؤلف: علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، الأندلسي، الظاهري، الناشر : دار المعارف – مصر

(٦٧) حقيقة الانتصار، المؤلف: أ. د .ناصر بن سليمان العمر

(٦٨) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، الناشر : دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٥هـ

(٦٩) دروسٌ وعبرٌ منَ الهجرةِ النَّبويَّةِ، مجموعة أبحاث متفرقة عن الهجرة النبوية، جمعها وأعدها للنشر:الباحث في القرآن والسنة "علي بن نايف الشحود

(٧٠) دلائل النبوة للبيهقي، المؤلف أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن عبد الله بن موسى البيهقي(٣٨٤-٤٥٨هـ)

(٧١) دفاع عن الحديث النبوي والسيرة، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني

(٧٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، المؤلف : محمد علي بن محمد بن علان بن إبراهيم البكري الصديقي الشافعي (المتوفى : ١٠٥٧هـ)

(٧٣) ذخائر العقبى في مناقب ذوى القربى، المؤلف: الحافظ محب الدين أحمد بن عبد الله الطبري، الناشر: مكتبة القدسي القاهرة ١٣٥٦هـ
(٧٤) رسالة التوحيد، المؤلف: الإمام محمد عبده، الناشر: مكتبة الأسرة٢٠٠٥م
(٧٥) رسول الإسلام محمد ﷺ، جمع وترتيب : إسلام محمود دربالة، الناشر دار الآفاق للبحث العلمي والنشر والترجمة
(٧٦) روح الإسلام، المؤلف: محمد عطية الابراشي، الناشر: مكتبة الأسرة ٢٠٠٣م
(٧٧) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المؤلف: شهاب الدين محمود بن عبدالله الحسيني الألوسي (١٢١٧-١٢٧٠هـ)مصدر الكتاب: موقع التفاسير
(٧٨) روضة المحدثين، وهو يشبه أن يكون تفريغا لأحكام الحافظ ابن حجر على الأحاديث في بعض كتبه، مصدر الكتاب : برنامج منظومة التحقيقات الحديثية، من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة بالإسكندرية
(٧٩) زاد المعاد في هدي خير العباد، المؤلف : محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ابن القيم الجوزية، تحقيق : شعيب الأرناؤوط - عبد القادر الأرناؤوط ، الناشر : مؤسسة الرسالة - مكتبة المنار الإسلامية - بيروت – الكويت، الطبعة الرابعة عشر ، ١٤٠٧ – ١٩٨٦
(٨٠) سير أعلام النبلاء، المؤلف: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، الناشر : مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا الطبعة التاسعة ١٤١٣هـ ١٩٩٣
(٨١) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، المؤلف: الإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي (المتوفي سنة ٩٤٢ هـ ، تحقيق وتعليق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م
(٨٢) سيرة النبي ﷺ، المؤلف : تقي الدين بن بدر الدين الندوي، الناشر : مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، مصدر الكتاب : موقع مكتبة المدينة الرقمية
(٨٣) سيرة رسول الإسلام ﷺ في التفسير التاريخي لآيات القرآن الكريم، المؤلف: د /إبراهيم أحمد العدوي، الناشر: مكتبة الشباب
(٨٤) شخصية الرسول ﷺ وأثره، د / مصطفى السباعي
(٨٥) شرح ابن بطال لصحيح البخاري، المؤلف: عمرو بن زكريا بن بطال البرهاني أبو الحكم الإشبيلي
(٨٦) شرح بلوغ المرام، المؤلف : عطية بن محمد سالم، دروس صوتية مفرغة
(٨٧) شعب الإيمان، المؤلف : الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق : محمد السعيد بسيوني زغلول ، الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ
(٨٨) صحيح ابن حبان ، المؤلف : محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق : شعيب الأرنؤوط، الناشر : مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الثانية ، ١٤١٤ – ١٩٩٣
(٨٩) صحيح ابن خزيمة، المؤلف : محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري، تحقيق : د. محمد مصطفى الأعظمي، الأحاديث مذيلة بأحكام الأعظمي والألباني عليها ، الناشر : المكتب الإسلامي - بيروت ، ١٣٩٠ – ١٩٧٠م
(٩٠) صحيح الترغيب والترهيب، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف – الرياض

(٩١) صفة الصفوة، المؤلف : عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج ابن الجوزي، الناشر : دار المعرفة – بيروت، الطبعة الثانية ، ١٣٩٩ – ١٩٧٩

(٩٢) صحيح السيرة النبوية، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الأولى، الناشر: المكتبة الإسلامية عمان – الأردن

(٩٣) ضعيف الترغيب والترهيب، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف – الرياض

(٩٤) عبقرية محمد، المؤلف: عباس محمود العقاد، الطبعة السابعة، الناشر : نهضة مصر

(٩٥) عبقرية عمر، المؤلف: عباس محمود العقاد، الناشر: مكتبة الأسرة

(٩٦) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، المؤلف : بدر الدين العيني الحنفي، مصدر الكتاب : ملتقى أهل الحديث

(٩٧) عظمة الرسول ﷺ، المؤلف: محمد عطية الأبراشي، مكتبة الأسرة٢٠٠٢م

(٩٨) عوامل النصر والتمكين في دعوات المرسلين، المؤلف: أحمد بن حمدان بن محمد الشهري

(٩٩) غزوات الرسول ﷺ ، المؤلف: الشيخ محمد متولي الشعراوي، دراسة وإعداد وتحقيق: مركز التراث لخدمة الكتاب والسنة، الناشر: مكتبة التراث الإسلامي

(١٠٠) فضائل الصحابة، المؤلف: أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، تحقيق : د. وصي الله محمد عباس ، الناشر : مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣م

(١٠١) فقه السيرة، المؤلف : محمد الغزالي، تحقيق : العلامة المحدث محمد ناصر الدين الألباني الناشر : دار القلم – دمشق، الطبعة : السابعة – ١٩٩٨م

(١٠٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، المؤلف : أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، الناشر : دار المعرفة - بيروت ١٣٧٩هـ

(١٠٣) غريب الحديث، المؤلف : حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي أبو سليمان، الناشر : جامعة أم القرى - مكة المكرمة ، ١٤٠٢، تحقيق : عبد الكريم إبراهيم العزباوي

(١٠٤) غريب الحديث، المؤلف : عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري أبو محمد، الناشر : مطبعة العاني – بغداد، الطبعة الأولى ، ١٣٩٧، تحقيق : د. عبد الله الجبوري

(١٠٥) في ظلال القرآن، المؤلف : سيد قطب، مصدر الكتاب : موقع التفاسير

(١٠٦) فى رحاب البيت العتيق، المؤلف: د/ محيى الدين أحمد إمام، الناشر:دار قرطبة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة

(١٠٧) قبسَاتٌ مِنَ الرسول ﷺ، المؤلف: محمد قطب، الطبعة الخامسة ١٣٩٨هـ

(١٠٨) كشف المشكل من حديث الصحيحين، المؤلف / أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، تحقيق: علي حسين البواب، الناشر : دار الوطن - الرياض - ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

(١٠٩) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، المؤلف : علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي البرهان فوري (المتوفى : ٩٧٥هـ)، المحقق : بكري حياني - صفوة السقا، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة ١٤٠١هـ/١٩٨١م

(١١٠) لباب التأويل في معاني التنزيل (تفسير الخازن) المؤلف : الخازن ، أبو الحسن علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي، مصدر الكتاب : موقع التفاسير

(١١١) لباب النقول في أسباب النزول، المؤلف: الشيخ الإمام أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبو بكر السيوطي الشافعي(٩١١ هـ) ضبطه وصححه: الأستاذ أحمد عبد الشافي، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان
(١١٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، المؤلف : أبو الحسن علي الحسني الندوي، الطبعة الرابعة، مصدر الكتاب : موقع صيد الفوائد
(١١٣) مجلة البحوث الإسلامية - مجلة دورية تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد - معها ملحق بتراجم الأعلام والأمكنة، عدد الأجزاء : ٧٩ جزءا، مصدر الكتاب : موقع الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء
(١١٤) مجلة البيان، تصدر عن المنتدى الإسلامي(٢٣٨ عددا)
(١١٥) مجلة المنار، ٣٥ مجلدا، للشيخ محمد رشيد بن علي رضا (المتوفى : ١٣٥٤هـ) وغيره من كتاب المجلة
(١١٦) مجمع الأمثال، المؤلف : أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد، الناشر : دار المعرفة - بيروت
(١١٧) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، المؤلف : نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، الناشر: دار الفكر، بيروت ١٤١٢ هـ
(١١٨) مجموع الفتاوى، المؤلف : تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (المتوفى : ٧٢٨هـ) تحقيق: أنور الباز - عامر الجزار، الناشر : دار الوفاء، الطبعة : الثالثة ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م
(١١٩) محمد ﷺ كأنك تراه، المؤلف: د. عائض بن عبد الله القرني، الطبعة الأولى١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م، دار ابن حزم بيروت لبنان
(١٢٠) محمد رسول الله ﷺ ، المؤلف: اتيين دينية، ترجمة : د/ عبد الحليم محمود ، الناشر: مكتبة الإيمان
(١٢١) مختصر تاريخ دمشق، المؤلف : ابن منظور، مصدر الكتاب : موقع الوراق
(١٢٢) مختصر سيرة الرسول ﷺ ، المؤلف: الشيخ محمد بن عبد الوهاب التميمي، طبع ونشر رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء بالسعودية، الطبعة الثانية١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م
(١٢٣) مختصر الشمائل المحمدية، المؤلف : أبو عيسى محمد بن سورة الترمذي صاحب السنن، الناشر : المكتبة الإسلامية - عمان – الأردن، تحقيق : اختصره وحققه محمد ناصر الدين الألباني
(١٢٤) مدخل إلى دراسة الأدب الجاهلي، المؤلف: د/ عبد الحميد إبراهيم شيحة، الناشر: مكتبة النصر
(١٢٥) مُذكرة التوحيد والفرق، المؤلف:حسن السيد متولي، المكتبة الأزهرية للتراث،١٩٩٥م
(١٢٦) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، المؤلف: الملا على القاري، المصدر : موقع المشكاة الإسلامية
(١٢٧) مصادر السيرة النبوية، المؤلف: ضيف الله بن يحي الزهراني، الناشر : مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، مصدر الكتاب : موقع مكتبة المدينة الرقمية
(١٢٨) مصادر تلقي السيرة النبوية، المؤلف: الدكتور محمد أنور بن محمد علي البكري، الناشر : مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، مصدر الكتاب : موقع مكتبة المدينة الرقمية

(١٢٩) مغازي الواقدي، المؤلف : أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي (المتوفى : ٢٠٧هـ) مصدر الكتاب : موقع الإسلام

(١٣٠) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، المؤلف : أحمد إبراهيم الشريف، الناشر : دار الفكر العربي، مصدر الكتاب : موقع مكتبة المدينة الرقمية

(١٣١) منهاج السنة النبوية، المؤلف : شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، المحقق : د/ محمد رشاد سالم، الناشر : مؤسسة قرطبة ، الطبعة الأولى

(١٣٢) منهجية التأليف في السيرة النبوية، المؤلف: عبد الرحمن بن علي السنيدي، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، مصدر الكتاب: موقع مكتبة المدينة الرقمية

(١٣٣) مؤلفات الشيخ: محمد ناصر الدين الألباني، برنامج منظومة التحقيقات الحديثية، من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة بالإسكندرية

(١٣٤) موسوعة الحديث الشريف الصادرة عن وزارة الأوقاف بجمهورية مصر العربية، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية وتحتوى على (صحيح البخاري - صحيح مسلم - سنن أبي داوود - سنن الترمذي - سنن النسائي - سنن ابن ماجة - موطأ مالك - مسند الإمام أحمد - سنن الدارمي - سنن الدارقطني - سنن الحميدي - سنن البيهقي)

(١٣٥) موسوعة البحوث والمقالات العلمية، جمع وترتيب: الباحث في القرآن والسنة الشيخ:علي بن نايف الشحود (نسخة اليكترونية)

(١٣٦) موسوعة الخطب والدروس، جمع وترتيب: الباحث في القرآن والسنة الشيخ:علي بن نايف الشحود(نسخة الكترونية)

(١٣٧) موسوعة الدين النصيحة، قام بجمعها وترتيبها الباحث في القرآن والسنة علي بن نايف الشحود (نسخة الكترونية)

(١٣٨) موسوعة الكتاب المقدس (نسخة إليكترونية اشتملت على الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد)

(١٣٩) نبي الرحمة، الرسالة والإنسان، تأليف:محمد مسعد ياقوت، الطبعة الأولى ٢٠٠٧ ، القاهرة ، الزهراء للإعلام العربي

(١٤٠) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، المؤلف: محمد بن عفيفي الخضري، المحقق: هيثم هلال، الناشر: دار المعرفة بيروت- لبنان، الطبعة: الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م

(١٤١) هذا الحبيب محمد يا مُحب، المؤلف: الشيخ أبو بكر جابر الجزائري، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م

فهرس